

الوثنية والإسلام

نارنج الدوبرا طورية الزنجية في عزرب إفريقيا

المجلس
الأعلى
للثقافة



المشروع القومي للترجمة



أ. م. د. هويا نيكار

ترجمه وعلق عليه وحققه على مراجعه العربية

أحمد فؤاد وبلبع

طبعة
ثانية
منقحة

30

THE SERPENT AND THE CRESCENT

K. MADHU PANIKAR

مؤلف هذا الكتاب المؤرخ والسياسى ورجل الدولة الهندى مادهو پانيكار ،
وعضو لجنة التاريخ فى اليونسكو ، وصاحب عملين بارزين أولهما عن آسيا ،
وعنوانه آسيا والسيطرة الغربية ، وثانيهما الوثنية والإسلام الذى يتكون من
جزأين ، يشتمل الأول منهما على مقدمة فى الحضارة التى اندثرت فى
الصحراء الكبرى ، وفيما قد يكون لهذه الحضارة من علاقة بالحضارات القديمة :
مصرية أو رومانية أو فينيقية ، وربما هندية أيضا ، كما يتناول تاريخ الدول
الإسلامية التى قامت فى غرب إفريقيا : غانة ومالى والسنغى ، ثم الغزو
المراكشى لهذه الأخيرة الذى كان إيذانا بانهايار نظام الدولة فى هذه المنطقة ،
وكذلك دولة البرنو - كانم وممالك الهوسا ودول الساحل الغربى . ويعرض
للكشوف الجغرافية الأوروبية التى صاحبها مجئ الأوروبيين وإقامتهم للحصون
على الساحل وانغماسهم الشرير فى تجارة الرقيق . ويطغى على الكتاب من
بدايته وحتى نهايته تحليل مفجع لتجارة الرقيق ولدور كل طرف من أطرافها :
الحكام الإفريقيين والتجار العرب والدول الاستعمارية . ويختتم هذا الجزء
بمرحلة ازدهار الإسلام بالمنطقة فى القرن التاسع عشر على أيدى دعاة ومجاهدين
من أمثال محمد الكانمى وعثمان دان فوديو والحاج عمر ، وعلى أيدى الحركات
الصوفية ، وفى مقدمتها السنوسية والتيجانية وغيرها . أما الجزء الثانى من
الكتاب فينفرد بأربع دراسات متميزة فى اقتصاد المنطقة ونظامها الإدارى ،
والمجتمع والحضارة والإسلام فيها . كما يؤكد على ما كان للتجار فى البشر
من آثار مدمرة على اقتصاد المنطقة ، فقد كان الحكام يعتبرونه مصدر دخلهم
الرئيسى ، وانصرفوا بذلك عن تنمية أى نشاط زراعى أو صناعى .

المشروع القومي للترجمة

الوثائق والإصلاح

تاريخ الإمبراطوريات الزنجية
في غرب إفريقية
طبعة ثانية منقحة

تأليف : ك. م. ماد هو يانيكار

ترجمه وعلق عليه
وحققه على مصادره العربية

أحمد فؤاد بليغ

المتن ترجمة لكتاب :

THE SERPENT AND THE CRESCENT

A History of the Negro Empires of Western Africa

K. MADHU PANIKAR

Asia Publishing House

Bombay . Calcutta . New Delhi . Madras

London . New Yourk

الجزء الأول

تصدير الطبعة الثانية

مؤلف متن هذا الكتاب المؤرخ والسياسى ورجل الدولة الهندى سردار كاثلام مادهاقا پانيكار (١٨٩٥ - ١٩٦٣) . ولد بولاية ملبار (كيرالا حالياً) بالهند . وتلقى تعليمه فى الكلية المسيحية بولاية مدراس الهندية ، ثم فى كلية « كريست تشرش » فى أكسفورد بانجلترا ، حيث التحق بقسم التاريخ الحديث . كما تعلم القانون بقصد مزاولة المحاماة ، وقام بالتدريس فى جامعتى أليجار وكلكتا بالهند ، ثم تحول إلى الاشتغال بالصحافة رئيساً لتحرير جريدة هندوستان تيمس فى عام ١٩٢٩ .

دخل مجال الحياة السياسية فى خدمة أمراء الهند ، وأصبح سكرتيراً لرئيس الأمراء ، وشغل أيضاً منصب وزير خارجية ولاية باتيالا ، ثم وزير خارجية ولاية بيكانر ، فمُنصب رئيس وزرائها (١٩٤٤ - ١٩٤٧) . وبعد استقلال الهند عيّن سفيراً لبلاده فى الصين (١٩٤٨ - ١٩٥٢) ، ثم سفيراً لها فى مصر (١٩٥٢ - ١٩٥٣) ، وسفيراً لها فى فرنسا (١٩٥٦ - ١٩٥٩) . كما عيّن بلجنة إعادة تنظيم الولايات الهندية . وفى الأعوام الأخيرة من حياته عاد إلى الحياة الجامعية ، وكان آخر منصب له عند وفاته فى ١٠ ديسمبر ١٩٦٣ هو نائب رئيس جامعة ميزور .

ويعتبر پانيكار أحد الباحثين الثقة فى علاقات أوروبا بآسيا وإفريقية فى مرحلة الاستعمار والتوسع الاستعماري منذ بداية الكشوف الجغرافية . ومن أشهر كتبه فى هذا المجال Asia and Western Dominance الذى صدرت له ترجمة عربية فى القاهرة فى عام ١٩٦٢ تحت عنوان : آسيا والسيطرة الغربية ، وهو كتاب بالغ الأهمية ، ويتبين منه إلمامه ، إلى جانب اللغتين الإنجليزية والفرنسية ، باللغة البرتغالية التى يبدو أنه درسها لتيسر له الاطلاع على وثائق المستكشفين البرتغاليين الذين كان لهم دور رائد فى حركة استكشاف آسيا وإفريقية .

ولپانيكار أيضاً دراسات وكتب متنوعة فى الأدب والمسرح والتاريخ والسياسة ، وبخاصة فى تاريخ القومية والولايات الهندية ، وأثر البرتغاليين والهولنديين فى ولاية ملبار . وقد أصدر فى عام ١٩٥٥ كتابه الشهير In Two Chinas الذى عبّر فيه عن تعاطفه مع الصين التى يقول عنها إنه أمضى فيها أحلى سنى حياته الدبلوماسية . كما كان پانيكار أحد المعدّين الثلاثة للمجلد السادس والأخير « القرن العشرين » من موسوعة تاريخ البشرية التى أصدرتها منظمة اليونسكو .

أما كتابه The Serpent and the Crescent ، الذى أضع بين يدى القراء ترجمة عربية لنصه ، إلى جانب تعليقاتى عليه وتحقيقاتى له على جميع مصادره العربية ، فقد صدر عن دار النشر الهندية " Asia Publishing House " ، فى عام ١٩٦٢ ، أى فى العام الذى توفى فيه ، ويبدو أنه آخر أعماله .

وقد استند پانيكار فى إعداد هذا الكتاب إلى بعض المصادر الأجنبية ، إنجليزية وفرنسية ، ولكن مصادره الأساسية فى أغلب أجزاء الكتاب مصادر عربية وإسلامية قديمة ، وهو بطبيعة الحال قد نقل عن الترجمات الأجنبية لهذه المصادر ، سواء أكانت إنجليزية أم فرنسية ، وهى ترجمات مستكملة ومتوفرة فى الخارج فى جميع المكتبات ومراكز البحث العلمى الهامة ، ومن اليسير الرجوع إليها . ولم يكن مقبولاً بأية حال لدى ترجمة عمل بهذه الخصوصية والأهمية أن يُكتفى فيه بمجرد النقل المباشر المتعجل إلى العربية ، فالمؤلف أورد آلافاً من أسماء الأشخاص والأماكن والأحداث ، ومئات من الفقرات الكاملة ، وهذه أخذها جميعاً من ترجمات أجنبية لمراجع عربية قديمة . ولذلك فإن ردها إلى العربية بالترجمة المباشرة يعد تشويهاً للكتاب ، وانتقاصاً خطيراً من قيمته ، وإخلالاً بطلاوة النصوص القديمة ودقتها .

لذلك كان لزاماً أن يكتب كل اسم لعلم أو مكان أو حدث كما ورد فى مصدره الأصلى ، وأن تنقل كل فقرة مصدرها عربى من منطوقها الأصلى . ولما كان الكتاب قد خلا تماماً من الحواشى وقوائم المصادر والمراجع ، فإنه يكون غنياً عن البيان أن جميع الحواشى بذيل صفحات الكتاب ، التى تزيد

على ألف حاشية ، هي جهد شخصي قمت به ومسؤولية شخصية أتحمّل تبعاتها . والحقيقة أنه كان جهداً مضمناً للغاية استغرق سنوات ، واقتضى الرجوع إلى عشرات المراجع التاريخية والجغرافية العربية القديمة والتنقيب فيها ، بل وقراءة بعضها بالكامل ، توصلاً إلى اسم أو فقرة ، أو توثيقاً لحادثة .

وكانت النية متجهة في الأصل إلى أن يكون العنوان الرئيسى للكتاب ترجمة حرفية لصيغته بالإنجليزية ، أى **الثعبان والهلل** . ولكن عنواناً عربياً بهذه الصيغة قد يجعل من المتعذر على القارئ العربى للوهلة الأولى فهم مقصد الكتاب ؛ لذلك أثرت استخدام عنوان أكثر دلالة على مقصده هو **الوثنية والإسلام** ، حتى وإن كان العنوان الفرعى للكتاب (**تاريخ الإمبراطوريات الزنجية في غرب إفريقية**) يفى ببعض الغرض .

ومن أجل مزيد من الإيضاح لما قصد إليه المؤلف من العنوان الرئيسى (**الثعبان والهلل**) أشير إلى أن « **الثعبان** » يكاد أن يكون قاسماً مشتركاً فى غالبية الديانات الوثنية الإفريقية . فالإفريقيون تنتشر بينهم فكرة أن أرواح الأسلاف تسكن الحيوان : من ذلك الزولو الذين يقولون بأن أرواح الأسلاف تسكن الأفاعى ، ولذا فهم لا يقتلونهم ؛ والماساى يرون رأى نفسه ، ولكنهم يحددون أفعى معينة لكل قبيلة ؛ وعند البارى ثعبان أخضر خالٍ من السم تتمثل فيه روح النجون الأرضى وأرواح السلف .

وفى بلاد الهوسا عندما وصل الرحالة المجهد باياچيدا إلى إحدى القرى كان يريد جرعة ماء ، فقليل له إنه لا أمل فى الحصول على الماء لأن الثعبان الذى يحرس البئر لا يسمح باستخراج الماء إلا مرتين فى الأسبوع ، عندئذ طلب باياچيدا دلواً ، وجذب الثعبان بعيداً وقتله . كذلك تنتشر بين قبائل إفريقية كثيرة فكرة الثعبان الضخم الذى يقوم على حراسة آبار المياه .

وأحب فى هذه العجالة أن أبرز فكرة أولها يانيكار جُلَّ اهتمامه وتناولها فى كتابه فى أكثر من وضع ومناسبة ، وتتمثل هذه الفكرة فى

العقبتين الرئيسيتين اللتين كانتا ، فى رأيه ، تقفان حجر عثره تحول دون أن يحقق الإسلام مزيداً من الانتشار فى إفريقيا ، وهما تجارة الرقيق واستخراج الذهب .

ذلك أن صيد البشر والاتجار فيهم كانا عماد الاقتصاد فى الدول السودانية والإفريقية ، ومن بينها الدول الإسلامية التى قامت فى غرب إفريقيا ، وكانا يحققان لهذه الدول أرباحاً تبلغ من الضخامة حدّاً صرف أنظار حكامها عن تشجيع أى نشاط زراعى أو صناعى ، فقد كان الرقيق عصب صادراتها والسلعة الغالبة فيها ، ومن أثمان بيعهم كانت تسدد أثمان الجانب الأكبر من وارداتها ، وبخاصة الأسلحة اللازمة للحروب ، بل إن الجزية كانت تدفع بالرقيق أكثر مما تدفع بالذهب ، كما أصبحوا العملة الشائعة فى هذه الدول . فضلاً عن أن الرقيق كانوا سلعة يسهل الحصول عليها . وفى داخل هذه الدول كانت توجد سوق كبيرة للرقيق بوصفهم من ضرورات الحياة ، فهم فى الأعمال الشاقة كانوا يستخدمون بديلاً عن حيوانات الجر والحمل والنقل التى كانت نادرة الوجود . وقد عرفت بلاد السودان منذ أقدم العصور بأنها سوق للرقيق ، وكان الطريق من تشاد إلى طرابلس ماراً بكوار وفزان هو طريق الرقيق . ويقول پانيكار إن هذا الطريق الملطخ بالدماء لابد أن يذكر المرء بما أحدثته تجارة الرقيق من تأثير مدمر على حياة السودان الاقتصادية .

وهكذا فإن الدول الإسلامية فى غرب إفريقيا بتجاريتها وجهازها الإدارى وأساليبها الإنتاجية القائمة على تجارة الرقيق ، « رذيلة السودان الكبرى » ، لم تكن تعمل بولاً مغتصبة أساسها اقتناص البشر والاتجار بهم ، ممازج بها فى نزاع مع الإسلام ، إذ لم يكن من صالح الدول الإسلامية على وجه الخصوص انتشار الإسلام فى المناطق الوثينة التابعة لها ، فالإسلام يحرم استرقاق المسلمين ، ولذلك فإنه من الناحية الجوهرية ظل الإسلام فى هذه الدول دين طبقات عليا ودين مدن . وفى البرنو ظل الأهالى

على وثنيتهم على الرغم من أن المايات (السلاطين) اعتنقوا الإسلام بداية من حكم الماي نونمه بن أوم (١٠٨٦ - ١٠٩٧) ، كذلك ظل الهوسا على وثنيتهم برغم أن الملوك وأبناء الطبقات العليا اعتنقوا الإسلام عند حلول القرن الثاني عشر .

وهذه المعضلة لم تحل إلا في القرن التاسع عشر عندما تمزقت تجارة بلاد السودان مع شمال إفريقية ، وأدينت تجارة الرقيق عبر المحيط . عندئذ حاول الحكام المسلمون والمجاهدون في كل مكان إدخال الوثنيين في الإسلام . ويقول پانيكار إنه مالم تحتل هذه المشكلة مكانها الجدير بها في تفكيرنا فإن تاريخ الإسلام بأسره في إفريقية ، وعدم انتشار الإسلام بين بعض القبائل ، أو بين أقسام كبيرة من القبائل الأخرى ، سيظلان من الألغاز المحيرة .

والعائق الثاني أمام انتشار الإسلام في غرب إفريقية على نطاق واسع كان ، في رأى پانيكار ، هو استخراج الذهب . وقد قدم منساموسى سلطان مالى تفسيراً لعدم قيام سلاطين مالى بتبليغ الإسلام في المناطق الوثنية التابعة لهم ، برغم أن ذلك كان باستطاعتهم ، وهو أن خبرتهم قد علمتهم أنهم عندما يغزون منطقة للوثنيين ، ويرتفع فيها صوت الأذان ، ينخفض محصول الذهب ، على حين يزيد في المناطق الوثنية المجاورة لها . ولذلك استقر رأيهم على ترك هذه المناطق في أيدي الوثنيين ، والاحتفاظ بعلاقات طيبة معهم ، مقابل أن يحصلوا منهم على إتاوة سنوية مقررة من الذهب والرقيق .

والإشارات إلى ذلك كثيرة في كتب الجغرافيين والمؤرخين العرب القدامى ، وبخاصة في تحفة النظار لإبن بطوطة ، وفي صبح الأعشى للقلقشندي (نقلا عن التعريف بالمصحف الشريف « في الحديث عن غانة » ومسالك الأبصار لإبن فضل الله العمري ، انظر ، الحاشية ١ - ١٤ أدناه) . واكتفى هنا بما ورد في الصفحتين ٢٨٦ و ٢٨٧ بالجزء الخامس من صبح

الأعشى : « قال فى مسالك الأبصار : وفى شمالى بلاد مالى قبائل من البربر بيض تحت حكم سلطانها : وهم ... قال : وكذلك فى طاعته قوم من الكفار بعضهم يأكل لحم آدميين . ونقل عن الشيخ سعيد الدكالى : أن فى طاعة سلطانها بلاد مغارة الذهب ، وهم بلادهمج ، وعليهم إتاوة من التبر تحمل إليه كل سنة ، ولو شاء أخذهم ، ولكن ملوك هذه المملكة قد جربوا أنه مافتحت مدينة من هذه المدن وفشا فيها الإسلام ، ونطق بها داعى الأذان ، إلا قلّ بها وجود الذهب ، ثم يتلاشى حتى يعدم ، ويزداد فيما يليه من بلاد الكفار ، فرضوا منهم ببذل الطاعة ، وحمل قُرر عليهم . »

هذا ما حكاه منساموسى سلطان مالى وغيره من الحكام الإفريقيين المسلمين ، وماقاله الجغرافيون والرحالة والمؤرخون العرب نقلا عنهم وعن غيرهم . وقد قالوه انسياقاً وراء خرافة لا أساس لها واعتقاد وهمى خاطئ وضار رسخ فى أذهان الحكام المسلمين لبلاد السودان ، واعتبروه حقيقة واقعة . وپانيكار بدوره انساق وراءهم دون محاولة منه لكشف طبيعة مثل هذه المعتقدات ، ومدى ماألحقته ، ولاتزال ، بالشعوب المتخلفة التى يأسرها سحر الخرافة وتستعبد لها قوة العادة . وعلى أية حالة فإن ذلك هو ماكان يعتقد فيه هؤلاء الحكام ومايتقيدون به ، فامتنعوا عن غزو المناطق الوثنية الغنية بالذهب خشية ضياع هذه الثروة من أيديهم ، مؤثروين بقاء أهلها على وثنيتهم مقابل الإتاوة التى يحصلون عليها منهم ، واكتفاءً ببذل الطاعة .

ويلزم التنويه إلى أن كلمة السودان مستخدمة فى الكتاب ، متنه وحواشيه ، بأكثر من مدلول ، فهى تشير إلى أهل المنطقة ، وهم زنوج ذوو بشرة سوداء ، وذلك تمشياً مع تسميتهم فى كتب الجغرافيين والمؤرخين العرب القدامى ، وتمييزاً لهم عن البيضان ، أهل الشمال الإفريقى ذوى البشرة البيضاء ، كما تشير إلى الأرض التى يقيمون عليها (بلاد السودان) . هى تستخدم أيضاً كصفة ، فيقال مثلاً « العلماء السودان » . هذا وقد استخدمت كلمة الرقيق ، فى المتن والحواشى ، فى صيغتى المفرد والجمع ،

فيقال رقيق واحد وخمسة رقيق ، وذلك بدلا من كلمتي « عبد » و « عبيد » .

وأود أن أشير أيضا إلى أن پانيكار قد نقل في توسع واستفاضة عن كتابين غاية في الأهمية هما : تاريخ الفتاش لمحمود كعت وتاريخ السودان لعبد الرحمن السعدى ، وكان هذان الكتابان من أهم المصادر في دراسته ، ويخاصة في تناوله لتاريخ الدول الإسلامية في غرب إفريقيا - غانا ومالى والسنغى - ، وأوضاعها الاقتصادية وجهازها الإدارى وأحوال المجتمع فيها ، كما كانا عماده في سرد وقائع وأحداث الغزو المراكشى لدولة السنغى ، ولما كان مؤلفا هذين الكتابين من أبرز العلماء الزنوج الذين كتبوا تاريخ بلادهم بالعربية ، كان لزاما على أن أورد عنهما نبذتين وافيتين تحققان الغرض . وبرغم حرصى على الإيجاز فقد كانت هاتان النبذتان طويلتين بدرجة تعذر معها إيرادهما في ذيل المتن ، مثلما كانت الحال مع بقية المراجع التاريخية التى اتسع الذيل لنبد موجزة عنها ، ولذلك أفردت لهما حيزا مستقلا فى نهاية الكتاب .

وفيما يتعلق بقائمة أسماء المايات (حكام كانم - برىو) فقد جاءت هذه الأسماء فيها مبتورة ، كما جاءت تواريخ توليهم السلطة مختلفة عنها فى مصادر أخرى فى حدود بضع سنوات . ولذلك حاولت استكمال الأسماء وضبط التواريخ مستعينا بمصدرين آخرين ، كما هو موضح فى موضعه بنهاية الكتاب ، كما أضفت أسماء المايات الذين حكموا بعد ظهور أسرة الكانمى ، وتواريخ تولى هؤلاء المايات السلطة .

كذلك أضيف بنهاية الكتاب ثبت بالمراجع - وجانب كبير منها مراجع عربية قديمة ، وبعضها مراجع عربية وأجنبية حديثة - وهى المراجع التى اطلعت عليها وأخذت عنها معظم ماورد بحواشى الكتاب ، واستعنت بالعربية القديمة منها فى تحقيق المتن على جميع ما أخذه پانيكار منها .

تنويه أخير: هو أنه تحقيقاً للترابط بين موضوعات الكتاب ، وبخاصة فيما بين الحواشي ، وتيسيراً للإسناد فيما بينها ، فقد رمزت لكل حاشية بتسلسلها الرقمي في الفصل الذي تقع فيه ، ويرقم الفصل نفسه . فمثلاً الحاشية ١ - ٥٤ ترمز للحاشية رقم ٥٤ في الفصل الأول ؛ والحاشية ٧ - ٢٣ ترمز للحاشية رقم ٢٣ في الفصل السابع ، وهكذا .

أرجو أن أكون قد وفقت ،

أحمد فؤاد بليغ

أكتوبر ١٩٩٧

الفصل الأول

مقدمة أولا

إفريقية هي آخر الحدود ، والحدود الحقيقية هنا تنحصر في فراغ المعرفة ، والجهل المطبق يجعل منها القارة المظلمة ، وأنا أرى أن أقصر هذه الدراسة على ما كان العرب يسمونه بلاد السودان Bilad es Sudan ^(١) . والبلاد الأصلية ضاقت ، وما أتناوله هنا لا يعدو الأقطار التي كانت تعرف فيما سبق على أنها إفريقية الغربية الفرنسية وتشاد ونيجيريا وغانة . وهذه المنطقة يسيطر عليها نهر النيجر ^(٢) وروافده .

والنيجر أحد أنهار العالم الكبرى ، وهو ينبع من مرتفعات غينيا ، ويجرى قرابة ألف ميل نحو الشرق ثم يتحول نحو الجنوب الغربى ، وبعد بضع مئات أخرى من الأميال يصب في المحيط الأطلسى ، وفي هذه الرحلة الطويلة يتعرض لتغيرات كثيرة . فمن مجرى جبلى في المرتفعات يصبح قرب بَمَكو نهراً بطيئاً مهيباً عرضه قرابة الميل ، ولا تصب فيه أية روافد عند اتجاهه نحو الشرق على الرغم من أنه في الأزمنة السابقة ، عندما لم تكن الصحراء الكبرى

(١) جريا على عانتهم في تسمية الزنوج جنوبي الصحراء الكبرى بالسودان ، والبيض في الشمال بالبيضان .

(٢) ساد اعتقاد لدى المؤرخين والجغرافيين العرب بأن نهر السنغال هو نهر النيجر ، وقالوا عنه إنه يتجه من الشرق إلى الغرب . وقال بذلك ليو الإفريقى أيضا ، ولكن ابن بطوطة ، وهو سابق عليه ، قال بأن نيل مصر (نهر النيجر) يتجه من الغرب إلى الشرق . وكان أول من أكد هذه الحقيقة من المستكشفين الأجانب الرحالة الاسكتلندى مونغويارك الذى وصل إلى المنطقة في عام ١٧٩٥ موقداً من الجمعية الجغرافية الملكية لاكتشاف نهر النيجر . ونقل هنا بعض ماجاء عن رحلته : « لقد رأيت بسرور بالغ ثمار الغرض الأساسى يتمثل أمامى في عظمة نهر النيجر الذى يتلألأ مع شمس الصباح ... والذى يصب في بطن ناحية الشرق ... إن انحناء النهر صوب الشرق لم يثر في نفسى دهشة أو قلقاً ... رغم أنى كنت أفضل دائماً الاعتقاد بأنه يجرى في الاتجاه المخالف » I. N. L. BAKER. History of Geographical Discovery and Exploration ، لندن ١٩٤٨ ، الصفحة ٣٠٤ .

منطقة صحراوية ، كانت هناك بضعة أنهر تتدفق نحو الجنوب ، بيد أن النيجر في الوقت الحاضر يكاد يصب كل مياهه في المنطقة شبه القاحلة . وبرغم أن منطقة البحيرات ، بما تبقى فيها من بحيرات سابقة ، تمتلئ خلال فصل الأمطار ، فإن النيجر بسبب تدفقه غير المستوى لم يكن ذا فائدة عظيمة في تنمية الموارد الزراعية للأرض .

بعد التحول نحو الجنوب الغربي يصبح النيجر نهرا مختلفا تماما ، إذ تصب فيه جداول استوائية كثيرة ، وعندما يدخل مواطن اليوربا^(٢) تصبح له قوة نهر استوائى عظيم وغزارته . وقرب الساحل يتفرع إلى عدد لا يحصى من الجداول التى تتصل ببعضها بعضاً مكونةً بذلك دلتا هائلة .

والنيجر عرف للعالم منذ وقت طويل ، وقديما كان هناك خلط بين النيل والنيجر ، بل زعم أنهما نهر واحد . وكان النيجر عادة يسمى نيل الزنوج ، ولكن هذا الاسم هو لسوء الحظ إحدى تلك المقارنات التى تزيد الأمور غموضا بدلا من أن تجلوها . والنيل فضلا عن ذلك شريان الحياة بالنسبة لمصر ، فهو الذى خلق الرخاء المصرى ، أما النيجر فليس لديه ادعاء من هذا القبيل ، فهو لم يقدم إلى البشرية عونا مماثلا . وإلى جنوبى الصحراء الكبرى يقيم سكان مستقرون ، وقامت هناك مراكز تجارية عظيمة .

ودلالة النيجر فى تاريخ العالم ذات وجهين ، فالشعوب التى عاشت فى المنطقة التى يسيطر عليها هى التى صنعت تاريخ غرب إفريقية . وعلى الرغم من أن هذا التاريخ قد عولج على أنه لا أهمية له ، فربما تكون دلالاته العظيمة أنه يصور كيف أن ثقافة تجارية لم تُنمَّ موارد إنتاجية قد دمرت الحضارة . والدلالة الحقيقية لتاريخ غرب إفريقية بالنسبة للعالم هى أن ثقافة فياضة النشاط ، قامت

(٢) تقع أوطان اليوربا غرب نهر النيجر ، وهم يشكلون حاليا أكبر قومية تعيش فى غرب نيجيريا . وقد احتفظوا بوثنيتهم حتى منتصف القرن الثامن عشر ، ومع تغلغل الإسلام هناك ، لاسيما فى الورد ، أصبحت هذه المنطقة جزءاً من إمبراطورية خلفاء عثمان دان فوديو . وبعد مجئ الاستعمار حدثت - مرة - تيشيرية واسعة النطاق ، ويشكل المسلمون منهم الآن حوالى الثلث ، والمسيحيون أكثر قلبلا ، والوثنيون البرز ، الباقى . ويحتفظ هؤلاء الوثنيون بكثير من عباداتهم الوثنية القديمة وبخاصة عبادة الأسلاف .

لا على الإنتاج وإنما على التبادل ، وتخصصت فى تجارة الرقيق ، قد أخفقت فى أن تتطور إلى ما هو أبعد من مرحلة معينة . ومرجع ذلك أن التجارة فى الزباد والتبر والعاج والبشر ، وإن حققت رخاءً للمشتغلين بها ، كانت بغير جنور حقيقية . ولم يكن النشاط الذى انخرطت فيه الدول الإفريقية سوى أحد أوجه نشاط متعدد الصور ؛ فالزباد والتبر والرقيق كان يُجمع ويبيع . ولم تكن هذه الدول بالمعنى الواسع تشجع الزراعة أو الحرف ، وذلك لأن الأرباح التى تستخلص من الاتجار فى البشر كانت على درجة من الضخامة تجعل التشجيع النشاط للصناعة والزراعة فى غير صالح الطبقات الحاكمة .

وظلت التجارة الإفريقية تجارة فى مواد الترف ، ولم تكن لإفريقية الغربية حضارة مكتفية ذاتيا شأن الصين أو الهند . فسعيها الدائم كان نحو توريد التبر والرقيق مقابل مواد الترف القادمة من الشمال . ولكن على الرغم من أن المنسوجات القطنية والحريرية وغيرها كانت ترد إلى السودان بالفعل ، فإن المواد الغذائية الأساسية كان يتعين زراعتها ، وهكذا وجدت الزراعة ، وإن كانت فى الأساس زراعة كفاف . وربما تبين فى وقت ما أن الصناعات القطنية يمكن أن تزدهر ، بيد أنه فى التنازع بين مصالح القطن والاتجار فى الرقيق انعقد لواء النصر لهذا الأخير .

ثانيا

تعد الصحراء الكبرى الأساس لفهم تاريخ غرب إفريقية ، فهذا التاريخ الذى بدأ علماء الآثار ينقبون عنه لا يمكن فهمه إلا على أساس أن الصحراء الكبرى كانت منذ آلاف السنين منطقة شديدة الخصوبة ، ومع الجفاف التدريجى للمنطقة أرغم الناس على هجرة الصحراء الكبرى ، وبذلك أصبحت الحاجز العظيم . فإلى أين تحرك هؤلاء الناس ؟ يقول بعض الدراسين الثقة إن الحضارة المصرية نشأت منهم ، وكذلك ربما يكون بعضهم قد تحرك إلى غرب إفريقية ، بيد أنهم لم يستطيعوا تطوير نفس المستوى من الحضارة بسبب الأحوال الأقل ملاءمة .

ولقد أحدث اكتشاف **لوت** ^(٤) لسلسلة جديدة تماماً من النقوش الصخرية ثورة في تفكيرنا عن تاريخ الصحراء الكبرى . فالنقوش تشير إلى مراحل متعاقبة في تطور هذه الحضارة بدءاً من العصر الحجري المبكر ، وانتهاءً بالنقوش وأعمال الحفر الخاصة بالقرن السادس عشر قبل الميلاد ، والتي تحتوى على صور لخيول وعجلات حربية والهجمات الوحشية لحروب الصحراء ، ويميز لوت ست عشرة حقبة على الأقل في هذه الحضارة ، من الصيد حتى رعى الماشية ، مع وقوع مرحلة الصيد عند حوالى القرن التاسع قبل الميلاد ، ومن الصور يمكننا تمييز بعض نماذج زنجية شديدة الوضوح ، وبالقرب من واحة أوروخت عند حافة **تاسيلي** ^(٥) عثر لوت على رسم لقناع شديد الشبه بالأقنعة التي كان يرسمها أبناء قبيلة **سنفو** ^(٦) الذين يقطنون ساحل العاج .

ويقال إن الصحراء الكبرى كانت منطقة شديدة الخصوبة حتى أربعة آلاف عام قبل الميلاد . ويؤيد ذلك وجود بقايا الحيوانات الاستوائية وحيوانات البحر المتوسط في الصحراء الكبرى . وفي سلسلة جبال **أحجار** ^(٧) تظهر الضفادع

(٤) **هنرى لوت** H.Lhote : رحالة فرنسى ومن علماء السلالات البشرية ، بدأت رحلاته إلى إفريقية فى عام ١٩٢٨ ، وزار مناطق أحجار وتاسيلي وأير وتشاد ومنحنى النيجر وشمال الكمرى ، حيث أجرى دراسات للسلالات ، والخصائص الأنثروبولوجية لشعوبها ، وكذلك للسمات الأركيولوجية . وبخاصة أعمال الرسم والحفر والنقش ، فضلاً عن دراساته على الجماعم فى تاسيلي التى أثارت اهتمامه أكثر من غيرها . وقد واصل نشاطه فى عام ١٩٥٦ على رأس بعثة لتصوير الرسوم الجدارية المشهورة فى تاسيلي الخالية تماماً من الحياة الآن بعد أن كانت أهلة يقوم خلفوا قدراً هائلاً من الرسوم على جدران بيوتهم .

(٥) أصل الكلمة من لغة البربر ، ومعناها هضبة ، وهى سلسلة جبلية جيرية فى أقصى جنوب الجزائر بالقرب من حافة الصحراء الكبرى ، وقد وردت فى الأصل الفرنسى لكتاب لوت ، وفى ترجمته الانكليزية ، Tasili ، لذا أثرت كتابتها تاسيلي بدلا من Tassali كما أوردها **پانيكار** .

(٦) إحدى القبائل التى تشكل أسلاف الشعوب الحالية الناطقة بلغة الجور والقاطنة إلى الشرق من المندى ، توجد غاليبيتهم حالياً فى كوت دى فوار (ساحل العاج) ، كما توجد أجزاء أخرى فى مالى . اشتهرت ممالكهم القديمة بأشغال النحاس والحديد ، وقد تميزوا بالأسلوب المجوف C'oneave Style . تأثرت بهم القبائل المنحدرة من الأشانتى من حيث استخدام الأقنعة الخشبية فى رقصاتها خلال المراسم الدينية .

(٧) **أحجار** : اسم يطلق على الهضبة الهائلة وسط الصحراء ، وقد أسماها ابن بطوطة (محمد بن عبد الله اللواتى) **هكار** : « إلى بلاد هكار ، وهم طائفة من البربر ملثمون لاخير فيهم ... » تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ، طبعة بيروت ، الصفحتان ٧٥٦ .

عقب سقوط الأمطار . وتوجد التياتل والنعام فى مناطق كثيرة ، وقد اصطاد الجنرال مرغريت النعام فى المنطقة بين واحتى غادريا ولاغوست . كما توجد تماثيل فى حالة متحللة عند إندى . وما زالت أشجار الصنوبر ناضرة عند الحافة الجنوبية لسلسلة جبال تاسيلى ، وتبين النقوش الصخرية للفيلة وأفراس البحر والزراف أن الرسامين كانت لديهم معرفة وثيقة بهذه الحيوانات بصورتها التى هى عليها الآن . وقد اكتشفت مؤخراً مجموعة جديدة من النقوش بها جمال وثيران ، كما تشمل كائنات بشرية مسلحة بالحرايب ، وتظهر بها العربات ذات العجلتين وذات الأربع عجلات ، وفى واحة أورورثت اكتشفت نقوش تتضمن عربات كثيرة يتراوح طولها بين ١٥ و ٤٥ سنتيمتراً ، ويمكن تقسمها إجمالاً إلى أربعة أنواع : ١ - عربات ذات عجلتين وعريش واحد ؛ ٢ - عربات ذات عجلتين ويدين ؛ ٣ - عربات بها أكثر من عجلتين وعريشين ؛ ٤ - عربات ذات أربع عجلات .

وقد قوبلت النقوش الصخرية فى الصحراء الكبرى بترحيب حار بوصفها أحد الاكتشافات العظيمة فى عصرنا . فحركة الجمل فى السلويت (الصورة الظلية) ، على سبيل المثال ، يمكن مقارنتها بأروع الأعمال الفنية فى أى عصر . كما عثر فى واحة چيرات على الخيول التى تجر العربات وهى تركض فى اتساع ، أى تتحرك قدماها اليمنيان الأمامية والخلفية معا ، وكذلك قدماها اليسريان ، وهو أسلوب يتميز له فن العصر الميسينى ، ^(٨) ولكنه لم يعرف فى مصر . وعلى مقربة من هذه النقوش الصخرية تظهر كائنات بشرية عارية شبيهة بسكان الكهوف الإثيوبيين القدامى الذين وصفهم الرومان .

والمنطقتان الأساسيتان اللتان عثر فيهما على الرسوم الصخرية هما تاسيلى - فزان والمنطقة الساحلية من مراكش الجنوبية ؛ والعربات ذات اليد

(٨) العصر الميسينى : نسبة إلى المدينة الإغريقية القديمة ميسينى . بدأ هنريخ سكليمان حفائره فى موقع طروادة فيما بين عامى ١٧٨٠ و ١٨٣٣ ، ثم امتدت إلى ميسينى فى عام ١٨٧٦ ثم إلى تيرونسى فى عام ١٨٨٤ ، وهى الحفائر التى كشفت عن فنون العصر الميسينى .

الواحدة تسود في الغرب ، على حين أن العربات ذات اليمين هي السائدة في فزان ، ومما يسترعى الأنظار في الرسوم الصخرية أنها تقتصر على طريقي التجارة الكبيرين اللذين كانا يمران بطبيعة الحال بالمناطق الأكثر ازدحاماً بالسكان . وما يهمنا بالنسبة لهذه الرسوم هو التوصل إلى تعاقب زمني . واستناداً إلى **ثيودور مونو** ^(٩) فإن هذه الرسوم تنطوي على مشكلة بالغة التعقيد ، وإنه من المتعذر الوصول إلى ما هو أكثر من تعاقب زمني تقريبي للغاية . وليس باستطاعتنا أن نقرر ما إذا كان ينبغي تمييز فترة الخيل كوسيط في التعاقب العام : (أ) التياتل ؛ (ب) الماشية ؛ (ج) الخيول ؛ (د) الجمال . يبدو أن بعض المؤرخين صوروا فترتين عريضتين . والحيوانات التي تظهر في الفترة الأولى هي أساساً حيوانات استوائية مثل فرس البحر والزراف ، وهذه توجد حتى درعة وجبال أطلس وفزان . وترجع هذه الرسوم إلى فترة مبكرة كان باستطاعة الصحراء الكبرى فيها أن تقيم أود هذه الحيوانات ، وعندما جفّت الصحراء أصبحت منطقة لرعى الماشية ، وحصلنا على نقوش خاصة بالثيران .

والنقوش الصخرية لم يعثر عليها في الصحراء فقط ، بل في برك ^(١٠) أيضاً بالقرب من بحيرة تشاد . ويرى **هوارد** ^(١١) أن نقوش برك شديدة الشبه بتلك التي عثر عليها في إندي، ولكن بينما تشمل الحيوانات التي عثر عليها في إندي

(٩) **ثيودور مونو** Theodore Monod : (روان ١٩٠٢ - ٩) من علماء التاريخ الطبيعي الفرنسيين ، شغل منصب مدير المعهد الفرنسي لإفريقية السوداء . وصف جيولوجيا ونباتات الجزء الأكثر جفافاً من الصحراء الكبرى ، عارض فروبنوس بعض نظرياته .

(١٠) **بُرك** : جزء من منطقة تشاد بإفريقية الاستوائية ، تحيط بها إندي من الشرق وجبال تبستي من الشمال ، وتنبسط في اتجاه الجنوب والشرق ناحية سهول وداي ودارفور ، يستقر بوديانها الشمالية سكان ينحدرون من قبائل التبو ، أما سكانها البدو فيتكونون من قبائل التدا والنكازا والعرب الذين قدموا من الشمال . اشتهرت بالتجارة وبخاصة في الرقيق الذين كانوا ينقلون عبرها فيما بين وسط القارة وشمالها . أجرى فيها أركل حقائر أثرية هامة .

(١١) ب . **هوارد** B.Huard عالم فرنسي متخصص في حضارات ما قبل التاريخ .

الزراف والتياتل والنعام والكلاب فإن النقوش الستة والعشرين الموجودة في بُرْكُ تصور فقط الثيران والجمال والفيلة ، فهل كانت الفيلة والثيران تعيش في عصر واحد ؟ إن هوارد يعتقد ذلك ، وبخاصة أن « الماشية لها قرون على شكل أقواس ، وأنها قادمة من مصر » ، وتتدلى من أعناق الثيران تمائم تشير إلى حضارة رعوية ، كما يرى أن النقوش الصخرية تظهر تأثيرات مصرية تسترعى الأنظار .

ولحضارة النوك^(١٢) أهمية أكبر لفهم غرب إفريقية . وقد اكتشفت هذه الحضارة مصادفة في هضبة چوس ، ولذا تمس الحاجة إلى مسح أركيولوجي شامل لهذه المنطقة . ويعتقد فاج^(١٣) الذي كان شديد الاهتمام بحضارة النوك أن هذه الحضارة ترجع إلى القرن الخامس قبل الميلاد . بيد أنه تأكد بناء على الاختبارات الكربونية^(١٤) أنها لابد أن تكون قد قامت حوالي القرن الثاني ق.م. إن التعقيد والتنوع البالغين للآثار التي وجدت في هذه الكهوف يدعو للعجب ، وقد غيرا تماما الأفكار التي كانت سائدة عن فن النحت في غرب إفريقية ، إذ أنه حتى اكتشاف حضارة النوك كان الشائع عن هذا الفن ، شأنه شأن فن النحت المصري ، أنه فن جاف وجامد للغاية . بيد أن النوك أثبتوا أن تماثيلهم ، التي هي أبعد ما تكون عن الجمود ، تزخر بتشكيل وليونة ولونة تجعل بينها وبين فن النحت الهندي أوجه تماثل وشبه صارخين . ويتناول فاج تمثالا برونزيا

(١٢) النوك : موقع في شمال نيجيريا : عثر فيه على عدة تماثيل صغيرة ورؤوس بالحجم الطبيعي بعد القرن الثاني ق.م، وقامت حضارته على الحجارة والحديد ، أي ماثلا العصر الحجري الحديث . وقد أجرى فاج حفائرة به في وادي بنوى وإلى الشمال منه . وثمة تضارب بين العلاقة الوراثية بين حضارة النوك والفن البشري لدى إيغه .

(١٣) برنارد فاج : عالم أثري شهير ألفت حفائرة الضوء على حضارة النوك . وتمتاز الآثار الخزفية التي عثر عليها بالنضج الفني ، وبأسلوب تخرج به على قانون تصوير الوجه من الأمام الشائع في النحت الإفريقي ، كما جذبت أنظار الدارسين بسبب ما ألقته من ضوء على إفريقية فيما قبل التاريخ .

(١٤) الاختبارات الكربونية : إسمها العلمي « تقدير عمر الآثار بواسطة الكربون المشع » ، وهي تعتمد على نسبة الكربون التي تخلق في العينة بمرور الزمن بتأثير الأشعة الكونية ، وهي نسبة تزداد كلما طال عمر العينة . وعن طريق قياسها وتقديرها يمكن تحديد عمر العينة ، ولذا تختص هذه الاختبارات بالعينات المكونة من مواد عضوية كالعظام والبقايا الحيوانية والإفرازات النباتية . وهي تعطينا عمر العينة في حدود مائة سنة بالعجز أو الزيادة ، كما تقتصر على العينات التي يتجاوز عمرها ألف عام .

فى وضع الجلوس به قدر من الليونة والحيوية والتشكيل تفتقر إليه التماثيل المصرية القديمة . كما استرعى نظره تمثال طبيعى على قاعدة لجسد قرد بلا رأس ، وكذلك تمثال لرأس قرد ، والتمثالان مصنوعان بطريقة تثيرا لإعجاب ، ويجمعهما تماثل واضح مع القرد فى فن النحت الهنـدى . والأمر الأكثر أهمية ، حتى من التشكيل ، هو أن النوك وفروا صلة نسب بفن قبائل إيفه (١٥) وبين (١٦) ، وأن استمرار التراث من النوك إلى بنين قد أرسى الأساس للنظرية القائلة بأن فن غرب إفريقية له منشأ خارجى .

ولا تكمن أهمية النوك فقط فى أنها ترسى حضارة غرب إفريقية على قواعد راسخة فى موطنها المحلى ، وإنما فى أنها تساعد أيضا على إثبات أن الاكتشافات التى تمت فى چوس ليست ظاهرة منعزلة . فوجود محاور حجرية ، وكذلك الكثير من مصنوعات الصفيح والحديد ، يوضح أنه لابد أن مدنية حضرية قد قامت فى الهضبة . ويقول وينرايت (١٧) إن مصنوعات الحديد قد نشأت فى وادى النيل الأعلى حوالى القرن الرابع ق.م . ومن هناك انتشرت إلى مصر . كذلك قد تكون الجسور الحجرية التى عثر عليها من صنع الشعب نفسه .

ولا يشذ النوك عن هذه القاعدة ، وتساعدنا أعمال لوبوف فى حوض تشاد

(١٥) إيفه : فى جنوب نيجيريا الحالية . كانت فى وقت ما أهم مراكز نحت الحجارة فى غرب إفريقية ، كما كانت العاصمة الدينية لليوريا . والتمثال الرئيسى لعبادتهم هو إله البحر أولوكون . وثمة شكوك حول منشأ أسلوب إيفه فى النحت وإن لم يقد دليل معقول على أن منشأه ليس محليا خالصا . ويفضى هذه الشكوك شدة اقترابه من الأساليب الفنية القياسية الكلاسيكية الإغريقية ، والتمثال الغرب بين أساطير إيفه وأساطير اليونان .

(١٦) بين : اسم أطلق على شعب وحضارة ومملكة ونهر . واشتهرت بمشغولاتها من النحاس ، وإن ظلت حتى أواخر القرن الثالث عشر تحصل على الرؤوس اللازمة للموتى من إيفه ، ويقال إن بدايات فنها إنما تتبع من تراث إيفه . كاد فنها أن يقتصر على تزيين البلاط . وتنوعت مصنوعات البرونز عند بنين حتى أصبحت كلمة البرونز جزءا من المصطلحات التقليدية المستخدمة فى وصف أعمالها . أنظر الفصل الثامن أدناه (الفرع الخاص بينين) .

(١٧) ج . أ . وينرايت G.A.Wainwright : من علماء المصريين ، قام بحفائر كثيرة فى وادى النيل ، وله دراسات كثيرة فى العلاقات المتبادلة بين مختلف الحضارات الإفريقية ، كما أن له مؤلفات فى ديانة مصر القديمة وتاريخها ومواقعها الأثرية .

على الإلمام بشئ عن شعب الصلوا^(١٨) . فالتماثل بين نظريات تلك الأيام والقسمات البارزة فى فنها ، وبين نظريات العصور التالية وقسماتها ، إنما هو تماثل يسترعى الأنظار حقاً . وماتم التنقيب عنه ليس كثيراً جداً ، فهناك أولاً أشكال صلصالية ذات أجسام بسيطة ، ولكن بأسلوب مبهرج فى الوجه ؛ وهناك ثانياً حلى وأدوات تستعمل فى الطقوس الدينية . ولكن ما يسترعى الأنظار أكثر فى رأى لوبوف هو الأشغال البرونزية التى تصنع بطريقة الشمع المفقود^(١٩) التى تدل على تفوق فى تشكيل القوالب « ويمكن مقارنتها بما هو متميز فى الأشغال الخزفية ، كما تدل على معرفة كاملة بتقنيات البرونز ، ويمكن القول بأن هذه المجوهرات تعتبر بين الأشغال البرونزية (والنحاسية) أكثر الأشكال دقة فى إفريقية السوداء » . وهكذا كلما ازدادت معرفتنا بإفريقية الغربية أصبحت نظرتنا أكثر اتساعاً ، وكما يقول المثل الرومانى القديم : إن كل شئ جديد نعرفه عن إفريقية يكتسب مغزىً جديداً .

ثالثاً

إفريقية هى أرض الأسرار . وكان بلينيوس^(٢٠) مجرد معبر عن هذه الفكرة ، عندما أعلن أنه يوجد دائماً شئ جديد عن إفريقية ، ولا يزال باستطاعة إفريقية أن تأتى بالمفاجآت ، وذلك لجهلنا الشديد بهذه القارة الهائلة ، وقد أجاد هيليريلوك^(٢١) التعبير عما يشعر به معظم الناس تجاه إفريقية .

(١٨) الصلوا : شعب عاش فى جنوب بحيرة تشاد وشرقها ، ويعتقد أن الكوتوكو الحاليين من سلالتهم . اشتهروا بمهارتهم فى تشكيل الخزف وفى بناء قراهم من الطين . تزخر أماكن عبادتهم بتماثيل صغيرة مخصصة للقربان . كانت عبادة الأسلاف أهم عبادة لديهم ، فعندما يموت أحدهم يوضع قناعه الجنائزى فى المحراب . وقد قام عالم الآثار الفرنسى ج.ب لوبوف بحفائر أركيولوجية جنوب تشاد كشفت عن آثار حضارة قديمة فى دلتا نهر شارى ، وكشفت حفائر أخرى له عن موقع ينتمى إلى العصر الحجري الحديث ، وعن معبد هام عند تاجو به تماثيل وأقنعة فخارية مثيرة ترمز إلى عبادة الأسلاف .

(١٩) الشمع المفقود Cire perdue : طريقة قديمة شائعة فى صناعة التماثيل من البرونز .

(٢٠) بلينيوس الأكبر : (جايوس بلينيوس سكوندس) (٢٣ - ٧٩ م) ، عالم نبات رومانى ترك كتاباً قيماً فى التاريخ الطبيعى أشبه بموسوعة فى طبيعة الكون والجغرافيا وعلم الأعراق وعلم الحيوان وتاريخ الفنون .

(٢١) جوزيف هيليريلوك : (١٨٧٠ - ١٩٥٣) ، كاتب اجتماعى وشاعر بريطانى ، وضع مؤلفات أدبية وتاريخية كثيرة ودواوين شعرية .

أواه يا إفريقية ! أيتها الأرض الغامضة !

كم تكتنفك الرمال ،

وكم تزخرين بالعشب والأشجار

ذلك خليق تماما بإفريقية السوداء : أما إفريقية الشمالية ومصر فلم تكونا فقط معروفتين جيدا ، وإنما كانتا جزءاً من عالم البحر المتوسط . وبالنسبة للإغريق والرومان كان شمال أوروبا ، وليس إفريقية ، هو الأرض الغريبة غير المألوفة ، وكان ازدياد نفوذ الكنيسة في أوروبا ، وهيمنة الإسلام على سواحل آسيا وإفريقية الواقعة على البحر المتوسط ، هما اللذان حطّما وحدة هذه الحضارة . ففي أوروبا جمعت المسيحية الشمال والجنوب معا ، وفي آسيا وإفريقية ظهر إلى الوجود مجتمع إسلامي دينا ، وعربي ثقافة ، وأصبح النزاع أمراً مقررأً بين المسيحية والإسلام ، ومع ذلك فإنه حتى هنا احتفظ عالم البحر المتوسط بوحدته ، كما أن مراكش وشبه جزيرة أيبيريا جمعتهما لبعض الوقت تاريخ مشترك ، وفي شرقي البحر المتوسط حافظت **بيزنطة** ^(٢٢) في أول الأمر ، ثم الامبراطورية العثمانية بعد ذلك ، على وحدة ذلك الجزء من عالم البحر المتوسط سليمة لم تمس . وفي **صقلية وكلايريا** ^(٢٣) (جنوب إيطاليا) ازدهرت دولة إسلامية لبعض الوقت في القرنين التاسع والعاشر الميلاديين . وحتى عندما حل القرن الرابع عشر الميلادي « كان هناك اعتقاد بأن شعبي صقلية وكلايريا يمكن أن يكونا أكثر تعاطفا مع الحكم الإسلامي الذي سبب المتاعب للأسبان خلال الفترة التي كانت بلادهم محتلة فيها » . وفي إيطاليا تحطمت العلاقات السياسية ، بيد أنه ظلت هنا علاقات تجارية وثيقة بين المدن

(٢٢) بيزنطة : مدينة قديمة على البسفور قامت استانبول على موقعها ، استولى عليها الرومان واختارها قسطنطين الأول (٣٣٠م) مقعاً للقسطنطينية التي أصبحت فيما بعد عاصمة للامبراطورية البيزنطية .

(٢٣) صقلية وكلايريا : فتح العرب صقلية في عهد الأغالبة على يد القاضي أسد بن الفرات في منتصف القرن التاسع الميلادي . وفي بداية القرن الحادي عشر استولى النورمان (الشماليون أو الفيكنج) على صقلية ، ولكنهم سمحوا للعرب بالبقاء فيها ، وكان لهم جنود من العرب . وقد عاش الشريف الإدريسي - الجغرافي العربي المعروف - في بلاط روجار ملك النورمان ، وأطلق اسمه على كتابه في الجغرافيا ، كتاب روجار ، وكان بعض ملوك النورمان يتكلمون العربية .

الأوروبية ودول البربر . كما كانت المدن الإيطالية ومرسيليا وتولوز وكل مقاطعة **بروفانس** ^(٢٤) على صلة وثيقة بدول البربر : فقد كانت هذه المدن تحتفظ بقناصل فى جميع الموانئ البحرية الهامة . وكان هؤلاء القناصل يرعون مصالح مواطنيهم ويقومون بتمثيلهم لدى الدول الإسلامية . وكانت سفائن نابولى وبيزا والبندقية ومرسيليا وقشتالة ^(٢٥) تقوم بزيارات منتظمة لموانئ البربر ، وسيطرت جنوا وبيزا ، كما سيطر نورمان صقلية فيما بعد ، على هذه التجارة . وكان الأمر الهام هو الحصول على معاهدة تتضمن حقوقا استثنائية ، وكان نورمان صقلية هم أول من حصل على حقوق احتكارية ، ولكن مالبث أن تبعهم الآخرون . وقد أدركت دول البربر أن منح مثل هذه الحقوق لا يخدم مصالحها ، وسرعان ما أخذت تتمسك بالمنافسة الطليقة والتجارة الحرة . ونرى فيما سيأتى كيف أن المنافسة بين الولايات الإيطالية من أجل التجارة كانت على درجة من الضراوة جعلتها تتطلع إلى التغلغل فى الصحراء سعيا وراءها .

كذلك لم تكن التجارة هى العامل الوحيد فى الوحدة ، فقد احتفظ شمال إفريقية ، حتى بعد الفتح العربى ، بعلاقات وثيقة مع جنوب أوروبا ، وكان المرتزقة الأوروبيون يشكلون الحرس الخاص لبعض الحكام فى شمال إفريقية ، وذلك لنفس السبب الذى من أجله كان حكام فرنسا يفضلون السويسريين لحراستهم . وكان اعتناق الدين المسيحى مباحا منذ وقت مبكر ، وحتى فى العصر الوسيط كانت هناك جاليات مسيحية كبيرة تعيش فى المنطقة . وكان للمرتزقة المسيحيين حق ممارسة الشعائر الدينية وفق طرائقهم الخاصة وكانوا يمارسونها تحت إشراف قسس يرسلون من روما .

(٢٤) بروفانس : مقاطعة فرنسية تقع فى جنوب شرق فرنسا .

(٢٥) قشتالة : كستلا بالاسبانية ، مملكة قديمة بشمال أسبانيا ووسطها . كانت تنقسم إلى قشتالة القديمة وقشتالة الجديدة . وقام الملوك اللاحقون بتوسيع الأولى على حساب العرب (قشتالة الجديدة) . وقد عرفت قشتالة بأنها حملت عبء المقاومة المسيحية ضد الإسلام فى الأندلس ، واستطاعت عن طريق توحيد الإمارات المسيحية الشمالية أن تدفع الوجود الإسلامى شيئا فشيئا خارج أسبانيا .

وهكذا ظل عالم البحر المتوسط محتفظاً بوحدة حتى بعد حدوث الانقسام إلى مسيحية وإسلام ، بيد أنه كان يستسلم فى ببطء لمفهوم العالمين المسيحي والإسلامي . وأدى الاندماج العرقي بين قبائل البرابرة السابقة ، مثل الفرنجة والسكسون **والتيوتون** ^(٢٦) **والشماليين** ^(٢٧) من ناحية ، والأتراك والأكراد من ناحية أخرى ، واعتناق هذه القبائل لدين جديد ، إلى ظهور قوى جديدة . وتحول توازن القوى من سواحل البحر المتوسط إلى شواطئ بحر الشمال وسهول آسيا . فضلا عن أن مفهوم « آسيا » و « أوروبا » أخذ يزداد بروزاً . وفى ذلك قال أرنولد توينبى : « لقد وُجد هذا الوهم عندما أعطى عقل هيلينى ^(٢٨) متوقد الخيال تغييرا ثوريا فى المعنى للإسمين الجغرافيين التقليديين أوروبا وآسيا ، بتحويلهما من خريطة البحارة إلى الخريطة السياسية وإلى الرسوم البيانية التى سجلها علماء الاجتماع للمواطن البشرية والحضارات ، وهذه الحيلة من حيل الخيال كانت لسوء الطالع حيلة موحى بها ، إذ على الرغم من أنه كان على هيرودوت أن يحولها إلى هذا البيان الأدبى الجيد ، فإنها كانت مع ذلك وهماً حول المعقول إلى لا معقول ... أما عن مطابقة قارات البحارة بمواطن الحضارات المتنوعة فقد كان ذلك - لو أمكن - حتى أقرب إلى الوهم من سوء التطبيق السياسى لهذه المصطلحات البحرية ، وذلك لأن المؤرخ لا يمكنه على الإطلاق أن يضع إصبعه على أية فترة ، مهما بلغت من القصر ، لم يكن فيها من التنوع الحضارى المتميز بين السكان الآسيويين والأوروبيين

(٢٦) **التيوتون** : الجرمان .

(٢٧) **الشماليين** (الفيكنج) : تعرف الفترة ما بين ٧٥٠ - ٩٩٩م باسم فترة قراصنة البحار أو الفيكنج ، لأنه فى ذلك الوقت تعرضت أوروبا للغزوات البحرية التى كان يشنها سكان اسكنديناوه ، الذين عرفوا بالشماليين أو الفيكنج . استخدموا السفن فى غزواتهم التى بدأوا أولاها على الجزيرة البريطانية ، ثم شبه جزيرة نورمانديا بفرنسا فى عام ٨٩٠ ، وبعدها توصلوا إلى معرفة البحر المتوسط وبحر قزوين وبحر أزوف ، كما اتجهوا أيضا إلى جزر الأطلسى .

(٢٨) **هيلينى** : العصر الهلينى هو عصر الحضارة اليونانية فى بلاد اليونان نفسها ، أى قبل الغزو المقدونى ، ويقابله عصر الحضارة الهلنستية ، أى عصر انتشار الحضارة اليونانية فى المشرق عقب فتوحات الإسكندر .

أكثر مما بين شاطئين متقابلين يفصلهما ممر مائى واه » وهكذا فإن المؤرخين الأوروبيين الذين كتبوا عن روما وعن اليونان يزعمون بأن تلك الحضارة إنما هى تراث الأوروبيين الشماليين ، فى حين يستبعد منها شمال إفريقيا وشرق البحر المتوسط اللذان شاركا فيها . ويمكن لإفريقية الاستوائية بدورها أن تزعم الشئ نفسه ، لا بالنسبة لروما فقط ، وإنما بالنسبة لمصر أيضا .

وكان باستطاعة شمال أوروبا أن يدعى لنفسه ماثورات اليونان وروما ، ليس لأن لأبنائه أية حقوق « كإوروبيين » ، بل لأنهم كانوا يخضعون فى رفق للتأثير الحضارى لهذه الماثورات . وبالمثل أصبح العرب فى الفترة بعد القرن السابع الميلادى المؤتمنين الرئيسيين على معارف الإغريق . فلماذا لم تكن استفادة شعوب إفريقيا الاستوائية ، والتى تقع بدورها على حدود حضارة البحر المتوسط ، قدر استفادة شعوب شمال أوروبا ووسطها وشعوب صحراء شبه الجزيرة العربية ؟ لقد كانت تلك مسألة جغرافية أكثر منها أى شئ آخر . فالإمبراطورية الرومانية هى التى أدخلت الحضارة إلى شمال أوروبا ووسطها ، إذ امتدت حدودها حتى الراين والدانوب . وبعد اضمحلال روما لم تكتف الكنيسة بإدخال البرابرة فى الدين المسيحى ، بل فرضت القانون الرومانى أيضا ، وخلقت مجتمعا جديدا أساسه المفاهيم الرومانية والتيوتونية . بيد أن هذا كان مستطاعا فى أوروبا لأنه لم تكن هناك حواجز جغرافية كبيرة بين عالم البحر المتوسط والشمال ، ولذلك كان من الممكن حدوث تغلغل بطيئ . وبالمثل لا توجد حواجز طبيعية كبيرة بين السواحل الآسيوية للبحر المتوسط والجزء الداخلى مما يعرف اليوم بالشرق الأوسط . وهكذا فإن ماسمح للأوروبيين باكتساب الأساس الذى يقيمون فوقه بنيانا علويا ليس عبقرية ينقرون بها ، وإنما هو الاتصال المستمر من خلال الغزو والتجارة .

فماذا كان الوضع فى إفريقيا ؟ كان شمال إفريقيا المركز لمجتمع حيوى شديد البأس . وقد قدم هذا المجتمع طوال تاريخه رجالاً نوى تميز عظيم

يكفي أن نذكر منهم القديس أوغسطين^(٢٩) وإبن خلدون^(٣٠) . بيد أن حضارته ظلت بسبب الصحراء الكبرى حضارة ساحلية محدودة الصلات بالداخل . وقد أقيمت مراكز تجارية معينة . ولكن مصاعب عبور الصحراء وأخطاره حُدَّت كثيراً من الاتصال بين الساحل والداخل ، لذلك أخفق شمال إفريقيا في القيام بدور فعال في نشر حضارته في المناطق الاستوائية . وكانت النتيجة مزوجة - فلم يتلق شمال إفريقيا أى معين من البأس البربرى ، وظل حضارة ساحلية ، كما كان من نواح كثيرة جزيرة تفتقر إلى العمق الجغرافى وعاجزة عن تنمية حضارة مستقلة ، وأصبح بسبب الدين الإسلامى واللغة العربية تابعاً للشرق فكراً وثقافياً . فضلاً عن ذلك ظلت إفريقيا الاستوائية إحدى مناطق العالم القليلة للغاية التى تكاد تعتمد كلية على مواردها الخاصة . وهكذا فعلى الرغم من أن سكان الغابات فى شمال أوروبا ووسطها ، وكذلك سكان الغابات فى الأجزاء المطيرة من إفريقيا ، قد بدأوا من نفس المستوى وكانوا يفتقرون إلى نفس المزايا ، فإن الأوروبي استطاع أن يحقق تقدماً سريعاً

(٢٩) القديس أوغسطين : (٣٥٣ - ٤٣٠ م) ولد فى طاجسكا من أعمال نوميديا (الآن سوق الأخرس بالجزائر) لأب وثنى وأم مسيحية . شب أول الأمر على وثنية أبيه ، ثم اعتنق المسيحية وهو فى الرابعة والثلاثين ، وعلا شأنه فى العالم المسيحى بسبب دفاعه الشديد عن الكنيسة . أيقن بوجود العقل ، فالشك هو نفسه تفكير عقلى ، ووجود العقل فى الإنسان دليل على وجود الله ، والمعرفة الحسية كلها موضع شك من العقل حتى يثبتها أو ينفيها ، إذن فمصدرها هو الله . يقسم الناس إلى طائفتين : أهل « مدينة الله » ولهم نعيم مقيم ؛ وأهل الدنيا ولهم حياة الرذيلة وعذاب الآخرة . من كتبه المشهورة الاعترافات . وهو أقرب إلى السيرة الذاتية ؛ مدينة الله وهو تحليل دينى للمجتمع والتاريخ ؛ الثالث . وفيه شرح للعقيدة المسيحية وتفنيد ما أثير حولها من أباطيل . وقد جمع أوغسطين بين الثقافة اليونانية والعقيدة المسيحية وأدرك ما بينهما من اختلاف وتأثير متبادل .

(٣٠) أبوزيد على الدين عبد الرحمن بن محمد الشهير بابن خلدون : (١٣٣٢ - ١٤٠٦) ، المؤرخ وعالم الاجتماع العربى المعروف ، وقد أخذ عنه پانيكار إشارات واقتباسات كثيرة بذلت جهدى لتحقيقها على مصدرها العربى . وبالنسبة لمقدمة إبن خلدون رجعت إلى الطبعة التى حققها الدكتور على عبد الواحد وافى (الطبعة الأولى ١٩٥٧ ، لجنة البيان العربى ، القاهرة) ، وسأشير إليها بطبعة لجنة البيان العربى ؛ أما عن العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ، ومن عاصروهم من نوى السلطان الأكبر ، فتوجد منه عدة طبعات ، أولاها وأقدمها طبعة بولاق ، ١٨٦٨ ، ثم طبعة « دار الشعب » ، وطبعة بيروت ، والأخيرة أفضلها وتتضمن فهرس كشافة بالترتيب الأبجدي للأعلام والبلدان والقبائل وغيرها ، وقد أخذت عن الأولى وعن هذه الأخيرة ، وأشرت إليهما على التوالى بطبعة بولاق وطبعة بيروت .

للمغاية بسبب قدرته على استعارة الأساليب الفنية والأفكار وغيرها من مقومات الحضارة . ولأن الأوروبي كان لديه كنز من حكمة عالم البحر المتوسط المتراكمة يستعيد منه ويكيف وينمي ، تمكنت تلك الحضارة الأوروبية من أن تنمو سريعاً .

أما إفريقية الاستوائية فكانت أقل حظاً ، فقد تركت وشائها . صحيح أن بعض التجار وقليلًا من الدعاة المسلمين ، وحملات الغزو العارضة ، قد حملوا معهم الأفكار الأجنبية ، إلا أن الضغط المستمر للأفكار والبشر ، الضروري لخلق الحضارة ، كان مفقوداً . وهكذا تطورت إفريقية الإستوائية على أساس ظروفها الخاصة . وكانت حضارتها تنمو باطراد وإن لم تكن في لمعان حضارات المناطق الأخرى ، وكان من المحتّم أن تنمو حضارة غرب إفريقية بسرعة أكبر لو أنه هيئ لها أساس اقتصادي مختلف . وكما سنحاول أن ندلل فيما بعد ، فإن السبب الذي من أجله عجزت إفريقية الاستوائية عن أن تتطور بسرعة أكبر هو أن شمال إفريقية كان بالنسبة لها عامل هدم أكثر منه عامل بناء .

رابعاً

خليق بنا قبل أن نقطع شوطاً أبعد أن نصغي إلى مشورة أعظم المؤرخين الإفريقيين . فابن خلدون ، أعظم مؤرخي شمال إفريقية ، يذكر الصعاب التي يواجهها كل من يحاول كتابة التاريخ . ويقول إن المادة التاريخية ينبغي أن تضبط مراراً ، وإن المرء ينبغي أن تكون لديه القدرة على أن يزن الأمور ، وأن يأخذ حذره من المبالغات . « وكثيراً ما وقع للمؤرخين والمفسرين وأئمة النقل المغالط في الحكايات والوقائع لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثاً أو سميناً لم يعرضوها على أصولها ، ولا قاسوها بأشباهها ، ولا سبروها بمعيار الحكمة ، والوقوف على طبائع الكائنات ، وتحكيم النظر والبصيرة في الأخبار . فضلوا من الحق وتاهوا في بيداء الوهم والغلط ، ولا سيما في إحصاء الأعداد من الأموال والعساكر إذا عرضت في الحكايات ، إذ هي مظنة الكذب

ومطية الهذر ، ولا بد من ردها إلى أصولها وعرضها على القواعد » . (٣١)
ويورد ابن خلدون ، على سبيل المثال ، الرواية المنافية للمعقول التي رواها
البكري (٣٢) عن « المدينة ذات الأبواب » (٣٣) التي يزيد محيطها على مسيرة
ثلاثين يوما وبها عشرة آلاف باب ، ورواية المسعودي (٣٤) عن « مدينة النحاس »
التي يقول فيها إنها مدينة كل بنائها نحاس بصحراء سجلماسة ... » وإنها مغلقة
الأبواب ، وإن الصاعد إليها من أسوارها إذا أشرف على الحائط صفق ورمى
بنفسه ، فلا يرجع آخر الدهر . « ويقول ابن خلدون إن ما ينبغي أن نأخذ حذرنا
منه هو اللغو الذي تنطوي عليه حكايات من هذا القبيل . « فصحراء سلجماسة
قد نفضها الركاب والأدلاء ولم يقفوا لهذه المدينة على خبر ثم أن الأحوال التي
ذكروا عنها كلها مستحيل عادة منافع للأمور الطبيعية في بناء المدن واختطاطها ؛
وأن المعادن غاية الوجود منها أن يصرف في الآنية والخرثى ، وأما تشييد مدينة

(٣١) العبر ، المجلد الأول (مقدمة ابن خلدون) ، طبعة بولاق ، الصفحتان ٧ و ٨ .

(٣٢) أبو عبيد ، عبد الله بن أبي مصعب بن أبي زيد محمد بن أيوب بن عمرو البكري : الوزير الفقيه
والعالم اللغوي والجغرافي العربي المعروف . لم تصرح الكتب بسنة ميلاده ، وإنما ذكرت سنة وفاته
(٤٨٧ هـ) عن سن متقدمة ، ولد في الأندلس ، وشغل بها مناصب عالية ، أهم مؤلفاته المسالك والممالك . وقد
طبع البارون دي سلين جزءاً من هذا الكتاب باسم المغرب في نكريلا إفريقيا والمغرب ، مع مقدمة
بالفرنسية ، وصدر في الجزائر في سنة ١٨٥٧ . وأصدرت دار الكتاب الإسلامي بالقاهرة طبعة مصورة لهذا
الكتاب ، وعن هذه الطبعة أخذت ما أورده نقلًا عن البكري .

(٣٣) « ومن الأخبار المستحيلة ... ما نقله البكري في بناء المدينة ذات الأبواب تحيط بأكثر من ثلاثين
مرحلة وتشتمل على عشرة آلاف باب والمدن إنما اتخذت للتحصين والاعتصام كما يأتي ، وهذه خرجت عن أن
يحاط بها . » العبر ، المرجع السابق ، الصفحة ٣٠ .

(٣٤) علي بن الحسن بن علي بن عبد الله : (٩٠٠ - ٩٥٧ م) الجغرافي والمؤرخ العربي ، من نرية
الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود ، ولذا عرف بالمسعودي . ولد ونشأ في بغداد ، واستقر ومات في مصر ،
جاء معظم أرجاء العالم القديم . خرج على من سبقه في كتابة التاريخ ، فعدل عن كتابته سنة بسنة وقسمه
حسب الموضوع ؛ اقتفى ابن خلدون أثره في كتابة التاريخ ، وتأثر به ابن حوقل والبيروني . أعظم
كتبه مروج الذهب ومعادن الجواهر ، وقد حققه محمد محيي الدين عبد الحميد ، وصدرت طبعته الأصلية عن
مطبعة بمصر ثم صدرت له طبعة مصورة عن المكتبة العصرية بصيدا - بيروت ، وهي الطبعة التي أخذت عنها .

منها فكما تراه من الإستحالة والبعد » . (٢٥) ولو وجدت حقيقة غريبة كهذه فلا بد أن لاحظها الرحالة وورد ذكرها على لسانهم ، ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث .

ومرة أخرى فيما يتعلق بالأنساب ، إذ يبين ابن خلدون أن المؤرخين العرب حرصوا على إثبات أن العرب غزوا المغرب تحت لواء الملك اليمنى قُبَّع الذى حكم وقت سليمان . واستناداً إليهم فإن الملك هو الذى أطلق عليهم كلمة بربر « حين سمع رطانتهم وقال ما هذه البربرة » ، وإنه قام بتوطين بعض قبائل حمير فى الغرب ، وتزعم الأسرة الحاكمة فى المغرب أنها تنحدر منها . ويقول ابن خلدون « إن ملك التتابعة إنما كان بجزيرة العرب وقرارهم وكرسیهم بصنعاء اليمن ... فلا يجد السالكون من اليمن إلى المغرب طريقاً غير السويس ويبعد أن يمر بهذا المسلك ملك عظيم فى عساكر موفورة من غير أن تصير من أعماله ... وأيضاً فالشقة من البحر إلى المغرب بعيدة والأزودة والعلوفة للعساكر كثيرة ... وإن نقلوا كفايتهم من ذلك من أعمالهم فلاتفى الرواحل بنقله ... » (٣٦) .

وأخيراً : ينبغى للمرء أن يحذر من الأحكام المسبقة ، وأن يزن أية مشكلة بعقلانية ، ليتبين إن كان حدوثها ممكناً ، وأن يتقبل الحل الذى يبدو أقرب إلى العقل على ضوء الحقائق ، فغزوة حميرية للمغرب مثلاً بدت لابن خلدون أمراً غير محتمل ، وربما من وحي خيال المؤرخين ، وتاريخ غرب إفريقية ، كما سنرى ، زاخر بخرافات من هذا القبيل تحتاج إلى قدر أكبر من الفحص والتدقيق . (٣٧)

(٢٥) هذه الاقتباسات نقلاً عن العير ، المرجع السابق ، الصفحتين ٣٠ و ٢١ . وبذلك يكون من الواضح أن ما ذكره باننيكار منسوباً إلى البكرى والمسعودى إنما مصدره العير . (الخرثى هو أساس المنزل .) ونورد هنا فقرة أخرى تسبق تلك التى أوردتها فى المتن : « وكما نقله المسعودى أيضاً فى حديث مدينة النحاس وإنها مدينة كل بنائها نحاس ... » المرجع نفسه ، الصفحة ٣٠ .

(٣٦) المرجع نفسه ، الصفحتان ٩ و ١٠ .

(٣٧) « وأما الأخبار عن الواقعات فلا بد فى صدقها وصحتها من اعتبار المطابقة . فلذلك وجب أن ينظر فى إمكان وقوعه ... وإذا كان ذلك فالقانون فى تمييز الحق من الباطل فى الأخبار بالإمكان والاستحالة أن ننظر فى الاجتماع البشرى الذى هو العمران ... وإذا فعلنا ذلك كان ذلك لنا قانوناً فى تمييز الحق من الباطل فى الأخبار والصدق من الكذب بوجه برهانى لادمخل للشك فيه . » المرجع نفسه ، الصفحة ٣١ .

خامسا

ماذا كان القدماء يعرفون عن إفريقية الاستوائية ؟ يقدم **هيرونوت** (٣٨) ثلاث روايات مستقلة عن العلاقات مع غرب إفريقية منها أسطورة **ناسامون** (٣٩) .

« إن مجرى النيل معروف لحيث يعبر مصر فقط ، وإنما أيضا إلى مسيرة شهور جنوبا براً وماءً ؛ وذلك لأن الحسابات توضح أن ذلك هو الوقت اللازم للسفر من جزيرة فيله حتى الصحراء . فعند تلك النقطة يجرى النهر من الغرب إلى الشرق ؛ وبعد ذلك لا يعرف مجراه على وجه اليقين ، فالمنطقة غير مأهولة بسبب الحرارة » . ويذكر **هيرونوت** أنه سمع رواية من بعض أهالي **سيرين** (٤٠) تفيد أنهم تناولوا موضوع النيل والغموض الذي يحيط بمجراه خلال زيارة **لمهبط وحي أمون** (٤١) ، وذلك في حديث لهم مع الملك **الأموني** **ايتارخوس** الذي أخبرهم أن بعض **الناسامونيين** ، وهم شعب يعيش في سرت وفي البلد الذي يقع نحو الشرق ، قد زاروه ذات يوم وأخبروه أثناء الزيارة أن فريقا من خمسة شبان قد كشفوا الصحراء الليبية ، وحاولوا التغلغل إلى أبعد مما تغلغل أحد من

(٣٨) **هيرونوت** : (٤٨٤ - ٤٢٥ ق.م) المؤرخ الإغريقي المعروف ، زار بلدانا كثيرة من بينها مصر ، كان كاتباً موهوباً طلى الأسلوب بارعا في الوصف قديراً على الصياغة الأخاذة لما يسمعه . وهو خليف بمكانة ملحوظة في تاريخ البشرية والحضارة ، وصفه **شيشرون** بأنه « أبو التاريخ » لأنه هو الذي خلق فلسفة التاريخ وأول من عالجه كموضوع بحث علمي . وقد عثرت على ترجمة عربية قديمة كاملة لكتابه في التاريخ ، استعنت بها في ضبط ترجمة الفقرات التي أوردها **پانيكار** عنه ، وجاء في صدر هذه الترجمة مايلي « **تاريخ هيرونوتس الشهير** ، ترجم من الفرنسية بقلم **الشهم الغيور حبيب أفندي بستر** ، طبع في بيروت بمطبعة القديس **جورجوس** سنة ١٨٨٦ - ١٨٨٧ » .

(٣٩) **الناسامونيون** : شعب عاش في سرت . وسرت اسم قديم لخليجين داخلين من البحر المتوسط في ساحل إفريقية الشمالى ، أحدهما كبير ويعرف الآن بخليج السر ، والآخر صغير واسمه الآن خليج قابس .

(٤٠) **سيرين** : مدينة القيروان الحالية بتونس .

(٤١) **مهبط وحي أمون** : واحة سيوة المعروفة ، حيث أقامت الجالية الإغريقية معبد **أمون** الشهير الذي زاره الإسكندر الأكبر عقب مجيئه إلى مصر . ذاعت شهرته عند الإغريق بخاصة بسبب ما قيل عن هلاك جيش **قمبيز** الذي جاء لغزوها .

قبل . « وكل ساحل ليبيا ، الواقع على البحر المتوسط ، من مصر حتى رأس سوايس (٤٢) حيث نهايته ، تقطنه قبائل مختلفة من الليبيين ، عدا الجزء الذى يمتلكه الإغريق والفينيقيون ؛ غير أنه فى الأجزاء الداخلية جنوبى المنطقة الساحلية المأهولة لا توجد سوى الحيوانات المفترسة ، وإذا توغلنا أكثر فى اتجاه الجنوب وجدنا صحراء مجدبة لاهياة فيها من أى نوع . « وقد بدأ الشبان أسفارهم بمؤونة طيبة من الزاد والماء ، وبعد المرور بالأجزاء المأهولة من البلد وصلوا إلى منطقة الحيوانات المفترسة ، ثم مضوا إلى الصحراء يعبرونها فى اتجاه الغرب ، وبعد أيام ترحال عديدة عبر الصحراء لمحو بضع أشجار فوق رقعة منبسطة . ولكن ما إن اقتربوا من المكان وأخذوا فى التقاط شئ من الفاكهة من الأشجار حتى أطبق عليهم بعض رجال قصار - أقصر من المألوف - وقبضوا عليهم وساقوهم عنوة . وكان حديث هؤلاء الأقزام غير واضح . كما لم يكن باستطاعتهم أن يفهموا الناسامونيين . ومضى الرجال القصار بالناسامونيين خلال بقعة مليئة بالمستنقعات ، وأخيراً وصلوا إلى مدينة سكانها جميعاً سود البشرة ولهم نفس القامة القصيرة . وكان يشق المدينة من الغرب إلى الشرق نهر كبير ملئ بالتماسيح » (٤٣)

ويذكر هيرودوت ، وهو يقدم وصفاً لشعب ليبيا ، أنه يوجد إلى الغرب من الأمونيين (٤٤) داخل الصحراء ، على مسيرة عشرة أيام ، مكان يدعى أوجله (٤٥) ، وهنا يأتى الناسامونيون من أجل محصولهم من التمر . وعلى

(٤٢) رأس سوايس : المقصود بها فى أغلب الظن المنطقة الصخرية فى ساحل إفريقية الغربى التى عرفت فيما بعد باسم سبارطل .

(٤٣) ربما كان هذا النهر هو النيجر كما جاء فى رحلة موليان .

(٤٤) الأمونيون : سكان واحة سيوة .

(٤٥) « وحدود بلاد الأوشية من الغرب بلاد الناسامونه وهم كثير العدد . وفى الصيف يترك الناسامونه مواشيهم على شاطئ البحر ويصعدون إلى قطر يقال له أوجيلس ليحملوا منه التمر فى الخريف . » تاريخ هيرودوتس ، بيروت ، ١٨٨٧ ، الصفحة ٢٢٣ .

مسيرة عشرة أيام أخرى فى اتجاه الغرب تقع بلاد الغارمنطيس (٤٦) ، وهم أفراد قبيلة غفيرة العدد ينشرون الطمى فوق الملح ليبدروا حبوبهم . (٤٧) وعلى مسيرة ثلاثين يوما أخرى من بلاد الغارمنطيس توجد أرض **لوتوفاجى** (٤٨) ، « والماشية لديهم ترعى وهى تتقهقر فى سيرها ، وتفسير هذه العادة الغريبة يكمن فى تكوين قرونها التى تنحنى إلى أمام وإلى أسفل مما يمنعها من التحرك فى الاتجاه المعتاد ، إذ لو حاولت ذلك لاصطدمت قرونها بالأرض » . ويقوم الغارمنطيس بصيد سكان الكهوف السود فى عربات تجرها أربعة خيول . « وسكان الكهوف هؤلاء يعملون بسرعة فائقة . وهم يأكلون الحيات والسحالى وغيرها من الزواحف ، ويتكلمون لغة لاتجمعها صلة بأية لغة على وجه الأرض . ويظن من يسمعها أنها صراح خفافيش . »

وعلى مسيرة عشرة أيام أخرى يوجد موطن قبيلة أثارنته التى لا يتخذ أفرادها أية أسماء فردية ، فأثارنته هو الاسم الجماعى للقبيلة . ولما كانت الشمس هى سبب يؤسهم كله فإنهم يلعنونها وينعتونها بكل إسم معيب . وبعد مسيرة عشرة أيام أخرى فى اتجاه الغرب نصل إلى جبل أطلس . ويتخذ هذا الجبل شكل مخروط رشيق ، ولكن ارتفاعه لا يستهان به ، ولذا فإن قمته لا ترى إذ لا تغادرها السحب قط لاصيفاً ولاشتاءً . والأهالى يسمونه **عمود السماء** ،

(٤٦) الغارمنطيس : شعب أقام جنوب غرب طرابلس الحالية ، واتخذوا اسمهم من جارما (جرما عند الإبريسى) ، وفزان الحالية جزء من أراضي الغارمنطيس القديمة ، وعندما غزا الرومان بلادهم فى القرن التاسع قبل الميلاد أطلقوا عليها اسم فزانيا ، ومنها اسم فزان . كانت غدامس معقلهم قبل ظهور المسيحية . تضاربت حولهم الآراء ، هل من أصل ليبي أم زنجى ، ومن رأى المؤرخين والجغرافيين العرب أنهم من البيضان ، أى ليسوا زنوجا .

(٤٧) « وسكان هذه البلاد أمة الغارامنته وهى كثيرة العدد يطرحون فوق الملح ترابا ثم يزرعون » تاريخ هيرودوتس ، المرجع السابق ، الصفحة ٢٢٧ .

(٤٨) **لوتوفاجى** : الاسم الذى عرفت به جريه الحالية لدى الجغرافيين الإغريق والرومان حتى القرن الرابع الميلادى . وجريه جزيرة تبعد قليلا عن ساحل إفريقية الشمالى وتشكل جزءاً من تونس ، ويفصلها عنها مضيقان أحدهما غرباً ويؤدى إلى خليج قابس . تصارع نورمان صقلية والأسبان والأتراك على ملكيتها . سقطت فى أيدي الأتراك فى عام ٩٦٨ .

ومن أجله يسمونه أتلنته ، ويفترض فيهم ألا يأكلوا أية مخلوقات حية وألا يروا
قط أحلاماً في منامهم . (٤٩)

ويقول هيرودوت إن البحر يغسل ليبيا من جميع جوانبها ماعدا حيث تتصل
بآسيا . وأثبت ذلك الملك المصرى نخاو ، فقد أرسل أسطولاً مزوداً ببحارة من
الفينيقيين ، ويحمل أمرا بالطواف حول إفريقية ، وأبحر الفينيقيون نحو المحيط
الجنوبى ، وكانوا عندما يحل الخريف يحطون الرحال فى بقعة مريحة على
الساحل الليبى ، ويبذرون الحب وينتظرون حصاد العام التالى ، وبعد جنى
المحصول يبحرون مرة أخرى ، وبعد عامين كاملين دخلوا إلى البحر المتوسط ،
وفى العام الثالث عابوا إلى مصر ، وقد أعلنوا أنهم « عندما اتجهوا نحو الغرب
حول طرف ليبيا الجنوبى كانت الشمس على يمينهم - فى اتجاه الشمال منهم .
وبهذه الكيفية اكتشف فى أول الأمر أن ليبيا محاطة بالبحر » ويذكر
هيرودوت أن أكزركسيس ملك الفرس أرسل قائد جيشه ساتاسب ليطوف بحرا
حول إفريقية ، لكنه لم يوفق ، فقد حاول أن يذهب فى عكس الاتجاه الذى سار
فيه الفينيقيون . (٥٠) « بعد عبور المضائق انكفأ راجعا إلى رأس سبارطل ،
واستمر فى الإبحار جنوبا عدة شهور ولكن عندما تبينت له ، بعد المسافة الطويلة
التي قطعها ، ضرورة الإبحار مسافة أخرى أقلع عائدا إلى مصر . » ويبدو أنه
وصل إلى إفريقية الغربية ، فهو يذكر أنه وصل إلى أرض يقطنها أناس قصار

(٤٩) « وكذلك على مسافة عشر مراحل من الغرامنته تجد أكمة أخرى من الملح ونبع ماء وحولها الناس
ويسمون أثارنته . وهم وحدهم ممن أعرف من الناس ليس لهم أسماء تميز بعضهم عن بعض ، وهم يلعنون الشمس
حينما تكون فى أعلى نقطة من ارتفاعها وقوتها ويشتمونها بكل أنواع الشتائم لأنها تحرقهم وتحرق جلوبهم .

« وعلى مسيرة عشر مراحل تجد أكمة أخرى من الملح وحولها ناس . وجبل أطلس يتصل بتلك الأكمة
وهو ضيق مستدير من كل جهة لكنه شامخ حتى يستحيل على ما يقال أن ترى قمته لسبب الغيوم التي لاتزال
محجوبة بها شتاء وصيفا وأهل البلاد يقولون إنه عمود من السماء ، ومن اسم هذا الجبل سموا أتلنته ، ويقال
إنهم لا يأكلون شيئا ما فيه حياة وأنهم لا يرون أحلاما مطلقا . » تاريخ هيرودوتس ، المرجع السابق ، الصفحة ٣٢٨ .

(٥٠) الفينيقيون : قوم يتكلمون السامية ، احتلوا الساحل الشرقى للبحر المتوسط واستقروا
فى قينيقيا (بين صور وصيدا) . اكتسبوا مهارة شديدة فى الملاحة والتجارة حتى أصبحوا سادة
التجارة فى البحر المتوسط (١٢٥٠ ق . م) . حينما رحلوا أنشأوا مستعمرات أشهرها قرطاجة .

القامة يرتدون ثيابا مصنوعة من سعف النخيل . « وعندما نزلوا إلى البر كان الأقزام يهجرون مواطنهم ويفرون إلى الجبال . »

بعد محاولة الدوران بحرا حول إفريقية جاء القرطاجيون ^(٥١) تحت قيادة هانو ^(٥٢) . « يروى لنا القرطاجيون أيضا أنهم يبحرون مع عنصر من البشر يعيش في جزء من ليبيا فيما وراء أعمدة هرقل ^(٥٣) . وعندما يجي أفرادهم إلى هذا البلد يفرغون بضاعتهم ويرتبونها بعناية بمحاذاة الشاطئ ، ثم يعودون إلى قواربهم ويطلقون دخانا ، حتى إذا رأوا كمية معينة من الذهب وضعت مقابل البضاعة يعودون إلى الشاطئ ويلقون نظرة عليه . فإذا اعتقلوا أنه يمثل ثمنا معقولا حملوه ومضوا به ، وإذا بدا لهم من الناحية الأخرى ضئيلا للغاية يعودون إلى قواربهم وينتظرون ، ويحضر الأهالي ويضيفون إلى الذهب حتى يقنع القرطاجيون . وتتوفر أمانة كاملة لدى الجانبين ؛ فالقرطاجيون لا يمسون الذهب قط حتى تتساوى قيمته مع ما يقدمونه للبيع ، والأهالي لا يمسون البضاعة قط حتى يأخذ أصحابها الذهب . » ^(٥٤)

(٥١) القرطاجيون : نسبة إلى قرطاجة في خليج تونس التي أسسها الفينيقيون في القرن التاسع قبل الميلاد ، والتي ينتمي إليها الملاح هانو .

(٥٢) هانو : بحار قرطاجي قام قبل ٤٨٠ ق م برحلة إلى المحيط الأطلسي وغرب إفريقية . سارت الرحلة بمحاذاة ساحل شمال إفريقية ، ويقال إنها اخترقت جبل طارق ، ووصلت إلى ريودي أورو حيث أسست مركزا تجاريا استخدم كقاعدة لرحلات القرطاجيين صوب الجنوب . وقد كتب هانو تقريرا عن رحلته باللغة اليونانية علق في معبد ملكارت بقرطاجة ، وقد عثر فيما بعد على كتاب باليونانية عنوانه Periplus يقال إنه ترجمة لتقرير هانو .

(٥٣) أعمدة هرقل : عرف جبل طارق عند الجغرافيين بكالبي أو الاببي ، أما الربوة عند سبته على الساحل الإفريقي في مواجهة جبل طارق فعرفت وقتئذ بأبيلا ، وقد شكلت كالبي وأبيلا ما عرف بأعمدة هرقل التي ظلت طويلا أقصى ما تصل إليه المغامرات البحرية .

(٥٤) هذا النوع من التجارة عرف بالتجارة الصامته ، وقد حفلت كتب المؤرخين العرب بإشارات إليها مما يؤكد استمرار وجودها في إفريقية حتى أيامهم وساروا (التجار) مجدين بعناية حتى يقدموا الموضع الذي يحجز بينهم وبين أصحاب التبر فإذا وصلوا ضربوا طبولا معهم عظيمة تسمع من الأفق فإذا علم التجار أنهم قد سمعوا الطبل أخرجوا ماصحبهم من البضائع المذكورة فوضع كل تاجر ما يخصه من ذلك كل صنف على جهة وينهبون عن الموضع مرحلة قياتي السودان ومعهم التبر فيضعون إلى جانب كل صنف منها مقدارا من التبر وانصرفوا ، ثم يأتى التجار بعدهم فيأخذ كل واحد منهم ما وجد بجانب بضاعته من التبر ويتركون البضائع وينصرفون بعد أن يضربوا طبولهم « يا قوت الحموى ، كتاب معجم البلدان ، طبعة طهران ، ١٩٦٥ ، المجلد الأول ، الصفحتان ٨٢١ و ٨٢٢ .

ولرحلة هانو أهمية كبيرة فى فهم علاقة الفينيقيين بغرب إفريقية ، فهل دار هانو حول إفريقية ؟ إن هيرودوت ، رغم روايته للقصة ، لا يؤمن بها من جميع جوانبها ، وموضع اعتراضه أن هانو يذكر أن الشمس تأتى من الجانب الأيسر ، ولكن ذلك هو بطبيعة الحال أقوى سبب لقبولها اليوم . غير أن نوع الرحلة التى قادها هانو لابد أن تكون قد خلّفت وراءها شيئاً ، فقد أخذ معه ثلاثين ألف رجل ، ويحملنا هذا على الاعتقاد بأنه كان ينوى أن يؤسس مستعمرات . والرواية الوحيدة المتوفرة لدينا عن رحلة هانو هى تلك التى قدمها هيرودوت ، وتعتمد روايته على ما كان شائعاً يومئذ . فلا الترجمة اليونانية لكتاب *پيريپلوس* (٥٥) ، ولا الأصل المحفوظ بأحد معابد قرطاجة ، قد رآه أحد من العلماء القدامى أو اقتبس منه . وأدى هذا بالبعض إلى القول بأن الوثيقة هى فى المقام الأول بغرض الدعاية ، وبأن هانو لم يدر بحراً حول إفريقية ، ولكن ذلك لا يدعونا إلى الوقوف عند هذا الحد ؛ فالسفن القرطاجية أبحرت حتى وصلت إلى بريطانيا ، وفيما عدا مصاعب الملاحة والمشكلة المتعلقة بحجم الأسطول الذى قاده هانو ، فإنه لا يوجد ما يدحض قيام الحملة الفينيقية .

وقد أثارت رحلة هانو جدلاً شديداً ، لاسيما حول مدى ماوصل إليه الفينيقيون فعلاً أسفل ساحل إفريقية الغربية . وهل كل ما هناك أنهم عبروا مضيق جبل طارق وأبحروا بمحاذاة ساحل مراكش ؟ ذلك أن جذب التربة وندرة المياه والمصاعب الملاحية ، مثل الرياح والتيارات البحرية المعاكسة ، قد حملت غالبية الناس على الاعتقاد بأنهم لم يتقدموا إلى ما هو أبعد من مراكش الجنوبية . وترد على ذلك الحجة القائلة بأن الغوريلا وحمم النار المتدفقة إلى البحر قد ذكرها هانو الذى تدعونا روايته لها إلى الاعتقاد بأن الفينيقيين لابد أن يكونوا قد بلغوا سيراليون على الأقل . بل إن

(٥٥) *پيريپلوس* Periplus : كلمة يونانية معناها الدوران بحراً حول الأرض ، من أهم ما تبقى من هذا الكتاب « *پيريپلوس البحر الأحمر* " *Periplus Mare Erythraeum* " . أنظر الحاشية ١ - ٥٢ أعلاه .

بالمر^(٥٦) يرى أن مترجمي الفينيقيين من أهل ليكسيثاي^(٥٧) هم من أسلاف الفولاني^(٥٨) . وعلى جانب آخر يرجح كثيرا أن بعض رجال رحلة هانو ، الذين بلغ عددهم ثلاثين ألفا ، هم البقايا المتناثرة من بدو الصحراء الذين كانت لدى الفرعون رغبة شديدة في التخلص منهم ، وكانت رحلة هانو فرصة ليرسلهم إلى آخر الدنيا ، وهؤلاء البدو قد يكونون بالفعل أسلاف الفولاني ، لأنهم كما يقول بيرتون^(٥٩) لا يزالون يتمسكون بالأسطورة القائلة بأنهم قدموا أصلا عبر البحار . وربما يكون ذلك تفسيرا لحالتهم البدوية ، ولحبهم للرعى ، وكذلك لحركتهم في اتجاه الشرق .

وكانت معرفة الرومان بالصحراء الكبرى أوسع قليلا من معرفة الإغريق ، ومع ذلك يؤكد سالوست^(٦٠) أن ماكان يعرف عن إفريقية قليل . « لم يكن في

(٥٦) هيربرت ريتشموند بالمر : من أبرز مؤرخي غرب إفريقية ، وبخاصة إمبراطورية البرنو ، من أشهر كتبه Bornu Sahara and Sudan ، وتوجد نسخة منه بدار الكتب وأخرى بمعهد الآثار الألماني بالقاهرة ، وهو يتضمن سردا تفصيليا لتاريخ مايات (سلاطين) الأسرة السيفية في برنو ؛ Sudanese Memoirs ، ويقع في ثلاثة مجلدات في كتاب واحد ويتضمن تراجم كاملة لبعض من أهم المؤلفات العربية في تاريخ المنطقة ، لاسيما مؤلفات أحمد بن فرتوا مؤرخ الأسرة السيفية ، وكذلك تأريخ كانوا ؛ ولايوجد أثر لهذا الكتاب في جميع المكتبات العامة بالقاهرة ، ولكن توجد نسخة وحيدة منه في مكتبة قسم التاريخ بكلية الآداب ، جامعة الإسكندرية .

(٥٧) ليكسيثاي : منطقة العريش الحالية فيما كان يعرف بمراكش الأسبانية .

(٥٨) أنظر الحاشية ١ - ١٠٦ أدناه .

(٥٩) سير ريتشارد ف . بيرتون : (١٨٢١ - ١٨٩٠) ، مكتشف ولغوى وكاتب بريطاني : تعلم عدة لغات شرقية منها العربية . زار مكة والمدينة متخفيا في زي حاج مسلم ، وكتب عن رحلته « القصة الشخصية لحاج إلى المدينة ومكة » . وقد أصدرت الهيئة العامة للكتاب بمصر مؤخرأ ، ضمن سلسلة « الألف الكتاب الثاني » ترجمة لهذه القصة تحت عنوان رحلة بيرتون إلى مصر والحجاز ، الجزء الأول ، قام بها دكتور عبد الرحمن عبد الله الشيخ . قام بيرتون مع سببك وآخرين برحلة إلى الصومال ثم إلى شرق إفريقية للبحث عن منابع النيل ، وبقي في طابورة ، على حين سار سببك شمالا واكتشف بحيرة فيكتوريا ، ترجم « ألف ليلة وليلة » إلى الإنكليزية .

(٦٠) سالوست (جايوس سالوستيوس كريسيبوس) : (٨٦ - ٤٢ ق . م) مؤرخ روماني معروف .

مقدورى أن أقدم فى يسر رواية أكيدة وثابتة عن هذه المناطق ، وعن هؤلاء الذين يندر أن تجمعهم رابطة بسبب القىظ أو صعوبة الاتصال أو الاتساع الشديد الصحراء . « وقد أدت إقامة مقاطعة رومانية فى شمال إفريقيا بعد تدمير قرطاجة إلى خلق مشكلة الحلود المفتوحة ، فروما لم تكن ترى أنه من الضرورى أن تغزو الصحراء ، ولكنها عازمت على إقامة مواقع تستطيع منها كبح جماح البدو . ووجهت إلى القبائل حملة تأديبية عارضة ، وبذات محاولة للسيطرة على المراكز التجارية . وفى العام التاسع عشر قبل الميلاد قاد كورنيليوس باليوس ^(٦١) حملة إلى فزان ، وأخضعت مدن مثل غدامس ^(٦٢) وزورلا . وكانت الحملة تستهدف فى المقام الأول إبقاء الطريق إلى بلاد السودان مفتوحاً . وإذا أخذنا برواية بطلميوس ^(٦٣) فلا بد أن يكون الرومان قد وصلوا إلى حدود بلاد السودان فى العام المائة بعد الميلاد . « أما عن الرحلة من بلاد الغارمنطيس إلى بلاد الإثيوبيين ، فقد قاد سبتيميوس إلاكوس جيشاً من ليبيا فى اتجاه الجنوب ، ووصل إلى بلاد الإثيوبيين فى ثلاثة شهور . وكذلك فإن يوليوس ماترنوس الذى بدأ من لىبتس ماجنا ^(٦٤) ، وزحف من جاراما بصحبة ملك

(٦١) كورنيليوس باليوس : هناك شخصان حصلوا على المواطنة الرومانية فى القرن السابق للميلاد : كورنيليوس باليوس الكبير ، وابن أخيه كورنيليوس باليوس الصغير . ومن الواضح أن المقصود هنا هو الأخير الذى اشترك فى حروب الإسكندرية والحروب الأسبانية ، وأوقع الهزيمة بالغارمنطيس وضم بلادهم إلى الامبراطورية الرومانية وأسماها فزانيا .

(٦٢) غدامس : مدينة فى واحة تحمل نفس الاسم ، كانت معقل الغارمنطيس قبل ظهور المسيحية .

(٦٣) كلوديوس بطلميوس : نشأ بالإسكندرية ، وتوفى بعد عام ١٦١ م . عالم فلك ورياضة وجغرافيا وفيزيقيا ومؤرخ يونانى مصرى . قام بتبويب وتسجيل نتائج وقوانين علماء الإسكندرية . تعتبر أعماله الجغرافية أقرب إلى الفلك ، وقد اعتمد فيها على أعمال مارينوس .

(٦٤) لىبتس ماجنا : ميناء قديم فى موضع طرابلس الحالية أسسه بحارة من صيدا ، أغارت عليه قبائل من فزان وهدمته فى القرن الرابع الميلادى ، وأعاد البيزنطيون بناءه وتحصينه ، ولكن سرعان ما دمره البربر . خلف أطلالا رومانية رائعة .

الغارمنطيس فى اتجاه الإثيوبيين ، قد وصل بعد أربعة أشهر إلى أچيسومبا^(٦٥) ،
وهى منطقة يتجمع فيها الكركدن » .

وذلك لابد أن يكون قد وصل بالرومان إلى حدود إفريقية الزنجية .
وثمة أسباب أخرى تحمل على الاعتقاد بأن غرب إفريقية كان مألوفاً لدى
الرومان ، وقد أكدت الحقائق الأثرية الأخيرة معرفتهم بالصحراء الكبرى . فعلى
بعد قرابة ٤٥٠ ميلاً جنوب لىپتس ماجنا ، أى حوالى خمسين ميلاً شمال
مُزُوق^(٦٦) ، وجدت خرائب ترجع إلى عصر الرومان . كما عثر هنا فى غابة
صغيرة وحيدة على بقايا أوانٍ خزفية . وفى غات^(٦٧) تم الكشف عن كميات
كبيرة من الأوانى الخزفية من أيام الرومان . هذا وقد عثرت البعثة
الإيطالية التى أرسلت إلى الصحراء فى عام ١٩٣٣ على مقبرة فى چيرما
بها أدوات شبيهة بأدوات قرطاجة .

وفضلاً عن التأثيرات المعروفة من المحتمل تماماً وجود تأثير للشرق من
خلال إفريقية الوسطى . ويرجح أن الطريق من الشمال لم يكن قد استخدم حتى
جاء الجمل . ذلك أن الجمل ، استناداً إلى بعض المؤرخين ، حيوان آسيوى .
وقد التقى به الرومان أول الأمر فى أثناء حملتهم على عرب الصحراء ، وجئ به
فى القرن الأول الميلادى ، وسرعان ما أصبح عماد النقل فى الصحراء ، وهكذا
فإن مشكلة السفر فى الصحراء - النقل - لم تحل إلا بعد إدخال الجمل . كذلك
يبدو من المحتمل أنه لم يحدث أى تغلغل واسع من الشمال قبل القرن الرابع
الميلادى عندما أصبح الجمل مألوفاً فى الصحراء .

(٦٥) أچيسومبا : تم ضبط الاسم على الموسوعة البريطانية (Agisymba) طبعة ١٩٥٨ ، 14- 746 D ،
وقد وردت فى النص الإنجليزى « Asigymba » .

(٦٦) جاءت فى النص الإنكليزى MUZURK ، وربما كان ذلك خطأً آخر ، فالمقصود هنا هو واحة
مُزُوق Morzok التى اتخذتها أسرة بنى محمد عاصمة لها ، وتقع على بعد ٢٥٠ ميلاً إلى الشمال الشرقى
، واحة غات . وقد وردت بهذه الصيغة فى أطلس تاريخ الإسلام ، للدكتور حسين مؤنس ، الصفحات ٦٦
٦٧ و ٨١ ومواضع أخرى .

(٦٧) غات : كانت هى وغدامس مركزين يتحكمان فى الطرق التجارية المحاذية لصحراء الحمادا من
ناحية الغرب ، والمتجهة إلى الجنوب بين سلسلتى الجبال أحجار وتموقاصدة النيچر وبحيرة تشاد ، أخذت
أهميتها التجارية تتضاءل عند أوائل القرن الحالى .

ولا ينبغي أن يحملنا ذلك على الاستنتاج بأن إفريقية لم تكن تعرف الجمل ، وربما يكون قد جاء مباشرة من شبه الجزيرة العربية . ذلك إن إفريقية واليمن يفصلهما عند الطرف الجنوبي للبحر الأحمر شريط مائي ضيق تعبره الزوارق حتى في أيامنا هذه نون أية صعوبة . والسودان - سواء المصرى الإنكليزى السابق أو الفرنسى السابق - بلاد رعوية . ولو كان العرب قد عبروا المياه لما وجئوا اختلافا شديدا . وكان هناك فيما يبدو طريقان شائعان : أحدهما يحاذى سفوح الجبال ويدخل بلاد السودان ؛ والثانى يمر بوادى النيل قرب كورسوكو ويمتد عبر صحراء العظمور^(٦٨) حتى يتصل بالنيل بالقرب من أبو حمد^(٦٩) . وهذا يعنى مروره بمنطقة قاحلة ، وإن كانت تزوده بقدر كاف من الماء . ولذا كان باستطاعة العرب إدخال كل من الجمل والحصان . فضلا عن أن مصر ومروى^(٧٠) القديمتين كانتا فى فترة عظمتهم التاريخية عدوانيتين من الناحية الحضارية ، وربما تكونان قد تغلغلتا فى الحوض الواقع بين النيل وبحيرة تشاد . ويرى معظم الخبراء البريطانيين أن هذا قد حدث فعلا ، وأن التأثيرات المصرية على غرب إفريقية ، إن وجدت ، يرجح أنها جاءت من الشرق أكثر مما جاءت من الشمال ، ومن ناحية أخرى يؤكد مونى^(٧١) أنه فى العصور التاريخية على الأقل كانت النوبة وتشاد موزعتين بين دول صغيرة متعددة ، وبعد أن دخل الإسلام مصر والسودان كانت دولة دنقلة^(٧٢) المسيحية بمثابة حاجز فعال ، وإن كاد مفعولها أن يتلاشى فى عصر العظمة المصرية . فحملات الاتجار المصرية تغلغت فى إفريقية السوداء ، وبرغم ذلك فليس هناك ما يقطع بأنها عبرت المنطقة

(٦٨) صحراء العظمور : بشمال السودان ومن أكثر جهاته جفافا . تخترقها سكة حديد وادى حلفا أبو حمد .

(٦٩) وردت فى النص الإنكليزى Abou Hamed ، ولكن صحة الاسم أبو حمد Abou Hamad .

(٧٠) مروى : عاصمة المملكة النوبية الجنوبية التى عرفت باسم مملكة مروى فيما بين القرنين الثالث قبل الميلاد والثالث الميلادى . من أشهر ملوكها الملكة كنداكة أو كنداسة فى النصف الثانى من القرن الأول الميلادى ، وكانت ملامحها زنجية ظاهرة . تأثرت حضارتها كثيرا بالحضارة المصرية .

(٧١) مونى : عالم فرنسى من المهتمين بحضارة شرق إفريقية .

(٧٢) دنقلة : مديرية شمال جمهورية السودان ، وعلى بعد ١٤٠ كم منها كانت دنقلة القديمة عاصمة دنقلة المسيحية أو مملكة المقررة ، اعتلى عرشها أول حاكم مسلم تابع للمماليك فى عام ١٢١٦ ، وحمكها المماليك الفاروق فيما بين عامى ١٨١١ و ١٨٢٠ ، ووقعت فى أيدي المهديين .

القاحلة بين النيل وتشاد ، إذ الأرجح أن هذا الطريق لم يكن أكثر صعوبة من الطريق الشمالى . لكن ماذا كان هناك من حوافز بالنسبة للمصريين ؟ إن احتياجاتهم من العاج والرقيق ، وبل والأقزام ، وكذلك من المعادن ، كان يمكن الحصول عليها من المنطقة الاستوائية . وحتى إذا كان ذلك هو سبب تغلغلهم فى حوض تشاد فإن المنطقة لم يكن بإمكانها أو توفر لهم شيئاً مما يفتقرون إليه . وهكذا فإن تأثير مروي على دارفور لا يعنى بالضرورة أن المصريين قد وصلوا إلى وادى النيجر ، والأمر المرجح هو اتجاه الناس غرباً بمجرد أن تحلت سلطة مروي . ودارفور كانت جارة لمروي ، لذلك خضعت باستمرار لتأثيرها الحضارى . ولا يناع موني فى أن طريق النيل - تشاد لم يكن مستخدماً ، وإن كانت الأدلة على ذلك واهية للغاية . ففي منطقة تشاد لم يعثر على شئ من عالم البحر المتوسط ذى قيمة أثرية كبيرة ، وماتم العثور عليه بأعداد كبيرة إنما هو من آثار العصر العربى . ويأخذ موني عن كاتب فارسى مجهول الاسم ، وكذلك عن **إبن حوقل** ^(٧٣) الذى يقول إنه برغم أن التجار المصريين كانوا يذهبون إلى السودان من أجل حجر الشب والقصدير والخصيان ، فإنهم لم يكونوا راضين عن الطريق ^(٧٤) . وكان الطريق المفضل هو الطريق بين فزان وكوآر وهو طريق مشترك

(٧٣) **أبو القاسم محمد بن العلى الموصلى** : لا يعرف تاريخ مولده ، توفى فى عام ٩٧٧ . ولد ونشأ وتوفى فى بغداد . رحالة وجغرافى عربى معروف . بدأ التجوال يوم أن انقطع المسعودى عن الترحال . بدأ ترحاله من بغداد فى عام ٩٤٣ متخذاً التجارة مهنة له ، ولكنه ربما كان داعية سياسياً . زار شمال إفريقيا والأندلس وناپولى وباليرمو ، وعرف عن كُتب العراق وإيران وجزءاً من الهند . كما دخل بلاد البلغار ووصل إلى أعالي القولجا . يحمل مؤلفه فى العادة اسم كتاب المسالك والممالك ، والمفاوز والممالك برغم وجود تسمية أخرى له هى كتاب **صورة الأرض** ، وقد نشر دى غويه طبعة أولى منه ، ونشر كرامس طبعة ثانية أفضل منها عن أقدم مخطوطة له ، وهى مخطوطة استانبول التى ترجع إلى عام ١٠٨٦ ، أى بعد مائة عام من تأليف الكتاب ، وقد أخذت عن طبعة أصدرتها « دار الكتاب الإسلامى » بالقاهرة تحت عنوان **كتاب صورة الأرض** .

(٧٤) « وفيها الطريق من مصر وغانة فتواترت الرياح على قوافلهم ومفردتهم ، فأهلك غير قافلة واتت على غير مفردة ، وقصدهم أيضاً العدو فأهلكهم غير دفعة ، فانتقلوا عن ذلك الطريق وتركوه إلى سجلماسة . » **إبن حوقل** ، **كتاب صورة الأرض** ، الصفحة ٦٥ .

« وأما الواحات فإنها كانت معمورة ... وكان يسلك من ظهرها إلى بلاد السودان بالمغرب على الطريق الذى كان يؤخذ ويسلك قديماً فى مصر إلى غانة فانقطع ، ولم تزل سافرتهم وسافرة أهل مصر على غير طريق تتصرف إلى المغرب وبلاد السودان فى برارى ، ولم ينقطع ذلك إلى حين أيام دولة أبى العباس أحمد بن طولون . وكان لهم طريق إلى فزان وبرقة فانقطع ... » المرجع نفسه ، الصفحتان ١٤٣ و ١٤٤ .

مع طريق غرب السودان حتى زويلة ثم يتفرع من هناك . وهكذا كانت غالبية التجارة فى العصر الوسيط تتم عن طريق الصحراء ، بيد أن الطريق الشرقى لم يكن مجهولا ، وربما يكون هو طريق الهجرة كما تزعم الروايات . وهذه الهجرة لم تكن على أية حال من مصر ، بل كانت على الأرجح حركة إلى الداخل لأناس من السودان الشرقى .

ولا ينبغي أن نبخس قدر التأثيرات المصرية . وسواء أكان **حرخوف** (٧٥) أم غيره من التجار المصريين قد جاء إلى غرب إفريقيا ، فمن المؤكد أن تجارة الرقيق والعطور التى كانت تواجه منافسة شديدة قد أغرت المغامرين المصريين بالتغلغل على مهل فى غابات إفريقيا الوسطى ، ويصعب تماما الحصول على بيئة على تجارة الرقيق أو المقايضة فى العصور الوسطى . ولكن الروايات التى نقلت إلى مصر ، كتلك الخاصة بسحرة **چنى** (٧٦) ، قد يكون أساسها إحساسا شعبيا . والاكتشافات الأخيرة فى برك تعزز بدورها الاعتقاد بأن طريق النيل - تشاد لم يكن حاجزا فعلا .

وقد توصل أركل (٧٧) إلى بيانات هامة ترجح أن طريق بحيرة تشاد كان مستخدما . وكشفت حفائر الخرطوم عن عظام تياتل وحيوانات تعيش فى المستنقعات مثل جزدان البوص ، وهى حيوانات لا تعيش الآن فى الخرطوم ، وأقرب شئ لها عثر عليه هو لعنصر منقرض فى واد يمتد من سلسلة جبال

(٧٥) **حرخوف** : (ويقال هاركيف) وزير ييبى الثانى فى أواخر الدولة القديمة . قاد أربع قوافل إلى النوبة أشهرها الثالثة التى بلغ فيها السودان ، وسلك إليه طريق الأربعين ، وحمل عند عودته البخور والعطور والسمن وخشب الأبنوس وجلد الفهد ، وكذلك قزما من قلب إفريقيا .. ودونت أخبار تلك الرحلة على جدران قبره .

(٧٦) **چنى** : كانت العاصمة الثقافية لإمبراطورية السنغى ومركزا للتعليم الزنجى . يعتقد أن السنغى أسسوها فى القرن الثامن الميلادى . يقول بعض المؤرخين إنها أعطت أسمها لكل الساحل وإن كلمة غينيا مشتقة منها . مازالت توجد بها آثار من الفنون المراكشية . تحدث عنها السعدى وكعت كثيرا عرفت بلؤلؤة النيجر .

(٧٧) **إ. ج. أركل** : مؤرخ آثار معروف ، عين مديرا لمصلحة الآثار والأنثروپولوجيا بالسودان ، أبرز من أرخ للسودان وألفى الضوء على منشأ الفن الإفريقى . أثبتت حفائره فى شمال الخرطوم أن شعب هذه المنطقة كان زنجيا يستخدم الفخار ويعيش على الأسماك والحيوانات والتقاط الفاكهة ، كما يستخدم المحار والبللطة والمدرقة المصنوعتين من الحجر ، وعثر أركل أيضا على آثار تنتمى إلى العصر الحجري الحديث .

أحجار . كما عثر في الخرطوم على حراب بها ثقب وثلاث شوكات معكوسة أو أكثر . وأقرب شيء إلى هذه الحراب عثر عليه في غرب إفريقية على بعد ٢٥٠ ميلا من المكان الذي عثر فيه على عينة منقرضة من جردان البوص . والمصنوعات الحجرية التي تصفها **مس كاتون ثومبسون** ^(٧٨) بأنها تنتمي إلى العصر الحجري الحديث بمنطقة الفيوم لم توجد فقط في الخرطوم وإنما وجدت أيضا في هضبة قبستي ^(٧٩) إلى الجنوب الشرقي من جبال أحجار ، فضلا عن أزولا . ويتمثل وضوح حضارة الفيوم في الآلة الحجرية (الأزميل المقعر ^(٨٠)) التي لم يعثر عليها في وادي النيل وإنما في غرب إفريقية والخرطوم . وهناك أيضا الأعمدة الحجرية العظمية التي اكتشفت في الخرطوم وعليها نقوش غير واضحة للجمال ، كما اكتشفت أعمدة مماثلة في لكودار بموريتانيا .

ولذلك نستطيع أن نخلص إلى أن طريق النيل - تشاد كان مستخدما منذ العصور القديمة ، وأن الجمل قد دخل إفريقية من الشرق ، وتستند إلى ذلك نظرية بالمر القائلة بأن الطوارق ^(٨١) هم أحفاد

(٧٨) **مس كاتون ثومبسون** : عالمة آثار اشتهرت بحفائرها بمنطقة الفيوم التي كشفت عن حضارة تنتمي إلى العصر الحجري الحديث تماثل في قسمات كثيرة تلك التي كشفت عنها حفائر أركل في الخرطوم ، وترجع هي وحضارة الخرطوم إلى حوالي ٣٩٠٠ ق.م .

(٧٩) **تبستي** : منطقة جبلية وسط الصحراء تقطنها حاليا قبائل التيبو . بها مجار مائية جافة غائرة العمق استكشفها جزئيا جوستاف تشيغال في عام ١٨٧٠ ، واستكمل كولونيل س . تيلهو أعماله في عام ١٩١٥ .

(٨٠) وردت في النص الانجليزي « gonge » ، ولكن صحتها « gouge » ، وتؤكد ذلك الصفحة ٣٠ من كتاب أركل « Early Khartum » ، كما أن المقابل الانجليزي لكلمة « أزميل » هو « gouge » .

(٨١) **الطوارق** : مسلمون من البربر يقطنون غرب الصحراء الكبرى من توات حتى تمبكت ، ومن فزان حتى زندر . ويفضلون سكنى المراكز التي تتفرع منها طرق التجارة . بشرتهم صفراء مشوية باحمرار وشعرهم أسود حريري الملمس ، وعيونهم سوداء وأنوفهم صغيرة ، وأجسامهم مفتولة العضلات ، وهم طوال القامة لطاف الشمال يلبس رجالهم اللثام ليل نهار ، ولا يظهر من اللثام غير عيونهم ، على حين لا تلبسه نساؤهم ، ولذا أسماهم العرب بالملثمين أو أهل اللثام ، كما يسمون المسوفة في بعض المصادر . يشتغلون بتربية الإبل ، ويحتقرون الزراعة ويتركونها للعبيد ، ويعكس النظام القبلي عندهم بعض ملامح النظام الأمومي ، وتتمتع المرأة عندهم بمركز ممتاز في المجتمع ، ولها حق الاختلاط واختيار الزوج والاشتراك في مجالس القبيلة .

البليميين (٨٢) القدامى الذين استوطنوا النيجر الأعلى ثم رحلوا فيما بعد إلى برنو ، وقد استخدم عرب الشوا (٨٣) بدورهم هذا الطريق للوصول إلى برنو .

وجدير بنا أن نتذكر أن المنطقة بين تشاد والنيل كانت مأهولة بالسكان . وكانت توجد بدنقلة في القرن السابع الميلادي أغلبية مسيحية وأقلية مسلمة . وفي عام ٦٥٧ ، أي بعد أحد عشر عاما من فتح العرب لمصر ، وقّع الحاكم عبد الله بن سعد (٨٤) مع حاكم دنقلة معاهدة تعهد فيها الأخير بالإبقاء على المسجد المحلى والسماح بإقامة الشعائر الدينية فيه ، مما يبين أن دنقلة كانت بها جالية إسلامية كبيرة وأن المسلمين كانوا يزورونها . ولم يكن من العسير على التجار المصريين ، حتى في العصور القديمة ، أن يتغلغلوا في المنطقة ، وبخاصة أن ذلك كان ميسراً للمبشرين المسيحيين في القرنين الثاني والثالث ، ولذلك فبرغم الافتقار إلى دليل مباشر على وجود مصرى في تشاد ، فإنه ينبغي التسليم بإمكانية أن مصر ومروى لم تكونا غريبتين على غرب إفريقية .

(٨٢) تحمل هذا الاسم قبيلة عدوانية من بدو الصحراء عاشت في مناطق النوبة بين النيل والبحر الأحمر ويطلق عليها بعض المؤرخين اسم البجاة (أو البجة) . كانوا يحجون إلى إيزيس في جزيرة فيله . تتكون حاليا من البشاريين وبنى عامر والهندو وغيرهم ، اعتنق كثيرون منهم المسيحية في القرن السادس الميلادي . ظلوا لفترة يشكلون تهيدا لمصر العليا ، وبخاصة لطيبة ، ولكن محاولات غزوها صلت جميعاً .

(٨٣) عرب الشوا : يتركزون على الشواطئ الجنوبية والغربية لبحيرة تشاد . تكونت تجمعاتهم نتيجة هجرات عربية إلى برنو منذ القرن السابع عشر . ينقسمون إلى مجموعات حسب نظام حياتهم ، فمعهم رعاة الإبل ورعاة البقر إلخ .. من أهم مجموعاتهم : الحصاونة الذين جاءوا عن طريق طرابلس ؛ جهينة الذين جاءوا عن طريق وادي النيل الأوسط . كان لهم دور كبير في تاريخ البرنو وفي قوة جيشها إذ كانوا يزوبونها بالفرسان الشجعان المدربين ، فقد كان الفرسان عماد جيش برنو ، أنظر ، الفصل السادس أدناه .

(٨٤) عبد الله بن سعد بن أبي سرح : (؟ - ٦٥٧ م) قرشى ، فاتح إفريقية . شارك عمرو بن العاص فتح مصر ، ثم ولى الحكم فيها عام ٦٤٧ . زحف لفتح ما بين طرابلس الغرب وطنجة ، ودان له الشمال الإفريقي . غزا البيزنطيين بحرا وانتصر عليهم في معركة ذات الصواري في عام ٦٥٤ ، وقد سميت كذلك لكثرة ما استخدم فيها من السفن . انضم إلى معاوية بالشام بعد مقتل عثمان ، مات بعسقلان . وقع مع حاكم دنقلة معاهدة البقط (البقط بمعنى العهد والميثاق) في عام ٦٥٧ ، ويمقتضاها ألزم النوبيون أنفسهم بإعادة من نزل بلادهم من المسلمين والعبيد الأبقين والذميين الذين يجب عليهم أداء ضريبة الرؤوس ، ويتحمل نفقات مسجد يشيد في دنقلة .

فهل كانت هناك تأثيرات مصرية على غرب إفريقية ؟ تخلص الأنسة هومبرجر من دراسة أجرتها فى اللغات الزنخية إلى أن هذه اللغات مشتقة من اللغة المصرية القديمة . وذلك زعم لايمكن لغير العلماء أن يقرّوا صحته ، ولكن هومبرجر تقول إن أحدا لم ينقض حجتها . فضلا عن الأشغال المعدنية التى يقول وينرايت إنها كانت منتشرة على نطاق إفريقية الزنجية ابتداء من السودان وفيما بين الإيوى^(٨٥) ، فإنه لاتزال تعلق بالذاكرة صورة « كور » يعمل بالقدم ، كذلك توجد بالقرب من الأويو^(٨٦) حلقة خطاف أخضر اللون تلتف حول حديد متوهج داخل الفرن ، وتستخدم هذه الحلقة فى سحب الحديد إلى الخارج ، وهى شديدة الشبه بصور بعض الصناعات المعدنية المبكرة . وثمة أعراف معينة فى نيجيريا حملت بعض العلماء ، بسبب تماثلها مع أعراف مصر القديمة ، على الاعتقاد بأنها قد تكون مصرية المنشأ . فالكبش على سبيل المثال حيوان مقدس عند اليوربا مثلما هو مقدس لدى المصريين ، كما أن ديانة اليوربا تجمعها بديانة مصر القديمة عناصر شبه كثيرة تسترعى الانتباه . وبالمثل يوجد شبه مثير بين تابوت مقبرة أتا جلا ذى الشكل الكهفى المجوف ، أو القوارب التى استعملت كتوابيت عند النوبى^(٨٧) ، وبين الرسومات الموجودة على الجبانات المصرية .

(٨٥) الإيوى : شعب من أصل زنجى ، توزع أبنائه لأسباب تاريخية إلى أربعة أقسام : ساحل الذهب ، توجو لاند البريطانية ؛ توجو لاند الفرنسية ؛ داهومى . يشاطرون الأشانتى ثقافتهم وأعرافهم وطقوسهم الدينية . يشكلون الغالبية العظمى من سكان جنوب توجو ، وهم يشتغلون بالزراعة والتجارة .

(٨٦) الأويو : فروع من اليوربا . قامت بولتهم قبل القرن الحادى عشر فى جنوب غرب نيجيريا الحديثة ضمن ماعرف بدول الغابات ، وقبل أن يبدأ الأوروبيون التجارة على الساحل تأثر توسعهم بالرغبة فى صيد الرقيق لبيعهم للأوروبيين وبالحصول على الأسلحة فى المقابل . وصلت بولتهم إلى ذروة رخائها واتساعها فى القرن الثامن عشر ، بعد ما أدت تجارة الرقيق إلى حروب مستمرة وتحلل فعلى .

(٨٧) النوبى : مجموعة القبائل بجنوب نيجيريا ووسطها حيث يوجد خليط من الوثنيين والمسلمين ، وحيث تنتشر لغة خاصة تعرف بلغة النوبى ، وتشمل قبائل الباتاتشى و البينى والبينو والشاكيانج والديبو والإيباجى والإيوى وغيرها ، ولديهم نظام اقتصادى وسياسى شبيه بنظام الهوسا ، نشأت بينهم بعض الممالك والدول القوية .

وقد فضل آخرون البحث عن منشأ فينيقي أو يهودي أو حتى إغريقي . من ذلك قول **قروينيوس** ^(٨٨) بأن المصنوعات الخزفية الجميلة في إيفه لابد أنها من صنع الإغريق الرحل الذين استقروا في المنطقة ، وبأن بلاد اليوروبا هي أتلنتس المفقودة . وتكمن أهمية دراسة التأثير الحضاري على غرب إفريقية في أنها تعطينا مفتاحاً لفهم الفكر الأوروبي . ويقال إن ديانة الناس هنا قبل مجيء الإسلام لابد أن تكون اليهودية أو المسيحية . وعلى أساس أدلة واهية للغاية يقال إن الطوارق لابد أنهم كانوا مسيحيين لأن كلمة عيسى في لغة التمشكت تعني إلهاً ، وأن مقبض السيف عند الطوارق عبارة عن صليب .

وبين هذه الأساطير تعد الأسطورة اليهودية أكثرها أهمية . يقول البكري إنه وجدت في مراكش جاليتان يهوديتان ، وإن مهنة المعمار في سجلماسة كانت وقفا ^(٨٩) عليهما . والإبريسي ^(٩٠) هو الذي أقام

(٨٨) **ليوفروينيوس** : (١٨٧٣ - ١٩٢٨) ، مستكشف وعالم آثار ألماني ، ويعد من أهم المصادر في فنون ما قبل التاريخ . أسس « معهد المورفولوجيا الثقافية » في فرانكفورت عام ١٩٢٢ . اهتم بالكتابة في الفولكلور عند اليوروبا وقبائل أخرى .

(٨٩) « وأهل سجلماسة ... والبناعون عندهم يهود لايتجاورهم هذه الصناعة » ، البكري ، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، الصفحتان ١٤٨ و ١٤٩ .

(٩٠) أبو عبد الله محمد بن محمد الإبريسي (الملقب بالشريف) : (١٠٩٩ - ١١٨٠) الرحالة والجغرافي العربي الكبير ، زار بلدانا كثيرة وخلف وصفا شيقا لمعالمها . طاف بآسيا الصغرى ومصر ومراكش والأندلس ، وعبر البحر إلى إنجلترا بعد أن زار فرنسا ، ثم عاد إلى صقلية حيث قوبل بالترحاب وأغدقت عليه العطايا والهبات من ملكها روجر الثاني المعروف في الكتب العربية باسم « رجار » . وقد اصطنع له الإبريسي كرة أرضية كتب عليها بأحرف عربية كل ما يعرفه عن البلدان المختلفة . وقد فقدت هذه الكرة وفقدت معها المعارف الجغرافية قيمة علمية عظيمة . سجل مشاهداته في كتاب أطلق عليه نزهة المشتاق في اختراق الآفاق . نلمح في كتابه ملامح واضحة للجغرافيا البشرية ، وصلة بين الجغرافيا الاجتماعية والاقتصادية ، كما لا يخلو من لمحات لتوزيع الأعراق البشرية ومن إشارات إلى بعض نظم الحكم السائدة مما يعد محاولة أولى لدراسة الجغرافيا السياسية . قام جويرت في عام ١٨٢٠ بترجمته إلى الفرنسية ونشره عن نسخة خطية بمكتبة باريس تعتبر اختصاراً لنسخة موجودة في مكتبة الأسكوريال بأسبانيا ، ثم صدرت للكتاب طبعا كثيرة بلغات مختلفة ، منها كتاب صدر في الهند بالعربية يحوى ماجاء في نزهة المشتاق عن الهند ، وآخر يحوى ماجاء به عن إيطاليا وصقلية ، وثالث يحوى ماجاء به عن بحر القلزم ، إلخ .. وقد أصدرت مكتبة الثقافة الدينية بالقاهرة طبعة من نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، وعن هذه الطبعة حققت مأورده باتيكار نقلا عن الإبريسي ، وسأشير إليها بنزهة المشتاق .

الأسطورة اليهودية على أساس سليم ، وهو يقول ، استناداً إلى الروايات ، إن رجال للم يهود ، لكنهم أنغمسوا في الجهل وعدم التقوى . ومن العسير أن نفهم كيف استطاع الإدريسي الحصول على هذه الرواية . (٩١)

ومع مقدم العصور الوسطى ارتدت الأسطورة في الواقع إلى حقيقتها . **ففرناندز** (٩٢) يقول إن **الجريوت** يهود لأنهم يمارسون الختان ، ولأنهم محتقرون . وقد عثر **ملفانتى** (٩٣) على يهود في مدن الصحراء الكبرى مثل **توات** (٩٤) ، حيث كانوا يتبعون للطبقة الحاكمة المحلية ، وكان بعضهم شديدي الثراء . ولكن ملفانتى لسوء الحظ ليس شاهداً يركز إليه لأنه وجد أيضاً في الصحراء الكبرى تجارا هنودا وكذلك فلسطينيين . **كعت** (٩٥) هو الشاهد الأكثر أهمية على وجود فترة يهودية في غرب إفريقية ، وهو يذكر أن اليهود كانت لهم مملكة

(٩١) « أرض للم ... وأهلها فيما يذكره أهل تلك الناحية يهود والغالب عليهم الكفر والجهالة . » **لزهة المشتاق** ، المجلد الأول ، الصفحة ١٩ .

(٩٢) **أنطونيو فرناندز** : مستكشف برتغالي قام باستكشاف منطقة المونوتوما (الماشولاند) قبل عام ١٥١٤ . **والجريوت** طائفة من المغنين والمداحين ومحبي الحفلات .

(٩٣) **أنطونيو ملفانتى** : رحالة إيطالي في القرن الخامس عشر تحدث عن تاجر مصرى جاء إلى هذه المنطقة بصحبة بعض الهنود المسيحيين ومعهم نحاس لمبادلاته بالذهب . قدم في عام ١٤٤٧ وصفاً للمجتمع اليهودي المزدهر في تامنتيت (تندرم) الذي قضى عليه المغيلى .

(٩٤) **توات** : مجموعة الواحات في غرب الصحراء الكبرى ، من أهمها واحتا جرارة في الشمال وتيديكت في الجنوب مع مركز عين صالح الهام . أطلق عليها الفرنسيون أرخبيل توات . وضع العرب أيديهم عليها في القرن الرابع الهجرى ونشروا فيها الإسلام .

(٩٥) **محمود كعت** : مؤرخ دولة السنغى الكبرى ، وصاحب المرجع التاريخى المعروف **تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيش وأكابر الناس** ، الذى حققه ونشره ، إلى جانب ترجمة فرنسية له ، المستشرق الفرنسى **ديلافوس** وصهره المستشرق الفرنسى **هودا** . وسأشير إلى هذا الكتاب أدناه باسم **تاريخ الفتاش** . من أجل مزيد من التفاصيل عن الكتاب وصاحبه انظر الإضافة المرفقة بنهاية الكتاب .

فى الصحراء الكبرى اتخذت عاصمة لها مدينة تامنتيت (٩٦) التى تقع على طريق النخيل وهو عبارة عن أرخبيل من الواحات يمتد مسافة ٨٠٠ ميل ، وتتم صيانتة بنظام من الفجارا (٩٧) ولكن السعدى (٩٨) لايقول شيئا عن هذه الأشياء الرائعة . ويزودنا كعت بمفتاح لهذه الأسطورة عندما يقول إن أسكيا محمد رأى حلما عن بنى إسرائيل . (٩٩) وهكذا يكون بنو إسرائيل هم الملاذ الذى يلجأ إليه فى كل شئ يتعذر تفسيره . وهذا هو الأساس الذى بنى عليه ديلافوس (١٠٠) نظريته فى الأصول اليهودية .

وربما كان التأثير الأكثر أهمية هو تأثير الفينيقيين الذين استوطنوا شمال إفريقيا . فقرطاجة مثلا لم يكن غائبا عنها أنه توجد عبر الصحراء مملكة غنية بمواردها الاستوائية . ولابد أن التجار القرطاجيين قد عبروا الصحراء بحثا عن العاج والذهب ، واستوطنوا هناك وتزوجوا بنساء محليات . وقد حاول ديلافوس دعم هذا الاستدلال بدراسة فى تأثير اللغات السامية على اللغات السودانية ، وتبين له أن هذا التأثير كان كبيرا ، وعلى الرغم من أن معظم هذا التأثير قد جاء بعد الإسلام ومن اللغة العربية ، فإن بعضه قد حدث - طبقا لرأية - قبل

(٩٦) يرجح أن هذه المدينة هى تندرة أو تندرم التى أشار إليها محمود كعت .

« وفى هذا العام وهو عام الثانى والتسعمائة بنيت تندرة وأمره اسكى محمد أن يبنى لنفسه مدينة ... فلما جاء عمر يريد بنائها أى تندرم ... وقال له هل وجدت هنا أحدا حين تنزل فقال له ما وجدت هنا حينئذ إلا عبدا شيخا كبيرا ابيض شعره حتى أحمر من بقايا قوم بنى إسرائيل » تاريخ الفتاش ، الصفحات ٦٢ و٦٣ و٦٤ . (٩٧) أحد أساليب الرى التى استخدمها سكان الواحات ، وبخاصة توات وغرارا . وهو عبارة عن قنوات من صنع الإنسان تحفر تحت سطح الأرض بميل خفيف لجلب المياه الجوفية إلى الواحة بفعل الجاذبية الأرضية .

« حتى أتى تندرم فأعجبه ذلك المكان وكان قبل مسكن قوم بنى إسرائيل وأجداتهم وآبارهم هناك إلى الآن فلما رأوا آبارهم ووجدوها يومئذ ثلاثمائة وثلاثين بيرا فى جوانبها ووسطها ورأوا عجيب حفرها وحالها ... » المرجع نفسه ، الصفحة ٦٢ .

(٩٨) عبد الرحمن بن عبد الله بن عمران بن عامر السعدى (وقيل السعيدى) : صاحب تاريخ السودان . من أجل مزيد من التفاصيل أنظر الإضافة المرفقة بنهاية الكتاب .

(٩٩) أفاض محمود كعت فى سرد تفاصيل هذا الحلم بحيث يتعذر نقل اقتباس موجز يفى بالفرض انظر ، المرجع نفسه ، الصفحات ٢٤ وما بعدها .

(١٠٠) موريس ديلافوس : (١٨٧٠ - ١٩٢٦) ، المستشرق الفرنسى المعروف ، وصهر المستشرق الفرنسى هودا ، وقد قاما معا بتحقيق كتاب تاريخ الفتاش ، وترجمته إلى الفرنسية . يعد من أقر العلماء الفرنسيين دراية بالشؤون الإفريقية ، وله مؤلفات كثيرة فى هذا المجال . وقد عمل محاضرا بمعهد اللغات الشرقية الحية فى باريس .

الإسلام . كما أن الأشكال اللغوية التي اتخذتها بعض الكلمات مختلفة تماماً عما يمكن أن تكون عليه لو كانت قد استعارتها من اللغة العربية .

ومنذ وقت قريب قالت السيدة **ميرو شيتز** (١٠١) إن « ثقافة الأكان » (١٠٢) وحضارتهم ليستا من منشأ زنجي إفريقي ، وإنما يمكن تصنيفها بوجه عام على أنهما من أصل ليبى - بربرى ، وبصورة أكثر دقة على أنهما من أصل ليبى - فينيقي أو قرطاجي . وهى تؤسس نظريتها على أنهما أموميون (١٠٣) ، وأن أنظمتهم الدينية متماثلة ، وبخاصة **تانيت ونيانى** (١٠٤) . ولكن صفات النيانى الكثيرة وطقوس عبادتهم - التضحية بالأطفال والعذارى ، دور القمر الهام فى العبادة ، مفهوم النيانى كألوهية مسلحة ، المخروط الثلاثى ، ثنائية الجنس ،

(١٠١) **إيلا ل. ر. ميرو شيتز** : اشتهرت بكتاباتها التى تبحث فى الروابط الحضارية بين مصر القديمة والأكان فى غانة . ولها فى هذا الموضوع ، إلى جانب بحوثها ومقالاتها الكثيرة الهامة ، أربعة كتب من بينها كتاب *At the Court of an African King* الذى قام الدكتور زاهر رياض بترجمته إلى العربية ضمن سلسلة الألف كتاب الأول تحت عنوان **فى بلاط ملك إفريقي** .

(١٠٢) **الأكان** : أهم المجموعات القبلية فى غرب إفريقية ، وهم جميعاً من أصل زنجي ، وينتمى إليهم الأشانتي والجزء الأكبر من سكان غانة ، ويمكن تقسيمهم اليوم من الناحية اللغوية إلى مجموعتين رئيسيتين : **الفنتى والتوى** .

(١٠٣) **الأمومية** : اصطلاح يستخدم لوصف العشيرة أو العائلة التى تتركز حول الأم بدلاً من الأب ، فتسكن العائلة فى موطن الأم ويأتى الأب ليعيش معها ، وتكون مسؤولياته نحو الأولاد قليلة إلا فيما يتعلق بمعاشهم . ويحمل الأولاد إسم الأم ، ويتمتع الخال بسلطة كبيرة على أولاد أخته الذين يرثون ممتلكاته .

(١٠٤) **تانيت** : الإلهة العذراء ، إلهة السموات والقمر والوصية على شعب قرطاجة ، وهى تقابل الإلهة شتروت عند الفينيقيين ، وهناك أسطورة فينيقية تقول إن تانيت هى نفسها الإلهة ديدو أو إليزا مؤسسة قرطاجة . وكانت ديدو إبنة للملك ماتون وزوجة لاسبرياس ، وقد ذبح زوجها على أيدى أخيهما بيجماليون ، فهربت بعد ذبحه إلى قبرص ، ومنها إلى ساحل إفريقية حيث اشترت قطعة من الأرض أسست عليها قرطاجة .

أما **نيانى** فقد وجدتتها فى الكتب التى توفرت لدى **نيامى** . وأقول فى هذا الصدد إن الأكان كانوا يرون القمر إلها ينبغى عبادته ، وإن أصلهم يرجع إلى أشعته التى تجسدت فى صورة الأم التى أنجبت عشائريهم الأولى . وقد عرفت الإلهة الأم لديهم باسم « **نيامى** » المشتق من لفظ « **نيام** » بمعنى البريق والضياء . وإذا تعرفنا على طبيعة عقيدة القمر لدى شعوب قرطاجة فإننا نرى أوجه شبه كثيرة بين عقيدتى تانيت ونيامى ، كما نرى أيضاً أن « **الطواطم المفضلة** » ، وهى الحيوانات التى تجسدتا فيهما ، تكاد أن تكون واحدة لدى القرطاجيين والأكان .

الحيوان الذى هو رمز مقدس للإلهة - قد وجدت أيضا فى عبادة الإلهات لدى شعب أمومى آخر ، لذلك يكون من الخطأ الاعتقاد بأن النظام الاجتماعى الذى قام لديهم إنما هو نتيجة أصلهم الليبى البربرى . ومن سوء طالع الإفريقى أن أقل تماثل بينه وبين الشعوب الأخرى قد حمل مؤرخى إفريقية الأوروبيين على استنتاج أن الثقافة لا يمكن إلا أن تكون قد جاءت من الخارج .

وعلى الرغم من أن الأوروبيين قد حاولوا أن يرجعوا الحضارة الإفريقية إلى أصول يهودية وقرطاجية ومصرية ، فإنه قلّه منهم حاولت إجراء دراسة منظمة عن إمكان وجود تأثيرات هندية . والحقيقة أن فلورا شو (١٠٥) بذلت محاولة لتبين أن الفولانى (١٠٦) قد جاءوا من الهند . غير أن كثيرين يتفقون على وجود تماثل يسترعى الأنظار بشدة فى النمط العرقى لشعوب ماليزيا وميلانيزيا وجنوب الهند وإفريقية . كما أن بعض الأنثروبولوجيين على استعداد للتسليم بأنه توجد بدرجة ما صفات درايفيدية (١٠٧) فى إفريقية . ويشير لاترز فى كتابه Individuality of the Blood إلى خريطة لتوزيع فصائل الدم عثر عليها تتعلق بإندونيسيا وبذلك الجزء من غرب إفريقية حيث توجد التماثلات الثقافية . فالودع الذى استعمل كعملة فى غرب إفريقية جاء من المحيط الهندى ، وهو لا يستخدم إلا فى ملبار (١٠٨) وحدها مثل استخدامه فى غرب إفريقية من أجل

(١٠٥) فلورا شو . زوجة لورد فريدريك چون لوجارد ، ولذا يشير إليها بانىكار فى مواضع أخرى باسم ليدى لوجارد . اشتهرت بكتاباتاتها فى شؤون المستعمرات البريطانية ، وقد ذاع صيت لورد لوجارد فى أواخر القرن الماضى ومطلع القرن الحالى فى استكشاف القارة الإفريقية وغزوها .

(١٠٦) الفولانى : هم قبائل الفولابى المعروفة أيضا بالفولا ، وقد أطلق عليهم العرب إسم الفلاته . يوجنون فى غرب بلاد السودان والبعض من شرقها من سنغيبيا غربا إلى تشاد شرقا . منهم الرعاة الرحل والزراع المستقرون . يشكلون الطبقات الحاكمة فى بعض أجزاء نيجيريا الشمالية . نشروا نفوذهم خلال إمبراطورية غانة ، ثم شقوا طريقهم إلى بلاد الهوسا ، ويؤرخ فتحهم بإعلان عثمان دان فوديو حربا مقدسة على أمرائها فى عام ١٨٠٤ . يتكلمون لغة الفلقدى ذات الأهمية الكبيرة فى فهم بعض مشكلات اللغة فى إفريقية .

(١٠٧) الدرايفيديون : اسم أطلق على أكبر مجموعة من سكان الهند قبل مجئ الآريين إليها ، ويطلق اليوم على مجموعة بشرية كبيرة تعيش بجنوب الهند ، ويفترض أنهم من سلالة درايفيدى ما قبل التاريخ ، ويتميزون بخصائص زنجية واضحة .

(١٠٨) ملبار : ولاية هندية عند أقصى جنوب الهند ، وقد ظلت تعرف بهذا الإسم حتى إعلان الاستقلال ، ومنذ ذلك الحين أصبحت تعرف بولاية كيرالا التى يتنمى إليها بانىكار مؤلف هذا الكتاب .

قراءة الطالع . وفي كوش^(١٠٩) كان الودع يستعمل كقطع نقود صغيرة القيمة ، وهكذا يحتمل أن يكون قد ظهر في أجزاء أخرى من الساحل الغربى . فضلا عن أن أركل ، على سبيل المثال ، يربط مابين التيسيجونت ، وهو قرط يستعمله الطوارق ، وبين الأقراط التى عثر عليها فى جبال جاور^(١١٠) . ويتفق مونو أيضا على أن الطوارق لا يعرفون أصل الأقراط أو مصدرها ، وعلى أنه توجد أوجه شبه ملفتة للنظر بينها وبين أقراط أسام^(١١١) ، فكل منها يتخذ شكل القارب . ثالثا ، فإن التلاخميت ، استنادا إلى أركل ، لابد أن يكون قرطا كرمليا من جوجرات^(١١٢) له الشكل المتدهور للإلهة الأم على هيئة لينجام يونى^(١١٣) . وهذا القرط ربما جاء إلى الصحراء الكبرى إما من السودان الشرقى أو من سوريا .

وقد عثر بومان وأنكرمان^(١١٤) فى غرب إفريقية على مجوهرات ذات تأثير هندى على هيئة الدنتلا ، وإن أى دارس يعقد مقارنة بين المعبد الهندى والمعبد فى غرب إفريقية لابد أن يتبين بينهما تماثلات تسترعى الأنظار كثيرا . وكان الاجييرا^(١١٥) فى نيجيريا ، على غرار قناصة الرؤوس فى أسام وإندونيسيا ، ينظرون إلى الرأس على أنها مصدر الخصوبة ، كما كانوا يعتبرون الحياة مادة محسوسة يمكن تحويلها إلى مادة أخرى . ويرتبط ذلك بعبادة الحجارة ،

-
- (١٠٩) كوش : إمارة هندية سابقة فى غرب الهند ، أصبحت فى عام ١٩٥٦ جزءاً من حكومة بومباى .
- (١١٠) جبال جاور : مقاطعة فى وادى أسام ، أخذت اسمها عن الجاور ، وهم قبيلة تنمى إلى التبت وبورما ، والأرجح أنهم قسم من قبيلة بوبو التى احتلت فى وقت ماجزءا كبيرا من أسام .
- (١١١) أسام : الولاية الشمالية الشرقية لجمهورية الهند ، تكاد بنغلاديش أن تفصلها عن بقية الهند .
- (١١٢) جوجرات : مدينة بغرب باكستان . توجد حاليا فوق موقع كان مأهولا فيما سبق ، طبقا للروايات ، بمدينتين متعاقبتين دمرت الثانية منهما فى عام ١٢٠٣ ، عام الغزو المغولى ، وبعد ذلك بأكثر من مائتى عام شيد شيرشاه أو أكبر شاه المدينة الحالية .
- (١١٣) لينجام - يونى : انتشرت فى أجزاء من العالم عبادة الذكر حيث تقدر وظيفة الإخصاب التى يرمز لها بعضو الذكر ، وقد عرفت على وجه خاص فى الهند ، وهناك يسمى عضو الذكر لينجام أو لينجا ، ويقابله عضو التأنيث يونى .
- (١١٤) أنكرمان : عالم ألماني واصل دراسات فروينيس منذ عام ١٩٠٤ فى الانثروبولوجيا والحضارات الإفريقية .
- (١١٥) الإجييرا : إحدى قبائل نيجيريا الشمالية ، وهم ينتمون إلى مجموعة النوبى وينتشر الإسلام بينهم ، كما يقوم التبشير المسيحى بنور كبير هناك .

واستخدام النواقيس الخشبية الضخمة ، وشعائر أكل لحوم البشر ، والمعالجة الخاصة للذك الأسفل (١١٦) . كما يرتبط به أيضا زورق محفور بشكل خاص ، وينظر إلى هذا الزورق باحترام وتوقير فى كل من أسام ونيچيريا ؛ ففى أسام يوضع فى قاعة العزاب ، وفى نيچيريا الشرقية يوضع فى مكان خاص يسمى مبان . وبين كل من قبائل الفاجا (١١٧) ونيچيريا الشرقية يرتبط الموت بنضج المحصولات ، كما أن هذه القبائل تضع عظام الموتى فى مخزن الغلال الخاص بالعائلة ، وتتبع عادة مماثلة فى نيچيريا الشرقية . والأرواح التى تغادر الأجساد الراحلة تزود بأجساد أخرى . ومن بين المعتقدات الأساسية فى غرب إفريقيا أن الأرواح يمكن أن تغادر الجسد عندما يكون الشخص نائما ، وقد تهيم الأرواح على وجوهها ، ولذلك فإن الموت الجسدى ينظر إليه فى نيچيريا ، كما هى الحال فى الهند ، على أنه مرحلة انتقالية . ومن هنا لايتعذر على المرء أن يجد أوجه شبه تسترعى الأنظار بين الرقصات الشعبية ذات الأقنعة ، وبخاصة تلك التى يؤديها أهالى نيچيريا ، والرقصات الشعبية فى الهند . ولعل الأمر الأكثر إثارة هو صناعة التاريبو - صناعة اللباد أو قمماش لحاء الشجر من أجل القوارب التى تصنع بدق أنسجة الحيوانات مع بعضها بعضا حتى تمتزج فيما بينها . وهذه الصناعة لا توجد إلا فى الهند وإندونيسيا ونيچيريا وبين بعض الزوج السودان .

فهل نخلص من ذلك إلى أن حضارة غرب إفريقيا قد تأثرت تأثرا عميقا بالهند ؟ إن التأثيرات الهندية ، شأنها شأن التأثيرات المصرية والقرطاجية والإغريقية ، يمكن أن تكون قد تغلغلت فى غرب إفريقيا ، إذ أنه لا الصحراء الكبرى أو الغابات الاستوائية كانت تشكل حاجزا يحول دون هذا التغلغل .

(١١٦) تنتشر عادة خلع القواطع بين قبائل البارى ، ولها دور رئيسى فى نظام التنشئة لديها ، وقوامها خلع القواطع الأربعة السفلى . وعند الدنكا تجرى هذه العملية فى سن العاشرة وتعتبر لديهم مظهرا لتنشئة الصبى وانتقاله إلى مرحلة الفتوة . تعرف كذلك عند القبائل التى لاتمارس الختان فى حفلات التنشئة، مثل قبائل سارا . وقد تتخذ عادة انتزاع القواطع الأمامية وسيلة لحفظ المرأة من تطلع الرجال الغرباء .

بيد أن أى تأثير هندي فى غرب إفريقية لابد بالضرورة أن تكون فعاليته غير المباشرة أقوى من فعاليته المباشرة . وكانت مروي هى المكان الذى أثرت فيه حقا الحضارتان الإغريقية والهندية ، ومنها يمكن أن تكون هذه التأثيرات قد تغلغت إلى الداخل . وكانت **كوش** (١١٨) و**أكسوم** (١١٩) مستودعين كبيرين لتجارة إفريقية الشرقية . ولكن هذه التأثيرات كانت كبيرة وهامة فى مروي . « فأبيدماح » أسد مروي المعبود ، نو الرؤوس الثلاث والذراعين ، يبدو أنه تكييف للتصور الهندى للإنسان الأسد ، **نارسيمها مورثى** . (١٢٠) ثم هناك صورة ملك مروي يركب فيلا وهو عارى الظهر ، وهى صورة يرى أركل أنه لانظير لها فى وادى النيل كله . والقطن الذى تم التعرف عليه فى المقبرة الشمالية فى مروي لابد أنه جاء من الهند ، كما أن نوع الخزانات التى عثر عليها فى مروي أيضا لابد أنها جاءت من الهند لأنها غير معروفة فى مصر .

وربما يكون غرب إفريقية قد تأثر بحضارات أخرى ، ولكن ينبغي توخى الحذر فى استخلاص نتائج من أوجه الشبه . فأهالى جبال الناجا ونيجيريا الشرقية قبلين ، كما أن أوجه الشبه التى تسترعى انتباه المراقب قد يكون مرجعها ربود فعل البشر للظروف المماثلة ، وليس هناك مايدعو إلى الاستنتاج بأن جماعة ماأخذت عن أخرى . وينطبق ذلك بالمثل على التأثيرات الأخرى .

(١١٨) **كوش** : اسم قديم لبلاد النوبة أيام الأسرة المصرية القديمة الثانية عشرة (٢٠٠٠ ق.م) ، ويرجح أن « كرما » كانت عاصمة لها .

(١١٩) **أكسوم** : عاصمة لدولة حملت نفس الاسم فى شمال الحبشة ، بلغت أقصى ازدهارها فيما بين القرنين الثانى والسادس . كشف العالم الألمانى ليتمان عن حضارتها حين عثر على نقوش تحمل أخبار حملات الملك « عيزانا » الأربع التى قضى فيها على قوة القبائل المجاورة .

(١٢٠) **نارسيمها مورثى** : إله هندي ورد اسمه كثيرا فى أساطير الديانة الهندوستانية منذ آلاف السنين . يحمل نفس فكرة « أبو الهول » عند قدماء المصريين ، إلا أن له جسم إنسان ورأس أسد على خلاف « أبو الهول » .

سادسا

هناك شعبان يكتسب أصلهما أهمية خاصة فى تاريخ غرب إفريقية هما :
الفولانى واليوربا . وفى رأى ليدى لوجارد (١٢١) أن الفولانى قبيلة غجرية هندية
تحركت إلى المنطقة الاستوائية من شمال إفريقية . وتستند السيدة لوجارد فى
ذلك إلى ما ذكره استرابو (١٢٢) من أن المؤرخين يقولون بوجود مملكة ذات أصل
هندى فى الجهة المقابلة لأسبانيا ، بل ان لوجارد تقول بأن الونقارة (١٢٣) ، وهم
الجماعة التجارية الكبيرة فى غرب إفريقية ، قد جاءوا من مدينة أونجارا فى
شمال غرب باكستان . وتكمن دلالة أصول الفولانى فى أنهم يعدون أحد
العناصر الرئيسية التى تحركت من منطقة إلى أخرى منشئة الحضارات .

ونجد فى أعمال ديلافوس أفضل تأريخ للفولانى بوصفهم صانعى
حضارة غرب إفريقية . وعلى أساس هذه الأعمال بنى معظم المؤرخين
نظريتهم فيما يسمى العنصر الرئيسى . وهو يرى أن الفولانى من أصل
يهودى سوريانى . فعندما قادموسى قومه عائدا إلى إسرائيل لم يتبعه قومه
جميعا ، وفضل بعض منهم التحرك فى اتجاه الغرب ، وقد اكتسب هؤلاء
السوريانيون خلال عبوديتهم الطويلة فى مصر بعض الخصائص المصرية . (١٢٤)

(١٢١) ليدى لوجارد : « فلوراشو » زوجة فريدريك لوجارد ، أنظر الحاشية ١ - ١٠٥ أعلاه .

(١٢٢) استرابو (أو استرابون) : (٦٢ ق م - ٤) جغرافى إغريقى ، زار روما وروى أنه زار الجزر
الإغريقية حيث قابل أغسطس الذى كان فى طريق عودته إلى روما ، وأنه صحب إيليرس جالوس والى مصر
فى رحلته إلى الصعيد . له أسفار كثيرة ، ولكنه لم ير كل المناطق التى نكرها ، وإنما اعتمد فى ذلك على
أعمال الجغرافيين الإغريق الآخرين .

(١٢٣) ونقارة : الاسم الذى أطلقه عليها الإبريسى « وأرضه بأرض ونقارة وهى بلاد البتر : ... » ،
نزهة المشتاق ، المجلد الأول ، الصفحة ٢٣ . ويبدو أن كلمتى واكورى ونقارة تنتميان إلى الأصل نفسه ،
كذلك يبدو أن السوتنكى والديولا والمندنفو كلها تسميات تودى نفس الغرض .

(١٢٤) تضمنت هذه العبارة مغالطات تاريخية أرى تصحيحها على النحو التالى : ١ - أن اليهود لم
يعوبوا إلى إسرائيل لأنهم كانوا فى مصر ولم يفلوا إليها ؛ ٢ - أن موسى ولد وعاش فى مصر حتى الخروج
ولم يصل أبدا إلى إسرائيل بنص التوراة ؛ ٣ - أن إسرائيل كانت إسم يعقوب ولم تطلق على أرض فلسطين
إلا بعد دخول اليهود إليها بمدة ؛ ٤ - أن اليهود لم يكونوا مستعبدين فى مصر ، بل كانوا يعيشون معززين
مكرمين فى أرض جاسان (محافظة الشرقية) [أنظر ، شفيق مقار ، قراءة سياسية للتوراة ، رياض الرئيس
للكتب والنشر ، لندن ، ١٩٨٧ .]

وعندما بلغوا برقة تحركوا من هناك جنوبا فى بطاء وفى مجموعات مختلفة إلى توات وأير^(١٢٥) ، وفى نهاية الأمر وصلوا إلى ماسنة . وهنا اتبع النظام الذى وضعه النبى يوسف فى مصر ، فاحتل الرعاة مراكز النفوذ ، وفيما بعد استولوا على السلطة . وقد حكموا مايزيد على ثلاثمائة عام ، وفى ذلك الوقت حدث امتزاج ملحوظ فى الدم . وكان حكمهم جائرا ، وتمكن السكان المحليون من طردهم ، ولكنهم وجدوا ملاذا لهم بين السوننكى^(١٢٦) - حيث استطاعوا بمرور الوقت الاستيلاء على السلطة ، وكانت هذه بداية مملكة غانة . وثار السوننكى بدورهم بعد أن ضاقوا بهم ذرعا . وحدث أيضا امتزاج فى الدم ، وتحرك أسلاف الفولانى إلى جورجول التى كانت جزءا من إمبراطورية التكرور^(١٢٧) . وهنامرة أخرى اتبع أسلاف الفولانى النظام الذى وضعه النبى يوسف ، وتزوج رئيسهم بإبنة الأمير الحلى . وبمرور الوقت استولوا على السلطة ، ولكنهم لم يلبثوا أن طربوا منها . وعلى الرغم من أن حكمهم لمنطقة التكرور لم يزد على مائتى عام ، فإنهم اتخذوا من لغة التكرور لغة لهم ، كما أخذوا عنهم نظام الطوائف والطبقات .

(١٢٥) أير^١ : منطقة جبلية فى الصحراء الكبرى ، أهم مدنها أغدس ، سكانها من الطوارق أو البربر المسلمين ، مع وجود خليط قوى من الدم الزنجى ، وهم من البدو أساسا ، وإن كانت لديهم محال دائمة تستخدم كمراكز تجارية ومحطات للقوافل . تسمى « أهير » أيضا .

(١٢٦) السوننكى : ورد الاسم فى المتن Sonnike ، وصحته Soninke ، والسوننكى تعنى السركلى أو الواكورى (وعكرى كما وردت فى تاريخ الفتاش) ، ويبدو أن السوننكى والونقارة ينتمون إلى أصل واحد . « فقلت إنى أحب أن أعرف أصل سغى وأصل وعكرى فقال دمير بن يعقوب ياأمير المؤمنين وخليفة المسلمين إنى سمعت من شيوخى شمهروش رضى الله عنه وأرضاه أن جد سغى وجد وعكرى وجد ونكر كانوا جميعا إخوانا شقائق ... » تاريخ الفتاش : . الصفحتان ٢٤ و ٢٥ . [سغى : سغى ؛ وعكرى : واكورى ؛ لوسوننكى ؛ ونكر : ونقارة .]

(١٢٧) التكرور : شعب من الزنج يقطن معظمهم فى وهاد فوتا السنغالية ، كما تنتشر مساكنهم فى أنحاء أخرى من إفريقية الغربية ، وهى مساكن أقاموها فى منتصف القرن التاسع عشر بعد غزوات الحاج عمر ، وجرى العرف من بعد على إطلاق اسم تكرور على جميع بلاد السودان الممتدة من المحيط الأطلسى إلى حدود وادى النيل التى دخلها الإسلام . ولذا أصبحت فى نظرهم مرادفة لكلمة سودان . وتبعهم فى ذلك المؤرخون الذين كتبوا بالعربية ، وهم جميعا من المسلمين ، بل إنهم كانوا أسبق شعوب السودان إلى الإسلام . وقد تغلغل الإسلام فى فوتا السنغالية حوالى النصف الأول من القرن الحادى عشر عند بداية حركة المرابطين وتحت رعايتها .

ولكن بل^{١٢٨} أكثر اعتدالا ، إذ يكتفى بذكر أن عربيا أو يهوديا إسمه عقبة بن ياسر جاء من الشرق ، وأقام بالبلاد ، وتزوج بامرأة وطنية إسمها معج^{١٢٩} ، وأنجب منها أربعة أولاد ، وبعد بضع سنوات غادر البلاد . وقد شب أولاده وهم يتكلمون لغة مولدة وتحركوا جميعا في اتجاه الشرق ، وعندما جاء الإسلام إلى البلاد اتخنوه ديناً لهم . ولم يذكر يلمر شيئا عن أمجادهم الماضية ، كذلك لم يفعل المؤرخون شيئا من هذا القبيل . ويزعم يلمر أن الفولاني هم على الأرجح أبناء مخطّون لنساء من البربر وجنود سود ، وأنهم أخذوا العادات الرعوية عن البربر . وتجد فكرة الأصل المختلط للفولاني بعض سند لها في حقيقة أن الأبناء المخطّين للجنود الفرنجة والنساء الوطنيات في الشرق (سوريا ولبنان) قد عرفوا بالفولاني ، والصعوبة التي تكتنف نظرية ديلافوس هي أن الفولاني ، كما يقول يلمر ، شعب حديث المنشأ ، فقد ورد ذكرهم لأول مرة في القرن الحادي عشر ، ولا يوجد فضلا عن ذلك أي دليل على هجرة

(١٢٨) سلطان محمد بل^١ : (١٧٨١ - ١٨٣٧) . يرد إسمه بلو في مصادر كثيرة . والواو الساكنة هنا لمد الإشباع ، وربما تحذف كتابة كما ورد في كتابات بل نفسه . ابن الشيخ عثمان دان فوديو ، يعتبر أبوه وعمه عبد الله محمد بن عثمان وجده محمد بن عثمان من النماذج البارزة في تاريخ الدعوة الإسلامية في بلاد الهوسا كما سيجي بيانه . اتسع وقته للبحث والنرس والتأليف ، برغم انهماكه في مشاكل الحكم والحرب والإدارة . استمرت خلافته إحدى وعشرين سنة ، وتوفي في برنو « بلده وموضع رباطة » . له مؤلفات كثيرة في تاريخ هذه المنطقة من أشهرها « إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور » الذي نقل عنه پانيكار في مواضع كثيرة . وفي مناسبة زيارة أحمد بل رئيس وزراء شمال نيجيريا لمصر في عام ١٩٦٤ ، شكلت وزارة الأوقاف المصرية لجنة من موظفي الوزارة لتحقيق الكتاب ونشره . وصدر الكتاب أثناء الزيارة مع مقدمة بقلم أحمد بل . كذلك قام المستشرق البريطاني هويتج في عام ١٩٥٧ بنشر طبعة مصورة لمخطوطة للكتاب عهد إليه بها أحد أبناء نيجيريا ، وقد أخذت عن طبعة وزارة الأوقاف .

(١٢٩) نقل پانيكار هذه الرواية عن إنفاق الميسور ، لذلك فضلت كتابة الإسم كما ورد به ، رغما عن اختلافه عما ورد بالمتن Bajaange : « قال لهم أمير التوروز : أتيتمونا بالدين ونحن جاهلون به ، فخلقوا لنا من يعملنا فخلقوا لهم عقبة بن ياسر - أو عقبة بن عامر - أو عقبة بن نافع ، فجلس يعلم الدين والشرائع فزوجه ابنته - معج معج - فولد منها أربعة أولاد : دعت - وناس - ووي - ورعرب ، ثم سار لبلاده حتى وصل مصر وخلف بنيه عند أمهم ، فشبوا وتكلموا بلسان غير لسان أبيهم وأمهم ، ... ولما جاء الإسلام أسلموا عليها ، وأقبلوا في أمر الدين متمسكين به غاية التمسك ، ... » إنفاق الميسور ، الصفحتان ٢٢٥ و ٢٢٦ .

هذا على الرغم من أن عبد الله الفودي ، في كتابه تزيين الورقات ، طبعة م . هكست ، جامعة إبادان ، ١٩٦٣ ، قد كتب الإسم بطريقة تقارب ماورد في المتن : « وتزوج عقبة ابنة ملكهم بج معج فولد الفولانيين جميعا » ، الصفحة ٤٠ . وهذا الاسم يعنى السيدة العجوز الفولانية . أما في الترجمة الانجليزية لهذا الكتاب ، وهي جزء منه ، فقد وردت Bajju Manghu ، الصفحتان ٩٧ و ١١١ .

تمت عن طريق أير . ثم أنه يبدو غريبا أن الفولاني من سكان المدن ، الذين فقدوا معظم سماتهم العنصرية المميزة بعد مائة عام من غزوهم لبلاد الهوسا (١٢٠) ، كان باستطاعتهم المحافظة على نقائهم العنصري طوال فترات تنقلهم . فلو أنهم غزوا ماسنة لكانوا على الأقل قد اتخنوا لغة الناس وأعرافهم ، أو فرضوا لغتهم وأعرافهم على رعاياهم ، إذ يزعم أنهم اتخنوا لغة التكرور وأعرافهم . والحركة في اتجاه الغرب كانت حركة اضطرارية أملت مصالح السياسة السيادية ، وقد وطنهم منسات (١٢١) مالى فى ماسنة ، وذلك على الأرجح للتحكم فى العناصر المستعصية فى تلك المنطقة . وينبغى أيضا إزالة اللبس الذى نشأ بسبب غزوات من يسمون بالفولاني فى القرن التاسع عشر ، إذ أن ذلك صحيح على وجه الإجمال فقط . وتتحدث كتب التاريخ عن الغزو الذى قام به التورنكى أو التورنكاوا الذين هم شعب من التكرور .

إن سبب بروز الفولاني كعنصر سائد هو أنهم ليسوا زنوجا . فملاحهم الجسدية تتناقض بوضوح مع ملامح الزنوج ، كما أنهم يوفرون مخرجاً مرضياً لمن يتوق إلى العثور على تأثير أجنبى مهيمن فى إقامة الإمبراطوريات . ولذلك من الشائع القول بأن الغزاة الحاميين هم الدين أقاموا الدولة المنظمة والحضارة بين الزنوج : فالزنجى ، كما كان يعتقد ، عاجز عن إقامة حضارة . ولذلك كاد الفولاني أن يكونوا البديل الحقيقى . وكما يقول ديلافوس نفسه ،

(١٢٠) الهوسا : كلمة تدل على لغة وحضارة أكثر من دلالتها على شعب معين . يقصديهم الأقوام الذين يعيشون الآن فى مناطق نيجيريا الشمالية وما حولها ، فضلا عن جالياتهم المنتشرة فى مراكز تجارية كثيرة فى غرب إفريقية . توطنوا فى بادئ الأمر فى برنو وشرق بحيرة تشاد ثم اتجهوا غربا . ليسوا من سلالة زنجية خالصة ، إذ اختلطوا أولا بالسكان الأصليين ثم بالبربر وأخيرا بالفولاني وبالعرب القادمين من الشمال . تركز تنظيمهم السياسى حول المدن ذات الأهمية التجارية والتي تطورت فيما بعد إلى مايسمى ممالك الهوسا السبع . انتشر الإسلام بينهم منذ القرن الثامن الهجرى . يتبعون مذهب الإمام مالك ، ويتكلمون لغة حامية تنتمى إلى اللغات البربرية فى شمال إفريقية ، وتكتب بحروف عربية وحروف لاتينية .

(١٢١) جمع منسا ، وهو لقب سلاطين مالى كما سيرد بيانه تفصيلا فى الفصل الثالث .

« ذكر سلطان مالى ... وهو السلطان منسى سليمان .. » تحفة النظار ، الصفحة ٦٩١ .

«لأنهم قليلا ما يكونوا سائدين وأقوياء، فإنهم كثيرا جدا ما يقبلون قوانين البلدان التي تستقبلهم ويعيشون بين الزوج كأتباع ، بل في بعض الأحيان كمنبوذين .» . وهم صنف ينذر أن يقبلهم الملوك أزواجاً لبناتهم . كما أن المؤرخين الأوروبيين المبكرين لم يكونوا فقط مقتنعين بأن الزنجى عاجز عن إقامة حضارة ، بل كانوا أيضا بحكم تربيتهم يرغمون على تفسير كل شئ من زاوية الكتاب المقدس . فاليهود والفلسطينيون ، حام وسام ، هم النقاط الثابتة التي يدور حولها تفسيرهم لتاريخ غرب إفريقية . وقد نظر الزوار الأوائل إلى النزاع القائم بين الطوارق والبربر على نحو ما نظروا إلى النزاع بين الفلسطينيين واليهود ، بل أن دارسا بارزا وضع كتابا عن الحضارة العبرية في غرب إفريقية . والكتاب المقدس ليس في أفضل الأحوال مرشدا سليما إلى التاريخ . وكما يشير ابن خلدون ، فإنه لم يذكر في التوراة سوى أن نوحا قد دعا على حام بأن يكون نسله عبيداً لسام ، وإنه لم يرد في أى موضع منها ذكر للون البشرية ، وليس القول بأن الزوج هم أحفاد حام إلا تبريراً للعبودية . (١٣٢) وقد قيل عن أهل الشمال إنهم أحفاد يافت (١٣٣) « وما أداهم إلى هذه الغلط إلا اعتقادهم أن التمييز بين الأمم إنما يقس بالأنساب فقط ، وليس كذلك ؛ فإن التمييز للجيل أو الأمة يكون بالنسب في بعضهم كالعرب وبنى إسرائيل والفرس ، ويكون بالجهة والسمة كما للزنج والحبشة والصقالبة والسودان ، ويكون بالعوائد والشعار والنسب كما للعرب ؛ ويكون بغير ذلك من أحوال الأمم وخواصهم ومميزاتهم ، » . (١٣٤) بيد أن ابن خلدون حاول أن يفسر الفروق بين الزوج وغيرهم بالنظر إلى العوامل المناخية ، وهو يعزو سواد الزوج إلى الحرارة ، ويرجع بياض السلاف وغيرهم إلى

(١٣٢) « وقد توهم بعض النساب ممن لا علم لديه بطبائع الكائنات أن السودان هم ولد حام بن نوح اختصوا بلون السواد لدعوة كانت عليه من أبيه ظهر أثرها في لونه وفيما جعله الله من الرق في عقبه ... ودعاء نوح على ابنه قد وقع في التوراة وليس فيه ذكر السواد وإنما دعا عليه بأن يكون ولده عبيدا لولد إخوته لا غير .. » العبر ، المجلد الأول ، الصفحتان ٧٠ و ٧١ .

(١٣٣) « ولما رأى النسابون اختلاف هذه الأمم بسماتها وشعارها حسبوا ذلك لأجل الأنساب : فجعلوا أهل الجنوب كلهم السودان من ولد حام .. وجعلوا أهل الشمال كلهم أو أكثرهم من ولد يافت ... » المرجع نفسه ، الصفحة ٧٢ .

(١٣٤) المرجع نفسه . الصفحة ٧٢ .

البرودة (١٢٥) الأمر الوحيد هو أنه مادام التمييز قد تم على أيدي البيض فقد لاحظوا العمومية الشاملة للسود ، فلم يستطيعوا أن يميزوا فيما بينهم شعباً عن آخر ، ولكن ابن خلدون يرى أن كلا من أهل الشمال وأهل الجنوب قد أزيحوا من المراكز الحقيقية لحضارة المنطقة المعتدلة - التي كان مركزها البحر المتوسط (١٢٦) .

وتحفل بالإثارة نظريات أصل العناصر المتعلقة بقبائل الأكان واليوربا ، إذ أنها تلقى ضوءاً كاشفاً على مأساة المثقفين الزنوج ، وتبين أن الزنوج قد سلموا بوجهة النظر الغريبة ، ومفادها أنهم عاجزون عن تطوير حضارة خاصة بهم . وهكذا نجد بيوباكو (١٢٧) شديد الحرص على إثبات أن أسطورة اليوربا عن أنبوبا والديك إنما تتضمن رواية الكتاب المقدس للطوفان . كذلك يحكى بيوباكو قصة موريني وأولورجويو على أنها تحويل اليوربا للبعث . فموريني كان عليها أن تضحي بابنها أولورجويو لآلهة النهر ، ولكنه بدلاً من أن يموت يصعد إلى السماء بوساطة حبل . وبالمثل أخذ بيوباكو عن رواية سلطان بل التي تقول إن اليوربا ، شأنهم شأن الهوسا ، وقد انحدروا من قبائل كنعان . (١٢٨)

(١٢٥) « وفي القول بنسبة السواد إلى حام غفلة عن طبيعة الحر والبرد ... وذلك أن هذا اللون شمل أهل الإقليم الأول والثاني من مزاج هوائهم للحرارة المتضاعفة بالجنوب ، فإن الشمس تسامت رؤوسهم مرتين في السنة ... فيكثر الضوء لأجلها ويلح القيظ الشديد عليهم وتسود جلودهم ... ونظير هذين الإقليمين مما يقابلهما من الشمال ... شمل سكانهما أيضاً البياض من مزاج هوائهم للبرد المفرط ... فتبيض ألوان أهلها وتنتهي إلى الزعورة ، ويتبع ذلك ما يقتضيه مزاج البرد المفرط من زرقة العيون وترش الجلود وصهوبة الشعور . » المرجع نفسه ، المجلد الأول ، الصفحة ٧١ .

(١٢٦) أفاض ابن خلدون طويلاً في هذه النقطة ، المرجع نفسه ، الصفحة ٤٠ وما بعدها .

(١٢٧) سايوري أولاديني بيوباكو : مؤرخ وأنتروبولوجي نيجيري ، ولد في أبيكوتا ، نيجيريا ، في عام ١٩١٨ ، تعلم في لندن وعمل باحثاً ودارساً في آثار بلاده . تولى إدارة مشروع البحوث التاريخية المتعلقة بقبائل اليوربا . وله كتاب بعنوان The Egba and Their Neighbours ، (الإيجبا وجيرانهم) ، أكسفورد ، ١٩٥٧ . أنظر ، بازل دافيدسون The African Past ، مكتبة بنجوين الإفريقية ، ١٩٦٦ الصفحتان ٧ و ٢٦٥ .

(١٢٨) « وأما بلده فبلدة واسعة ، ... فمنها الأخبار العجيبة ، والأمور الغريبة ... وأهل هذا البلد على ما يقال - أنهم من بقايا بني كنعان الذين هم عشيرة نمرود ... ، وسبب مقامهم بالمغرب ... أن يعرب قحطان هو الذي طردهم من العراق إلى المغرب فسلخوا بين مصر والحبشة ، حتى وصلوا إلى يرب ، وكان يخلفون في كل بلد طائفة منهم ... » إنفاق الميسور ، الصفحة ٤٨ . [يقصد بكلمة يرب هنا اليوربا .]

وأول من قدم تفسيراً لقصة مورينى هو **چونصون** (١٣٩) الذى ربما انتهى كمسيحى إلى الاعتقاد بأن التماثل بين أساطير اليوربا والأساطير المسيحية يؤدي إلى المزيد من التحول من دين لآخر . ولكن الاتجاه الحديث هو المطابقة بين مورينى والعذراء مريم . بل إن فكرة العذراء قد أخذ بها ، وإيفه بدورها ارتبطت بعيسى . كما أن المحاولة التى قام بها بيوباكو ، استناداً إلى رواية بل ، ومستعيناً باقتباسات من فروبنيوس ولوكاس وغيرهما ، لإثبات أن اليوربا انحدروا من كنعان أو من الشرق ، لاتعدو أن تكون محاولة للبحث عن أصل أجنبى . وللتماثل مع مصر وقعه عند لوكاس ، ومرجعه فى المقام الأول هو الدين . بيد أن كل المجتمعات الزراعية تقريباً لديها معبد مماثل ، كما أن التماثلات يمكن أن توجد لامع جزر بولينيزيا فقط ، وإنما مع المكسيك أيضاً . ومن سوء الطالع أنه لا يوجد دليل مدعوم بالوثائق على هجرة اليوربا أو هجرة أية قبيلة أخرى . ويشير بيوباكو إلى مصادر تقليدية وعربية ، ولكنها مصادر لم يرد لها ذكر فى أى مكان . صحيح أن بل قد أشار إلى ذلك ، ولكن كتاباته كانت فى النصف الأول من القرن التاسع عشر . وعلى أية حال فإن غالبية القبائل الإفريقية تفاخر بأن تجد لنفسها أصلاً يمينياً أو فلسطينياً ، وسبب ذلك فى أغلب الظن هو أن الديانتين السائدتين فى المنطقة قد نشأتا فى هذين البلدين .

والأمر الأشد أهمية بكثير من سلاسل الأنساب الجاهزة هو الخرافات المتعلقة بأصول قبائل معينة . ففي منطقة السنغى تبين قصة **زا الأيمن** (١٤٠)

(١٣٩) **صمويل چونسون** : صاحب كتاب *History of The Yorubas* (تاريخ اليوربا) ، لاجوس ، ١٩٢٧ . ويمكن للقارئ أن يجد بعض اقتباسات من هذا الكتاب فى بازل دافيسون ، المرجع السابق ، الصفحتين ٧٨ و ٧٩ .

(١٤٠) ضبط الاسم على تاريخ السودان ، وقد ورد الاسم فى الترجمة الفرنسية لتاريخ السودان *Za-Alayaman* . « ذكر ملوك سغى أول من تملك فيها من الملوك **زا الأيمن** ثم زازاكي .. » تاريخ السودان ، الصفحتان ٢٠٢ . ووردت كلمة « **زا** » فى الملحق الثانى لتاريخ الفتاش (الترجمة الفرنسية) *Dioua, dja* (جؤ) و *dioua* (جع) . وتفيد الحاشية ٢ فى الصفحة ٢٢٩ من الترجمة الفرنسية أن كلمة *dja* أو *dia* ، وفقاً لهجة السودانية ، تعنى بالفرنسية « *Il est venu* » « أى جاء » . كذلك ورد الاسم *Dia* فى كتاب م . فيلكس ديبوا الممتع *Tombouctou la Mystérieuse* (تمبكت الغامضة) باريس ١٨٩٧ ، وذلك حين عدد أسماء ملوك السنغى الأول *Dia Arkai, Dia Atkai, Dia Iliaman* ، الصفحة ١٧ . ويبدو أن كلمة « **زا الأيمن** » كانت تعنى فى الأصل « جاء من اليمين » . ثم أصبحت كلمة « **زا** » (أى جاء) لقباً للملوك السنغى الذين خلفوا « **زا الأيمن** » أول ملك بينهم .

نموذجاً إسلامياً مفروضاً على نموذج محلى . فالأصل اليمنى للأجانب الذين جاءوا إلى هذه المنطقة لا أهمية له بطبيعة الحال ؛ وإنما الأمر الهام هو أن القبائل السائدة التى مارست السلطة فى تلك البلاد كانت تتحكم فى مصادر المياه . وتقول الأساطير إن سمكة حكمت البلاد ، وإن كل شخص كان يخضع لها ، وهذه الأسطورة شائعة . وفى بلاد الهوسا عندما وصل الرحالة المجهد باياچيد إلى إحدى القرى كان يريد جرعة ماء . وأبلغته امرأة عجوز ، عندما سألها بعض الماء ، بأنه لا أمل فى الحصول عليه لأن الثعبان الذى يحرس البئر لا يسمح باستخراج الماء إلا مرتين فقط فى الأسبوع . عندئذ طلب باياچيد دلوا ، وجذب الثعبان بعيدا وقتله بسيفه . ومرة أخرى نأخذ أصل مدينة وِغْدُغْ (وِجالوجو) . ذلك أن جنّياً منع دجنة من استخراج الماء من أحد الآبار ، وبعد أن اختبر كل منهما قوة الآخر عقدا بينهما حلفاً تُوْج بزواج دجنة بإبنة الجنّى ، ويقضى بأن يمسك أبناء دجنة بزمام السلطة ماداموا يحافظون على التحالف ، وكان يعبر عن ذلك فى الرواية الشعبية بأن يفقدى حفيد الجنّى ، وهو ثعبان ضخم يقوم على حراسة الماء ، بعذراء جميلة . وعندما قام شاب أضناه الحب يدعى مامادى ، ستتم التضحية بمحبوبته ، بقتل الثعبان قاست وِغْدُغْ كثيراً طيلة سبع سنوات ، وأرغم الناس على الهجرة .

وعلى أساس قصص الأصل أو النسب هذه يكون من المستطاع الإلمام بفكرة ما عن التاريخ المبكر للسودان . فعندما أخذت الصحراء الكبرى تزداد جدبا تحرك الناس الذين يعيشون فيها صوب الجنوب ، وذهب البعض منهم إلى وادى النيل ، وطوّروا بمرور الوقت الحضارة المصرية القديمة ، وتحرك البعض الآخر إلى وادى النيجر ، وهنا طوّروا فى ظروف أقل سخاء الحضارة المبكرة لغرب إفريقيا .

وعندما تحرك أهالى الصحراء الكبرى إلى غرب إفريقيا كان يقطنها أناس ذوو بشرة حمراء وقامة قصيرة ، وسرعان ما جعلوا منهم أتباعا وأقنانا ، وظلوا يحكمونهم بوصفهم أمراء إقطاعيين . وفى الصحراء الكبرى تعلموا أساليب حفظ المياه واستخدامها بأكثر الطرق فعالية ، وأصبحوا أصحاب الماء ، وكانوا

يقترون في تقديمه للفلاحين الاقنان في أيام معينة من الأسبوع . بل إنه حتى في الوقت الحاضر مازال الأمير الإقطاعي في الصحراء الكبرى يتحكم في الماء ، ويربط الفلاحون به ولا يحصلون على الماء إلا بإذنه ، وهكذا فرضوا على أقنانهم اقتصاداً زراعياً .

وثمة قدر معين من التأييد غير المباشر لوجهة النظر هذه . فككت مثلاً يروى لنا أن كنفار^(١٤١) عمر عثر في تندرمة^(١٤٢) على بعض آبار عميقة للغاية يزيد عمقها على ٦٠ قدماً ، وفي بلاد لابي عثر ليس فقط على آبار ، بل كذلك على أطلال خزانات ماء تحت الأرض . ويضيف ككت أن آبار تندرمة كانت مقسمة بين سبعة أمراء ، وإذا أخذ أحد الجنود ماء من بئر لا يتبع مولاه فلا بد أن يحصل صاحب البئر على تعويض^(١٤٣) . وذلك على وجه التحديد هو ماتحاول الحكايات الشعبية أن تنقله لنا . فقد تحكمت في المياه أرسنقراطية غازية ، وقهرت الناس الذين لم يكن يسمح لهم باستخراج الماء إلا في أيام ثابتة معينة .

وقد دُمِّر هذا الحكم التعسفي عندما حدث غزو جديد من جانب البدو ، فهؤلاء البدو كانوا أفضل تسليحاً ، ولديهم بغال أو خيل ، وأهم من ذلك أنه كانت لديهم حراب مصنوعة من الحديد شديدة الشبه بالعنزة (السيف القصير أو الحربة) والسيف . فضلاً عن أن جزءاً كبيراً من السكان كان راغباً في

(١٤١) كنفار : كلمة كانت تستخدم كمرادف لعبارة « كرمين فار » التي سيشار إليها أدناه تفصيلاً . انظر ، الحاشيتين ١٢ - ٢ و ١٢ - ٥ أدناه ، ويبدو أنها مشتقة من لغة المندنجو ، ومعناها الحاكم الأول أو الرئيس الأعلى الذي كانت مرتبته تلي مباشرة مرتبة الأسكيا (السلطان عند السنغى) .

(١٤٢) تندرمة : مدينة على الضفة اليسرى لنهر النيجر بالقرب من بحيرة فاتى . كانت عاصمة كرمين ومقراً للكرمين فار . « وتولى عمر كمزاغ الكنفاروية وذلك في تلك السنة وهو أول من تسمى بهذا الاسم ولم يكن قبل ذلك بخلاف بلمع وينكفرم فإن اسميهما موجودان منذ زمن شى وفي هذا العام وهو عام الثانى والتسعمائة بنيت تندرمة وأمره اسكى محمد أن يبني لنفسه مدينة فجعل يتفتش في الجزائر والصحارى حتى أتى تندرمة فأعجبه ذلك المكان وكان قبل مسكن قوم بنى إسرائيل وأجدائهم وآبارهم هناك إلى الآن ... » تاريخ الفتاش ، الصفحة ٦٢ . [انظر ، الحاشية ١ - ٩٦ أعلاه .]

(١٤٣) « ويحفر بعضهم مقدار مائة وأربعين ذراعاً وبعضهم مقدار مائتى ذراعاً وبعضهم مائة إلى ستين ذراعاً وكل ما نقصت على ستين ذراعاً فلا تصلح للسلق ... وفي القرية يومئذ سبعة ملوك من بنى إسرائيل منهم ... كل منهم يتبعه جيش عرمرم وكل ملك مع جنده له آبار وكل من أخطأ وسقى سلقه من آبار غير ملك يرد حسابه للملك صاحب البئر سواء كان حراً أو عبداً ... » تاريخ الفتاش ، الصفحتان ٦٢ و ٦٣ .

الثورة . وهكذا كان باستطاعة زا الأيمن وباياچيد أن يطيحاً بالحكام . وقد تزوجا من الأهالى ، ويقال إن الأسر تنحدر منهما . وربما كانت الطبقة الحاكمة فى بلاد لابی أكثر استقراراً فى السلطة ؛ وأغلب الظن أنها قامت بتحسين المدن التى أخفق الغزاة فى الاستيلاء عليها ، ولذلك كان التحالف مفضلاً ، وهو وإن لم يكن أمراً يسيراً فقد دام بعض الوقت ، ولو أن البدو قد انتصروا فى نهاية الأمر . ولم يكن البدو يألّفون الرى ، ولم يحاولوا المحافظة على النظام الذى ورثوه ، فسرعان ما أحدث الزمن أثره وأصبحت الآبار عديمة الجدوى ، وتلاشت الحضارة القديمة .

سابعاً

كان النموذجان السائدان اللذان أثّرا فى تاريخ غرب إفريقيا هما البدو وسكان الوادى المستقرون ، وكان هؤلاء الأخيرون زنوجاً فى الأساس ، وصانعى كل حضارة قامت فى السودان الغربى .

وقد كان البدو منذ أقدم العصور ينتقلون بصفة مستمرة إلى المناطق المستقرة . ويرجح أن يكون أهالى الصحراء قد نزحوا فى العصور القديمة إلى وادى النيل ووادى النيجر فى وقت واحد تقريباً . وفى وادى النيل أدى ذلك إلى ازدهار الحضارة المصرية ، أما فى النيجر . كما رأينا فيما سبق ، فلم يحدث إلا تطور أكثر تقييداً .

والفرق فى التطور بين مصر وغرب إفريقيا يمكن تفسيره أساساً بنزوات النهرين . فالنيل أصبحت له الهيمنة فى اقتصاد مصر ، وقد أقر المصريون بذلك بأن جعلوا منه إلهاً لهم . أما على النيجر فلم يكن مستطاعاً استخدام النهر إلا بأعظم قدر من المهارة فى العمليات الزراعية ، ولذلك لم يكن بمقدور البدو أن يضارعوا المصريين لأن اقتصادهم لم يقيم على قاعدة واسعة ولم يكن مزدهراً . كان النهر يزودهم بحياة مريحة على حساب سخط السكان الأصليين . وكانت النتيجة أن موجة جديدة من المهاجرين ، الذين كانوا يقيمون

فى الصحراء ولم يآلفوا أعمال الرى ، قامت بتدمير النظام المكروه .

وهكذا لم يكن الزنوج هم السكان الأصليون لغرب إفريقيا . فحتى فى الوقت الحاضر يتم العثور على بقايا لهم فى الصحراء الكبرى . أما القاطنون الأصليون فهم طبقا لغالبية الأساطير المحلية أناس نوب بشرة حمراء وقامة قصيرة . وقد نزح الزنوج إلى هذه المنطقة من الشمال واستوطنوا فيها . وحتى فى غضون العصر التاريخى كان يوجد فى الصحراء الكبرى عدد كبير من السكان الزنوج . وكان السكان الذين استوطنوا الصحراء لفترة طويلة زنوجا فى الأساس ، وكان نفوذهم هو النفوذ السائد عبر الصحراء .

وبالبطء نفسه الذى أكرهت به غزوات شمال إفريقيا المختلفة السكان على الاتجاه نحو الجنوب دخل عنصر جديد إلى الصحراء هو بنو الصحراء . وهؤلاء يبدو فيما بينهم تماثل شديد فى السمات المميزة سواء أكانوا من الطوارق أم العرب أم البربر ، وفيما يتعلق بغرب إفريقيا فإن الطوارق ، وليس العرب أو البربر ، هم العنصر ذو الأهمية . وأصل الطوارق يبدو موضع خلاف ، بيد أنهم قوم أموميون عاشوا مشنتين فى الصحراء . ويعتقد رود أن الطوارق أحفاد البليميين الذين استوطنوا أعالي النيل اتقاءً لخطر الغزاة البرابرة . ومن رأى ونكر أنه فى ظل البليميين أصبح الجمل هو حيوان الصحراء المفضل . ولابد أنهم نزحوا فى اتجاه الشرق وأقاموا بالفعل فى كانم فى القرن العاشر ، ومن هناك نزحوا إلى أير التى وصلوا إليها طبقا للروايات المحلية فى القرن الحادى عشر .

وينقسم الطوارق إلى عشائر مختلفة تتقاتل بصورة دائمة فيما بينها ، ومجتمعهم من الناحية الجوهريّة مجتمع هرمى . فالإمراچن أو المحاربون يحتلون مكانة تعلو الأمراء الذين هم أتباع لهم ، ويلى هؤلاء الأقنان وأخيرا الرقيق .

وكان الطوارق خلال معظم تاريخهم يخضعون للملوك الزنوج الذى يقدمون لهم بناتهم ، وكان عدم وجود مستوطنات لهم يعنى أنهم كثيرو الترحال ، وأن بإمكانهم الإغارة على القرى الزنجية . وفى فترات الفوضى ، عندما تحطمت

الحكومة المركزية ، كانوا ينقضون على وادى النهر وينهبون الريف ، ولكن فى فترات السلم كانت الإمبراطوريات السودانية تستخدمهم فى حراسة الصحراء وحماية طرق التجارة ، وذلك أمر فى صالح الطوارق بقدر ما هو فى صالح السكان المستقرين ، ذلك أن أهالى الصحراء كانوا يعتمدون على السكان المستقرين فى الحصول على حاجتهم من الذرة ، ويتمتعون بحرية ترك جمالهم ترعى فى الأراضى القريبة من النهر ، ويستمدون ثروتهم من التجارة بين الشمال والجنوب .

والشعوب التى يمكن مقارنتها ببداى الصحراء الكبرى هى القبائل البدوية فى أواسط آسيا : الهون^(١٤٤) والأتراك والمغول . ولكن هذه المقارنة ليست بالمرّة فى صالح أهالى الصحراء الكبرى . فسكان آسيا الوسطى كانوا حقا برابرة ، كان يدمرون ، ولكنهم أدخلوا زخما جديدا إلى المراكز التى غزوها . وفضلا عن ذلك كان لديهم تنظيم مهيب ، وربما كانوا أعظم قوة عسكرية فى عصرهم . وهكذا كانت فتوحاتهم منتظمة وأدت إلى تكوين إمبراطوريات كبيرة ، ولكن الحقيقة أنها سرعان ما تحطمت بسبب اتساعها . وفى غرب إفريقية تغلغل أهالى الصحراء ، دمروا ، لكنهم لم يقيموا حضارة ولا كان باستطاعتهم تقديم صفة سياسية وعسكرية جديدة . ومن الممكن تماما أن يكون كثيرون من أبناء الطوارق قد تغلغلوا فى وديان النهر واستوطنوا فيها ، وتزوجوا بنساء زنجيات فذلك يحدث حتى فى أيامنا هذه .

ويعتبر البربر أكثر الشعوب الرعوية الأخرى أهمية ، ولذلك تزعم غالبية العائلات النبيلة أنها ذات أصل بربرى ، ويرجح أن أعدادا من البربر والطوارق كانت بين الحين والآخر تستقر فى وادى النيجر وأن بعضا منهم قد تزوجوا

(١٤٤) الهون : شعب رحل من شمال آسيا الوسطى . كان تنظيمهم فى الغالب عسكريا ، وكانوا منقسمين إلى قبائل . ظهروا فى القرن الثالث قبل الميلاد عندما بنى سور الصين العظيم لحصرهم . احتلوا الصين ثم غزوا وادى الفولجا ، وتقدموا غربا دافعين القوط الشرقيين والغربيين أمامهم ، وبهذا بدأوا موجات الهجرات التى حطمت الامبراطورية الرومانية . انسحبوا بعد موت الامبراطور ثيودوسيوس الثانى ، ولا يعرف عن حركاتهم بعد ذلك إلا القليل .

بنساء محليات . كما يرجح أيضا أن تكون نساء البربر قد اتخذن أزواجا لهن من الزنوج ، فذلك كان يحدث خلال فترة لاحقة ، ويمكن أن يكون قد حدث فى فترات مبكرة ، لأن فكرة الأمير الأبيض الذى يفرض سطوته على السود إنما هى فكرة حديثة . فقبل أن يقع الغزو المراكشى كان السود يحكمون البيض فى الصحراء .

والمجموعة الرعوية الهامة الأخرى هى الفولانى ، وقد أوليت اهتماما كبيرا للأبحاث المختلفة التى عينت بدراسة أصول هذا الشعب ، وأنا معنى هنا بدورهم فى التاريخ . إنهم مجموعة مشتتة . من ذلك أن جاردن^(١٤٥) مثلا يربط مابين كلمة « فول » والتشتت . ووجوههم ليست جميلة بأية حال ، وهم أقل سوادا من الزنوج ، ولامحهم أكثر ليذا . كما أنهم لا يتكلمون البولار كمجموعة وطنية . ويرى مولارد أن ثمانين فى المائة من الفولانى الذين يتكلمون البولار من سلالة الرقيق ، فضلا عن أنهم قليلو الكلام ويتجنبون المدن ، ويقتصر اهتمامهم على العناية بماشيتهم . ولعهم الشديد إلى حد الهوس بالماشية هو الذى يميزهم عن غيرهم . وهم إذا كانوا مسلمين يحكمهم المرابطون ، أما إذا كانوا وثنيين فيحكمهم كهنتهم . وقد كان المرابطون المسلمون هم الذين حققوا فيما بينهم نوعا من التماسك الاجتماعى .

والأمر الهام فيما يتعلق بالفولانى هو طبيعتهم المشتتة ، على حين كمنت القوة العظيمة لبدا الصحراء فى أن الجمل كان يوفر لهم قدرة على الحركة تفتقر

(١٤٥) جاردن : عمل ضابطا بالجيش الفرنسى بافريقية فى أواخر القرن الماضى ، وقام بلور فى هزيمة البطل الإفريقى المعروف سامورى (أنظر الفرع عاشر من الفصل التاسع) . له فضل العثور على مخطوط لكتاب تذكر النسيان فى أخبار ملوك السودان ، فقد رأى جاردن مؤلفا عربيا فى أيدي زعيم سودانى ، وقيل له إنه يحوى معلومات تاريخية هامة ، فطرات له فكرة نسخه ، وحمل النسخة معه إلى فرنسا حيث سلمها للمستشرق الفرنسى هودا ، الذى قام بتحقيقها ونشرها بالعربية ، كما نشر ترجمة فرنسية لها عام ١٩٠١ تحت رعاية مدرسة اللغات الشرقية الحية بباريس . وكتاب تذكر النسيان مجهول المؤلف ، وإن تبين من فقرة فى الجزء الخاص بتاريخ سكتو أن مؤلفه هو الحاج سعيد الذى كان يعمل مقرئا للقرآن لدى « عليوة » ابن محمد بل . والكتاب يعد ثالث المراجع العربية الهامة فى تاريخ هذه المنطقة بعد تاريخ الفتاش وتاريخ السودان ، كما يعد كلمة للكتاب الأخير ، إذ أن الأحداث التاريخية التى يتناولها وقعت بعد تلك التى يتناولها تاريخ السودان . ولا توجد نسخة عربية من هذا الكتاب فى أية مكتبة عامة فى القاهرة ، ولكن توجد نسخة من الترجمة الفرنسية بقاعة الاطلاع بالمكتبة العامة بجامعة القاهرة .

إليها ممالك السودان ، وهى قدرة كانت تمكنهم من توجيه الضربة والفرار على وجه السرعة . وقد افتقر الفولانى تماما إلى قدرة من هذا القبيل . وبينما كان البربر والطوارق يعيشون على النهب ، ومن ثم كانوا معتادين على استخدام الأسلحة ، فإن الفولانى لم يكونوا حتى بداية القرن التاسع عشر يعرفون بنزعتهم الحربية ، وكثيرا ما نقرأ عن الغارات التى كانت تشن على الفولانى ، وعن السرقات التى كانت تتعرض لها ماشيتهم ونسائهم . كيف إذن واصل الفولانى الحياة فى حين كان كل شئ يسير ضدهم ؟ أولا ، كان هناك الاعتزاز بالعنصر ؛ فالفولانى حتى عندما يكون مولدا ، أو حتى عندما تكون الطريقة الوحيدة لتمييزه عن الزنجى هى زعمه بأنه فولانى ، كان يظل فولانيا . وهكذا فإن الفولانى المقيم الذى استقر فى مكان ما ، واتخذ له أعرافا وعادات ، وتزوج حيث يقيم ، لم يكن يفقد أبدا إحساسه بعنصره . وفى القرن التاسع عشر كان الفولانى فى طليعة الحركة نحو إقامة دولة فى ماسنة والإطاحة بنظام ممالك الهوسا . ثانيا ، فتنة نساء الفولانى ، فقد دفع أناس بارزون كثيرون إتاوة لقاء سحرهن ، بيد أن قلة نادرة هى التى ذهبت إلى ما ذهب إليه مولارد حين قال إن الفولانى الذين كانوا يرسلون بناتهم عن طيب خاطر إلى حريم الأمراء السود كانوا يستخدمون جمالهن لتأمين مراكزهم فى الجماعة .

إن الصانعين الحقيقيين للحضارة فى غرب إفريقية هم السود . والعناصر فى إفريقية ، وبخاصة فى السودان ، متشابكة للغاية بحيث يتعذر على المرء الحديث عن عنصر الولوف أو السركلى أو الموسيقى . بيد أنه يمكن تمييز فئتين عريضتين . ففي الشمال المتاخم للصحراء الكبرى توجد مجموعة من الناس طوال القامة ، والجزء الأسفل من أجسامهم شديد الطول بالنسبة لبقية الجسم ، وهم نوو هيكى عظمى نحيل للغاية . وهؤلاء هم قبائل الولوف والسرير والسركلى والسنغى والغرمة والزرمة والموسى . وفى هذه المجموعة الشمالية توجد سلسلة مراتب اجتماعية ؛ فالشماليون كانوا أكثر تأثرا بالإسلام ، ومع ذلك فإن التمايز الحقيقى فى السودان لم يكن بين من تأثروا بالإسلام ، وبين من لم يتأثروا به ،

ولكنه بمعنى عام تمايز جغرافى بين مناطق السفانا (١٤٦) ومناطق الغابات ، وهو تمايز استمر حتى وقتنا هذا ، وربما نلمسه بصورة أوضح فى شعب مثل موسى الذى هو فى الواقع شعب من سكان الحدود . وقد كانت قبائل موسى طوال تاريخها بمثابة درع ضد الغارات القادمة من الشمال ، وكانت غاراتها تمتد بعمق فى الشمال ، وتسفر لا عن نهب تمبكت وحدها ، بل ولايته (١٤٧) أيضا . بل إن ممالك موسى تشكل حتى فى الوقت الحاضر حاجزاً ضد انتشار الإسلام جنوباً . فالتماسك الاجتماعى فيما بينهم انتهى بهم إلى قبول الكاثوليكية دينا لهم مع احتفاظ إمبراطورهم برئاسته القبلية . ولكنهم عندما يستقرون فى مستعمرات شركة النيچر سرعان مايكتسبون أساليب الحياة السودانية ، وفى مقدمتها اعتناق الإسلام . فهم باعتبارهم سكان حدود يواجهون كلا النوعين من الأساليب ، ولكن التماسك الاجتماعى كان ينتهى بهم دائماً إلى الوقوف فى وجه انتشار الإسلام فى مناطقهم . وهكذا تحتفظ الغابة بخلفيتهما القديمة القائمة على عبادة الأسلاف (١٤٨)

(١٤٦) السفانا هى المناطق التى تحد الغابات الاستوائية وتفصل بينها وبين الصحارى الحارة ، وهى تجود بكمية من الأمطار تنمو عليها أعشاب تكفى لرعى الماشية .

(١٤٧) ولايته : إلى الشمال الغربى من تمبكت ، وشرقى الحوض . وهذه الكلمة ربما تعنى الأرض المرتفعة كناية عن الطبيعة المرتفعة للمنطقة فى مقابل أرضى الصوض المجاورة التى تعنى الأرض القليلة الغور . أسماها السنغى « بير » (أنظر ، تاريخ الفتاش ، الصفحة ٤٧ ومواضع أخرى ؛ وكذلك تاريخ السودان ، الصفحة ٢١ ومواضع أخرى .) تسمى أيضا « ولاتن » ، كما أسماها ابن بطوطة « إيولاتن » ثم إلى مدينة إيولاتن بعد شهرين كاملين من سجماسة تحفة النظار ، الصفحة ٦٨٧ .

(١٤٨) عبادة الأسلاف : تنتشر بين الإفريقيين فكرة أن أرواح الأسلاف تسكن الحيوان ، فالزواو يقولون بأن أرواح الأسلاف تسكن الأفاعى ، ولذلك فهم لا يقتلونهم ، ويرى المساي رأى نفسه ، ولكنهم يحذرون أفعى لكل قبيلة . وعند البارى ثعبان أخضر خال من السم تتمثل فيه روح النجون الأرضى وأرواح السلف . والرجل عند الدنكا لابد أن يكون له أخلاف يمجدون روحه ، فإذا لم يكن قد تزوج تظل الروح ناقمة عليه حتى يتزوج . وعند البميرة تتقمص الروح طفلا يتخذ اسم سلفه . وعند السارا تحل روح جد الأسرة فى أحد أحفاده ، ولذا لا يلىق أن يعيش الطفل مع أبيه تحت سقف واحد ، فيربى بعيداً عن الأسرة .

ولا توجد الصلابة نفسها في المجموعات الاجتماعية ، وإن كانت الطقوس الدينية تبقى على القبيلة موحدة . وتتمتع النساء بحرية أوسع كثيرا ، وتوجد بينهن وبين الرجال مساواة أساسية إزاء العمل . والمجتمع مجزأ ، ولا تزال الأسرة هي الوحدة الأساسية فيه ، أما العائلة الممتدة والقبيلة فتعلوانها . وزراعة الكفاف هي حرفتهم الرئيسية . كما أن حفلات التنشئة (١٤٩) وفئات الأعمار (١٥٠) ، والطقوس الدينية الأخرى ، تحافظ على وحدة القبيلة . وبرغم أن التمايز بين السفانا والغابات حيوى للغاية ، فلا ينبغي إعطاؤه أكثر مما يستحق . والمجتمع القبلى لا يقل إحساسه بطائفته عن أى مجتمع مقسم إلى مراتب اجتماعية ، أما رؤساء القبائل والأطباء السحرة وفئات كبار السن مع جماعاتهم ، فكانوا منغلقيين على أنفسهم شأن أية أرسقراطية .

(١٤٩) نظام التنشئة : فترة التنشئة هي فترة البلوغ عند الجنسين ، وفي ختامها ينتقل الفتى إلى مرحلة الرجولة ، وهو لى يثبت صلاحيته لهذا الانتقال يجب أن تتوفر لديه صلابة بدنية وقوة احتمال وقدرة على قهر الخوف ، ذلك أن استسلامه للخوف يجعله موضع امتهان وفي عداد الصبيان ، ولا يجوز له الزواج . وبرغم أن مرمى هذا النظام أو معناه واحد عند مختلف القبائل فإن مراسمه تختلف من قبيلة لأخرى ، فعند الماساي يطوف الصبية بالمنازل يلتمسون الهدايا ، وهذه يقدمونه إلى رجل من كبار السن ليقوم بتنشئتهم ، ويتقبل الزعيم الهدايا ويزيد عليها ، وبعد ليوم التنشئة الذى تجرى فيه عملية الختان ، وكل عصابة يتم ختانها تأخذ لنفسها اسما خاصا مثل « الأسود » أو « المغيرين » ، ويقضى أفرادها فترة طويلة فى معسكرات يزورون فيها ويرعون الماشية ويعدون الغارات ، ثم يعود كل منهم إلى مسكنه بعد أن يكون قد تزوج لينضم إلى زمرة الرجال . أما عند البارى فتقوم عملية خلع القواطع مقام عملية الختان ، فليس الختان من عاداتهم .

(١٥٠) فئات الأعمار : يختلف نظام فئات الأعمار باختلاف القبائل ، وأهم اعتبار فيه تقسيم العمر إلى ثلاث مراحل أساسية : مرحلة الصبا حتى سن الرابعة عشرة ؛ مرحلة الفتوة حتى سن الثلاثين ؛ مرحلة النضج والرجولة بعد ذلك . أما عند البارى والنيليين الحاميين فالمرحلة ليست محددة تماما . فبعد فترة يؤديها الأولاد في الخدمة يخلون مرحلة الفتوة (بعد الخامسة والثلاثين) ثم الشيخوخة (بعد الخامسة والخمسين) . وتوجد عند البمبرة جمعية كومو السرية ، وهي جمعية دينية لها سلطات روحية من بينها مباشرة المراسم الجنائزية ، فيحرس الميت زملاؤه فى الرتبة والسن .

الفصل الثانى

غانة (*)

منشأ غانة مغلف بالغموض . فالإفريقيون الشماليون واليهود والبربر ، كل هؤلاء كان لهم نصيب فى نسبة تأسيس غانة إليهم . رأى واحد حول هذا المنشأ تجمع عليه الاجتهادات المختلفة ، مفاده أن حكامها الأوائل كانوا من العنصر الأبيض . يقول محمود كعت وهو سندن الرئيسى : « واختلف أى قبيلة هم كانوا منها من وعكرى وقيل من ونَجَر وهو ضعيف لا يصح وقيل من الصنهاجة وهو أقرب عندي لأنهم يقولون فى نسبهم أَسْكُ صُوبَ بهمزة مفتوحة فسين مهملة ساكنه فكاف مضمومة فعين مضمومة وهم حَم فى اصطلاح سودان لقباً والأصح أنهم ليسوا من السوداين والله أعلم وقد بعد زمانهم ومكانهم علينا ولايتأتى لمؤرخ فى هذا اليوم أن يأتى بصحة شئ من أمورهم يقطع بها ولم يتقدم لهم تاريخ فيعتمد عليه » . (١) ويستبعد كعت بطريقة عرضية الروايات المحلية حول الأصول الزنجية .

(*) غانة التى يتناولها المؤلف فى هذا الفصل ليست بطبيعة الحال غانة الحديثة التى اتخذت هذا الاسم تيمناً ، والتى تقع على بعد قرابة ألف ميل جنوب غانة القديمة . ويقول الدكتور إبراهيم طرخان (« إمبراطورية غانة الإسلامية » ، الصفحة ٢٠) إن مدى إتساعها ليس معروفا بالضبط ، وإنها كانت صاحبة السيادة والنفوذ فى الأراضى الواقعة بين النيجر والمحيط الأطلسى ، وإنها امتدت من ناحية الشمال ، وخضعت لها غالبية القبائل الصحراوية ، وامتدت شرقاً إلى جنوب تمبكت وجنوباً بغرب إلى أعالي النيجر وأعالي السنغال ، وربما امتدت فى بعض الأحيان إلى المشارف الشمالية لما هو الآن جمهورية غانة الحديثة ، وإلى أطراف منطقة الغابات الاستوائية . وتقع أطلالها اليوم بالقرب من الحدود الجنوبية لجمهورية موريتانيا الحديثة ، ضمن أراضى جمهورية مالى الحديثة .

(١) محمود كعت ، تاريخ الفتاش ، الصفحة ٤٢ . وعكرى : وهم السركلى ، ومعناها بلغة أهل المنطقة الرجل الأحمر ، أى غير الأسود ؛ ونَجَر : وهم المندنغو ؛ ويقصد كعت بعبارة « لأنهم يقولون فى نسبهم أَسْكُ صُوبَ ... وهم حم فى اصطلاح سودان لقباً » القول بأنهم يسمون فى لغتهم أَسْكُ صُوبَ كلقب لهم ، وهو يعادل كلمة حام (ابن سيدنا نوح) . كما يقصد بعبارة « والأصح أنهم ليسوا من السوداين » أنهم ليسوا من أصول زنجية . هذا ومن المعروف أن الصنهاجة ليسوا زنوجاً ، فصنهاجة صيغة عربية لاسم قبيلة زنانة البربرية الكبيرة التى تشكل إحدى المجموعتين الكبيرتين اللتين ينقسم إليهما البربر فى شمال إفريقيا .

وسندنا الآخر بطبيعة الحال هو السعدى . وهو لا يذكر سوى أن الحكام كانوا من العنصر الأبيض ، وأنه كان هناك أربعة وأربعون أميراً ؛ إثنان وعشرون منهم حكموا قبل الهجرة ، وإثنان وعشرون بعدها . (٢) تلك هي المعلومات التى يقدمها رواة التاريخ . فلا السعدى ولا كعت عزز رأيه القائل بأن حكام غانة كانوا من العنصر الأبيض بأية أدلة تدعمها الوثائق . ولقد كتب السعدى وكعت روايتهما فى القرن السابع عشر ، بعد أن اجتاحت المرابطون غانة بستة قرون . ولكن المؤرخين قبلوا قولهما بأن حكام غانة كانوا من العنصر الأبيض . ومرجع ذلك على أية حال هو الاعتقاد بأن الزنوج كانوا عاجزين عن تأسيس إمبراطورية . ومن رأى إرقوى أن فكرة الأمراء البيض الذين يسيطرون على سكان مستسلمين صاغرين لها مصدرها فى العصور الحديثة ، وأنه لا يوجد فى تاريخ السودان ما يؤيدها .

وهذه الروايات البالغة الغموض حول مؤسسى غانة قد انتهت بمؤرخى غرب إفريقية إلى تكوين بعض النظريات المثيرة ، وأكثرها سذاجة تلك التى قدمتها ليدى لوجارد ، ومفادها أن الناس الذين كونوا مملكة غانة من الوُجَر ، وأنهم ربما قدموا من أنجَر ، وهى مدينة فى شمال غرب شبه القارة الهندية على حدود إيران . ومع ذلك فإن النظرية المسلم بها على نطاق واسع هى تلك التى قدمها ديلافوس ، ومفادها أن الإمبراطورية قد تأسست على أيدي اليهود . وقد تبنى كل من بوقل وفاج هذه النظرية ، بيد أنه لا يوجد فى التاريخ ما يمكن أن يحملنا على الاعتقاد بأن اليهود ، حتى بعد مذبحة عام ١١٥ م (٣) ، قد

(٢) « وقِيمَغ هو الذى بدأ السلطنة فى تلك الجهة ودار إمارته غانة وهى مدينة عظيمة فى أرض باغَنَ قيل إن سلطنتهم كانت قبل البعثة فتملك حينئذ اثنان وعشرون ملكا وبعد البعثة اثنان وعشرون ملكا وعدد ملوكهم أربعة وأربعون ملكا وهم بيضان فى الأصل ولكن ما نعلم من ينتمى إليه فى الأصل » تاريخ السودان، الباب الرابع ، الصفحة ٩ . قِيمَغ وردت كِيمَغ فى تاريخ الفتاش ، الصفحة ٤١ ، ويقول كعت فى الموضوع نفسه إن « كيمع معناه فى لغة وعكرى ملك الذهب » . والمقصود بالبعثة هنا الهجرة النبوية .

(٣) قبل الميلاد كانت الدولة الرومانية ترقب الصراع الدائر فى صفوف اليهود لتنتهز فرصة للتدخل ، وحانت الفرصة عندما نشب صراع بين قائدين متناقسين من اليهود ، فاجتاح الرومان فلسطين فى عام ٦٣ ق.م ، وفى عام ٧٠ م سحق الامبراطور الرومانى تيطس ثورة قام بها يهود بيت المقدس ودمر أورشليم وأحرق الهيكل الذى كان قد بنى برعاية قورش . وفى عام ١٣٥ م دمر الرومان أورشليم مرة أخرى تماما وتخلصوا ممن تبقى من اليهود بالقتل والتشريد ، فرحل من استطاع منهم الهرب إلى مصر وشمال إفريقيا وأسبانيا وأوروبا . ومن هنا يرجح أن يكون تاريخ مذبحة اليهود المشار إليها هو عام ١٣٥ م ، وليس عام ١١٥ م .

تحركوا جنوباً في الصحراء إلى أبعد من المغرب أو مصر ، وهما بلدان كانا معروفين لديهم جيداً . وقد يكون غريباً أن يتحرك اليهود بنسائهم وأطفالهم إلى منطقة لم تكن حتى الجيوش الرومانية راغبة في التغلغل فيها . كذلك لا أحد يعرف ديانة الناس الذين أسسوا غانة . فإذا حكمنا بأنهم الطوارق وعناصر صحراوية « بيضاء » أخرى ، فالأمر الأكثر احتمالاً أنهم كانوا في ذلك الوقت قبيلة وثنية أمومية . ذلك أن الخيار لا ينحصر بين الأديان السماوية الثلاثة ، ولا يوجد ما يحتم بأنهم كانوا مسيحيين أو يهوداً قبل اعتناقهم الإسلام . ومع ذلك فالأرجح أنه كانت توجد جاليات مسيحية ويهودية كثيرة على ساحل شمال إفريقية - كما كانت الحال في الأجزاء الأخرى من الإمبراطورية الرومانية - وهذه الحقيقة ربما تكون قد أدت بديلافوس إلى أن يعزو تأسيس غانة إلى اليهود .

وفي السودان . مثلاً في مصر ، استولى البدو أصحاب الماشية ، طبقاً لهذه النظرية ، على السلطة والنفوذ ، واستوطنوا بين قبائل السوننكي ، وتمكنوا في نهاية الأمر من تحقيق السلطة السياسية ، وكانت تلك هي بداية غانة . وبعد قرنين أو نحو ذلك هبَّ الأهالي ثائرين ، « وأطيحَ بالأسرة الحاكمة اليهودية السورية » ، وجاء إلى السلطة رئيس قبيلة محلي من السوننكي تحت اسم بَتْنَجَن .

وإلى هذا الفراغ قدمت موجة جديدة من السوننكي بقيادة قيمغ الذي كان حاكماً لقبائل السوننكي في وِغْدُو^(٤) . وقد أثبت أنه قائد واسع الحيلة ، ولم تعترضه أية صعوبة في غزو غانة . وهكذا فإن قيمغ الذي ورد ذكره في تاريخ الفتاش ليس هو مؤسس الأسرة المالكة البيضاء ، وإنما الأسرة المالكة السوداء ، ولذا فإن المسألة المتعلقة بما إذا كانت قد قامت هناك أسرة مالكة بيضاء تظل برمتها مشكوكاً فيها إلى أقصى حد .

والقليل الذي نعرفه عن غانة مصدره الجغرافيون العرب الذين كان لديهم بعض الإلمام ببلاد الزنوج . فلو كانت هناك أسرة حاكمة بيضاء لما أحجموا عن

(٤) وِغْدُو : وردت في تاريخ السودان « وِغْدُو » ، الصفحة ٢١ ؛ وفي تاريخ الفتاش « وِغْدُو » ، الصفحة ١١٩ . وهي تكتب الآن « واجادجو » .

ذكرها . (٥) قال يعقوبى يقول فى كتاب البلدان إن ملك غانة ملك عظيم ، وإن بلاده غنية بمناجم الذهب ، ويخضع له عدد كبير من الممالك (٦) . ويضع كل من يعقوبى والمسعودى (٧) غانة بين البلاد الزنجية ، ولم ترد فى مولفاتهما إشارة إلى أصل أبيض . كما إبن حوقل الذى زار أودغست وكان على علاقة وثيقة بتجارها ، يضع غانة بين البلاد الزنجية (٨) . ويحذوه حذوه كل من البيرونى (٩)

(٥) قال الخوارزمى ، الجغرافى العربى المعروف ، إن « غانة قوم يسمون إغرمانيين » . الخوارزمى ، صورة الأرض ، تحقيق هانس فون ميزك ، فيينا ، مطبعة أنولف هولز هوزن ، ١٩٢٦ ، الصفحة ١٠١ . والمقصود بالإغرمانيين هنا شعب الغارمنطيس ، وهم من البيض . (أنظر الحاشية ١ - ٤٦) .

(٦) أحمد بن أبى يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح (الشهير باليعقوبى) : جغرافى ومؤرخ أصفهانى عربى . قام بالترحال شرقا وغربا وزار بلاد فارس وأرمينيا والهند والشام والمغرب والأندلس ، يعد كتاب البلدان من أقدم المصادر الجغرافية وأوثقها . وتوجد فى المكتبات طبعة منه أصدرتها « دار إحياء التراث العربى » . كما أن له كتابا آخر عنوانه تاريخ يعقوبى ، توجد منه طبعة فى جزأين أصدرتها « دار صادر » فى بيروت . ويبدو أن پانيكار قد خلط بين الكتابين ، فالإشارة الواردة فى المتن ليس مصدرها كتاب البلدان ، وإنما تاريخ يعقوبى ، المجلد الأول ، الصفحة ١٩٤ : « ثم مملكة غانة ، وملكها أيضا عظيم الشأن ، وفى بلاده معادن الذهب ، وتحت يده عدة ملوك » .

(٧) « ولما تفرق ولد نوح فى الأرض سار ولدكوش بن كنعان نحو المغرب حتى قطعوا نيل مصر ، ثم افترقوا ، فسارت طائفة منهم ميمنة بين المشرق والمغرب ، وهم النوبة والبجة والزنج ، وسار فريق منهم نحو المغرب ، وهم أنواع كثيرة ، منهم الزغاوة والكانم ومركة وغانة وغير ذلك من أنواع السودان والدمادم . » المسعودى ، مروج الذهب ومعادن الجواهر ، الجزء الثانى ، الصفحة ٤ .

(٨) « ولقد رأيت بأودغست صكاً فيه ذكر حق لبعضهم على رجل من تجار أودغست .. » كتاب صورة الأرض ، الصفحة ٩٦ . « وملك أودغست هذا يخالط غانة ، وغانة أيسر من على وجه الأرض من ملوكها .. » المرجع نفسه ، الصفحة ٩٨ .

(٩) أبو الريحان محمد بن أحمد الخوارزمى البيرونى : (٩٦٢ أو ٩٧٣ - ١٠٤٨) مؤلف عربى من أصل فارسى . حصل كثيرا من العلوم ، فكان مؤرخا لغويا وأديبا وعالما بالرياضيات والفيزياء والفلك والطب والفلسفة والتصوف والأديان ، وله فى ذلك مولفات قيمة تتميز بالإحاطة الشاملة والبحث الدقيق ، منها الآثار الباقية عن الفرون الخالية ؛ تاريخ الهند ؛ تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مرئولة ؛ القانون المسعودى (فى الهيئة والنجوم) . له مع ابن سينا مراسلات وموازنات قيمة بين المذاهب الفلسفية والصوفية . وله أيضا كتب فى الأدب منها : شرح شعر أبى تمام ؛ مختار الأشعار والأسفار .

« ونسبة القلعة إلى الذهب ممكن أن يكون اسما وضعيا ، وممكن أن يكون وصفا حقيقيا ، فإن جزائر الزنج تسمى « أرض الذهب » ، لأن الذهب الكثير يرسب فى غسالة التراب القليل منه » . تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مرئولة ، طبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ، حيدر أباد ، الهند ، ١٩٥٨ ، الصفحة ٤٣٢ .

والبكرى (١٠) . وكان الإدريسي أول من قال شيئاً مختلفاً ، فهو يشير إلى أن الحاكم ينحدر من سلالة صالح بن عبد الله ، وهو من نسل النبي ، وقد وضع غانة على نهر النيجر ، وربما كان مرجع ذلك أن الإدريسي كتب بعد غزو المرابطين . وقد انقسمت غانة إلى جزأين : خضع الشمالي منهما لملك من البربر ربما كانت لديه مزاعم بأنه من سلالة الأشراف . (١١)

وهكذا لا يوجد ما يدعونا إلى أن نقيم الدليل على أن غانة كانت دولة بيضاء . فالمؤرخون الذين كتبوا بعد قيامها بأكثر من ألف عام يتعذر الأخذ عنهم كمصادر يُعَوَّل عليها . والجغرافيون العرب القدامى لا يذكرون شيئاً عن أسرة حاكمة بيضاء في غانة ، كما يفعلون مثلاً بالنسبة لكانم ، ثم إنهم يقرون بصورة قاطعة بأن غانة مملكة زنجية . ومن المؤسف أن ضرورة تقديم تفسير للأحداث الإفريقية يستند إلى الكتاب المقدس ، وربط كل شيء بحام وسام ، وكذلك العزوف عن الاعتقاد بأن الزوج كان في مقدورهم أن يؤسسوا إمبراطورية ، يكمنان وراء غالبية الظنون المتعلقة بالأسرة البيضاء في غانة .

ماذا نعرف عن غانة ؟ أقل القليل في الحقيقة ! فمصدرنا الذي يعول عليه ، والذي يتناول غانة في شيء من الإفاضة ، هو البكرى الذي يذكر المنطقة من حين لآخر ، وهذا ما يقوله عن غانة : « وغانة سمة ملوكهم واسم البلد أوكار واسم ملكهم اليوم وهي سنة سنتين وأربع مائة تنكامنين ... وغانة مدينتان سهيلتان أحدهما المدينة التي يسكنها المسلمون وهي مدينة كبيرة فيها إثنا عشر مسجداً أحدهما يجمعون فيه ولها الأيصة والموذنون والراتبون وفيها

(١٠) « وأفضل الذهب ببلاده (بلاد ملك غانة) ماكان بمدينة غيارا وبينها وبين مدينة الملك مسيرة ثمانية عشر يوماً في بلاد معمورة بقبائل السودان ... » البكرى ، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، الصفحة ١٧٦ .
« وهي كان منزل ملك بلاد السودان المسمى بغانة .. » المرجع نفسه ، الصفحة ١٦٨ . (المقصود بمنزل الملك هنا عاصمته .)

(١١) « وغانة مدينتان على ضفتي النهر الحلو وهي أكبر بلاد السودان قطرا وأكثرها خلقا وأوسعها متجرا وإليها يقصد التجار المياسير من جميع البلاد المحيطة بها وأهلها مسلمون وملكها فيها يوصف من ذرية صالح بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب وهو يخطب لنفسه ولكنه تحت طاعة أمير المؤمنين العباسي . » الإدريسي ، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، الجزء الأول ، الصفحة ٢٢ .

فقهاء وحملة علم وحواليها أبار عذبة منها يشربون وعليها يعتملون الخضروات ومدينة الملك على ستة أميال من هذه وتسمى بالغابة والمساكن بينهما متصلة ومبانيهم بالحجارة وخشب السنط والملك قصر وقباب وقد أحاط بذلك كله حائط كالسور وفي مدينة الملك مسجد يصلى فيه من يفد عليه من المسلمين على مقربة من مجلس حكم الملك وحول مدينة الملك قباب وغابات وشعراء يسكن فيها سحرتهم وهم الذين يقيمون دينهم وفيها دكاكيرهم وقبور ملوكهم ولتلك الغابات حرس ولا يمكن لأحد دخولها ولا معرفة ما فيها وهناك سجون الملك فإذا سجن أحد انقطع عن الناس خبره وتراجمة الملك من المسلمين وكذلك صاحب بيت ماله وأكثر وزرائه ولا يلبس المخيط من أهل دين الملك غيره وغير ولى عهده وهو ابن اخته ويلبس ساير الناس ملاحف القطن والحرير والديباج على قدر أحوالهم وهم أجمع يحلقون لحاهم ونسأؤهم يحلقن رؤسهن وملكهم يتحلى بحلى النساء فى العنق والذراعين ويجعل على رأسه الطراوير المذهبة عليها عمايم القطن الرفيعة وهو يجلس للناس والمظالم فى قبة ويكون حوالى القبة عشرة أفراس بثياب مذهب ووراء الملك عشرة من الغلمان يحملون الحنف والسيف المحلاة بالذهب وعن يمينه أولاد ملوك بلده قد ضفروا رؤسهم على الذهب وعليهم الثياب الرفيعة ووالسى المدينة بين يدى الملك جالس فى الأرض وحواليه الوزراء جلوسا على الأرض وعلى باب القبة كلاب منسوية لا تكاد تفارق موضع الملك تحرسه فى أعناقها سواجير الذهب والفضة يكون فى الساجور عدد رمانات ذهب وفضة وهم يندرون بجلوسه بطبل يسمونه دبا وهو خشبة طويلة منقورة فيجتمع الناس فإذا دنا أهل دينه منه جثوا على ركبهم ونثروا التراب على رؤسهم فتلك تحيتهم له وأما المسلمون فإنما سلامهم عليه تصفيقا باليدين وديانته المجوسية وعبادة الدكاكير وإذا مات ملكهم عقبوا له فيه قبة عظيمة من خشب الساج ووضعوها فى موضع قبره ثم أتوا به على سرير قليل الفرش والوطا فأدخلوه فى تلك القبة ووضعوا معه حليته وسلاحه وأنيته التى كان يأكل فيها ويشرب وأدخلوا فيها الأطعمة والأشربة وأدخلوا معه رجالا ممن كان يخدم طعامه وشرابه وأغلقوا عليهم باب القبة وجعلوا فوق القبة الحصر

والأمتعة ثم اجتمع الناس فقدموا فوقها بالتراب حتى تآتى كالجبل الضخم ثم يخذقون حولها حتى لا يوصل إلى ذلك الكوم الا من موضع واحد وهم يذبحون لموتاهم الذبائح ويقربون لهم الخمر» (١٢)

وغانة كانت بلدا يستخرج منه الذهب ؛ وجميع ركاز مناجمها ملك للملك ، وباستطاعة الأهالي أن يأخذوا التبر (تراب الذهب) فقط ، ويون ذلك كان لابد أن يكثر الذهب حتى تنعدم كل قيمة عملية له . وقد زعم أن الملك يمتلك كتلة من الذهب فى حجم ضخ (١٣) . وكان لدى ملك غانة جيش من مائتى ألف محارب ، أربعون ألفا منهم مسلحون بالأقواس والسهام ، وكانت الخيول هناك ضئيلة الحجم . ويذكر البكرى أن كلمة غانة هى لقب الملك وأن البلاد اسمها أوكار ، وموقع العاصمة لا يمكن تحديده إلا على ضوء المسافات التى ذكرها البكرى من أماكن مختلفة . فقد كانت على مسيرة أربعة عشر يوما من أودغست ، وأربعة أيام من سامقندى ، وخمسة عشر يوما من كوغه ، وعشرة أيام من تادمكة (١٤)

(١٢) «البكرى ، المرجع السابق ، الصفحات ١٧٤ إلى ١٧٦ .

(١٣) « وهى (غانة) بلاد التبر المذكورة الموصوفة كثرة وطيبا والذى يعلمه أهل المغرب علما يقينا لا اختلاف فيه أن له فى قصرة لبنة من ذهب وزنها ثلاثون رطلا من ذهب تبرة واحدة خلقها الله خلقه تامة من غير أن تسبك فى نار أو تطرق بآلة وقد نفذ فيها ثقب وهى مربطة لغرس الملك وهى من الأشياء المغربة التى ليست عند غيره ولاصحت لأحد إلا له وهو يفخر بها على سائر ملوك السودان « الإبريسى ، نزهة المشتاق ، الجزء الأول ، الصفحة ٢٢ .

« لقد انتهى به الحال فى سرفه وتبذيره أن باع حجر الذهب الذى كان فى جملة الذخيرة عن أبيهم وهو يزن عشرين قنطارا منقولا من المعدن من غير علاج بالصناعة ولا تصفية بالنار كانوا يرونه من أنفس الذخائر والغرائب لندرة مثله فى المعدن « العبر ، المجلد السادس ، الصفحة ٢٠٢ .

(١٤) « وفى سنة ست وأربعين غزا عبد الله بن ياسين أودغست وهو بلد قايم العمارة مدينة كبيرة ففيتها أسواق ونخل كثير وأشجار الحناء وهى فى العظم كشجر الزيتون وهو كان منزل ملك السودان المسعى بغانة قبل أن تدخل العرب غانة وهى متقنة المباني حسنة المنازل ومسافة ما بينها وبين سجلماسة مسيرة شهرين وبينها وبين مدينة أودغست خمسة عشر يوما « البكرى ، المرجع السابق ، الصفحة ١٦٨ .

« فأما الطريق من غانة إلى غياروا فإلى مدينة سامقندى أربعة أيام « المرجع نفسه ، الصفحة ١٧٧ .

« وعلى تسع مراحل من مدينة انبارة مدينة كوغه وبينها وبين مدينة غانة مسيرة خمس عشرة رحلة .. « المرجع نفسه ، الصفحة ١٧٩ .

« فأما الجادة من غانة إلى تادمكة وبينهما مسيرة خمسين يوما .. « المرجع نفسه ، الصفحة ١٨١ .

وقد وردت بعض المسافات بصورة غيد دقيقة فى المتن ، أما أسماء المدن فقد تم ضبطها على البكرى .

وعلى أساس هذه الحسابات اعتقد مؤلفون مختلفون ، ومن بينهم كولى^(١٥) وبارث^(١٦) ، أن عاصمة غانة كانت تقع عند مكان على منحني النيجر ، بيد أنه استناداً إلى روايات الأهالي ، وإلى ما ذكره كعت من أن العاصمة تسمى قُنب^(١٧)، رجَّح بونيل دى ميزيير^(١٨) بأن العاصمة كانت تقع على حافة الصحراء الكبرى . بيد أنه كان هناك بلدان يحمل كل منهما اسم قُنب ، وقد ربطت الأساطير المحلية بين العاصمة ومدينة قنب الواقعة على مسافة مائتى ميل إلى الشمال من بمكو ،

(١٥) ولیم نیسبورو كولى : مؤلف كتاب The Negroland of The Arabs ، لندن ١٩٤١ . توجد نسخة منه بمكتبه جامعة القاهرة .

(١٦) هنريخ بارث : (١٨٢١ - ١٨٦٥) المستكشف والمستشرق الألماني المعروف . بدأ رحلاته فى عام ١٨٤٥ من طنجة وزار شمال إفريقيا ، ثم سافر إلى مصر وصعد مع النيل حتى وادى حلفا . عبر سينا إلى الشام وآسيا الصغرى واليونان . قام فى عام ١٨٥٠ مع زميلين له برحلة إلى قلب إفريقيا موفدين من قبل الحكومة البريطانية ، غير أن زميليه توفيا فأكمل الرحلة بمفرده بوعاد إلى مصر بعد رحلة بالغة الأهمية اخترق خلالها الصحراء الكبرى ، وعبر البلاد من بحيرة تشاد وباجرمى إلى تمبكت غربا والكمرون جنوبا . وطبعت قصة رحلاته بالإنكليزية والألمانية فى وقت واحد فى ثلاثة مجلدات تحت عنوان Travels and Discoveries in North and Central Africa (1857 - 58) . وأصدر بعد ذلك كتابا جمع فيه المفردات اللغوية الإفريقية . كان أول من عرف أوروبا بكتاب عبد الرحمن السعدى تاريخ السودان ، ولكنه نسب خطأ إلى أحمد بابا . (أنظر ، الإضافة المرفقة بنهاية الكتاب ، والخاصة بعبد الرحمن السعدى .)

(١٧) « إن كيمع من الملوك الأوائل وقد مضى منهم عشرون ملكا قبل ظهور رسول الله صلى الله عليه وسلم واسم بلدة قُنب قُنب مدينة عظيمة ... » تاريخ الفتاش ، الصفحة ٤١ . (وردت قُنب فى الترجمة الفرنسية koumbi .)

(١٨) بونيل دى ميزيير : ضابط عمل فى إفريقيا وتعمق فى الإسلام . كلف فى عام ١٩١١ بمهمة البحث عن مخطوطات لمؤلفات عربية تتناول تاريخ المنطقة . وتمكن بفضل درايته بالشؤون الإسلامية من كسب ثقة رجال الدين والفكر ، واستطاع أن يحصل من سيدى محمد الإمام بن السيوطى - المعلم بمدرسة تمبكت - على مخطوط كان سيدى محمد يعتبره أندر ما فى مكتبته ، فقام بنسخه وعهد بالنسخة إلى معهد اللغات الشرقية الحية بباريس ، ويتبين للمستشرق هودا أنه مؤلف ذو أهمية تاريخية كبيرة ولكن تنقصه الصفحات الثلاث الأولى فتعذر معرفة عنوانه . وفى عام ١٩١٢ عثر مسيو بيريقييه على مخطوط آخر به الصفحات الناقصة ، وعرف منه أن المخطوط إنما هو لكتاب تاريخ الفتاش ، ولذا ينسب إليه فضل اكتشاف مرجع تاريخى هام . وقد قام دى ميزيير فى عام ١٩١٤ بأعمال حفر فى منطقة « الساحل » جنوبى الصحراء الكبرى ، واقتنع بأن هذا الموقع ربما يكون هو عاصمة غانة . وفى عام ١٩٤٩ استأنف الباحثان توماس ورايموندسونى أعمال الحفر فى الموقع نفسه ، وأوضحا أن الآثار التى عثرا عليها ليست سوى بقايا المدينة الإسلامية أو القسم الإسلامى من عاصمة غانة . [كلمة الساحل هنا إشارة إلى ساحل الصحراء أى حافتها تشبها بساحل البحر ، فالصحراء عند العرب هى بحر الرمال .]

وهذا الموقع يبدو مثاليا للتجارة عبر الصحراء الكبرى على طول الطريق الغربى ، وكان هذا هو أقصر طريق من البحر المتوسط إلى السودان . وقد جئ ببونيل دى ميزيير إلى قَنْبِ صالح عندما أبدى رغبته وهو فى ولاته فى زيارة العاصمة القديمة لغانة . ومع ذلك فكما يقول مونى (١٩) . « لا يمكننا اليوم أن نؤكد فى يقين ، حتى بعد الحفائر التى أجريت فى الأعوام ١٩١٤ و ١٩٣٩ و ١٩٤٩ - ١٩٥٩ فى موقع قنب صالح ، أنها كانت حقيقة قَنْبِ غانة » . ولكنه يوجد يقين معقول أساسه أن قنب هى المدينة الوحيدة التى ورد إسمها فى أى مرجع ، وأن الروايات المحلية تربط ما بين قنب صالح وغانة . وتشير الأطلال التى عثر فى الحفائر - الأوانى الفخارية والخرز إلخ - إلى موقع من العصور الوسطى .

وبالنسبة للجغرافيين العرب كانت مملكة غانة هى بلاد الذهب . فالقزائى (٢٠) الفلكى ذكر غانة بوصفها بلاد الذهب . كما أن الخوارزمى (٢١) الجغرافى واليعقوبى وابن حوقل يذكرون جميعا ذهب غانة . يقول اليعقوبى : « ثم مملكة غانة ، وملكها أيضا عظيم الشأن ، وفى بلاده معادن الذهب ، وتحت يده عدة ملوك » (٢٢) . وهذا رأى ابن حوقل فى ملكها : « وغانة أيسر من على وجه

(١٩) رايونج مونى : مستكشف ومؤرخ فرنسى . له أعمال كثيرة من أهمها A.O.F. L'Encyclopedie Coloniles Navigations Medievales sur Cotes Sahariennes Anterieures á la Decouverte Portugaise ، لشبونة ، ١٩٠٦ .

(٢٠) محمد بن إبراهيم القزائى : أول فلكى فى الإسلام . ترجم للخليفة العباسى المنصور رسالة « السندهند » المشهورة فى الفلك ، وكانت مع رحالة هندى قدم بها إلى بغداد . قيل أنه أول من صنع الأسطرلاب فى الإسلام . كان أول جغرافى عربى يذكر مملكة غانة وعدة بلدان إفريقية قبل ١٨٥ هـ (٨٠١ م) .

(٢١) أبو جعفر محمد بن موسى الخوارزمى : (٩ - ٨٥٠) ، رياضى وفلكى جغرافى ، ظهر فى عصر المأمون وكانت له مكانة سامية لديه . له فضل تعريف العرب والأوروبيين بنظام الأعداد الهندى . وضع الأساس لعلم الجغرافية العربى ، ذلك أن كتابه « صورة الأرض » الذى وضع فى أواخر عهد المأمون - أو فى عهد خليفته المعتصم على ما يراه بعض المستشرقين - يعتبر من أمهات الكتب فى علم الجغرافية . وقد وردت به أسماء يونانية قديمة وأسماء معاصرة مما يدل على اهتمامه ببطلميوس وتأثره به . اشترك فى وضع الخرائط التى طلبها المأمون للأرض ، كما رسم مصورا لودى النيل . هذا وقد أخذت عن كتابه « صورة الأرض » (أنظر الحاشية ٢ - ٥ أعلاه) .

(٢٢) تاريخ اليعقوبى ، طبعة « دار صادر » ، المجلد الأول ، الصفحة ١٩٤ .

الأرض من ملوكها بمالدية من الأموال والمدخرة من التبر المثار على قديم الأيام للمتقدمين من ملوكهم .. ، « (٢٣) وقد كانت إفريقية الغربية تكتسب بالفعل شهرة واسعة باعتبارها بلاد الذهب .

والتاريخ السياسي لغانة مازال مجهولا لنا ، إلا في أكثر التفصيلات غموضا . ونحن لانعرف شيئا عن الحكام الأوائل . واستنادا إلى ديلافوس فإن الإمبراطورية التي دانت لقيم لم تكن تمتد فقط إلى أوكار وباغن ، وإنما أيضا إلى كل أقاليم الساحل والحوض وتاجنت ، وربما امتدت جنوبا بغرب حتى بلاد التكرور ، ولكنها في الشرق لم تمتد إلى ما وراء نهر النيجر . وهذا أساسه ضرب من التخمين بطبيعة الحال ، ولكن النقطة الهامة هي أنها كانت مملكة صحراوية ، وكان رخاء غانة رهنا ببقاء طريق الصحراء مفتوحا ، ومع الغزو العربي لشمال إفريقية ظهر خطر اضطراب هذا الطريق . وهكذا ففي القرن الثامن قام بنو أمية ، عندما أحكموا قبضتهم على مراكش الغربية ، بشن هجوم على غانة فيما بين عامي ٧٣٤ و ٧٥٠ . وكان هذا الهجوم هو أول حملة مراكشية ضد إحدى دول إفريقية الغربية نعرف عنه شيئا ، ولم تكلل الحملة بالنجاح . وكان أحفاد الغزاة يعيشون في أوكار على أيام البكرى تحت اسم الهنهين (٢٤) .

وإليك كيف يصف ابن خلدون تزايد قوة القبائل الصحراوية التي كان عليها أن تطيح بالإمبراطورية الزنجية وبالممالك المستقرة في شمال إفريقية .

« هذه الطبقة من صنهاجة هم المثلثون الوطنون بالفقر وراء الرمال الصحراوية بالجنوب أبعدوا في المجالات هنالك منذ دهور قبل الفتح لا يعرف أولها فنزحوا عن الأرياف ووجدوا بها المراد وهجروا التلول وجفوها واعتاضوا منها باللبان الأنعام ولحومها انتبازاً عن العمران واستثناسا بالانفراد وتوحشا .

(٢٣) ابن حوقل ، المرجع السابق ، الفقرة ٥٦ ، الصفحة ٩٨ .

(٢٤) « وبيلاذ غانة قوم يسمون بالهنهين من نرية الجيش الذي كان بنو أمية أنفثوه إلى غانة في صدر الإسلام وهم على دين أهل غانة إلا أنهم لا ينكحون في السودان ولا ينكحونهم فهم بيض الألوان حسان الوجوه . » البكرى ، المرجع السابق ، الصفحة ١٧٩ . (المقصود بأقليم الساحل في هذه الفقرة ليس الإقليم الواقع على ساحل المحيط الأطلسي ، وإنما الإقليم الواقع جنوبي حافة الصحراء الكبرى) .

بالعز عن الغلبة والقهر فنزلوا من ريف الحبشة جوارا وصاورا ما بين البربر وبلاد السودان حجازا واتخذوا اللثام خطاما تميزوا بشعاره بين الأمم وعقوا في تلك البلاد وكثروا وتعددت قبائلهم من كذالة فلمتونة فمسوفة فوتريكة فزغاوة ثم لمطة إخوة صنهاجة كلهم ما بين البحر المحيط بالغرب إلى غدامس من قبلة طرابلس وبرقة والملتونة فيهم بطون كثيرة منهم بنو ورتنطق وبنوزمال وبنو صولان وبنو ناسجة وكان موطنهم من بلاد الصحراء يعرف كأكرم وكان دينهم جميعا المجوسية شأنهم برابرة المغرب « (٢٥) .

وفي القرن التاسع نجحت قبيلة زناتة (صنهاجة) في فرض سيطرتها على غرب الصحراء الكبرى ، وكان تعاظم قوتها الإقليمية يعنى أنها سرعان ما استدخل في نزاع مع غانة . وقد أثبت رئيسها تيلوتان أو تين يروتان أنه حاكم عظيم . فقد كان يتبعه أكثر من عشرين ملكا زنجيا ، وامتدت حدود مملكته مسيرة شهرين ، وتجاوز قوام جيشه مائة ألف من راكبي الجمال . وقد شن حروبا ناجحة ، وتمكن من احتلال أوغام التي يذكر البكري أنها تقع شرقي غانة. (٢٦) وقد حاول موني تحديد هذه المدينة على أنها أشام ، المدينة البدوية القديمة الواقعة على النيجر ، على بعد أربعين ميلا إلى الشمال الغربي من تمبكت . ويقول ابن خلدون إن يروتان توفي سنة ٢٢٢ هـ ، وبحلول سنة ٣٠٧ هـ (٩١٩م) كان قد تم القضاء على سيادة الصنهاجة في غرب الصحراء الكبرى . وكان باستطاعة غانة أن تغزو الحوض وتاجنت ؛ ومع ذلك احتفظت أودغست

(٢٥) ابن خلدون ، العبر ونيوان المبتدأ والخبر ، طبعة بولاق ، المجلد السادس ، الصفحة ١٨١ ، تحت عنوان : « الطبقة الثانية من صنهاجة وهم المثلثون ومالهم بالمغرب من الملك والدولة » . وأود أن أشير إلى أن پانيكار أخذ عن ابن خلدون اقتباسات أخرى ترد مواضعها فيما يلي ذلك من ، العبر الصفحات ١٨٢ إلى ١٨٦ .

(٢٦) « وكان صاحب أودغست في عشر الخمسين وثلاث مائة تين يروتان بن ويسنو بن نزار رجل من صنهاجة وكان قد دان له أزيد من عشرين ملكاً من ملوك السودان كلهم يودى إليه الجزية وكان عمله مسيرة شهرين في مثلها في عمارة يعتد بها في مائة ألف نجيب واستمده بعيرين ملك ماسين على ملك أوغام فأمدّه بخمسين ألف نجيب فدخلت بلد أوغام وعساكره غافلة فغنمت البلد وأحرقتة . » البكري ، المرجع السابق ، الصفحة ١٥٩ .

باستقلالها برغم احتفاظها بعلاقات وثيقة مع غانة . فإبن حوقل يذكر أن
أودغست كانت مدينة مستقلة . (٢٧)

وقد أدى تدعيم سلطان البربر في الشمال إلى ضعف مؤقت في قوة غانة .
ويعتقد بيلافوس أن أتباع يروتان الزوج العشرين ربما كانوا أتباعاً لغانة
أيضا . وقد يكون ذلك وضعاً غريباً لما يمكن أن يؤدي إليه من نزاع بين
السلطتين . والأمر الأكثر احتمالاً هو أن غانة فقدت مقاطعاتها النائية في
الشمال ، كما أن تدعيم سلطان صنهاجة لابد أنه أدى إلى عرقلة تجارتها ، وهو
ما يعد ضربة عنيفة لهذه التجارة ، لأنه يجعل باستطاعة البربر المتحكمين في
طرق التجارة فرض شروطهم على غانة . ولقد كان تدهور سلطان الصنهاجة
إيذاناً ببداية عهد جديد من الرخاء لغانة .

ذلك هو أوج سلطان غانة ، فقد أصبحت من جديد المركز التجاري العظيم ،
وأذلت أعاق الأتباع الذين استفادوا من ضعفها . بيد أن ذلك كان مجرد فسحة
من الوقت قصيرة ، إذ أن قوة جديدة كانت في سبيلها إلى الظهور في الصحراء
من شأنها أن تدمر المملكة الزنجية ، هي قوة المرابطين . فقد فرضت القبائل
البربرية ، وبخاصة لمقونة وجدالة سلطانها على الصحراء الكبرى ، وخرج أحد
أفرادها ، وهو يحيى بن إبراهيم الجدالي ، إلى مكة لأداء فريضة الحج . وهناك
راعت الخلفاء بين المذاهب في البلدان العربية حيث أشد الناس تقيداً بالشعائر
الدينية . وفي طريق عودته فكر في أن يصطحب معه عالماً متفهماً في الشريعة

(٢٧) « ولهم ملك يملكهم ويديرهم تكبره صنهاجة وسائر أهل تلك الديار . » إبن حوقل ، المرجع
السابق ، الصفحة ٩٨ ، الفقرة ٥٧ . أودغست واحة تغدواست الحالية في تاغنت ، وكانت أهم محطات
القوافل في هذه المنطقة ، واليعقوبي هو أول من أشار إليها ويسميتها « غسط » . « ثم يصير إلى بلد يقال له
غُسط ، وهو وادعامر ، ... يغزو بلاد السودان وممالكهم كثيرة . » كتاب البلدان ، الصفحة ١١٥ . كذلك
تحدث عنها الإدريسي : « وفي هذا الجزء أيضا قطعة من شمال أرض غانة وفيها مدينة أودغست ... » نزهة
المشتاق ، المجلد الأول ، الصفحة ١٠٨ . ويقول ياقوت الحموي ، نقلا عن المهلبى (معجم البلدان ، طبعة دار
الكتب العلمية ، بيروت ، المجلد الأول ، مادة أُوْدَغَسْتُ رقم ١١١٤ ، الصفحة ٣٢٩) « قال المهلبى : أودغست
مدينة بين جبلين ... جنوبي سجلماسة ... بها أسواق جليلة ، وهي مصر من الأمصار جليل .. وأهلها
مسلمون يقرؤون القرآن ويتفقهون ، ولهم مساجد وجماعات ، أسلموا على يد المهدي عبيد الله ... »

الإسلامية يكون عوناً على محاربة الجهل المتفشى في الصحراء ، ووقع اختياره على عبد الله بن ياسين . ومن المؤكد أن ابن ياسين لم يكن شديد التفقه في الدين ، بيد أنه كان واحداً من رجال الدين الذين تمكنوا عن طريق الجمع بين العصا والتهديد بعذاب الآخرة من أن يفرضوا إرادتهم ومن أن يحملوا الناس على اتباع ما يعتقد أنه الرأي الصحيح ، ومن ثم فرض انضباطاً حديدياً على رعاياه . ولكن سكان الصحراء الذين يعيشون الحرية لم يرق لهم مسلكه ، واضطر ابن ياسين إلى الفرار وإلى أن يتخذ لنفسه ملجأ في جزيرة في نهر السنغال حيث أسس رباطاً . وكان الرباط شديد التمسك بشعائر الدين ، وفرض فيه الانضباط بصرامة عسكرية . وعندما حصل ابن ياسين على سرية قوامها ألف من الجنود الحسنى التدريب ، والذين يتمتعون بالانضباط والتشدد الديني، قرر أن يفرض بمساعدتهم سلطانه على لتونة وجدالة .^(٢٨) وفي عام ١٠٤٢ تمكن المرابطون بقيادة ابن ياسين من إخضاعهما ، ولكن رجال القبائل الصحراوية ثاروا ضد القيود الاستبدادية التي فرضها الغازي عليهم ، وأجبر على الفرار إلى سجلماسة . وبمساعدة جيش تم تجنيده من بين رجال القبائل أرغم ابن ياسين قبيلتي جدالة ولتونة على الإدغان لسلطانه ، وأصبح باستطاعه عندئذ تكوين جيش قوامه ثلاثون ألفاً تلهمهم الحماسة الدينية وعلى استعداد للفداء . وبهذا الجيش تحرك نحو الشمال وسيطر على سجلماسة المركز العظيم لتجارة

(٢٨) « كان هؤلاء المثلثون ... وكانوا على دين الجوسية إلى إن ظهر فيهم الإسلام لعهد المائة الثالثة ... وجاهدوا جيرانهم من السودان عليه فدأوا لهم .. وكانت رئاسة كل بطن منهم في بيت مخصوص ... ولما أفضت الرئاسة إلى يحيى إبراهيم الكندالي .. وخرج يحيى بن إبراهيم لقضائه فرضه في رؤساء من قومه في سنى وأربعين وأربعماية فلقوا في منصرفهم بالقيروان شيخ المذاهب المالكي أبو عمران الفاسي .. ، عهد إليه أن يلتمس لهم من يثق بدينه وفقهه ... فبعث معه عبد الله بن ياسين بن بك الجزولي ووصل معهم يعلمهم القرآن ويقيم لهم الدين ثم هلك يحيى بن إبراهيم وافترق أمرهم وأطرحوا عبد الله بن ياسين واستصعبوا علمه وتركوا الأخذ عنه لما تجشمو فيه من مشاق التكليف فأعرض عنهم وترهب وتنسك معه يحيى بن عمر بن تلاكاكين من رؤساء لتونة وأخوه أبو بكر فنبذوا عن الناس في ريوحة يحيط بحر النيل من جهاتها ... فدخلوا في غياضها منفردين للعبادة وتسامع بهم من في قلبه مثقال حبة من خير فتسايلاو إليهم ودخلوا في دينهم وغيضتهم ولما كمل معهم ألف من الرجال .. فخرجوا وقتلوا من استعصى عليهم من قبائل لتونة وكثالة ومهمومة حتى أنابوا إلى الحق واستقاموا على الطريقة . » العبر ، المجلد السادس ، الصفحتان ١٨٢ و ١٨٣ .

الصحراء ، ثم اتجه جنوبا ، وقرر فتح المركز التجارى العظيم الآخر فى قلب الصحراء ، أودغست - وكانت مدينة داعرة منغمسة فى اللذات - بابل الصحراء الكبرى ، وقد نهبت المدينة فى عام ١٠٥٤ ، ليس فقط بسبب انحلالها الخلقى وحياتها الشهوانية ، وإنما أيضا بسبب تبعيتها لغانة رغم كونها مملكة بربرية . ومن هنا كانت إساءة لكل من تزمتهم الدينى وكبريائهم البربرى . ولمرة واحدة أرخى ابن ياسين قبضته الحديدية وسمح لقواته بالسلب والنهب والاغتصاب . (٢٩)

واستاء أهل سجلماسة كثيرا من احتلال المرابطين لمدينتهم ، إذ لم يكونوا يتدخلون فقط فى ملذاتهم الجسدية وإنما فى التجارة أيضا . فالطريق المتجه إلى الجنوب ، إلى أودغست وولاته ، كان تحت سيطرة ابن ياسين . وبينما كان المرابطون ينشرون الدمار فى أودغست ثار أهل سجلماسة وذبخوا الحامية الصغيرة هناك . ولذلك تحرك ابن ياسين فى اتجاه الشمال ؛ أما سجلماسة فقد أُلقت باللائمة على الصنهاجة لخشيتها من المحاربين الصحراويين ؛ ومرة أخرى احتل ابن ياسين سجلماسة وقرر غزو الشمال .

كانت مراكش عندئذ فى فترة أزمة ، ولذلك لم تكن فى حالة تمكّنها من مقاومة المحاربين الصحراويين . وفتح ابن ياسين السوس فى عام ١٠٥٦ بون مشقة تذكر ، وبعد أن عبر جبال أطلس غزا دولة أغمات التى لا تقل ضعفا . ومات ابن ياسين فى عام ١٠٥٧ فى موقعة حربية ، وانتقلت الإمبراطورية إلى

(٢٩) يسهل إبراك أثر العوامل الاقتصادية فى هذا النزاع . فبسبب اهتمام المرابطين بالسيطرة على طريق القوافل الغربى عبر الصحراء الكبرى فقد اصطدموا مع مملكة غانة المسيطرة على طرفه الجنوبى ، وكذلك مع قبائل زناتة المختلفة المسيطرة على طرفه الشمالى ، لذا كان الزناتة القوة الرئيسية المناهضة للمرابطين . ويمكن تفسير بطش المرابطين بأودغست عند احتلالهم لها بأن معظم سكانها كانوا من الزناتة . ولا بأس من قراءة رواية البكرى لغزوها :

« وفى سنة ست وأربعين غزا عبد الله بن ياسين أودغست ... وكان يسكن هذه المدينة زناتة مع العرب ، وكانوا متباغضين متدايرين ، وكانت لهم أموال عظيمة ورقيق كثير ، ... فاستباح المرابطون حريمها وجعلوا جميع من فيها فيئاً ... وإنما نقموا عليهم أنهم كانوا تحت طاعة صاحب غانة وحكمه . » البكرى ، المرجع السابق ، الصفحة ١٦٨ .

الأمير أبي بكر الذي كان موجودا بالفعل في الشمال ، وكان قد تزوج بالملكة البربرية الجميلة زينب . وأدى موت ابن ياسين إلى ثورة القبائل الصحراوية التي تتقاتل فيما بينها . الأمر الأكثر خطورة أن قبيلة عربية جديدة هي قبيلة بني حماد ، قامت بغزو المنطقة . لذلك استدار أبو بكر نحو الجنوب لمواجهة الخطر ، وترك قيادة الجيش في شمال إفريقية لابن عمه يوسف بن تاشفين ، كما طلق ذلك الرمز للملكية البربرية - الملكة زينب - التي تزوجت على الفور بالقائد الجديد للجيش . (٢٠)

وقد أثبت يوسف بن تاشفين أنه ليس مجرد فاتح عظيم ، بل حاكم عظيم أيضا . فقد أخضع لسيطرته كل شمال إفريقية ومراكش . ذلك أن أبا بكر بعد أن تغلب بنجاح على الثورة وأوقف غارات بني حماد ، اتجه صوب الشمال تراوده فكرة حكم الامبراطورية بكاملها . ولكنه عندما وصل إلى العاصمة الشمالية قدم له يوسف هدايا ثمينة وأمتعة خاصة بالصحراء . وأدرك أبو بكر ما يرمى إليه يوسف وعاد إلى الصحراء ونذر حياته لغزو غانة . (٢١)

(٢٠) .. وقدم مكانه أخاه أبا بكر وندب المرابطين إلى فتح المغرب فغزا بلاد السوس سنة ثمان وأربعين وافتتح ماسة وتارودانت .. وفر أميرها لقوط .. إلى تادلا واستضاف إلى بني يفرن ملوكها وقتل معهم لقوط .. صاحب غمات وتزوج إمرأته زينب بنت إسحق النفراوية وكانت مشهورة بالجمال والرياسة .. ثم دعا المرابطين إلى جهاد برغواطة ... وقد أم المرابطين بعده سليمان بن حروا ليرجعوا إليه في قضايا دينهم واستمر أبو بكر بن عمر في إمارة قومه على جهاتهم ثم استأصل شافتهم ومحا أثر دعوتهم من المغرب .. ثم نازل أبو بكر مدينة لواته، وافتتحها عنوه وقتل من كان بها من زناتة ... وبلغه وهو لم يستقم فتح المغرب بعد ما وقع من الخلاف بين لمتونة ومسوفة ببلاد الصحراء .. فخشى افتراق الكلمة وانقطاع الوصلة وتلافى أمره بالرحلة وأكد ذلك وزحف بلكين بن محمد بن حماد صاحب القلعة إلى المغرب .. فارتحل أبو بكر إلى الصحراء واستعمل على المغرب ابن عمه يوسف بن تاشفين ونزل له عن زوجه زينب بنت إسحاق . « العبر ، المجلد السادس ، الصفحتان ١٨٣ و ١٨٤ .

(٢١) « فحينئذ سار يوسف بن تاشفين في عسكره من المرابطين ويوخ أقطار المغرب ثم رجع أبو بكر إلى المغرب فوجد يوسف بن تاشفين قد استبد عليه وأشارت عليه زينب أن يريه الاستبداد في أحواله وأن يعد له متاع الصحراء وماعونها ففطن لذلك الأمير أبو بكر وتجاوى عن المنازعة وسلم له الأمر ورجع إلى أرضه فهلك لرجعه سنة ثمانين وأربعمائة .. » المرجع نفسه ، الصفحة ١٨٤ .

ولم تكن إمبراطورية غانة حتى ذلك الوقت قد غلبت على أمرها . فقد سقطت أودغست في عام ١٠٥٤ ، وكان لسقوطها أثره على تجارة غانة ، وهي التجارة التي اضطربت بالفعل نتيجة لقيام دولة الصحراء . وعندما قام المرابطون بغزو السوس وممالك مراكشية أخرى توقفت التجارة . ومع ذلك قاومت غانة ببسالة برغم عنف الضربة . وأخذت المقاطعات تسقط في ببطء في أيدي الشماليين ، ولكن الملك كان لا يزال مسيطرا على البلد الأصلي . وفي عام ١٠٧٦ سقطت غانة بعد حرب تواصلت بون انقطاع أربعة عشر عاما . وبسقوط العاصمة في أيدي المحاربين الصحراويين كفت إمبراطورية عن غانة الوجود كقوة عظيمة . (٣٢)

وحتى بعد انتصار البربر احتفظت غانة بوجود هو أقرب إلى الشبح ، ولكن مجدها كان قد بارحها . فالتجارة التي قام عليها رخاؤها دمرت ، والمركزان التجاريان ، أودغست وسجلماسة ، كانا في أيدي الغزاة الصحراويين . ويعتقد ديلافوس أن الغزو والفتح قد مزقا الإمبراطورية إلى جزأين : الشمالي منهما وسقط في أيدي عائلة بربرية تزعم أنها من الأشراف ؛ وفي الجنوب ظلت الأسرة الوثنية القديمة تحتفظ بالسلطة . ولم تعد غانة التي أصابها الوهن في وضع يمكنها من ممارسة أي نفوذ على المقاطعات التابعة التي أخذت تستقل عنها واحدة تلو الأخرى .

(٣٢) « ثم أن أهل غانية ضعف ملكهم وتلاشى أمرهم واستفحل أمر المثلثين المجاورين لهم من جانب الشمال مما يلي البربر ... وعبروا على السودان واستباحوا حماهم وبلادهم واقتضوا منهم الإتاوات والجزى وحملوا كثيراً منهم على الإسلام فدانوا به ثم اضمحل ملك صاحب غانية وتغلب عليهم أهل صوصو المجاورون لهم من أمم السودان ... في نواحيهم تلك واستطالوا على الأمم المجاورين لهم .. » المرجع نفسه ، الصفحة ٢٠٠ .

الفصل الثالث

مالى وتوطيد أركان الدولة الإسلامية (*)

لايتوفر لدينا من الوثائق والأسانيد عن ظهور دولة مالى ونموها قدر ما يتوفر عن دولة السنغى . وقد نشأت الإمبراطورية فى الأصل عند المندى (١) ، واستنادا إلى ديلافوس فإن عاصمة الدولة ، التى أصبحت فى مجرى الزمن أهم إمبراطورية قامت فى السودان ، كانت قرية صغيرة تسمى كنجابا . ولكن ديلافوس عدل عن آرائه وانتهى فى عام ١٩٢٤ إلى أنه كانت هناك عاصمتان : العاصمة القديمة ، وهى دياليا ، عند ملتقى نهر سنكرنى بالنيجر فى مواجهة كنجابا . ووجهة النظر هذه تجد سنداً لها فى تاريخ الفتاش ، ومع ذلك يقال إنه

(*) مالى هى أعظم ممالك السودان المسلمين ، قامت فى القرن الثالث عشر الميلادى فى جنوب المغرب متصلة غربا بالمحيط الأطلسى ، وشرقا ببلاد البرنو ، وشمالا بالصحراء الكبرى ، وجنوبا باليسج الوثنيين . وقد اشتملت على خمسة إقاليم كل منها مملكة مستقلة ، ثم اجتمعت كلها تحت ملك صاحب مالى ، ومالى هى أصل مملكته . وهذه الأقاليم هى : ١ - مالى : واتخذت الإمبراطورية هذا الاسم ، وقاعدتها بنى ؛ ٢ - صوصو : إلى الغرب من إقليم مالى ؛ ٣ - بلاد غانة : غرب إقليم صوصو ، وتجاور المحيط ؛ ٤ - بلاد كوكو : شرق إقليم مالى ؛ ٥ - بلاد تكرور : شرق إقليم كوكو وقاعدته مدينة تكرور . وقد قامت مالى فى قلب السودان وفى حوض النيجر ، وأصبحت غانة بعد ضعفها أحد أقاليم إمبراطورية مالى الإسلامية . أما جمهورية مالى الحديثة فهى جزء من دولة مالى الإسلامية وسميتها ووارثتها بالرغم من قلة مساحتها ، وقد استقلت فى عام ١٩٦٠ ، وكانت تعرف قبل استقلالها باسم السودان الفرنسى ، وأخذت إسم مالى بعد الاستقلال إحياء للمجد القديم [عن د. عيسى عبد الظاهر ، الدعوة الإسلامية .. الصفحة ١١٩ ؛ وكذلك د. إبراهيم على طرخان ، إمبراطورية مالى الإسلامية .]

(١) مالى هى النطق الذى عادة مايعطيه النيل (الفولانى) فى ما سنة ، وكذلك السنغى فى تمبكت ، للإقليم الذى يقيم به المندى (أو المندنغو، أو الونجر - أنظر الحاشية ٢ - ١ أعلاه) الواقع على الشاطئ الأيسر للنيجر فيما بعد تمبكت فى اتجاه أعلى النهر ، كما يعطونه للإمبراطورية التى كان رؤساء هذا الإقليم هم رؤساؤها ، وذلك فيما بين القرنين الحادى عشر والسابع عشر ، والتى غزا السنغى الجزء الشمالى منها عند نهاية القرن الخامس عشر .

فى أيام سوندياتا تغيرت العاصمة إلى نيامى (٢) . بيد أنه فى مقابل ذلك لدينا رواية ابن بطوطة التى يذكر فيها عندما دخل عاصمة مالى كانت مقابر المسلمين هى أول ما قبله (٣) . ولكن الحقائق التى أجريت فى نيامى ، وإن تكن قد أدت إلى اكتشاف مدينة من العصور الوسطى ، لم تكشف عن أية مقابر إسلامية . وعلى الجانب الآخر يذكر العمرى بشكل محدد فى المسالك (٤) أن إقليم مالى هو

(٢) « ويد سلطان ملّ مبسوط على الكل بالقهر والغلبة وكنا نسمع من أعوام عصرنا يقولون سلاطين الدنيا أربعة ما خلا السلطان الأعظم سلطان بغداد و سلطان مصر و سلطان برن و سلطان مل و بلده التى كانت فيها الإمارة للكلّ اسمها جارب وأخرى تسمى يَنْع ... » تاريخ الفتاش ، الصفحة ٢٨ . واسم قريتهم يَنْع من أرض مل وهى مدينة ملكى ... » المرجع نفسه ، الصفحة ٥٦ . [ملى هى مالى ؛ برن هى برنو ؛ جارب هى التى قصد بها پانيكار ديايبا ؛ يَنْع هى التى قصد بها نيامى - وردت فى الترجمة الفرنسية Niani ؛ ملكى هو سلطان مالى ، ذلك أن كلمة كُي KOI تعنى السلطان أو الملك .]

(٣) ابن بطوطة ، محمد بن عبد الله اللواتى الطنجى : (١٣٠٤ - ١٣٧٨) ، ولد فى طنجة ، واستقرت أسفاره ٢٨ عاما بدأها بالحج عن طريق شمال إفريقيا ومصر . زار بلاد العرب والشام وفارس وشرق إفريقيا وآسيا الصغرى والقرم والفولجا الأدنى . دخل القسطنطينية ومنها إلى خوارزم وبخارى وتركستان وأفغانستان ، ثم الهند حيث قضى ثمانية أعوام فى خدمة سلطان دلهى الذى أرسله فى سفارة إلى الصين ، وعاد إلى طنجة . ثم قام برحلة إلى الأندلس وأخرى إلى السودان الغربى ، وعاد إلى فاس حيث أقام فيها حتى وفاته . أملى وصف رحلاته باسم تحفة النظار ، وغرائب الأمصار ، وعجائب الأسفار (ساشير إليه بتحفة النظار) . وقد أخذت عن طبعة حديثة (١٩٩٢) صدرت فى بيروت عن دار الكتب العلمية فى جزء واحد .

« فوصلت إلى مدينة مالى حضرة ملك السودان ، فنزلت عند مقبرتها ووصلت إلى محلة البيضان ، تحفة النظار ، الصفحة ٦٩١ .

(٤) شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله العمرى الدمشقى : (١٣٠١ - ١٣٤٨) . ولد بدمشق وخدم السلطان الناصر محمد بن قلاوون . وضع مؤلفين هامين أولهما : مسالك الأبصار فى ممالك الأنصار ، وهو موسوعة فى ٢٢ جزءا ولا تقل أهمية وضخامة عن موسوعة النويرى ، وإن كانت أضيق منها نطاقا لاقتصارها على التاريخ والجغرافيا ، وهى تحوى وصفا للأرض والسكان والممالك والأقطار ومسالكها ، فضلا عن استطرادات أدبية وتاريخية وتراجم للأعلام . لم يكن مخطوطه موجودا فى مصر ، وقد استطاع العلامة والبحاث المصرى شيخ العروبة أحمد زكى باشا تصوير مخطوط له فى مكتبات أوروبا معتمدا على مخطوطات استانبول ، وأودعه دار الكتب بالقاهرة ، كما تولى تحقيق الجزء الأول منه ونشره فى عام ١٩٢٤ . ثم أصدر المعهد الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة مؤخرًا الأجزاء الخاصة بممالك مصر والشام والحجاز واليمن ، والتى قام بتحقيقها الدكتور أيمن فؤاد سيد . أما باقى الأجزاء فمازالت على حالها . ثانى المؤلفين هو التعريف بالمصطلح الشريف ، وهو مصدر هام للتاريخ والجغرافية التاريخية . وقد استطاع العمرى فى هذا المصنف الجاف بطبيعته أن يرتفع إلى مستوى راق فى العرض الألبى نون افتقاد النظرة الشاملة إلى مجموعته ، واقتفى القلقشندي أثره فى صيغ الأعراس فى صناعة الأنشا ، وكاد أن يطبق ترتيبه وتبويبه بحذافيرها ، وقد نشر بالقاهرة سنة ١٣١٢ هـ .

وأشكر الظروف التى أغنتنى عن مشقة الاستعانة بمخطوط دار الكتب ، إذ استطعت الحصول على معظم ماورد فى المتن نقلا عن المسالك من مصدرين هما صيغ الأعراس للقلقشندي ، طبعة بولاق ؛ مملكة مالى عند الجغرافيين العرب ، للدكتور صلاح المنجد الذى استقى اقتباساته من المسالك من مخطوط دار الكتب ، وكانت حكومة مالى قد عهدت إلى الدكتور المنجد بعد الاستقلال بجمع ماورد عن دولة مالى الإسلامية فى المصادر العربية القديمة .

الموضع الذى توجد به قاعدة الملك وأن عاصمة الدولة هى نينى^(٥) ، وأن مالى لاتعنى سوى المقاطعات المحلية .

ولا يعرف عن التاريخ المبكر لمالى إلا النزر اليسير ، وقد كان البكرى أول من ذكرها ، ولكنه لا يقول شيئاً عن فترة ما قبل الإسلام .^(٦) أما الإدريسي الذى قدّم رواية مشوشة فقد أوضح أمرين : ففى منطقة المم ، أى المنطقة الوثنية ، لاتوجد إلا مدينتان أو قريتان كبيرتان هما ملل وهو ، والسكان يهود يعيشون فى جهل وعدم تقوى . وهو يذكر بوجه خاص طقوس التنشئة لديهم ، وعندما يصلون إلى مرحلة البلوغ تكون وجوههم موشومة بعلامات القبائل بوساطة الكى بالنار . ومالى لم تكن مدينة كبيرة ، وليس بها أسوار ، وبيوتها من الطوب المحروق . كما يقول إن المم هى المنطقة التى كانت قبائل الصالا والتكرور وبريس وغانة تجتاحها من أجل الرقيق . وهكذا عندما تظهر مالى فى التاريخ ، فإنما تظهر كجزء من غانة وكبلد وثنى اعتاد الشماليون الإغارة عليه من أجل الرقيق .^(٧)

(٥) « قاعدة الملك بها مدينة نينى » ، مملكة مالى عند الجغرافيين العرب ، الصفحة ٤٣ .

« وقاعته على ما ذكره فى « مسالك الأبصار » : مدينة نينى .. » ، صبع الأعشى ، الجزء الخامس ، الصفحة ٢٨٣ .

« وحاضرة الملك لأهل مالى هو بلد نينى متسع الخطه » العبر ، المجلد السادس ، الصفحة ٢٠٢ .

وقد زارها ابن بطوطة فى عام ١٣٥٢ وأسماها مالى ، أى أطلق عليها اسم الإمبراطورية التى كانت عاصمة لها . أنظر الحاشية ٢ - ٢ أعلاه .

(٦) « ووراءه بلد اسمه ملل وملكهم يعرف بالسلمانى » . البكرى ، المرجع السابق ، الصفحة ١٧٨ .

(٧) « ومن مدينة تكرور إلى مدينة بريس على النيل مشرقا ١١ مرحلة ومدينة بريس صغيرة لاسور لها غير أنها كالقرية الحاضرة وأهلها تجار متجولون وهم فى طاعة التكرورى ، وفى الجنوب من بريس أرض المم ... وأهل بريس وملى وتكرور غانة يغيرون على بلاد المم ويسبون أهلها ويجلبونهم إلى بلادهم فيبيعونهم من التجار الداخلين إليهم فيخرجهم التجار إلى سائر الأقطار وليس فى جميع أرض المم إلا مدينتان صغيرتان كالقرى اسم إحداهما ملل واسم الثانية نو .. وأهلها فيما يذكره أهل تلك الناحية يهود والغالب عليهم الكفر والجهالة وجميع أهل بلاد المم إذا بلغ أحدهم الحلم وسم وجهه وصدغاه بالنار وذلك علامة لهم .. » نزهة المشتاق ، المجلد الأول ، الصفحة ١٩ .

« وبناء هذه المدينة (نينى) بأبياد من طين ، مثل جدران بساتين دمشق ، وهو أن يبنى تقدير ثلثى ذراع بالطين ، ثم يترك حتى يجف ، ثم يبنى عليه مثله ، ثم يترك حتى يجف ، .. هاكذا حتى يتناهى .. » مملكة مالى ، المرجع السابق ، الصفحة ٤٦ .

وتؤكد الروايات المحلية ذلك بدورها ، فهي تقول إنه كانت هناك مملكتان : كيرى ودو . ويبدو أن كيرى كانت دولة مستقلة ، وأول من عرف من حكامها هو منسانيقين تيراوورا ، غير أن دو كانت خاضعة لغانة . ويذكر البكرى أن مملكة دو امتدت عبر منطقة مسيرتها ثمانية أيام ، وأن قواتها مسلحة بالسهم والأقواس . (٨) وحكام دو من أسرة كوناته ، ويقول مونتييه إن إسم كوناته غريب على مالى ، فهو من أصل سوننكى . وتفيد الروايات المحلية أن رؤساء دو الأوائل لم يكونوا يتمتعون بأية سلطات ، إنما كانوا مجرد موظفين تابعين لإمبراطورية غانة . وكان من عادة السودان أن يوجد فى كل دولة تابعة ممثل لسلطة الإمبراطور ، بمثابة مندوب سام ، وإن تكن وظيفته الرئيسية هى إبلاغ الإمبراطور عن الوضع السياسى ، ويشغل هذه الوظيفة عادة رقيق سبق تحريره ، وربما كان أبناء كوناته هم ممثلو غانة ، فقد أصبحوا حكاما مستقلين عندما كسرت شوكة غانة نتيجة لغزو المرابطين .

وتشير روايات الأهالى إلى جورماندانا كوناته بوصفه أول حاكم عظيم لمملكة دو . وجورماندانا هذا قد يكون هو نفسه برمندان (٩) الذى ذكره المؤرخون العرب . ويذكر ليو (١٠) أن أول حاكم مسلم

(٨) « وما وازاها من ضفة النيل الثانية مملكة كبيرة .. سمة ملوكهم دو وهم يقاتلون بالنشاب » ، البكرى ، المرجع السابق ، الصفحة ١٧٨ .

(٩) « ويقال إن أول من أسلم منهم ملك اسمه سرمندانة ويقال برمندانة ... » ، المقرئى ، الذهب المسبوك فى ذكر من حج من الخلفاء والملوك ، لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة ، الصفحة ١٠ . [وجاء بحاشية بالصفحة نفسها « وقال القلقشندى بعد هذه الجملة : ثم حج بعد إسلامه ، فاقتفى سننه فى الحج ملوكهم من بعده » ، صبح الأعشى ، الجزء الخامس ، الصفحة ٢٩٣ .]

(١٠) الحسن بن محمد الزياتى الوزان المعروف بليو الإفريقى : (؟ - ١٥٥٢) ولد بقرطبة ، وفى سيرة حياته شبه كبير بسيرة حياة الإدريسى . يرد إسمه فى المصنفات الأوروبية Johannes Leo Elibritanus أو (Africanus) أى يوحنا الأسد الايبرى أو الإفريقى . قام من مراكش بصحبة عمه فى رحلة دبلوماسية ساقته إلى تمبكت ، حيث تعرف على إفريقية الداخلية والشمالية . زار استانبول ، وفى طريق عودته وقع أسيرا فى أيدى قراصنة من صقلية أهدوه لياپا روما ليون العاشر الذى عرف باطلاعه على المسألة الشرقية ، فاسترعى الوزان نظره . وفى روما اضطر إلى اعتناق المسيحية واتخاذ إسم ولى نعمته ، وهو جيوفانى ليونى ، كما أجاد الإيطالية واللاتينية إلى جانب الأسبانية . وفى عام ١٥٢٦ أتم الترجمة الإيطالية لكتابه وصف إفريقيا الذى وضعه أصلا بالعربية ، وبعد عامين تمكن من الإفلات عائدا إلى إفريقية حيث طرح المسيحية وعاد إلى الإسلام . وهناك خلافات حول وجود أصل عربى لكتابه ، كما صدرت آراء ترجح أنه كتب بالإيطالية رأسا . وتوجد للكتاب ترجمات باللاتينية والفرنسية والإنجليزية وغيرها . وقد صدرت للكتاب مؤخرا ترجمتان بالعربية أولاهما أصدرتها جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض بمناسبة انعقاد المؤتمر الجغرافى الإسلامى الأول بالرياض فى سنة ١٣٩٩ هـ ، وسأشير إليها بطبعة الرياض ، وصدرت الثانية ضمن منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر (دار الغرب الإسلامى) سنة ١٩٧٨ ، وسأشير إليها بطبعة المغرب .

لمندى اعتنق الإسلام على يد أحد أعمام يوسف بن تاشفين ، (١١) وقد أطلق إبن خلدون على هذا الرجل إسم برمندان . (١٢) والبكرى هو الوحيد بين المؤرخين العرب الذى يقدم لنا رواية اعتناقه للإسلام . فقد تعرضت المملكة لجفاف استمر عدة سنين ، ومن أجل الحصول على المطر ضحى الملك والشعب بماشية كثيرة ، وكان يبدو أن الماشية تشرف على الهلاك . وكان يعيش بين المندى رجل مسلم شديد الورع والتدين ، ويعمل جاهدا على هداية الناس إلى الدين الحنيف ، فاستغاث به الملك ليرى ما إذا كانت قدراته الدينية تستطيع التغلب على الجفاف ، وأجابه الرجل بأنه إذا ما تعهد بالاعتراف بالله وبوحدانيته ، وبرسالة النبى وشريعة الإسلام ، فإن الله ستأخذه الرحمة به ، وسيعم المملكة رخاء يحسدها عليه الجميع . وتعهد الملك بأن يفعل ذلك ، وقرأ الرجل الطاهر آيات من القرآن ، وأدخله فى دين الإسلام ولقنه تعاليمه وفرائضه ، ثم طلب إليه أن يصبر حتى يوم الجمعة ، وفى هذا اليوم وبعد أن تطهرا وتوضأ وارتديا الملابس القطنية ، انتصب الرجل واقفا وبدأ الصلاة ، والملك الذى اهتدى على يديه يقف عن يمينه ، وقضى الرجلان جانبا من الليل على هذا النحو ، الرجل المسلم يصلى والملك يقول آمين ، وفى الصباح جادت السماء بالمطر ، فأمر الملك بتحطيم كل الأصنام وطرد الكهنة كافة . وأصبح هو وخلفاؤه مسلمين صالحين ، ولكن أهل مملكته ظلوا على

(١١) « لأنهم كانوا من السابقين إلى اعتناق الإسلام ، فحكمهم عند إسلامهم أكبر أمراء ليبيا وهو عم ليوسف (ابن تاشفين) ملك مراکش . ودام الحكم فى عقبه إلى عهد أسكيا ، فأصبح آخرهم خاضعا له .. » وصف إفريقيا ، طبعة المغرب ، الجزء الثانى ، الصفحة ١٦٥ .

(١٢) « وكانوا مسلمين يذكرون أن أول من أسلم منهم ملك إسمه برمندان .. وحج هذا الملك واقتفى سننه فى الحج ملوكهم من بعده ... » العير ، المجلد السادس ، الصفحة ٢٠٠ .

وأسماء إبن خلدون فى موضع آخر برمندار وبرمندانة : « وحج جماعة من ملوكهم وأول من حج برمندار ، وسمعت فى ضبطه من بعض فلاتهم برمندانة ، وسبيله فى الحج هى التى اقتفاها ملوكهم من بعده .. العير ، المجلد الخامس ، الصفحة ٤٣٣ .

وثنيّتهم . (١٢) وتذكر رواية تؤيدها كتب المقرئى (١٤) أن أحد حكام مالى ، وهو موسى كيتا الأكوى ، قد أدّى فريضة الحج فى عام ١٢١٣ .

وسرعان ما أطيح بالأسرة الحاكمة الأصلية وحلّت محلها أسرة كيتا الحاكمة التى لم تكن من رعايا مالى، وإنما من « الونقارة » ، وقدمت إليها من منطقة أخرى . وطبقا لرواية تاريخ الفتاش فإن أفرادها من أصل بربرى . (١٥)

(١٣) « وراءه بلد اسمه ملل وملكهم يعرف بالمسلمانى وإنما سمي بذلك لأن بلاده اجديت عاما بعد عام فاستسقوا بقرابينهم من البقر حتى كانوا يفنونها ولايزدانون إلا قحطا وشقاء وكان عنده ضيف من المسلمين يقرأ القرآن ويعلم السنة فشكا إليه الملك ما همهم من ذلك فقال له أيها الملك لو آمنت بالله تعالى وأقررت بوجدانيته وبمحمد عليه السلام وأقررت برسائله واعتقدت شرائع الإسلام كلها لرجوت لك الفرج مما أنت فيه وحل بك وأن تعم الرحمة أهل بلدك وأن يحسدك على ذلك من عاداك وناواك فلم يزل حتى أسلم وأخلص نيته وأقرأه من كتاب الله مما تيسر عليه وعلمه من الفرائض والسنن مالا يسع جهله ثم استأنا به إلى ليلة جمعة فأمره فتطهر فيه طهرا سابغا والبسه المسلم ثوب قطن كان عنده وبرزا إلى ربوة من الأرض فقام المسلم يصلى والملك عن يمينه ياتم به فصليا من الليل ماشاء الله والمسلم يدعو والملك يؤمن فما انفجر الصبح إلا والله قد أعمهم بالسقى فأمر الملك بكسر الدكاكير وإخراج السحرة من بلاده وصح إسلامه وإسلام عقبه وخاصته وأهل مملكته فوسموا ملوكهم منذ ذاك بالمسلمانى . « البكرى ، المرجع السابق ، الصفحة ١٧٨ .

(١٤) تاج الدين أحمد بن على المقرئى : (١٣٦٤ - ١٤٤٢) ، مؤرخ مصرى ، ولد بالقاهرة . برز فى البحث والدراسة ، عمل بديوان الإنشاء ، ثم عين قاضيا فإماما لجامع الحاكم ، واختاره السلطان برقوق لوظيفة محتسب القاهرة والوجه البحرى . انتقل إلى دمشق حيث قام بالتدريس والنظر على أوقاف المارستان النورى والقلانسية ، وعاد ليتوفر على الدرس والعلم . رجعت إلى مؤلفاته التالية : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بكتاب الخطط ؛ كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ، تحقيق الدكتور محمد مصطفى زيادة ، والدكتور محمد جمال الدين الشيبان ، مطبعة دار الكتب المصرية ، ١٩٣٤ ؛ المذهب المسيوك فى ذكر من حج من الخلفاء والملوك ، (أنظر الحاشية ٣ - ٩) ؛ جنى الأزهار من الروض العطار ، مخطوطة بقسم المخطوطات بدار الكتب المصرية تحت رقم « ٤٥٨ جغرافية » ؛ قطعة عنوانها الخبر عن أجناس السودان تم تحقيقها ونشرها فى العدد الخامس عشر من الدورية Annales Islamologiques (حوايات إسلامية) التى يصدرها المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة ، الصفحات ١٩١ إلى ١٩٥ .

(١٥) « فقلت إنى أحب أن أعرف أصل سقّى وأصل وعكرى فقال دميرين يعقوب يا امير المؤمنين وخليفة المسلمين انى سمعت من شيخى شمهروس رضى الله عنه وأرضاه أن جدّ وعكرى وجدّ ونكر كانوا إخوانا شقائق وأبوهم كان ملكا من ملوك اليمن إسمه ترأس بن هارون فلما مات أبوهم تولى على المملكة أخوه يسرف بن هارون فضيق على أبناء أخيه أشد التضيق فهاجر الأبناء من اليمن إلى ساحل البحر المحيط ومعهم زوجاتهم ووجدوا هناك عفريتة من الجن فسألوه عن إسمه فقال رُوْدَ بن سار فقالوا ماجاء بك فى هذا المكان فقال تك قالوا وما اسم هذا المحل فقالوا لا أعلم فقالوا يحق لهذا المكان أن يقال له تكرور » ، تاريخ الفتاش ، الصفحتان ٢٤ و ٢٥ . [فضلت استخدام الاسم الذى أطلقه المؤرخون على هذه القبيلة وهو « ونقارة » بدلا من « ونجر » . وكلمة تكرور تتكون من كلمتين هما تك وروْدَ . وكلمة تك بلغة المندنعو تعنى مصيرا أو قدرا ؛ أما كلمة رُوْدَ فهى إسم عفريت . أنظر ، الحواشى ١-١٢٣ و ١٢٦ و ١٢٧ أعلاه ، كذلك الإضافة الخاصة بمحمود كعت فى نهاية الكتاب .]

وقد قدمت أسرة كيتا واستقرت في جَارِبَ^(١٦) ، وهي قرية بالقرب من سجرى . وكانت ابنة رئيس دُجْلُو تعاني مرضاً جليداً صَدَّ عنها راغبي الزواج ، ولكن فاماغان زعيم المهاجرين أبدى رغبته في الزواج منها ، فأكسبه هذا الزواج قوة ، ونشأت المتاعب بينه وبين إخوته الثلاثة . واتخذ أهالي بلدة بودُجْ جانب الإخوة ، وأرغم فاماغان على الإلتجاء إلى كيرى . وفي النزاع الذي ترتب على ذلك بين كيرى وبودُجْ كان النصر حليف كيرى بالرغم من كثرة حلفاء بودج ، وأصبح فاماغان الرئيس الأعلى لمالي .

وظلت غانة قائمة برغم ما أصابها من ضعف شديد . فقد فقدت مقاطعاتها الشمالية ، وفي الجنوب كانت القبائل المختلفة تعمل على تأكيد استقلالها . وفي عام ١٠٧٦ استقلت عنها كياج^(١٧) ، إحدى ولاياتها ، تحت حكم أسرة ديارسو التي ظلت تحكم حتى عام ١١٨٠ عندما مات الملك بياما . وكانت لهذا الملك زوجتان ، وبسبب شعور أولاد الزوجة الثانية أنهم الجانب الأضعف فقد طلبوا العون من رئيس حرس المملكة ديارة كَنْتِي الذي كفل لهم النصر ، بيد أن الشقاق دبَّ بينهم لخلاف حول وراثة العرش ، وانتهى هذا الشقاق العائلي باستيلاء ديارة كَنْتِي على السلطة . وفي عام ١٢٠٣ خلفه ابنه سُمَنْغُرُ .

كان سُمَنْغُرُ فاتحاً عظيماً وضع نصب عينيه إقامة إمبراطورية كبيرة للصوصو ، فقام في عام ارتقائه العرش بالهجوم على غانة التي كان الضعف قد تمكن منها ، وقضى عليها تماماً .^(١٨) وفر السكان المسلمون نحو الشمال وأسسوا مدينة

(١٦) « وبلده التي كانت فيه دار الإمارة للملكي اسمها جَارِبَ ... » تاريخ الفتاش ، الصفحة ٢٨ .

(١٧) « ولا يتولى ملك كياج الا عبيده وأمرائه » تاريخ الفتاش ، الصفحة ٢٩ .

(١٨) « ثم اضمحل ملك أصحاب غانة وتغلب عليهم أهل صوصو المجاورون لهم من أمم السودان واستعبدوهم وأصاروهم في جملتهم » ، العبر ، المجلد السادس ، الصفحة ٢٠٠ .

تقع إمارة الصوصو في منطقة كَنْيَاغَة وهضبة المندى ، وقد ظلت تحكمها أسرة ديارسو السوننكية من عام ١٠٧٦ إلى عام ١١٨٠ . وأخذ أفراد هذه الأسرة يتزوجون بنساء إحدى عشائر الفلاته هي عشيرة صو وأصبح نسلهم يعرفون بالصوصو ، كما أطلق إسم صوصو على العاصمة وعلى المملكة . وفي سنة ١١٨٠ أطاح بهذه الأسرة محارب من السوننكي يدعى ديارة كَنْتِي ، وتولى هو حكم البلاد وبعد الهزيمة فرت الأسرة مع أنصارها إلى تكرور حيث أنشأت أسرة حاكمة هناك ظلت تتوارث الحكم حتى أطاح بها الوولُف في عام ١٢٥٠ .

ولاته ، وأصبح السودان يواجهون الآن صراعا من أجل الإمبراطورية . كانت هناك دول مستقلة تتصارع من أجل السيادة ، تصدرها مملكة الصوصو بزعامة سمنغر ومملكة مالى ، وكانت الأولى أكثر منعة من الأخيرة إذ امتدت من النيجر شرقا حتى جلم وتاجنت غربا والسنگال جنوبا . بيد أنه تعين على سمنغر كى يدعم سلطته أن يخضع مالى ، وحانت له الفرصة عندما توفى نارى فاغان ملك غانة . وتوجد روايتان لما حدث ، ولكنهما تتفقان على أن مالى خضعت لحكم الصوصو . وتذكر إحدى الروايتين أن نارى فاغان أنجب إثنى عشر ولدا ، أحد عشر منهم من زوجة واحدة ، وسندياتا من الزوجة الأخرى . وقام سمنغر فى غضون عام واحد من موت نارى فاغان بغزو المملكة ، وقتل الأحد عشر ولدا ، ولكنه أبقى على سندياتا لصغر سنه وإصابته بالشلل ، غير أن سندياتا كان عليه أن يعترف بسلطان سمنغر . وتقول الأسطورة إن سندياتا شفى بمعجزة عندما سلمت إليه عصا والده الملكية ، وعندئذ عقد العزم على تدمير سمنغر . وتبين له أن خير طريقة لتحقيق غرضه هى إيفاد شقيقته لتعمل عينا له فى بلاط الصوصو . ولم يلبث إمبراطور الصوصو أن وقع أسير جمالها ، وكان شرطا لأن تسلم له نفسها هو أن يثق بها ويبوح لها بمصادر قوته السحرية . وعندما كشف لها عما أرادت اختفت فى صبيحة اليوم التالى . وهكذا استطاع سندياتا ، الذى يجله المندى باعتبار ساحرا عظيما ، التغلب على ملك الصوصو .

وتقول رواية مختلفة إن نارى فاغان كانت له زوجتان : سونجولو وكوتويوبولا ، والأخيرة جارية . وقد أنجبت كل منهما ولداً فى اليوم نفسه ، ولكن مولد دنجارام ، ابن الجارية ، أبلغ لأبيه قبل إبلاغه بمولد الإبن الآخر . وهكذا على الرغم من أن سندياتا ولد أولا ، فإن أخاه ، ابن الجارية ، هو الذى أصبح الإبن الأكبر . وكان لسندياتا من أمه أخ وأخت آخران . وعندما مات نارى فاغان انتقل الحكم إلى دنجارام ، ولكنه لم يكن يستطيع أن يعول على ولاء الشعب لكونه ابن جارية . ولذلك عقد العزم على قتل سندياتا . وفر سندياتا مع أمه وأخته وأخيه . عندئذ رأى دنجارام أن يدعم قوته بعقد حلف مع سمنغر ،

وقدم له أخته ليتزوجها ، واحتفظ سمنغر بالفتاة ، ولكنه رفض أن يشن حربا على سندياتا ، وكان يرمى من وراء ذلك إلى الإبقاء على مالى ضعيفة ومفككة . أما دنجارام الذى حكم عشر سنوات فقد قرر أن يثأر للإهانة ، ولكنه دحر وسقطت مالى فى يد الفاتح .

وفى هذه الأثناء مد سندياتا سلطانه عن طريق مصاهرة الأسرة الملكية فى نيارا (١٩) ، وفى غضون ست سنوات أخضع القبائل المجاورة لسيطرته ، ومع ذلك كان يخشى منازلة الصوصو . وكان شعب مالى يئن تحت وطأة القهر الذى فرضه الصوصو ، وكان المخلص الوحيد أمامه هو سندياتا فاستغاث به . واستشار سندياتا هاتف الوحي الذى تنبأ له بالنصر إذا ماتت أمه فى تلك الليلة ، وعندما حدث ذلك ازداد ثقة . كما أن المعلومات التى زودته بها أخت دنجارام ، زوجة سمنغر ، كانت عوناً له أيضا . وفى موقعة كيسى فى عام ١٢٣٥ كان النصر حليف سندياتا . وأصبح المندى الذين قبضوا على الصولجان الإمبراطورى وثيقى الصلة بالسودان الغربى ، بحيث أصبحت مالى والسودان ، فى رأى معظم العرب والأوروبيين ، حدود مشتركة .

ولا يقدم المؤرخون العرب الشئ الكثير عن مؤسسى عظمة مالى . فإبن خلدون لم يقل سوى مايلى « ... » ، وكان ملكهم الأعظم الذى تغلب على صوصو واقتتح بلادهم وانتزع الملك من أيديهم اسمه مارى جاطة معنى مارى عندهم الأمير الذين يكون من نسل السلطان وجاطه الأسد » . (٢٠) وفى الأساطير المحلية ليس هناك سوى منسا موسى البطل العظيم الذى حرر مالى من سيطرة الصوصو ، كما أن عبارة « الأمير الأسد » ربما تكون اللقب الذى أسبغه شعب

(١٩) نيارا : تقع فى مقاطعة كنفى على مسافة قصيرة إلى الشمال الشرقى من الموقع الحالى لمدينة نيورو التى كانت عاصمة للمقاطعة . وردت فى صيغة « زار » فى كل من تاريخ الفتاش ، الصفحة ٣٩ ، وتاريخ السودان ، الصفحة ٧٧ .

(٢٠) العبر ، المجلد السادس ، الصفحة ٢٠٠ . هذا ويقدم إبن خلدون تفسيرا آخر لعبارة « مارى جاطة » : « ويغلب على دولته وزيره مارى جاطة ومعنى مارى عندهم الوزير وجاطة تقدم » ، المرجع نفسه ، الصفحة ٢٠٢ . ويبدو من سياق الحديث أن سندياتا هو نفسه مارى جاطة .

معترف بالجميل . ودلالة سندياتا في التاريخ السوداني هي تبجيله لبراعته في السحر . فهو الساحر العظيم الذي استطاع اجتياز جميع العقبات . وما دامت الأساطير قد جعلت منه ساحراً عظيماً فقد كان العلماء يظنون به الظنون ويحاولون الحط من قدرة مثلما فعلوا مع سنّ على (٢١) . وبعد أن أتم إمبراطور مالى غزو الصوصو مد سلطانه على غانة - التى أصبحت دولة تابعة ، وبذلك امتدت إمبراطوريته إلى ساحل الأطلسي .

وخلف سندياتا ابنه منساولى ، « .. وكان من أعظم ملوكهم .. » (٢٢) . وقد أدى فريضة الحج فى عهد السلطان المملوكى الظاهر بيبرس ، وخلفه إثنان من إخوته هما ولى الثانى ، الذى حكم من عام ١٢٧٠ حتى عام ١٢٧٤ ، ثم خليفة ، وهو مختل العقل ، « وكان أحقق يغلب عليه الحمق فيرمى الناس بالسهام فيقتلهم ، فوثب به أهل مملكته فقتلوه . » (٢٣) أما الحاكم التالى ، حسب رواية ابن خلدون ، فهو أبو بكر ابن أخت سندياتا . ويقول ابن خلدون إن الأسرة الملكية فى مالى ، على غرار البربر فى كل مكان ، كانت أمومية ، وإن الوراثة كانت تنتقل من الخال إلى ابن أخته . (٢٤) ويبدو هذا الكلام غريباً لأنه لم يذكر عن ولى ولا عن ولى الثانى أنه قد اغتصب السلطة ، ولذلك فإن كل ما يمكننا أن نخلص إليه هو أن أبا بكر لم يكن السلالة المباشرة . فهل انقرضت السلالة

(٢١) تم ضبط الاسم على تاريخ السودان ، الصفحة ٦ ، ومواضع أخرى ، وسيرد ذكر سنّ على بالتفصيل فى الفصل الرابع .

(٢٢) « ثم ملك بعده ابنه (منساولى) ومعنى (منسا) بلغتهم السلطان ، ومعنى (ولى) على ، وكان من أعظم ملوكهم ، وحج أيام الظاهر بيبرس صاحب مصر . » صبيح الأعشى ، الجزء الخامس ، الصفحة ٢٩٣ .

(٢٣) « ثم ملك من بعده أخوه (والى) . ثم ملك من بعده أخوه (خليفة) وكان أحقق يغلب عليه الحمق .. فقتلوه » ، المرجع نفسه ، الصفحة نفسها .

(٢٤) لم يرد هذا التسلسل فى العبر بنفس الترتيب الذى أورده پانيكار ، وإنما ورد بهذا الترتيب فى صبيح الأعشى نقلاً عن العبر « وقد ذكر صاحب العبر . . قال : ويقال إن أول من أسلم منهم ملك اسمه (برآمدانه) ... ثم ملك بعده أخوه خليفة ... فوثب به أهل مملكته فقتلوه . وملك بعده سبط من أسباط « مارى جاظة » المقدم ذكره ، اسمه (أبو بكر) على قاعدة العجم فى تمليك البنت « صبيح الأعشى ، المرجع نفسه ، الصفحتان ٢٩٣ و ٢٩٤ . لذا يبدو أن پانيكار كان ينقل فى بعض الأحيان عن صبيح الأعشى ما يورده نقلاً عن العبر ، ثم ينسبه إلى العبر مباشرة .

المباشرة ؟ أو كان أبو بكر قائدا لثورة نجح في الاستيلاء على العرش ؟ ذلك أن شعب مالي لم يكن أموميا ، كما أن أبا بكر يمكن أن يكون ابن أخت سندياتا وجنديا مظفرا في الوقت نفسه ، أو أن السلالة الشرعية ربما تكون قد انتهت . وأبو بكر لم يخلفه أحد من أبنائه أو أى شخص من أخلاف سندياتا ، وإنما خلفه سيكرة ، وهو مغتصب للسلطة ، وتلك الحقيقة تؤيد فكرة أن أبا بكر نفسه كان قائدا موفقا وصل إلى السلطة . فقد حكم أبو بكر عشر سنوات ، وعند موته (عام ١٢٨٥) استولى سيكرة أبرز جندي في عهده على العرش . وكان سيكرة في أثناء حكم أبي بكر قد قاد جيشا عند تكدا وحاصرها إلى أن سقطت في يده . واستنادا إلى ابن خلدون فإن أهمية تكدا لمالي ترجع إلى أنها تقع على طريق الحج ، كما كانت مدينة تجارية هامة . ويحدد ابن خلدون موقع تكدا على مسيرة عشرين يوما من وارقلة نحو الغرب ، فهي ملتقى القادمين من بلاد السودان قاصدين الحج . (٢٥)

فمتى قامت مالي بغزو غاو (٢٦) ؟ كانت غاو المركز التجارى العظيم لوادى النيجر الشرقى ، ومن ثم كانت منافسا خطيرا لمالي . ويرى مونتبييه أنها فتحت منذ عام ١٢٠٠ . ويوضح تاريخ السودان وتاريخ الفتاش والملحق الثانى لتاريخ الفتاش أن تمبكت وسنغى كانتا خاضعتين لمالي في عهد منسا موسى . ويذكر

(٢٥) « ولا هلك [مارى جازة] ولى عليهم من بعده مولى من مواليتهم تغلب على ملكهم اسمع ساكورة وقال الشيخ عثمان ضبطه بلسانهم أهل غانية سيكرة وحج أيام الملك الناصر وقتل عند مرجعه بتاجورا . العبر ، المجلد السادس ، الصفحة ٢٠٠ . » ويغلب على تولته وزيره مارى جاطه ... وهو الآن حجر السلطان واستبد بالأمر عليه ونظر في تجهيز العساكر وتجهيز الكتائب ونوخ أقطار الشرق وتجاوز تخوم كوكو وجهز إلى منازلة تكرت بما وراها .. وتكرت هذه على سبعين مرحلة من بلد واركلا من الجانب القبلى الغربى وفيها من المثلثين يعرف بالسلطان وعليهم طريق الحج من السودان . « العبر ، المرجع نفسه ، الصفحة ٢٠٢ . [المقصود بتكرت هنا « تكدا » ؛ والمقصود بواركلا هو وارقلة . ويلاحظ الفرق في المسافة بين ماذكره ابن خلدون وبانيكار .]

(٢٦) غاو : مدينة نشأت في أول الأمر على الضفة اليمنى لنهر النيجر ، ولكن القسم الواقع منها على ضفته اليسرى هو الذى أصبح مدينة غاو الحالية . وقد كان « زاكسى » الملك الخامس عشر من أسرة « زا » الحاكمة في سنغى ، وأول من أسلم من ملوكها ، هو الذى نقل إليها عاصمة ملكه . وردت في تاريخ الفتاش كاع وكوكو . « في اسم كاع لغتان كاع وكوكو » ، الصفحة ٤٥ ؛ وكذلك « كاو » ، الصفحة ١٤ ؛ ووردت في تاريخ السودان « كاغ » ، الصفحة ٧ .

الملحق أن مسجد تمبكت قد بنى قبل عهد منسا موسى ، أما تاريخ السودان فلا ينسب إلى موسى إلا بناء المئذنة . (٢٧) لذلك يمكن القول فى شئ من التأكيد إن غاو كانت خاضعة لسيطرة مالى فى عهد سيكرة .

وقد أدى سيكرة فريضة الحج عندما كانت مصر تحت حكم السلطان الملك الناصر ، ويقول ديلافوس إن سيكرة سلك فى عودته الطريق الشرقى ، وقتل على أيدي رجال الدناكل (٢٨) ، وحملت جثته إلى برنو حيث حنطت ثم نقلت إلى مالى . ويبدو ذلك بعيد الاحتمال ، ولا يذكر ديلافوس أى مصدر يؤيد نظريته . فإذا كان الغرض الأساسى الذى دفع سيكرة إلى غزو تكدا هو تأمين طريق الحج كما يقول ابن خلدون ، فإنه يبدو غريبا أن يختار طريقا يمر فى امتداده كله بمناطق ينعدم فيها الاستقرار . وإذا سلمنا بأنه كان بالغ الحمق بحيث يختار الطريق الشرقى ، فحتى عندئذ يكون الطريق الذى اختاره بعيدا جدا نحو الجنوب عن طريق الحج الحالى ، ويمر فى مناطق كانت فى ذلك الوقت فى أيدي المسيحيين . وقد نشأ سوء الفهم بسبب خلط فيما يتعلق بتاجوار . فتاجورا التى ذكرت على أنها المكان الذى نزل به سيكرة فى رحلة عودته يمكن أن تكون المدينة الواقعة على ساحل البحر المتوسط على بعد عشرين كيلو مترا إلى الشرق من طرابلس . وكانت أول محطة هامة من طرابلس إلى برقة ، وكانت أهميتها آخذة فى الزيادة . ومن هنا كان من الأسر له أن يأخذ طريق الحج العادى وأن يعود إلى مالى .

(٢٧) « وقيل إن السلطان كنكن موسى هو الذى بنى صومعة الجامع الكبير التى بها ... » تاريخ السودان ، الصفحة ٨ . [المقصود بالصومعة هنا المئذنة .]

« وكان ملكي كنك موسى سلطانا صالحا تقيا عابدا ... ومن علامة صلاحه أنه كان يعتق كل يوم نفسا وحج إلى بيت الله وبنى فى حجه مسجد تنبكت ... » تاريخ الفتاش ، الصفحة ٣٢ . [ملكي كنك موسى يعنى موسى بن كنك ملك مالى ، ذلك أن مل مالى وكى تعنى الملك أو السلطان .]

أما عن الملحق الثانى لتاريخ الفتاش ، الذى تنفرد به الترجمة الفرنسية ويخلو منه النص العربى فقد جاء به ، الصفحة ٣٣٥ ، أن ملك مالى يمتلك مقرا ملكيا فى تمبكت معروفا جيدا .. وبالقرب من شمال هذا المقر كان يوجد المسجد الملكى .

« أما الجامع الكبير فالسلطان الحاج موسى صاحب ملى هو الذى بناها وصومعتها على خمسة صفوف » تاريخ السودان ، الصفحة ٥٦ . [يتضح هنا أن تاريخ السودان ينسب إلى منسا موسى بناء المسجد والصومعة .]

(٢٨) الدناكل : قبيلة من العرب الإفريقيين من أصل حامى . عبادتهم الأساسية الدكاكير والأشجار ، ويدين كثيرون منهم بالإسلام من الناحية الاسمية ، « ولما هلك [ماري جازة] ولى من بعده مولى من موالهم تغلب على ملكهم اسمه ساكورة وقال الشيخ عثمان ضبطه بلسانهم أهل غانية سيكرة وحج أيام الملك الناصر وقتل عند مرجعه بتاجورا .. » العبر ، المجلد السادس ، الصفحة ٢٠٠ .

ويقول ابن خلدون إنه بعد وفاة سيكرة عادت الامبراطورية إلى أخلاف ماري جازطة . وكانت هناك فترة من الفوضى تولى السلطة خلالها ثلاثة حكام لفترات قصيرة للغاية . وأخيراً ارتقى العرش منسا موسى بن أبي بكر . (٢٩)

وكان منسا موسى شاباً أسمر البشرة وسيماً ممثلاً طويل القامة ، كما كان متبحراً في الفقه المالكي شديد التمسك بدينه . والحدث العظيم في عهده هو أدائه فريضة الحج ، الذي أثار شعوراً فياضاً في العالم الشرقي كله . وقد أدى الفريضة في عام ١٣٢٤ ، وبدأ رحلته من تمبكت في حاشية ضخمة ، وتفاوتت تقديرات عدد من صحبوه تفاوتاً كبيراً . فيصل السعدى في تقديرهم إلى ستين ألفاً ، (٣٠) ويقدرهم تاريخ الفتاش ، نقلاً عن ابن حجر العسقلاني ، بخمسة عشر ألفاً ، ولكنه يقدرهم في موضع آخر بثمانية آلاف فقط . (٣١) ويقدرهم المقرئ بعشرة آلاف ، ولكنه يذكر أيضاً أن خمسة عشر ألف جارية صحن الامبراطور . (٣٢) ويقدم ابن خلدون رقماً آخر هو إثنا عشر ألفاً لحمل أمتعته ومؤنه ، ويضيف أنهم كانوا يلبسون أقبية الديباج والحرير اليماني . (٣٣) ويقول

(٢٩) « وحج أيام السلطان الملك الناصر « محمد بن قلاوون » ورجع فقتل في أثر عوده . وملك بعده (قو) بن السلطان ماري جازطة ثم ملك من بعده (محمد بن قو) ثم انتقل الملك من ولد ماري جازطة إلى ولد أخيه أبي بكر . فولى منهم (منسا موسى) ابن أبي بكر ، قال في العبر : وكان رجلاً صالحاً وملكاً عظيماً ... » ، صبيح الأعشى ، الجزء الخامس ، الصفحة ٢٩٤ .

(٣٠) « تنبيه ، سلطان كنكن موسى هو أول من ملك سغى من سلاطين ملو وهو صالح .. قد حج بيت الله الحرام وكان مشيه في أوائل القرن الثامن في قوة عظيمة وجماعة كثيرة والجندى منهم ستون ألفاً رجلاً .. » تاريخ السودان ، الصفحة ٧ .

(٣١) الاقتباس المأخوذ عن ابن حجر العسقلاني ورد في الملحق الثاني من تاريخ الفتاش ، أي في الترجمة الفرنسية فقط . انظر محمود كمت ، تاريخ الفتاش ، الترجمة الفرنسية ، الصفحة ٣٣٥ . أما الاقتباس الآخر فورد في النص العربي : « وخرج كنك موسى بقوة عظيمة ومال جسيم ... سأل يوم خروج الباشا على بن عبد القادر إلى توات زاعماً أنه يريد الحج عن عدد من مشى معه من قومه فقبل له يبلغ من معه من حملة السلاح نحو ثمانين ... وقد خرج كنك موسى إلى الحج من هنا ومعه ثمانية آلاف » . تاريخ الفتاش ، الصفحتان ٣٣ و ٣٤ .

(٣٢) بعد بحث مضمّن في كتب المقرئ لم أجد فيما يختص بعدد من صحبوا منسا موسى أثناء أدائه فريضة الحج سوى هذه الإشارة : « ويقال إنه قدم معه أربعة عشر ألف جارية برسم خدمته خاصة فأقبل أصحابه على شراء الجوارى من الترك والحبوش « الذهب المسبوك ، المرجع السابق ، الصفحة ١١٢ .

(٣٣) « ثم انتقل ملكهم من ولد السلطان ماري جازطة إلى ولد أخيه أبي بكر فولى عليهم منسا موسى بن أبي بكر ... وحج سنة أربع وعشرين وسبعمائة ... قال والذي تحمل ألتة وحربته من الوصائف خاصة إثنا عشر ألفاً لابسات أقبية الديباج والحرير واليماني » . العبر ، المجلد السادس ، الصفحتان ٢٠٠ و ٢٠١ .

محمود كعت إنه فى الطريق مابين قفازة (٢٤) وتوات أحست الامبراطورة برغبة فى الاستحمام ، فأقيمت هناك بحيرة صناعية إرضاء لنزوتها . وربما كانت فى هذه الرواية مبالغة واضحة . (٢٥) لذلك لايسع المرء إلا أن يستعيد نصيحة ابن خلدون الحكيمة إلى كل من يعنيه أمر التاريخ بأن يتحاشى تصديق ما هو بعيد الاحتمال نون بيّنة .

ووصل الامبراطور وحاشيته إلى القاهرة فى العاشر من مايو ١٣٢٤ ، (٣٦) ومكث ثلاثة أيام عند الأهرامات ضيفاً على السلطان قبل أن يدخل المدينة . ويعد كتاب المسالك ألوان المراسم المعقدة المتبعة فى تلك الأيام . وأظهر

(٢٤) قفازة : إسم يطلق على منجم مشهور بمعدن الملح إلى الشمال الشرقى من تلودنى ، وإلى الجنوب الغربى من توات . ذاع إسمها بسبب ندرة الملح عند الزوج وارتفاع ثمنه ، حتى أنه كان يبادل بمثل وزنه ذهباً . ذكرها ابن بطوطة وغيره من الرحالة والجغرافيين العرب : « فوصلنا بعد خمسة وعشرين يوماً من سجلماسة إلى قفازى ومن عجائبها أن بناء بيوتها ومسجدها من حجارة الملح وسقفها من جلود الجمال ، ولا شجر فيها إنما هى رمل فيه ملح » تحفة النظار ، طبعة بيروت ، الصفحة ٦٨٤ .

(٢٥) « حدث أن خرجت معه زوجته المسماة إنار كُتت مع خمسمائة نسوتها وخدمها إلى أن نزل بموضع من صحارى بين توات وقفاز ضربوا بها العطن وياتت زوجته تلك معه فى فسطاطه ساهرة ونام هو ثم استيقظ ووجدما ساهرة لم تتم فسألها أما نمت ... فأنشدها بالله عما أصابها فقالت ليست إلا وسخ بدنى وبردنها وقد تمنيت البحر فاغتسل وأخوص فاغتمس وأعوام فهل لك تحصيل ذلك وإيجاده فى ملكك ونهض كك موسى جالساً وغازله ذلك وجلس متفكراً ثم أمر بعبدته الذى هو رئيس عبيده وقومه المسمى قُرباً .. قال له ياقرب منذ تزوجت بزوجتى هذه ما طلبت منى وما خاطبتنى بما تقصر عنه قدرتى ... إلا فى هذه الليلة فقد سألتنى البحر وإيجادها من العدم فى قفارها ... وليس لهذا موجد إلا الله وحده فقد أعجزتنى الآن ... وأمرهم بحفرة وحفروها وأخرجوا ترابها ثم حفروها ... ثم أمر بالرمال والأحجار حتى امتلأت الحفرة ثم أمر بجنوات الحطب فجمعوه فوقها ثم بقلبات بلنفة ووضعها فوق ذلك كله ثم رمى عليها النار وقد اشتعل فذاب ذلك البلنقات على الأحجار والرمال وكسرههم وملست الحفر وصارت كالقار ثم أمر بالمياه التى فى قريهم وزقهم وحلوا اقواه القرب والزقوق فانصببت وسالت إلى الحفر حتى امتلأت وأعلت وسمت بحيث تضطرب فيها الأمواج وتلاطم البحر العظيم » تاريخ الفتاش ، الصفحات ٢٤ و ٢٥ و ٣٦ .

[ضربوا بها العطن معناها حطوا الرجال : قُرب كلمة يمكن أن تكون اسماً خالصاً أو لقباً ، وهى تعنى عند المندنغو الرئيس الأعلى ، ويقول ابن بطوطة إن القرباً معناها النائب ، تحفة النظار ، المرجع السابق ، الصفحة ٦٨٧ ؛ البلنفة ، وهى زبد الشيئة ، وقد أشار إليها پانيكار كثيراً وبخاصة فى الفصل الحادى عشر (الاقتصاد) باعتبارها من المحصولات الهامة فى المنطقة ، وأشار إليها ابن بطوطة باسم الغرتى ، المرجع نفسه ، الصفحة ٦٨٩ .]

(٣٦) السادس عشر من رجب عام ٧٢٤ .

السلطان عزوفا عن معاملة إمبراطور مالى كنداً له ، وحاول مهمندار (٣٧) البلاط أن يحمل موسى إما على تقبيل يد السلطان أو الركوع بين حضرتيه ، مما يعنى اعترافه بالسلطان سيّداً أعلى له . ولم يبد موسى رغبة فى أن يفعل هذا أوداك . ولم تذلل هذه العقبة إلا عندما همس أحد الحكماء بشيئ فى أذن الإمبراطور ، ووافق على أن يكون ركوعه لله . وهكذا ركع الإمبراطور عندما دخل قاعة الاستقبال ، ولكنه تظاهر بأن ركوعه لله وليس للسلطان ، وبذلك كان باستطاعته الاحتفاظ بكبريائه . ونهض السلطان لاستقبال موسى والحفاوة به . ودامت المقابلة طويلا . وبعد ذلك بعث السلطان بالهدايا لموسى ، وكبار مرافقيه ، ولكنها كانت هدايا تليق بأمرير وليس بإمبراطور . وهكذا أظهر سلطان مصر بجلاء أنه لم يقبل الامبراطور الأسود ندّاً له ، وإنما كحاكم تابع فقط . (٣٨)

(٣٧) « فسالت الأمير أبا العباس أحمد بن الحاكي المهمندار « مملكة مالى ، المرجع السابق ، الجزء الخاص بالمسالك ، الصفحة ٦١ .

(٣٨) « قال فى مسالك الأبصار : قال لى المهمندار خرجت للقاء من جهة السلطان فإكرمنى إكراماً عظيماً ، وعاملنى بأجمل الآداب ، قال : ولما قدم ، قدم للخزانة السلطانية حملاً من التبر ... وكنت أحولته فى طلوع القلعة للاجتماع بالسلطان ... فيأبى خشية تقبيل الأرض للسلطان ويقول جئت للحج لا لغيره ، ولم أزل حتى وافق على ذلك . فلما صار إلى الحضرة السلطانية قيل له قبل الأرض ، فتوقف وأبى إباءً ظاهراً وقال : كيف يجوز هذا ؟ فأسر رجل كان إلى جانبه كلاماً - فقال : أنا أسجد لله الذى خلقنى وفطرنى ثم سجد ؛ وتقدم إلى السلطان ... فبعث إليه السلطان بالخلع الكاملة له ولأصحابه ، وخيلا مسرجة ملجمة وأجرى عليه الأنزال والإقامات الواقعة مدة مقامه » . صبيح الأعشى ، الجزء الخامس ، الصفحة ٢٩٥ .

« وفيه قدم منسا موسى ملك التكرور يريد الحج ، وأقام تحت الأهرام ثلاثة أيام فى الضيافة ، وغدى (منسا) إلى بر مصر فى يوم ... وطلع إلى القلعة ليسلم على السلطان ، وامتنع عن تقبيل الأرض ، فلم يجبر على ذلك ، غير أنه لم يمكّن من الجلوس فى الحضرة السلطانية ، وأمر السلطان بتجهيزه للحج .. » المقرئى ، كتاب السلوك ، المرجع السابق ، الجزء الثانى ، القسم الأول ، الصفحة ٢٥٥ .

« ولما خرج منسا موسى من بلاد المغرب للحج ... وأهدى إلى الناصر هدية حافلة يقال إن فيها خمسين ألف دينار ، ولقيه السلطان بمجلسه ، وحدثه ووصله وقرب إليه الخيل والهجن ، وبعث معه الأمراء يقومون بخدمته » العير ، المجلد الخامس ، الصفحة ٤٣٤ .

« ٤٩٠٤ : موسى بن أبى بكر سالم التكرورى ملك التكرور قدم حاجا سنة ٧٢٤ فى رجب فادخل إلى السلطان فامتنع عن تقبيل الأرض وقال لا أسجد لغير الله ، فاعفاه السلطان وقربه وكرمه وأحسن تجهيزه إلى الحجاز ... » ابن حجر العسقلانى ، الدور الكامنة فى أعيان المائة الثامنة ، القاهرة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٤١ ، الصفحتان ١٥٤ ، ١٥٥ .

وقد دخل موسى مصر حاملاً معه مقداراً هائلاً من تبر الذهب . يقول ابن خلدون ، نقلاً عن **الحاج يونس** ، ممثل مالى فى مصر ، إن موسى أحضر معه ثمانين حملاً من تبر الذهب زنة كل منها ثلاثمائة رطل ، ^(٣٩) ويصل المسالك بهذا العدد إلى مائة حمل ، ^(٤٠) فى حين يقول **تاريخ الفتاش** إن نقل الذهب تطلب أربعين بغلاً . ^(٤١) وثمة تقدير وسط لما حمله من التبر يتراوح بين ثلاثمائة كيلو جرام وثلاثمائة وخمسة وسبعين كيلو جراماً .

وراعت أهل القاهرة عزة نفس الحاكم السودانى ، كما راعهم أيضاً ورع أفراد حاشيته والملابس النفيسة التى يرتدونها . فإلى ذلك الحين لم يكونوا يألفون رؤية زوار بهذه الفخامة قادمين من الغرب . واهتز موقف الاستعلاء الذى كان المصريون يتخنونه من السودان . والآن استقر رأيهم على استغلال الإمبراطور ، وظهرت براعة أهل القاهرة الذين صنعوا من استغلال الأجانب منذ أقدم العصور فناً رفيعاً . بيد أن إقامة موسى لسوء حظهم لم تدم طويلاً ، فقد أعد له السلطان الترتيبات للمضى فى رحلة حجه .

وعندما حان موعد الحج أعد السلطان ، استناداً إلى المسالك ، الترتيبات لسفر موسى وحاشيته ، وأقيمت المحطات على الطريق للعناية

(٣٩) ضبط اسم **الحاج يونس** على العبر . « (قال الحاج يونس ترجمان هذه الأمة بمصر) جاء هذا الملك منسا موسى من بلاده بثمانين حملاً من التبر كل حمل ثلاثة قناطير ... » العبر ، المجلد السادس ، الصفحة ٢٠١ . [جرت عادة سلاطين مصر على أن يستخدموا فى بلاطهم تراجمة يتولون نقل الرسائل الواردة من البلدان الأخرى ، والحاج يونس كان واحداً من هؤلاء ، إذ كان يعمل مترجماً للمراسلات التكرورية فى بلاط الناصر محمد بن قلاوون .] ويقتدر ابن خلدون هذا العدد فى موضع آخر بمائة حمل : « ... وكان أعد لنفقته من بلاده فيما يقال مائة حمل من التبر فى كل منها ثلاثة قناطير » العبر ، المجلد الخامس ، الصفحة ٤٢٤ .

(٤٠) « وذكر (مسالك الأبطال) عن ابن أمير حاجب والى مصر أنه كان معه مائة حمل ذهباً أنفقها فى سفرته تلك على من بطريقه إلى مصر من القبائل ثم بمصر ... » صبح الأعشى ، الجزء الخامس ، الصفحة ٢٩٦ .

(٤١) « وحدثنى شيخنا مور بن صالح ونكرب رحمه الله أنه كان معه حمل أربعين بغلة من الذهب » تاريخ الفتاش ، الصفحة ٣٦ . [مور : كلمة تستخدم فى السودان بمعنى مسلم ، أو تسبق اسم شخصية مسلمة جليلة ، وعندئذ يكون معناها شيخاً ؛ ونكرب : كلمة تتخذ صورة الجمع فى لغة الفلاته لكلمة ونقارة التى تشير بوجه عام إلى مجموعة أسرة المندنغو المشتتة بالتجارة .]

بالدواب (٤٢) . ويقول المقرئى إن سيف الدين إيتمش أمير الحج تلقى الأوامر من السلطان بالسهر على راحة موسى حتى يؤدى فريضة الحج ، وإن أمراء الحج فى الطريق تلقوا أوامر مكتوبة بأن يعاملوا الامبراطور بالاحترام والتقدير . (٤٣) وفى اليوم الثالث من أكتوبر ١٣٢٤ (٤٤) أقلت قافلة الحج فى طريقها إلى الحجاز .

وعامل الإمبراطور الحجاج الآخرين بسخاء شديد ، واستناداً إلى مهنا بن عبد الباقي العجرى فقد نعمت مكة والمدينة بسخائه وكرمه . وقد حصل مهنا منه على أكثر من مائة مثقال من الذهب . ويقول المسالك إن مهنا كان دائم الحديث عن كرم الإمبراطور . (٤٥) ومع ذلك يكون من الغريب ، على الرغم من أن المؤرخين العرب الذين عاصروه قد بهرهم بهائه وسخاؤه ، أن يقدم محمود كعت وجهة نظر مخالفة بقوله إن أهل مكة والمدينة لم يعتبروه كريماً لأنه منحهم عشرين ألف قطعة من الذهب ، على حين أن الأسكيا منحهم مائة ألف قطعة . (٤٦)

(٤٢) « قال فى « مسالك الأبصار » : قال لى المهندار ... ولما أن أوان الحج بعث إليه (السلطان الناصر) بمبلغ كبير من الدراهم ، وهجن جليلة كاملة الأكوار والعدة لمركبه ، وهجن أتباع لأصحابه وأزواد جمّة ، وركز له العليق فى الطرق ، وأمر أمير الركب باكرامه واحترامه « صبيح الأعشى ، الجزء الخامس ، الصفحة ٢٩٦ .

(٤٣) ضبط إسم سيف الدين إيتمش على المقرئى : « وقدم منسا موسى هديته ، وخرج مع الركب بعدما أوصى به السلطان الأمير سيف الدين إيتمش أمير الركب فسار راكباً وحده فى ساقّة الحج حتى قضى حجه » . المقرئى ، الذهب المسبوك ، المرجع السابق ، الصفحة ١١٣ .

(٤٤) منتصف ذى القعدة سنة ٧٢٤ هـ .

(٤٥) ضبط إسم مهنا بن عبد الباقي العجرى على مسالك الأبصار : « وحدثنى مهنا بن عبد الباقي العجرى الدليل أنه كان فى صحبة موسى لما حج ، وأنه أفاض على الحجيج وأهل الحرمين سجال الإحسان . وكان فى غاية التجل وحسن الزى فى سفره هو ومن معه . وتصدق بمال كثير . قال : ونابنى منه نحو مائتى مثقال من الذهب ، وأعطى رفاقى حملاً . وبألف مهنا فى وصف ما رآه منه من الكرم وسعة النفس ورفاهية الحال « مملكة مالى ، المرجع السابق ، الجزء الخاص بمسالك الأبصار ، الصفحتان ٦٤ و ٦٥ .

(٤٦) المقصود هنا هو « أسكيا الحاج محمد » سلطان السنعى كما يتضح من الاقتباس التالى : « ... ولكن ما وصفوه بالجمود والكرم لأنه ما تصدق فى الحرامين مع كثرة ملكه إلا بعشرين ألفاً ذهباً بنسبة ما تصدق به أسكيا الحاج محمد فيهما وهو مائة ألفاً ذهباً ... » تاريخ السودان ، الصفحة ٧ .

وهكذا يتضح أن پانيكار قد نسب هذه الرواية خطأ إلى محمود كعت ، فهى لم ترد أصلاً فى تاريخ الفتاش ، وإنما ذكرها عبد الرحمن السعدى فى تاريخ السودان .

وعندما عاد الإمبراطور إلى القاهرة كان أكثر إفراطاً في عطاياه ونفقاته . فكل من كان له شأن يذكر في بلاط سلطان مصر ، كل موظف لديه ، حصل من الامبراطور على هدية من ذهب . وكان تجار مصر سباقين إلى اغتنام تلك الفرصة الطيبة ، وكانوا يبيعون له ما يساوى دينارا بثمانية دنانير . وحمل موسى معه من بين ما حمل ثمانى جاريات في مقتبل العمر وألبسة قطنية ومتاعا كثيراً . وتضخمت نفقاته حتى أثرت على سوق الذهب . (٤٧) ويقول العمرى إنه قبل مجئ موسى إلى القاهرة لم يحدث أن هبطت أسعار الذهب عن ٢٥ درهما للمثقال ، ولكنها بعد نفقاته الهائلة لم تكن تزيد على ٢٢ درهما (٤٨) . والمصريون الذين ترامت إلى أسماعهم قصص عن نباتات تحمل الذهب في السودان ، أصبحوا الآن مستعدين لتصديق الحكايات الممعة في الخيال التي سمعها العمرى من الإمبراطور ، (٤٩) وأصبحت صورة السودان الذهبى محفورة في عقول العالم العربى .

(٤٧) « فاقبل أصحابه على شراء الجوارى من الترك والحبوش والمغنيات والثياب فانحط سعر الدينار ستة دراهم » . المقرئى ، الذهب المسبوك ، المراجع السابق ، الصفحة ١١٣ .

« وأمر السلطان بتجهيزه للحج ، فنزل وأخرج ذهباً كثيراً فى شراء ما يريد من الجوارى والثياب وغير ذلك حتى انحط الدينار ستة دراهم » ، المقرئى ، كتاب السلوك ، المرجع نفسه ، الجزء الثانى - القسم الأول ، الصفحة ٢٥٥ .

« وحدثنى (المهندار) خلق من تجار مصر والقاهرة عما حصل لهم من المكاسب والربح عليهم ، فإن الرجل منهم كان يشتري القميص أو الثوب والأزار وغير ذلك بخمسة دنانير ولا يساوى دينارا واحداً » مملكة مالى ، المرجع السابق ، الجزء الخاص بالمسالك ، الصفحة ٦٤ .

(٤٨) « ولقد كان الذهب مرتفع السعر بمصر إلى أن جاء (منسا موسى) إليها فى تلك السنة . كان المثقال لا ينزل عن خمسة وعشرين درهما ، ومازاد عليها فى الغالب . فمن يومئذ نزلت قيمته ورخص سعره ، واستمر على الرخص لأن لا يتعدى المثقال اثنين وعشرين درهما وما نونها ، وهذا من مدة تقارب اثنى عشر سنة إلى اليوم لكثرة ما جلبوه من الذهب إلى مصر وأنفقوه فيها » المرجع نفسه ، الصفحة ٦٥ .

(٤٩) « وقد حكى فى « مسالك الأبصار » عن الأمير أبى الحسن بن أمير حاجب عن السلطان (منسا موسى) سلطان هذه المملكة : أنه سأل عند قدومه الديار المصرية حاجاً عن معادن الذهب عندهم فقال : توجد على نوعين : نوع فى زمان الربيع ينبت فى الصحراء ، له ورق شبيه بالنخيل ، أصوله الثبر . والثانى يوجد فى أماكن معروفة على ضفاف مجارى النيل ، تحفر هناك حفائر فيوجد فيها الذهب كالحجارة والحصى ، فيؤخذ : قال : وكلاهما هو المسمى بالثبر « صبح الأعشى » الجزء الخامس ، الصفحة ٢٨٩ . [انظر فيما يتعلق بابن أمير حاجب الحاشية ٢ - ٥٤ أدناه .]

كانت نفقات موسى من الضخامة بحيث أتت على ما جلبه معه من ذهب كثير ، لذا تعين عليه في رحلة العودة أن يقترض ، كما باع القصر الذي أهده السلطان إياه ليقيم فيه . وقد اقترض أموالاً من كبار تجار القاهرة بفائدة مقدارها ١٣٣ في المائة ، (٥٠) وكان من بين هؤلاء التاجر سراج الدين الذي اقترض منه خمسين ألف دينار . ويقول كتاب المسالك إن التجار لم يستطيعوا استرداد المال الذي أقرضوه إياه لأن الشخص الذي رافق الامبراطور مات ، ولأن الرسول الذي تلاه لم يصل إلا بعد أن كان الامبراطور قد مات . ويقدم ابن بطوطة رواية مختلفة . فالوكيل الذي أرسله سراج الدين قرر الإقامة في مالي ، أما سراج الدين فقد ذهب بصحبة ابنه إلى مالي يدفعه الفضول إلى اكتشاف بلاد الذهب . وعندما وصل إلى تمبكت أكرم وفادته عربى يدعى أبا إسحاق الساحلى ، ومات في الليلة نفسها . وثارت شكوك حول دس السم له ، ولكنها كانت شكوكاً واهية الأساس مادام ابنه الذى شاركه الطعام لم يصب بأذى . وواصل الابن سيره إلى مالي حيث حصل على مال أبيه كاملاً وعاد إلى القاهرة . (٥١)

كانت الأشياء التى انطبعت في ذهن موسى عندما زار الشرق كثيرة ، فهو شأن كل مسلم ورع أراد أن يؤدي فريضة الحج ، وإن لم يخل الأمر من

(٥٠) « قال في مسالك الأبحار » ... وذكر عن ابن أمير حاجب وإلى مصر أنه كان معه مائة حمل ذهباً انفقها على سفرته تلك على من بطريقه إلى مصر من القبائل ثم بمصر ، ثم من مصر إلى الحجاز توجهوا وعودة ، حتى احتاج إلى القرض فاستدان على ذمته من تجار مصر بمالههم عليه فيه المكاسب الكبيرة ، بحيث يحصل لأحدهم في كل ثلثمائة دينار سبعمائة دينار ربحاً ، ويبحث إليهم بذلك بعد توجهه لبلاده ... » المرجع نفسه ، الصفحتان ٢٩٥ - ٢٩٦ . [يتضح من ذلك عدم بقاء نسبة الربح التى أوردها بانيكار لأنها وفقاً لهذا الاقتباس تكون ٢٢٢ في المائة .]

(٥١) « وبهذه البلدة (تمبكت) قبر الشاعر المفلح أبى إسحاق الساحلى الغرناطى المعروف ببلده بالطويجن وبها قبر سراج الدين بن الكويك أحد كبار التجار من أهل الاسكتدرية - حكاية - كان السلطان منسى موسى لما حج نزل بروض لسراج الدين هذا ببركة الحبش خارج مصر وبها ينزل السلطان واحتاج إلى مال فتسلفه من سراج الدين وتسلف منه أمراؤه أيضاً وبعث معهم سراج الدين وكيل له يقتضى المال فأقام بمالي فتوجه سراج الدين بنفسه لاقتضاء ماله ومعه ابن له فلما وصل تنبكتو أضافه أبو اسحاق الساحلى فكان من القدر موته تلك الليلة فتكلم الناس في ذلك واتهموا أنه سم فقال لهم ولده إبنى أكلت معه ذلك الطعام بعينه فلو كان فيه سم لقتلنا جميعاً لكنه انقضى أجله ووصل الولد إلى مالي واقتضى ماله وانصرف إلى ديار مصر » . تحفة النظائر ، طبعة بيروت ، الصفحة ٧٠١ .

اعتبارات سياسية . وقد أصبح موسى مدركاً لما يمكن أن يفضي إليه الاعتماد الزائد على الشمال من إضرار بمصالحه . فأراد أن يؤثر في حكام الشرق بورعه وثروته وقوته . وفاقته القصص الخرافية التي رواها لأبناء الشرق عن ثروته واتساع مملكته خيال **مانتشوزن** (٥٢) . وبسبب سخاء وإسرافه صدق القاهريون كل ذلك على الفور . كما كان موسى موفقاً للغاية في أهدافه السياسية ، فقد تواصلت علاقاته بمصر بعد زيارته لها فضلاً عن دعم هذه الزيارة لروابط الإسلام .

ومع ذلك يقدم **تاريخ الفتاش** دافعا آخر . فموسى عن غير قصد منه كان سبباً في موت أمه ، **نانا ككن** (٥٣) . وقد أثقل عليه تأنيب الضمير ، وحاول أن

(٥٢) **فريهر فون مانتشوزن** : (١٧٢٠-١٧٩٧) ، ألماني من هانوفر ، عمل ضابطاً بالجيش الروسي . اعتاد بعد تقاعده في ضيعته تسلية نفسه برواية قصص خفيفة الظل ممعنة في الخيال عن جرأته وبسالته كجندى . ونشرت هذه القصص في مجموعة من الكتب تحمل جميعها في جزء من عناوينها عبارة « **بارون مانتشوزن** » ، من أهمها « **مغامرات بارون مانتشوزن** » .

هذا وقد حكى منسا موسى لأهل القاهرة كثيراً من القصص الوهمية والخرافية ، منها قصة النباتات التي تحمل الذهب (انظر ، الحاشية ٢-٤٩ أعلاه) ، التي رواها لابن أمير حاجب ، ومنها أيضاً القصتان التاليتان اللتان رواهما لابن أمير : « قال في مسالك الأبصار : حكى ابن أمير حاجب والى مصر عنه أنه فتح بسيفه وحده أربعاً وعشرين مدينة من مدن السودان نوات أعمال وقرى وضياع . قال في مسالك الأبصار : قال ابن أمير حاجب : سألته عن سبب انتقال الملك إليه - فقال : إن الذي قبلى كان يظن أن البحر المحيط له غاية تترك ، فجهز مئتين سفن ، وشحنها بالرجال والأفراد التي تكفيهم سنين ، وأمر من فيها أن لا يرجعوا حتى يبلغوا نهايته أو تنفد أزوادهم ، فغابوا مدة طويلة ، ثم عادت منهم سفينة واحدة وحضر مقدمها ، فسأله عن أمرهم : فقال : سارت السفن زماناً حتى عرض لها في البحر في وسط اللجة جربة عظيمة ، فابتلع تلك المراكب وكنت آخر القوم فرجعت بسفينتي ؛ فلم يصدقني : فجهز ألفى سفينة ألفاً للرجال وألفاً للأزواد ، واستخلفني وسافر بنفسه ليعلم حقيقة ذلك ، فكان آخر العهد به وبمن معه » . **صحيح الأمشي** ، الجزء الخامس ، الصفحتان ٢٩٢ و ٢٩٥ .

(٥٣) **نانا ككن** : معناها في لغة المندنغو « **الجدة ككن** » ، أو « **السيدة ككن** » ؛ وتعبر نانا « يستخدم للاحترام والتبجيل ويسبق عادة أسماء السيدات النبيلات أو المتقدّمات في السن ، أما « **ككن** » فهو اسم منسا موسى .

« **ولحجّه سبب حكاها لى الطالب الحافظ لقصائص الأوائل وهو محمود قم رحمه الله ذكران ملكى ككن موسى هو الذى قتل أمه نانا ككن خطأ واسف لذلك وندم وخاف عقوبة ذلك وتصديق بمال جسيم وعزم على صوم الدهر وسأل بعض علماء زمانه عما يفعل فى الاستغفار لهذا الذنب العظيم فقال له أرى أن تفزع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وتهرب إليه وتدخل فى حرمة وتستشفع به ويشفعه الله فيك وهذا هو الرأى وعقد العزم على ذلك فى يومه وقام بجمع المال والجهاز للسفر » **تاريخ الفتاش** ، الصفحة ٣٣ .**

يكفر عن ذنبه بتقديم العطايا الضخمة للعلماء ، بيد أن أحد فقهاء المسلمين الذين سألهم الرأى أشار عليه بأداء فريضة الحج ليكفر عن ذنبه تماما .

وحتى ذلك الوقت كانت تجارة السودان وقفاً على المسلمين المراكشيين ، ولكن بعد زيارة موسى أخذ التجار المصريون يهتمون بتجارة السودان . ومع ذلك فإن مسالك الأبصار يشير إلى أن جشع أهالى القاهرة قد أثار اشمئزاز السودان حتى أنهم - استناداً إلى ابن أمير حاجب (٥٤) - « لو رأوا اليوم أكبر أئمة العلم والدين ، وقيل لهم إنه مصرى أمهنوه ، وأسأوا به الظن ، لما رأوا من سوء معاملتهم » (٥٥) . وعلى الرغم من أن السودان قد احتفظوا بشكوكهم فى أساليب التجارة المصرية والأمانة المالية المصرية ، فقد اتخذ البلاط عادات السلاطين والمماليك - الجتر والأعلام والطنايير (٥٦) ، كما اتخذ أيضاً عادة

(٥٤) ضبط إسمه على صبيح الأعشى ومملكه مالى (المرجعين السابقين) نقلاً عن مسالك الأبصار . هذا وقد ورد ذكر ابن أمير حاجب كثيراً ، ومن الواضح أنه كان مصدراً هاماً لابن فضل الله العمرى فيما رواه عن منسا موسى ، ولا بأس من القاء بعض الضوء على طبيعة علاقة ابن أمير بمنسا موسى ، وهى العلاقة التى سمحت له بأن يروى كل ما رواه ، والحديث للعمرى صاحب مسالك الأبصار :

« وحكى لى الأمير أبو الحسن على بن أمير حاجب أنه كان كثير الاجتماع بالسلطان موسى ملك هذه البلاد لما قدم مصر حاجاً . وكان هو نازلاً بالقراقة ، وابن أمير حاجب وإلى القراقة إذ ذاك ، واتحدت بينهما الصبغة . وأن هذا السلطان موسى حدثه بكثير من أحوال بلاده ومن يجاوره من أمم السودان .. » مملكة مالى ، المرجع السابق ، الجزء الخاص بالمسالك ، الصفحة ٥٦ .

(٥٥) « وحدثنى خلق من تجار مصر والقاهرة عما حصل لهم من المكاسب والربح عليهم ، فإن الرجل منهم كان يشتري القميص أو الثوب والإزار وغير ذلك بخمسة دنانير وهو لا يسوى ديناراً واحداً ، وكانوا فى غاية سلامة الصدور والطمأنينة يجوز عليهم مهما حرز عليهم ، يأخذون كل قول يقال بالقبول والصدق ، ثم ساءت ظنونهم بأهل مصر غاية الاستياء لما ظهر فى غشهم لهم فى كل قول ، وقى تزاحمهم المفرط فى أثمان ما يباع عليهم من الأطعمة والسلع ، حتى أنهم لو رأوا اليوم أكبر أئمة العلم والدين ، وقيل لهم إنه مصرى أمهنوه ... » مملكة مالى ، المرجع السابق ، الجزء الخاص بالمسالك ، الصفحة ٦٤ .

(٥٦) « وأما فى الركوب فقد جرت عادة سلطان هذه المملكة أنه إذا قدم من سفر أن يحمل على رأسه الجتر راكباً ، وينشر على رأسه علم ، وتضرب أمامه الطبول ، والطنايير ، والبوقات بقرون فيها صناعة محكمة ، قال ابن أمير حاجب ؛ وشعار هذا السلطان أعلام وألوية كبار جداً ورنكه أصفر فى أرض حمراء . » صبيح الأعشى ، الجزء الخامس ، الصفحة ٣٠١ . [يتضح من رواية صبيح الأعشى أن سلاطين مالى قد اتخذوا هذه العادات قبل مجئ منسا موسى إلى مصر ، ولم يتخذوها عن البلاط المملوكى خلال زيارته لها كما يقول بانتيكار ، والجتر هنا هو المظلة . انظر ، الحاشية ٢-١٢ أعلاه .]

إهداء الثياب . وربما كان الأمر البالغ التأثير هو اتباع أحكام إسلامية أكثر تشددا أدخلها في بلاد السودان علماء قدموا من القاهرة . ومثذ ذلك الحين كان على نول السودان الغربى أن تصبح إسلامية البناء ، وأن تتخذ المظاهر التى نشأت فى المشرق الإسلامى . بل كانت هناك ممارسات أبلغ مفعولا هى التنجيم والأعمال السحرية ، وهى ممارسات أضيفت إلى الأعراف الوطنية وساعدت على تعزيز قبضة الوثنية .

وقد صلب السلطان فى عودته من الشرق المعمر عبد الله بن خديجة الكومى وأبو إسحاق الطويجن وعبد الرحمن التميمى . ويقول ربن خلدون ، نقلا عن المعمر عبد الله ، إن السلطان أبدى رغبته فى بناء قاعة استقبال مطلية بالمصيص ، لأن أبنية كهذه لم تكن معروفة فى تلك البلاد . وقام أبو إسحاق الطويجن ، وكان ذا مهارة عظيمة فى حرف كثيرة ، ببناء قاعة مربعة تعلوها قبة، وأودع هذا البناء كل عبقريته ، وتفنن فى طلائه وزخرفته بنقوش عربية الطراز لاتعرفها هذه البلاد ففتن السلطان بالقاعة ، ومنح الطويجن إثنى عشر ألف مثقال من الذهب ، وأنزله فى بلاطه منزلة عالية . (٥٧) ويقول ديلافوس إن مسجدى غاو وتمبكت قد بنيا على يد هذا الزائر ، وقد يكون ذلك أمرا محتملا وإن لم يرد له ذكر فى كتابات المؤرخين المعاصرين لتلك الفترة .

(٥٧) ورد اسم أبو إسحاق الطويجن فى العبر ، ولكنى ضبطته على تحفة النظار ، انظر الحاشية ٢-٥١ أعلاه ؛ أما اسم المعمر عبد الله بن خديجة الكومى فقد تم ضبطه على العبر :

« .. فولى عليهم منسا موسى بن أبى بكر وكان رجلا صالحا وملكا عظيما له فى العدل أخبار تؤثر عنه وحج سنة ... ولقيه فى الموسم شاعر الأندلس أبو إسحاق إبراهيم الساحلى المعروف بالطونجق وصحبة إلى بلاده وكان له اختصاص وعناية ورثها من بعده إلى الآن ... ولقيه فى منصرفه صاحبنا المعمر أبو عبد الله بن خديجة الكومى من ولد عبد المؤمن كان داعية بالزباب الفاطمى المنتظر ... قال (أبو خديجة) ورجعنا معه إلى حضرة ملكه فأراد أن يتخذ بيتا بمقعد سلطانه محكم البناء مجلا لغرابته بأرضهم فأطرفه أبو إسحاق الطونجق ببناء قبة مربعة الشكل استفرغ فيها إجاته وكان صناع اليدين وأصقى عليها من الكلس ووالى عليها بالأصباغ المشبعة فجاءت من أتقن المبانى ووقعت من السلطان موقع الاستغراب لفقدان صنعة البناء بأرضهم ووصله باثنى عشر ألفا من مثاقيل التبر ماثوية عليها إلى ما كان له من الأثرة والميل إليه والصلات السنية » العبر ، الجزء السادس ، الصفحتان ٢٠٠ و ٢٠١ .

وتم ضبط اسم عبد الرحمن التميمى على تاريخ السودان : « يقول يا أهل سنكرى كفاكم سيدى عبد الرحمن التميمى وهو جاء من أرض الحجاز صحبة السلطان موسى صاحب ملّى حين رجع من الحج ... » الصفحة ٥١ .

ويشير العمرى وابن خلدون إلى اتساع الإمبراطورية ، وإلى الثروات التي أسبغت عليها أهميتها . فقد امتدت من طور (السنغال) فى الغرب إلى مولى فى الشرق ، وخضعت لها قبائل نيتصر ونيغراس ومدوسة وملتونة (٥٨) . بيد أن قبائل أير وتدمكة وأودغست كانت مستقلة . وبين الأقاليم الإثنى عشر التي ذكر مسالك الأبصار (٥٩) أنها تابعة لمالى يرد إسم غانة التي كان حاكمها هو الوحيد الذى يحمل لقب ملك ، وإن كان مع ذلك ملكا تابعا . (٦٠) وقد خضعت تدمكة لفترة قصيرة لحكم مالى ، ولكنها أصبحت مستقلة فى أيام العمرى ، ومع ذلك قام سيكرة بغزو تكدا ، (٦١) وظلت منذ ذلك الحين تحت حكم مالى . ويذكر مسالك الأبصار أن موسى أخبر الزواوى بأنه يمتلك مناجم للنحاس هناك . (٦٢)

(٥٨) ضببطت هذه الأسماء على صبيح الأعشى نقلا عن مسالك الأبصار ، كما يتضح من الاقتباس التالى :
« قال فى مسالك الأبصار : وفى شمال بلاد مالى قبائل من البربر بيض تحت حكم سلطانها : وهم نيتصر ونيغراس ومدوسة وملتونة » . صبيح الأعشى ، الجزء الخامس ، الصفحة ٢٨٦ .
(٥٩) « وذكر فى مسالك الأبصار : أن هذه المملكة تشتمل على أربعة عشر إقليمًا ، وهى غانة ... » صبيح الأعشى ، الجزء الخامس ، الصفحة ٢٨٦ . [يختلف الرقم الذى ذكره صبيح الأعشى عن ذلك الذى ذكره بانيكار .]

(٦٠) « قال فى مسالك الأبصار : ونقل عن الشيخ سعيد الدكالى : أنه ليس بمملكته من يطلق عليه اسم ملك إلا صاحب غانة وهو كالثائب له ، وإن كان ملكا ، وكأنه إنما بقى اسم الملك على صاحب غانة نون غيره لعدم انتزاعه منه والاستيلاء عليه استيلاء كلياً . فقد قال فى التعريف : وأما غانة فإنه لا يملكها وكأنه مالكا ، يتركها عن قدره عليها : لأن بها واما جنوبا منابت الذهب » المرجع نفسه ، الصفحة ٢٩٢ .

« ثم قد حكى فى مسالك الأبصار عن والى مصر عن منسا موسى المقدم ذكره : أن الذهب ببلادة حمى له لأن بلادهم لا شئ بها . ثم قال : وكلام الدكالى أثبت وعليه ينطبق كلامه فى التعريف حيث ذكر غانة ثم قال : وله عليها إتابة مقرررة تحمل إليه كل سنة » المرجع نفسه ، الصفحتان ٢٩٠ و ٢٩١ . [المقصود بوالى مصر هنا هو ابن أمير حاجب ، أما التعريف فهو اسم كتاب هام آخر للعمرى عنوانه بالكامل . التعريف بالمصطلح الشريف ، وقد نشر بالقاهرة سنة ١٣١٢ هـ ، مطبعة السعادة .]

(٦١) يقول ابن خلدون إن الذى غزا تكرت (تكدا) هو مارى جاظة الذى حكم قبل سيكرة . (انظر الحاشية ٣ - ٢٥ أعلاه) .

(٦٢) ضبط اسم الزواوى على صبيح الأعشى نقلا عن مسالك الأبصار : « ثم قد حكى فى مسالك الأبصار ... قال الشيخ عيسى الزواوى : قال لى السلطان موسى : إن عنده فى مدينة اسمها (نكوا) معدن نحاس أحمر ، يجلب منه قضبان إلى مدينة بنى قاعدة مالى فيبيعث منه إلى بلاد السودان الكفار ، فيباع وزن مثقال بثلاثى وزنه من الذهب ، يباع كل مائة مثقال من هذا النحاس بستة وستين مثقالاً وثلاثى مثقال من الذهب . » صبيح الأعشى ، الجزء الخامس ، الصفحتان ٢٩٠ و ٢٩١ . [يبدو أن المقصود بمدينة « نكوا » هنا هو مدينة تكدا .]

كذلك تم غزو غاو في أيام سيكرة . ومع ذلك يذكر ابن خلدون أن البعض يعتقدون أن غزو كوكو قد حدث فيما بعد ، إذ ينسب إلى الحاج يونس مترجم المراسلات التكرورية في القاهرة : « ... وقال الحاج يونس ويمال التكرورى إن الذى فتح كوكو هو سقمجة من قواد منسا موسى ... » (٦٣) .

وقد مات منسا موسى في عام ١٣٣٧ ، وخلفه ابنه مغا (٦٤) الذى اضطلع بدور نائب الملك عندما كان موسى خارج بلاده يؤدي فريضة الحج . ولم يحكم منسا مغا الأول إلا أربع سنوات ، ولكن فترة حكمه القصيرة شهدت فرار أميرى السنغى ، وتخريب تمبكت ونهبها في عام ١٣٣٩ على أيدي قبائل الموسى الوثنية . (٦٥) وعند موته خلفه سليمان أحد إخوة موسى ، وحكم تسع عشرة سنة من عام ١٣٤١ حتى عام ١٣٦٠ ، وفي عهده تمزقت الإمبراطورية من جراء الخلافات الداخلية ، إذ تزوج سليمان ببنت عمه قاسا ، ويقول ابن بطوطة إنه طبقا لأعراف هذا الشعب كانت قاسا تحكم مشاركة مع سليمان . وقد طلقها سليمان ،

(٦٣) كوكو عند ابن خلدون ومعظم المؤرخين والجغرافيين هي مدينة « غاو » (انظر الخاشية ٣ - ٢٦ أعلاه) . وقد ضبط اسم « سقمجة » على العبر الذى وردت به ثلاث إشارات مختلفة : أولاها تنسب غزو كوكو إلى مارى جازة السابق على سيكرة ، وفيها يقول ابن خلدون إن مارى جازة تجاوز حدود كوكو (انظر الخاشية نفسها) ؛ الثانية تنسب غزوها إلى سيكرة : « ولما هلك مارى جازة ولى من بعده مولى من موالهم تغلب على ملكهم اسمه ساكورة ... وكانت بولته ضخمة اتسع فيها نطاق ملكهم وتغلبوا على الأمم المجاورة لهم وافتتح بلاد كوكو وأصارها في مملكة أهل مالى ... » العبر ، المجلد السادس ، الصفحة ٢٠٠ ؛ الثالثة تنسب غزو كوكو إلى سقمجة كما يرد في المتن نقلا عن العبر ، المرجع نفسه ، الموضع نفسه .

(٦٤) « واتصلت أيام منسا موسى هذا خمسا وعشرين سنة ولما هلك ولى أمر مالى من بعده ابنه منسا مغا ومغا عندهم محمد وهلك لأربع سنين من ولايته وولى أمرهم من بعده ابنه منسا سليمان بن أبى بكر وهو أخو موسى واتصلت أيامه أربعاً وعشرين سنة ثم هلك فولى من بعده ابنه منسا بن سليمان ... » المرجع نفسه ، الصفحة ٢٠١ . [يوجد فارق بين مدة حكم سليمان التى وردت في المتن ، وهى تسع عشرة سنة ميلادية وتلك التى ذكرها ابن خلدون ، وهى أربع وعشرون سنة هجرية .]

(٦٥) « ثم غزا إليها في أيام بولتهم سلطان موش في جيش عظيم فخاف منهم أهل ملى وهربوا وتركوا البلد لهم فدخل فيها وأفسدها وحرقتها وخربها وقتل من قتل ما فيها من الأموال وولى إلى أرضه ثم رجع إليها أهل ملى وملكوها مائة عام قال العلامة الفقيه أحمد بابا رحمه الله تعالى خربت تنبكت ثلاث مرات الأولى على يد سلطان موش ... » تاريخ السودان ، الصفحتان ٨ و ٩ . [الأميران المشار إليهما هنا هما سلّمَنَ نار وعلى كُنْ ، وكان منسا موسى قد أخذهما رهينتين لضمان عدم حدوث ثورات أثناء تأديته لفريضة الحج . أنظر ، تاريخ السودان ، الصفحتان ٦٥ و ٦٦ .]

واتخذ امرأة من عامة الشعب إسمها بنجو كزوجة أولى له . ولم تعترف أية أميرة من الأميرات ببنجو ملكة عليهن ، ورفضن أن يهلن التراب على رؤوسهن في قاعة الاستقبال ، وإنما هلنة على أذرعهن فقط . ومع ذلك كانت قاسا تعامل كإمبراطورة ، وكن يقدمن الولاء لها بنثر التراب على رؤوسهن . وشكت بنجو إلى الإمبراطور ، وعندما غضب الإمبراطور سعت قاسا إلى طلب الأمان في المسجد ، ومن هناك أخذت تحرض النبلاء ، وبخاصة أبناء عمومتها . وهذه الخلافات بين الملكتين التي مزقت الدولة كانت مجرد انعكاس للصراع الحزبي في أورقة البلاط . فقد كان هناك حزبان أحدهما يؤيد أبناء مغا ، والآخر يؤيد سليمان . وكانت قاسا تلقى التأييد من أبناء عمومتها ومن حزب مغا ، ولكن سليمان استطاع أن يركب العاصفة باكتساب الرؤساء العسكريين ، فقد اكتسبهم عندما أثبت أن قاسا تتآمر مع جاطل ، أحد أبناء عمومته ، الذي سبق أن طرد بسبب خيانتته . (٦٦)

وفي أيام سليمان جاءت إلى مالى سفارة من مولاي أبي الحسن سلطان مراکش (٦٧) . وكانت مالى فى عهد موسى الأول تقيم علاقات وثيقة مع مراکش

(٦٦) « وافق فى أيام إقامتى بمالى أن السلطان غضب على زوجته الكبرى بنت عمه المدعوة بقاسا ومعنى قاسا عندهم الملكة وهى شريكته فى الملك على عادة السودان ويذكر اسمها مع اسمه على المنبر وسجنها عند بعض الفرارية وولى فى مكانها زوجته الأخرى بنجو ولم تكن من بنات الملوك فكثير الناس الكلام فى ذلك وانكروا فعله ودخل بنات عمه على بنجو يهنئنها بالملكة فجعلن الرماد على أذرعهن ولم يترين رؤوسهن ثم أن السلطان سرح قاسا من ثقافها فدخل عليها بنات عمه يهنئنها بالسراح وترين على العادة فشكت بنجو إلى السلطان بذلك فغضب على بنات عمه فخفن منه واستجرن بالجامع فعفا عنهن واستدعاهن وعادتهن إذا دخلنا على السلطان أن يتجردن عن ثيابهن ويدخلن عرايا ففعلن ذلك ورضى عنهن وصرن ياتين باب السلطان غنوا وعشياً مدة سبعة أيام وكذلك يفعل كل من عفا عنه السلطان وسارت قاساً تركب كل يوم فى جواربها وعبيدها وعلى رؤوسهم التراب وتقف عند المشور منتقبة لا يرى وجهها وأكثر الأمراء الكلام فى شأنها فجمعهم السلطان فى المشور وقال لهم دوغا على لسانه إنكم قد أكثرتم الكلام فى أمر قاساً وإنها اذنبت ذنباً كبيراً ثم أتى بجارية من جواربها مقيدة مغولة فقيل لها تكلمى بما عندك فاخبرت أن قاسا بعثتها إلى جاطل ابن عم السلطان الهارب عنه إلى كتبرنى واستدعته ليخلع السلطان عن ملكه وقالت له أنا وجميع العساكر طوع أمرك فلما سمع الأمراء ذلك قالوا هذا ذنب كبير وهى تستحق القتل عليه فخافت قاساً من ذلك واستجارت بدار الخطيب وعادتهم أن يستجيروا هناك بالمسجد وإن لم يتمكن فدار الخطيب » تحفه النظار ، طبعة بيروت ، الصفحة ٦٩٧ ،

(٦٧) هو المستعين بالله إبراهيم بن أبى الحسن المرينى (أبو سالم) الذى حكم فى عام ١٢٥٩ .

وتتبادل مع سلطانها الرسائل الودية . (٦٨) وفضلا عن ذلك أصبحت بلاد السودان معروفة على نطاق أوسع . كما أن ابن بطوطة ، رحالة الإسلام ، كان عليه بدوره زيارتها . وربما كان الغرض من وراء إيفاد السفارة المراكشية هو الرد على النفوذ المصرى الذى أخذ يتزايد فى نيامى . وقد استقبل السودان تلك السفارة بحفاوة ، وعندما عادت إلى فاس صحبتها سفارة من مالى يرافقها خدم يحملون التراب . وفى فاس كان السلطان إذا وجه إليهم عبارة ما أهالوا التراب على رؤوسهم الأمر الذى كان يضحك رجال البلاط المراكشى . (٦٩) وفى عام ١٣٦٠ قرر سليمان إيفاد بعثة ثانية أكثر فخامة إلى مراكش . وبعد أن بدأت السفارة مسيرتها مات العاهلان قبل وصولها فتوقفت فى ولاته . (٧٠) ويقول بارث إن سليمان أعاد بناء تمبكت التى دمرها موسى .

(٦٨) « كان للسلطان أبى الحسن مذهب فى الفخر يتناول به إلى منازعات الملوك الأعظم واقتفاء سنتهم فى مهادة الاقتال والأمصار وإيفاد الرسل على ملوك النواحي القاصية والتخوم البعيدة وكان ملك مالى أعظم ملوك السودان لعهدده ومجاورا للملكة بالمغرب وسما سلطان مالى منسى المتقدم ذكره فى أخبارهم إلى مخاطبته فلوقد عليه فراققيس من أهل مملكته مع ترجمان من الملتمين المجاورين لممالكهم من صنهاجة فوفدوا على السلطان فى التهنية بالغلب والظفر فاكرم وقادتهم وأحسن ميثاهم ومنقلبهم ونزع إلى طريقته فى الفخر فاتحف طرفاً من متاع المغرب وماعونه من نخيرة داره واسناها وعين رجالاً من أهل دولته كان فيهم كاتب الديوان أبو طالب بن محمد بن أبى مدين ومولاه عنبر الخصى وأوفدهم بها على ملك مالى منسا سليمان ... » العبر ، المجلد السابع ، الصفحة ٢٦٦ .

(٦٩) ذكر ابن جزى عن أدب السودان : وأخبرنى صاحب العلامة الفقية أبو القاسم بن رضوان أعزّه الله إنه لما قدم الحاج موسى الونجراتى رسولا عن منسى سليمان إلى مولانا أبى الحسن رضى الله عنه كان إذا دخل المجلس الكريم حمل بعض ناسه معه قفة تراب فيترب مهما قال له مولانا كلاما حسنا كما يفعل ببلاده « تحفه النظار ، طبعة بيروت ، الحاشية ٤٢ ، الصفحة ٦٩٤ .

(٧٠) « كان السلطان أبو الحسن لما أهدى إلى ملك السودان منسا سليمان بن منسا موسى هديته المذكورة فى خبره اعتمل فى مكافاته وجمع لمهاداته من طرف أرضه وغرائب بلاده وهلك السلطان أبو الحسن خلال ذلك ووصلت الهدية إلى أقصى ثغورهم من الارس وهلك منسا موسى قبل فصولها فاختلف أهل مالى واقترق أمرهم ... حتى قام منهم منسا زاطة واستوسق له أمرهم ونظر فى أعطاف ملكه وأخبر بشأن الهدية واختزانها بوالات قلّمر بانفاذاها إلى ملك المغرب ... » العبر ، المجلد السابع ، الصفحة ٣١٠ . [والات هى ولاته .]

وخلف سليمان ابنه كاسا ، ولكن سرعان ما اندلعت حرب أهلية ، وبعد تسعة أشهر استولى ابن عمه ماري جازطة على السلطة ، (٧١) والآن أمرت السفارة باستئناف السير إلى مراكش ، فوصلت فاس في عام ١٣٦١ ، وكان من بين الهدايا التي تحملها « حيوان الزرافة الغريب الشكل العظيم الهيكل المختلف الشبه بالحيوانات » ، وكانت هذه أول إشارة إلى الزرافة التي أحدث وصولها مظاهر إعجاب في كل مدينة مراكشية شاهدها . (٧٢)

وكان ماري جازطة ، استنادا إلى ابن خلدون ، أسوأ ملوك مالي على الإطلاق ، فقد كان ضعيفا محبا للملذات ، فاستنقذ الكنوز وكاد أن يأتي على نفائس القصر . وما أثار استغراب ابن خلدون من إسراف ماري جازطة وسفاهه أنه باع للتجار المصريين كتلة صلبة من الذهب تزن عشرين قيراطا .

(٧١) « قال في العبر .. وملك بعده أخوه (منسا سليمان) بن أبي بكر ، وهو أخو منسا موسى المقدم ذكره ... قال في العبر : ودام ملكه أربعين سنة ، ثم مات . وولى بعده ابنته (قنبتا بن سليمان) ومات لتسعة أشهر من ملكه . وملك بعده (ماري جازطة) ابن منسا معا بن منسا موسى « صبيح الأعشى » ، الجزء الخامس ، الصفحة ٢٩٧ . وقد ورد بحاشية بالصفحة نفسها تعليقا على كلمة « قنبتا » مايلي : وقع في العبر ج ٦ ص ٢٠١ و ٢٠٢ « قفتا »

« واختلف أهل مالي وافترق أمرهم وتوالت ملوكهم على الأمر وقتل بعضهم بعضاً وشغلوا بالفتنة حتى قام فيهم منسا زاطة واستوسق له أمرهم » العبر ، المجلد السابع ، الصفحة ٣١٠ .
والمقصود هنا بمنسا زاطة هو ماري جازطة .

(٧٢) « .. حتى قام فيهم منسا زاطة واستوسق له أمرهم ونظر في أعطاف ملكه وأخبر بشأن الهدية واختزانها بوالات وأمر بانفاذها إلى ملك المغرب وضم إليها حيوان الزرافة الغريب الشكل العظيم الهيكل المختلف الشبه بالحيوانات وفصلوا بها من بلادهم فوصلوا إلى فاس ... وكان يوم وفادتهم يوماً مشهوداً جلس لهم السلطان ببرج الذهب مجلس العرض ونودي في الناس بالبروز إلى الصحراء فبرزوا ينسلون من كل حطب حتى غص بهم الفضاء وركب بعضهم بعضاً في الازدحام على الزرافة إعجاباً بخلقها وأنشد الشعراء في معرض المدح والتهنئة ووصف الحال وحضر الوفد بين يدي السلطان وألوا رسالتهم بتأكيد الود والمخالصة والعذر على إبطاء الهدية بما كان من اختلاف أهل مالي وتوالتهم على الأمر وتعظيم سلطانهم وما صاروا إليه والترجمان يترجم عنهم وهم يصدقونه بالنزع في أوتار قسيهم عادة معروفة لهم وحيوا السلطان يحثون التراب على رؤسهم سنة ملوك العجم ثم ركب السلطان وانفض ذلك الجمع وقد طار به الذكر ... » المرجع نفسه ، الموضع نفسه .

وكان ماري جازطة أول حاكم لدينا عنه بعض المعرفة يصاب بمرض النوم . (٧٣)
« يعتاده غشى النوم عامة أزمانه حتى يكاد لا يفيق ولا يستيقظ إلا في القليل من أوقاته ويضر صاحبه ويتصل سقمه إلى أن يهلك (قال) ودامت هذه العلة بخلطه مدة عامين اثنين حتى هلك سنة خمس وسبعين وسبعماية » (٧٤) .

وخلف جازطة ابنه موسى الثاني (١٣٧٤ - ١٣٨٧) ، وكان موسى الثاني مجرد أمير فضلا عن ضعفه ، فانسلت السلطة من بين يديه إلى يدى الرأس المدبرة للجهاز الإداري - ماري جازطة آخر . وكان ماري جازطة هذا رئيسا للرقيق وقائدا للجيش ، ومن هذا الموقع الممتاز حكم الإمبراطورية باسم موسى ، وقد كان قائدا قديرا تمكن من أن يعيد مد نفوذ الإمبراطورية حتى غاو ، وخضعت تكدا مرة أخرى لحكم مالى . (٧٥)

(٧٣) « ٣٢٤٥ ماري جازطة بن منسا بن مغا ... ملك بعد أبيه وسار سيرة قبيحة وبالح في التبذير والفسق توفى سنة ٧٧٥ وولى بعده ابنه منشا موسى » ابن حجر العسقلاني ، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، المرجع السابق ، الجزء الثالث ، الصفحة ٣٦٢ .

« قال في مسالك الأبصار ... وملك بعده (ماري جازطة) بن منسا مغا ... فقام أربع وعشرين سنة أساء فيها السيرة وأفسد ملكهم ، وأتلف ذخائرهم بسرفه وتبذيره ، حتى انتهى به الحال في السرف أنه كان بخزانهم حجر ذهب ، زنته عشرون قنطاراً منقولاً من المعدن من غير سبك ولا علاج بالنار ، وكانوا يرونه من أنفس ذخائرهم لندور مثله في المعدن ، فباعه على تجار مصر المترددين إليه بأبخس ثمن ، وصرف ذلك كله في الفسوق ، وكان آخر أمره أن أصابته علة النوم وهو مرض كثيراً ما يصيب أهل تلك البلاد لا سيما الرؤساء منهم ، يأخذ أحدهم النوم حتى لا يفيق ، فقام به سنتين حتى مات سنة خمس وسبعين وسبعماية . » صبح الأعشى ، الجزء الخامس ، الصفحتان ٢٩٦ و ٢٩٧ .

وهكذا يذهب كل من صبح الأعشى في هذا الاقتباس ، والعبير (المجلد السادس ، الصفحة ٢٠١) ، إلى تقدير واحد لوزن حجر الذهب هذا : هو عشرون قنطاراً ؛ أما تقدير پانيكار لهذا الوزن فهو عشرون قيراطاً ... والتقدير الأول بمعيار القنطار المعروف لدينا مبالغ فيه جداً ، في حين أن تقدير پانيكار هزيل للغاية ، فالقيراط لا يتعدى جزءاً صغيراً من الجرام . وربما كان التقدير الأقرب إلى المنطق هو ثلاثون رطلاً الذي قال به الإدريسي وهو أنه « لبته من ذهب وزنها ٣٠ رطلاً » (انظر الحاشية ٢ - ١٣ أعلاه) .
(٧٤) هذا الاقتباس مأخوذ من العبير ، المجلد السادس ، الصفحة ٢٠٢ .

(٧٥) « قال في مسالك الأبصار ... وملك بعده ابنه (موسى) فنكب عن طريق أبيه ، وأقبل على العدل وحسن السيرة ، وتغلب على دولته وزيره (ماري جازطة) فحججه وقام بتدبير الدولة ؛ وكان له فيها أحسن تدبير » صبح الأعشى ، الجزء الخامس ، الصفحتان ٢٩٦ و ٢٩٧ .

« وولوا من بعده ابنه موسى فأقبل على مذاهب العدل والنظر لهم ونكب عن طريق أبيه جملة ، وهو الآن مرجو الهداية ويغلب على دولته وزيره ماري جازطة وهو الآن قد حجر السلطان واستبد بالامر عليه ونظر في تجهيز العساكر وتجهيز الكتائب ويوخ أقطار الشرق من بلادهم وتجاوز تخوم كوكو وجهاز إلى منازل تكرت بما وراها من بلاد الملثمين » العبير ، المجلد السادس الصفحة ٢٠٢ . [سبقت الإشارة إلى أن كوكو هي غاو ؛ وأن تكرت هي تكدا .]

وكان ماري جازة ، الذي حكم بوصفه وزير القصر ، آخر حاكم قوى مالى . وظلت مالى بعده ، لمدة قرن آخر ، دولة قوية ، ولكن الاضطرابات فى سنغى زادت متاعبها . وبعد موسى الثانى وقعت الإمبراطورية تحت رحمة القادة العسكريين المتنافسين ، وسادت حالة من الحرب الأهلية . وحكم مغا الثانى بضعة أيام قبل أن تخلعه الانكشارية وتودى بحياته . واستولى صندكى ، رئيس الرقيق ، على السلطة ؛ ولكن قسما من الجيش ظل على ولائه للأسرة المالكة القديمة ، وبعد عامين من القتال تمكن مغا الثالث الذى جاء من المنطقة الوثنية ، وادعى أنه من سلالة سندياتا من خلال منساقو ، من الاستيلاء على السلطة . (٧٦)

كذلك أدى تمرد الموسيقى والسنغى فى منطقة بحيرة نيبو (٧٧) إلى إضعاف سلطة مالى ، وفقدت مالى مقاطعاتها الشرقية ، فى حين ظلت إمبراطورية عظيمة فى الغرب . أما دولة الموسيقى فى ياتنجا ، التى كانت مزيجا من نظام إقطاعى حربى وديانة قبلية وإمبراطور مقدس ، فكانت دولة حربية قوية قادرة

(٧٦) « ... وبقي منسا موسى حتى مات سنة تسع وثمانين وسبعمائه . وملك بعده أخوه (منسامغا) وقتل بعده بسنة أونحوها ، وملك بعده (صندكى) زوج أم منسا موسى المقدم ذكره ، ومعنى (صندكى) الوزير ؛ ووثب عليه بعد أشهر رجل من بيت ماري جازة . ثم خرج من ورائهم من بلاد الكفرة رجل اسمه (محمود) ينسب إلى (منساقو) بن منسا ولى ، بن ماري جازة ، ولقبه منسا مغا ، وغلب على الملك فى سنة » صبيح الأعشى ، الجزء الخامس ، الصفحتان ٢٩٧ و ٢٩٨ .

« ثم بلغنا لهذا العهد أن منسا موسى توفى سنة ... وولى بعده أخوه منسا مغا ثم قتل لسنة أو نحوها وولى بعده صندكى زوج أم موسى ومعنى صندكى الوزير ووثب عليه بعد أشهر من بيت ماري جازة ثم خرج من بلاد الكفرة وراهم وجاءهم رجل اسمه محمود ينسب إلى منسا قو بن منسا ولى بن ماري جازة الأكبر فتغلب على الدولة وملك أمرهم سنة ثنتين وتسعين ولقبه منسا مغا . » العبر ، المجلد السادس ، الصفحة ٢٠٢ . [يتضح هنا أن اسمى صندكى وقو تم ضبطهما على كل من العبر وصبيح الأعشى (الذى ينقل عن مسالك الأبصار) .]

(٧٧) نيبو : أوردها بانيكار « Dabo » ، ولكنها وردت فى الموسوعة البريطانية « Debo » كذلك وردت « Debo » فى الترجمة الفرنسية لكتابى تاريخ الفتاش وتاريخ السودان ، ووردت « دب » فى النص العربى لكل منهما : الصفحة ٩٤ من تاريخ الفتاش والصفحة ١٢ من تاريخ السودان . وقد كتبتها نيبو . وهى إحدى البحيرات التى تعترض نهى النيجر فى المنطقة الرسوبية قبل وصوله إلى تمبكت .

على الصمود في وجه الغزوات الأجنبية ، كما زودتها مواردها البشرية والاقتصادية باستقرار افتقرت إليه الدول الإسلامية الأكثر شهرة ، فسارعت إلى الاستفادة من الموقف المتقلب . وفي الفترة التي تمكن فيها الضعف من مالي كان موسى قد قاموا بالفعل بتمرد عند منحني النيجر ، وعجزت مالي عن مقاومة النهب الذي تعرضت له تمبكت . واستفاد موسى من فترة الحرب الأهلية ، ومن حالة الفوضى التي أعقبتها ، في القيام بسلسلة من أعمال التمرد في منطقة بحيرة ديبو . كذلك استفاد السنغى بدورهم من الاستقلال الحديث الذي حصلوا عليه لمهاجمة مالي . فقام ماداو (٧٨) ، حاكم السنغى ، بمهاجمة مالي ونهب العاصمة ، وعاد بالغنائم والأسلاب والرقيق . وكانت لذلك آثاره على رخاء السنغى . وبحلول عام ١٤٣٠ كانت مقاطعات أروان (٧٩) وولاته وتمبكت التي تقع في الشمال قد سقطت في أيدي الطوارق . (٨٠)

وبسقوط تمبكت في أيدي الطوارق انتهى وجود مالي كإمبراطورية ، بيد أنها استمرت تمارس السيادة كسلطة إمبراطورية على المناطق الغربية قرناً آخر

(٧٨) أوردها يانيكار Ma Daou ؛ وأوردها تاريخ الفتاش ماعو وكذلك مادُغُ ، وأكتبها ماداو .
 « .. ثم بعد شئى باردلُ يَنْبُ ثم شئى ماعو ثم شئى محمد كوكيا » تاريخ الفتاش ، الصفحة ٤٢ .
 « .. وكذلك هو ورثهم من شئى مادُغُ وهو الذى تغلب على ملُكُى وكان أصلهم تحت ملُكُى .. » المرجع نفسه ، الصفحة ٥٥ .

وقد وردت في الترجمة الفرنسية لتاريخ الفتاش Madogo ، ولكنها وردت في الملحق الثانى من هذه الترجمة Madao .

(٧٩) أروان : مدينة مكانها اليوم معروف جيداً ، وهى تقع على بعد ٢٥٠ كيلو متراً شمالى تمبكت على الطريق ما بين تلودينى وتندوف . وردت يَرُونُ في تاريخ الفتاش ، الصفحة ٢٣ ؛ ووردت اروان في تاريخ السودان ، الصفحة ٢٠ .

(٨٠) « ... وفي آخر دولة أهل ملُى بتنبكت أخذ توارق مغشرون يغيرون عليهم ويفسدون فى الأرض من كل جهة ومكان وسلطانها أكلَ اكْمَلُولُ فتشوشوا من كثرة ضررهم وإذايتهم ولا يقفون لهم للمقاتلة قالوا البلد الذى لا يدفع عنها سلطانها لا يجوز له ملكها فسلموا فيها ورجعوا إلى ملُى فملكها أكل المذكور أربعين عاماً تنمة » تاريخ السودان ، الصفحة ٩ . [المغشرون : كانوا إحدى قبائل الطوارق بالقرب من النيجر ؛ أكل اكملول Akil - Akameluel : جاء بالحاشية ٢ بالصفحة ١٧ من الترجمة الفرنسية لتاريخ السودان أن كلمة « اك » فى الجزء الثانى من الاسم تعنى إبنا وبالتالي يكون الاسم أكل بن ملول .]

لتشهد سقوط غريمتها سنغى فى أيدى الغزاة المراكشيين . وعلى الرغم من أن إسم مالى كان يدغدغ جشع الأوروبيين ، فقد حفت عن أن تحسب ضمن مجموعة دول غرب إفريقية . بيد أنه حتى عام ١٤٨٠ كانت مالى لاتزال قوية ، وإن تكن قد فقدت سطوتها . وواصلت سنغى مهاجمة مالى ، واضطرت مالى إلى طلب العون من البرتغاليين ، ففي عام ١٤٨٠ قررت البرتغال إيفاد سفارتين الأولى من إلمينا^(٨١) والأخرى من غمبيا ، واستقبلت السفارة من جانب المنسا الذى بعث برسالة إلى ملك البرتغال عن طريق بيدرو رانيال . وعلى الرغم مما طرأ على سلطة المنسا من ضعف ، فقد ظل معتزاً بنفسه ، وكان يعتقد أنه لا يوجد فى العالم أجمع سوى أربع ممالك يمكن مقارنتها بمالى ، هى التكرور وبغداد والقاهرة واليمن ،^(٨٢) كما أنه أى لم يحظ أى من الملوك الذين سبقوه على عرش مالى باستقبال سفارة موفدة من ملك مسيحي ، وقد أعرب أيضا عن دهشته من اتساع المملكة البرتغالية . بيد أن مالى ، وإن كانت لاتزال تفخر بماضيها ، والتي استمرت قرناً آخر ، لم تعد دولة عظيمة . وسرعان مامزقها التوكولور الفولانى وكذلك البمبرة ، واضطر المنسا مرة أخرى إلى طلب المساعدة من البرتغاليين ضد الفولانى ، فقام الفولانى بسحب مزاعمهم . وجاءت آخر محاولة من جانب مالى لاستعادة مجدها الإمبراطورى فى عام ١٥٩٩ ، ولكنها انتهت ببورها - كما سنرى - بالإخفاق التام .

(٨١) إلمينا : مازالت توجد فيما كان يعرف بساحل الذهب . كانت موقعا لأهم قلعة بناها الأوروبيون عنوة على الساحل الغربى لإفريقية ، وكانت تعرف بقلعة ساوچورج دامينا . وقد بدأ ديجودازمبوجا البرتغالى بناها فى عام ١٤٨٢ فوق رأس ضخية بالقرب من مصب نهر بنيا . انتقلت ملكيتها إلى الهولنديين فى عام ١٦٣٧ . كانت مركزاً للتجار مع الإفريقيين فى تهر الذهب ، ثم أصبحت تجارة الرقيق عملها الرئيسى فى القرن الثامن عشر . مكتنتها صلتها بالأشانتى من الاحتفاظ بأهميتها إلى أن انتقلت إلى بريطانيا فى عام ١٨٧٠ عندما كانت فى حالة حرب مع الأشانتى .

(٨٢) « ويد سلطان مل مبسوطة على الكل بالقهر والغلبة وكنا نسمع من أعوام عصرنا يقولون سلاطين الدنيا أربعة ما خلا السلطان الأعظم سلطان بغداد وسلطان مصر وسلطان برن وسلطان مل » . تاريخ الفتاش ، الصفحة ٣٨ . [إذا كان تاريخ الفتاش هو المصدر الذى أخذ عنه پانيكار فلابد أنه خلط بين برن (برنو) واليمن . هذا والمقصود بسلطان مل هو سلطان مالى . وتشير عبارة السلطان الأعظم إلى « الخليفة العثمانى » . على الرغم مما جاء فى تاريخ الفتاش من أنه سلطان بغداد .]

الفصل الرابع

غاو وسيادة السنغى (*)

عندما أخذت قوة غانة فى الأقول كانت هناك ممالك كثيرة فى السودان . وفى أقصى الغرب كانت هناك مملكة التكرور ثم مملكة سلا^(١) ومملكة بريسي ، وهى ممالك سكانها من المسلمين وحرفتهم الرئيسية صيد الرقيق من منطقة للم . وفى ذلك الوقت كانت مملكة التكرور ذات أهمية كبيرة ، فى حين كانت بريسي تابعة لها ، كما كانت المركز الكبير للونقارة ، وهم تجار وثنويون يحملون تبر الذهب إلى مختلف بلدان السودان ، ومع ذلك فهى مكان فقير ليست به مدينة مسورة .^(٢)

(*) أقام السنغى من قديم الزمان على ضفاف النيجر الأوسط ، وأصبحت غاو عاصمتهم ومدينتهم الكبرى ، وامتدت حدود بلادهم حتى شملت المسافة الواقعة على منحنى النيجر ، وجاورهم الطوارق من الشمال ، وجاورتهم من الغرب والجنوب جماعات شتى من أهل السودان أهمها المندنغو . كما امتدت بلادهم شرقا حتى اتصلت ببرنو وكانم وتشاد ، وشملت مدينة تمبكت فى عهد سنّ على ، وخضعت لهم مملكة الموسى الوثنية فى عهد أسكيا الحاج محمد . وتسرب نفوذهم إلى شمال نيجيريا ، ودانت لهم كاتسنا وغوير وكانو وزنغرا وزاريا ، وشمل نفوذ دولتهم منطقة السفانا فى امتدادها من الشرق إلى الغرب . [نقلا عن دكتور حسين مؤنس ، أطلس تاريخ الإسلام ، الزهراء للإعلام العربى ، الصفحتين ٣٧٤ و٣٧٥.]

(١) كتبها البكرى سلى : «وتسير من مدينة تكرور إلى مدينة سلى وهى مدينتان على شاطئ النيل وأهلها مسلمون على يد وارجابى» البكرى ، المغرب فى ذكر إفريقيا والمغرب ، الصفحة ١٧٢ .

(٢) بريسي ، وتكتب بريسا أيضا ، وهى كذلك برسنى التى ذكر البكرى أنها «بغربى غيارو على النيل ... يسكنها المسلمون وما حولها مشركون ..» المرجع نفسه ، الصفحة ١٧٧ .

« ومن مدينة تكرور إلى مدينة بريسي على النيل مشرقا اثنتا عشرة مرحلة مدينة بريسي مدينة صغيرة لاسور لها غير أنها كالقرية الحاضرة وأهلها متجولون تجار وهم فى طاعة التكرورى .. » الإبريسى ، نزهة المشتاق ، الصفحة ١٩ .

أما المملكة التي كانت ذات أهمية حتى في أيام عظمة غانة فهي غاو^(٣) . ويشير إليها اليعقوبى باعتبارها أعظم الممالك وأكثرها أهمية . وهو يقول إن كل ملوك الزوج يدفعون الجزية لكوكو (غاو) . وكتب المهلبى حوالى ٩٩٦ يقول إن ملك غانة مسلم، وأن الملك ونبلاءه يعيشون على ضفة النهر الغربية ، على حين توجد الأحياء التجارية على الضفة الشرقية ويتردد عليها التجار من كل بلدان العالم . وحتى ذلك الوقت كانت غاو مركزاً ثقافياً عظيماً ، لها مساجدها كما توجد بها مدرستان . وبينما يذكر المهلبى أن الملك ونبلاءه يلبسون القمصان والعمائم ويركبون الخيل غير المسرجة ،^(٤) فإن البكرى يقول إن عامة الشعب وثنىون يعبدون الدكاكير وزعيم الملاحف والجلود وأشياء أخرى تختلف باختلاف يسارهم ، كما يقول إن المسلمين وحدهم هم الذين يمكن أن يكونوا حكاماً فى غاو.^(٥)

كانت غاو بالتأكيد أكثر أهمية من الصوصو^(٦) أو مالى . ويقول ابن حوقل ، الذى زار أودغست فى عام ٩٦١ ، إن ملكها تابع لغاو ، وقد كانت غاو مركزاً

(٣) «ثم مملكة الكوكو ، وهى أعظم ممالك السودان وأجلها قدراً وأعظمها أمراً ، وكل الممالك تعطى للملكها الطاعة ، والكوكو إسم المدينة ، وبون هذا عدة ممالك يعطونه الطاعة ويقرون له بالرئاسة على أنهم ملوك بلدانهم ، فمنهم مملكة المرو ، وهى مملكة ... ومملكة مردنة ... فهذه كلها تنتسب إلى مملكة الكوكو .» اليعقوبى ، تاريخ اليعقوبى ، المجلد الأول ، الصفحتان ١٩٢ و ١٩٤ . [سبقت الإشارة إلى أن كوكو هى غاو. أنظر الحاشية ٣ - ٢٦ أعلاه.]

(٤) «١٠٨٤ - كوكو : وهو إسم أمة وبلاد من السودان ، قال المهلبى : كوكو من الإقليم الأول ، وعرضها عشر درج ، وملكهم يظهر رعيته بالإسلام وأكثرهم يظهر به وله مدينة على النيل من شرقه إسمها سرنه وله مدينة على غربى النيل سكنها هو ورجاله وثقاته ، وبها مسجد يصلى فيه ، ومصلى الجماعة بين المدينتين وله فى مدينته قصر لا يسكنه معه أحد ... وجميعهم مسلمون وزى ملكهم ورؤساء أصحابه القمصان والعمائم ويركبون الخيل أعراء ...» ياقوت الحموى ، كتاب معجم البلدان ، طبعة دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٩٠ ، الجزء الرابع ، مادة كوكو، الصفحة ٥٦٢.

(٥) «وبين تادمكة ومدينة كوكو تسع مراحل ... وهى مدينتان مدينة الملك ومدينة المسلمين وملكهم يسمى قندا وزعيم كزى السودان من الملاحف وثياب الجلود وغير ذلك بقدر جدة الإنسان منهم وهم يعبدون الدكاكير كما تفعل السودان ويضرب بجلوس الملك الطبل ويرقص النساء السودانيات بالشعور الجثة المسترسلة ... وإذا ولى منهم ملك دفع إليه خاتم وسيف ومصحف يزعمون أن أمير المؤمنين بعث بذلك إليهم وملكهم مسلم ولا يملكون غير المسلمين .» البكرى ، المرجع السابق ، الصفحة ١٨٣.

(٦) كانتت إمارة الصوصو التي حكمتها أسرة كوتنى أقوى نول المرابطين جنوبى الصحراء الكبرى ، وكان الصوصو قد قدموا إلى قوته جُلُ فى القرن الثالث عشر ، ثم بدأوا الهجرة فى اتجاه ساحل الأطلسى عندما ازداد عددهم .

تجاريا هاما اعتادت القوافل من مصر وورقلة أن تفد إليه بانتظام ، على الرغم من أنه لم يكن يفد إليها من سجلماسة سوى عدد قليل من القوافل . كذلك لم تكن غاو مملكة جديدة ، ويشير تاريخ السودان إلى أن أول « زا » اعتنق الإسلام هو زاكُسي^(٧) الذي حكم في عام ١٠٠٩ ، وكان الملك الرابع عشر من هذه الأسرة . وإذا افترضنا أن متوسط حكم كل منهم عشرون عاما فلا بد أن تكون المملكة قد تكونت من منذ عام ٧٠٠ .

فلماذا لم تصبح غاو دولة متفوقة السيادة قبل هذا التاريخ ؟ إن صلات غاو التجارية كانت مع مصرفى الشرق ؟ ومع ذلك كان من الأسر أن تتزود بلاد السودان باحتياجاتها من الشمال . فما دامت الطرق تحتفظ بأهميتها ، فإن شعب غاو - السنغى - على الرغم من سيطرته على جيرانه ، لم يكن باستطاعته أن يُحكم الإمساك بالصولجان الإمبراطورى . وهو لم يستطع أن يبسط هيمنته إلا عندما ازدادت أهمية الطرق في وسط الصحراء الكبرى . وبالمثل لا ينبغي أن نغفل أن غانة ومالى كلتيهما كانت أقرب إلى مناطق الذهب ، وبذلك كان باستطاعتها اجتذاب التجار من الشمال ، على حين افتقرت غاو إلى تلك الميزة وتعين عليها الحصول على الذهب من الغرب ، وأصبح الرقيق ، وليس الذهب ، أهم الصادرات .

وعلى الرغم من أن غاو قد قامت منذ حوالى عام ٧٠٠ ، فإنها لم تبرز على الساحة إلا في وقت متأخر جدا . وكما رأينا وقعت في نزاع مع مالى ، ومنذ أيام سيكرة حتى نهاية القرن الرابع عشر كانت خاضعة لنيامى . وكلما تمزقت مالى تحت وطأة الفتن ، كان باستطاعة غاو تأكيد استقلالها ، ولكن ما إن يستعاد النظام في نيامى حتى تسارع إلى الاعتراف بسيادتها .

(٧) ذكر ملوك سنغى ، أول من تملك فيها من الملوك زا الأيمن ثم زاكسى ثم ... ثم زاكُسي هؤلاء أربعة عشر ملوكا ماتوا جميعا في جاهلية وما آمن أحد منهم بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم والذي أسلم منهم زاكُسي يقال له في كلامهم مسلم دم معناه أسلم طوعا بلا أكره رحمه الله وذلك في سنة أربعمائة من هجرة النبى ... «تاريخ السودان ، الصفحتان ٢ و ٣ . [يفهم من هذه الفقرة أن زاكسى هو الملك الخامس عشر وليس الرابع عشر كما نكر باينكار .]

وقد أصبح السنغى متحدين تحت حكم «زا» . وكان السُّركُ^(٨) الذين يحترفون صيد الأسماك منتشرين على طول النهر في مقاطعتي تَلْبُرى وِبَنْتيا^(٩) ، وهؤلاء السرك هم حراس المقدمة ، وقد بذلوا جهداً كبيراً لتوسيع رقعة مملكة سنغى الوليدة . وكان مركز الدولة الجديدة هو كوكيا^(١٠) التي تقع على بعد ١٤٠ كيلو مترا من غاو . وقد اعتنق زاكُسى الإسلام ، وتولى الحكم حوالى عام ١٠٠٠ ، وهو الملك الرابع عشر فى سلسلة الحكام ، وقام بنقل العاصمة من كوكيا إلى غاو . وعرف لدى مؤرخى السودان على أنه «مسلم دم» أى أسلم طوعاً^(١١) وفى أيام البكرى فرض السنغى سلطانهم على القبائل المجاورة ، بيد أنه حتى عندما فتحها مالى لم تكن مملكة كبيرة . وفى أيام منسا موسى أُخذَ أميران من السنغى ، هما سَلْمَنُ نار وعلى كُنْ ، رهيتين إلى نيامى - من المحتمل عندما ذهب موسى لأداء فريضة الحج - لضمان عدم حدوث ثورات . يقول تاريخ السودان : « فلما بلغا مبلغ الاستخدام أخذهما سلطان ملى لأنهم فى طاعته حينئذ للخدمة على عادتهم لأولاد الملوك الذين فى طاعتهم »^(١٢) . واحتجز الأميران لفترة طويلة ، واضطلعا بوظائف مختلفة فى بلاط مالى ، وعرفا طرقاته ومسالكه ، وتمكنا بفضل مهارة على كلن من الفرار من نيامى فى عهد

(٨) السُّركُ : تم ضبط الاسم على تاريخ الفتاش وتاريخ السودان . وقد ورد فى الترجمة الفرنسية لكل منهما Sorko مثلما كتبها پانيكار . «فقال الشيخ فما الذى ملكهم لى سائغ فقال الشيخ الأولى قبيلة جَنْدِكتَ .. والثانية قبيلة جَمَ وَلِ .. والعاشرة تسمى بِسُركُ ..» تاريخ الفتاش ، الصفحة ١٤ . ووردت كذلك فى تاريخ السودان ، الصفحتان ١٠٤ و ١٢٩ .

(٩) تَلْبُرى وِبَنْتيا : تقع بَنْتيا على مسافة ١٥٠ كيلو مترا إلى الجنوب من غاو ، أى فى أول منطقة تركز فيها السنغى ، وهى تلبرى - أُسْتُغْ .

(١٠) كوكيا : وردت فى تاريخ الفتاش كوكيا وكوكى وكُيْكى وكوكيه : ووردت فى تاريخ السودان كوكيا . « ... وصلى العيد فى كوكيا .. » تاريخ الفتاش ، الصفحة ٤٦ . « .. هرب من جزائر المحيط إلى كوكى... » المرجع نفسه ، الصفحة ٥٨ .

« .. ومكث فى السلطنة تسع سنين فى بلد كُيْكى . » الصفحة ٩٢ . «...الباشا محمود لم يزل فى كُوكِيَّة.» الصفحة ١٦٩ .

« ... حتى انتهى بهما القدر إلى كوكيا .. » تاريخ السودان ، الصفحة ٤ .

(١١) أنظر الحاشية ٤ - ٧ أعلاه .

(١٢) تاريخ السودان ، الصفحة ٦ .

منسا موسى ، واستطاع على كلن الذى أصبح «زا» أن يؤكد استقلال السنغى .
ولابراز هذا الحديث قرر الإثنان أن يُعرفا مستقبلا على أنهما أسرة سنّ^(١٣) .
ولايعرف عن على كولن أكثر من أنه نجح فى تحرير السنغى . ولم تكن بولة السنغى
حتى ذلك الوقت شديدة الاتساع ، بل إن مارى جاطة سلطان مالى قام بغزو غاو
مرة أخرى .

ولم يكن باستطاعة السنغى توسيع رقعة بولتهم إلا فى أثناء فترة الفوضى التى
أعقبت وفاة موسى الثانى . ويرجع إلى مادغ^(١٤) الفضل فى صعود قوة السنغى ،
فقد حرر مادغ أربعاً وعشرين قبيلة تستعبدتها مالى ، ولكن بينما أصبح أبناء
بعضها أحرارا ، فإن أبناء البعض الآخر ظلّوا ملوكا للدولة . وأفادت الحملة أيضاً أنه
استطاع جمع أسلاب كثيرة ، وبفضل هذه الأسلاب ازدهرت إمبراطورية السنغى .
ومنذ ذلك الوقت أخذت رقعة غاو تتسع فى بطة ، ولكن باطراد ، حتى أيام سنّ على .

كان سنّ على فاتحاً عظيماً ، وفيه اتحدت أعراف الإسلام والوثنية ، التى كانت
تمضى متلازمة وسببت قدراً هائلاً من إراقة الدماء فى غرب إفريقية . فأمه كانت
وثنية ، فى حين كان أبوه مسلماً . ولذا وُحِدَ فى داخله فكرة ملك مقدس وفكرة زعيم
دينى ، واستطاع على الفور أن يصبح سلطاناً وملكاً ساحراً .

(١٣) سنّ : وتكتب أحياناً « شى » ، ومعناها خليفة السلطان .

« ثم بعد شى باردل يُنْبُ ثم شى مادغو ثم شى محمد كوكيا ثم شى محمد فار .. » تاريخ الفتاش ، الصفحة ٤٢ .

« وأما سن الأول على كلن فكان من قصته ... » تاريخ السودان ، الصفحة ٥ .

[يقول پانيكار فى الفصل السابق « مالى وتدعيم البولة الإسلامية إن هذين الأميرين قد قرأ فى عهد
منسامغا ابن منسا موسى وليس فى عهد منسا موسى نفسه ، انظر الحاشية ٢-٦٥ .]

(١٤) مادغ : وردت فى تاريخ الفتاش مادغو ومادغ ؛ ووردت فى تاريخ السودان محمد داعوا .

تاريخ الفتاش : « ... ثم شى مادغو ثم شى محمد كوكيا ... » « الصفحة ٤٢ » .. وكذلك هو ورثهم من
شى مادغ .. ، الصفحة ٥٥ .

تاريخ السودان : « ... وفى سنة ... توفى سن على بن سن محمد داعوا ... » ، الصفحة ٧١ .

وينظر إليه مؤرخا السودان ، عبد الرحمن السعدى ومحمود كعت ، باعتباره حاكما فاجرا . يقول تاريخ السودان : « أما الظالم الأكبر والفاجر الأشهر سن على . . فإنه كان ذا قوة عظيمة وممتنة جسيمة ظالما فاسقا متعدياً متسلطا سفاكا للدماء قتل من الخلق ما لا يحصيه إلا الله تعالى ... »^(١٥) ويمضى تاريخ السودان قائلا : « ومن أخلاق هذا الظالم الفاسق التلاعب بدينه يترك خمس صلوات إلى الليل أو إلى الغد ثم يومى قاعداً مراراً متكررة ذاكرا أسماعهم ثم يسلم تسليمة واحدة... »^(١٦) ثم أنه (حتى فى يوم الجمعة) لم يكن يشاهد لا هو ولا أحد ممن حوله فى المسجد الجامع أو فى أى مسجد آخر . وخوفا منه لم يكن آلاف الرجال والنساء الذين يقيمون داخل قصره يصومون أو يصلون فى شهر رمضان ، كما أنه لم يكن يحفظ الفاتحة ، أو أية سورة أخرى من القرآن ، عن ظهر قلب . وكان عدم المبالاة يغلب عليه فى صلواته ، فلا يسجد أو يتهدج أو يظهر الخشوع . ولم تكن علاقاته مع النساء يحكمها زواج أو تنظمها رابطة أخرى يقرها الإسلام . وإذا ما راقت له امرأة أخذها إلى قصرة ضاربا عرض الحائط بزوجها أو أسرتها . وكان يسمح بنهب المسلمين وذبحهم . « فإنه كان سفاكا للدماء قتل من الخلق ما لا يحصيه إلا الله تعالى وتسلط على العلماء والصالحين بالقتل والإهانة والإذلال ... »^(١٧) ومع ذلك يشير تاريخ الفتاش مرار إلى الأماكن التى كان سنّ على يؤدى فيه الصلاة فى رمضان والأعياد .^(١٨)

(١٥) تاريخ السودان : الصفحة ٦٤ .

(١٦) المرجع نفسه . الصفحة ٦٧ .

(١٧) المرجع نفسه ، الصفحة ٦٤ .

(١٨) « وطلع على شى على شهر رمضان فى بنبر وصلى العيد فى كُتْبَع... ومضى إلى تَمْسَع وطلع عليه رمضان فى تَمْسَع وصلى فيها العيد ... ورجع إلى تَمْسَع وطلع عليه شهر رمضان فى تَمْسَع وصلى العيد فيها .. ثم مضى ورجع إلى كاع .. وطلع عليه شهر رمضان وصلى العيد فيه .. وطلع عليه شهر رمضان فى منصور وصلى العيد فى كوكيا .. » تاريخ الفتاش ، الصفحتان ٤٥ و ٤٦ .

وهكذا فإن ما يؤخذ على سنّ على أنه لم يكن مسلماً صحيح العقيدة، وأنه لم يكن مستعداً لاضطهاد الوثنيين ومكافأة المسلمين بصرف النظر عن أهليتهم . بيد أن تاريخ الفتاش يذكر أيضاً أنه كان يحتفظ بسجل دقيق للعلماء ، وينظر إلى درجة استحقاقهم ويمنحهم عطايا كبيرة .^(١٩) كذلك لا ينبغي أن ننسى أن عبد الرحمن السعدي ومحمود كعت قد مجّداً الأساكي «سلاطين السنغى» فى كتابيهما ، ولم يكن ممكناً أن يتم ذلك إلا بالخط من شأن سنّ على .

وقد اعتلى سنّ على العرش فى عام ١٤٦٥ ، وكان عهده الذى استمر سبعة وعشرين عاماً حروباً متواصلة أسفرت عن توسيع الإمبراطورية فى كل اتجاه . ويقول تاريخ الفتاش إن النصر كان دائماً حليف سنّ على ، وأنه لم يعرف الهزيمة أبداً.^(٢٠) وكانت قوة السنغى أشد وطأة على الدولة القبلية الوثنية ، دولة موسى - الذين ربما كانوا الشعب الوحيد الذى قارب أن يكون قومية فى غرب إفريقية . وقد هزم نعر الأول ، الذى يشير إليه تاريخ الفتاش على أنه كُمداع^(٢١) ، فى كُب ، وهى قرية صغيرة بالقرب من بحيرة ديبو ، وطارد موسى حتى بمبرة ، ولكنهم أفلتوا من الدمار ، واستطاعوا أن يحافظوا على قوتهم والتفهم فى حالة طيبة انتظاراً لفرصة أفضل . وذلك لأنه على الرغم من أن إمبراطورية السنغى كانت

(١٩) «وبعد رحيل الفقهاء إلى بير قلد القضاء الفقيه القاضى حبيب حفيد السيد عبد الرحمن التميمى وبانغ فى تعظيم ابن عمه المأمون والد عماراد المأمون حتى لا يقول له إلا أبى وبعد موته حين شرع الناس فى ذكر مساويه يقول المأمون لا أقول فى سنّ على سوء إلا أنه أحسن إلى ولم يعمل فى سوءاً كما عمله فى الناس لا يذكره بحسن ولا قبيح فعظم قدره عند أبى البركات الفقيه محمود بذلك لأجل عدالته ..» تاريخ السودان ، الصفحة ٦٦ .

«ومع هذه الإساءة كلها التى يفعل بالعلماء يقر بفضلهم ويقول لولا العلماء لا تطو الدنيا ولا تطيب ويفعل الاحسان فى آخرين ويحترمهم ...» المرجع نفسه ، الصفحة ٦٧ .

(٢٠) «وكان منصوراً وما قابل أرضاً قصده إلا خريه وما كسر له جيش كان فيه قط غالباً غير مغلوب لم يترك بلداً ولا مدينة ولا قرية من أرض كنت إلى شيردك إلا وقد جرى خيله فيه وحارب أهله وغار عليهم ...» تاريخ الفتاش ، الصفحة ٤٣ .

(٢١) تقول حاشية فى الصفحة ٨٥ من الترجمة الفرنسية لتاريخ الفتاش إن كلمة كمداع ربما كانت اسم العائلة لنعر الأول أى لقبه .

قوية فإن موسى كانوا شعبا أكثر اتحادا ويتمتع بتماسك تفتقر إليه الشعوب الأخرى في غرب إفريقيا.^(٢٢) وخلال الأعوام الثلاثة التالية أخضع سنّ على الشعب الوثني في جبل هُنْير^(٢٣) الذي كان الدوجون أبرز قبائله . وأثبت المعقل الجبلي الذي احتمت به القبائل أنه مكان يتعذر اقتحامه ، وقنع سنّ على بأن منع هذه القبائل من اكتساح السهول . وتقول بعض المصادر إنه استدار بعد ذلك ضد الفولاني لأنه شعر بتزايد خطرهم وسحقهم تماما .

وكرّس سنّ على الأعوام الثلاثة التي تلت ذلك لمحاولة غزو ولايات مثل بيدان وتُنْد وتُسْك وغيرها . وقُتل أسكى بغن ، أحد قادته البارزين ، في أثناء حربه مع الطوارق في أَرْوَت^(٢٤) . وعلى الرغم من الهزائم المتكررة التي لحقت بالموسى والطوارق فإنهم لم يكفوا عن القتال . وقد تمكن الطوارق في عام ١٤٣٣ من انتزاع تمبكت من مالى ، ونصبوا عليها حاكماً تابعاً لهم . واعتاد هذا الحاكم ، محمد نصّ، أن يدفع للطوارق جزية مقدارها ثلث موارد المدينة .^(٢٥) وعندما ارتقى سنّ على العرش بعث إليه محمد نصّ بخطاب تهنئة . وفي عام ١٤٦٥ توفي نصّ وخلفه ابنه

(٢٢) «وسمع بخبر سلطان موسى المسمى كَمْدَاغَ وارتحل من دير والتقى في كُب وهزم جيشه وتبعه إلى بَنَبَر ونجا بنفسه حتى دخل في بلده في دار مملكته المسمى ارقم ... تاريخ الفتاش ، الصفحة ٤٥ .

«وطلع عليه شهر رمضان في بلد نعسر من بلاد موش وصلى العيد فيه ... المرجع نفسه ، الصفحة ٤٦ .

«وفي السنة الرابعة غزا غزوة نعسر وهو سلطان موش ومشى معه .. فأمره أن يجعلها جهادا في سبيل الله تاريخ السودان ، الصفحة ٧٤ .

(٢٣) «وبلد أبيهما همير ... تاريخ الفتاش ، الصفحة ١٤٠ .

«... وغزى إلى جبل همير وما والاها ... المرجع نفسه ، الصفحة ١٨٣ .

(٢٤) «... ثم دخل في أثر بيدان حتى انتهى إلى داع .. وقاتل أهل تُنْد وهزم تُسْك جيش أسكى بغن... وخرج بجيشه إلى أَرْوَت وقت غزوته ومات أسكى بغن وارتحل شى عال إلى تُسْك ... » المرجع نفسه ، الصفحتان ٤٥ و ٤٦ .

(٢٥) «فأول من ابتدأ فيه الملك كما تقدم أهل ملى .. ثم طوارق مغشرين ودولتهم أربعون عاما وتاريخه من عام سبعة وثلاثين في القرن التاسع (١٤٣٢م) ... ثم سنّ على ... وفوض أمر البلد على تنبكت كى محمد نصّ وهو منهاجى ... وكل ما جاء من الغرامة فلتنبكت ثلثها عادة .. فبعث لسنّ على سُرّا أن يأتى حتى يمكن له تنبكت فتملكه .. تاريخ السودان ، الصفحات ٢٢ و ٢٣ و ٢٤ .

عمر الذى أرسل إلى سنّ على خطابا حافلا بالتهديدات يقول فيه إن تحت تصرفه قوات تكفل له مواجهة أى غزو ، ولكنه سرعان ماتراجع عن تهديداته لأن الرئيس الطوارقى أكل أكملول أبدى استياءه لأنه لم يكن يحصل إلا على ثلث الموارد فقط ، وأخذ يشن غارات على تمبكت لنهب التجار واغتصاب النساء . وإزاء ذلك الشطط استغاث عمر بغاو . وكان سنّ على يتحين الفرصة فظهر على رأس جيش كبير . (٢٦) وعند ما أحس أكل باقتراب جيش غاو أخذ فى التقهقر ، وتذكر عمر خطابه ورأى أنه من الأفضل أن ينضم إلى الطوارق تاركا المدينة فى أيدي أخيه المختار الذى خضع لسنّ على . ودخل سنّ على تمبكت فى عام ١٤٦٨ .

وكانت تمبكت فى ذلك الوقت مدينة يغلب عليها الإسلام ، وأثر علماؤها المسلمون مغادرتها مع أكل . وعامل سنّ على فقهاء المسلمين باعتبارهم أصدقاء للطوارق ، وحقّرهم بكل وسيلة ممكنة . (٢٧) وأختطف فى تمبكت ثلاثون عذارى مسلمة ، وأرسلن إلى كابرّ على بعد ثمانية أميال ، وأمرن بالعودة سيرا على الأقدام ، وعندما عجزن عن السير قتلن جميعا . (٢٨) كما قُتل المسلمون الذين حاولوا الفرار ، ونُهبت المدينة . ويرى السعدى أن ما عوملت به تمبكت أشد مما عاملها به موسى فى عام ١٣٣٣ ، أو المراكشيون فى عام ١٥٩١ .

(٢٦) « ولما تولى السلطنة كتب له تنبكت كى الشيخ محمد نض كتابه بالسلام والدعاء له وطلب منه أن لا يخرج باله معه لأنه من جملة عياله ولما توفى وتولى ابنه عمر كتب له بعكس ما كتب أبوه وقال له ... وجميع القوة متوافرة عنده ومن تعرض معه يرا ما معه من تلك القوة ... ودخل (سنّ على) فى تنبكت فى رابع رجب الفرد أو خامسه وهى خامس سنة من دخوله فى السلطنة عمل فيها فسادا عظيما جسيما فحرقها وكسرها وقتل فيها خلقا كثيرا ... تاريخ السودان ، الصفحتان ٦٥١٤ و٦٥١٥ . [عمر أورده بانيكار Amer .]

(٢٧) «وتسلط على العلماء والصالحين بالقتل والإهانة والإذلال ...» تاريخ السودان ، الصفحة ٦٤ .

(٢٨) «... وأمر يوما باتيان ثلاثين من بناتهم الأبنكار ليتخذهن جواريات وهو فى مرسى كبر وأمر أن لاياتن إلا على أرجلهن ما برزن من الخدور قط وخدامه معهن يسوقهن حتى وصلن موضعا عجزن عن المشى بالكلية فبعث له بخبرهن فأمر بقتلهن فقتلن جميعا والعياذ بالله ...» المرجع نفسه ، الصفحة ٦٦ . [كبر هى كابرّ ، وقد كتبها بانيكار Kabara ووردت كذلك فى الترجمة الفرنسية . وسماها ابن بطوطة كَابَرَة ، تحفه النظار ، طبعة بيروت ، الصفحة ٦٩٠ .]

وبعد أن حطم سنّ على قوة الطوارق قرر أن يسحق الموسى القوة الرئيسية الأخرى في ذلك الوقت . وقد ألحق بهم الهزيمة ، ولكنهم انسحبوا إلى بمبرة. (٢٩) وفي عام ١٤٦٩ عابوا مرة أخرى يمارسون التهديد ، فهزمهم السنغى وطاربوهم حتى عاصمة ياتنجا . ولكن الموسى لم يكونوا قد قهروا بعد . وفي العام التالي قام سنّ على بشن حملة على الطوارق فألحق بهم هزيمة سهلة إلى الشمال من تمبكت . وفي عام ١٤٧٠ سار إلى بركنّ عاصمة ياتنجا حيث كان في انتطاره نصر حاسم . ودمر سنّ على المدينة وأخذ عددا كبيرا من الأسرى . ولكن الموسى واصلوا القتال ، وتحرك ضدهم جيش بقيادة هيكيّ حقق نجاحا مماثلا في الميدان ، ولكنه أخفق مرة أخرى في تحطيم مقاومة الموسى . وقام جيش ثالث بمهاجمة الفولانى في ماسنة وتمكن من سحق قوتهم. (٣٠) ولم تكن لدى سنّ على أية ثقة في الفولانى ، ولم يشغل أحد منهم في عهده أى منصب فى الإدارة أو القضاء . وظل الفولانى منذ ذلك الحين وحتى سقوط إمبراطورية السنغى أتباعا يتعرضون للإغارة عليهم باستمرار من أجل الرقيق . وبعد ذلك تحولت الجيوش الثلاثة إلى چنى ، لأولوة لينچر ، التى كان الحصار مفروضا عليها باستمرار منذ بداية حكم سنّ على . وواجه جيش سنّ على بعض المقاومة من حكام المقاطعات ، ولكنه هزمهم بسهولة ووصل إلى چنى. (٣١) وظل حاكم

(٢٩) « وسمع بخبر سلطان موسى المسمى كمدع وارتحل من دير والتقى فى كُب وهزم جيشه وتبعه إلى بَنَبَر ونجا بنفسه حتى دخل بلده فى دار مملكته المسى ارقم ... » تاريخ الفتاش ، الصفحة ٤٥ .

(٣٠) « ومضى إلى بركنّ مدينة التى فيها دار مملكة موشكى وبمرها وأسر أهلها وقتلهم شر قتلة ثم خرج إلى ملّ وهربوا ولم يدركهم ورجع وجهز جيشا عظيما وجعل هيكيّ يعنّ أمير الجيش إلى قتل تنكّ يعمّع وقتلوه ورجع الجيش إليه وارتحل بهم إلى كِكِر ... وقاتل أهل جنّ وقاتل أهل ملّ مرتين ثم مضى وحمل الفلاتيين إلى كوكو ...» المرجع نفسه ، الصفحتان ٤٦ و ٤٧ . [بركنّ Barkona : موقع ياتنجا ؛ موشكى Mossi - Koi : سلطان الموسى ؛ ملّ Moli اسم إحدى قرى الموسى ؛ هيكيّ يعنّ Hikoi Yate ؛ تنكّ يعمّع Tanga - niama : كلمة « تنكّ » تعنى بالموسى أرضا أو مدينة ؛ چنّ هي چنى ؛ تلّ هي مالى .]

(٣١) « ... ومن حين كانت المدينة (چنى) ما غلب أحد أهلها من الملوك إلا سنّ على وهو الذى طوعهم وملكهم بعدما حاصروهم فى تلك المدينة سبع سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام على ما قال أهلها ومحلته فى زَبَر يُقاتلونهم كل يوم حتى يدور بهم البحر فيرتحل بجيشه إلى وضع يقال له نَبْكه شن سميت كذلك لأجل مكثه فيها فيمكنون هناك ويحرثون إلى أن ييبس الماء فيرجعون إلى زَبَر للمقاتلة وهم كذلك إلى العدد المذكور من الأعوام ... حتى وقعت المجاعة فى أهلها ونقصت قوتهم .. ثم شاور السلطان قيادة وكبراء جيشه فى التسليم لسنّ على فوافقوه على ذلك...» تاريخ السودان ، الصفحة ١٤ .

چنى يقاتل سنّ على طيلة الشهور الستة التالية ، بيد أن المياه ارتفعت فى نهر النيجر وفرقت بين الجانبين . ومع ذلك حاصر سنّ على المدينة بأربعمائة قارب . وتحطمت معنويات جيش چنى ، ودخل سنّ على المدينة مظفرا . (٣٢)

وعوملت چنى على تقيض واضح لما عوملت به تمبكت ، فلم تكن چنى مدينة يمسك فيها العلماء وأنصارهم من أبناء القبائل الصحراوية بزمّام السلطة ، وإنما كانت مدينة زنجية أبدت مقاومة جبّارة للحفاظ على استقلالها . وعومل حاكم چنى معاملة النّد ، ودعاه سنّ على لمجالسته فوق بساطه . (٣٣) ولم تنهب چى ولا عوملت كمدينة مهزومة . وبعد تأكيد حاكم چنى كتابع للسلطان عاد هذا الأخير إلى غاو وأنعم بالهدايا على كثيرين ، وواتى جدّ عبد الرحمن السعدى حظاً إذ حصل على جارية من الفولانى . (٣٤)

وكرّس السلطان السنوات الأربع التالية (١٤٧٢ - ١٤٧٦) لتنظيم الإمبراطورية وتدعيمها . وفى الوقت الذى تم فيه إخماد القلاقل فى منطقة البحيرات ، كان الوثنيون فى جبل هنبر يتعرضون للهجوم بانتظام .

وما إن حل عام ١٤٧٧ حتى عاد موسى يهدنون من جديد ، واكتفوا فى ذلك العام بنهب ولّاته ، المركز التجارى العظيم فى الصحراء الغربية ، ثم نهبوا المنطقة

(٣٢) « فما أصبح حتى فاض البحر واحاط بالبلد وحال الماء بينهما وحصرهم شى بأربعمائة سفن لئلا يخرج خارج ولا يدخل داخل ثم مافارقهم إلا أن قهرهم وملكهم ودخل فى سورهم ... » تاريخ الفتاش ، الصفحة ٥٠ .

(٣٣) « ... فبعث الرسول إليه بذلك فأتعّم وقبل ثم خرج إليه مع كبراء جيشه فلما قرب إليه نزل ومشى إليه برجله فلقبه بالترحيب والإكرام فلما رآه شاباً حديث السن قبضه واجلسه إلى جنبه فوق بساطه ... هذا هو السبب فى مجالسة سلطان سغى مع سلطان چنى على بساط واحد ... فبعث سنّ على حصان سرجه لركوب زوجته إليه فى المحلة فلما وصلتته رد الحصان لسلطان چنى عطيةً مع جميع آلاته وهى عند أهل چنى إلى الآن .. » تاريخ السودان ، الصفحتان ١٤ و ١٥ .

(٣٤) « ويفعل الإحسان فى آخرين ويحترمهم ولما غار على الفلانيين من قبيلة سنفتير بعث كثيراً من نسائهم لكبراء تنبكت وبعض العلماء والصالحين هدياً لهم وأمرهم أن يتخنّوهم جوارى فمن لا يرعى أمر دينه اتخذها كذلك ومن يرعى أمر دينه تزوج منهم جد جدتى أم والدى السيد الفاضل الخير الزاهد الإمام عبد الله البلبالى تزوج التى بعثها له واسمها عايشة الفلانية المرجع نفسه ، الصفحة ٦٧ .

بأكملها وسقطت ولاته فى أيديهم . (٢٥) وفى ذلك الوقت فكر سنّ على فى شق قناة من رأس الماء على شاطئ بحيرة فاجيبين إلى ولاته بتحويل النيجر إلى أحد مجاريه السابقة . ومرماه من ذلك هو إيقاف غارات الموسى لأن طريق المواصلات كان يمكن السنفى من تركيز قواتهم على وجه السرعة . ولكن ذلك لم يخرج إلى حيز التنفيذ ، لأن حركة الموسى كانت بطيئة وهم فى طريق العودة بسبب ضخامة الأسلاب والرقيق ، فهاجمهم سنّ على وأرغمهم على الفرار . (٢٦)

وفى عام ١٤٨٤ أغار سنّ على مرة أخرى على اللوجون (٢٧) . وفيما بين عامى ١٤٨٨ و ١٤٩٢ حارب الفولانى والطوارق وكُرم ، وتوفى وهو فى طريق عودته من حملة كُرم . (٢٨) ويعتقد دبلافوس ، استناداً إلى السعدى ، أنه غرق أثناء عودته من كُرم ، وإن تكن الأنهر لا تفيض فى نوفمبر . ولا يقول الفتاش أكثر من أن سنّ على مات فجأة ، قضاء وقدر . (٢٩) وربما كان لمحمد الطورى علاقة ما بهذه الميتة المفاجئة .

(٢٥) « ... ودخل كُبر سنة اثنين وثمانين وثمانمائة . (١٤٧٧م) وهى السنة التى دخل موش فى سام .. وخرج من كُبر سنة خمس وثمانين وثمانمائة وفيها دخل موش فى بير .. حاصره شهر .. المرجع نفسه ، الصفحتان ٦٨ و ٦٩ [بير الواردة هنا هى ولاته عند السنفى] .

(٢٦) « ثم شرع فى حفر بحر رأس الماء للوصول إلى بير فى البحر وهو يشتغل بذلك بالجد والاجتهاد فى قوة عظيمة فإذا الخبر جاءه أن موشكى عزم إليه فى جيشه بغزو ... فرجع لملاقات موشى كى فالتقى معه ... فاقتتلوا هنالك فهزمه سنّ على وهرب وتبعه حتى نخل فى حد أرضه ... » المرجع نفسه ، الصفحة ٧٠ .

(٢٧) اللوجون : قبيلة زنجية تعيش فى المنطقة الجبلية حول بانديا جارا وهمبرى على بعد ١٢٠ ميلا جنوب غرب تمبكت ، حيث كانوا يحتفظون بطابية محصنة للوثنية فى مواجهة ضغوط الإمبراطوريات الإسلامية .

(٢٨) « ... ثم غزا كُرم فغلبهم وخربهم وهى آخر غزوته ... وفى سنة ثمان وتسعين وثمانمائة (١٤٩٢م) توفى سنّ على بن سنّ محمد داعوا راجعا من غزوة كُرم بعد ما حارب الزغرائيين والفلانين وقتلهم ولما وصل بلاد كُرم فى رجوعه أطلق عليه سيل هنالك فى الطريق يسمى كُنْ فهلكه ... » تاريخ السودان ، الصفحتان ٧٠ و ٧١ .

(٢٩) « وشى حينئذ فى بلد يقال له قُنْ من بلد الحجر فمات فى يومه وأهلكه موت الفجأة فلما تحقق جنده بموته دفنوه فى مكانه ... وكان موته فى شهر المحرم افتتح سنة الثامن والتسعين بعد ثمانمائة من الهجرة (١٤٩٢م) انتهى وفى بدر الحسان فى أخبار بعض ملوك السودان أن موت شى عال كان فى سنّ تسع وتسعين من القرن الثامن فمكث فيها سبعا وعشرين سنة وأربعة أشهر وخمسة عشر يوما ... » تاريخ الفتاش ، الصفحتان ٥١ و ٥٢ .

لم يكن سنّ على حاكما عظيما فقط ، بل كان إدارياً عظيما أيضا ، ويفضل المؤرخون إظهاره كحاكم جبار ، وأن يعزوا الفضل كله إلى أسكيا محمد . وهكذا فإن الانتصارات التي حققها سنّ على تنسب إلى عبقرية محمد الطوري ، وبالمثل ينسب كل ما قام به من تنظيم إداري للإمبراطورية إلى أسكيا محمد .^(٤٠) ولكن محمد الطوري لم يمكن سوى واحد من القواد ، وربما كان دندفار أفتب أكثر امتيازاً ، بل إن محمد الطوري عمل تحت إمرة دندفار أفتب .^(٤١)

كانت حملات سنّ على موجهة في المقام الأول ضد الوثنيين وفي مقدمة هؤلاء جمعيا الدوجون والفولاني والكُرم أعداؤه الأساسيون ، في حين كان العدو الذي يتعين عليه مواجهته هو الطوارق البدو الذين كانوا خطراً دائماً على السكان المستقرين على الرغم من اعتناقهم الإسلام . وهكذا كان سنّ على بتحطيمه قوة الوثنيين أحد المهندسين الرئيسيين لصرح القوة الإسلامية . ومع ذلك كان من كبار المشتغلين بالسحر ، وطبقت شهرته كساحر الآفاق . وقد عرف منحني النيچر ، لاسيما بالقرب من غاو ، ممارسة السحر . ويقال إن أحد الفراعنة حصل على ساحر من هذه المنطقة .^(٤٢) وعلى أية حال فقد أصبحت ماثورات السحر المحلية مرتبطة بالإسلام، ومن الممكن أن يكون سنّ على ساحراً ومسلماً صالحاً في آن واحد ، وهو ليس المسلم الوحيد الذي انغمس في السحر . من ذلك أن مايات^(٤٣) البرنو بدورهم

(٤٠) «فتولى ابنه أبو بكر داعو السلطنة في بلد دَنَغ وكان الأسعد الأرشد محمد بن أبي بكر الطوري وقيل السلنكي من كبار قياد سنّ على فلما بلغه ذلك اضمر في نفسه الخلافة وتحيل في ذلك بأمور كثيرة فلما فرغ من إبرام حبل تلك الحيل توجه إليه فيمن كان معه من خواصه فغار عليه في البلد المذكور ... فانهزم جيشه وولى هارباً حتى وصل قرية يقال لها كافي وهي بقرب كاغ فوقف هناك حتى جمع عليه جيشه ثم التقى معه فيها فجرى بينهما حرب شديد وقتال عظيم ومعركة هائلة حتى كادوا يتفانون ثم نصر الله تعالى الأسعد الأرشد محمد بن أبي بكر وهرب سنّ أبوبكر داعو ... إلى أن توفي فتملك الأسعد الأرشد يومئذ فكان أمير المؤمنين وخليفة المسلمين ...» تاريخ السودان ، الصفحتان ٧١ و ٧٢ .

(٤١) «ثم ارتحل إلى بحر لول وجمع جيشاً كثيفاً وأخرج دندفار أفتب وجعله أمير ذلك الجيش ... ثم جهز جيشاً وأرسل دندفار أفتب إلى قتل بيدان في بلد نُون ومضى فارن أفتب إلى دند لأمر أرسله شى عال به ...» تاريخ الفتاش ، الصفحتان ٤٦ و ٤٧ . [دندفار أفتب : دند مقاطعة بأقصى جنوب السنغى ؛ فار أوفارى بمعنى حاكم أو رئيس . وبذا فإن دندفار أفتب يعنى أفتب حاكم دند .]

(٤٢) «حتى انتهى بهما القدر إلى بلد كوكيا وهو قديم جدا في ساحل البحر في أرض سنغى كان في زمن فرعون حتى قيل حشر منه السحرة في مناظرته مع الكليم عليه السلام» تاريخ السودان ، الصفحة ٤ . [المقصود بالكليم سيدنا موسى عليه السلام.]

(٤٣) مايات البرنو : مايات جمع ماى ومعناه السلطان ، والمقصود هنا سلاطين البرنو [أنظر ، الفصل السادس أدناه .]

اشتهروا بالسحر . ويشير ملفانتي إلى أن أحد حكام ولايته كان يستطيع عن طريق السحر التغلب على من يغزو بلده . بل إن الحاج عمر كان يوزع التماثيل على جنوده لحمايتهم من العدو .

وعقب وفاة سنّ على تولى السلطنة ابنه سنّ بار^(٤٤) . ويقول محمود كعت إن سنّ بار لم يكن مسلما ، فقد رفض اعتناق الإسلام على الرغم من أن العلماء طلبوا إليه ذلك ثلاث مرات .^(٤٥) وقدم الوزراء جميعا الولاء لسنّ بار ماعدا وزير واحد.^(٤٦) وبعد أربعة أشهر من ولايته ثار ضده محمد الطوري . وتمكن الملك بمؤازرة جميع أتباع الإمبراطورية وأمرائها من هزيمة الأسكيا ، ولكن الأسكيا انتصر في معركة ثانية . أما دندفار أفنب الذي قاد جيوش سنّ بار فقد وجد ميتا في النيجر ، وتقهقر سنّ بار إلى أير^(٤٧) ، التي تقع

(٤٤) هو نفسه أبو بكر داعو . [أنظر الحاشية ٤ - ٤٠ أعلاه .]

(٤٥) « مانزل القتال بينهما قط إلا بعد ما أرسل العالم الولي ... إلى شى بار يدعوه إلى الإسلام ... وامتنع وهم بقتله ... ورجع إلى أسكى محمد وبلغه الخبر من إباية شى بار وما فعل به وبعد ذلك أرسل اسكى محمد العالم الصالح ... ألفا صالح جور إلى شى بار أيضا ثانيا وأتاه وبلغه رسالة أمير اسكى محمد فما زاد إلا عتوا وإباية وامتناعا وتجبرا ... ولما بلغ الأمير اسكى ما رأى من شى بار جمع أهل مشورته ... وشاورهم فيما يفعل هل يقاتل شى بار أو يرسل إليه ثالثا واتفقوا على أن يرسل إليه رسولا ثالثا يداريه ويلين له الكلام .. فأرسلنى إليه أى أنا الفقير المحتاج الفع كعت ... وبلغته رسالة أمير المؤمنين اسكى ... وتلطفت له رغبة فى أن يهديه الله وامتنع وتغيظ ... تاريخ الفتاش ، الصفحتان ٥٤٣ و٥٤٤ . [الفقير المحتاج الفع كعت المشار إليه فى هذه الفقرة هو محمود كعت مؤلف تاريخ الفتاش ، هذا وقد سبقت الإشارة إلى أن كلمة الفع تعنى « الفقيه » ، وقيل « الفاهم » أيضا .]

(٤٦) « وله وزراء يومئذ تنيف على عشرة وزير .. وكلهم مع شى بار إلا منس كور وحده فإنه هرب إلى أمير اسكى محمد وبايعه وأما نرم كى سندی ... وغيرهم وهؤلاء المذكورين كل أمير بحدته له جيش عرمرم وكلهم مع شى بار » ، المرجع نفسه ، الصفحة ٥٤ .

(٤٧) « ثم تجهز أمير المؤمنين اسكى الحاج محمد وأمر بضرب الطبل واستجاش جيشه عليه فى ساعتئذ وكلهم بايعوه على الموت ثم ركب وتوجه بجيشه المنصور نحو شى بار فالتقى الجمعان ... وبخلت بين الجيش حرب عظيمة واعانه الله على شى بار وهزم جيشه ... وكان مع شى بار دندفار أفنب وهو من أشجع الناس رمى بنفسه يومئذ فى البحر ومات فيه .. ولما هزم الله جيشه هرب بنفسه إلى أير فبقى هناك إلى أن توفى فتملك الأرشد الأسعد يومئذ .. » المرجع نفسه ، الصفحة ٥٥ .

بين غَنغِيَّة^(٤٨) وتَلْبَرِي - الموطن الأصلي للسِنْفِي - وهناك أسس مملكة لم تعمّر طويلا (١٤٩٣ - ١٥٠٠) .

وقد كان محمد الطوري قائدا من السركلي ، ولكن أساطير السنفى تؤكد أنه ابن أخت سنّ على . كما يذكر تاريخ الفتاش أن سنّ على ومحمد الطوري لهما أصل مشترك.^(٤٩) إذ تقول الأساطير إن أخت سنّ على تزوجت بجنّي ، وظهرت نبوءات بأن ابنها سيكون سببا في وفاة أخيها . ولذلك كان سنّ على يقتل أبناءها واحد بعد الآخر ، ولكن من حسن طالع محمد الطوري أنه ولد في نفس الوقت الذي ولد فيه ابن إحدى وصيفاتها ، ووافقت هذه الوصيفة على أن تضع ابنها مكانه . وعندما شبّ محمد الطوري ذبح سنّ على ، ولما طالب أولاد سنّ على بالثأر طالبت أخته بدورها بالثأر لأولادها الستة . وكان لذلك ثلاثة جوانب ففي المقام الأول كان محاولة لإضفاء غطاء من الشرعية على الأسكيا بجعله ابن أخت سنّ على ؛ وكان ثانيا مسوغا شرعيا لاسكيا كي يقتل سيده ؛ وكان أخيرا تبريرا إضافيا لزيارة الأماكن المقدسة .

وتقول الأساطير إنه عندما وصلت أنباء اغتصاب السلطة إلى القصر صاحت أخوات سنّ قائلات أسكيا ومعناها المغتصب . ويقال إن القائد اتخذ هذه الكلمة لقبا لأسرته الحاكمة.^(٥٠) وعلى الرغم من أن السعدى يذكر هذه الرواية فإن كعت يقول

(٤٨) غَنغِيَّة : وردت في تاريخ الفتاش في صيغ مختلفة منها : كوكيا . الصفحتان ٤٦ و ٤٥ ؛ كوكي ، الصفحة ٥٨ ؛ كيكى ، الصفحة ٩٤ . ووردت في تاريخ السودان : كوكيا ، الصفحتان ٤ و ٩٩ . وغنغية هي العاصمة القديمة للسنفى . ثم حلت غلو محلها . وكثيرا ما كانت تستخدم مقرا للملوك بعد نقل العاصمة إلى غلو (بداية القرن الحادى عشر) .

(٤٩) السركلى : ويقال أيضا السونتكى أو الواكورى . [أنظر ، الحاشية ١ - ١٢٦ أعلاه .]

«فاعلم أن شى واسكى محمد ومور هوجار جدّ أهل مُورِكُبَر وفقهاؤها كلهم من أصل واحد» تاريخ الفتاش ، الصفحة ٤٨ . [شى هو سنّ على ؛ محمد الطوري هو أسكيا محمد .]

«فتولى ابنه (ابن سنّ على) أبو بكر السلطنة فى بلد دَنَغْ وكان الأسعد الأرشد محمد بن أبى بكر الطورى وقيل السَلَنكى من كبار قياد سنّ على ..» تاريخ السودان ، الصفحة ٧١ .

(٥٠) «ثم نصر الله الأسعد الأرشد محمد ابن أبى بكر وهرب سنّ أبو بكر داعوا إلى أين فبقى هنالك إلى أن توفى فتملك الأسعد الأرشد يومئذ فكان أمير المؤمنين وخليفة المسلمين ولما بلغ الخبر بنات سنّ على قالت أسكيا معناه فى كلامهم لا يكون اياه فلما سمعه أمر أن لا يلقب إلا به فقالوا أسكيا محمد ..» المرجع نفسه ، الصفحة ٧٢ . [بلدة «أين» الواردة فى هذا الاقتباس هى نفسها «أير» الواردة فى تاريخ الفتاش ، الصفحة ٧٠ ومواضع أخرى ؛ كذلك وردت «أير» فى تاريخ السودان . «وفى السادسة غزا إلى أير» ، الصفحة ٧٥ . أما فى الترجمة الفرنسية فقد وردت فى صيغة « أين Ayan » ، الصفحة ١١٧ ، و«أير Ayar » ، الصفحة ١٢٤ .]

إن أسكيا كان لقباً ، كما يقول إن أسكيا بغن أرسل على رأس حملة ضد تُسكُ ولكنهم أوقعوا به الهزيمة .^(٥١) وحاول الأسكيا في البداية الاعتماد على سحر سنّ، ولكن لما كان أبناء سنّ على قد أبطلوا مفعول جميع التعاويذ ، فقد عجز عن أن يفعل شيئاً .

وكانت المشكلة الأولى التي واجهت الاسكيا هي إضفاء الشرعية على اغتصابه السلطة . واستقر رأيه على أن أفضل وسيلة لذلك هي أداء فريضة الحج والحصول على اعتراف الخليفة به سلطاناً . ورأى أيضاً أن من الأمور الجديرة بالاهتمام العمل على استمالة المسلمين الذين يستحثون على جميع المناصب الإدارية الهامة ويسيطرون على الحياة الاقتصادية في البلاد . وقد حقق ذلك بالإنعام على العلماء والمرابطين بالرقيق والعطايا الكبيرة ، وبالحرص على إعلاء مكانة الإسلام في البلاط ، وأضفى على نفسه صفة أمير ورع ، وذلك لحمل العلماء على إدراك ما عاد به التغيير من مكاسب . وخلال أربع سنوات كان قد دعم سلطته بما يكفي لأن يترك أخاه كنفار عمر كنائب له وأن يخرج إلى أداء فريضة الحج .

ولم تترتب على أداء أسكيا محمد لفريضة الحج أية اضطرابات في البلاد . وقد صحبه في رحلته ثمانمائة فقط من رجاله ، وحمل معه ثلاثمائة ألف مثقال ذهباً من كنوز سنّ على .^(٥٢) ويزعم السعدى أنه كان أكثر سخاء في الأماكن المقدسة من منسا موسى .^(٥٣) ولكن ذلك يبدو مشكوكاً فيه لأن كرم موسى أصبح من قبيل الأساطير .

(٥١) « ... ثم اخرج أسكى بغن وأرسله إلى تسك فانظر اسم اسكى فى وقت شى وزمنه وهو بخلاف ما عليه جل الناس بأن أسكى محمد هو أول من لقب به وتسمى بذلك حتى ذكروا سبب تسميته وتلقيبه بذلك .. وهزم تُسكُ جيش أسكى بغن ... ومات أسكى بغن ... » تاريخ الفتاش ، الصفحتان ٤٥ و٤٦ .

(٥٢) « والجندى الذى ذهب بهم معه ألف وخمسمائة رجال خمسمائة فرسانا وألف رجلى منهم .. وأما المال فتلاثمائة ألف ذهباً الذى أخذه عند الخطيب عمر من مال سنّ على الذى تحت يده ... » تاريخ السودان ، الصفحة ٧٣ .

(٥٣) « فورخ أهل المشرق مجيئه ذلك وتعجبوا من قوته فى ملكه ولكن ما وصفوه بالجود والكرم لأنه ماتصدق فى الحرامين مع كثرة ملكه إلا بعشرين ألفاً ذهباً بنسبة ما تصدق به أسكيا الحاج محمد فىهما وهو مائة ألفاً ذهباً .. » المرجع نفسه ، الصفحة ٧ .

وفى مكة ابتاع حديقة وأقام تكية لينزل بها الحجاج القادمون من بلاد السودان.^(٥٤) وأمضى الأسكيا وقته بين العلماء والتقى بالسيوطى الذى تأثر كثيرا بآرائه ، واستطاع إغراء عائلة من الأشراف بمرافقته عند عودته . كما قدم الولاء للخليفة العباسى المتوكل الذى عينه من قبله واليا على بلادالسودان .^(٥٥) وهكذا فإنه بالنسبة للسودان أصبح الأسكيا هو السلطان الشرعى .

وواصل أسكيا محمد تدعيم مكانته بين العلماء . فكان أول حاكم فى غرب إفريقيا يرغب النساء على العزلة فى الحريم ، وأصبح على نساء الطبقة العليا ارتداء الحجاب . كذلك أخذ بوجهة النظر العربية بأن وضع الأب ، وليس الأم ، هو الذى يحدد ما إذا كان الطفل يولد حراً أم عبداً ، فكان الطفل الذى يولد لأب حر وأم جارية يعد حراً .^(٥٦) وأنعم على العلماء بعطايا سخية من بينها أعداد كبيرة من

(٥٤) « فتصدق الأمير فى الحرمين من ذلك المال بمائة ألف ذهبا واشترى جنانا فى المدينة المشرفة وحبسها على أهل التكرور وهى معروفة هنالك واتفق بمائة ألف واشترى السلع وجميع ما يحتاج إليه بمائة ألف ... ثم لقي كثيرا من العلماء والصالحين منهم الجلال السيوطى ... » المرجع نفسه ، الصفحة ٧٣ .

« فلما ملكه الله جميع أرض شى وتمكن فى السلطنة عزم على الذهاب إلى بيت الله الحرام ... وتهياً وخرج فى العام .. ومعه من الطعام ... ومن العبيد الخدام ثمانمائة عبد ورئيسهم ... وتصدق على فقراء الحرمين بمائة ألف دينار ذهبا واشترى بمثلها جنانا وبيوتا وحبسها على الفقراء والطعام والمساكين .. » تاريخ الفتاش ، الصفحة ١٦ .

(٥٥) « ولقى فى ذلك الأرض المبارك الشريف العباسى فطلب منه أن يجعله خليفته فى أرض سغى قرضى له بذلك وأمره أن يسلم فى أمرته التى هو فيها ثلاثة أيام ويأتيه فى اليوم الرابع ففعل وجعله خليفته وجعل على رأسه قلنسوة وعمامة من عنده فكان خليفة صحيحا فى الإسلام .. » تاريخ السودان ، الصفحة ٧٣ .

« حتى اتفق جميع علماء عصره على أنه خليفة وممن صرح له بذلك الشيخ عبد الرحمن السيوطى والشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلى والشيخ شمهروش الجنى والشريف الحسنى مولاي العباس أمير مكة ... وأما الشريف الحسنى مولاي العباس فكان مع أمير المؤمنين وخليفة المسلمين أسكى الحاج محمد جالسا بحذاء الكعبة يتحادثان فقال له الشريف مولاي العباس يا هذا أنت الحادى عشر من الخلفاء الذين ذكر رسول الله صلى وسلم ... ثم خرج يوم الجمعة ونادى أسكى الحاج محمد واجلسه بمسجد البلدة الشريفة مكة وجعل على رأسه قلنسوة خضراء وعمامة بيضاء وأعطاه سيفاً وأشهد الجماعة الحاضرين أنه خليفة بأرض التكرور .. » تاريخ الفتاش ، الصفحة ١٢ .

(٥٦) « وأمر لأهل موركيير أن يتزوجوا ماشاء فيتبعهم أولادهم وهو موجود إلى الآن لم يتبدل .. » المرجع نفسه ، الصفحة نفسها .

« ثم قال أسكى للشيخ المذكور فما حال من أدعى من هذه القبائل أنه ابن حرّ أو حرّة فقال الشيخ أما من ثبت أن أباه حرّ وأمه من هذه القبائل فملكه لك سائق وأما من ثبت أن أمه حرّة وأباه من هذه القبائل فان كان قد أقام فى دار أبيه وعمل بعمله فلك أيضا ملكه وان كان قد خرج من دار الأب إلى دار الأم فليس لك ملكه .. » المرجع نفسه ، الصفحتان ١٥١٤ .

الرقيق ومساحات ضخمة من الأرض . وفي عهده حدث التدعيم الحقيقي لمجتمع الرقيق في السودان . وتم تعيين شيخ للإسلام يقيم في تمبكت ، وتكون له السلطة العليا في أمور الدين جميعا . وكانت تمبكت في ذلك الوقت مدينة تسود فيها التأثيرات البوية الموريتانية ، وظلت كذلك لفترة طويلة . وهو بإنشائه منصب شيخ الإسلام ، الذي كان يشغله إما عالم موريتاني أو خاضع للنفوذ الموريتاني ، إنما كان يدمر إمبراطوريته . كذلك كانت له مراسلات مع السيوطي^(٥٧) ودعا المغيلي^(٥٨) إلى بلاطه كضيف رفيع المقام ، وهو الرجل المسؤول عن مذبحه يهود توات وعن اعتناق ممالك الهوسا للإسلام .

وهكذا كان أسكيا محمد التجسيد الكامل للروح الإسلامية في السودان . وبينما امتدح المؤرخون العرب منسا موسى سلطان مالي باعتباره داعية الإسلام في غرب بلاد السودان ، وأفاضوا في الثناء عليه ، فإن الأسكيا واتاه الحظ بأن امتدحه المؤرخون الذين عاصروه . وكان عائد تقواه ، أو ربما عائد إرضاء مطالب العلماء ، عائدا ضخما نسيت معه تماما جريمة قتله لسنّ علي ، وقبلت أسرته كصاحبة السيادة الشرعية . فضلا عن ذلك كان المؤرخون والعلماء ينتمون إلى هذه الطبقة التي استبدت بها مشاعر الكراهية تجاه علي بير^(٥٩) ولطخت إسمه ، في حين رفعت منزلة أسكيا محمد لا باعتباره قائدا عظيما فقط ، وإنما حاكما عظيما أيضا . بل إن بارث قال بعد ذلك بثلاثة قرون إنه أعظم الحكام الزنوج .

(٥٧) جلال الدين عبد الرحمن السيوطي : (١٤٤٥ - ١٥٠٥) ، ولد ومات بمصر . تنقل في الشام والحجاز واليمن والهند والمغرب طلبا للعلم . ونبغ في علوم كثيرة . انقطع عن الناس في الأربعين من عمره ليتفرغ للتأليف ، ووضع نحو ستمائة مصنف من أهمها الاتقان في علوم القرآن وحسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة . يعد الآن ، وبخاصة في أسقوط ، من الأولياء الصالحين .

(٥٨) محمد بن عبد الكريم المغيلي : توفي بتوات في عام ١٥٠٢ . فقيه إسلامي ينتسب إلى قبيلة مغيلة في تلمسان . عرف بمعاداته لليهود وبتنفيذه مذبحه لهم في توات في عام ١٤٩٢ ، وبعد ذلك جاء إلى غاو .

(٥٩) علي بير أي علي الكبير ، والمقصود هنا سنّ علي .

وفى عام ١٤٩٨ بدأ أسكيا محمد الجهاد ضد موسى لتوطيد مركزه كحاكم مسلم . فدولة موسى كانت تواصل الازدهار بون أن يطرأ عليها أى انكماش . لذلك قرر الأسكيا مهاجمتها ، فعن طريق اعتناق الكفار للإسلام يمكن تأمين أسرته ضد الخطر الذى يمثلونه . وتلقى نعسر إمبراطور موسى إنذاراً من الأسكيا يطلب منه فيه نبذ دينه واعتناق الدين الحق . ورد عليه نعسر بأن تلك مسألة لا يمكنه أن يتخذ قراراً بشأنها إلا بعد استشارة أرواح الأسلاف . «ثم مشى إلى بيت صمنهم مع وزرائه»^(٦٠) لأداء الصلوات ، وهناك أشارت عليه أرواح الأسلاف بالقتال . وكان نعسر يجد متعة وتسلية فى نهب إمبراطورية السنغى ، فأرسل رداً ينطوى على التحدى ، وهو رد كان يترقبه الأسكيا فقام بغزو ياتنجا.^(٦١) واستطاع موسى أن يقاتلوا قتالاً شديداً ، وفى النهاية حقق الأسكيا نصراً ، غير أنه كان واحداً من تلك الانتصارات الأقرب إلى الهزيمة والتى كثيرا ما حققها . ولم تكن لدى موسى رغبة لا فى اعتناق الإسلام ولا فى الاعتراف بالأسكيا سيّداً عليهم ، وإنما كانوا مستعدين لمواصلة القتال ، وتحركوا إلى مواقع فى الجنوب يسهل الدفاع عنها .

وبعد أن أخفق أسكيا محمد فى محاولاته ضد موسى استدار إلى باغنة^(٦٢) ، وهى منطقة إلى الغرب من ماسنة ، وموقعها لا يسهل الدفاع عنه ، ويشكل السكان المستقرون فيه جزءاً من كل إمبراطورية قامت فى بلاد السودان . ولم يجد الأسكيا مشقة فى غزوها ، ثم استدار إلى أير فى الصحراء.^(٦٣) ووافق سلطان أغادس على دفع جزية مقدارها خمسون ألف بوكة . وهذه هى المرة الأولى التى يتم فيها غزو أير على أيدي السودان . غير أن المملكة الصحراوية لم يكن فى مقدورها دفع هذا المبلغ الضخم ، وثار أشراف الطوارق ضد السلطان محمد بن عبد الرحمن وذبحوه . ونقل السلطان الجديد عاصمة ملكة إلى أغادس وتوقف عن دفع الجزية .

(٦٠) تاريخ السودان ، الصفحة ٧٤ .

(٦١) « وفى السنة الرابعة غزا غزوة نعسر وهو سلطان موش ومشى معه السد المبارك مور صالح جور فأمره أن يجعلها جهادا فى سبيل الله فلم يخالفه فى ذلك .. » المرجع نفسه ، الصفحة نفسها .

(٦٢) وردت باغن فى تاريخ السودان ، الصفحتين ٩ و ١٠ ؛ وكذلك فى تاريخ الفتاش ، « وفى السنة الخامسة غزى باغن فار . » الصفحة ٧٠ .

(٦٣) « وفى السادسة غزى تظ فى أير » المرجع نفسه ، الصفحة نفسها .

« وفى السادسة غزا إلى أير وأخرج تظ فى سلطنته .. » تاريخ السودان ، الصفحة ٧٥ .

وفى السنوات التالية رُكز الأسكيا جهودهم على تحطيم إمبراطورية مالى . وفى عام ١٥٠١ أرسل أخاه عمر لغزو مقاطعة زار . ودافع الحاكم عن زان ، عاصمة المقاطعة ، دفاعاً قوياً وأوقع الهزيمة بعمر . عندئذ جاء الأسكيا بنفسه ، وبعد مقاومة قصيرة سقطت المدينة ، وكان من بين الأسرى الذين وقعوا فى يده إبنة المنسا الحاكم .^(٦٥) وفى عام ١٥٠٦ أرسل الأسكيا قواته ضد مقاطعة أخرى فى مالى ، هى غَلَمَ،^(٦٦) وخربها وضمها إلى غاو . وفى عام ١٥١٢ أرسل أخاه داوود لغزو مقاطعات مالى ، وتلقى العون من **مغشرون كى**،^(٦٧) أحد أتباعه وتزوج بإحدى بناته . فمنذ أن قام سنّ على باقضاء **أكل**^(٦٨) رئيس الطوارق أذعن المغشرون لسيادة السنغى . ولما أحس إمبراطور مالى بأن قوته تتداعى طلب إلى **تنّيُض**^(٦٩) أن يعلن العصيان على السنغى . وفى العام نفسه قام **تنّيُض** الذى ادعى الخلافة بتحدي إمبراطورية السنغى . وكان **تنّيُض** أميراً مقداماً من الفوتا ويتمتع بطاقة عظيمة

(٦٥) «وفى السابعة بعث أخاه عمر كمزاغ إلى زان ليقاثل فتى قلى قائد سلطان ملى على المدينة فامتنع منه .. فأرسل الخبر للأمير أسكيا .. فجاء الأمير بنفسه فقاتله وغلبه وخرب البلد ورفع دار سلطان ملى وسبأ أهله وفى هذا السبى جاءت مريم داب والدة ابنه إسماعيل .. » المرجع نفسه ، الصفحة ٧٥ .

(٦٦) **غَلَمَ** : فى إقليم باكل بالسنگال شرق فوته ، كتبها العرب «قلنبو» . لا يزال التكرور يطلقون على سكان منطقة غلم إسم غلمبو . وردت «كلنبوت» فى تاريخ السودان «وفى الثالثة عشرة غزا كلنبوت وهى ملى .. » الصفحة ٧٦ . وكذلك فى **تاريخ الفتاش** ، الصفحة ٧٥ .

(٦٧) **مغشرون كى** : المغشرون (أو المقشرون) إحدى قبائل الطوارق بالقرب من النيجر ؛ كى تعنى الرئيس أو السلطان ، ومغشرون كى هو سلطان المغشرون «ذكر تنبكت ونشأتها ، فنشأت على أيدي توارق مقشرون ..» تاريخ السودان ، الصفحة ٢٠ ؛ «وهرب بإسماعيل إلى بير مغشرون كى» ، الصفحة ٨٣ . «وبنت زوجة مقشرون كى ماتت ببلدة تنبكت .. » **تاريخ الفتاش** ، الصفحة ١١٨ .

(٦٨) **أكل** : «وفى آخر دولة أهل ملى بتنبكت أخذ توارق مغشرون يغيرون عليهم ويفسدون فى الأرض من كل جهة وسلطانهم **أكل أكملول**» **تاريخ السودان** ، الصفحة ٩ ؛ «أما **أكل سلطان توارق** ... » المرجع نفسه ، الصفحة ٢٢ .

(٦٩) **تنّيُض** : ورد فى المتن Tenguella ؛ ورد فى **تاريخ الفتاش** «تنّيُض» ، الصفحة ٤٠ ومواضع أخرى ؛ ورد فى ترجمته الفرنسية Téniedda أو Tenguella ، الصفحة ٧٢ والحاشية ؛ أما فى **تاريخ السودان** فقد ورد فى نصه العربى **تينض** ، الصفحة ٧٧ ، وفى ترجمته الفرنسية Tayenda ، الصفحة ١٢٧ .

واستقر مقامه في كِنِك (٧٠) . وأشاع تنييض الدمار في مملكة كياج (٧١) وحولها إلى صحراء . واستغاث حاكم كياج بكنفار عمر الذي قاد حملة إلى كِنِك ، وهزم تنييض وفقدت مالي مقاطعاتها الشمالية (٧٢).

وبينما كان الأسكيا يحرز الانتصار تلو الآخر على نولة مالي الإسلامية ، كانت حملاته ضد كل نولة وثنية تنتهي بكارثة . ففي عام ١٥٠٤ شن الحرب ضد الوثنيين في بُرُك (٧١) ، وهزم جيشه ، ويقول الفتاش إنه لم يتمكن من الهرب إلا بسبب قدراته السحرية . ويبدو أنه ضحى طواعية بجيش السنغي حتى يكف شعب دندى ومؤيدو الأسرة الحاكمة الشرعية عن أن يكونوا قوة تهدد عرشه . وفي هذه الحملة فقد الأسكيا إحدى زوجاته المفضلات - أم الأسكيا المقبل إسحاق - التي وقعت أسيرة في أيدي الوثنيين في بُرُك .

وفي عام ١٥١٣ شن الحرب على كاتسنا (٧٤) التي كانت خاضعة لسيادة السنغي، ولكنها أعلنت العصيان . وتمكن خمسون فارساً من أن يستعيدوا ولاعها . ثم استدار الأسكيا إلى أير التي توقفت عن دفع الجزية ، وتمكن من عزوها بمساعدة كُنْتُ

(٧٠) كِنِك : «هو سلطان فوت ويقال فوط كِنِك وكان قويا منصورا شجاعاً ذا بأس خرج عن ملك فوط وجاء إلى كِنِك وأقام بها وتسلطن هناك ..» تاريخ الفتاش . الصفحتان ٧٦ و ٧٧ .

(٧١) كياج : «ولا يتولى ملك كياج إلا عبيده» ، المرجع نفسه ، الصفحة ٢٩ .

(٧٢) «وفي الثامنة عشر قتل أي تنييض الكذاب الذي ادعى النبوة والرسالة لعنة الله عليه قتله كنفار عمر كمزاغ بغير علم أسكى وأمره خرج من تندرم إليه ونصره الله عليه ... وسبب خروجه أي كنفار عمر وذلك أن كياج فرن وقع بينه وبين تنييض ملك فوت أمور جسيمة وتشاجر وحلف بأن يكسر بلده ويصير صحراء وكان أقوى منه قوة وخيلاً ورجالاً فاستغاث بكنفار عمر ولذلك خرج إليه ..» المرجع نفسه ، الصفحتان ٧٦ و ٧٧ .

(٧٣) بُرُك : «أنت منصور عادل كثير الفرح والعطاء والصدقة لا يعجزك موضع في مملكتك إلا موضع واحد يقال له بُرُك» المرجع نفسه ، الصفحة ١٢ . [أنظر الحاشية ١ - ١٠ أعلاه .]

(٧٤) كاتسنا : أوردها پانيكار « Katsina » ؛ ووردت «كشن» في كل من تاريخ الفتاش وتاريخ السودان ، وكذلك « Katsena » في الترجمة الفرنسية للأول و « Kachena » في الترجمة الفرنسية للثاني . وهي من بلاد الهوسا الهامة شرق سَكْتُ وشمال غرب كانو .

« وفي التاسعة عشر غزى كشن » تاريخ الفتاش ، الصفحة ٧٧ .

« وفي آخر التاسعة عشر غزا غزوة كشن » . تاريخ السودان ، الصفحة ٧٨ .

رئيس كَب^(٧٥) نون صعوبة كبيرة . بيد أن متاعب أسكيا محمد لم تنته . ففي أثناء تقسيم الأسلاب لم يوضع كُنْتُ في الحساب ، وتمسك كُنْتُ بأخذ حصته بنهب قافلة السنغى . وسبب ذلك ضيقا شديدا للأسكيا ، لأنه رأى من العار أن يتعرض للهزيمة على أيدي كُنْتُ ، وأن يحرم هو نفسه من غنيمته التي حصل عليها بشق النفس .

فمن كان كُنْتُ هذا ؟ لقد ظهر كُنْتُ لأول مرة في أعمال البكرى الذي أعطى هذا اللقب لحكام كوغة أو السنغى . ومن الواضح أن الحكام من أسرة « زا » الوثنية الأصلية الحاكمة كانوا يحملون لقب كُنْتُ ، ولذا فإن الكُنْتُ هو المكافئ للمنسا عند السنغى . أما الكنت الذي أسس الأسرة الحاكمة الوثنية العظيمة في كَب فكان ابن أحد ضباط جيش كاتسنا . وقد ساءت سمعة هذا الضابط بسبب ذنب صغير ارتكبه، ونتيجة له اتجه نحو الغرب حيث كانت تقيم مجموعات مشتتة من الفولاني والهوسا والسنغى . وهنا أسس فرقة مختارة من قطاع الطرق . وخلال الحملة على كاتسنا ظل على الحياد ، ولكنه في الحرب ضد أير اشترك اشتراكا فعالا ، إذ أنها كانت تتوافق مع رغبته في التوسع نحو الشمال .

وبعد أن نهب الأسكيا تجهز للدفاع عن نفسه . وفي الفترة ١٥١٦ - ١٥١٧ أرسل الأسكيا جيشا كبيرا ضده - وكان هذا الجيش ثالث حملة له ضد دولة وثنية . وهُزم الأسكيا وأرغم على التقهقر من المنطقة ،^(٧٦) كما كان هذا الجيش هو آخر

(٧٥) أرجح وجود خطأ هنا ، ذلك أن كُنْتُ كما ورد في تاريخ السودان هو صاحب ليك (Liké) في الترجمة الفرنسية، الصفحة ١٢٩) . «ورجع في الثانية والعشرين (١٥١٥ - ١٥١٦) وفي رجوعه خالف عليه كُنْتُ صاحب ليك الملقب بكُنْتُ وسببه أنه لما وصل بلده حين رجع معه من تلك الغزوة انتظر سهمه من تلك الغنيمة فلما انقطعت رجاءه منه سال دند فارى عن سهمه فقال له إن طلبته لتغوط فسكت ثم جاءه أصحابه فقالوا له أين سهامنا عن هذه الغنيمة مارايناها إلى الآن الاتساليا فقال سالتها قال لى بِنْدِ فارى إن عدت سالتها لتغوط ولا تغوط وحدى وإن كنتم تتغوطون معى سالت فقالوا نتغوط جميعا معك فقال بارك الله هذا الذى أريد فعاد إلى دندفارى فسأله فأبى فخالقوا وصار بينهم إلى قتال عظيم فامتنعوا وخرجوا من طاعة الأمير أسكيا الحاج محمد إلى انقراض دولة سنغى فقام كُنْتُ بنفسه ... » تاريخ السودان ، الصفحة ٧٨ .

(٧٦) « وفي الثالثة والعشرين ، (١٥١٦ - ١٥١٧) غزا إليهم فما نالوا منهم نيلا ... » المرجع نفسه، الصفحة ٧٨ .

حملاته بسبب فقد بصره فى عام ١٥١٩ . وفى العام نفسه مات أخوه عمر فمنح منصبه (كرمن فارى) ليحيى ، وهو أخ له ، كما منحه لقب كانفار .^(٧٧)

وعلى الرغم من أن أسكيا محمد فقد بصره فقد واصل نشاطه السياسى ، وكان يعتمد على مستشاره الأمين على كلن^(٧٨) فى تنفيذ سياساته ، وكذلك على أخيه كانفار يحيى فى توفير السند العسكرى الضرورى . وظلت هذه «التولية» الغربية طيلة أعوام عشرة تضطلع بإدارة أعظم كيان سياسى فى إفريقيا الزنجية ، ولكن سخط أمراء الإمبراطورية كان أخذاً فى الأزدىاد . فالبلاط محور كل نفوذ كان خاضعاً لسيطرة على كلن . وكان يحيى هو نائب كرمين واتخذ تندرم عاصمة له . ووصلت حالات التذمر بين الأمراء إلى ذروتها ، وغادر على كلن البلاط لزيارة كرمين . وعندما ترامت أخبار السخط فى صفوف الأمراء إلى أسمع يحيى قرر السفر إلى غاو ، وهناك عمل على إثناء موسى وأنصاره عن تنفيذ خططهم المقترحة ، ولكنه لم يوفق .^(٧٩) وذات يوم عندما كان يحيى فى إحدى جولاته أعد له موسى وإخوته كميناً قتل فيه ، وترك موته الطريق مفتوحاً أمام موسى . ودخل موسى غاو

(٧٧) « وفى السادسة والعشرين (١٥١٩) مات أخوه عمر كمزاغ فى اليوم الثالث من الربيع الأول فاحتجب .. وجعل أخاه يحيى كرمين فارى ... » المرجع نفسه ، الصفحتان ٧٨ و ٧٩ .

« وفى الخامسة (والعشرين) نزل كبير فى شهر رمضان ثم رجع إلى كاع فى تلك رمضان ولحق الخبر يوم نزل كاع بمرض كرمين فار عمر كمزاغ وكراً راجعاً خفية إلى تندرم ودخله ليلاً وتوفى عمر فى تلك الليلة ... ولم يظن أحد من أهل كاع بذهابه حتى رجع وجعل أخاه كرمين فار يحيى ... قيل إنه ابن زوجته وهوربيه وقيل إنه أخوه لأمه وقيل أنه ابن أخى أمه كسى ... ثم خرج إلى كاع حين سمع بخبر أسكى موسى أنه يريد عزل أبيه ويدخل حين ضعف بصره ... » تاريخ الفتاش ، الصفحتان ٧٧ و ٧٨ .

(٧٨) من المؤكد أن المقصود هنا هو «على فلن» ، ذلك أن من يعرف باسم «على كلن» هو سنّ على كلن الذى سبق على فلن بحقبة زمنية طويلة ، كما أن على فلن قد ورد اسمه مقترناً بأسكيا محمد . ونرجع إلى ما يقوله تاريخ السودان فى شأن الاثنين :

«وأما سنّ على كلن فكان من قصته إنه سكن فى الخدم عند سلطان ملهى هو وأخوه سلمن نار ..» تاريخ السودان ، الصفحة ٥ .

«وقد عمى (أسكيا محمد) فى أواخر دولته ولم يظن به أحد لأجل قرب على فلن منه وملازمته أياه» . المرجع نفسه ، الصفحة ٨٠ .

(٧٩) «لأجل قرب على فلن منه وملازمته أياه فجعل موسى يهدد عليه ويتوعده بالقتل فخاف منه وهرب إلى تندرم عند كرمين فارى يحيى فى السنة الرابعة والثلاثين ، وفى السنة الخامسة والثلاثين خالف عليه فار منذ موسى فذهب إلى كوكيا مع بعض أخوانه فأرسل الأمير لأخيه فرن يحيى فى تندرم أن يجى لتقويم اعوجاج هؤلاء الأطفال» المرجع نفسه ، الموضع نفسه .

فى عام ١٥٢٩ وأعلن نفسه إمبراطورا ، وأقصى أسكيا محمد عن العرش . وهكذا فإن عهد أسكيا محمد الذى بدأ باغتياله المرجح لسنّ على وبثورة ما ، قد انتهى بسجنه على أيدي ابن أخيه . (٨٠)

وأسكيا موسى لم يكن خليعا فقط ، بل كان متعطشا للدماء أيضا . فأول عمل أقدم عليه بعد توليه السلطنة هو قتل كل من يحتمل أن ينافسه العرش ، ولقى كثيرون من إخوته نهاية دموية ، كما استولى على حريم عمه . (٨١) وبسبب غلظة قلبه وعدم تقواه ناهضة العلماء وحكام الأقاليم ، ولم يخفوا رغبتهم فى رؤية أسكيا جديد . ولم يدم حكمه طويلا ، فقد ثار إخوته ضده بعد حكم لم يتجاوز واحداً وعشرين شهرا ، وخلفه أحد أبناء أسكيا محمد ، الذى حمل عند تولي السلطنة لقب محمد بنكن ، وحدد إقامة أسكيا محمد فى جزيرة كنكاك . (٨٢) ولكن بنكن كان عليه أن يقمع ثورة

(٨٠) «فجاء وأمره أن يذهب اليهم فى كوكيا ووكد عليه أن لا يبلغ معهم التمرىث فوصلهم هناك ولقوه بالقتال حتى جرح وتمكن منه فسقط على الأرض وخرّ على وجهه عريانا وجعل يتكلم بما سيكون فيهم من المحدثات .. ثم توفى فجعل الأمير ابنه عثمان يوياب كرمين فارى وارسله إلى تندرم ، ثم رجع موسى وإخوته إلى كاغ وفى آخر هذه السنة عزل الأمير والده يوم الأحد يوم عيد الأضحى قبل الصلاة والأمير فى المصلى فحلف أن لا يصلى أحد حتى يتولى الأمرة فسلم له والده فكان أميراً ساعتئذ فصرى الناس صلاة العيد وبقي هو فى داره وأسكيا الوالد فى دار السلطنة ولم يخرج منه فى حياته ...» المرجع نفسه ، الصفحتان ٨١ و ٨٠ . [الذى قام بسجن أسكيا محمد ، كما سيتضح بعد ذلك ، هو ابن أخيه الذى حمل لقب محمد بنكن بعد أن خلف موسى بن أسكيا محمد فى منصب الأسكوية.]

(٨١) «ثم نخل أسكيا موسى فى قتل إخوته فهرب كثير إلى تندرم عند كرمين فارى عثمان يوياب...» المرجع نفسه ، الصفحة ٨١ .

«ولم يتول سلطنة ستنفى واسكويته أخف وارذل منه فسلطنة ستنفى على ما قيل أكبر منه ومن سفاخته أنه لما عزل والده أسكى محمد وأخرجه من دار المملكة امتنع بجواريه وسراريه أن يدخلن عليه وحبسهن عنه لنفسه ودعى عليه أسكى محمد وقال اللهم اكشف عورته وافضح واستجاب الله دعوته وركب فى غده مع كافة جيشه وحرك فرسة ليجرية وسقط عن فرسه وقطع حبل سراويله وعليه أربع قمصان وانقلت القمصان إلى رأسه وبقي عريانا ولم يبق فى الجيش أحد لم يرد عورته» تاريخ الفتاش ، الصفحتان ٨٢ و ٨٣ .

(٨٢) «وفى السادس والثلاثين (١٥٢٩ - ١٥٣٠م) قاتل هو وإخوته .. وغلب إخوته هناك فقتل من أولاد عمه كرمين فار عمر أكثر من ثلاثين ... وهرب كرمين فار عثمان إلى تمن وفى سنة سبع وثلاثين قتل فى قرية منصور .. وتولى بعده أسكى محمد بنكن ... فلما تولى أمر باجلاء عمه الأكبر أسكى محمد رحمه الله وأخرجه من بلد كاغ إلى جزيرة كنكاك واسكنه فيها» المرجع نفسه ، الصفحة ٨٣ .

«وقتل جماعة كثيرة معه من قومه ورجل عمه أسكيا الحاج محمد من دار السلطنة فدخل فيها وبعث به إلى جزيرة كنكاك موضع بقرب المدينة من جهة المغرب فسجنه فيها ...» تاريخ السودان ، الصفحة ٨٧ .

قام بها كانفار عثمان ، أحد أبناء كنفار عمر . وقطع بنكن رأسه ورؤوس أحد عشر من إخوته . وفى أبريل ١٥٣٧ ، بعد حكم دام ست سنوات وشهرا وحدا ، تمكن ائتلاف من إخوته من أن يحلق به الهزيمة . ونودى بإسماعيل ، أحد أبناء أسكيا محمد، إمبراطورا جديدا ، وهرب بنكن إلى تندرمة ، ولجأ هو وأخوه الكانفار لدى إمبراطور مالى.^(٨٣) وفى عام ١٥٣٧ تمكن إسماعيل ، الذى خلف بنكن ، من إطلاق سراح والده وعندئذ خلع عليه الأسكيا شارات الملك وقلده منصب خليفة السودان.^(٨٤) وخلال حكمه الذى استمر عامين وسبعة شهور حدثت مجاعة دمرت إمبراطورية السنغى.^(٨٥)

وفى ما بين خلع أول أسكيا وعام ١٥٤٠ ، الذى تولى فيه إسحاق السلطنة ، تولى السلطنة ثلاثة ملوك . وأدى هذا التغير المستمر ، وما صاحبه من مؤامرات وثورات ، إلى إضعاف السلطة المركزية . ولذا واجهت إسحاق مشكلة إعاد النظام وروح الانضباط إلى الإدارة . فأجرى حركة تطهير عامة ، وأعدم قادة الجيش والحكام عقابا لهم على تصرفاتهم خلال الفوضى.^(٨٦) وبعد أن استعاد إسحاق النظام قام

(٨٣) «وفى تلك السنة يعنى سنة ثلاث وأربعين (أبريل ١٥٣٧) قام عليه ابن عمه أسكى إسماعيل بن أسكى محمد فتولى السلطنة خارج بلد كاغ فلما اتصل الخبر بأسكى محمد بنكن خرج هاربا إلى تنبكت فتبعته الخيول ثم خرج منها وبخل تندرمة وهناك كرم من فار عثمان شقيقه .. فلما رآه عثمان معزولا هاربا تبعه وهربا إلى مل ..» تاريخ الفتاش ، الصفحة ٨٥ .

(٨٤) «فلما تولى أسكوية أمر ساعتئذ باخراج أبيه أسكى محمد المرحوم من تلك الجزيرة يعنى كنكاك التى أجلاه محمد بنكن كرى إليه ... ولما أخرج اباه من تلك الجزيرة وأسكنه فى بعض بيوت دار المملكة اتى بشكاره له وحل ربط فمها وأخرج منها قميصا وشاشية خضراء وعمامة بيضاء ... وادخل فى عنقه سيفا وقال هذا قميص قمصنى به شريف مكة ... وقلدننى هذا السيف وقال أنت أميرى ونائبى وخليفتى فى اقليمك وأنت أمير المؤمنين وأنا خليفته وأميره ونائبه ..» المرجع نفسه ، الصفحة ٨٦ . [تولى اسكوية يعنى تولى منصب الأسكيا.]

(٨٥) « وكان فى أيام أسكى إسماعيل قحط وجوع » المرجع نفسه ، الصفحة ٩٢ .
«وتوفى أخوه الأكبر .. عام اثنين وأربعين وتسعمائة فى الطاعون المسمى كَفٍ ... ومات فى هذا الطاعون خلق كثير» المرجع نفسه ، الصفحتان ٩٢ و ٩٣ .

«فى العام الثانى والأربعين ... فى أول الطاعون المسمى كَفٍ ..» تاريخ السودان ، الصفحة ٩٢ .
(٨٦) «وقتل من الناس أهل الجند خلقا كثيرا وكان من سيرته إذا خال من أحد أدنى شيء من التعرض للسلطنة لابد أن يقتله ويخرجه من أرضه هذا دابه وعادته فبدخوله السلطنة أرسل زغرانيا واحدا إلى بير ليقتل كرم من فارى عثمان وجعل له جعلًا ثلاثين بقرة ...» المرجع نفسه ، الصفحة ٩٥ .

بتدمير بُدُكُ ونهبها.^(٨٧) وفي الفترة ١٥٤٦ - ١٥٤٧ أرسل أخاه داوود الذي مقررا أن يخلفه على رأس حملة ضد مالى . وتقهر المنسا ، وتمادى داوود فى إظهار ازدياده للمنسا بتحويل قصره إلى مبولة عامة.^(٨٨) وفى عام ١٥٤٦ واجه إسحاق تهديداً مراكشياً ، فبعث رسالة ساخرة أدت فى حينها إلى كبح الاندفاع المراكشى.^(٨٩) ويقول تاريخ الفتاش إن إسحاق كان ملكاً قوياً وقوراً صالحاً يواظب على أداء الصلاة . ولكن السنوات التى أعقبت خلع أسكيا محمد شهدت فتوراً فى الحماية الدينية . وفى أحد الأيام المطيرة لم يكن يوجد بالمسجد وقت صلاة العشاء إلا إمام المسجد وأسكيا إسحاق.^(٩٠) وقد توفى أسكيا إسحاق فى عام ١٥٤٩ بعد حكم دام تسع سنوات ، وخلفه أخوه داوود.^(٩١)

(٨٧) وفى التاسعة والأربعين (١٥٤٢ - ١٥٤٣) غزا إلى تَعَبَ آخر سلاطين بُدُكُ المرجع نفسه ، الصفحة ٩٦.

(٨٨) «وفى الثانى والخمسين أرسل أخاه كرم من فارسى داوود إلى ملى . فهرب منه سلطان ملى ونزل بعسكره فى بلده وتأخر فيه سبعة أيام وبرح فى العسكر أن كل من يريد أن يطير الماء فليفعله فى دار السلطنة وفى سابع اليوم امتلأت الدار كلها بالغائط المرجع نفسه ، الصفحة ٩٨.

(٨٩) «وقد بعث إليه فى أيام قوته مولاي أحمد الكبير سلطان مراكش أن يسلم له فى معدن تغاز فبعث له فى الجواب أن أحمد الذى سمع ليس هو آياه وأن إسحق الذى سمع ليس أنا آياه ما زال ما حملت به أمه ثم أرسل الفين ركاباً من التوارق وأمرهم أن يغيروا على آخر بلد درعة إلى جهة مراكش بلا إخراج روح أحد ...» المرجع نفسه ، الصفحة ٩٩ .

(٩٠) «وكان أسكى اسحق مرضياً صالحاً مباركاً كثير الصدقات ملازماً صلاة الجماعة عاقلاً فطنا ذا دهاء قليل : أتى يوماً إلى المسجد لصلاة العشاء الأخيرة ليلة ذات مطر وظلمة وطين وجلس فى المسجد وحده ثم أتى المؤذن ونادى بالأذان ثم وقد المصباح وجلس ينتظر الجماعة والإمام ثم لم يجرى أحد حتى جاء الإمام وحده واحياً المسجد ثم قال له المؤذن أيها الإمام قم فنصلي وعلك تنتظر مجئ أسكى إسحاق فإنه لا يخرج من مرقده فى المطر والظلمة والطين وأين هو الساعة على سريره المفروش عليه بأنواع الحرير فأجابه أسكى إسحاق فى جانب المسجد قائلاً إن كان أسكى إسحاق هو المنتظر فما هو قد سبقكما فقوما نصلى فقاما متعجبين فى خروجه وحده إلى الصلاة ...» تاريخ الفتاش ، الصفحتان ٨٧ و ٨٨ .

(٩١) «وفى أول السادس والخمسين (١٥٤٩ - ١٥٥٠م) مات أسكى إسحاق ومكث فى السلطنة تسع سنين وتسعة أشهر وتسع ليالى فى بلد كُيُكِي وهنالك قبره وله من الأولاد بُنْكَ سَلْمَنَ وعبد الملك الذى جعله ولّ العهد ولم يرضى أهل سغى إلا أسكى داوود وولى السلطنة بعده أخوه أسكى داوود بن أسكى محمد ...» المرجع نفسه ، الصفحة ٩٣ .

وأخذ داوود على نفسه إحياء أمجاد جيوش السنغى ، فكان حكمه الذى دام أربعة وثلاثين عاما (١٥٤٩ - ١٥٨٣) سلسلة من الحملات ضد الحكام الذين ورث عداهم لأسرته . وانتهت حملة قام بها ضد الموسى فى عام ١٥٤٩^(٩٢) بالنتيجة غير الحاسمة المعتادة . وفى العام التالى تمكن من اكتساح الفولانى فى ماسنة،^(٩٣) بيد أن السنغى هزموا فى عام ١٥٥٢ فى موقعة ضد كَبَّ ، وتخلّى داوود عن كل فكرة لديه لغزو كَبَّ ، وأقام معها سلما نهائيا.^(٩٤) وفى الفترة ١٥٥٨ - ١٥٥٩ وجه داوود حملة ضد مالى ، وخرب مقاطعاتها الحدودية ، وتمكن من أسر ابنة المنسا وتزوجها.^(٩٥)

وبينما كان النصر حليف أسكيا داوود ضد مالى التى عاود الهجوم عليها مع تابعه وصهره مغشرن كى ، فقد فشل السنغى تماما ضد الموسى فى الفترة ١٥٦١ - ١٥٦٢.^(٩٦) وكان لابد من الهجوم على منحدرات همبر بدورها فى عام ١٥٦٤ . كذلك أظهر الفولانى جموحا شديدا فتأثر منهم داوود بنهب

(٩٢) «ذكر غزواته، وفى شهر شوال من العام الذى تولى فيه غزا إلى موش ...» تاريخ السودان ، الصفحة ١٠٢

(٩٣) لم استدل على حملة قام بها أسكيا داوود فى عام ١٥٥٠ (٩٥٧ هـ) ضد ماسنة ، وإنما كانت له فى هذا العام حملة أخرى . «وفى آخر العام السابع والخمسين غزا إلى تع اسم موضع فى أرض باغن ويقال له ترمسى وكُم ...» المرجع نفسه ، الموضع نفسه .

(٩٤) كذلك الحال فى عام ١٥٥٢ (٩٥٩ هـ) هناك رواية أخرى .

«وفى التاسع والخمسين وقعت الخصومة بين أسكيا داوود وبين كنت سلطان ليك وفى الموفى ستين اصطلحا ...» المرجع نفسه ، الصفحة ١٠٣ .

(٩٥) «وفى السنة السادسة والستين (١٥٥٨ - ١٥٥٩) غزا إلى بلد سوم فى أرض ملى وتوفى سوم أنز عند وصوله هنالك فولى ابنه مقامه فجاز إلى ديكرا وقاتل فيها قائد سلطان ملى مع كُنتِ قرن وغلبه وفى هذا الطريق تزوج نار ابنة سلطان ملى ورحلها إلى سغى فى مملكة عظيمة من حلى وعبيد واماء واثاث وامتعة ...» المرجع نفسه، الصفحتان ١٠٢ و ١٠٤ .

(٩٦) «وفى التاسعة والستين (١٥٦١ - ١٥٦٢) صعد أسكيا داوود برن فغزا إلى موش ثانية فهرب هو وجيوشه كلهم منه ومات كيم كى وأبو بكر سو ابن فار محمد بنكن سنبل وكثير من الناس ورجع فى شهر رجب من هذا العام» المرجع نفسه ، الصفحة ١٠٦ .

ماسنة.^(٩٧) وفي عام ١٥٨٢ ، وهو العام الأخير من حكم داوود ، اجتاحت الأوبئة والمجاعات مدينة تمبكت.^(٩٨)

وبعد داوود جاء الحاج الذي دام حكمه أربع سنوات وخمسة شهور . وقد نجح في غزو موسى ، وقتل حاكم وَغْد^(٩٩) ، وعاد برقيق كثير . وفي آخر عهده أصيب بمرض لاشفاء منه ، فعزله أخوه محمد بان ونفاه إلى تَنْدَبِي.^(١٠٠) وقد حكم محمد بان سنة وأربعة أشهر وخلال حكمه حدثت مجاعة أخرى وعانى الناس شظف العيش.^(١٠١) وفي عهد محمد بان اندلعت حرب أهلية . فقد اكتشف كبرفرم ، أحد موظفي الإمبراطورية ، سرقة قطعة ملابس من أحد رقيقه . وحامت الشكوك حول أحد خدم بلمع صادق ، ونقل كبر هذه الشكوك إلى بلمع الذي استجوب الخادم

(٩٧) «وفي سنة تسعين بعد تسعمائة ... وفيها وقع القطاعون من فلان ماسنة على قارب أسكيا الحاج من جنى ونهبوا بعض أمتعته .. فلما بلغ الخبر قرن محمد بنكن نهض ساعته وتوجه لماسنة للانتقام منهم من غير مشورة واحد ... الحاصل أغار على ماسنة وأفسدها إفساداً عظيماً وقتل فيها من فضلاء الطلبة وصلحائها كثيراً فظهر لهم بعد موتهم كرامات عجيبة ... ولما بلغ الخبر أباه أسكيا داوود انكرها عليه جداً فكانت مطياراً عليه لأن أسكيا ما تأخر بعد الواقعة في الدنيا ...» المرجع نفسه ، الصفحة ١١٣. [من الواضح أن رواية السعدي هذه تختلف عما أورده پانيكار .]

(٩٨) «وفي سنة تسعين بعد تسعمائة (١٥٨٢م) وقعت في تبكت وباء عظيم ومات فيها خلق كثير ...» ، المرجع نفسه ، الموضع نفسه .

(٩٩) «ثم تولى الأمر بعده ابنه أسكي الحاج في ذلك اليوم قبل دفنه وكان الحاج رجلاً مليحاً لحياناً مهيئاً ذا مروءة ولم تطل مدته ومكث في السلطنة أربع سنين وخمسة أشهر وعشرة أيام ... وفي شهر ولايته غزا أهل وكد وقتل قرن وكد وسبوا نزاريههم وجميع أموالهم وزناجيههم إلى كاع ...» تاريخ الفتاش ، الصفحة ١١٩ . [وكد هي وَغْد ؛ كاع هي غا.]

(١٠٠) «ثم قام أسكي محمد بان بن أسكي داوود على أخيه الحاج فعزله وتولى السلطنة في المحرم عام خمسة وتسعين وتسعمائة [١٥٨٦ - ١٥٨٧] ونفى الحاج إلى تَنْدَبِي بعد ضعفه بعلة لازمة فمالبث بعد عزله فمات ...» المرجع نفسه ، الصفحتان ١٢٥ و ١٢٦ .

(١٠١) «ومكث محمد بان في السلطنة سنة وأربعة أشهر وثمانية أيام وكانت في أيامه غلاء وقحط ...» المرجع نفسه ، الصفحة ١٢٦ .

فأنكر التهمة . وقام بإبلاغ كبر بنتيجة التحقيق . ونشب بسبب ذلك شجار ، وقبض فرم على الخادم وأنزل به العقاب . وغضب بلمع وقام بذبح فرم (١٠٢) وبعد فترة تأمل أحس بلمع أن تصرفه يمكن أن يُشوّه ، واستقر رأيه على الثورة . وعملا على تحقيق هذا الهدف أوفد رسولا إلى الأسكيا يبلغه بما حدث ويؤكد له ولاءه . وفي الوقت نفسه كان على الرسول أن يواصل السير إلى كرمين ، وأن يطلع كرمين فارى صالح على الأحداث (١٠٢) واقتراح بلمع ، وكان أخا لكرمين فارى ، أن يؤازره هذا الأخير في ثورته ، على أن يصبح هو الأسكيا وأن يصبح بلمع هو كرمين فارى (١٠٤) ووافق صالح ، وتحرك على رأس قواته إلى كبر . ولكن سرعان ما نشب الخلاف بين الأخوين ، وقرر صالح أن يقتل بلمع (١٠٥) وفاجأ بلمع وكاد أن ينجح في مهمته ،

(١٠٢) «وأما سبب الشر الواقع بين محمد بن اسكى داود وبين أخيه بلمع صادق وذلك سبب فناء سنقى وفتح باب الشر بينهم وسبب فساد ملكهم ... وقصة ذلك .. أن كَبَرُ فرم كان غلاما لاسكى على كَبَرٍ على عادتهم ومسكن بلمع ودار سلطنته هي كَبَرٌ وكَبَرُ فرم موكلا بالمرسى وسفن المسافرين يأخذ من كل سفينة غرامة من الداخل والخارج وبلمع يكون سلطانا على الجنديين ... وكان كبر فرم علوا هذا ظلوما غشوما ... سرق ملحفة بعض جواريه اسمها ... واتهم خديم بلمع بسرقتها وسمع كبر فرم بذلك وبعث رسوله إلى بلمع صادق يذكر له بأن غلامه سرق ملحفة جاريته إما أن يأخذها منه أو يرسله إليه ليتولى سؤالها منه ... وامتنع .. ويمشى بينهما الرسل بالشتم والكلام القبيح إلى أن ظفر كبر فرم بذلك الغلام المتهم علي غفلة ... وطلعه بحريشه الكبير تحت ابطه وقطع قلبه وسقطه ميتا وأمر بغلامه المسجون فأنحل من قيوده ..» المرجع نفسه ، الصفحتان ١٢٦ و ١٢٧ ، [الحريش هو الحرية.]

(١٠٣) «وخاف عقوبة اسكى بذلك وبعث رسوله إلى أخيه كتفار صالح بن اسكيا بن داود وهو بتنرم وأخبره بما فعل وأنه خرج في طاعة أسكى محمد بن وخلع عن بيعته ..» المرجع نفسه ، الصفحة ١٢٧ .

(١٠٤) «وأمره أخاه كتفار صالح بالمجئ إليه مع جيشه وأهل جنده ليتفق معه ويذهب إلى اسكى داود ويعزلانه ويتولى كتفار صالح سلطنة أسكى ويكون سلطانا ويوليه كتفرويته ..» المرجع نفسه ، الموضع نفسه .

(١٠٥) «وأتاه رسوله وأخبره وحضه وحته على الخروج معه وأجابه فرحا مسرورا ... وخرج بجيش عظيم ... وتوجهوا إلى بلمع صادق في كبر ... وخرج بلمع للقائه وتلقوا هناك ... وبعد نزولهم رجع بلمع إلى كبر لتجهيز ضيافتهم ونزولهم ... فلما رجع بلمع إلى داره لأخراج تلك الضيافة إليهم عقبه بعض الوشاة إلى أخيه كتفار صالح ونم له بقوله إنه يغدره ويريد قتله وحضره ... وصدق كتفار صالح وكان رجلا خرفا فأمر بربط سرجه .. وخرج عازما حازما ...» المرجع نفسه ، الصفحتان ١٢٧ و ١٢٨ .

وفى اللحظة الأخيرة تمكن أحد أنصار بلمع من قتل كرمين فارى. (١٠٦)

عندئذ تحقق النصر لصادق على رؤساء القبائل الذين أيدوا كرمين فارى وسار نحو غاو . وبعد مسيرة يوم منها خرج عليه الأسكيا بجيش قوامه ثلاثون ألفا لئلازله، ولكن قبل أن تنشب المعركة توفى محمد بان فى فراشه حيث عثر عليه غلماناه فى صباح اليوم التالى. (١٠٧)

وأثار موته مشكلة أمام كبار ضباط الجيش . وبعد المداولة المناسبة استقر رأيهم على أن يحفظوا موت الأسكيا سراً إلى حين تنصيب محمود بن أسكيا إسماعيل فى منصب الأسكيا . وقبل محمود على الفور، (١٠٨) وأشير عليه بأن يتجنب أى نزاع بين الورثة حرصاً على مصلحة الدولة ، ولضمان ذلك لابد أن يبقى موت الأسكيا طى الكتمان ، وأن يدعى الأمراء إلى المضرب الملكى الواحد تلو الآخر حيث

(١٠٦) «وحرك بلمع فرسه كأنه يهرب ثم رجع إليه ورماه بحريش وركزه بين كتفيه حتى خرج من صدره وقيل أن الرامى هو غلام كان مع بلمع .. والأول أصح بأن بلمع هو الرامى بيده .. واسقطه هناك ميتاً ونزل عليه ورفع رأسه ووضع على حجره وهوى سكرات الموت حتى خرج روحه على رجله ..» المرجع نفسه ، الصفحة ١٢٩ .

(١٠٧) «قلما دفن بلمع أخاه كنفار صالح قام بفتنته ورجع إليه أصحاب كنفار المقتول وجيشه اجمعون واطاعوه .. وجطوه سلطان وسموه أسكى ووافقهم على ذلك عامة تنبكت وتجارهم وبعض علمائها ... وتوجه إلى كاغ لمضاربة أسكى وعزله وقتله .. قلما دنا (من كاغ) .. خرج إليه أسكى محمد بان بجيش يضاعف جيشه خمس مرات مجموع ذلك ثلاثون ألفاً ... ثم أتى مضجعه .. ونام إلى قرب وقت الظهر فجاء غلماناه الخصيان الذين كانوا يوقظونه .. فلم يتحرك فتأملوه فإذا هو ميت ...» المرجع نفسه ، الصفحتان ١٢١ و ١٢٢ .

(١٠٨) «وكنموا موته على أولاد أسكى داوود فجلسوا متحيرين متفكرين .. إلى أن اتفقوا على تولية كنفار محمود بن أسكى اسماعيل بن أسكى محمد .. وأرسلوا إليه بأن أسكى يناديه وقام مسرعاً مجيئاً إلى أن أتى إليهم ووجدهم فى خباء أسكى وادخلوه واخبروه بموته .. فانا كلنا لا نرضى إلا عليك ولاننتفق على أحد سواك .. فنرى نحن أن تولى السلطنة الساعة قبل أن يفتنوا بموته وتتأدى جميع المعاندين منهم ... وترسل لكل واحد منهم رسولا ويقول أسكى هو الذى يناديه وكل من جاء منهم تأمرنا بقبضه وثقفه بالحديد ومن يستحق القتل منهم فنقتله الآن بأمرك حتى يتموا ثم نضرب عليك طبل السلطنة .. وسكت محمود ملياً ثم أجاب وقبل راضياً ...» المرجع نفسه ، الصفحتان ١٢٢ و ١٢٣ .

ينبجون . وأبدى محمود استعدادَه ، (١٠٩) وأرسل أحد رجال البلاط ليستدعى إسحاق أكبر أبناء أسكيا داوود . ولكن رجل البلاط اطلع إسحاق على المؤامرة . وحاصر إسحاق وأنصاره المضرب الملكى ، وقبله رجال البلاط أسكياً جديداً .

وعندئذ استدار إسحاق ضد بلعم وأحرز نصرا ملحوظا . وأعدم كبار قادة الثورة ، وطورد بلعم إلى أن أُطبق عليه ولم يعد أمامه مهرب. (١١٠) ولكن إسحاق الثانى كان عليه الآن أن يواجه خطرا أشد - الغزو الذى يتهدد السنغى من الشمال.

(١٠٩) «واتفقوا على هذا الرأى وأرسلوا واحدا من الخصى المسمى تَبَكْلٍ إلى إسحاق أولا وأمروا الرسول أن يقول له ان أسكى محمد بان يناديه فاتاه تبكل ... وخلقى به ونمّ له وخبره تبكل المذكور بموت أسكى محمد بان وأعلمه بما كان عليه القوم وبما ينادونه بسببه وكشف له أسرارهم ووصاه بأن يحذرهم ... ثم أمر اسحاق باخوانه واحبابه .. وأخبرهم بما جرى .. ثم ركب وركب أهاليه معه .. فما راع القوم إلا وهج خيولهم فداروا بخباء أسكى الذى فيه القوم .. فخرجوا إليهم خاضعين طائعين خائفين .. وقال لهم اسحاق قد علمنا ماجرى وسمعنا ما عقدتم عليه ... إما أن تسلموا لنا أو أن يكون هذا اليوم آخر أيامكم فى الدنيا .. ورموا أنفسهم على الأرض ورجعوا ناكسين يحملون التراب على رؤوسهم ومحمود معهم فى ذلك قالوا كلهم أمر الله ثم أمرك السمع والطاعة لله ثم لك وأنت أميرنا وسلطاننا» المرجع نفسه ، الصفحتان ١٢٣ و ١٢٤ . [الخباء هو الخيمة أو المضرب.]

(١١٠) « وسار إلى بلعم صادق .. ولا علم عند صادق بموت محمد بان ولا بطلوع اسحاق .. فما فاجاه إلا بلربعماية فارس .. فلما أبصر بلعم صادق وقومه فرحوا بهم وظنّوا بهم أنهم جاءوا إليه مطيعين خارجين على محمد بان حتى إذا دنوا منهم نزلوا كلهم ووقفوا على الأرض وحيوه .. فأمر بلعم صادق رجلا من قومه أن يسألهم أحق ما تقولون فحلفوا له بذلك فدخل الروعة والخوف والخشية فى قلوب جيشه وضرب بلعم صادق الطبل وأمر تلك السامسة بالرحلة والركوب إلى ملاقاته إسحق ومحاربتة .. وركب بلعم صادق ومن معه منكسرين قلوبهم ... وداروا شجعان أسكى ... ووثب بهم اصحاب أسكى وثبة الثئب الضرى على الخروف ... وما منهم من وقف ليعلم ما الخبر بل كسروا وفروا عن بلعم وكثير منهم من نزل عن فرسه ونزل فى البحر وعام وقطع البحر عريانا إلى كُرم...» المرجع نفسه ، الصفحتان ١٣٥ و ١٣٦ .

الفصل الخامس

الغزو المراكشى (*)

كان لشمال إفريقية منذ أقدم العصور علاقات وثيقة بالسودان الذى اشتهر بذهبه . وقد غالب مراكش اعتقاد بأن ضم السودان أمر جدير بالاهتمام ، إذ عرف عنه فى تلك الأيام أنه أكثر مناطق العالم ثراء . ولم يكن ذهب سمرقند أو الهند يثير من الخيال قدر ما يثيره ذهب السودان الذى ساد اعتقاد بأنه ينمو كالنبات. (١)

أما كيفية غزو هذه المنطقة فكانت منذ وقت طويل موضع تفكير حكام مراكش . فهناك أولا مشكلة عبور الصحراء ، وهو مغامرة يحف بها من الأخطار قدر ما يحف بعبور المحيط الأطلسى . كتب توماس بيرنهير يقول : « إن جهاز الانحراف المغنطيسى يمكن أن يكون ذا جدوى لرحلة سنوية إلى غاو عبر بحر من الرمال (حيث يتوجب عليهم استخدام الابره المغنطيسية والبوصلة) » (٢) . ثانيا ، كانت التقديرات لقوة إمبراطور السودان أنها كبيرة بدرجة تكفى للتغلب على أية حملة قد تتمكن من عبور الصحراء . وإذا أخفقت الحملة فى مهمتها فمعنى ذلك أن تقطع العلاقات التجارية مع السودان ، وأن يتدفق الذهب عبر مسالك أخرى .

(*) أثرت استخدام كلمة مراكش للدلالة على المغرب الأقصى ، حتى لا تختلط بكلمة المغرب المستخدمة للدلالة على دول الشمال الإفريقى .

(١) أنظر الحاشية ٣ - ٤٩ أعلاه ، ومن بين ما جاء بها : «سالة عند قنومه (منسا موسى) الديار المصرية حاجا عن معادن الذهب عندهم ... فقال توجد على نوعين : نوع فى زمان الربيع ينبت فى الصحراء ...» صبيح الأعشى ، الجزء الخامس ، الصفحة ٢٨٩ .

(٢) توماس بيرنهير : أقام فى مراكش فى أيام السلطان أحمد المنصور الذهبى ، وكان يعمل مراسلا لصهره إدوارد رايث عالم الرياضيات والهيدروغرافيا الانجليزى البارز المقيم فى إنجلترا . وقد جاءت تلك الفقرة ضمن رسالة بعث بها إلى إدوارد رايث فى عام ١٦٠٠ . وللإطلاع على رسائله إلى صهره ، إنظر ، أ.ج . تايلور - Mathe-matical Practioners of Stuart and Tudor England ، كمبردج ، ١٩٥٤ .

وإذ كان المراكشيون يضعون ذلك موضع الاعتبار فقد كانوا يفضلون استخذاء الأساليب الدبلوماسية . يقول مارمول^(٣) إن محمداً ملك السوس ، مدفوعاً بالرغبة في اقتفاء أثر اللمتونه ، وضع خطة لشن حملة على تمبكت وبقية بلاد الزنوج ، وقام بغزو الساقية الحمراء بجيش قوامه ألف وثمانمائة من الجياد وأعداد كبيرة من الإبل المحملة بالذخيرة والمؤن . ولما سمع أن ملك الزنوج يتحرك لملاقاته بجيش من ثلاثمائة ألف استدار نحو ودان التي لم تكن ضمن إمبراطورية السنغى واستولى عليها . ومحمد^(٤) الذى يشير إليه مارمول على أنه ملك السوس فقط لابد أنه قاد هذه الحملة قبل فتح مراكش ، لأنه بعد ذلك اتخذ لقب سلطان مراكش . ولذلك يوجد ما يحمل على الاعتقاد بأن هذه الحملة قد تمت فى عام ١٥٤٢ أو ١٥٤٣ .

(٣) مارمول كرفجال : لا يعرف عنه إلا ما ذكره هو فى كتابه إفريقيا . ولد فى أوائل القرن السادس عشر ، سار فى حدائق سنة فى جيش الامبراطور شارلكان الذى غزا تونس فى عام ١٥٣٥ ، وشاهداً قام به المرتزقة الصليبيون فى هذه المدينة من أعمال السلب والنهب وهتك الأعراض . وبعد مغادرة شارلكان لتونس بقى هو فيها لمهمة كلفه بها ، وطال مقامه بها لنحو اثنتين وعشرين سنة إلى أن وقع فى أيدي الأشراف السعديين ، وظل عندهم أكثر من سبعة أعوام يسير فى ركابهم أينما ساروا ، وعاصر ثلاثة من ملوكهم : أحمد الأعرج ومحمد الشيخ وعبد الله الغالب . له مؤلفات كثير أهمها كتاب إفريقيا الذى نسج فيه على منوال كتاب وصف إفريقيا للحسن الوزان ، بل نقل أجزاء كثيرة منه ، ولا يفصل كتابه عن وصف إفريقيا سوى أربعين سنة ، ورغم المأخذ الكثيرة على كتابه فإنه يظل مفيداً للباحثين فى جغرافية إفريقية وتاريخها فى القرن السادس عشر ، ويعتبر ذيلًا مكملًا لكتاب الوزان .

ويعد أن قامت «الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر» بترجمة كتاب الوزان ونشره ، ارتأت أن تعززه بترجمة ونشر كتاب مارمول لاتحاد موضوعهما ، وتمت الترجمة عن النص الفرنسى الذى ترجم بدوره عن الأصل الأسباني ، وقد صدرت الترجمة فى عام ١٩٨٤ فى ثلاثة مجلدات .

(٤) محمد المشار إليه هنا هو محمد الشيخ الذى لقب فيما بعد بمحمد المهدي، وهو ابن محمد القائم بأمر الله السعدى . فقد هاجر أسلاف السعديين فى القرن السابع الهجرى واستقروا فى درعة من بلاد السوس جنوب مراكش . وفى عام ١٥٠٩ طلب أهل السوس إلى محمد القائم بأمر الله تولى قيادتهم فى حركة الجهاد لتخليص البلاد من الحاميات البرتغالية . وبعد وفاة محمد القائم بأمر الله حوالى عام ١٥١٧ انتقل حكم السوس إلى ولديه محمد الشيخ وأحمد الأعرج ، وكان محمد الشيخ يطمح فى توحيد مراكش تحت سلطته ، فدخل فى نزاع مع أخيه ومع الوطاسيين ، وتمكن من دخول فاس وإعلان نفسه سلطاناً فى عام ١٥٤٩ . وبذا يعد محمد المهدي (محمد الشيخ) هو المؤسس الحقيقى للأسرة السعدية .

«أصبح سلطان تمبوكتو يسمى اليوم امبراطور مالى ... سعى الشريف محمد ، عندما بلغ أوج مجده ، إلى امبراطورية مالى وغيرها من بلاد السودان ، استجابة لدأب الأسلاف التيمونيين ، لذلك جهز جيشاً من ألف وثمانمائة من الفرسان وعدد لا يحصى من الجمالة وكميات هائلة من المؤن والذخائر ، لكنه لما علم أن امبراطور مالى خرج لمحاربته فى الطريق ولى عائداً إلى تروانت ... مارمول ، إفريقيا ، الترجمة العربية، المجلد الثالث، الصفحة ٢٠٢ .

وكان الغرض من الحملة ، استنادا إلى مارمول الذى رافق جيش السلطان بصفته رقيقا ، هو غزو تمبكت ، ولكن غرض السلطان المعلن كان مجرد الوصول إلى مناجم تغازة . وكتب إلى إسحاق يطلب إليه التنازل عن هذه المناجم لمراكش . وجاء رد إسحاق واضحا لاليس فيه ، وهو أن الأسكيا عاقد العزم على الدفاع عن المناجم، «إن أحمد الذى سمع ليس هو إياه وأن إسحق الذى سمع ليس أنا إياه مازال ما حملت به أمه»^(٥) . وفضلا عن هذه الإجابة اللادعة فقد أرسل إسحاق قوة قوامها عشرة آلاف من الطوارق عبرت الصحراء إلى مراكش ونهبت درعة .

وكانت ودان هي البداية . ولم تكن العقبة أمام أهداف المراكشيين ومطامعهم هي قوة غاو ، وإنما الأحوال الجوية . وقد تعلم المراكشيون أن الجياد لا يمكن أن تستخدم كوسيلة للنقل ، وأن ندرة المياه هي التي يمكن أن تحول دون نقل القوات بأعداد كبيرة ، وأن ما يتطلبه غزو إمبراطورية الزنوج هو جيش عالى التدريب يجرى اختيار أفراد بعناية ، وقادر على تحمل مشاق عبور الصحراء . وفى الوقت نفسه كان يراودهم شئ من الأمل فى أن تنجح المفاوضات الدبلوماسية فيما فشلت فيه الحرب .

كانت الدبلوماسية إذن هي الخطوة التالية . فالتجار المراكشيون كان لهم دوما نور بارز على ضفاف النيجر ، وطريقتهم فى التعامل كانت معروفة جيدا . كما أن أهمية الملح فى تمبكت – كانت قيمة الملح تكاد تعاد قيمة الذهب نفسه – جعلت

(٥) هذه الفقرة مأخوذة عن تاريخ السودان : «وقد بعث إليه فى أيام قوته مولاي أحمد الكبير سلطان مراكش أن يسلم له فى معدن تغاز فبعث له فى الجواب أن أحمد الذى سمع ليس هو إياه وأن إسحق الذى سمع ليس أنا إياه مازال ما حملت به أمه ثم أرسل الفين ركابا من التوارق وأمرهم أن يغيروا على آخر بلد درعة إلى جهة مراكش بلا إخراج روح أحد فيرجعون على أثرهم فغاروا على سوق بنى أصبح كيفما قام وثبت فأكلوا جميع ما وجدوا فى ذلك من الأموال فرجعوا كما أمرهم وما قتلوا أحدا وما ذلك الا ليرى أحمد المذكور قوته .» تاريخ السودان ، الصفحتان ٩٩ و ١٠٠ .

هذا ومن المعروف أن الغزو المراكشى لدولة السنغى قد حدث خلال عهد إسحاق الثانى أسكيا السنغى الذى حكم فى الفترة ١٥٨٨ – ١٥٩١ .

من تغازه محور الصراع من أجل ممارسة الضغط على إمبراطورية الزنوج . وكان
الرأى الراجح لدى المراكشيين أنه إذا أمكن التحكم فى تغازه أمكن إرغام السودان
على التزام جانب التعقل. لذلك استقر الأمر على أنه بدلا من شن حملة عسكرية ضد
تمبكت ، فإن السيطرة الاقتصادية الخائفة ستكون لها فعالية أقوى ، وهو ما يمكن
تحقيقه بالاستيلاء على تغازة .

وكانت سياسة المراكشيين هى الإبقاء على الصحراء فى حالة اضطراب . وكان
باستطاعة الملك دائما توجيه البربر مثيرى الفتن إلى الإغارة على الصحراء وقتل
أعدائه ونهبهم . وفى عام ١٥٥٧ قتل حاكم تغازة فى واحدة من هذه الغارات وذبح
الطوارق المشتغلون بتجارة الملح . وعلى الرغم من أن المراكشيين استطاعوا خلق
شعور بعدم الأمن فإنهم لم يوفقوا فى الاستيلاء على تغازة ، وذلك لأن الطوارق
الجبشيين الكثرى الترحال وأصحاب المصالح الحيوية فى تجارة الملح كانوا يتخنون
جانب السنفى ، وباستطاعتهم منع الاستيلاء على المكان . وكانت النتيجة الوحيدة
التي أسفر عنها العدوان المراكشى هى أن المراكشيين أصبحوا مهتمين باكتشاف
مدر جديد للملح ، وفى عام ١٦٥٢ شرعوا فى استغلال مناجم تاودينى . وقد تقدم
إكشيون فى عام ١٥٦٥ بادعاءاتهم فى تغازة ، وطالبوا بدفع جزية لهم ، بيد أنهم
مدأوا حين قدم لهم أسكيا داوود هدية من الذهب مقدارها عشرة آلاف مثقال ، مما
حمل على الاعتقاد بأن مراكش قد أخفقت مرة أخرى فى تحقيق هدفها .

وفى السنوات القليلة التالية انصرفت مراكش عن التفكير فى العدوان بسبب
انهماكها الشديد فى صد غزو أجنبى . فالنزاع المستمر بين مراكش وشبه جزيرة
أيبيريا انتهى باخراج المسلمين من أسبانيا والبرتغال . وكان الأيبيريون بدورهم
يفكرون فى غزو شمال إفريقية . وقد اشتهر هنرى الملاح بغزو سبته ، وأثار هذا
النجاح شهية البرتغاليين إلى فتح طرق التجارة مما دفعهم إلى التفكير فى غزو
مراكش نفسها .

ولم تتأخر الفرصة كثيرا . فقد ثار مطالب بالعرش المراكشى^(٦)، وطلب العون من الحاكم البرتغالى . وقاد ملك البرتغال ، بعد أن حصل على البركة البابوية ، جيشا متعدد الأجناس خدم فيه المغامرون من كل بلد أوروبى تقريبا قوامه خمسة عشر ألف راجل وألف وخمسمائة فارس ، وبلغ مرافقو الحملة تسعة آلاف ، وتطلب الأمر خمسمائة سفينة لنقل القوات . وفى يونيه ١٥٨٨ أوقع المراكشيون بالملك البرتغالى هزيمة منكرة فى موقعة **القصر الكبير**^(٧) بالقرب من فاس بعد معركة لم تستمر أكثر من ست ساعات قتل فيه ثمانية آلاف من الأوروبيين ووقع فى الأسر خمسة عشر ألفا منهم . وسقط فى ميدان القتال ملك البرتغال علاوة على عدد كبير من أشرف البرتغال ، وكان المطالب بالعرش المراكشى ، وكذلك حاكم مراكش ، من بين من ماتوا فى المعركة .

وكتبت موقعة القصر الكبير مصير البرتغال ، إذ غدت خلال نصف القرن التالى جزءا من أسبانيا . ذلك أن فتح إفريقية على أيدي المستكشفين الأوروبيين ، الذى قامت فيه البرتغال بالدور الأكبر ، قد أدى فى النهاية إلى ضياع الاستقلال البرتغالى . ولم تكن آثار هزيمة البرتغال ملموسة فى شبة جزيرة أيبيريا وحدها ، بل على ضفاف النيجر أيضا ، إذ أصبح من المحتوم أن يؤدى النصر المراكشى العظيم إلى سقوط أسرة الأساكي .

(٦) هو محمد المتوكل بن عبد الله الغالب ، وقد تولى عبد الله الغالب السلطة فى مراكش بعد وفاة والده محمد المهدي فى سنة ١٥٥٧ ، وظل فى السلطة إلى حين وفاته فى سنة ١٥٧٤ . وتولى السلطة من بعده ابنه محمد المتوكل . وبسبب المنازعات والمصاعب الداخلية ووجود أكثر من مرشح للسلطة تمكن عمه عبد المالك بن أحمد الأعرج من طرده فى سنة ١٥٧٦ بمؤازرة العثمانيين وتولى عرش مراكش . فالتجأ محمد المتوكل إلى سباستيان ملك البرتغال الذى رحب به وأعد الحملة لإرجاعه إلى السلطة ومد النفوذ البرتغالى على الإقليم . وقد حارب المتوكل فى صفوف سباستيان ولقى حتفه معه عند وادي المخازن قرب القصر الكبير ، وذلك فى أغسطس ١٥٧٨ .

(٧) نزلت القوة البرتغالية فى منطقة أصيلا ، ودارت المعركة عند وادي المخازن قرب القصر الكبير فى الشمال الغربى لمراكش . وقد حقق عبد الملك انتصارا مدويا فى هذه المعركة ، ولكنه كان مريضا ومات يوم انتصاره فصار الفخر كله لأخيه أحمد المنصور الذى أعلن سلطانا على مراكش فى اليوم نفسه . وبذلك يكون قد سقط فى هذه المعركة ثلاثة ملوك هم سباسيان ، والمتوكل ، وعبد الملك ، واشتهرت باسم معركة الملوك الثلاثة .

ويحتفل المغاربة فى ٤ أغسطس من كل عام بهذا النصر الساحق . وفى هذه المعركة لم تفقد البرتغال جيشها وملوكها فقط ، بل فقدت استقلالها أيضا . إذا لم يكن هناك وريث للعرش البرتغالى . فمد فيليب الثانى ملك أسبانيا نفوذه إلى البرتغال وممتلكاتها .

وأصبح لمراكش ، لفترة قصيرة ، مكان تحت الشمس . وقد حضر تتويج السلطان الجديد أحمد دبلوماسيون من إنجلترا وفرنسا ، وراودت إليزابيث آمال بأن تُتبع مراكش انتصارها على البرتغال بحرب ضد أسبانيا . وكان أحمد المنصور - الذى عرف بالذهبي - شابا واسع الاطماع شديد الطموح ، وتوآقا إلى أن يدخل التاريخ كفاتح عظيم ، لكن لم تكن لديه رغبة فى أن يعرض حياته وعرشه للخطر ببدء حرب مع أسبانيا لمجرد تخفيف الضغط على إنجلترا ، وإنما كان يبحث عن فريسة أيسر منالا .

ومرة ثانية أصبح لمناجم الملح دور بارز فى العلاقات ما بين مراكش وغاو . ففي عام ١٥٥٧ أعرب السلطان أحمد عن رغبته فى استئجار مناجم تغازة ، فأرسل بعثة محملة بالهدايا إلى أسكيا داوود لإتمام تلك الصفقة . ولم يكن داوود فى ذلك الوقت شديد الاهتمام بمناجم تغازة ، ووافق على أن يؤجرها للسلطان أحمد مقابل عشرة آلاف قطعة من الذهب.^(٨) وفى عام ١٥٨١ جاءت الحملة المراكشية على توات ، وهى الحملة التى مكنت السلطان من تقدير الصعاب التى تكتنف إرسال جيش كبير عبر الصحراء ، وأرسل جيش قوامه عشرون ألفا ، ولكنه دفع ضريبة الصحراء القاسية . وكانت نتيجة ذلك أن أرسل السلطان أحمد فى عام ١٥٨٤ بعثة دبلوماسية كبيرة إلى غاو للتعرف على حالة البلاد واستكشاف الطرق ومدى توفر إمدادات المياه . واستقبلت البعثة بحفاوة من جانب أسكيا داوود^(٩) الذى ظن أن الأخ العظيم فى شمال إفريقية قد أصبح مرة أخرى مَعْنياً بالتجارة والثقافة .

(٨) «وفى سنة خمس وثمانين وتسعمائة ... ليلة الجمعة خمسا وعشرين من شعبان (٧ نوفمبر ١٥٧٧) وفيها توفى السلطان مولاي عبد المالك فى مراكش ، وتولى أخوه مولاي أحمد الذهبي فبعث لاسكيا داوود أن يسلم فى خراج معدن تغاز عامما واحدا . وبعث له هو عشرة آلاف ذهبا هدية وعطية خير ، فكان سبب المحبة والوصلة بينه وبينه» تاريخ السودان ، الصفحتان ١١٠ و ١١١ . [يلاحظ فى هذا الاقتباس والاقتباسات الأخرى التالية من تاريخ السودان شىء من الاختلاف فى التواريخ عن المصادر التاريخية الأخرى ، فالمعروف أن السلطان عبد المالك توفى فى سنة ١٥٧٨ .]

(٩) المقصود هنا هو أسكيا الحاج الذى تولى سلطنة السنغى بعد وفاة أبيه أسكيا داوود فى أغسطس ١٥٨٢ (رجب ٩٩٠) وخلع منها فى ديسمبر ١٥٨٦ (ذى الحجة ٩٩٤) . «ثم ارسل السلطان مولاي أحمد الشريف الهاشمى رسوله إلى أسكيا الحاج بهدايا عجيبات وقصده فى ذلك الاطلاع على حاله بلاد التكرور لأنه عزم على بعث رسوله إلى كاع فتلقا أسكيا بالاكراهم وأرسل له عند رجوع مرسوله أضعاف ما أرسل هو من الهدايا.» تاريخ السودان ، الصفحة ١٢٠ .

وطوال هذه الفترة كان لمراكش مزية تتفوق بها على غاو . فالتجار في المدن السودانية هم أساسا من العرب ، وكما كانت الحال في المنطقة الساحلية ، فإن طبقة كومبرابورية كانت تسيطر على الحياة الاقتصادية في البلاد . وكان الكومبرابور يعملون في تعاون وثيق للغاية مع رؤسائهم من التجار العرب المسيطرين على المدن ، وفي البلاط كانت لهم مزية كبيرة . فهم يعرفون اللغة العربية ، لغة النبي ، وينتمون أو يدعون الانتماء إلى عائلات الصحابة . ولما كان الملوك وأبناء الطبقات العليا من المسلمين ، فقد رحبوا بإخوانهم في الدين الأوسع علما القادمين من الشمال . ومع ذلك فإن العرب لم يكونوا ينظرون إلى الزنجي ، حتى وإن كان مسلما ، كند لهم ، ومن ثم فقد كانوا يعملون لصالح سلاطين مراكش ، تساندهم في ذلك طبقة معينة من التجار الزنوج المسلمين وأبناء الطبقات المتعلمة المسلمة ، إذ كانوا يؤمنون بأن الشمال بإسلامه الأكثر نقاء قد يكون من الناحية الفعلية أقدر على جلب الخير للسودان . والتجارة كالعادة سبقت العلم ، وكانت مصحوبة بالدين ، والآن كان على العلم أن يتبعها .

واستنادا إلى السعدى ، فإن السلطان أحمد أرسل بعد عودة البعثة جيشا قوامه عشرون ألفا ولكنه هلك في الصحراء.^(١٠) وعندئذ قدم إنذاراً إلى السنغى يطالبهم فيه بالتنازل عن تغازة والاعتراف بالسيادة المراكشية ودفع جزية مقدارها مئتان ألف دينار من الذهب لقاء كل حمل من الملح يساهم به في جيش الإسلام . فبعث إليه إسحاق الثانى ، الذى يتولى السلطنة ، برد ملئ بالسخرية قوامه حزمة من الأقواس والحراش على سبيل الهدية ، واح أحمد يتحين الفرصة.^(١١)

(١٠) «... وبعد ذلك وردت الأخبار أنه بعث جيشا فيها عشرون ألفا رجالا إلى جهة ودان وأمرهم بأخذ ما هنالك من البلدان على شاطئ البحر وغيرها حتى يصلوا إلى بلاد تنبكت فتخوف الناس من ذلك غاية الخوف ثم شئت الله ذلك الجيش بالجوع والعطش ، فتفرقوا شذر مذر ورجع من بقى منهم إليه وما قضوا شيئا من مراده بقدرة البارئ تعالى ...» ، تاريخ السودان ، الصفحة ١٢٠ .

(١١) «... ومن جملة ما خاطبه فيه مولاي أحمد أن يسلم له فى خراج معدن تغاز ... قلم يساعفه الأمير أسكيا إسحاق بما طلب من التسليم فى ذلك المعدن بل قَبَّحَ له الكلام فى الجواب وبعث له صلبة جوابه حرشانا ونعلين من حديد ، قلما وصله ذلك عزم على صرف المحلة إليه بالغزو ...» المرجع نفسه ، الصفحتان ١٢٧ و١٢٨ .

[الحرشان هي الحراب : أسكيا إسحاق المشار إليه في هذا الاقتباس هو أسكيا إسحاق الثانى الذى تولى سلطته السنغى فى الفترة من ١٥٨٨ إلى ١٥٩١ بعد وفاة أسكيا محمد بان .]

حانت هذه الفرصة في عام ١٥٨٩. ففي ذلك العام قدم إلى مراکش ولد كرنفل ، وهو زنجي من السنغى استنادا إلى بعض الرواة ، وبربرى استنادا إلى بعض آخر . وزعم أنه أخ أكبر للأسكيا وأنه هرب من مناجم تغازة ، حيث كان أخوه قد أودعه السجن ، وطالب بتاج غاو ودعا السلطان إلى تأييد مطلبه .^(١٢) فاغتنم أحمد الفرصة ، ودعا مجلسا من مستشاريه ، وعارض المجلس إرسال حملة إلى السودان ، وقال الأعضاء إن خطر عبور الصحراء يشكل حاجزا لا يمكن التغلب عليه، وإن أرباح التجارة مع السودان رغم كل شيء تتدفق على خزائنهم ، وإنه ليس هناك ما يحمل على الاعتقاد بأن الغزو سيزيد من حجم تدفق الذهب . ولكن السلطان مع ذلك لم يتزحزح عن موقفه ، اعتقادا منه أن الغزو سيؤدي إلى مزيد من الاستثمار لمناجم الذهب وإلى زيادة ثراء الجميع . كما أن حاكم غاو لا ينتمي إلى قبيلة قريش ، وما دام قد رفض الاعتراف بالشريف سيدا له يكون من الضروري غزو السودان . وقال لسلطان أحمد إن الطريق إلى السودان ليس حاجزا منيعا : «ألا يعبر التجار العزل عديمو الحيلة الصحراء بانتظام؟» ثم إن أحمد يملك ناصية التفوق العظيم الذي حققه المراكشيون على أهل السودان - فليدهم البارود والأسلحة النارية - ولذا فلا بد أن يكون الغزو سهلا .

واختار أحمد لقيادة قوات الحملة خصيا أندلسيا قصير القامة أزرق العينين يدعى جودار^(١٣) ، وأنعم عليه بالباشوية . وكان جودار قبل ذلك يعمل جابيا للضرائب، وكان وقت توليه هذا المنصب لا يزال في مرحلة الشباب ويفتقر إلى أية خبرة حربية . ويعد هذا الاختيار ضربة من ضربات الحظ ، إذ كان أكثر رفاق سنه

(١٢) «ذلك أن ولد كرنفل ، وهو رجل من خدام أمراء سنغى غضب عليه الأمير أسكيا اسحق بن داوود بن أمير أسكيا الحاج محمد فبعثه إلى تغاز برسم السجن هناك وهو من بلادهم الذي في ملكهم وحكمهم فكان من قدر الله انطلاقه من ذلك السجن وهرب إلى مدينة حمراء مراکش عند أميرها الشريف مولاي أحمد الذهبي ولم يدركه فيها ... فكتب ولد كرنفل كتابا وبعثه له فأخبره بمجيئه وبأخبار أهل سنغى وبما كانوا عليه من الأحوال الذميمة والطبائع الزبدية مع ضعف القوة وحضه على أخذ الأرض من أيديهم فكتب الكتاب إلى الأمير أسكيا إسحاق بعد ما بلغه كتاب ولد كرنفل وأخبره بمجيئه إليهم .» تاريخ السودان ، الصفحة ١٣٧ .

(١٣) «مجي الباشا جودار لبلاد السودان ، وهو فتى قصير أزرق ...» تاريخ السودان ، الصفحة ١٣٧ .

من الأسبان شهرة ، والأسباني الوحيد ، من بين الأسبان الكثيرين الذين عملوا في خدمة الدولة المراكشية ، الذي يمكن مقارنته بالكونكويستادورات^(١٤) العظام . فعصبة الأسبان التي فتحت السودان لصالح مراكش يمكن مقارنتها من حيث البسالة والشجاعة والإقدام ، أو من حيث حبها للمغامرة ، بالجماعات التي صحبت كورتيز^(١٥) إلى المكسيك أو بيزارو^(١٦) إلى بيرو . وهذه المقارنة ليست بالتأكيد في صالح جودار ورفاقه . فقد صحبت جودار نخبة قوامها ألفان من المشاة المسلحين بالبنادق ، وخمسمائة من الخيالة بأسلحة مماثلة ، وألف وخمسمائة من حملة الرماح ، وستمائة من رجال المقدمة ، وألف من راكبي الجمال . كما زودت الحملة بستة مدافع كبيرة وأسلحة صغيرة كثيرة أقل حجما . وتكونت وسائل النقل من ثمانية آلاف جمل وألف من خيول الحمل^(١٧) . وكان معظم حملة البنادق وكل رجال المدفعية تقريبا من الأسرى المسيحيين الذين اعتنقوا الإسلام . واستخدمت الحملة اللغة الأسبانية لغة رسمية لها .

(١٤) الكونكويستادور بالأسبانية معناه الفاتح ، وهو مصطلح يطلق على المحاربين الأسبان الذين ارتادوا أجزاء من العالم الجديد في القرن السادس عشر وفتحوها عنوة عن طريق الحروب . وقد استطاعوا بعزيمتهم وشجاعتهم أن يخضعوا غالبية مناطق أمريكا الجنوبية وجميع أمريكا الوسطى لاسبانيا ، وكذلك أجزاء كبيرة من جنوب أمريكا الشمالية وغربها . ومن مشاهير هؤلاء الفاتحين الماجرو وبيدراريان وبيزارو وكيسادا وفالديفيا وكورتيز .

(١٥) إيرنان (أو إيريرناندو) كورتيز : (١٤٨٥-١٥٤٧) ، من أوائل الفاتحين الأسبان ، خدم في أمريكا اللاتينية وكوبا ، ثم ذهب إلى المكسيك في عام ١٥١٩ لفتحها ، وقاد حملة إلى هندوراس (٢٤-١٥٢٤) .

(١٦) فرانسيسكو بيزارو : (١٤٧٦-١٥٤١) ، فاتح أسباني مشهور ، صحب أويدا إلى كولومبيا في عام ١٥١٠ ، وبالبورا في استكشاف المحيط الهندي . تسلق جبال الأنديز إلى كاهاماركا ، ويعد أن ضمن فتح بيرو شرع في إقامة مستوطنات جديدة (من بينها ليما) ، وأنفذ شريكه الماجرو لفتح شيلي .

(١٧) «فلما وصله ذلك عزم على صرف المحلة إليه بالغزو وفي القابل (أي السنة التالية) في شهر المحرم فاتح عام التاسع والتسعين بعد تسعمائة بعث المحلة الكبيرة إلى سفى لقتالهم فيها ثلاثة ألف راميا ما بين أصحاب الخيل والرجل ومعهم من الاتباع ضعفها كل صنف وأجناس من الصناع والأطباء وغيرهما جعل عليها الباشا جودار ومعه نحو عشرة من القياد القائد المصطفى التركي والقائد ... تاريخ السودان ، الصفحة ١٣٨ . [أول محرم ٩٩٩ يقابل ٣٠ أكتوبر ١٥٩٠.]

وفى ١٦ أكتوبر ١٥٩٠ بدأت الحملة مسيرتها ، وشقت طريقها مارة بتندوف وتغازة وتاوديني . وبعد مسيرة ١٣٥ يوما ، فى ٢٨ فبراير ١٥٩١ ، وصلت إلى مدينة كاربارا إحدى مدن النيجر ، بالقرب من مدينة بمبا الحالية . وكانت الرحلة طويلة وشاقة ، ولابد أن الخسائر كانت فادحة . واستنادا إلى تاجر إنجليزى مقيم فى مراكش فإن الحملة فقدت ثلث قوتها الضاربة قبل وصولها إلى النيجر .

ولم يخل عبور الصحراء من الأحداث . فالسنغى لم يكونوا يتوقعون الغزو ، وقد أقاموا شأنهم شأن الدول الأخرى التى عاشت فى ظروف مماثلة سلسلة من الاستحكامات ، وغامرهم إحساس بأن الصحراء الكبرى يمكن أن تحمى ظهورهم ، مما أعطاهم شعورا زائفاً بالأمن فلم يتخذوا الاحتياطات اللازمة من قبيل تسميم آبار الطريق . وعندما ترامت أنباء الغزو إلى أسماع الأسكيا كان المراكشيون قد دخلوا أرضيه فأمر بتسميم الآبار ، بيد أن ذلك جاء متأخراً للغاية ، فالمراكشيون على الأبواب والصحراء الكبرى تم عبورها ، وأصبح على سهام إسحاق وحرابه أن تواجه حملة البنادق الأسبان والمراكشيين .

أخذ إسحاق يستعد للحرب بجد واهتمام . ولما كان المراكشيون قد تغلغلوا فى أراضية وأصبحوا بين غاو وتمبكت ، فإ المبادرة كانت فى يد جودار . وقرر جودار السير نحو غاو ، لذلك قرر الأسكيا ، بكل مالدية من قوات ، أن يقطع عليه الطريق . وناشد جودار السنغى التسليم ، ولكن الأسكيا بجيشه المكون من إثنين وأربعين ألفا كان عاقد العزم على المقاومة . والتقى الجيشان فى تندى على النيجر^(١٨) ولم تكن لدى غاو أية قوات مدربة ، بل مجرد حشد إقطاعى فى مواجهة جيش صغير ولكنه عالى التدريب . وسير السنغى فى أول الأمر أعدادا كبيرة من الماشية فى اتجاه المراكشيين ، ولكن هؤلاء فتحوا خطوطهم وتركوا الماشية تمر خلالها . وبدأ جيش غاو عاجزاً عن إبداء أية مقاومة فعالة إزاء مدفعية جودار . وهزم السنغى

(١٨) « فتوجهوا إلى بلد كاغ فتلقاهم الأمير أسكيا إسحاق فى موضع يقال له تَنُكُنْبُيْعُ وهو فى قرب تندى فى اثنى عشر ألفا وخمسمائة من الخيل وثلاثين ألفا من أرباب الرجل ولم يلتزم عليه العسكر لأن أهل سنغى ماصدقوا بخبرهم حتى نزلوا على البحر فاقتتلوا هنالك يوم الثلاثاء السابع عشر من الشهر المذكور (١٧ جمادى الآخرة ٩٩٩ - ٢ أبريل ١٥٩١) فكسروا جيش أسكيا طرفة عين » المرجع نفسه ، الصفحتان ١٣٩ و ١٤٠ .

بسهولة ماعدا نخبة منهم ركع أفرادها وقيد كل منهم ساقيه بساقى من بجانبه كيلا يتراجع أحد منهم ، وظلوا يطلقون السهام حتى قنوا عن آخرهم.(١٩)

وفى غضبون ذلك قام إسحاق بتكوين جيش آخر ، ولكن الفع بكر لنبار ، وهو الشيخ الذى رافق الأسكيا ، أقنعه بألا يحارب . وكان هذا الشيخ ، كما يقول محمود كعت ، هو عبقرية السنغى الشريرة ، وقد نصح الأسكيا بألا يكون سببا فى قتل إخوته فى الدين ، وبأن يخشى الله ، فلا بد أن يتحمل وزر جميع من قتلوا فى ذلك اليوم . وأشار على الأسكيا بأن يرجع ليتأمل ويتعبد ، وإذا مادت الضرورة فليحارب فى اليوم التالى . وفى النهاية حسم الأمر وأمسك بعنان فرس الأسكيا وقاده بعيدا عن أرض المعركة ، وعاد الأسكيا بجيشه سليما إلى غاو ، ولكن دون أية رغبة فى القتال.(٢٠)

(١٩) «ومات كثير من كبراء أهل الرجل يومئذ لما انكسر العسكر طرحوا دروقهم على الأرض وقعدوا عليه متربعين حتى وصلهم جيش جودار وقتلوهم صبوا على تلك الحال لأن من شأئهم عدم الفرار عند الانكسار» المرجع نفسه . الصفحة ١٤٠ .

«فقال إن أسكى لقيهم بثمانية عشر ألف فارس مقاتل ... وتسعة آلاف راجل وسبعماية منهم اثنى عشر سؤنة بعصيتهم فلما دنى منهم رجالية الرماة جنوا على ركبهم يرمون بالرصاص وقد ساق ألف بقرات معه حين صف قتالهم وجعلها بينه وبين القوم وينزل عليهم الرصاص ويتبع رجاله البقرات حتى تخالطوا بهم فلما أحس البقرات بأصوات مدافعهم ولوا على أصحاب أسكى حازمين متحيرين وصدم منه كثيرا ومات أكثرهم» تاريخ الفتاش الصفحة ١٤٧ . [تقول حاشية بالترجمة الفرنسية ، الصفحة ٢٦٤ ، «إننا لا نعرف معنى كلم سونه» .]

(٢٠) «وعند ذلك نزل أسكى الفع بكر لنبار وأخذ بلجام أسكى .. ثم قال أسكى الفع المنكور اتق الله ولا تقتل نفسك وتقتل إخوانك وتهلك سنغى كلها مرة واحدة فى موضع واحد ... ولا نأمرك بالهروب وإنما نقول لك أن تخرج بهم من مقابلة هذه النار اليوم ثم تنتظر فى رأى ما نفعل ونرجع إليهم غدا بعزم وعزم ... وهو ومن معه من شجعانه ورؤساء قومه يأبون إلا القتال ... ثم لم يزل أسكى الفع به حتى غلبه وبيده عنان فرس أسكى يقوده ويهربه فلما رأى أصحاب أسكى أنه أدبر وتولى لم يقف بعده أحد منهم بل اتبعوه سوى الذين يقال لهم سونه وهم تسعة وتسعون لم يتحرك أحد منهم ويقوا جالسين تحت تروسهم وأتركهم أصحاب جوير قاعين قتلوهم أجمعين .» المرجع نفسه ، الصفحتان ١٤٧ و ١٤٨ .

وكان هدفه عندئذ هو عبور النهر ، وطلب إلى أهالي غاو وتمبكت أن يعبروا ، ولكن رئيس الميناء ولى هاربا ومعه القوارب.^(٢١) وبعد أن تخلى إسحاق عن كل فكرة في القتال ، بدأ في نهاية الأمر المفاوضات مع جودار الذي كان قد دخل غاو . وكانت لدى جودار بدوره رغبة في التفاوض . فلقد شاهد غاو على الطبيعة ، وكان ذلك كافيا كي يطرح جانبا أية أفكار عن ثراء السودان . ووجد لدى إسحاق استعدادا للاعتراف بسيادة مراكش ، ولأن يدفع مائة ألف مثقال من الذهب وألفا من الرقيق ، ولأن يسمح بتصدير الملح والأصداف ، مقابل الانسحاب العاجل من السودان . ولكن جودار لم يكن مخولا أية سلطات للتفاوض ، ولذلك عرض المقترحات على البلاط المراكشي.^(٢٢) غير أن أحمد لم يدرك ماناله من حظ طيب ، وأعلن تبرمه من نتائج الحملة الهزيلة ، ورأى أن إحداث تغيير في قيادتها يمكن أن يحقق نتائج أفضل . وهكذا بينما أعلن لرعاياه أن نصرا كبيرا قد تحقق في السودان ، قرر المضى في الحرب بحمية أكبر . ووقع اختياره على محمود بن زرقون ، وهو أسباني آخر اعتنق الإسلام ، ليحل محل جودار على ضفاف النيجر.^(٢٣) وأُقلع محمود باشا إلى السودان

(٢١) «فولى الأمير إسحاق وعسكره مدبرين منهزمين فبعث لأهل كاغ أن يخرجوا منه فرارا إلى جهة البحر ... فكان بكاء ونوحا فيها وارتفعت الأصوات بذلك ارتفاعا عظيما وشرعوا في الخروج واقتطاع البحر في القوارب بالمشقة والازدحام ... وأما أهل تنبكت فلم يمكن لهم الخروج والفرار إلى وراء البحر لأجل المشقة وثقل الحال» تاريخ السودان ، الصفحتان ٤٠ و ١٤١.

« ... لأن صاحب المرسى منذ الفع ولد زركُ هرب بجميع القوارب إلى ناحية بُنْكَ لما بعث إسحاق لأهل تنبكت بالارتحال ...» المرجع نفسه ، الصفحة ١٤٥ .

(٢٢) «تم أنه رام الدخول في دار الأمير أسكيا إسحاق فأمر باحضار الشهود فحضرُوا ودخل معهم فيها فلما طالعها وعابنها وعلم ما فيها حقَّرها وبعث له الأمير إسحاق إنه يصالح معه على مائة ألف ذهب وألف خديم يعطيها للأمير مولاي أحمد على يده ويرجع الجيش إلى مراكش ويسلم له في أرضه فبعث له أنه عيب مأمور لا تصرف له إلا بما أمره مولاه السلطان فكتب له بذلك ... فرجع إلى تنبكت مع أولئك الجيش لينتظر الجواب .» المرجع نفسه ، الصفحة ١٤١.

(٢٣) « ولنرجع إلى الكلام في تمام ذلك الصلح فلما بلغ الرسول بشروط على العجمي عند السلطان مولاي أحمد وهو أول من أتاه بخبر فتح أرض السودان وقرأ ذلك الخطاب غضب غضبا شديدا عزل جوار ساعتئذ وبعث محمود بن زرقون باشا بثمانين راميا ... وأمره بطرد إسحاق من أرض السودان وقتل القائد أحمد ابن الحداد العمري حيث اتفق مع جودار على ذلك الصلح ...» المرجع نفسه ، الصفحة ١٤٤ .

بصحبة حرس قوامه أربعون أسبانيا ممن اعتنقوا الإسلام ، بعد أن حصل على إذن بتكوين جيوش غير نظامية في السوس ، وقرر أن يستخدم النيجر كوسيلة للمواصلات وأن يبني قوارب من أجزاء في درعة يمكن نقلها إلى النيجر.^(٢٤)

وهكذا بينما كان أحمد يستعد لمواصلة الحرب بحمية أكبر كان إسحاق عاكفا على إرضاء جودار بكل وسيلة ممكنة . وكانت حالة الجيش المراكشي يرثى لها ، فالمناخ شديد الوطأة عليه ، والموت يعصف بأفراده حتى لقد مات أربعمئة منهم في أربعة عشر يوما ، بل إن نواب النقل بدورها كانت تنفق تباعا ، لذلك أشار إسحاق على جودار بالتحرك نحو تمبكت ، لأنها ليست أفضل حالا فقط ، ولكن أطيب مناخا أيضا . وتمكنت إسحاق الرغبة في استمالة جودار حتى لقد زوده بوسائل النقل . وانتقل جودار إلى تمبكت وراح ينتظر قنوم الرسل من مولا ه .

ولم يؤد وصول محمود باشا إلى إفساد خطط السنغى وحدهم ، بل خطط جودار أيضا . وفقد جودار منصبه . وكان هدف محمود أن يحصل على أكبر قدر من الذهب ، ولهذا رأى ضرورة إخضاع البلاد كلها لسيطرته ، وشرع في حماسة شديدة في بناء القوارب بقطع كل ما تيسر له من أشجار ، بل إنه استخدم أخشاب الأبواب والنوافذ.^(٢٥) بيد أن الأسكيا لم يكن غافلا عما يحدث ؛ فقد أرسل قائد أسطوله هيكي على رأس ألف من خيرة قواته للقضاء على نشاط المراكشيين،^(٢٦) ولكن

(٢٤) «فعزل (محمود بن زرقون) جودار ساعتئذ وتحول الجيش معه وبألف له في الملامة والإنكار عليه حتى قال له أي شيء منعك من اللحق إلى إسحاق فاعتل له بعدم القوارب ولذلك شرع في صنع القوارب ثم إن محمودا عزم على الحركة إلى أسكيا فاشتغل بإصلاح القوارب لأن صاحب المرسى منذ الفع ولد زرك هرب بجميع القوارب إلى ناحية برك ...» المرجع نفسه ، الصفحة ١٤٥ .

(٢٥) خلط پانيكار بين الأحداث ، فالذي صنع القوارب من الأشجار وأخشاب الأبواب والنوافذ ليس محمود زرقون ، بل أهالي تمبكت ، كما يتضح من الاقتباس التالي : « لما بعث إسحاق أسكيا لأهل تمبكت بالارتحال فقطعوا جميع الأشجار الكبار الذين كانوا في داخل مدينة تمبكت ونجروا منها الألواح وغصبوا الدفوف الغلاظ الكبار الذين كانوا في أبواب الديار وركبوا منهن قاربين أنزلوا الأول في البحر يوم ... ثم أنزلوا الثاني ... فبرز الباشا محمود مع الجيش كلها يوم الإثنين العشرين من الشهر المذكور (٢٠ ذي القعدة ٩٩٩ - ٩ سبتمبر ١٥٩١) ومعه الباشا جودار المعزول» المرجع نفسه ، الصفحتان ١٤٥ و ١٤٦ .

(٢٦) «بعث الأمير أسكيا إسحاق ألفا ومائتين فرسانا من خيار عسكريه الذين لا يولون الادبار وجعل عليهم هيكي له سريريا وهو قد بلغ الغاية والنهاية في النجدة والشجاعة» المرجع نفسه ، الصفحة ١٤٨ .

الانقسامات بين الأمراء أدت إلى كارثة . وما إن انتهى محمود من بناء القوارب حتى شرع في مطاردة الأسكيا ، وصحب معه جودار كى يأمن جانبه . وفى بُنْب تعرض إسحاق لهزيمة ثانية كانت نتيجتها ثورة فى القصر ، وحل محمد كاغ (غاو) محل إسحاق . وفر إسحاق إلى كُرْم وأخذ معه «جميع ماعنده من عدد السلطنة وآلاتها»^(٢٧) وفى كُرْم قام الوثنيون بقتل آخر حاكم مستقل لغاو .

وكان محمد كاغ شديد الاهتمام بتحقيق السلم شأنه شأن أسكيا إسحاق ، فبدأ محادثات مع المراكشيين . وكانت تمبكت تعانى المجاعة ، فسارع الأسكيا بارسال المواد الغذائية إلى المراكشيين الذين أو شكت مواردهم على النفاذ.^(٢٨) وبعث بسفيرين - **أسكيا الفع**^(٢٩) و**هيكى** - إلى الباشا^(٣٠) الذى طلب أن يقسم الأسكيا

(٢٧) «فعن قليل بايع أولئك الجماعة محمد كاغ وجعلوه أسكيا فتجهز إسحاق للذهاب إلى ناحية كَب فلما عزم قبض كبراء الجند الذين اتبعوه جميع ماعنده من عدد السلطنة والآلات وشيعوه إلى موضع يقال به تار فتفارقوا معه هناك يستغفر منهم ويستغفرون منه فبكى هو ويبكون فهذا آخر العهد بينهم ثم توجه إلى تَنْفَنَى عند كفار كُرْم بقدرة البارئ تعالى الذى لا راد لأمره ولا معقب لحكمه وقد قاتلهم العام الماضى ... فقتلوه وابنه وجميع من معه..... وكان موته والله أعلم فى جماد الآخر فى العام المكمل للألف» المرجع نفسه ، الصفحة ١٤٩ .

(٢٨) «ثم إن المجاعة دخلت فى محلته (محمود بن زرقون) حتى أكلوا دوابهم فبعث لأسكيا محمد كاغ أن يغيثهم بالطعام أينما كان فأمر بحصاد ما صلح هنالك من الزرع فى جهة حَوْص وهو النرة الأبيض فبعثه لهم ..» المرجع نفسه ، الصفحة ١٥٠ .

(٢٩) هو أسكيا الفع بكر لَنْبَارُ (أنظر الحاشية ٥-٢٠ أعلاه) ، كما ورد فى تاريخ الفتاش أيضا تحت اسم أسكيا الفع بكر الأنبارى . وقد عمل أسكيا الفع بكر لنبار سكرتيرا لأسكيا داوود وخلفائه ، وعبارة «أسكيا الفع» تعنى لدى السنغى «أسكيا الفقيه» ، ويقال إن كلمة الفع تحريف للكلمة العربية الفاهم .

(٣٠) «ثم أن الباشا محمود بعث له أن يأتى لأخذ البيعة فعزم على ذلك ونهاه عنه أصحاب الراى من قومه منهم هيكى لَه فلم يصوب الراى الكاتب بكر لنبار المذكور فساروا إليهم جميعا فلما قربوهم بعث أسكيا محمد كاغ من يستأين لهم فبعث الباشا محمود نحو أربعين رجلا من أعيان الجيش وكبرائهم للقائهم بلا عدة ولا سلاح فأشار إليه هيكى بقتلهم فلما رآه الكاتب المذكور حلف لأسكيا إنه ليس عند الباشا محمود إلا الأمان التام بعهد الله وميثاقه فسمع له ذلك وعمل عليه فلما دنوا منه سلموا عليه وبلغوا له سلام الباشا محمود وأنه يرحب به فتقدموا قدام أسكيا وأصحابه وقد احضر لهم شبائك الخداع والغدرة ... أما أسكيا محمد كاغ فقيّد فى الحديد وقيّد معه ثمانية عشر رجلا من رؤسائه منهم هيكى لَه ...» المرجع نفسه ، الصفحتان ١٥٠ و ١٥١ .

«وتحدث الناس أن الكاتب بكر لنبار هو الذى غدر محمد كاغ وأصحابه وباعهم للباشا محمود حتى تمكن منهم فقال لبعض أصحابه فى تنبكت لما سكن فيه بعد جميع الوقائع هذا الذى نسب إلى من الغدرة فوالله العظيم ما كان وما أخبرت محمد كاغ إلا بما يعلم الله فى من النصيح اتكالا وثقة على ما حلف لى محمود فى ذلك وما غدر إلا هو فغدرنى وما غدر محمد كاغ» المرجع نفسه ، الصفحة ١٥٣ .

يمين الولاء للسلطان في حضرته ، وعارض هيكي في ذلك ، ولكن أسكيا الفع أقنع أسكيا محمد كاغ بأن ذلك هو الحل الأفضل في ظروف كهذه . واستقر رأي الأسكيا على القيام بزيارة الباشا . وتقدم المراكشيون لمقابلة السنغي ، ومرة أخرى توسل هيكي إلى الأسكيا أن يغتنم الفرصة بكلتا يديه وأن يقتل المراكشيين . ولكن مصير محمد كاغ كان قد تقرر بالفعل ، ذلك أنه وقع من جديد تحت تأثير أسكيا الفع ووثق بالمراكشين تماما . ودعا محمود باشا ضيفه الملكي إلى الغداء ، وعندئذ وضع أسكيا محمد كاغ وكل رجال حاشيته البارزين ، فيما عدا أسكيا الفع ، في الأغلال .

وسيق الأسرى إلى غاو في الأغلال . وأشار عليهم هيكي الذي يفضل النضال دائما بأن يستخدموا أغلالهم ضد أسريهم ، وأن يقتلوا على الأقل بعضا من المراكشيين ، غير أن الأسكيا كان لا يزال يؤمن بفضائل الصبر . وفي غاو أودعوا السجن حتى تصل الأوامر من السلطان بقطع رؤوسهم.^(٢١)

ويشير موت أسكيا محمد كاغ إلى مرحلة في تاريخ السودان ، وأصبح على أمجاد غانة ومالي والسنغي أن تتحول إلى مجرد ذكريات ماض بعيد ، ذكريات ظلت مترسبة في وجدان الشعب . وأصبحت السنين الثلاثمائة التالية فترة ممالك سريعة الزوال ، وحروب مستمرة ، وغارات من جانب المراكشيين والطوارق . ولم يعرف السودان عند منحنى النيجر طعم السلم مرة أخرى إلا مع مجيئ الفرنسيين.^(٢٢)

ومع ذلك لم تتوقف المقاومة على الإطلاق . والحقيقة أن السنغي أبدوا مقاومة أفضل من كل مقاومة أبدوها من قبل ، ونصب المراكشيون في غاو أسكيا عميلا ، هو الأسكيا سليمان^(٢٣) ، ولكن السنغي الذين تراجعوا إلى موطنهم الأصلي في دندى

(٢١) «فبعثهم (محمود باشا) إلى كاغ عند القائد حم بركة وقد خلفه على ذلك وأمره بسجنهم في بيت دار سلطنتهم ثم بعد ذلك أمره بقتلهم وطبع عليهم ذلك البيت فكان قبرهم الاميكي لة وحده قلما دخلوا المدينة امتنع لهم من الذهاب استعجالا للموت فقتل هناك وصلب ...» المرجع نفسه ، الصفحة ١٥١ .

«وقيل إن أسكيا محمد كاغ ما استأخر في النيا بعد وفاة اسحاق إلا أربعين يوما ...» المرجع نفسه ، الصفحة ١٥٢ .

(٢٢) وهل عرفوا طعمه حقا مع مجيئ الفرنسيين !!!

(٢٣) «وأما سليمان بن الأمير أسكيا داوود فقيده مع المقبوضين ثم كلمه أهل الرأي فسرّحه وبقي عندهم مع أناس قلال منهم ...» المرجع نفسه ، الصفحة ١٥٢ .

«فجعل الباشا محمود سليمان أسكيا على من بقي من أهل سغي ...» المرجع نفسه ، الصفحة ١٥٣ .

استطاعوا أن يحتفظوا بالجنوب كله . وكان الأسكيا الموجود في دندى هو نوح ابن أسكيا داوود.^(٢٤) وأثبت نوح أنه قائد فُطِر على حرب العصابات . فقد نظم مقاومته على هذا الأساس . وعلى الرغم من أن النصر لم يكن حليفه في معظم معاركه، فإنه لم يكن يتيح للمراكشيين فرصة لتدعيم قوتهم . وقد طارد محمود باشا السنغى حتى كبّ وأوقع بهم الهزيمة في موقعة وام في عام ١٥٩١ (١٠٠٠ - ١٠٠١هـ) ، غير أن الهزيمة زادت من تصميمهم على القتال ، وفي عام ١٥٩٣ أوقع السنغى الهزيمة بالمراكشيين في برّنى.^(٢٥)

(٢٤) «و حين بعث محمد كاغ في إطلاق أخويه المسجونين فار منذ المصطفى وينتقل فرم نوح وهو أصغرهما سنا ونوح أصغر من المصطفى سنا فرحا فرحاً شديدا وعزما متى وصلا إليه يكرمان شأنه حتى يمشيا قدماه متى ركب في نعليهما فتلقيا في الطريق بخبر هذه المصيبة وهي قبضته مع جماعته فوليا راجعين إلى أرض دند واجتمع عليهما جميع من كان من أهل سنغى واتفقوا مع نوح أن يولوا أمرهم فارى منذ المصطفى ليكون أسكيا ولم يقبل فقال لهم نوح أفضل وأبرك والبركة حيثما جعلها الله تكون لا تختص بالكبر ولا بالصغر فبايعوه ...» المرجع نفسه ، الصفحتان ١٥٢ ، ١٥٣ .

(٢٥) «ثم أن الباشا محمود جهز جيشه فتبع أسكيا نوح إلى أرض دند فوصل معه موصلا في ذلك حتى أن أهل الأرض كنّت يسمع أصوات مدافعهم للمقاتلة بينهم في يوم واحد ... ولم يزل الباشا محمود يتبعه بالغزو حتى بنى قصبة في بلد كُنّ ... وجرت بينهما هنالك وقائع كثير شداد وكان يتبع نوحا في يوم حتى وصل مع جيشه بطحاء واسعة كبيرة جدا ... وكانت بينهما في ذلك الأرض معارك هائلة كثيرة ونال منهم أسكيا نوح مع قلة أتباعه مالم ينل منهم إسحاق أسكيا مع كثرة أتباعه ولو بعشر العشر ومات من أصحاب الباشا محمود يوم برّنى ثمانون رجلا من خيار أرياب الرجل ...» المرجع نفسه ، الصفحتان ١٥٣ و ١٥٤ . [يتضح من هذا الاقتباس أن محمود باشا طارد السنغى إلى كُنّ وليس إلى كبّ.]

«ومتى قدم وجد نوحا قد ذهب وهرب إلى دند فلما تبعه الباشا محمود وجوب وجيشهما يقتفون آثاره وهم لا يشعرون بأنهم على آثارهم نزلوا بمكان يسمى وام ومعه جم غفير من أهل سنغى والرجال والأطفال والعبيد والأماء ينتجعون معه من أهالي كاغ ونواحيها وأمرهم محمود بن زرقون هنالك نازلين وقت القيلولة فما نبههم إلا رهج الخيول ... وماكان إلا كلمح البصر ونوح جالس فأمره أصحابه بالركوب والهروب إلى أين قد هربنا إلى أن عجزنا ونصبر اليوم حتى نموت على دين الإسلام ونستريح فحملوه أخوانه وأركبوه وفروا به ... ويسمى هذا اليوم الذي لحقهم فيه الباشا محمود يوم وام يوم سفكوا دماغم وسبوا نزاريهم ...» تاريخ الفتاش ، الصفحة ١٦٨ .

«ولنرجع إلى ذكر رجوع الباشا محمود إلى تنبكت وقد تقدم أنه استأخر في أرض دند عامين في المحاربة مع أسكيا نوح ولم يظفر بمراذه فيه ...» تاريخ السودان ، الصفحة ١٦٨

وكان للمراكشيين متاعبهم أيضا في الأراضي التي سيطروا عليها . فانهيـار أسرة الأساكى أسفر عن عدم وجود حكومة منظمة هناك . كما أن قبائل الطوارق والبمـبرة وغيرهم ، سواء في الصحراء أو في السودان ، اجتاحتها رغبة في الانغماس في اللذات التي يوفرها نهب المدن . فما إن غادر محمود باشا مدينة تمبكت حتى هاجمها الطوارق ، وعلى الرغم من أنهم هزموا في ميدان القتال فقد تمكنوا من دخول المدينة ، وعجز الحاكم مصطفى عن مواجهتهم،^(٣٦) فأرسل القائد مامى بن برون على رأس ثلاثمائة من الرماة لقمع الثورة في تمبكت ، وهي الثورة التي مكنت الطوارق من اقتحام المدينة . وتغلب ابن برون على الشعب برفق وأناة ظهرت نتيجتهما ليس في تمبكت فقط ، بل في جنى أيضا ، وذلك لأن جنى عندما تعرضت لتهديد البمـبرة أثرت أن تقسم يمين الولاء للسلطان،^(٣٧) وبعد تغلبه على سكان المدينة استدار نحو الطوارق ، وكان هجومه عليهم عنيفا بدرجة انخفض معها ثمن الرقيق في السوق.^(٣٨)

وخضعت تمبكت لنفوذ أحد أعضاء الأسرة المالكة ، وهو بكر الذى نظم ثورة أخرى ، غير أن القائد استطاع قمعها ، ولكن ما إن غادر القائد المدينة حتى ظهر الطوارق خلف الأسوار وتمكنوا من طرد المصطفى الذى لم يقهر من قبل . ورفض

(٣٦) «وقد تضرروا من طول ذلك المكث في الأرض تضررا فادحا عظيما من كثرة التعب وامتداد الجوع والتعري والمرض من وخم الأرض .. ولما طالت المشقة على الباشا محمود في تلك الناحية كتب للأمير مولاي أحمد مشتكيا بمآلهم من مقاسات الشدائد وبعد ذلك رجع محمود لتنبكت وما ظفر بالمراد في نوح ، ولنرجع إلى تمام الكلام في الفتنة التي قامت بين أهل تنبكت وبين القائد مصطفى التركي ...» المرجع نفسه ، الصفحة ١٥٥ .

(٣٧) «وبلغ الباشا محمود ماجرى بين أهل تنبكت وبين القائد المصطفى من القتال وأنهم حاصروه في القصبة ... فبعث القائد مامى بن برون في ثلاثمائة وأربعة وعشرين راميا وهو رجل عاقل لبيب قسيس ... فكان خوفا عظيما في البلد وخرج الناس رامين أنفسهم في الصحارى والقفار فأصلح القائد مامى ما بين القائد المصطفى وبين أهل تنبكت وكان فرحا عظيما للناس ورجع للبلد كل من خرج منها هاربا ... ودخلوا في بيعة السلطان مولاي أحمد بسبب هذا الصلح وفتح الطريق إلى الأفاق ودخل الناس في قضاء حوائجهم ومن أراد السفر إلى جنى وإلى غيره مشى إليه ...» المرجع نفسه ، الصفحة ١٥٧ .

«فلما تكلم مامى لدى القاضى بكلامه اللين وتلطفه وتملقه أرسل الفقيه محمد بغيع ليناديهم واتاهم ووجد كلا منهم كميّا في سلاحه نادى كبارهم فقال لهم هل تعرفونى قالوا بلى فقال انزلوا كلكم فاتونا فنزلوا فاتوا مسرعين ... وخرج مامى وركب وتوجه إلى القصبة ولما وصل إلى بَعَجْدِ التقى مع رماة يسلبون ثوب رجل هنالك خطف خيله إليهم وسل سيفه وضرب منهم رجلا على عاتقه حتى شق كتفه وسقط ومات وأمر برأسه فعلق وسار ذلك في البلد وسرى فيه وفرح الناس به واعتقدوا أنه سيوفى ما وعد ووثقوا بقوله وظنوا فيه خيرا فيبكر عراب أهل القضية خارجين إلى السوق ببضاعتهم ...» تاريخ الفتاش ، الصفحة ١٧٢ .

(٣٨) « ثم إن القائد مامى تحرك إلى الزغرائين أهل يرو فغار عليهم وقتل رجالهم وأتى بنسائهم وصبيانهم إلى تنبكت وباعوهم بمايتين ودعا إلى اربعماية ودع ... » تاريخ السودان ، الصفحتان ١٥٧ و ١٥٨ .

هارن ، مغشرن كُيْ ، قبول سيادة مراکش ، واعترف المراكشيون بدورهم بشخص آخر هو أوسنب باعتباره مغشرون كُيْ ، وعندئذ قدم أوسنب المساعدة إلى أسياده المراكشيين ، وبمساعده انتصر المراكشيون مرة ثانية ، ويؤكد السعدي أهمية هذه المساعدة بمهاجمته أوسنب هجوما مريرا في كتابه.(٣٩)

وعندما وصلت الأمور إلى هذا المدى ساء وضع محمود باشا كثيرا ، فهو لم يعثر على قصور في السودان ، كما لم ير ذهباً قط . وأدت هزيمته في برنى وقسوة المناخ إلى استثارة غضبه ، وكانت المتاعب المستمرة في تمبكت كافية لحمله على اتخاذ إجراءات بالغة القسوة ، وأمر بتنفيذ أحكام إعدام سريعة بعد الثورة ، وفكر في تجريد أهالي المدينة من ثرواتهم عقابا لهم .

وأصدر الباشا إعلانا بأنه عازم على تفتيش كل بيت في تمبكت فيما عدا بيوت من هم من سلالة الشريف سيدي محمود . واعتقد أعيان تمبكت وتجارها الأثرياء أن بيوت أولاد الشريف هي أكثر الأمكنة أمانا لإخفاء ثرواتهم ، فأخفوا فيها كل ما هو ثمين لديهم ، ومن ثم أعفوا المراكشيين من عناء تفتيش البيوت المختلفة . وطلب إلى الأشراف أن يجتمعوا في مسجد سنكري . وعندما التأم شملهم هناك في أمان ألقى القبض عليهم واستولى على ثرواتهم ، وقام الجنود باغتصاب النساء وقتل الأعيان.(٤٠)

(٣٩) «فجاء أوسنب التاركي مغشرن كُيْ لمعاونة المصطفى مع أصحابه فحرقوا جميع البلد بالنار ... ثم عاد بذلك غدا فكان يوماً شديداً على تنبكت وقاربوا ديار القاضي عمر بالحريق فجاءت واحدة من بناتهم تعو ، فقالت له أوسنب وصل بغزوه إلى باب دار الفع عبد وهو أخو الفقيه عبد الله بن الفقيه القاضي محمود فقال لها الله تعالى يعطيه غزوا في باب داره ويسلط عليه أدنى الناس يفتضح به كما افتضح بنا فاستجاب الله دعاءه فجاءت غزوة توارق كلميني إلى باب خيمته فدخل عليه واحد منهم فقتله في داخل الخيمة وهو ادناهم ...» المرجع نفسه ، الصفحة ١٥٦ .

(٤٠) «فلما وصل تنبكت في قفوله من رأس الماء في قتال الصنهاجيين شرع في تدبير قبض الفقهاء أولاد سيّد محمود رحمه الله ... فنزل ما يدعوا به من رأيهم أنهم برّحوا في البلد أن الباشا يدخل في ديار الناس غدا قائي دار وجد فيها السلاح فلا يلوم ربّها إلا نفسه إلا ديار الفقهاء أولاد سيّد محمود فقط فهرب الناس بأموالهم إلى عندهم في ديارهم على وجه الذبيحة ظنا منهم متى رأى المال في أي دار ساعة التفتيش يأكلها ظلما وعدوانا ... ، فدخلوا ديار البلد غدا وفتشوها جميعا ثم برّح بان يجتمع الناس كلهم غدا في جامع سنكري للحلوف على بيعة السلطان مولاي أحمد فحلف التواتيون ... في اليوم الأول - ثم حلف الولاتيون ، فقال لم يبق إلا الفقهاء وأصحابهم وأتباعهم قبضهم جميعا الباشا محمود بن زرقون يومئذ ... وأسره وأمر بهم إلى القصبة فريقين فريق ذهب بهم في وسط البلد وفريق ذهب بهم خارج البلد من جهة القبلة ومنهم الشهداء الذين قتلوا يومئذ ... ثم دخل الباشا محمود في ديارهم فرقع جميع ما فيهن من الأموال والمتاع والاثاث اللاتي لا يحصيها إلا الله ما بين أملاكهم وأملاك سائر الناس من الودائع ونهب أتباعه ما اتصلوا بها وكشفوا عوراتهم وجربوا حرائرهم وفعلوا بهن الفواحش وذهبوا إلى القصبة مع الرجال ...» المرجع نفسه ، الصفحات ١٦٨ إلى ١٧١ . [سيّد محمود المذكور هنا هو محمود بن عمر بن محمد أقيت بن عمر بن علي بن يحيى بن كدالة ، وكان يشغل منصب قاضي تمبكت .]

ولم تكن تمبكت قد تجرعت بعد كأس المهانة حتى الثمالة ، وكان عليها أن تعاني المزيد . فقد تقدم قاضى تمبكت أبو حفص عمر^(٤١) بالشكوى من فظائع الحاكم المصطفى إلى سلطان مراكش اعتقاداً منه أن أى قاض لابد أن يجد لديه آذانا صاغية بوصفه من قریش . واستقبل السلطان الرسل بالترحاب وأعادهم مع القائد بواختيار على رأس جيش من ألف ومائتى مقاتل ... وفى الوقت نفسه زود القائد بتعليمات سرية تقضى باحضار العلماء إلى مراكش بوصفهم فى رؤية سبب المقاعب . وما إن وصل القائد بواختيار إلى تمبكت حتى وضع العلماء ، ومن بينهم القاضى عمر وأحمد بابا ، فى الأغلال^(٤٢ و ٤٣) وكانت الأغلال ثقيلة للغاية حتى أن أحمد بابا سقط وكسرت ساقه . وسيقوا جميعاً فى أغلالهم إلى الشمال ، ولكن القاضى عمر وأحمد بابا استطاعا تجاوز المحنة . وهكذا قضى على النخبة المستنيرة التى كان أحمد بابا من أبرز ممثليها .

(٤١) القاضى أبو حفص عمر بن محمود بن عمر بن محمد أقيت .

(٤٢) «وفى القابل من مشى مراسيل القاضى عمر إلى مراكش بعث الأمير السلطان مولاي أحمد القائد بواختيار إلى تنبكت ... بعد قبض الفقهاء بقليل ... الحاصل كتب كتاب أمن للقاضى عمر وجعل المراسيل صحبة القائد بواختيار وامره أن يكلم الباشا محمود أن لا يتعرض لهم بسوء وهو قد كتب قبل له أن يقبضهم ويصرفهم إليه فى القيود ولا علم عند أحد بذلك من خدامه فلما وصلوا بلد تفان سمع القائد بواختيار جميع ما جرى عليهم على يد محمود بن زرقون فنادى شمس الدين بالليل وقال له مولاي أحمد غدرنى وغدركم ... ثم شرع الباشا فى تسفيت الفقهاء إلى مراكش بعد تاخرهم فى السجن نحو خمس أشهر ومشوا جماعة كثيرة أباء وأولادا وحفائدا ونساء ورجالا ...» تاريخ السودان ، الصفحات ١٧١ إلى ١٧٣ .

(٤٣) أحمد بابا : أبو العباس أحمد بابا أحمد بن أحمد بن أحمد بن عمر بن محمد أقيت بن على يحيى التكرورى الصنهاجى المسوفى التمبكتى . من كتاب السير العرب ، ينتسب إلى أسرة جُلها من العلماء ، وولى معظم أفرادها القضاء . ولد بقرية اروان فى نوفمبر ١٥٥٣ (أكتوبر ١٥٥٦ فى مصدر آخر) . كان يعتبر بين اخوانه من كبار فقهاء المالكية . رفض الاعتراف بالاحتلال المراكشى لتمبكت فقبض عليه وعلى أفراد أسرته واقتيدوا إلى مراكش . وفى هذا الحادث فقد كتبه ، كما سقط عن ظهر جمل إبان رحلته فكسرت ساقه . وبعد عامين أطلق سراحه على ألا يغادر قسبة مراكش ، فانقطع للتعليم فى جامع الشرفاء حيث كان يستمع لدروسه خلق كثير . ولما تولى مولاي زيدان السلطنة فى سنة ١٦٠٥ أذن له هو ومن بقى من أسرته بالعودة إلى موطنه تمبكت . وقد توفى سنة ١٦٢٧ . له مصنفات تربو على الأربعين نعرف منها : نيل الابتهاج بتطريز النيباج ؛ كفاية المحتاج لمعرفة من ليس فى النيباج ؛ شرحان موجزان لمختصر خليل بن إسحاق . [أنظر ، الموسوعة الإسلامية ، الطبعة العربية ، مادة أحمد بابا.]

كان الباشا محمود يتميز غيظاً لعدم حصوله على أسلاب كافية في تمبكت ، بل كان السلطان أكثر غضباً عندما لم يحصل إلا على مقدار ضئيل من الذهب قدمه الأسكيا مقابل انسحاب الجيش المراكشي ، هو مائة ألف مثقال ، وكان يرغب في المزيد.^(٤٤) واعتقد أن الباشا لم يرسل له نصيبه ، فبعث بمنصور بن عبد الرحمن مزوداً بأوامر سرية بأن يقتله ويحل محله.^(٤٥) وكان لمحمود أصدقاء في البلاط ، وجاءه تحذير بأن عبد الرحمن قادم ومعه أوامر بقتله . وأثر محمود أن يموت وهو يقاتل السنغى . وتحرك أسكيا نوح إلى هنير ، وهناك نشد الباشا الموت بمهاجمته ، وصرعه سهم مسموم صوبه إليه وثنى من رجال القبائل . وفصل رأسه عن جسده وأرسل هدية إلى كَنْتْ كَبِ.^(٤٦)

(٤٤) «واقصد الباشا محمود جميع المال اشتتها شنذر مذر وتكرم بها للرماة ولم يبعث للسلطان مولاي أحمد إلا مائة ألف ذهباً ... وسمع ما رفع في يارهم من الأموال التي لانهاية لها ولم يبعث له منها إلا مائة ألف مثقال ذهباً ازداد غضباً على غضب ...» المرجع نفسه ، الصفحتان ١٧١ و١٧٤ . [يتضح هنا وجود خلاف بين بانيكار وتاريخ السودان حول مقدار الذهب الذي جمعه الباشا محمود ، إذ يبدو مما ورد في هذا الاقتباس أن ما أرسله إلى السلطان أقل كثيراً مما جمعه .]

(٤٥) «وفي سنة ثالث وألف جاء القائد المنصور بن بك من مراكش بمحلة كبيرة فيها ثلاثة آلاف مقاتل وألف خيل ... وعاش القائد منصور بعد قدومه سنتين ونفى الظلم من بلد تنبكت وبلغ سعر صرف المثقال ثلاث آلاف ودعاً ...» تاريخ الفتاش ، الصفحتان ١٨٢ و١٨٣ . [منصور بن بك الذي ورد في هذا الاقتباس هو منصور بن بكر المعروف أيضاً بمنصور بن عبد الرحمن ، وقد تولى الباشوية في تمبكت في ١٢ مارس ١٥٩٥ وظل بها حتى ٩ نوفمبر ١٥٩٦ ، وخلف فيها الباشا محمود بن علي بن زرقون ، وهو ثالث باشا يصل من مراكش (نقلاً عن تذكرة النسيان في أخبار ملوك السودان ، الترجمة الفرنسية ، الصفحة ٣٦٤).]

(٤٦) «ثم أن الباشا محمود تجهز ورجع لمحاربة أسكيا نوح ثانياً ... وقبض من القائد بو اختيار جميع مامعه من الرماة ونهب بهم معه وتلقى مع الباشا جودار في كَنْكُريو جاثيا من مدينة كاغ وعرض عليه الذهاب معه ... فبلغ أرض الحجر وفتح هنبر ودعكا وما في أحوازهما ، ثم أن السلطان مولاي أحمد بعث القائد منصور بن عبد الرحمن إلى أرض السودان برسم قبض محمود بن زرقون وقتله وإهانته فبعث له ولده مولاي بوفارس مرسولا بعجلة وسرعة أن يخبر بما يأتى به القائد منصور بن عبد الرحمن وأمره أن يحتال لنفسه قبل أن يصل إليه فلما بلغه الخبر وعلم بحقيقته لأنه خديم مولاي بوفارس خاصة دون أولاد مولاي أحمد توجه بجيشه إلى المن وال وفيهم أسكيا سليمان فنزلوا تحت الحجر فلما جن الليل عزم على الطلوع إلى الكفار فامتنع أسكيا سليمان من ذلك وقال الحجر لا يطلع عليه في ليل للمقاتلة ولا يعلم أنه يريد الهلاك لنفسه ولهم أجمعين فلما كان آخر الليل ذهب إلى الكفار ... فقتلوا من نجا من أصحابه وأخبروهم أنه مات ... فلما رموه بالنشاب وطاح على الأرض احتمله أولاد تنبكت على أعناقهم لياتوا به إلى الجيش ضايق عليهم الكفار فرموه وقطعوا رأسه وبعثوه لأسكيا نوح وبعثه أسكيا نوح لكنت سلطان كَبِ ...» تاريخ السودان ، الصفحتان ١٧٥ و١٧٦ . [مولاي بوفارس المشار إليه في هذا الاقتباس هو ابن السلطان أحمد المتصور ، وقد ولي السلطنة بعد وفاة أبيه.]

وعندئذ توالى الأحداث سراعاً . فجودار الذى لم يقدّم بأى دور فعال بعد عزله ، سواء فى المؤامرات السياسية أو فى الحرب ضد السنغى ، برهن الآن على براعته فى التآمر . وكان عازفاً عن الاعتراف بعبد الرحمن كباشا . ورفع الخلاف إلى السلطان فى مراكش الذى قسم السلطة بينهما : فجودار يشرف على السلطة المدنية وعبد الرحمن على الجيش . ولم يكن هذا التقسيم للسلطة فعّالاً ، إذا لم تكتمل تمضى عشرون شهراً حتى وافى عبد الرحمن المنية . والارجح أنه مات مسموماً على يد جودار،^(٤٧) وحل محله محمد طابع ، وهو موظف مدنى أقدم عهداً وصل على رأس مدد قوامه ألف جندي . وكان محمد طابع من الحمق بحيث أعفى جودار من القيادة العسكرية التى تسلمها ، وكانت النتيجة أن مات بلوره . عندئذ تحدى مصطفى حاكم تمبكت جودار ، وكان جودار رغب فى أن يكون الجيش حَكَمًا بينهما . واختير جودار لتولى الباشوية.^(٤٨) وكان لذلك أثره فى المنصور الذى طلب إلى جودار عندئذ العودة إلى مراكش لتولى قمع الاضطرابات الداخلية فيها . ولكن جودار لم يكن راغباً فى تسليم السلطة إلى قائد مدنى ، وأعلن أن الأوضاع تتطلب يداً عسكرية قوية ، وهو رأى كانت له وجاهته ، لأنه حتى مالى كانت راغبة فى الاستفادة من انهيار قوة السنغى ، وساد اعتقاد لدى محمود الثالث منسا مالى أن باستطاعته الاستفادة من الفوضى التى أعقبت الغزو المراكشى لتدعيم مملكته . وتلقى سلطان

(٤٧) « ثم وقع بينه وبين الباشا جواد اختلاف ... حتى انتهى اختلافهما إلى المكاتب للسلطان مولاي أحمد فكتب لهما وفرق بينهما فقال حكم الأرض لجواد حيث هو فتحها وحكم الجيش للقائد منصور ومكث هناك شهراً وهو مريض فتوفى يوم وقيل إن جواد اطعمه السم فقتله» المرجع نفسه ، الصفحة ١٧٧ .

(٤٨) « ثم بعث السلطان مولاي أحمد الباشا محمد طابع بمحلة فيها ألف رماة بين أرباب الخيل وأرباب الرجل فوصل تمبكت يوم ثم تجهز من منزله ذلك إلى الغزو فى الحجر فانتزع من جواد الجيش الذى معه وذهب معه القائد المصطفى التركى ، ولما وصل أنكد مات فيه يوم ... وقيل إن جواد هو الذى اطعمه السم على يد نانا تركية وبقي هو فى بَنَك فى الحراسة فرجع القائد المصطفى بالعسكر ... وقيل أطعمه السم أيضاً فلما وصل إلى جواد فى مكان الحراسة استرد منه الجيش فأبى بذلك المصطفى فتحاكما عند كبراء الجيش غلبه جواد ... لأن الجيش بيده يومئذ ...» المرجع نفسه الصفحتان ١٧٧ و ١٧٨ . [محمد طابع هو الباشا الرابع ، مكث فى تمبكت فى الفترة من ٢٨ ديسمبر ١٩٥٧ حتى ١١ مايو ١٩٥٨ ، أى أقل من خمسة أشهر . (نقلا عن تذكرة النسيان ، الترجمة الفرنسية ، الصفحة ٣٦٤)]

مالى وعودا بالتأييد من رئيس قبيلة كَلّ ، حمد أمّنة ، وهو زعيم فولانى لماسنة ،^(٤٩) وكذلك من رئيسى قبيلتين آخرين . كما راودته آمال فى أن تهب مدينة چنى للثورة ضد المراكشيين عندما يظهر جيشه على أبوابها ، وفى أن يتقهقر المراكشيون عندما يواجهون تلك الثورة . وبهذه الخطط ظهر المنسا أمام أسوار چنى فى عام ١٥٩٩ ، ولكن حاكم كَلّ عجز عن مساندته ، كما رفض أهالى چنى القيام بالثورة . واستطاع جودار إرسال مدد إلى چنى ، وأرغم محمود على التقهقر.^(٥٠) وفى النهاية نجح عمار باشا^(٥١) ، وهو خصى من أصل برتغالى ، فى أن يخلف جودار فى المنصب الذى تركه ، وعاد الكونكويستادور جودار إلى مراكش .

وقبل أن نتابع تاريخ باشوات تمبكت يجدر بنا أن نرى ما إذا كانت مراكش قد أفادت من غزو السودان . يرى السعدى أن مراكش لم تفد ماديا من هذا الغزو ، ومع ذلك فإن الوفرائى يقول إن السودان مكّن أحمد من أن يدفع رواتب

(٤٩) « ثم أمر السلطان مولاي أحمد الباشا جوارى فى المجئ إليه فى حدود العام السابع بعد الألف فكتب إليه أن يبعث من يقوم على الأرض ويكون وكيله على الجيش فبعث القائد المصطفى الفيل والقائد عبد المالك البرتقالى ثم رد إليه الجواب ثانيا بعجلة انهما لا يمسان هذه الأرض لان سلطان ملّى قد تحرك وأراد المجئ إلى هذه الأرض وكذلك صاحب ماسنة حمد أمّنة عزم علي الرجوع فيها فبعث الفتى عمار باشا وحده على راحلة بون الجيش ... فامر جوارى بالمجئ حينئذ عزمًا مؤكدا ولو كانت تلك الأرض كلها تتحرق بالنار ... » المرجع نفسه الصفحتان ١٨١ و ١٨٢ .

(٥٠) « وأما الباشا جوارى فتجهز للرجوع إلى مراكش ... ثم أن السلطان محمود صاحب ملّى تجهز لغزو أهل مدينة چنى فبعث مرسوله ... وما أجاب دعوته من سلاطين كل ويندك إلا فدككى وامكى وحمد امنه صاحب ماسنة وقد بعث بخبره الحاكم سَيّد منصور الذى علي چنى للباشا عمار وطلب منه الإغاثة فوجه إليهم محلة فيها القائد مصطفى الفيل ... فهزموا ملّى كى وعسكره فى طرفة عين ... » المرجع نفسه ، الصفحتان ١٨٢ ، ١٨٣ .

(٥١) هو الباشا الخامس عمار الفتى العلجى ، أحد القواد الذين صحبوا الباشا جودار فى الحملة على دولة السنغى . ويبدو أنه رجع إلى مراكش ثم عاد إلى السنغى وتولى الباشوية فى تمبكت ، كما سيتضح بيانه .[أنظر ، الحاشية ٥-٥٦ أدناه .]

« جعل عليها (الحملة) الباشا جوارى ومعه عشرة من القياد القائد المصطفى التركى والقائد المصطفى ابن عسكر والقائد أحمد الحروسى الأندلسى ... والقائد عمار الفتى العلجى » المرجع نفسه ، الصفحة ١٣٨ .

موظفيه ذهباً.^(٥٢) كما أن الروايات المعاصرة يمكن أن تحمل على الاعتقاد بأن الكسب كان عظيماً . كتب لورانس مانوك في عام ١٩٥٤ يقول : «منذ عشرة أيام قدم من غاو كاهية»^(٥٣) أندلسي المولد ومعه موظف مغربي كبير كان الملك قد أرسله من قبل مع القائد حمود^(٥٤) ، وقد جلبوا معهم ثلاثين بغلة محملة بالذهب . وقد رأيت بعيني رأسى هذين الشخصين قادمين إلى القصبة (قصر الشريف في مراكش) ، وهما ليسا فقيرين ، بل على جانب كبير من الثراء ، بحيث قدما نون الحصول على أمر من الملك ... وقد استشف الملك من رسائل الاطراء عليهما من جانب القائد حمود مقدار الثروات التي جلباها معهما ، وكان ذلك سبب امتعاضه منهما ...» وعند نهاية الشهر كتب لورانس مانوك مرة أخرى يقول : «إن جزية تمبكت ستون كنتالا (قنطاراً) من الذهب كل سنة ، وهي مبلغ طيب كما تعرفون . وجزية كاغ ستظهر وستعرفونها في الربيع».^(٥٥) كذلك أفادت مراكش من العدد الكبير من الجنود الزنوج الذين شكلوا منذ ذلك الوقت جزءاً هاماً من جيشها .

(٥٢) الوفراني المراكشي : هو العلامة عبيد الله محمد الصغير ، من علماء أوائل القرن الثاني عشر الهجري، مؤرخ الأسرة السعدية في مراكش وصاحب كتاب *نزهة العادي في أخبار ملوك القرن العادي* الذي ضمنه أخبار الدولة السعدية ، وما حدث أيام ملوكها من المنازعات والحروب ، وقد ابتدأه بالملك محمد المهدي بن الملك القائم بأمر الله ، الذي بويع في سنة ٩١٦ هـ وانتهى فيه إلى أخبار السلطان مولانا المظفر بالله اسماعيل بن الشريف (أبو النصر) الذي بويع في سنة ١٠٨٢ هـ . وتاريخ ميلاد الوفراني غير معروف ، ولكنه توفي حوالي عام ١١٥٠ هـ (١٧٣٨م). يقال إنه صدرت لكتابه طبعة في باريس مزودة بالفهارس ، وذلك في عام ١٨٨٨ . وتوجد للكتاب نسخة في مكتبة جامعة القاهرة ، وهي بخط مغربي قديم تعذر على قراءته . وتوجد اقتباسات من هذا الكتاب (لعلها مأخوذة من طبعة باريس) في كتاب نقولا زيادة ، *إفريقيات* ، رياض الريس للكتب والنشر ، لندن ، ١٩٩١ ؛ ومن بينها اقتباس بشأن هذا الكسب العظيم الذي يقول الوفراني إن أحمد المنصور قد حققه :

« ولما فتح عليه ممالك البلاد الإسلامية حمل له من التبر ما يغير الحاسدين ويحير الناظرين حتى كان المنصور لا يعطى في الرواتب إلا النضار الصافي والدينار الوافي وكانت ببابه كل يوم أربعة عشر مائة مطرقة تضرب الدينار غير ما هو معد لغير ذلك من صوغ الأقراط والحلى وشبه ذلك . ولأجل ذلك لقب بالذهبي لفيضان الذهب في زمانه .» الصفحة ٣٨٤ .

(٥٣) الكاهية : ضابط في الجيش المراكشي برتبة رفيعة « وكان مع طراد الأيمن .. خمسمائة صباحية مع كاهيتهم » تاريخ الفتاش ، الصفحة ١٤٦ .

(٥٤) القائد حمود : هو الباشا الثاني محمود بن علي بن زرقون الذي تسلم قيادة القوات المراكشية في سنغ من الباشا جواد ، في الفترة من ١٧ أغسطس ١٥٩١ حتى مارس ١٥٩٥ .

(٥٥) لورانس مانوك : تاجر انجليزي كان يقيم في مراكش ، ويتراسل مع رئيسه انطوني داسل في الشركة البربرية في لندن ، وقد بعث إليه بالرسالة الأولى في أغسطس ١٥٩٤ ، ثم اتبعها برسالة ثانية في نهاية هذا الشهر .

فضلا عن ذلك فأننا عندما نرسم صورة نجد تماثلا مع أمريكا الأسبانية . فهناك أيضا تدفق المعدن النفيس بكميات كبيرة أدت إلى إبطاء إيقاع الحي الاقتصادية وإضعاف النسيج المعنوي للشعب . وفي النهاية ربما تكون مراكش قد خسرت من الغزو أكثر مما لو كانت التجارة قد استمرت تتدفق عبر المسالك المعتادة . ولم يكن باستطاعه مراكش أن تحتفظ في السودان بقوات تكفي لإقرار السيادة في منطقة السنغى ، فبين عودة جودار في عام ١٥٩٩ ووصول عمار ^(٥٦) - أرسد آخر باشا من مراكش في عام ١٦١٨ ^(٥٧) - كان المراكشيون يجلسون فوق برميل مواريد البارود . فالقائد الذي تولى الباشوية بعد عودة جودار حل محله سليمان ^(٥٨) الذي استطاع المحافظة على السلم حتى عام ١٦٠٤ . وفي هذه السنة نشبت مرة أخرى معارك عسكرية ذات طابع عام . فقد قام هيكل صاحب دند بمهاجمة وادي النيجر كما بدأ الفولاني في شن الغارات . وفي عام ١٦٠٩ هاجم دند فاري مدينتي جني ، ^(٥٩) غير أن المدد الذي وصل في الوقت المناسب كان عوناً للحامية المراكشية .

(٥٦) « وأما الباشا عمار فوصل في شهر رجب في السنة المذكورة وأما الباشا جودار فتجهز للرجوع إلى مراكش في يوم الخميس السابع والعشرين من شعبان في العام المذكور . » تاريخ السودان الصفحة ١٨٢ . [السنة المشار إليهما ما هنا هي ١٠٠٧ هـ ، وهذه السنة بدأت في ٤ أغسطس ١٥٩٨ ، وبذلك يقع شهرا رجب وشعبان ١٠٠٧ في العام الميلادي ١٥٩٩ ، وقد تولى عمار الباشوية في تمبكت في فبراير ١٥٩٩ ومكث فيها حتى ١٩ مايو ١٦٠٠ .]

(٥٧) القائد الذي تولى الباشوية في تمبكت في عام ١٦١٨ هو الباشا العاشر حد بن يوسف الاجناسي ، فقد تولاها في الفترة من يولييه ١٦١٨ ، وظل بها حتى بها حتى يناير ١٦١٩ .

« وفي هذا الشهر تولى الباشا حد بن يوسف باتفاق أولئك الجيش .. » المرجع نفسه ، الصفحة ٢٢٣ . [التاريخ المشار إليه في هذا الاقتباس هو ربيع الأول ١٠٢٧ ، ومن المعروف أن العام الهجري ١٠٢٧ يبدأ في ٢٩ ديسمبر ١٦١٧ ، وبذلك يقع هذا التاريخ في عام ١٦١٨ .]

(٥٨) القائد الذي تولى الباشوية بعد عودة جودار إلى مراكش هو الباشا عمار الفتى ، وقد خلفه فيها الباشا السادس سليمان وظل بها في الفترة من ١٩ مايو ١٦٠٠ حتى يولييه ١٦٠٤ [« ولترجع إلى إتمام ذكر الباشا عمار فمكث في الولاية سنة وشهرين وأياما وغلب عليه فيها القائد المصطفى الفيل حتى صار كائنه صاحب الأمر ... فعزله السلطان من عنده وبعث الباشا سليمان ليكون صاحب الأمر . » المرجع نفسه ، الصفحة ١٨٩ .]

(٥٩) « وفي هذا العام جاء هيكل سيد كرى أجى بالغزو من عند اسكيا هارون دنكتيا بن الأمير اسكيا داوود صاحب دند أراد غزو طاعة اهل المخزن في البحر وفي القابل في العام الثامن عشر بعد الف جاء دنقاري بالحلة الكبيرة من عند اسكيا في دند قاصدا أرض مدينة جني فقطع البحر الكبير ... » المرجع نفسه ، الصفحتان ١٩٤ و ١٩٥ . [العامان الهجريان المشار إليهما هنا هما ١٠١٧ و ١٠١٨ ، وهما يقابلان العامين الميلاديين ١٦٠٨ و ١٦٠٩ ، والمقصود بالمخزن في هذا الاقتباس هو الجهاز الإداري للحكومة في مراكش .]

وفى عام ١٦١١ زحف جيش من السنغى نحو الغرب وأخذ المراكشيين على غرة وأوقع بهم الهزيمة فى موقعة استعد لها الطرفان من قبل . وقطع الاتصال بين غاو وتمبكت ، ولكن على باشا استطاع رشوة قائد السنغى كى يكف عن القتال.(٦٠) وبحلول عام ١٦٢٠ كان المراكشيون قد طفح بهم الكيل تماما من السودان ، وعلى الرغم من أن الباشوات قد استمروا فى تمبكت فإن نفوذ السلطان صار موضع هزء وسخرية ، وأصبح الجيش هو السلطة الفعلية . وكان الباشوات يتغيرون بسرعة تدعو إلى الدهشة حقاً . فقد حكم بعضهم أياما ، وحكم آخرون لبضعة أشهر ، وقليلون جدا امتدت ولايتهم لأكثر من عام.(٦١) وعمد الفولانى والطوارق والبمبرة إلى تخريب القرى ونهبها بل المدينة نفسها فى بعض الأحيان . وبعد عام ١٦٢٠ أصبح نفوذ الباشوات محصورا فى المدينة وحدها .

(٦٠) « وقيل إن القائد على بعث لندند فارى سيد ذهبيا على يد اسكيا بكر لكى يرجع من غير قتال ... فرجع وسمع بذلك ... فرجع القائد على بالمحلة إلى تمبكت فعزل الباشا محمود لئك وتولى ضحوة الأربعة الخامس عشر من شعبان المنير فى العام المذكور ... المرجع نفسه ، الصفحة ٢٠١] القائد على باشا المذكور فى المتن وفى هذا الاقتباس هو الباشا الثامن على بن عبد الله التلمسانى الذى تولى الباشوية فى تمبكت فى الفترة من ١١ أكتوبر ١٦١٢ إلى ١٢ مارس ١٦١٧ خلفا للباشا السابع محمود لئك الذى تولى الباشوية فى الفترة من يولية ١٦٠٤ إلى ١١ أكتوبر ١٦١٢ . والتاريخ المذكور هنا هو ١٥ شعبان ١٠٢١ الذى يقابل ١١ أكتوبر ١٦١٢ . [(٦١) ونسوق هنا بعض الأمثلة :

- ١ - الباشا الثامن والعشرون علال بن سعيد الحروسى : تولى الباشوية ليوم واحد فى أغسطس ١٦٦٠ .
 - ٢ - الباشا الخمسون الفابنكانو الشرقى بن محمد المواديسنى : تولى الباشوية ثلاثة أيام فى نوفمبر ١٦٨٢ .
 - ٣ - الباشا الخامس والأربعون محمد بن بارضوان العلجى : ثلاثة أيام من ١٩ إلى ٢٢ أغسطس ١٦٨٠ .
 - ٤ - الباشا الأربعون عبد الرحمن بن محمد كيراي الشرقى : شهر واحد وتسعة أيام ، من ٢ سبتمبر إلى ١٢ أكتوبر ١٦٧٣ .
 - ٥ - الباشا الخامس عشر على بن المبارك الماسى : شهران وستة وعشرون يوما من ٢٠ يوليه إلى ١٧ أكتوبر ١٦٣٢ .
 - ٦ - الباشا الحادى والعشرون أحمد بن على بن عبد الله التلمسانى : ثلاثة أشهر وأربعة أيام من ١٠ نوفمبر ١٦٤٦ إلى ١٤ فبراير ١٦٤٧ .
- [أنظر ، تذكرة النسيان فى أخبار ملوك السودان ، الترجمة الفرنسية ، الصفحات ٣٦٤ إلى ٣٧٣ ، وكذلك دكتور محمود الغربى ، بداية الحكم المغربى فى السودان الغربى ، رسالة دكتوراة تحت إشراف دكتور نقولا زيادة ، مؤسسة الخليج للطباعة والنشر ، الكويت .]

ولم يحاول المراكشيون التغلغل إلى دند مرة أخرى حتى عام ١٦٣٥ عندما هزموا السنغى ثانية ، ومع ذلك فقد فشلوا فى إخضاعهم لسيطرتهم . وفى عام ١٦٤٠ استطاع السنغى اكتساح المراكشين بمساعدة الزرمة . وعلى الرغم من أن السنغى ظلوا يحتفظون بوجود مستقل فى دند ، فإنهم لم يعد لهم شأن يذكر فى سياسات السودان . ولكن بحلول عام ١٦٦٠ كان الحكم المراكشى قد انتهى أيضا حتى من الناحية الإسمية ، وفى ذلك العام لم تعد الخطبة تلقى باسم السلطان . ومع مجئ عام ١٦٨٠ كان الباشوات يحكمون فى تمبكت كأتباع للبمبرة .

لقد كان انتصار المراكشين هو المقدمة لانتهيار القانون والنظام فى بلاد السودان . وعلى الرغم من أن المراكشين أحرزوا نصرا مرموقا ، فقد أخفقوا كما رأينا فى تأسيس إمبراطورية . وبقدوم عام ١٦٢٠ كانت طموحاتهم بهذا الشأن قد تبخرت . وكما يقول رايموند لى فى شئ من المبالغة : «ومن ثم فإن السودان ، الذين سبق أن رأيناهم يزخرون بكل هذا الشاطئ ، فقدوا روح المبادرة فى ظل القبضة العسكرية الاستبدادية والتهديد المستمر لحياتهم وأسرهم وممتلكاتهم ... وتضاعلت التجمعات الهائلة من البشر إلى قرى لاشأن لها . كما أن تمبكت التى كان سكانها يربون على المائتى ألف انحطت إلى قرية لا يتجاوز سكانها خمسة عشر ألفا . وحتى القيم الروحية تحللت فى زحام ذلك الكرب الشامل . لقد كان ذلك الغزو بالنسبة لدول النيجر بمثابة بداية النهاية.» .

كان الأثر الرئيسى للحملة المراكشية هو اندثار نظام الدولة فى بلاد السودان الذى ظل قائما منذ تأسيس دولة غانة ، وكانت الفترة ما بين موقعة تندى وبداية القرن التاسع عشر هى فترة الفراغ الكبير فى تاريخ هذه البلاد . لقد كانت فترة حاول فيها كل من الموسيقى والبمبرة والفولانى والطوارق والبربر الاستيلاء على غاو وتمبكت ، مدينتى السنغى الهامتين . بيد أن ظهور عصابات المأجورين التى أخذت فى تخريب القرى ونهبها ربما كان أشد بلاء لعامة الشعب من محاربة هذه الدول لبعضها بعضا .

الفصل السادس

إمبراطورية البرنوكانم (*) وممالك الهوسا

لم تحظ كانم باهتمام المؤرخين المسلمين إلا حوالى القرن العاشر الميلادى . يقول البكرى إن عقبة بن نافع الفهري فتح فزان عام ٦٦٦ (٤٦ هـ) ، كما يذكر أنه على مسيرة خمسة عشر يوما صوب الجنوب كانت تقع قلعة كُوَّار^(١) ،

(*) دولة البرنو التاريخية لم يعد لها وجود فى العصر الحاضر ، فقد تم تقسيمها فى عام ١٨٩٤ بين إنجلترا وفرنسا وألمانيا فى غمرة الاستعمار الأوروبى . وكان مهد هذه الإمبراطورية هو منطقة بحيرة تشاد شرق ممالك الهوسا . ومن الدول التى تقوم الآن على أنقاضها أو تضم أجزاء منها :

١ - جمهورية تشاد التى كانت مستعمرة فرنسية واستقلت فى يونيو ١٩٦٠ . وقد شملت أغلب الأجزاء الشرقية من الإمبراطورية وإقليم كانم بأكمله . كانت عاصمتها فورت لامى نسبة إلى المستعمر الفرنسى لامى الذى هزم رايح فى عام ١٩٠٠ ، ثم تغير إسمها إلى نجامينا . أغلب سكانها مسلمون . توجد بها أطلال نجيمى عاصمة البرنو الأولى فى كانم .

٢ - جمهورية إفريقيا الوسطى : كانت ضمن المستعمرات الفرنسية . تقع جنوب تشاد ، وتضم الأطراف الجنوبية من إمبراطورية البرنو .

٣ - جمهورية النيجر : كانت مستعمرة فرنسية . تضم أغلب الأجزاء الشمالية والشمالية الغربية من إمبراطورية البرنو . وفيها مدينة بلما عاصمة حكومة الصو (العمالق) الأولى ، كما تضم واحة كُوَّار وزندر ومملكة أمير (أغادس) . عاصمتها نيامى على نهر النيجر .

٤ - جمهورية نيجيريا : كانت مستعمرة انجليزية . تضم برنو الأصلية غرب تشاد ، كما تضم جميع ممالك الهوسا . ينتشر أغلب المسلمين فى الشمال . وتضم كثيرا من المدن التاريخية القديمة ، وكذلك من مدن الهوسا التاريخية . عاصمتها أبوجا .

٥ - جمهورية الكمرون : كانت مستعمرة فرنسية . تضم بعض الأجزاء الجنوبية والجنوبية الغربية من برنو ، عاصمتها ياوندى .

(١) «فخرج عقبة بن نافع الفهري إلى المغرب بعد موية بن حديج وذلك سنة ست وأربعين ومعه بسر بن ارطاة وشريك بن سحيم المرادى فأقبل حتى نزل بغدامس من سرت فخلف عقبة جيشه هناك واستخلف عليهم زهير بن قيس البلوى ثم سار بنفسه فى أربع مائة فارس وأربع مائة بعير وثمانماية قرية ماء حتى قدم ودان فاقتتحها وأخذ ملوكهم ... ثم سألهم هل وراكم من أحد قالوا نعم أهل جاوان وهو قصر عظيم على رأس المغازة على رأس جبل وعرو وهو قصبه كُوَّار فسار إليهم خمس عشرة ليلة فحاصروهم شهرا فلم يستطيع لهم بشئ فمضى أمامه على قصور كُوَّار فاقتتحها البكرى ، الصفحتان ١٢ و ١٣ .

وإلى الجنوب من كوار كان يوجد بلد غير معروف . صحيح أن المملكة التي كانت تحكمها أسرة سيفي قد قامت بعد غانة أو غاو ، إلا أنها ربما كانت أكثر الممالك شهرة في كل من غرب إفريقيا ووسطها . وقد يكون لدولة أخرى وجود خاطف وسريع ، ولكن منذ أن قامت الأسرة التي تنسبها الأساطير إلى سيف بن ذي يزن بتأسيس كانم كان لهذه الدولة حتى يومنا هذا تاريخ مستمر . ليس ذلك فقط ، بل إن سلالة آل سيفي^(٢) ظلوا يحكمون حتى القرن التاسع عشر ، كما ظلوا حتى اليوم أسرة بالغة الأهمية ، حتى وإن لم يعودوا يمسكون بزمام السلطة السياسية .

وكان شعب الصوّ^(٣) الأسطوري هم السكان الأصليون لحوض تشاد . وبين هذا الشعب القوى استقرت جماعة رعوية مهاجرة كان يزعم بوجه عام أنها من البربر . وفي مجرى الزمن دخلت هاتان الجماعتان في نزاع ، وذلك لأن شباب الصو الأقوى بنية كانوا يفوزون دائما في ألعاب القدرة البدنية . وكان الرعاة الذين عاشوا بعض الوقت في المنطقة تواقين إلى السلطة السياسية ، ولكنهم كانوا يخشون الصو ، لذلك قرروا تحقيق النصر بالخديعة . كان رجال الصو شغوفين بمعرفة سر الحناء ، واستطاع البربر إقناعهم بأنه لا بد قبل استعمال الحناء من إقامة مراسم تظهر بربط الأيدي والأقدام بجلود مبللة .

(٢) تقول سجلات البرنو وأساطيرهم إن ملوكهم الأول أحد عشر ملكاً ، وإن أولهم هو سيف بن ذي يزن وآخرهم جبل أو عبد الجليل بن شو (عرف باسم سلما) . وتقدر الفترة التي حكم فيها هؤلاء الملوك بنحو خمسة قرون ، وذلك على الرغم من أنه من الثابت علمياً أن سيف بن ذي يزن وابنه إبراهيم (الذي يزعم أنه ثاني هؤلاء الملوك) قد ماتا في اليمن . وتقول الأساطير إن ثالث الملوك هو دوغو بن إبراهيم ، ومنحته لقب الماي ، كما تقول عنه إنه مؤسس أسرة باعتباره أول من لُقّب بالماي . «چيمى ... (قال ابن سعيد) هي قاعدة بلاد الكانم وفيها سلطان الكانم المشهور بالجهاد وهو من ولد سيف بن ذي يزن ..» المقرئى ، الإلام بأخبار من يارض الحبشة من ملوك الإسلام ، مطبعة التأليف بمصر ، ١٨٩٥ ، الصفحة ٢٧ .

(٣) - قبائل الصوّ : من سكان منطقة تشاد . يقول بارث إن الصو أحد أقسام الفولاني ، كما يقول بالمر إنهم أول سكان كوار . وقد كونوا لهم دولة في القرن التاسع الميلادى مركزها بلما في واحة كوار . يرد البعض أصولهم إلى الهكسوس على أساس التشابه في الخلقة وتشابه نورهم في إفريقيا مع نور الهكسوس في مصر . كانوا يمثلون قوة لها خطرهما على إمبراطورية البرنو في كانم برغم خضوعهم لها .

ووافق الصوّيون أن يساورهم شك ، وعندما جفت الجلود أصبحوا لاحيلة لهم
فى أيدي ضيوفهم الذين ذبحوهم نون رحمة .

ورفض البدو الذين وصلوا إلى السلطة على هذا النحو أن يستكينوا لحياة
الاستقرار . ويذكر المقريزى على سبيل المثال أن كانم مملكة عظيمة ، وأن غالبية
شعبها يدين بالإسلام^(٤) ، وأن ملكها "بنوى رحال" ، ولكنه «إذا جلس سجد أهل
نولته وانبطحوا على وجوههم»^(٥) . وكانت عاصمة المملكة قرية صغيرة تسمى
نچيمى^(٦) ، ولكن أعمال الدولة كانت تدار من معسكر الرئيس أينما وجد .
واستمرت الحال كذلك حتى أيام نونمه بن أوم^(٧) الذى جعل من كانم مملكة
عظيمة . وقد يكون من الأفضل أن يعالج تاريخ كانم على أساس الفترات السبع
المنفصلة التى يقع فيها ، وهى : ١ - البداية كدولة إمبراطورية تحت حكم نونمه
بن أوم : ٢ - القرنان الثانى عشر والثالث عشر ، وهما عصر عظمة كانم ؛
٣ - فترة الحروب الأهلية والفتن الداخلية : ٤ - حروب البولالا : ٥ - الفترة

(٤) «ويليهم الكانم . وهم خلق عظيم ، والإسلام غالب عليهم ...» ورد هذا الاقتباس ضمن نص للمقريزى
عنوانه الخبر من أجناس السودان . وقد نشر هذا النص بالصفحات ١٩١ إلى ١٩٥ من المجلد الخامس عشر
من النورية الهامة التى تصدرها «المركز العلمى الفرنسى للآثار الشرقية» بالقاهرة : Annales Islamologiques
(حواليات إسلامية) .

(٥) ورد هذان الاقتباسان بالمرجع نفسه ، الموضع نفسه .
(٦) نچيمى لاتزال أطلالها قائمة ، وهى على بعد ٢٥ ميلا إلى الشرق من بلدة ماو . ترد فى الكتب
العربية أيضا أنجمى ونچيمى . «ومدينتهم أنجمى ...» حواليات إسلامية ، المجلد الخامس عشر ، الصفحة ١٩٢ .
«نچيمى . وهى على النيل ... حسبما وجدناه فى خط ابن سعيد قاعدة بلاد الكانم» اللام ، الصفحة ٢٧ .
«الثالث ... ملك الكانم . قال فى «مسالك الأبصار» : وقاعدة الملك منها بلدة اسمها نچيمى .» صبيح
الأعشى ، الجزء الثامن ، الصفحة ٢٨ .
«وفى شرقيها وجنوبيها قاعدة الكانم نچيمى» ابن سعيد ، حواليات إسلامية ، المجلد السادس عشر ،
الصفحة ١٦٣ .

(٧) نونمه بن أوم المائى الثالث عشر فى سلسلة مايات برنو . حكم حوالى الفترة ١٠٩٨ - ١١٥١ .
وقد خرج للحج ثلاث مرات مارا بالقاهرة ، إلا أنه غرق فى المرة الثالثة عند عيذاب فى البحر ، وقيل إن
الفاطميين خشوا بطشه إذا ما عاد من حجه ، فخرقوا سفينته . وفى عهده بنيت مدرسة ابن رشيق فى
فسطاط مصر . وقد بنى فى عهده أول مسجد معروف فى برنو . وبنونمه لقب فى لغة الكانورى بمعنى ابن
الملك . وقد أورد المقريزى إسمه على النحو التالى : «.. وأول من أسلم من ملوكهم محمد بن جبل بن عبد الله
بن عثمان بن محمد بن امى» حواليات إسلامية ، المجلد الخامس عشر ، الصفحة ١٩٢ .

العظيمة لبرنو ؛ ٦ - التدهور في القرن الثامن عشر ؛ ٧ - ظهور الفولاني ، وإحياء سلطة كانم - برنو .

كانت كانم لأكثر من سبب أعظم الدول الزنجية بنظامها الإداري المحكم ، وجيشها المدرب الذي يستخدم الأسلحة النارية ، وبالعلاقات الدبلوماسية ليس مع الدول الواقعة إلى الشرق فقط ، وإنما إلى الشمال أيضا . فضلا عن ذلك استطاع حكام البرنو أن يدعوا الخلافة ، وهو ما لم يفعله حاكم آخر من حكام السودان ، مما زاد من هيبتهم .^(٨)

وقد اعتاد سلاطين البرنو أن يشيروا إلى أنفسهم - في محارمهم^(٩) وفي كل مجال آخر - باعتبارهم خلفاء ، وكانوا في ذلك يحنون حنو أسرة الحفصيين في تونس التي كانوا يقيمون معها علاقات دبلوماسية وثيقة .^(١٠) وقد انفردوا

(٨) المعروف أن السلطات الحفصية في تونس المنتصر أبا عبد الله محمد (١٢٤٩ - ١٢٧٧) تلقب بأمير المؤمنين ، وتأثر به مايات البرنو الذين كانوا على علاقات طيبة بأسرة الحفصيين واتخذوا هذا اللقب . ويقول قوائم أنساب البرنو ، تبريرا لاتخاذ ألقاب الخلافة ، إن الخلافة انتقلت بعد الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز إلى برنو .

(٩) المحرم : (وجمعها محارم) هو خطاب امتياز وراثي كان الملوك يعطونه بعض أفراد الرعية وسلالتهم مقابل خدمات أنوها ، يعفون بموجبه من الضرائب أو الخدمة العسكرية أو واجبات الضيافة للحكام أو نحو ذلك . وفي تاريخ الفتاش نماذج من هذه المحارم . وقد عرفت برنو بكثرة ما أصدره ماياتها من محارم ، إذا كانوا يمنحونها لكبار العلماء وأسرههم إظهارا لعنايتهم بالعلم والعلماء . وقد أورد الدكتور إبراهيم طرخان ، (إمبراطورية البرنو الإسلامية ، الصفحات ١٩٥ إلى ٢٠٠) نص المحرم الذي أصدره الماي بونمه إدريس في عام ١٧٠٤ ، بشأن تجديد الامتيازات التي حصلت عليها جماعة من الفولانيين زمن الماي على جاجي بن زينب لقاء مساعدتهم لبرنو في صراعها ضد إمارة كب . ولكنه ذكر خطأ أن نص هذا المحرم ورد في صبح الأعشى ، الجزء الثامن ، الصفحات ١١٦ إلى ١١٨ ، ذلك أن ماورد بهذه الصفحات من صبح الأعشى إنما هو نص رسالة الماي عثمان بن إدريس إلى السلطان المملوكي أبي سعيد الظاهر برقوق في عام ١٢٩٢ .

(١٠) «قال ابن سعيد ... ويليهم الكانم وهم خلق عظيم والإسلام غالب عليهم ومدينتهم جيمي ولهم التغلب على بلاد الصحراء إلى فزان وكانت لهم مهادنة مع الدولة الحفصية منذ أولها ... العير ، طبعة بولاق ، المجلد السادس ، الصفحة ١٩٩ .

» وبها سلطان الكانم المشهور له بالجهاد وأفعال الخير وهو محمد بن جبل من ولد سيف دي يزن ... والثياب تحمل له من الحضرة التونسية» ابن سعيد ، هويات إسلامية ، المجلد السادس عشر ، المرجع السابق ، الصفحتان ١٦٤ و ١٦٥ .

بهذا الوضع ، إذ لم تكن هناك أسرة حاكمة أخرى فى غرب إفريقية لديها مثل هذه المزاعم . إن أسكيا محمد ادعى لنفسه لقب الخلافة ، ولكن ذلك كان بالنسبة للسودان فقط ، على حين كان يعترف بخلافة السلطان العثمانى . وتزعم الروايات أن الخلافة انتقلت إلى برنو خلال حكم عثمان بن زينب^(١١) (١٢٧٩ - ١٣٠٠) . وأساس هذا الادعاء هو الزعم بأنهم من سلالة بنى أمية . ويؤكد حكام البرنو - الذين اتخذوا لقب ماى - أنه خلال إحدى فترات الفراغ التى أعقبت بعض الاضطرابات فى الشرق الأوسط قدم إلى وسط إفريقية أمير أموى بصحبة بعض أتباعه وتزوج بإمرأة بربرية . ويزعم آل سيفى أنهم من سلالة هذا الأمير الأموى من ناحية النساء ، ومهما تكن حقيقة ذلك فقد أصبح آل سيفى عنصرا سائدا فى العصور المبكرة بسبب انتسابهم إلى بنى أمية ، ولكن هذا الانتساب أُعطى بمرور الوقت اعتبارا أكبر بعد أن أصبحت العلاقات مع الدول الإسلامية أكثر أهمية . ومما يدعو إلى مزيد من الدهشة أن كل المؤرخين العرب تقريبا ، الذين كتبوا عن آل سيفى ، قد أخذوا على محمل الجد أصلهم البربرى ، وكذلك مزاعمهم بشأن الخلافة . وهكذا يشير البكرى إلى أن أمير كانم من سلالة بنى أمية^(١٢) .

ونحن لم نحصل على تاريخ متصل لبرنو إلا بعد أن اعتنق مايات برنو الإسلام . وكان دونمه بن أوم (١٠٨٦ - ١٠٩٧)^(١٣) أول حاكم يعتنق الإسلام . وتحت حكم خلفائه انتهجت برنو سياسة توسعية . وعلى الرغم من أن الحكام

(١١) عثمان بن زينب: المائى التاسع عشر من سلسلة مايات برنو . حكم خلال الفترة ١٢٧٩ - ١٣٠٠ . اقترن عهده بنشاط الدعوة الإسلامية حتى قيل إنه المقصود بالشخصية المعروفة فى الكتب العربية باسم الهادى العثمانى ، إشارة إلى ادعائه أنه من ولد عثمان بن عفان . « قال فى « مسالك الأبصار » : وأول من بث الإسلام فيهم الهادى العثمانى ، ادعى أنه من ولد « عثمان بن عفان » رضى الله عنه وملكها ، ثم صارت بعده لليزنيين . « صبح الأعشى . الجزء الخامس ، الصفحة ٢٨١ .

(١٢) « وبلد كانم أربعون مرحلة وهم وراء صحراء بلاد زويلة ... وهم سودان مشركون ويزعمون أن هناك قوما من بنى أمية صاروا إليهم عند محنتهم بالعباسيين ، وهم على زى العرب وأحوالهم . « البكرى ، الصفحة ١١ .

(١٣) المائى الذى تولى الحكم فى الفترة ١٠٨٦ - ١٠٩٧ هو المائى الثانى عشر أوم بن جيبيل ، أما دونمه بن أوم فهو إبنه المائى الثالث عشر . أنظر الحاشية ٦ - ٧ أعلاه .

اعتنقوا الإسلام فإن الشعب ظل على وثنيته . وفي بداية القرن الثالث عشر حدث اختلاط في الأجناس . ومهما يكن أصل آل سيفي ، فإن حاكم كانم في الوقت الذي أُرُخ فيه الإدريسي كان أسود البشرة . وكان سالما الذي حكم في الفترة ١١٩٠ - ١٢٢٠ أميراً أسود^(١٤) . وهكذا أصبحت الأسرة الحاكمة مع بداية القرن الثالث عشر زنجية خالصة ، حتى وإن كانت من أصل ليبي .

وكان نونمة ديباليمي^(١٥) هو الشخصية العظيمة في تاريخ البرنو المبكر . فقد قاد حملة إلى الجنوب ، وغزا القبائل الوثنية ، وفي الشمال امتد نفوذه إلى الصحراء الجنوبية بأسرها . ويذكر العبر أن هذا الحاكم أهدى زرافها إلى الملك الحفصي في تونس ، أبي عبد الله المنتصر^(١٦) ، وأنه كان سببا في موت مغامر عربي حاول تنصيب نفسه في ودان .

وحتى بداية القرن الثالث عشر كانت دولة كانم هي السائدة ، وبرنو مجرد إقليم في الأطراف . وكان مركز الإمبراطورية هو حوض تشاد ، بيد أن حكام البرنو أدركوا في وقت مبكر أهمية تأمين طرق التجارة . وكانت بلما هي مركز تجارتهم في الملح ، وقد ضمنوا تأييد قبيلة التدا التي تعيش في الصحراء وذلك بالزواج ببنات رؤسائها ، وهو تأييد له أهميته ، لأنه من غير التحكم في فزان

(١٤) سالما : (اسمه الإسلامي عبد الجليل بن بكر) ، وهو الماي السادس عشر ، وصحة الفترة التي تولى الحكم خلالها ١١٩٤ - ١٢٢١ . وكلمة سالما معناها أسود ، وقد اشتهر بهذه التسمية لسواد لونه على خلاف أسلافه . وفي عهده ازداد بناء المساجد .

(١٥) نونمة ديباليمي : أحمد نونمة أو نونمة بن دابالا بن سالما (دابالا إسم أمه وسلما إسم أبيه) . الماي السابع عشر (١٢٢١ - ١٢٥٩) ، وهو الذي حطم المعبد الوثني المعروف باسم «ميون» الذي كانت عبادته ما زالت قائمة والذي لم يكن أحد من مايات البرنو السابقين يجرؤ على الاقتراب منه .

(١٦) «وفي سنة خمس وخمسين وصلت هدية ملك كانم من ملوك السودان ، وهو صاحب برنو مواطن قبيلة طرابلس ، وكان فيها الزرافة ، وهو الحيوان الغريب الخلق المناقر الطي والشييات ، فكان لها بتونس مشهد عظيم برز إليه الجلفي من أهل البلاد حتى غصّ بها الفضاء .» العبر ، طبعة دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، الجزء السادس ، القسم الثاني ، الصفحتان ٦٥١ و ٦٥٢ .

يستفاد من هذا النص أن الهدية وصلت في سنة ٦٥٥ هـ ، أي ١٢٥٧ م ؛ ومن المعروف أن أبا عبد الله المنتصر حكم تونس في الفترة ١٢٤٩ - ١٢٧٧ ، وأن نونمة حكم في الفترة ١٢٢١ - ١٢٥٩ .

لا يكون باستطاعة كانم أن تحتفظ بعلاقات تجارية ودبلوماسية مع تونس ، وهي علاقات ذات أهمية كبيرة لها .

وقد أدى نمو الكانورى^(١٧) إلى تدعيم القبائل الوثنية . وشكلت قبائل الكُتُكُو والمُسُغُو والموسا اتحادا عرف بالكوارارافا . وبحلول عام ١٣٠٠ كان الكوارارافا من القوة بحيث يستطيع الصمود أمام غارات الكانورى . وقد قدر أن يكون لهذا الاتحاد نور هام فى سياسة المنطقة طيلة الأعوام الأربعمئة التالية ، وكانت هناك نول أخرى إلى الشمال والشرق . وكان الطوارق وغيرهم من قبائل الصحراء على استعداد دائما للفتك بالسكان المستقرين . ولذلك فإن أى ضعف يطرأ على قوة كانم كان يُغرى البو بالإغارة على قوافل التجارة . والصعوبة التى واجهت كانم هى وضعها الجغرافى ، فلم تكن هناك حدود واضحة ؛ فهى تقع بين نول منحنى النيجر ودارفور . وفى الشمال أرغمت بحكم وضعها الجغرافى على غزو فزان لأن العجز عن السيطرة على الصحراء كان يؤخذ كعلامة على الضعف ، وكدعوة لقبائل الصحراء للقيام بأعمال النهب . ولذلك فإن الحدود المفتوحة فى كل الجهات هى التى أدت إلى ظهور كانم كقوة حربية كبيرة ، وكان عليها لكى تعيش فى أمان أن تخضع الآخرين ، أو أن يتمكنوا هم من إخضاعها . ولقد بذلت ما فى وسعها لغزو الآخرين .

كان دونمه هو الحاكم العظيم فى المرحلة المبكرة من إمبراطورية كانم - برنو . فقد قاد حملة ضد قَرْمَان زويلة أيدته فيها الحفصيون . وعلى الرغم من أن المقريزى يقول إن دونمه هو أول حاكم مسلم لكانم^(١٨) ، فإن ذلك يبدو غير صحيح ،

(١٧) قبائل الكانورى : يجمعها شبه كبير بقبائل الكانمبو من حيث كونها خليطا من عناصر مختلفة من العرب والبربر والزنوج ، كما اختلطت بالكانمبو . يكونون أغلب سكان كانم وبرنو ، وسادت لغتهم فى المنطقة بحيث كانت كانورى تطلق على جميع العناصر المتكلمة بهذه اللغة بصرف النظر عن أصولها . يرجع إليهم الفضل فى الإكثار من استخدام الخيول ، وعرفوا بأنهم من أمهر الفرسان .

(١٨) «قال ابن سعيد وكوكو صاحب تلك البلاد وهو كافر يقابل من غربيه مسلمى غانة ومن شرقيه مسلمى الكانم ... وهم مسلمون» «چيمى . وهى على النيل ... قاعدة بلاد الكانم (قال ابن سعيد) وهى قاعدة بلاد الكانم وفيها سلطان الكانم المشهور وهو من ولد سيف بن ذى يزن» المقريزى ، الإلمام ، المرجع السابق ، الصفحتان ٢٢ و ٢٧ .

لأن كلا من اليعقوبى والإدريسى يذكر أن حكام كانم كانوا مسلمين منذ فترة طويلة^(١٩) وتعود أهمية بونمه إلى إدراكه أنه لى توجد كانم كدولة ، ولكى يحتفظ آل سيفى بموقعهم ، فإنه ينبغي دعم تنظيم الدولة بأسره . وقد أصر على إدخال قدر كبير من التناسق ، وكان سلاحه المفضل فى ذلك هو الجيش . وهكذا استطاع إخضاع مختلف القبائل المجاورة لسيطرة كانم . ويجمع الرواة على وصف بونمه بالحزم فى إقامة حدود الدين ، وعلى أنه كان يحكم بالعدل .

وشهد القرنان التاليان توسعاً سريعاً لدولة كانم ، إذ دعمت قبضتها على حوض تشاد والصحراء الجنوبية . وكان جنود الكانمبو يدعمون إمبراطورية بنى سيف فى الصحراء الجنوبية . وكتب الإدريسى فى عام ١١٥٢ (٥٤٧ هـ) يقول إنه كانت هناك أربع مجموعات فى حوض تشاد : فى الشمال كان يوجد أهل كُوَّار الذين امتد نفوذهم حتى تبستى ؛ والزازاج الذين امتد نفوذهم إلى شمال تشاد ومركزهم فى تشاد ؛ والباغرمى وكانوا من البدو ؛ والكانمبو (أهل كانم) وكانوا أقوى هذه المجموعات .

وفى القرن الثالث عشر أدت سياسة التوسع والتكامل التى بدأها خلفاء دونمة الأول إلى ظهور كانم كدولة عظيمة . وخضعت دنقلة ، الدولة المسيحية الكبيرة فى إفريقية الوسطى ، لسيطرتها . ومازال السور الحجرى فى ليجيا بوادى الغاب يذكرنا بالأيام العظيمة لدولة كانم ، ويقع هذا السور على بعد قرابة عشرين ميلاً إلى الغرب من دنقلة ، وقد بنى على طراز الكانمبو التقليدى وله بوابة رئيسية كبيرة ومدخل جانبى صغير . وقد امتدت دولة كانم فى القرن الرابع عشر من الجندل الأول شرقاً إلى النيجر غرباً ، ومن ودان فى إقليم طرابلس شمالاً إلى يولا جنوباً . وقد تحرك الكانمبو بمحاذاة الواحات إلى فزان مؤسسين مستعمراتهم على طول الطريق . وعند نهاية القرن الثالث عشر كانت

(١٩) « ووراء زويلة على خمس عشرة مرحلة مدينة يقال لها كُوَّار ، بها قوم من المسلمين من سائر الأحياء أكثرهم بربر ، وهم يأتون بالسودان » اليعقوبى ، كتاب البلدان ، دار إحياء التراث العربى ، الصفحة ١٠٢ .

نولة البرنو بدورها تزحف نحو السيادة . ويشير إليها ابن سعيد^(٢٠) في عام ١٢٨٠ . كما أن ابن خلدون في حديثه عن تلك الأيام يدعو الحاكم ملك كانم وسيد برنو .

كان اتساع الإمبراطورية يحمل في طياته بنور التفتت والانقسام . فمن الشرق تدفق البدو والتجار العرب . وفي عام ١٣٨٦ وصل البدو بأعداد تكفي لأن يحاولوا التأثير في السياسة ، وترتب على غاراتهم أن أخذ الضعف العام يدب في أركان نولة كانم .

وكانت غارات العرب على درجة كبيرة من الأهمية . ذلك أن عثمان بن إدريس^(٢١) ، مابى برنو ، كتب إلى أحد سلاطين المماليك في مصر^(٢٢) يشكو تجار الرقيق من العرب «وبعد ذاك ، فقد أرسلنا إليكم رسولنا ، وهو ابن عمى ، اسمه إدريس بن محمد . من أجل الجائحة التي وجدناها ، وملوكنا ، فإن الأعراب الذى يسمون جذاما وغيرهم قد سبوا أحرارنا : من النساء والصبيان ، وضعفاء الرجال ، وقرابتنا ، وغيرهم من المسلمين . ومنهم من يشركون بالله ، يمارقون للدين ، فغاروا على المسلمين فقتلوهم قتلا شديدا ؛ لفتنة وقعت بيننا وبين أعدائنا ،

(٢٠) على بن موسى بن محمد عبد الملك ، المعروف بابن سعيد العنسى الغرناطى : (١٢١٤ - ١٢٨٦) ، ولد بغرناطة . أقام فى الإسكندرية (١٢٤٢) ، ثم رحل إلى بغداد (١٢٥٠) ، ومنها إلى حلب فدمشق ، ثم عودة إلى الموصل فبغداد والبصرة ومكة . ذهب بعد ذلك إلى تونس ، والتحق بخدمة أبي عبد الله المستنصر ، وعاد إلى المشرق (١٢٦٨) ، وبلغ أرمينيا عن طريق الإسكندرية وحلب ، ثم عاد إلى تونس . صنف كتاب المغرب فى حلى المغرب ، وتوجد طبعة منه فى المكتبات تحقيق الدكتور شوقى ضيف ، كما صنف كتاب بسط الأرض فى الطول والعرض ، وقد أصدر معهد مولاي الحسن فى تطوان طبعة منه عام ١٩٥٨ ، حققها الدكتور خوان قرنيط جينيش ، الأستاذ بجامعة برشلونة . كما يوجد له كتاب الجغرافيا الذى أصدرته «منشورات المكتب التجارى للطباعة والنشر والتوزيع» ، بيروت . وقد تم تحقيق ونشر قطعة لابن سعيد عنوانها إقليم تشاد فى المجلد السادس عشر من مجلة هوائيات إسلامية التى يصدرها المعهد العلمى الفرنسى للأثار الشرقية بالقاهرة .

(٢١) عثمان أوبيرى بن إدريس : المابى الثالث والثلاثون ، ولى الحكم فى الفترة ١٢٩٢ - ١٤٢٥ . تعرض لحرب ضارية ضد حاكم الجنوب ، محمد بن دالاتو ، كما تعرض لاعتداءات قبائل جذام العربية المستقرة فى برنو ، وهى قبائل عرف عنها كذلك مساعدتها للبولالا .

(٢٢) هو سلطان الظاهر «أبو سعيد برقوق» . وقد وصلت هذه الرسالة فى عام ١٣٩٢ .

فبسبب تلك الفتنة قد قتلوا ملكنا عمر بن إدريس الشهيد^(٢٣) ، وهو أخونا ابن أبينا إدريس الحاج ، بن إبراهيم الحاج^(٢٤) ، ونحن بنو سيف بن ذى يزن ، والد قبيلتنا ، العربى القرشى ، كذا ضبطناه عن شيوخنا ، وهؤلاء الأعراب قد أفسدوا أرضنا كلها ، فى بلد برنو كافة حتى الآن ، وسبوا أحرارنا وقرابتنا من المسلمين ، يبيعونهم لجلاب مصر والشام وغيرهم ، ويختمون ببعضهم ؛ فإن حكم مصر قد جعله الله فى أيديكم من البحر إلى أسوان ، فإنهم قد اتخذوا متجراً ، فتبعثوا الرسل إلى جميع أرضكم ، وأمرائكم ، ووزرائكم ، وقضاتكم ، وحكامكم ، وعلمائكم ، وصواحب أسواقكم ، وينظرون ويبحثون ويكشفون ؛ فإذا وجدوهم فلينزعوهم من أيديهم ، وليبتلوهم ، فإن قالوا نحن أحرار ونحن مسلمون فصدقوهم ولا تكذبوهم ، فإن تبين لكم ذلك فاطلقوهم ورتبوهم إلى حريتهم وإسلامهم .. والسلام على من اتبع الهدى . «^(٢٥) .

ومع ذلك فإن سلطان مصر كان ذا مصلحة حيوية فى تحطيم إمبراطورية الكانورى . فإمبراطورية كبيرة تمتد من الجندل الأول إلى النيجر لابد أن تشكل تهديدا سياسيا ، والأسوأ من ذلك أنها كانت تتدخل بشكل خطير فى الغارات التى تشن من أجل الرقيق . فقد كانت هذه البلاد ظهيرا لمصر ، كما كانت منذ أقدم العصور مقسمة بين أصحاب الالتزام المختلفين . ولذلك لم تجد توسلات الماي آذانا صاغية .

(٢٣) عمر بن إدريس : الماي الثلاثون من الاسرة السيفية ، وأول من انتقل من ماياتها من كانم إلى برنو . تولى الحكم فى الفترة ١٢٨٧ - ١٢٩١ .

(٢٤) إدريس بن حفصة بنت نيجال بن إبراهيم : (أمه حفصة بنت نيجال ، وأبوه إبراهيم) ، الماي السادس والعشرون . تولى الحكم فى الفترة ١٢٥٢ - ١٢٧٦ . « وكان ملكهم فى حدود سنة سبعماية (١٢٠٠ م) الحاج إبراهيم . » المقرئى ، حوايات إسلامية ، المرجع السابق . [الحاج إبراهيم المشار إليه فى المتن وفى هذا الاقتباس هو الماي العشرون الحاج إبراهيم نيجال بن كاجودى الذى حكم فى الفترة ١٢٠٠ - ١٢٢١ .] (٢٥) ورد نص هذه الرسالة فى صيغ الأمشى ، الجزء الثامن ، الصفحتين ١١٧ و ١١٨ .

بيد أن حروب البولالا^(٢٦) هي التي بددت ثروات الكانمبو . وكان البولالا فرعاً تابعاً من الأسرة السيفية . وكان **جيل سيكومامى**^(٢٧) ابن إحدى أميرات البرنو ، وسمى بولالا بسبب ضراوته وشراسته . وقد ارتكب سيكومامى جريمة قتل ، وفر إلى النجيزام الوثنيين ، حيث أقام لنفسه مملكة فى فترة بمساعدة العرب وغيرهم من البدو . وخشى الماي نونمه أن تعمل أسرة البولالا الحاكمة على تفتيت إمبراطورية الكانورى فبدأ بتوجيه الضربة وألحق بهم الهزيمة . وكان الماي قد ترك ولى العهد **داوود نجيلامى**^(٢٨) فى فترة لتولى شؤون الحكم . وسرعان ما نشب الخلاف بينه وبين ولى العهد ، وبذلك استطاع أبوطحل حاكم البولالا غزو فترة . وعندما خلف داوود الماي نونمه استطاع البولالا طرده من نجيمى . يقول المقريزى : "وكان قبيل سنة ثمان مائة . وانتقض عليهم أهل كانم وارتدوا وبقيت برنوا فى مملكتهم . وهم مسلمون مجاهدون لأهل كانم ، ولهم اثنا عشر مملكة"^(٢٩) .

(٢٦) تفيد المخطوطات التى عثر عليها فى بلاد البرنو أن أصل البولالا من العرب اليمنيين ، وأن أول سلاطينهم شخص يدعى محمدا قيل إنه جاء من الغرب ، ومن سلالته زعماء البولالا الذين سيطروا على جزء من بلاد الكانم ، وهم فرع من الأسرة المقول بأنها سيفية . وكلمة البولالا تعنى الأحرار أو التبلاء بلغة الطوارق . وأصولهم البربرية المتأثرة بالدماء العربية تفسر مساعدتهم للعرب فى صراعهم مع مايات البرنو .

(٢٧) **جيل سيكومامى** (أو عبد الجليل سيكوما) : زعيم البولالا القوى الذى حكم فى الفترة ١٣٦٥ - ١٤١١ ، وعاصر تسعة من مايات البرنو ، أولهم الماي إدريس بن حفصة (١٢٥٣ - ١٣٧٦) ، وآخرهم الماي عثمان بن إدريس (١٣٩٢ - ١٤٢٥) صاحب الرسالة إلى برقوق سلطان الماليك فى مصر ، وقتل منهم أربعة هم : داوود بن فاطمة ؛ عثمان بن إدريس ؛ عثمان بن داوود ؛ وأبو بكر بن داوود . كما أنه الحاكم الرابع فى سلسلة حكام البولالا .

(٢٨) **داوود بن فاطمة بنت نيجال بن إبراهيم** : (أمه فاطمة بنت نيجال وأبوه إبراهيم) ، الماي السابع والعشرون (١٣٧٦ - ١٣٨٦) .

(٢٩) **داوود** لم يخلف الماي نونمه ، وإنما خلف إدريس بن حفصة بنت نيجال بن إبراهيم ، الماي السادس والعشرين (١٣٥٣ - ١٣٧٦) . « وملك بعده ابنه الحاج إدريس ثم أخوه داوود بن إبراهيم بن عمر بن أخيه الحاج إدريس ثم أخوه عثمان بن إدريس . وكان قبيل سنة ثمان مائة . وانتفض عليهم أهل كانم ... » المقريزى ، **حواليات إسلامية** ، المجلد الخامس عشر ، الصفحة ١٩٥ .

وقد ارتبط ظهور قوة البولالا بثورة مجموعتين من الشعب ضد كانم . وكانت قوة الكانورى تستند إلى حلف بين قبائل البسو ، مثل قبيلة التدا ، والسكان الزنوج المستقرين فى منطقة تشاد . وكان التدا عنصرا قويا فى الدولة ؛ فأم بونمه بن أوم على سبيل المثال هى بنت أحد رؤساء التدا . ويذكر المؤرخون أن حروب البولالا قد بدأت لأن بونمه حطّم إحدى التعاويذ . ويعتقد بارت أن ذلك يشير إلى حرب السنوات السبع التى شنها بونمه ضد التدا . والحلف مع التدا هو الذى مكّن كانم من السيطرة على الصحراء . وهكذا أمسك بونمه بجذور قوة الكانورى . ومن هنا كانت رغبة التدا فى الانضمام إلى جيل سيكومامى فى محاولة لتحطيم إمبراطورية الكانورى . وثمة شبه كبير بين حروب الكانورى - البولالا والحروب الإنجليزية - الفرنسية ، من حيث كونها حروبا طويلة الأمد ، وليست مجرد حروب بين جيوش نظامية وإنما حروب بين عصابات من قطاع الطرق اكتسحت المنطقة بأكملها . إن الأسر الحاكمة كانت مترابطة ، ولكن خلف هذا الترابط كان هناك صراع الفرع التابع من أجل إزاحة الأسرة الحاكمة من حوض بحيرة تشاد .

ومع ظهور قوة البولالا فى فترة أرغم مايات كانم على ترك عاصمتهم القديمة والانتقال إلى برنو^(٢٠) التى ازدادت أهميتها نتيجة لذلك فى المقاطعات الخاضعة للمايات . وأصبحت كل جهود المايات خلال السنوات المائة والعشرين التالية مكرسة لاستعادة أرض أجدادهم .

(٢٠) عندما وضحت استحالة التغلب على البولالا وزعيمهم عبد الجليل ، الذين كانوا يلقون المساعدة من قبيلة جذامة العربية من ناحية الشمال والشرق ، لم تستطع الأسرة السيفية البقاء فى العاصمة نجيمى ، وتوجه الماي عمر بن إدريس إلى إقليم برنو غربى بحيرة تشاد . ومنذ عهد عمر بدأ حكم البولالا فى كانم ، واستقر المايات السيفيون فى برنو ، واتخذوا كاغا أو كاكا عاصمة لهم ، وفى برنو أخذوا يكافحون للعودة إلى كانم والقضاء على البولالا . وبذا ينتهى عصر سيادة كانم ويبدأ عصر سيادة البرنو . « وقاعدتهم مدينة كاكا ... فيما ذكر لى رسول سلطانهم الواصل إلى الديار المصرية صحبة الحجيج فى الدولة الظاهرية (برقوق) » صبح الأمشى ، الجزء الخامس ، الصفحة ٢٧٩ .

ومع استفحال الخطر اتجه مايات البرنو نحو الشمال . وقد أدى انهيار قوة الكانورى إلى ظهور قوة الطوارق فى أسبن ، واشتداد فتكهم بالقوافل بحيث استحالت التجارة مع الشمال . وكان على جاچى^(٣١) ، الذى خلع الماي الحاكم فى عام ١٤٦٦ ، هو الذى قاد مقاومة الكانورى . وقد كتب إلى الشيخ مختار حاكم توات طالباً استئناف تجار توات لزياراتهم التقليدية : " أقسم بالله بأنى لن ألحق بكم أذى من أى نوع ، وبأنى لن أسمح لأحد أن يفعل ذلك . احضروا إلينا كما هى عادتكم . وأى شخص يحضر من توات حاملاً منكم رسالة لن يطلب منه دفع أى شئ ، أرضنا هى أرضكم مثلما كانت أرض أجدادكم . «^(٣٢) وتلك حركة سياسية بارعة لأن السلطان كان يأمل فى الحصول على تأييد دول شمال إفريقية فى محاولة للإبقاء على طرق التجارة مفتوحة . ولكن الأمر الأكثر أهمية هو أن قوة الكانورى قد استعيدت فى فزان بما يكفى لأن يقدم السلطان تعهداً إلى تجار إفريقية الشمالية بحمايتهم من قطاع الطريق .

(٣١) على جاچى بن دونمه بن زئيب : الماي السابع والأربعون ، تولى الحكم فى الفترة ١٤٧٢ - ١٥٠٣ ، وهو ابن الماي التاسع والثلاثين دونمه بن عثمان . يعد من أعظم مايات إمبراطورية البرنو ، فقد أعاد إليها الهيبة ، وقضى على الحروب الأهلية ، واستعاد النظام . خاض حروباً توسعية كثيرة حتى لقب «بالغازى» . بنى عاصمة جديدة هى مدينة بيرنى أى المدينة الحصينة التى ظلت عاصمة لبرنو إلى حين استيلاء الفولانى عليها . عاصر إثنين من أعظم سلاطين السنفى . سن على وأسكيا الحاج محمد . قام بدور « صانع الملوك » ، فقد تمكن من عزل الماي الرابع والأربعون عثمان بن كادى فى عام ١٤٦٦ ، وولى مكانه ماياً آخر متقدماً فى السن هو الماي الخامس والأربعون الذى لم يمكث فى الحكم سوى عام واحد ، وجاء بعده الماي السادس والأربعون محمد بن محمد كادى ، الذى اضطره على الغازى إلى الهرب ، وحينئذ سنحت له الفرصة لتولى حكم البرنو . ويقال إن «جاچى» تقابله بالعربية كلمة «الصغير» . أنظر ، بالمر ، The Bornu ، Saltara and Sudan ، الصفحة ٢٢٤ .

(٣٢) نورد فقرة أخرى سبقت هذه العبارة : « بعد ذلك يالها من غرابة ! لماذا تخليتكم عن عادة آبائكم ، وتوقفتم عن زيارة بلدنا ؟ فمنذ أيام المعاهدة مع سيدنا الصغير لم تجيئوا إلينا قط » بالمر ، المرجع نفسه ، الصفحة نفسها . [المقصود بسيدنا الصغير هنا هو جاچى بن إبعالا . الماي الثالث والأربعون ، الذى عقد معاهدة مع عرب توات ، وقتله البولالا .] وقد كتبت هذه الرسالة فى شعبان ٨٤٢ (يناير ١٤٤٠) . عن المرجع نفسه ، الموضع نفسه .

وقد حاول على جاچى تدعيم نفوذ برنو على جنوبى الصحراء الكبرى ، وحالفه النجاح فى فزان ، وأعيد فتح طريق التجارة إلى الشمال . وفى وسط الصحراء الكبرى وافته الفرصة فى أخريات أيام حكمه ، وذلك عندما استغاث به حاكم أير الذى كان قد ضاق ذرعا بسيطره كِبْ . وقاد على جاچى حملة ضد كِبْ ، ولكن على الرغم من أنه هزم كَنْتَ كِبْ^(٣٣) ، فإن مدينة سوريم^(٣٤) الحصينة استعصت عليه ، وأرغم على التقهقر ، فطارده الكَنْتَ وألحق به الهزيمة ، وقام بغزو برنو ، وهزم سلطانها فى سبع معارك استعد لها الطرفان من قبل ، ولكن الكَنْتَ أرغم فى النهاية على التراجع ، وأصبحت حدود كِبْ تقتصر على السنفى غربا والبرنو شرقا .

عامل آخر تسبب فى إضعاف البولالا وأعوانهم من العرب ، هو ظهور قوة الأتراك العسكرية فى المشرق ، فقد طرق العثمانيون أبواب مصر ، وشغلت مصر تماما بهم بحيث لم يعد بإمكانها أن تفكر فى مساعدة البولالا . واغتنم المايات الفرصة بمهارة ، وسارعوا إلى جلب المدربين الأتراك لإعادة تدريب الجيش ، وتشكلت سرية من حملة البنادق أصبحت خير وحداته .

ومع ذلك كانت كانم تواجه أعداء آخرين أيضاً ، فى مقدمتهم وثنيو الجنوب الأقوياء ، إذ كان على كل الحكام تقريباً أن يشنوا الحرب ضدهم . وقد شكلت الشعوب الوثنية مثل الكوتوكو والماسا والموسغو ، كما رأينا ، اتحاداً اكتسب درجة من القوة أدركها المؤرخون العرب فى بداية القرن الرابع عشر . وهذا الاتحاد هو الكوارارافا . وسنحت لهذا الاتحاد فرصته الحقيقية خلال تصاعد

(٣٣) كَنْتَ : وردت بهذه الصيغة فى تاريخ السودان ، الصفحة ٨٨ ومواضع أخرى ؛ وكذلك فى تاريخ الفتاش، الصفحة ٤٣ ومواضع أخرى . وكِبْ إحدى ممالك الهوسا ، وكان حاكمها كوتال ، المشهور بلقب كَنْتَ ، أى ملك ، أحد قواد السنفى العسكريين ، ولكنه خرج عليهم واستقل بمقاطعة كِبْ ، ثم اتسع ملكه باستيلائه على كاتسنا وغوير وزازو ، ثم امتد نفوذه إلى أير . وكَنْتَ اسم دولة ، وكذلك اسم حاكم تلك الدولة التى يوجد مركزها فى مقاطعة كِبْ ، فى دند .

(٣٤) سوريم : مدينة بالقرب من سكتو ، وتعرف كذلك باسم سورماي . وهى مدينة محصنة يربو محيط أسوارها على عشرة أميال ، كما تشمل حصوناً كثيرة وأحياء مسورة . وكانت تستخدم فى مبانيها الحجارة والطوب الأحمر .

قوة البولالا ، وذلك عندما شغلت كانم فى الشمال والشرق ، فمد سلطته فى النصف الأخير من القرن الرابع عشر إلى الجزء الجنوبي من أراضى الهوسا ، وقاد ساركن كانو^(٣٥) حملة ضد الاتحاد فى عام ١٣٨٥ . وظل تهديد الكوارارافا ماثلاً قرابة ثلاثة قرون . يقول مؤرخ برنو^(٣٦) ، « لقد قام الماي الغازى على بن زينب ، وهو من أصحاب المدن ذات الأسوار العالية والحرب الطويلة والجياد القوية ، بشن الحرب ضد وثنىي كونا حتى تشتتت قواته أمام الهجوم الذى شنه الكونا ، ولكن العناد تسلط عليه هو والسلطان سعيد مونيى باجو ، واستأنف رجاله المعركة مرة ثانية حتى أحرزوا النصر» . وهكذا على الرغم من أن النصر ظل فى المقام الأول إلى جانب برنو ، فإنه ظل نصرا مزعزعا . واستمر الاتحاد بمثابة شوكة أخرى فى جسد كانم - برنو .

من ناحية ثانية كانت قوة البولالا هى التهديد الأشد خطورة . فعلى الرغم من أن تأييد العرب قد توقف ، فإن قوة البولالا ظلت ماثلة . وكانت دولة البولالا منظمة وفق نفس المبادئ التى أخذت بها دولة الكانم . فالتبقتان الحاكمتان فيهما على غرار واحد ، والأسرتان الحاكمتان متزاوجتان . فالغازى على بن زينب ، على سبيل المثال ، تزوج بابنة سلطان البولالا^(٣٧) ، غير أنه بعد عشرين عاما من حكمه لم يعد راغبا فى أن تشكل قوة البولالا مصدر معاناة وضيق له ، فهاجم حماه وتغلب عليه ، ولكن سرعان ما قهره الموت . وكان لعل الغازى ابن من أميرة بولالية إسمه إدريس كان عند وفاة أبيه لم يزل فى الخامسة ، فأرسلته أمه إلى بلاط البولالا . وبعد وفاة أبيه أصبحت أخته - عائشة كيلي - وصياً

(٣٥) ساركن : فى لغة الهوسا بمعنى الملك أو الرئيس وجمعها سراكوما . وكان حكام بعض ممالك الهوسا يحملون هذا اللقب ، وبخاصة حكام كانو . وربما يكون الساركن المشار إليه هنا هو ياجى بن تساميا ، الساركن الثانى عشر فى سلسلة سراكوما كانو ، والذى حكم فى الفترة ١٣٤٩ - ١٣٨٥ ، أنظر الحاشية ١٤ - ٤٤ أتناه . أنظر كذلك ، بالمر ، Sudanese Memoirs ، المجلد الثالث ، الصفحة ١٠٧ .

(٣٦) هو المؤرخ المعروف أحمد بن فرتوا . أنظر الحاشية ٦ - ٤٤ أتناه .

(٣٧) هو محمد عُمَر ، الذى يسميه أحمد بن فرتوا دونه بن سالما . الحاكم العاشر للبولالا الذى تولى الحكم فى الفترة ١٤٧٩ - ١٥٠٨ . أنزل به الماي إدريس بن على هزيمة كبرى حوالى عام ١٥٠٤ ، ودخل العاصمة التى لم يتمكن أبوه من دخولها .

على العرش . وعند بلوغه الثانية عشرة كتب إلى أمه وأخته يبلغهما بوجوده ،
فسألتاه العودة ، وتوج ملكا .

وشهد عهد إدريس بن علي^(٢٨) بداية جولة أخرى من حروب البولالا كان
سبب اشتعالها بسيطاً للغاية . فبينما كانت أم إدريس تجوب ربوع البولالا نهبت
قافلتها وقطعت قدميها . واقتفى الكانمبو أثر الجناة حتى لانجا إحدى مدن
البولالا . وطالب إدريس بتسليمهم إليه ، ولكن البولالا رفضوا طلبه . عندئذ قاد
إدريس بن علي جيشا ضد البولالا قوامه سبعون ألفا ، وألحق بهم الهزيمة في
معركة دموية ، ثم قاد بعد ذلك جيشا إلى كانم وحررها .^(٢٩) لقد انقضى من
الأعوام مائة وعشرون منذ أن غادر داوود بلاد كانم ، ومن ذلك الحين كان
إدريس أول ماى يعود إلى دخولها . وشن إدريس حملة ثانية ضد البولالا أنهكت
قواهم ، ثم استدار لمواجهة التهديد الذى تشكله حملات السنغى فى بلاد الهوسا
على حدوده الغربية ، ولذلك اتخذ جانب كِبٍ فى الحرب التى تخوضها ضد
السنغى . واتبع خلفه محمد^(٤٠) السياسة نفسها وحقق بدوره نجاحا ضد البولالا
فاق كل ما كان متوقعا ، ووقع ملك البولالا أسيرا . وفى عهد محمد بن إدريس
استعادت الامبراطورية مجدها القديم . وربما يكون محمد هذا هو الذى قضى
على مملكة التونجور فى دارفور وأسس مملكة سيفية حاکمة هناك .

(٢٨) المائى إدريس بن علي نونمة أو إدريس بن عائشة : المائى الثامن والأربعون ، حكم خلال الفترة
١٥٠٣ - ١٥٢٦ . حقق حلم مايات برنو بدخول عاصمة الحاكم البولالى ، وإن لم ينقل عاصمته إليها بسبب
أهمية عاصمته بيرنى من الناحيتين العسكرية والتجارية . كان للماجيرا (الملكة الأم) الفضل فى توجيهه وإرشاده
كما كان لأحمد بن فرتوا الفضل فى تخليد أعماله وتسجيلها . اشتهر عهده بالرخاء والازدهار والإكثار من
بناء المساجد فى العاصمة بيرنى .

(٢٩) «بعد أن أصبح إدريس بن علي خليفة فى أرض البرنو ، حشد جيشا من الحمر (البيض ، أى عرب
البرنو) والسود وتوجه إلى أرض كانتم ، وحارب السلطان نونمة بن سالما وانتصر عليه ، فهرب نونمة مع قلول جيئته ،
ودخل إدريس شيما - وهى جيمى الشهيرة عند الملوك السيفيين ، وأقام فيها فترة .» وردت هذه الفقرة فى
ريتشموند بالمر The Bornu Sahara and Sudan ، الصفحة ٢٢٦ ، مترجمة عن أحمد بن فرتوا .

(٤٠) محمد بن إدريس : المائى التاسع والأربعون ، ابن إدريس بن علي بن عائشة ، تولى الحكم فى
الفترة ١٥٢٧ - ١٥٤٥ .

ومع ذلك كان الزمن يدخر لإدريس أكثر شهرة (إدريس ألوما)^(٤١) مهمة الإجهاز التام على قوة البولالا . فقد شن البولالا ، فى عهد حاكمهم بونمه بن محمد ، غارة على برنو . وكانت هناك حتى ذلك الوقت مسألة معلقة هى مسألة المدن الثلاث التى يحتلها البولالا بصورة غير شرعية . فكتب إدريس إلى سلطان البولالا طالبا إياه إعادة هذه المدن ، ولكنه رفض الخضوع ، عندئذ تحرك إدريس نحو كانم . وكان البولالا منقسمين إلى مجموعتين ، إحداهما تتبع السلطان عبد الجليل^(٤٢) الذى هيمنت عليه رغبة القتال حتى نهايته المرة . وبعد أن أوقع به إدريس ألوما سلسلة من الهزائم شكل محمد بن عبد الله^(٤٣) حزبا آخر يؤثر السلم .. وعلى الرغم من أنه كان يوجد فى بلاط البولالا حزب نشط يعمل لصالح إدريس ، فإن الأمر تطلب حملات طويلة كثيرة قبل هزيمة عبد الجليل وتأمين مواقع محمد بن عبد الله . وبينما لم يكن البولالا أقوياء بدرجة تكفى لمواجهة إدريس ، فقد كان باستطاعتهم إرغام محمد بن عبد الله على النكوص عن شروط أية معاهدة . وعلى الرغم من أن إدريس أوقع بعبد الجليل هزائم متعددة فإنه ما إن انسحب جيش برنو حتى تمكن عبد الجليل من أن يوقع الهزيمة بمحمد بن عبد الله . وفى هذه الأثناء قام الماي إدريس بإخلاء كانم من سكانها . وعند نهاية الحملة السادسة كانت قوة البولالا قد أنهكت بسبب كثرة ماخاضوه من حروب ، مما أدى إلى تعاظم نفوذ حزب السلم . واستطاع محمد بن عبد الله ضمان السلم بأن ضحى بأجزاء هامة من أراضيه .

(٤١) إدريس بن على أو الحاج إدريس ألوما : الماي الثالث والخمسون ، أعظم سلاطين البرنو ، خضع لوصاية أمه الماچيرا عائشة فى الفترة ١٥٦٢ - ١٥٧٠ ، وتولى الحكم فى الفترة ١٥٧٠ - ١٦٠٣ . عرف بإدريس بن عائشة ألوما نسبة إلى أمه التى تحلت بالعقل والحكمة وحسن التدبير ، وغرست فى ابنها الشجاعة وحب الجهاد والتمسك بالعدل . سجل الإمام أحمد بن فرتوا حروبه فى شتى الميادين . كانت تربطه علاقة مصاهرة بأسرة البولالا الحاكمة فى كانم ، فقد كان خاله هو محمد بن عبد الله حاكم البولالا فى ذلك الوقت والذى كان يؤثر الصلح مع إدريس ، وينلئ السلطان عبد الجليل المولع بالحرب . وقد وقع اتفاقا مع إدريس لرسم الحدود يوضح معالم كانووبرنو .

(٤٢) محمد سووى «عبد الجليل» : الحاكم السادس عشر للبولالا ، تولى السلطنة فى الفترة ١٥٧٢ - ١٥٩٢ .

(٤٣) محمد بن عبد الجليل الكبير بن عبد الله : الحاكم السابع عشر للبولالا (١٥٩٢ - ١٦٣٣) ، كان إدريس ألوما يرتبط معه بعلاقة مصاهرة ووقع معه اتفاق سلم . وكان قد تولى السلطنة فى عام ١٥٧١ بعد وفاة السلطان عبد الله بن كادى ، ولكن محمد سووى عزله فى عام ١٥٧٢ ، وتولى مكانه . ثم عاد محمد بن عبد الله إلى السلطنة بعد وفاة محمد سووى فى عام ١٥٩٢ . أنظر ، بالمر ، المرجع السابق ، الصفحة ٥٤ .

وكان على إدريس ألوما أن يواجه أعداء آخرين أيضاً . فلم يكن البدو هم وحدهم الذين أكدوا استقلالهم . فقد أكده أيضا أتباع تقليديون مثل ممالك الهوسا . وما كان أكثر أهمية هو القبائل الوثنية الناشئة ، النجيزيم والنجاغاتا والتبالا وغيرها . يقول أحمد بن فرتوا^(٤٤) إن الوثنيين عندما ارتقى إدريس العرش كانوا يستعبدون المسلمين . وكانت سياسته المتعلقة بالنجيزيم ذات ثلاثة جوانب . فقد أقام الحصون ، ومن هناك كان جنوده يقتلعون الغابات في الصيف ويتلفون محاصيل العدو في موسم الأمطار ، ويغيرون عليه في الشتاء . واستمات الوثنيون في الحرب . "لقد احتشد الكفار بقلوب تفيض بالغضب ، واشتبكوا مع المسلمين في معركة ضارية ، ونجحوا في حملهم على الكف عن القتال" . بيد أنه كان نجاحا لبعض الوقت . فحملة البنادق من الأتراك ورجال الحرس المدربون على الأسلحة النارية الصغيرة كانوا يشكلون قوة على درجة من الانضباط استحالت معها على النجيزيم الصمود طويلا ، وحالف النصر الماي إدريس . وخضع التبالا والنجاغاتا بدورهم .

وخلال هذه الفترة حققت كانو درجة من القوة ، وجرت عاداتها على أن تغير على مملكة البرنو كلما تعرضت للمتاعب . فقاد إدريس جيشا إلى كانو ، وبعد سلسلة من المواقع أرغمت كانو على الاعتراف بسيادة برنو . ومع ذلك كان الفولاني هم مصدر القدر الأكبر من متاعب إدريس ، وذلك بسبب ضعفهم وتعرضهم للفتك المستمر على أيدي الطوارق والقبائل الوثنية ، مثل النجاميزان والنجيزيم . وكان الفولاني عاجزين عن الدفاع عن أنفسهم ، واعتاد الطوارق الإغارة عليهم . وهكذا كان على السلطان أن يشن في عام واحد ثلاث حملات

(٤٤) الإمام أحمد بن فرتوا : رئيس العلماء ومؤرخ بلاط برنو زمن الماي إدريس ألوما ، وله الفضل في تخليد أعمال إدريس وتسجيل حروبه في شتى الميادين . مؤلفاته مكتوبة بالعربية ، وقد عثر عليها بارث خلال رحلته ، ونشرها أمير كانو في عام ١٩٣٠ ، وترجمها بالمر في كتابيه . ومما يؤسف له أن النص العربي لمؤلفاته مفتقد . والإمام أحمد سليل أسرة دينية لها أثرها الكبير في نشر الإسلام والعلوم الإسلامية في برنو . وجده البعيد هو داعية الإسلام المعروف محمد بن ماني الذي عاش في القرن الحادي عشر . له مؤلفان رئيسيان يحملان الاسمين : (١) تاريخ السنوات الاثنتي عشرة الأولى من حكم إدريس : (٢) حروب البولالا .

ضد الطوارق ، ولكنه عجز عن سحقهم . وتعرض الفولاني للإغارة مرة ثانية ، وأرغم السلطان على إرسال وزيره لمحاربتهم . وفى الاشتباك الذى حدث عند أجالوا لم تلحق الهزيمة فقط بقطاع الطريق من أبناء الصحراء ، بل لقد طوربوا وسحقوا وأرغموا على قبول سيادة برنو . وفى عهد إدريس ألوما ظلت دارفور خاضعة لسلطان برنو . وقد عثر أركل فى دارفور ، على سبيل المثال ، على آثار كثيرة لسلطان ألوما ، فقد كان أول ماى يبنى مسجدا بالطوب الأحمر ، وأدخل ألوما نفس الطراز فى دارفور .

وعلى الرغم من أن النصر كان يوماً حليف إدريس ألوما ، فقد عجز عن وقف نمو الكوارارافا . ولم يتعرض اتحاد القبائل الوثنية لأى قمع من جيوش إدريس القوية ، بل ظلت قوته سليمة . وعلى خلاف الطوارق والهوسا لم يتم إخضاع الاتحاد ، وظل مصدرا للمتاعب لمايات كانم ، ووقف إدريس عاجزا عن كشر شوكتة .

وكان القرن السادس عشر هو فترة عظمة برنو . وفى خلاله أعاد ثلاثة حكام عظام ، هم الإدريسان^(٤٥) ومحمد بن إدريس^(٤٦) ، بناء قوة الدولة . واحتفظت برنو بسيادتها من دارفور إلى الحدود الغربية لبلاد الهوسا ، وخضعت فزان مرة أخرى لسيطرتها .

وفى عهد إدريس ألوما بلغت برنو أوج قوتها ، فقد أقام ألوما دولته الجديدة كقوة حربية خالصة ، وأدى الإصلاح الذى أدخله على الجيش إلى بلوغه مكانة لاتباريها مكانة أى جيش آخر فى بلاد السودان . كما استقدم فصيلة من حملة

(٤٥) هما إدريس بن عائشة وإدريس ألوما .

(٤٦) المقصود هنا على الأرجح هو المائى الخامس والأربعون محمد بن إدريس الذى حكم خلال الفترة ١٥٢٧ - ١٥٤٥ ، علما بأن هناك مايا آخر يحمل نفس الاسم هو المائى الرابع والخمسون الذى خلف إدريس ألوما ، وتولى الحكم فى الفترة ١٦٠٣ - ١٦١٨ ، والذى قتل فى حرب القبائل الوثنية وقالت الوثائق إنه استشهد فى حرب مقدسة ، ويعتبر عهده بداية مرحلة ضعف إمبراطورية البرنو وتدهورها ، وهى المرحلة التى شهدت خمس مجاعات قاسية .

البنادق الأتراك تولت تدريب حرسه المكون من الرقيق على استعمال الأسلحة النارية . وبفضل هذه الترتيبات أصبح جيش برنو فريدا في إفريقية الزنجية . ثم أحدث تغييرا شاملا في نظام النقل بالجيش بإحلال الإبل والجياد محل البغال والثيران . كما طور الملاحة النهرية ، فحلت القوارب الكبيرة محل الأشجار المجوفة . وبذلك اكتسب جيشه قدرة على الحركة كان يفتقر إليها ، وأصبح لدى برنو جيش لا يضارعه جيش آخر في إفريقية كلها ، وظل هذا الجيش محتفظا بشهرته حتى حروب الفولاني .

ولم تكن حماية إدريس الدينية بأقل من حميته العسكرية . كان يتمسك بالشريعة ، ويلتزم أحكام القرآن ، وأقام المساجد من الطين والطوب الأحمر ، بعد أن كانت تقام من الغاب . وفي عهده حل القضاة محل زعماء القبائل في إقرار العدل ، وكانت جريمة الزنا وغيرها تعامل بالشدة ، وتوقع بمرتكبيها عقوبات قاسية .

بعد إدريس لم يطرأ وهن على دولة البرنو ، بيد أن خلفاء الماي إدريس كانوا ضعافا . وقد استطاعت برنو دعم نفوذها حتى على الرغم من أن ملوكها الأخيرين لم يكونوا محاربين عظاما . يقول بارث إن الشيخوخة أخذت رويدا تنخر في عظام المملكة ، ومع ذلك كانت البيروقراطية قوية بما يكفي لتسيير الإدارة . وإلى ما قبل إدريس ألوما كانت المناصب الرفيعة في أيدي النبلاء ، ولكن الرقيق أصبح في إمكانهم الآن الوصول إلى أرفع المناصب . ولم يكن العلماء بغير نفوذ ، كما أن الإشارة المعتادة إلى الحكام على أنهم " إخوان في الدين " ، " شديبو الورع والتقوى " ، شديبو الحذب على العلماء ، كانت تعنى طبقا لتفسير إرقوى أن الحكام ضعفاء . قد يكون صحيحا أن البيروقراطية الدينية والإدارية زادت قوتها بعد عهد ألوما ، ولكنه صحيح أيضا أن الملوك ظلّوا هم الحكام أصحاب النفوذ . فخليفة ألوما ، على سبيل المثال ، تدخل في معركة داخلية بين المطالبين الذي يتنافسون على سلطنة الطوارق ، واستطاع عمر^(٤٧) أن يفرض على الطوارق الشخص الذي اختاره ، ولكن الطوارق تمكنوا من إبعاد هذا

(٤٧) الحاج عمر بن إدريس : الماي السادس والخمسون ، تولى الحكم خلال الفترة ١٦٢٥ - ١٦٤٤ .

الشخص الألعوبة عندما انسحب جيش البرنو . ومع ذلك كان هدف برنو هو السيطرة على طريق التجارة المؤدى إلى فزان ، وكانت مدينة بلما ذات أهمية خاصة لها فى هذه التجارة . ولهذا سمح عمر للطوارق بالاستقلال شريطة ترك القوافل وشأنها . وكان خليفته على بن عمر^(٤٨) الذى حكم خلال الفترة ١٦٤٥ - ١٦٨٠ ، رجلا من طراز مختلف . وفى عهده تمسكت برنو بالسيطرة على الصحراء ، لذلك أغار عمر على أغدس واستولى عليها بعد محاصرتها ، وطرد سلطانها إلى التلال ، وسيطرت برنو على كل المواقع الهامة فى السلطنة . غير أن الطوارق شنوا حربا غير نظامية ، وعجز على طيلة أعوام ثلاثة عن إخضاع المحاربين فى التلال . وفى النهاية حدثت مجاعة أرغمت برنو على الانسحاب .

كان فشل الحملة يعنى أن أغدس أصبحت منافساً لبلما كمركز لتجارة الملح . وتشير هذه الحملة إلى محاولة باسلة لتمسك برنو بسيطرة كاملة غير منقوصة على التجارة مع الشمال ، فالرخاء التجارى يعتمد عليها . وعلى الرغم من أن برنو استمرت لبعض الوقت ، فإن ظهور أغدس بجيش ذى قدرة هائلة ، ووقوعها على طريق التجارة المتجه إلى الشمال ، يعنى أن كان عليها إما أن تخوض حرباً طويلة الأمد أو أن تتلاشى على مهل .

وهذا هو ما حدث . فمع ذبول قوة برنو أصبح لاتحاد الكوارارافا السيطرة فى الجنوب ، فقد ساد معظم بلاد الهوسا ، بل طبقت قواته الحصار على ملك البرنو فى عاصمته ، ومع ذلك ظلت برنو دولة قوية ، وإن تكن فى مرحلة أفول .

بلاد الهوسا

كانت بلاد الهوسا تقع فيما بين النيجر الأعلى وإمبراطورية كانم - برنو . وعندما بلغت قوة الكانورى ذروتها كانت هذه المناطق تخضع للنفوذ الإمبراطورى ،

(٤٨) الحاج على طابير بن الحاج عمر : المائى السابع والخمسون ، تولى الحكم فى الفترة ١٦٤٤ - ١٦٨٠ . وقعت فى عهده ثانى المجاعات الخمس ، وقد استمرت هذه المجاعة أربع سنوات ، وعرفت باسم «الاداما» . فى عهده أيضا اجتاحت قبائل الكوارارافا المناطق الغربية من برنو .

وتعترف دائما بسيادة حكام كانم - برنو . وقد اعتمدت سلطة برنو الفعالة في هذه المنطقة على قوتها السياسية ، وواصلت ممالك الهوسا معاركها الداخلية الطاحنة بون تدخل خارجي يذكر . فضلا عن ذلك فإن موقع بلاد الهوسا أعطاهام امتيازا خاصا - فإمبراطوريات السودان تحمي مشارفها الشمالية ، على حين تقف برنو حائلا من ناحية الشرق . ولم يكن باستطاعة جودار باشا أو رابح^(٤٩) التغلغل في بلاد الهوسا بون الإطاحة بالممالك البالغة القوة في بلاد السودان الغربية .

كان هذا الموقع الجغرافي عوضا لممالك الهوسا عن افتقارها إلى قوة سياسية فعالة ، مثلما كان الرخاء التجاري والصناعة عوضا كبيرا لها عن المجد الحربي . فالرخاء التجاري الذي بدا واضحا منذ أيام ليو الإفريقي^(٥٠) أصبح أشد وضوحا في القرون التي أعقبت القضاء على دولة السنغى في تنجى^(٥١) . وقد حلت كاتسنا ، ثم كانو فيما بعد ، محل تمبكت ليس فقط كمركز تجاري هام للجزء الغربي من بلاد السودان ، وإنما كمركز ثقافي أيضا . فتمبكت في عصر

(٤٩) رابح فضل الله أو رابح الزبير : (١٨٤٥ - ١٩٠٠) ، زعيم سوداني ، ولد بالخرطوم ، تلقى تعليمًا دينيًا ، واشتغل بتجارة الرقيق ، ثم التحق بخدمة الزبير ود رحمة منصور وابنه سليمان . لما هزم جيسى باشا رجاله في عام ١٨٧٩ ، فر مع بعض أتباع سليمان إلى بلاد قبيلة الأزندى ، وأسس سلطنة هناك (١٨٨٠ - ١٨٨٤) ، ثم قادهم إلى داريندا حيث اصطدم ببعثة فرنسية ، فذهب إلى وداى وهزم سلطانها . رحل إلى تشاد ، ثم إلى برنو في عام ١٨٩٤ ، حيث كان يحلم بإنشاء دولة كبرى . هزمه الفرنسيون قرب بحيرة تشاد ، وقتل في المعركة في عام ١٩٠٠ .

(٥٠) «ورغم ذلك فإن الملك يتباهى بثروته وبالخزينة العظيمة التي يملكها ، وقد رأيت كل مايجوز به خيله من ركابات ومهاميز وأعنة وشكيمات كلها من الذهب ، وكذلك القصع والأواني التي يستعملها للأكل والشرب معظمها كذلك من الذهب . والسلاسل ، حتى سلاسل كلاب الملك ، كلها من الذهب الخالص» ، وصف إفريقيا ، طبعة المغرب ، الجزء الثاني ، الصفحة ١٧٧

(٥١) تنجى : هي المعركة التي أوقع فيها المراكشيون بقيادة الباشا جودار هزيمة حاسمة بجيش أسكيا اسحاق الثاني ، وكانت إيذانًا بالنهاية الفعلية لدولة السنغى . وقد اختلفت التواريخ التي ذكرها السعدى وكعت والوفرائى لوقوعها . ونكتفى هنا برواية تاريخ الفتاش ، الصفحة ١٤٦ ، التي تذكر أن الملاقاة وقعت في يوم الثلاثاء التاسع من جمادى الأولى ٩٩٩ (٥ مارس ١٥٩١) .

الباشوات ، مع ماكانت تموج به من ثورات القصر الدائمة ، ومع تعرضها لغزوات البمبرة والطوارق ، لم تكن بالمكان الذى يمكن أن تزدهر فيه المساعى الثقافية ، وإنما كانت مكانا للمغامرات الحربية ، لذلك سرعان ما وصلت كاتسنا وكانو إلى مكان الصدارة . ويبدو أن بلاد الهوسا كان بها طبقة مزدهرة من العلماء ، لأن من بين اتهامات الشيخ الكانمى التى لم ينكرها سلطان بل أن الحرائق التى أشعلها الفولانى قد دمرت عدداً كبيراً من الكتب^(٥٢) . كما أن ملاحظات دنهام^(٥٣) وكلاپرتون^(٥٤) ، وكذلك بارث ، انصبت لاعلى نشاط المدن الصناعية وضوضائها فقط ، وإنما على المناخ الثقافى أيضا .

وبرغم أن المرء لايجد مشقة فى ملاحظة أن الهوسا لم يمارسوا قط سيطرة سياسية على جيرانهم ، وأنهم كانوا دائماً خاضعين لهم ، فإن لهم تاريخاً ممتعا يفسر حالة الحضارة فى غرب إفريقية .

وتقول الأساطير إن ممالك الهوسا كانت أربع عشرة مملكة قامت عن طريق غزوة من برنو قادها شخص يدعى بايزيد . وكان بايزيد هذا ، استناداً إلى بل ،

(٥٢) «ثم إنه لم يرعنا (سلطان بل) إلا وثيقة الحاج أمين (الكانمى) ، ونصها ... ثم رأينا ما ينكره كل موفق ، وذلك إهانتكم للكتب يرميها فى الطرق وفى المواضع المستقرة ...» إنفاق الميسور ، الصفحات ١٥٧ إلى ١٥٩ .

(٥٣) ديكسون دنهام : (١٧٨٦ - ١٨٢٨) ، رحالة إنجليزى شارك فى حملات البرتغال وأسبانيا وفرنسا وبلجيكا . فى عام ١٨٢١ انضم إلى كلاپرتون وأودنى فى حملة نظمها الحكومة الإنجليزية وصلت إلى برنو فى عام ١٨٢٣ عن طريق فزان . كتب الجزء الأكبر من كتاب Narrative of Travels and Discoveries in Northern and Central Africa in The Years 1822-1824 الذى صدر فى عام ١٨٢٦ .

(٥٤) هورغ كلاپرتون : (١٧٨٨ - ١٨٢٧) رحالة اسكتلندى صاحب دنهام وأودنى فى الرحلة إلى برنو . ومن برنو قام باستكشاف بلاد النيجر . بعد وفاة أودنى فى يناير ١٨٢٤ سار إلى كانو وسكتو حيث التقى بسلطان بل . نشرت قصة رحلته فى كتاب دنهام Narrative of Travels . عاد إلى إنجلترا ، ثم أوفد فى حملة أخرى إلى إفريقية حيث نزل بمنحنى النيجر وبلاد اليوربا فى يناير ١٨٢٦ . مات بالوستانتاريا فى سكتو فى أبريل ١٨٢٧ . كان أول أوروبى يقدم وصف شاهد عيان لممالك الهوسا التى زارها فور إقامة الفولانى لإمبراطوريتهم فى سكتو ، وضمّن هذا الوصف Journal of Second Expedition into the Interior of Africa ، وقد عاد خادمه لاندر ، الذى رافقه فى رحلته ، بهذا الوصف إلى إنجلترا .

رقيقا لدى سلاطين برنو^(٥٥) . وعلى أية حال فإن الأساطير تذكر أن بايزيد قد قدم من برنو بصحبة ابنة السلطان وإحدى المحظيات ، وعندما وصل إلى بلاد الهوسا ذبح الجنى الذى يقوم على حراسة الماء وحرر البلاد . وقد خلفه أبناؤه السبعة وكونوا الممالك السبع التى شكلت النواة الأساسية لبلاد الهوسا . وإلى جوار هذه الممالك السبع كانت توجد سبع ممالك أخرى سكانها ليسوا جميعا من الهوسا . وتعرف هذه الممالك الأخيرة بأنها أشباه الهوسا^(٥٦) . وكلمة الهوسا لاتعنى عنصرا معينا ؛ فالهوسا مجموعة لغوية أكثر منها مجموعة قبلية . ولقد أقاموا أول الأمر فى أسبن ، ثم طردهم الطوارق منها . والمناطق الشمالية هى مناطق الهوسا الحقيقية ، ولذا تحملت ضغطا أكبر . وفى الجنوب انحسرت الموجة مؤدية إلى قدر أكبر من الامتزاج .

وثمة سمة مميزة لبلاد الهوسا يتعين التأكيد عليها مرارا ، هى أنها مناطق حدود . فهى ليست فقط المنطقة التى التقى فيها السودان بثقافة بنين الخصبة ، وإنما هى أيضا نقطة التقاء للتأثيرات الشرقية والشمالية . وبرنو كما رأينا كانت على اتصال مستمر بمصر والسودان الشرقى (السودان المصرى الإنجليزى فيما بعد) ، وكاد تأثيرها أن تكون له الهيمنة على ممالك الهوسا . وإلى جانب أنها كانت منطقة حدود سياسية ، فقد كانت من نواح كثيرة حدودا عرقية . فالقبائل الشمالية تختلف كثيرا عن القبائل الجنوبية والشرقية . وكانت كل هزيمة تدفع بأعداد كبيرة من الناس إلى بلاد الهوسا . وكان عامل التوحيد الرئيسى هو لغة الشعب وثقافته اللتان مكنتا من امتصاص القادمين الجدد .

(٥٥) «وزعموا أن عبداً لسلطان برنو يقال له بلو هو الذى ولد السودانين من أهل هذا البلد ، وإنك قلنا : إنهم من ممالك البربر من أهل برنو ... وحدثنى الأخ أمير المؤمنين محمد الباقرى .. أن كاشنة وكتوا وزكرك وبورونه وبريم ، كلهم من ولد بلو الذى هو مملوك لسلطان برنوا» إنفاق لليسور ، الصفحة ٤٤ . (بلو المشار إليه هنا هو بايزيد الذى نكره بانيكار) .

(٥٦) يقول الدكتور عيسى عبد الظاهر إنه قامت فى هذه البلاد سلسلة من الإمارات أو الدول أو الممالك الصغيرة ، وقسم هذه الممالك إلى مجموعتين : المجموعة الأصلية ، وعرفت باسم هوسا باكووى ، أى ممالك الهوسا السبع ، وهى : غوير ؛ زكرك (زاريا الآن) ؛ نورا ؛ كانوا ؛ كاتسنا ؛ جاران جابا ؛ ورانو . ثم المجموعة الفرعية ، وتعرف باسم بانزا باكووى أى السبع الفرعية ، وهى زنفرا ؛ كب ؛ ياور ؛ نوى ؛ يرب (أو إيلودين) ؛ برغ ؛ وغرم . الدعوة الإسلامية فى غرب إفريقيا وقيام دولة الفولانى ، الصفحات ١٦٢ إلى ١٦٤ .

وقد كانت ثقافة الهوسا ، جنباً إلى جنب مع ثقافة اليوروبا والبرنو ، من الثقافات التي تواصلت على الرغم من الهزائم والفتوحات الحربية . ولم تكن الدول الكبيرة في المناطق الغربية من بلاد السودان ، إذا ما قورنت بها ، ذات مآثورات عظيمة ، كما أن تاريخها يفتقد نبض الحياة ، في حين ظل لممالك الهوسا مآثورات حية ، واستمرت طريققتها في الحياة نون تغيير ، وإن لم يخل الأمر من تعديلات فرضتها ضرورة مسايرة الاقتصاد الحديث . وذلك فارق جوهرى يجدر بنا أن نتوقف عنده ، فالدول التي قامت في بلاد السودان لم تحاول قط تطوير صناعة ما ، في الوقت الذى حققت فيه الفنون والحرف لدى اليوروبا والنوبى والهوسا شهرة عالمية ، وأرست فيه أركان الذاتية المستقلة للثقافة الإفريقية .

ولدينا فيما يتعلق بممالك الهوسا تأريخ كانو^(٥٧) وكاتسنا وأبوچا ، وهى التأريخ التى سمحت لنا بتكوين فكرة عن تطورها السياسى . فملوك الهوسا ، شأن الملوك فى كل مكان ، كانوا ملوكا كهنة . وقد سلب السلطة منهم عن طريق التحايل مستوطنون قدموا من الشمال . ففى كانو كان مغامراً يدعى باغودا ، وفى كاتسنا كان بربرياً يدعى كومايو . والأمر المثير فى أحداث السيطرة هذه هو أن البربر لم يحققوا ولو مرة واحدة سيطرة سياسية عن طريق قوة عسكرية متفوقة ، وإنما كانوا يجيئون إلى السلطة عن طريق الحيل والمناورات . وقد تكون لذلك أسباب كثيرة لعل أيسرها أنهم منذ كانوا يتبعون النظام الأمومى اكتسب رجل منهم عن طريق الزواج سنداً شرعياً للرئاسة ، لأنه يبدو غريباً أن يذعن الشعب المحلى للغزو . فقد ظل الشعب على دينه الوثنى على الرغم من أن الملوك

(٥٧) تأريخ كانو : لم يكن يعرف عنها شيئ حتى عام ١٩٠٢ ، حين اكتشف بارث مخطوطة لها فى برنو أشارت إليها ليدى لوجارد فى كتابها Tropical Dependency ، الصفحة ٢٢٦ . غير أن النسخة التى عثر عليها ليست كاملة ، إذ لم يرد فيها غير ٤٢ ملكاً . وقد اكتشفت فيما بعد نسخة كاملة بالقرب من كاتسنا قام رتشموند بالمر بترجمتها إلى الإنجليزية ونشرها فى كتابه Sudanese Memoirs . وقد ألفت التأريخ حوالى عام ١٨٩٠ . ولكنها تعتمد خصوصاً سابقة على الجهاد ، وهى تعدد ٤٨ ملكاً من ملوك الهوسا (الفولانى بعد عام ١٨٠٧) . بدابة من باغودا الذى وصل إلى كانو عام ٩٩٩ ، وانتهاءً بمحمد بلُ . [أنظر ، بالمر ، المجلد الثالث ، الصفحات ٩ إلى ١٢٢ ، وكذلك اليونسكو تاريخ إفريقيا العام ، المجلد الرابع ، الطبعة العربية . العاشرة ٢٠ بالصفحة ٢٧٨ .]

والطبقات العليا كانوا قد اعتنقوا الإسلام عند حلول القرن الثاني عشر . وقد كان **يوسا الساركن الخامس** لكانو ، الذي حكم في الفترة ١١٣٦ - ١١٩٤ ، ملكا قويا ، ومن أجل أن يقيم سلطته على أساس سليم فقد قام ببناء السور حول كانو . وأنشأ ابنه **ناغوشي** (١١٩٤ - ١٢٤٧)^(٥٨) نظاما لإيرادات الأرض بالاستيلاء على ثمن المحصول . ويبين هذا التدبير مدى تقدم نظام الزراعة في بلاد الهوسا وإمكانية زيادة إيرادات الأرض بحيث تواجه نفقات ملك إقطاعي .

وقد ازدهرت الوثنية طوال هذه الفترة . وترسم **تاريخ كانو** خطأ فاصلاً بين الوثنيين والمسلمين ، ولكنها لا تذكر متى دخل الإسلام إلى كانو ، وإن كان الراجح أن ملوك كانو اعتنقوا الإسلام في وقت مبكر ، كما أن **الساركن السابع**^(٥٩) كان قلقا بسبب تفشي الوثنية . وعمل على استئصالها ولكنه فقد بصره . وقام **الساركن التاسع**^(٦٠) بتدمير أماكن العبادة الوثنية . ولم تكن الأحوال أفضل في كاتسنا . ففي عام ١٣٨٠ اعتنق **ساركن كاتسنا** الإسلام ، ولكنه ما لبث أن ارتد إلى الوثنية . وفي الوقت نفسه على وجه التقريب شرع تجار الونقارة في الوفود على كانو بأعداد كبيرة حاملين معهم إسلاماً نقياً . ولما كان التجار قد جاءوا إلى أراضي الهوسا بأعداد أكبر ، فقد ساعد جوارهم للسكان المحليين وصلتهم الوثيقة بهم على انتشار الإسلام ، ومع ذلك ظل حكام كاتسنا على ولائهم لدينهم . وبسبب اليقظة الفكرية التي أحدثها الإسلام وألفه الهوسا الطويلة به ، كان من اليسير على المغيلي هداية الشعب إليه .

والمغيلي هو أحد الشخصيات العظيمة التي ارتبطت بالإسلام في إفريقية السوداء . وقد ولد في المنطقة الخلفية من الجزائر ، وسرعان ما برع في علوم الدين ، وتاق إلى هداية الوثنيين والكفار إلى الإسلام . واشتعلت حماسه الدينية عندما قتل اليهود ابنه ، فقام باستئصال شأفة الجالية اليهودية في توات .

(٥٨) **يوسا أو تساراكى بن جيجيماسو** : الساركن الخامس (١١٣٦ - ١١٩٤) : **ناغوشي بن تساراكى** : الساركن السادس (١١٩٤ - ١٢٤٧) .

(٥٩) **جوجو بن جيجيماسو** : الساركن السابع (١٢٤٧ - ١٢٩٠) .

(٦٠) **تساميا بن شكاراو** : الساركن التاسع (١٣٠٧ - ١١٤٣) .

وقد عاش بعض الوقت فى مملكة السنغى حيث لقى قدرا كبيرا من الاحترام ، وسرعان ما نشبت خلافات مرجعها تشدده فى الدين ؛ فرحل عن السنغى إلى المناطق الجنوبية ، حيث قابلته الجالية الإسلامية بالترحاب ، واستطاع بفضل تفقهه وحكمته إدخال هذه الممالك فى الإسلام . ولكن الوثنية لم تمت ، والحقيقة أنها ظلت تشكل قوة طوال تاريخ بلاد الهوسا .

وفى هذه الأثناء واصلت ممالك الهوسا حروبها المدمرة ، وكانت كاتسنا أكثرها ولعاً بالقتال ، لذا انهمكت فى حروب دائمة ، والحقيقة أنها حاولت منذ البداية أن تقيم لنفسها موقعا سائدا . فشنت حربا ضد سوتّا ، وهى مملكة زنجية بالقرب من أسبن ؛ ودخلت فى حرب طويلة ضد غوبر ونوبى ويورا . وعندما اتسعت رقعة مالى كثيرا فيما بين عامى ١٣١١ و ١٣٨٧ خضعت لها ممالك الهوسا الشمالية ، بيد أن كاتسنا استفادت حتى من تبعيتها . فبحلول عام ١٣٦٠ كانت مملكة أسبن القديمة المستقرة قد فقدت قوتها البدائية ، وأخذت كاتسنا تتوسع جنوبا أيضا . وهكذا كانت كاتسنا برغم تبعيتها لولة قوية ، كما كانت أحد المستودعات الثانوية للتجارة عبر الصحراء . ولكن كانوا كانت أقل حظاً ، فبسبب قربها الشديد من برنو لم تصبح مستقلة حقيقة إلا عندما ضعفت تلك الإمبراطورية .

ومع صعود لولة السنغى تحت حكم سنّ على أصبحت بلاد الهوسا همزة الوصل بين برنو والسنغى . وكانت كاتسنا هى المكان الذى اصطدمت فيه هاتان الإمبراطوريتان القويتان . فقد حاولت كل منهما ، الواحدة بعد الأخرى ، السيطرة على أير بمساعدة كُنت كِبْ ، ولكنهما كانتا تضطران إلى الانسحاب بسبب امتداد خطوط المواصلات وقوة الكُنت وعناده . وكان مرجع رغبتهما فى الاستيلاء على أسبن وأير مفهوما ، فذلك يمكنهما من الاقتراب من الحدود الشمالية لبلاد الهوسا ، ويدعم سيطرتهما الاقتصادية على المنطقة .

وبينما كانت هذه الأحداث تقع فى الشمال كانت سلطة اتحاد الكوارارافا تهيمن فى الجنوب . وسرعان ما شعرت كانوا بقوته وأقامت معه علاقات تجارية ، فكانت ترسل الجياد إلى الجنوب وتحصل فى مقابلها على الرقيق . بيد أن قوة

أخرى نشأت في بلاد الهوسا هي زاريا . فتحت حكم امرأة ذاعت شهرتها تدعى أمّنة ، حكمت في نهاية القرن الخامس عشر ، أصبحت زاريا أقوى مملكة في بلاد الهوسا . وتتحدث تأريخ كانو عن أمّنة بتوقير شديد . "في ذلك الوقت قامت زاريا تحت حكم أمّنة بغزو جميع المدن حتى كوارارافا ونوبى . ودفعت لها كل مدينة الجزية . وأرسل لها ساركن نوبى أربعين خصياً وعشرة آلاف من ثمار الكولا . وكانت أول من يحصل على الخصيان والكولا في بلاد الهوسا . واستمرت غزواتها أكثر من أربع وثلاثين سنة . «^(٦١) فمن كانت أمّنة هذه ؟ يدلل بالمر على أن أمّنة هي إبنة تورونكو باكوا التي أسست مدينة زاريا في عام ١٥٣٦ . وكانت تورونكو امرأة مهاجرة ، وفسر بالمر إسمها على إنه يعنى امرأة أجنبية تنتمى إلى التورونكاوا ، أى ببساطة من التكرور . وهو يربط بينها وبين حركة الفولاني في منطقة النيجر الشرقي ، وبخاصة ماسنة ، ومن هنا يقول إنها ربما كانت من الفولاني . وهكذا فإن كلاً من ميك^(٦٢) وبالمر يضعها في القرن السادس عشر ، في حين تقطع تأريخ كانو بأنها حكمت في القرن الخامس عشر . ومع ذلك يرى ميك أنها لابد قد جاءت من الجنوب ، وأن تفوقها قد يكون مرجعه حصولها على البنادق من التجار على الساحل . فضلاً عن ذلك يبدو أن أمّنة كانت من قبيلة أمومية ، فقد خلفت أمها ، بيد أنها لم تتزوج . ولاتذكر التأريخ سوى أنها اعتادت أن تتخذ عشيقاً جديداً كل ليلة . والسيادة التي حققتها أمّنة لا يمكن تفسيرها إلا بأنها كانت على اتصال بالساحل ، وهو تفسير يدعمه أنها كانت أول من أدخل الكولا في بلاد الهوسا وأول من طلب الجزية عينا من الكولا التي كان يصعب الحصول عليها في بلاد الهوسا . وكان بلّ واضحاً تماماً حين قال إن أملاكها كانت تمتد حتى البحر^(٦٣) . ولابد أيضاً أنها استخدمت بعض الجنود

(٦١) ورئت هذه الفقرة في بالمر ، The bornu Sahara and Sudan ، الصفحة ٢١٩ ، وذلك نقلاً من تأريخ كانو .

(٦٢) س. ك . ميك : مؤلف كتاب Northern Tribes of Nigeria ، في مجلدين ، لندن ١٩٢٥ .

(٦٣) «وهذه الأقاليم السبعة قد كان فيها من العجائب والغرائب أمور كثيرة . وأول من استقرت له الدولة فيها - على ما زعموا - أمّنة بنت أمير زكرك - غزت هذه البلاد واستولت عليها قهراً ، حتى أدى إليها الخراج من كاشنة وكنوا ، وغزت في بلاد باوش حتى وصلت البحر المحيط ... » إنفاق الميسور ، الصفحة ٤٤ . [زكرك هي زاريا ؛ كاشنا هي كاتسنا ؛ كنوا هي كانو .]

المرتزقة لفتح بلاد الهوسا . ولكن لماذا اضمحلت زاريا بعد أمانة ؟ يمكن إرجاع ذلك إلى أن إمبراطورية البرنو استطاعت بجيشها الأفضل تدريباً أن تستولى على بلاد الهوسا بأسرها . وتقول **تاريخ كانو** إنه بينما كانت أمانة تحكم زاريا جاء إلى كانو أمير عظيم من برنو . يتضح ذلك من أن **دغاتشى**^(٦٤) ، وهو أمير من برنو ، كان يمارس نفوذاً فعالاً في كانو ، وأن الجزية كانت تدفع لبرنو . **وتاريخ برنو** قاطعة في هاتين النقطتين ، إذ تقول إن كل ممالك الهوسا كانت تدفع الجزية لبرنو .

كذلك كان اتحاد الكوارارافا يهاجم الهوسا مما ساعد على تدعيم سيطرة برنو . ولم تكن أسوار كانو ولا أسوار كاتسنا من المنعة بحيث تحول دون مهاجمة الكوارارافا للقرى . ولم يكن باستطاعة الهوسا وحدهم مواجهة الكوارارافا ، وكانت المساعدة من برنو هي العون الوحيد الذى يمكن أن يتوقعوه ، إذ كان للبرنو حساب قديم مع الكوارارافا عليهم أن يصفّوه .

وهكذا لم يكن بوسع ممالك الهوسا إلا أن تظل تابعة لبرنو . فكانو على سبيل المثال كان يحكمها دغاتشى حتى عهد الساركن الحادى والعشرين . كما **شن عبد الله**^(٦٥) ساركن كانو الحرب على كاتسنا وزاريا وأوقع بهما الهزيمة . وعندما عاد إلى وطنه تبين له أن دغاتشى يستعد لخلعه بالخديعة . وحاول عبد الله أن يطيح بدغاتشى ، ولكن سلطان برنو جاء على رأس جيش كبير لمؤازرة دغاتشى . " لقد خرج ساركن كانو ومعه العلماء للقائه وأرغمه على

(٦٤) **دغاتشى** : فى أيام ساركن كانو الخامس عشر داوود باكون داميزا أو داوود بن كاناچيچى (الذى حكم خلال الفترة ١٤٢١ - ١٤٢٨) جاء إلى كانو أمير عظيم من برنو هو دغاتشى بصحبة حشد من الرجال والمعلمين . وقد أعجب به الساركن ، وأعد له مع رجاله مقاما فى نوراى . وعندما خرج للحرب مع زاريا عهد إليه بشؤون الملك . وكلمة دغاتشى فى لغة الكانورى معناها نبيل صغير أو رئيس صغير .

(٦٥) **عبد الله بن محمد رمفا** : ساركن كانو الحادى والعشرون الذى حكم خلال الفترة ١٤٩٩ - ١٥٠٩ . قام باعتداءات كثيرة على قبائل الونقارة التابعة لبرنو ، فاضطر ماى برنو إلى محاربته وطرده من كانو ، وولى مكانه عبدا من عبيده هو محمد كيسوكى بن عبد الله الساركن الثانى والعشرون الذى حكم خلال الفترة ١٥٠٩ - ١٥٦٥ .

الركوع تحت قدميه " .^(٦٦) وبعد ذلك انسحب السلطان وتحايل عبد الله على خلع دغاتشي من منصبه وولى مكانه أحد خصيائه . وعاد العصر الذي سادت فيه برنو على ممالك الهوسا بفوائد كثيرة . فبعد أن تحررت هذه الممالك من مخاوفها من وقوع عدوان خارجي استطاعت تركيز جهودها على الإغارة من أجل الرقيق . وقد حققت في ذلك نجاحا هائلا انخفض معه ثمن الرقيق في أسواقه . ولم تسفر صلتها مع الشمال عن مجيء الفقهاء المسلمين فقط ، وإنما الكتب الإسلامية أيضا . ففي عهد الساركن العشرين محمد رمفا عبد الرحمن^(٦٧) وصل إلى كانو شريف من المدينة^(٦٨) ، وعمل هذا الشريف على تطهير الإسلام من البدع التي أقحمت عليه ، بعد أن أصبح يوجد في بلاد الهوسا مزيج غريب من الطقوس الوثنية ، وطلب إلى رمفا أن يقيم مسجدا للصلاة الجامعة ، كما أمره باقتلاع الأشجار التي يقدسها الوثنيون . وهكذا فعلى الرغم من أن الإسلام قد توطدت أركانه في بلاد الهوسا ، فإن الأعراف الوثنية ظلت مزدهرة في كانو حتى القرن السابع عشر . وخلال هذه الفترة عرفت بلاد الهوسا الملح الذي يجلب من أسبن وكذلك ثمار الكولا التي ازدهرت التجارة فيها مع الساحل . وسرعان ما أصبحت كانو وكاتسنا المستودعين الكبيرين لهذه التجارة ، كما تخصصتا في السروج الجلدية والدروع الخاصة بالجياد .

وقام رمفا (١٤٦٣ - ١٤٩٩) بكثير من الإصلاحات ، إذ مد أسوار المدينة وعزز تحصيناتها ، وقيّد سلطة النبلاء الإقطاعيين ، وبدأ في استخدام الرقيق والخصيان في حكم البلاد . ومن ذلك تعيين رقيق مكان دغاتشي ، واستخدام

(٦٦) ورد هذا الاقتباس ، وكذلك الفقرة التي تلتها ، في بالمر ، Sudanese Memoirs ، المجلد الثالث ، الصفحة ١١٢ .

(٦٧) محمد رمفا عبد الرحمن بن يعقوب : ساركن كانو العشرون الذي حكم خلال الفترة ١٤٦٣ - ١٤٩٩ . وهو أعظم سراكوما كانو ، وعصره من أزهى عصورها . في أيامه حضر من المدينة إلى كانو الإمام المغيلي ومعه أتباعه وكتبه ، كما حضر إليها من مصر الإمام جلال الدين السيوطي . وقد أُلّف المغيلي الرسالة المسماة «واجبات الأمراء» والتي تتضمن نصائح للساركن في أدائه مهام الحكم .

(٦٨) هو بطبيعة الحال الإمام محمد بن عبد الرحمن المغيلي .

العلماء لأول مرة فى شؤون الإدارة . وأصبح للحكومة جهاز إدارى فعال ، مما ترتب عليه ازدهار كانو وكاتسنا .

كانت هذه فترة رخاء عظيم لبلاد الهوسا . فقد أدى انهيار دولة السنغى إلى تدهور تمبكت باعتبارها الطرف الجنوبى للطريق الممتد عبر الصحراء ، وأصبح كل تجار الشمال يجيئون إلى كانو وكاتسنا . وقد تميزت بلاد الهوسا على مدن منحنى النيجر بوقوعها فى قلب أكثر مناطق السودان إنتاجية ، وبقربها الشديد من المناطق الاستوائية . وهكذا أصبح الحصول على الكولا والعاج ، وكذلك الرقيق ، أيسر فى كانو وكاتسنا .

وفى الصراع مع كاتسنا كان لكانو اليد العليا . فمحمد كيسوكى (١٥٠٩-١٥٦٥) الذى خلف عبد الله^(٦٩) كان مولعا بالحرب ، حتى أنه قام بمهاجمة برنو . ووسع كيسوكى الحدود وترك كانو فى حالة تأهب واستعداد . غير أن وفاته أعقبتها حرب أهلية . فقد تنازع الغلديمة^(٧٠) - قائد قوات كانو - وچولى - خال كيسوكى . وساند الغلديمة ابن الملك الراحل ، ولكنه رفض العرش فانتقل عندئذ إلى ابنه . ولكى تزيد كاتسنا الأمور سوءا فرضت الحصار على كانو ، وأوقعت الهزيمة بقواتها فى الميدان ، ولكنها أخفقت فى الاستيلاء على المدينة . وفى العام التالى جاء نور كانو للقيام بالهجوم ، ولكنها هزمت وسرعان ما قابلت كاتسنا هذا العمل بمثله . وبينما كانت قواتها تشدد النكير على كانو هاجمها أيضا ساركن كوارارافا . وقد سجل المؤرخون ذلك فى عبارات بليغة : "لقد ترك شعب كانو المدينة وذهب إلى دورا ، مما ترتب عليه أن أتى الكوارارافا على البلاد بأسرها وأصبحت كانو غاية فى الضعف . وواصل رجال كاتسنا تخريب كانو ونهبها ، ولو أنهم لم يرعوا مقام العلماء فى كانو لتمكنوا من دخول المدينة

(٦٩) فيما يتعلق بعبد الله بن رمفا ، الساركن الحادى والعشرين ، ومحمد كيسوكى ، الساركن الثانى والعشرين ، أنظر الحاشية ٦ ٦٥ أعلاه .

(٧٠) الغلديمة هو حاكم المناطق الغربية من برنو ؛ فى حين أن الكيفامة هو حاكم المناطق الجنوبية منها ؛ واليريمة هو حاكم الأجزاء الشمالية ، أما المسطرامة فهو حاكم الأجزاء الشرقية ، ويشغل فى الوقت نفسه منصب رئيس الخصيان فى قسم الحريم ، أى كبير الخدم بالقصر .

وتخريبها تماما . ولقد حدثت مجاعة استمرت أحد عشر عاما" . ولكن كانوا استعادت قوتها ، ولم يقم محمد زاكى^(٧١) فيما بعد بمهاجمة كاتسنا فقط ، بل أوقع بها الهزيمة واستولى على أربعمائة من جيادها وستين من دروعها . وقدم خليفته محمد نازاكي^(٧٢) شروطا رفضت كاتسنا قبولها ، واستؤنفت الحرب . وهزمت كاتسنا ثانية ، غير أن محمد نازاكي مات فى الطريق تاركاً النزاع دون حسم .

وبينما كان حكام كانوا منهمكين على هذا النحو فى شؤون الحرب انسلت السلطة بالتدريج إلى أيدي البيروقراطيين . فهؤلاء ، ومنهم وومبى چيوا ، كانوا من القوة بحيث استطاعوا كبح جماح النبلاء ، وأصبحوا الحكام الحقيقيين للمملكة . وهكذا عندما مات كاتوبى أثناء عودته من كاتسنا ظل المنصب شاغرا فترة من الوقت قدم خلالها كل مسؤول كبير فى الدولة مرشحه للمنصب . وذلك أمر طبيعى فى بيرقراطية إقطاعية حيث الأرض والسلطة والجنود يتبعون المنصب . وقام الكوارارافا مرة أخرى بغزو كانوا ونهبها ، وكانت قوتهم من الضخامة بحيث اضطر ساركن كانوا^(٧٣) إلى الفرار . وفى عام ١٦٧١ ، عندما عاد الكوارارافا ثانية ، انسحب الحاكم إلى نورا ونهب الوثنيون المدينة ، وذبحوا كثيرين من سكانها .

ووصل الأمر بالحكام أنهم استغاثوا بمائى برنو . والتقى المائى على بن عمر^(٧٤) بالوثنيين ، الذين حاولوا محاصرته فى عاصمته ، ولكنه أحرز عليهم نصر مؤزرا . وقد أتاح له استنجاد كانوا به الفرصة ليس فقط ليهزم الوثنيين ، وإنما أيضا لحمل كانوا على الإقرار بسيادته . وفى موقعة كبيرة أوقع بهم الهزيمة . ويمكن أن نلمس تحرر الهوسا فى أنشودة نظمها معلم من كاتسنا يدعى دان مارينا :

" لقد ضاقت بنا الأرض من فرط ما ضيق علينا العدو الخناق ،

(٧١) محمد زاكى بن كيسوكى : الساركن السابع والعشرون ، حكم كانوا فى الفترة ١٥٨٢ - ١٦١٨ .

(٧٢) محمد نازاكي بن زاكى : الساركن الثامن والعشرون ، حكم كانوا فى الفترة ١٦١٨ - ١٦٢٣ .

(٧٣) هو دادى بن بلوا ، الساركن السادس والثلاثون الذى حكم فى الفترة ١٦٧٠ - ١٧٠٣ .

(٧٤) هو الحاج على طايير بن الحاج عمر ، المائى السابع والخمسون . أنظر ، الحاشية ٦ - ٤٨ أعلاه .

حتى جاء على وكان على يديه خلاص أطفالنا وأولادهم الذين لم يولنوا بعد .
ومرت كانو بفترة انحلال لم تتماثل للشفاء منها إلا تحت حكم الفولانى .
فقد قامت زمفرا وغوبر بمهاجمة كانو ، وكذلك لم تكن كاتسنا بغير نور . بيد أنه
فى عام ١٦٧١ وصل الكوارارافا إلى كاتسنا ، ولم يقف فى طريق كاتسنا إلى
كانو سوى وفاة قائدهم العام .

وترتب على سنوات الحرب الطويلة أن أصبح البحث عن موارد جديدة أمراً
ضرورياً . فتقررت جباية **الچانجالى**^(٧٥) - وهى فى الأصل جزية - من الفولانى
لأول مرة . وفى أيام كوبارى (١٧٣١ - ١٧٤٣) دارت معارك طاحنة مع غوبر ،
ولكنها لم تكن حاسمة . وكان لابد من شراء البنادق لهذه الحروب ، وشراؤها
يحتاج إلى موارد . فزيدت الضرائب على التجار وجمعت الضرائب بقسوة تسببت
فى انسحاب تجار كثيرين إلى كاتسنا . وحاول كوبارى الحد من نفوذ الموظفين
بارغامهم على أن يقدموا إليه الهدايا ، مما تسبب فى خرابهم . ولكن هذه الإجراءات
جميعاً لم تجد نفعا ، إذ عجزت كانو عن الصمود أمام أعدائها الكثيرين .

وبينما كانت كانو تنئن تحت وطأة هذه المحن ، وصلت منافستها كاتسنا إلى
ذروة رخائها . فمع تدهور كانو أصبحت كاتسنا المركز التجارى الذى لاينازع
لبلاذ الهوسا . فإلى كاتسنا كانت القوافل القادمة من الصحراء تمضى فى
سبيلها ، ومع ازدياد رخائها كانت قوتها تنمو باطراد . فامتد سلطانها إلى
مارادى وتاراوا فى الشمال ، وإلى زمفرا فى الغرب ، كما امتد نحو الجنو
حتى برنين جوارى . وتراوح محيط أسوارها بين سبعة وثمانية أميال ،
وأصبحت من جميع النواحي فى مقدمة مدن الهوسا . غير أن قوة جديدة
أخذت تظهر فى الشمال ، هى قوة غوبر التى يزعم رجالها أنهم من الأقباط ،
وقد استقروا منذ وقت مبكر فى أسبن التى قام الطوارق بطردهم منها . فى هذه
الأثناء بدأت قوة الفولانى تنمو على مهل فى بلاد الهوسا . وقد قدمت لهم

(٧٥) **الچانجالى** : ضريبة كانت تجبى من مختلف رعاة الماشية ، ومن بينهم عرب الشوا والفولانى ،
بواقع رأس واحدة عن كل عشر رؤوس . [نقلا عن ، دكتور مصطفى على بسيونى ، برنوفى عهد الأسرة
الكائمية ، دار العلوم للطباعة والنشر ، ١٩٨٤ ، الصفحة ١١٣ .]

المنافسات وحروب الهوسا الضروس الفرصة التي عضّوا عليها بالنواجذ ، فاتجهوا جنوباً واستقروا في غوبر . وفي الفترة ما بين عامي ١٧٠٣ و ١٧٣١ اشتبكت غوبر في صراع مع كانو كسرت فيه شوكتها . بعد ذلك قام بابارى ملك غوبر ، بالتحالف مع زمفرا ، بمهاجمة كاتسنا ، ولكن نون نجاح يذكر . وعقب فشل بابارى في هزيمة كاتسنا استدار على حليفته الأخيرة زمفرا . وفي عام ١٧٦٤ اندفعت قوات غوبر إلى زمفرا ، ولكن ساركن زمفرا نجا بحياته . عندئذ تحولت زمفره إلى كاتسنا طلباً للعون ، وكانت كاتسنا تحركها رغبة شديدة في كسر شوكة غوبر وإخضاع زمفرا . وحاصرت القوات المتحالفة ملك غوبر في قلعته لمدة سبعة أعوام أوقعت في نهايتها الهزيمة بقواته ، ولكنها كانت هزيمة بدون نتيجة حاسمة . وتلت ذلك فترة من الحروب تعرضت قوات غوبر في مرحلتها الأولى لسلسلة من الهزائم . غير أن غوبر تحت حكم يعقوب استعادت موقعها في زمفرا فيما بين عامي ١٧٩٤ و ١٨٠٠ .

كانت ممالك الهوسا أشبه بالمدن - الدولة في إيطاليا خلال عصر النهضة . فهدفها الرئيسى هو الرخاء التجارى ، والحروب لا تعدو كونها وسيلة لمنع ظهور أية قوة منافسة . وفي ذلك قامت كاتسنا وكانو بدور هام ، فأسوار المدن وفرت الحماية لأصحاب الحرف ، ومكنت الزراعة من مواصلة حياتهم العادية . ذلك أن الحياة خارج الأسوار كانت تحفها الأخطار دائماً . وما يصفه باب كور^(٧٦) بأنه خبرته الخاصة خلال إقامته بين الفولانى ، ربما يكون صحيحاً بالمثل بالنسبة للأيام الأولى . ولكن برغم مخاطر الحياة في القرية ، وبخاصة غزوات الكوارارافا ، فإن كاتسنا سرعان ما تمكنت بفضل موقعها الجغرافى من أن تحصل على حصّة الأسد في تجارة الشمال .

(٧٦) باب كور : ورد في المتن بابُ كَرُ Babo of Karo ، ولكن صحته باب كور . وهو ابن الحاج محمد بن الحاج الأمين كانوا ، مؤلف كتاب درر الحسان في أخبار بعض ملوك السودان . وقد أخذ عنه كل من السعدى ومحمود كعت . وقد أقلت باب كور بمعجزة من مذبحة العلماء التي دبرها القائد المراكشى محمود في غاو . والدليل على ذلك أنه أورد في كتابه أحداثاً وقعت بعد هذه المذبحة . انظر ، تاريخ الفتاش ، الصفحة ٤٤ ومواضع أخرى . وقد ورد باباكرى في الصفحة ٢٤٠ من تاريخ السودان : « وفي أواسط ربيع النبوى من هذا العام توفى صاحب والدى وملاطفه فى چنى باباكرى بن محمد كرى » .

الفصل السابع

الأوروبيون فى غرب إفريقيا

أولا

عرفت أوروبا شمال إفريقية منذ وقت طويل . فالمدن الإيطالية كان لها قناصلها فى غالبية دول شمال إفريقية لحماية مصالحها . وكان الأوروبيون حريصين فى المقام الأول على أن تصل منتجات أواسط إفريقية فى حرية إلى موانئ البحر المتوسط . وما دام ذلك كان مكفولا ، فلم يكن يهمهم كثيرا كيف تتم التجارة ، كما أنهم لم يكونوا فى وضع يسمح لهم بتحدى الدول العربية والبربرية المستقرة التى كانت تتحكم فى طرق التجارة . ومع ذلك كان لديهم إلمام طيب بجغرافية الصحراء . فكاتدرائية هيرفورد (القرن الثالث عشر) كانت تحتوى على خريطة للعالم سميت إفريقية فيها خطأ « أوروبا Europa » ^(١) .

وكانت الأسباب التى جعلت الإيطاليين شديدي الاهتمام بالتجارة الإفريقية ذات وجهين . فالحروب الطويلة الأمد بين فرنسا وإنجلترا زعزعت الاستقرار السياسى ، وأسفرت عن عدم استقرار نقدى وانخفاض مستمر فى قيمة العملات . وكان چاك كير ، الخبير المالى فى فرنسا ، يشير على البلاط الفرنسى بضرورة وجود نقد مستقر . وفى هذه الظروف اجتمعت لجنة من الخبراء فى جنوا ، فى عام ١٤٤٧ ، وكانت جنوا شديدة الاهتمام بالعملية والتجارة الفرنسيتين . وقد تمكن بيت سنقريونى ^(٢) المصرفى من إقناع اللجنة بضرورة وجود عملة صعبة ، وكانت حجته فى ذلك أن المزية التى تتفوق به البندقية على

(١) وتعرف بخريطة هيرفورد (حوالى ١٢٨٠) ، وهى من عمل ريتشارد هالدنجهام .

(٢) بيت مصرفى كبير كان مقره فى جنوا .

چنوا هي أن لديها عملة (الدوكات) ذات قيمة ذهبية ثابتة ، ومن ثم كان العالمان الإفريقي والإسلامي يستخدمانها كمقياس للقيمة . وأعلن سنتريوني أنه إذا سَكَّتْ چنوا عملتها من الذهب ، فإنه يمكن التغلب على إحدى العقبات الرئيسية التي تعانيها في المنافسة مع البندقية . وقد نجح سنتريوني في إقناع رجال الأعمال ذوي الرأي المتحجر بأن تَسْكُ چنوا عملتها من الذهب .

وعمل سنتريوني على استخلاص المزايا الكاملة لهذا القرار بالاهتمام بتجارة الذهب . واتجهت الأنظار إلى إفريقية الغربية باعتبارها أغنى مناطق العالم بهذا المعدن ، وذلك رأى لم يكن يستند إلى خبرة عملية . ففي ذلك الحين كانت تروج في أوروبا والعالم الإسلامي روايات كثيرة لأصلة لها بالواقع ، من بينها تلك التي تقول إن الذهب ينمو فوق الأشجار .^(٢) وكان سنتريوني مهتما بمعرفة من أين يجيء الذهب ؛ ولهذا الغرض نظمت بعثة استكشافية . وكانت أولى البعثات ذات الطابع التجاري الخالص التي أرسلتها أوروبا إلى إفريقية تحت إشراف رحالة تجاري يدعى أنطونيو ملفانتي^(٤) . ولم يستطع ملفانتي الذي بدأ رحلته بزيارة توات أن يحقق نجاحا في مشروعه ، فهو لم يكتشف مصادر الذهب ، وعجز عن اكتشاف آلية هذه التجارة . وركز اهتمامه على توات التي كانت في ذلك الوقت أحد المراكز التجارية العظيمة في الصحراء - وظلت كذلك إلى حين قيام المغيلي في نوبة غضب بتدمير المستعمرة اليهودية . واعتقد ملفانتي أن توات يمكن أن تكون مكانا نموذجيا لفتح فرع لتجارته . فهنا يجيء التجار من مصر ومعهم الماشية والإبل ، وتجيء القوافل العربية من الساحل محملة بالقمح والعملة الذهبية ، ويجيء التجار من تمبكت ومعهم التبر والزيوت النباتية . ومن بين

(٢) أنظر في الفصل الثالث إشارات بهذا الصدد ، وبخاصة الحاشية ٣ - ٤٩ .

(٤) يقول بوقل إنه ساد لفترة طويلة اعتقاد بأن ملفانتي كان ممثلا لبیت سنتريوني الشهير في چنوا ، ولكن الأبحاث أوضحت أن ذلك ليس صحيحا . كما يقول إن انطونيو ملفانتي كان تاجراً من چنوا وصل إلى إفريقية وتوغل حتى قلب الصحراء الكبرى بحثاً عن الذهب ، وإنه أرسل من توات تقريراً يحوى معلومات جغرافية مفيدة عن الداخل ، ولكنه لايقول شيئاً عن الغرض من الرحلة . بوقل ، The Golden Trade of the Moors ، الصفحة ١١٦ والحاشية .

ما قاله أن التجار المصريين يجيئون ومعهم نصف مليون رأس من الإبل والماشية ، وهو رقم ليس غريبا على تلك المناطق . بل إن الأمر الأكثر غرابة أن ملفانتي يذكر أن التجار الهنود كانوا يجوبون تلك المناطق بصحبة المترجمين ، وأنهم مسيحيون يقدسون الصليب . ولكن على الرغم من أن توات تتمتع بكل هذه المزايا ، فقد كان هناك وضع غير مواتٍ لها ، هو أن التجارة مع إفريقية الاستوائية تتحكم فيها جالية تجارية تمارس احتكارا فعلياً عن طريق فرض عمولة مقدارها مائة في المائة على كل صفقة . وموقف ملفانتي هذا شديد الشبه بموقف تاجر مقيم على الساحل غير مسموح له بالتوغل في الداخل خشية أن يخرق احتكارا تجاريا ، وذلك وضع تعين على أنصار التجارة المشروعة مواجهته في القرن التاسع عشر .

ومع ذلك لم تترك جنوا وحدها في المحاولة الرامية إلى تأمين التجارة في الذهب ، فقد سحب ملفانتي رجل من البندقية يدعى كاداموستو وآخر من فلورنسا يدعى بنيديتو داي .^(٥) وحقق كاداموستو قدرا من النجاح استطاع معه اكتشاف آلية التجارة ، ولكن ذلك هو كل ما في الأمر . كتب يقول : «إن الذهب الذي يأتي إلى ملّي يقسم إلى ثلاثة أجزاء : أولها تحمله قافلة إلى مكان يسمى كوتشيا على الطريق المؤدى إلى القاهرة ودمشق . والثاني والثالث تحملهما قافلة من ملّي إلى تمبكت ، ومنها يؤخذ جزء إلى توكت ، ومن هذه الأخيرة إلى تونس وبربري ، والباقي إلى هودن ، ومنها إلى وهران وفاس ومراكش وأماكن أخرى ، حيث يتسلمه التجار الإيطاليون» .^(٦) أما المغامر الفلورنسي بنيديتو داي فقد وصل إلى تمبكت . «لقد وصلت إلى تمبكت، وهي مكان إلى

(٥) ذهب بنيديتو إلى إفريقية ممثلا لبنت بورتيناري المصرفي في فلورنسا الذي كانت له مصالح تجارية واسعة في الخارج ، كما وسع أنشطته بصفة خاصة على طول ساحل البربر ، حيث كانت فلورنسا قد حصلت على امتيازات تجارية استثنائية لتجارها . وقد سمحت تونس لبنيديتو بالتوغل في الداخل ، وهو ما أسفر عن استقراره في تمبكت . فقد سمع عنه في عام ١٤٧٠ يمارس نشاطا تجاريا في مختلف أنواع الأقمشة والمنسوجات . بوقل ، المرجع نفسه ، الصفحة نفسها .

(٦) ملّي : مالي ؛ بربري : بلاد البربر ؛ هودن : بلاد الهوسا .

الجنوب من مملكة بربرى أشد بلدان العالم جدبا . وهناك تجرى تجارة واسعة فى بيع الملابس والأقمشة الصوفية الخشنة ، إلى جانب سلع أخرى تصنع فى لمباريا . « ومع ذلك عجز بنيديتو عن أن يفعل شيئا لمساعدة تجارة فلورنسا ، ولم تستطيع مؤسسة پورتينارى الكبيرة التى تحملت نفقات رحلته أن تجنى محصولا ذهبيا . لذلك كان من الضرورى إيجاد طرق أخرى للتغلغل فى إفريقية الاستوائية . وثمة عوامل أخرى زادت من الاهتمام بالذهب الإفريقى . فمنتجات الشرق فادحة الثمن ، ومرجع ذلك تكاليف النقل البرى الباهظة ، وكذلك تكاليف النقل بالسفن ، فضلا عن وجود خطر دائم بأن تؤدى التطورات فى داخل آسيا إلى عرقلة التجارة وزيادة أثمان البضائع الشرقية . ذلك أن سداد ثمن البضائع لابد أن يتم بالذهب ، كما أن تدفق الذهب إلى الشرق كان يلحق أضرارا شديدة باقتصاديات الدول الأوروبية . فإذا ما اكتشف طريق بحرى إلى جزر الهند فلا بد أن يقل هذا التدفق كثيرا ، وإلا تعين أن تصبح أوروبا أوثق اتصالا بمصادر الذهب الإفريقى . وهكذا فإن الأسباب الاقتصادية - تخفيض تكلفة نقل البضائع ، وبالتالى الحد من تدفق الذهب ، وثانيا الحصول على الذهب بطريقة أيسر - كانت هى البواعث الرئيسية للمغامرة الأوروبية فى إفريقية .

كانت الدول - المدينة الإيطالية مهتمة بإيجاد طريق جديد إلى الشرق ، فتجارها مع الشرق عانت متاعب مستمرة بسبب الاضطرابات فى الشرق الأوسط . وقد تبينت هذه الدول التى تسيطر على تجارة الشرق أن تعاظم النفوذ الإسلامى يعرض مراكزها للخطر ، إذ كانت على علاقات تجارية مستمرة لا مع شمال إفريقية فقط ، وإنما مع الشرق ومصر أيضا . وكانت البندقية تسيطر على التجارة الشرقية ، لذلك كانت منافستها الرئيسية جنوا فى مقدمة البحث عن طريق جديد . وقد برز الإيطاليون

واليهود^(٧) فى رسم الخرائط الجغرافية . وكانوا على معرفة بالمراكز التجارية العظيمة فى إفريقيا .

وإذ عقد الإيطاليون العزم على تحقيق رغبتهم فى اكتشاف طريق جديد ، فقد قرروا التغلغل داخل إفريقيا ، وكان أبناء جنوا وفلورنسا والبندقية فى طليعة من أقدم على هذه المحاولة ، وعلى الرغم من فشلهم فإنهم لم يغفلوا عن أهمية هذا الطريق . وقد أدى فشل هذه المدن فى الوصول إلى المناطق الاستوائية إلى استعانتها بأسبانيا والبرتغال لتحقيق أهدافها عن طريق الرحلات البحرية .

ثانيا

كانت الصحراء الكبرى فى ذلك الوقت معروفة جيدا للجغرافيين ورسمى الخرائط الأوروبيين . وكان أغلب راسمى الخرائط من اليهود ، فقد عرفوا كل طرق التجارة إلى داخل إفريقيا . ولم تكن الممالك هى ما يحرصون على إبرازها فى خرائطهم ، وإنما طرق القوافل . ويمكن الوقوف على تفاصيل طرق القوافل فى خرائط إبراهيم براسول ، وهو يهودى من مدينة أفينيون الفرنسية . وكان إبراهيم كريسك ، أشهر راسمى الخرائط الأوائل ، أبرز أفراد مدرسة ميورقة . فقد رسم خريطة كاتالان فى عام ١٣٧٥ بناء على طلب شارل الخامس ملك فرنسا ، وهى الخريطة التى توضح بشكل صائب موقع تمبكت . وهكذا كان الأوروبيون ، بسبب وجود اليهود وصلتهم الوثيقة بالجاليات اليهودية فى شمال إفريقيا ، على معرفة طيبة بطرق التجارة عبر الصحراء الكبرى .

(٧) كان اليهود يشكلون منذ العصور المبكرة عنصرا هاما فى سكان مراكش ، وبرغم أنهم كانوا يعاملون باحتقار شأن كل الأجانب ، فقد كان هناك قدر من التسامح تجاههم مكنهم من القيام بدور بارز فى تجارة مراكش ومن شغل مناصب هامة فيها . ومن مراكش انتشروا إلى واحات الصحراء الكبرى ، بل وإلى السودان . وعندما شرعت ميورقة فى إعداد خرائط لإفريقية استعانت بهؤلاء اليهود ، كما كانت معلومات هذه الخرائط مستمدة منهم . وبذلك كان من السهل على راسمى الخرائط اليهود فى ميورقة الحصول على معلومات عن طرق التجارة المؤدية إلى السودان . ورغم عدم دقة هذه الخرائط وضالة قيمتها الجغرافية فقد بدت شيئا من الظلام وحددت مواقع أماكن مثل تمبكت وغاو ومالى . وكان أهم هذه الخرائط أطلس كاتالان الذى أعده إبراهيم كريسك . [بوفل ، المرجع السابق ، الصفحات ١١٢ إلى ١١٤ .]

ولم تكن التجارة هي وحدها التي جعلت الأوروبيين على معرفة بإفريقية ، فهم من حين لآخر كانوا يؤخذون أيضا كرقيق . ولنتناول على سبيل المثال تاريخ النبيل التولوزي أنسيلمي ديسالجير^(٨) . فقد غادر ديسالجير مدينة تولوز في سنة ١٤٠٢ ، وهي السنة نفسها التي تمت فيها رحلة بتكورت^(٩) إلى جزر كناريا . وربما يكون ديسالجير قد شارك في تلك المغامرة وأخذ أسيرا وبيع للمغاربة . ويذكر تاريخ الفتاش أن رقيقاً مسيحياً وصل إلى غاو قادما من سكة الحمراء . وهناك واثاه الحظ ، فبعد بضع سنوات وقعت في حبه أميرة من السنغى ، وتزوجته ومنحته بائنة كبيرة . وفي سنة ١٤١٣ رغب في العودة إلى وطنه ، وحصل على إذن بمغادرة الإمبراطورية ، وعاد أنسيلمي إلى وطنه بصحبة زوجته وبناته الثلاث وستة من الخدم بينهم خصي يدعى ابن على حقق بعض الشهرة كطبيب . وأحدث قدوم هذه الأسرة الغربية إلى تولوز هرجا كثيرا . وهناك وطد الخصي أقدامه كطبيب . ففي سنة ١٤٢٠ استطاع ابن على شفاء شارل ولى العهد من مرض ألم به .

وكان لبنات ديسالجير بدورهن مآسيهن وغرامياتهن . فكبراهن مارتا ، ذات الجمال المولد الغريب ، تزوجت بدى فوبوا ، من أبناء إحدى الأسر المشهورة ، وأنجبت منه ابناً أسمته إيزاتاتشى . بيد أن البنيتين الأخريين انتهى غرام كل منهما بمأساة . فبينما كانتا عائدتين ذات يوم من نزهة مع إثنين من

(٨) أنسيلمي ديسالجير : (١٣٨٠ - ١٤٢٠) ، رحالة فرنسي من تولوز يعتبر في بعض الأحيان أول من شاهد نهر النيجر من الأوروبيين . وتقول الموسوعة البريطانية إنه وصل إلى غاو في سنة ١٤٠٥ حيث تزوج من أميرة مسلمة من أهالي المنطقة أنجب منها بنتا وولدين (على خلاف پانيكار) ، ثم عاد إلى تولوز بصحبة أسرته وبعض الخدم ، ومن بينهم طبيب استطاع شفاء شارل السابع من مرض ألم به . وترد لايسالجير قصة كاملة في بريجز ، Titles of the Seclora ، الصفحة ٤٣ . هذا وقد وردت الفقرة التالية بالصفحتين ٥٧ و ٥٨ من تاريخ الفتاش وهؤلاء القبائل الخمس كلهم أبوهم واحد وهو عبد للنصارى حداد هرب من جزائر المحيط إلى كوكي مدينة السييين زمن شى محمد فار .. « [كوكي مدينة السييين هي غاو عاصمة أسرة سن ؛ شى محمد فار هو سن محمد فار .] وأنا لست على يقين من أن هذه الفقرة تنطبق على أنسيلمي ديسالجير، وعلى أية حالة فإن محاولة هذا الربط قد وردت في أكثر من مصدر أجنبي ، ومن بينها بوجل ، المرجع السابق ، الصفحة ١١٥ .

(٩) أنظر الحاشية ٧ - ١٣ أدناه .

الفرسان سقط الفارسان صريعين عند أبواب المدينة ، وهى حائقة انتهت بهما إلى أحد الأديرة .

ثالثا

وثمة محاولة أخرى لاختراق الغموض الإفريقى جاءت من الغرب . وهذه المحاولة بدورها تدين بالفضل لراسمى الخرائط الميورقيين ولأصحاب المصالح الإيطاليين . وبينما يبرز معظم المؤرخين دور الملاحين البرتغاليين ، فإن البيوت الإيطالية الكبيرة التى نظمت الحملات كثيرا ما يُغفل أمرها . ويُزعم أن إخوان فيفالدو^(١٠) قاموا فى عام ١٢٩٢ بحملة بمحاذاة ساحل إفريقية ووصلوا إلى غمبيا ، ولكنهم لم يعودوا ، وتبعهم مغامر آخر من چنوا يدعى بنزاويتو مالوشيلو^(١١) الذى اكتشف جزر كناريا . بيد أن المسعودى يرجح أن الذى اكتشفها شاب من قرطبة يدعى خشخاش يظن أنه أبحر قاصدا جزر كناريا .^(١٢)

(١٠) أوجولينو فيفالدو وجينو فيفالدو وسورليونى دى فيفالدو : فى مايو ١٢٩١ أبحر أوجولينو وجينو فيفالدو من چنوا على رأس حملة مكونة من سفينتين بغرض الوصول إلى الهند بحرا والعودة بأشياء مفيدة للتجارة ، إلى جانب التبشير . ووصلت الحملة إلى رأس نُنْ على ساحل إفريقية الغربية ، ثم لم يسمع عنها شيئ . وفى مطلع القرن التالى قام سورليونى - ابن أوجولينو - برحلة بحثا عن والده ، ويقال إنه تغلغل حتى مغابوكسو على الساحل الصومالى . [يحتمل أن تكون مغابوكسو هذه هى مقديشيو عاصمة الصومال الحالية .]

(١١) الإشارة التى وردت بالموسوعة البريطانية بهذا الشأن هى إلى لانشيلوتو مالوشيلو الذى قاد حملة أعدتها چنوا فى عام ١٢٧٠ يبدو أنها أبحرت إلى المحيط الأطلسى وأعادت اكتشاف جزر كناريا ، وأقامت مستوطنة فوق جزيرة فى شمالها هى لانزاروت . ويقال إنه قتل على أيدى أهالى هذه الجزر . وتقول الموسوعة أيضا إن حملته ليست منبئة الصلة بمغامرات چنوا فى عام ١٢٩١ بقيادة إخوان فيفالدو . وبذلك تكون رحلة لانشيلوتو مالوشيلو سابقة على رحلة إخوان فيفالدو وليست لاحقة لها .

(١٢) «وقد ذهب قوم إلى هذا البحر أصل ماء سائر البحار ، وله أخبار عجيبة أتينا على ذكرها فى كتابنا «أخبار الزمان» فى أخبار من غرر وخاطر بنفسه فى ركوبه ، ومن نجامنهم ، ومن تُلُفَ ، وما شاهدوا ، وما رأوا ، [وأن منهم رجلا من أهل الأندلس يقال له خشخاش ، وكان من فتيان قرطبة وأحداثها فجمع جماعة من أحداثها ، وركب بهم مراكب استعدادا فى هذا البحر المحيط ، فغاب فيه مدة ثم انتنى بغنائم واسعة ، وخبره مشهور عند أهل الأندلس]» المسعودى ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، الجزء الأول ، الصفحة ١١٩ .

ويمكن القول بأن المرحلة الحديثة في اكتشاف إفريقيا تبدأ من حملة **چين دى بتنكورت وجاديفى دى لاسال**^(١٣) إلى جزر كناريا فى عام ١٤٠٢ ، وهى الحملة التى أسفرت عن غزو أربع من الجزر الصغيرة . وبينما كان جاديفى دى لاسال يغزو الجزر ، قام بتنكورت بزيادة بلاط **كاستيل**^(١٤) حيث حصل على اعتراف بادعاءاته . وكان ذلك بداية الإدعاءات الأسبانية بجزر كناريا . وفى عام ١٤١٨ قام ماسيو دى بتنكورت - إبن أخ چين - ببيع حقوقه فى جزر كناريا إلى الكونت أنريك دى جوزمان ، وأصبح النزاع علانية بين الإدعاءات الكاستيلية والبرتغالية على هذه الجزر . وقد حسم هذا النزاع فى مؤتمر بازل ، حيث اتخذ قرار لصالح أسبانيا على أساس : (١) أن چين قد أقسم يمين الولاء لملك كاستيل ؛ (٢) أن جزر كناريا كانت تابعة لموريتانيا ، وهى من الممتلكات القديمة لملوك القوط . وهكذا كسب الأسبان الجولة الأولى على الطريق إلى إفريقيا .

ومع ذلك كان للبرتغال دور الريادة فى اكتشاف الطرق البحرية إلى غرب إفريقيا ، ويحملنا ذلك على تقصى الأسباب التى أدت بهذه الأمة الصغيرة الواقعة على ساحل الأطلسى إلى أن يكون لها هذا الدور الهام فى تطور أوروبا الحديثة . إن الصراع الطويل الذى خاضته الدولتان الأيبيريتان ضد الدول الإسلامية فى شبه الجزيرة انتهى بهما إلى اعتبار المسلمين فى كل مكان أعداءً لهما ، ولم يكن من المستغرب أن تتجهها إلى محاربة الإسلام . وهكذا ما كاد

(١٣) **چين بتنكورت وجاديفى دى لاسال** : مستكشفان فرنسيان أبحرا من لاروشيل فى مايو ١٤٠٢ على ظهر سفينتين لغزو جزر كناريا . وقد نشأ بينهما خلاف بسبب استيلاء دى لاسال على لانزاروت وجزء من فورت فنتورا من جزر كناريا ، وإثر فشل محاولة بتنكورت الأولى ذهب إلى هنرى الثالث ملك كاستيل ، حيث حصل على دعمه وعلى لقب ملك ، ثم توجه إلى قادس فى جنوب أسبانيا للحصول على تعزيزات ، وبذلك أصبح دى لاسال فى مرتبة أدنى . وفى عام ١٤٠٦ غادر بتنكورت الجزر ، وعهد بحكومته إلى ابن أخيه ماسيو . وعندما تدخلت كاترين ملكة كاستيل فى عام ١٤١٤ بسبب سوء إدارته ، قام كاسيو ببيع منصبه لبيعوث الملكة ، ثم أبحر إلى لشبونة حيث أعاد بيعه لهنرى الملاح ، أمير البرتغال وراعى الاكتشافات الجغرافية ، ثم باعه من جديد لأنريك دى جوزمان أمير نيبلا .

(١٤) **كاستيل** : مملكة قديمة فى أسبانيا يحدها من الشمال خليج بسكاي ، ومن الشمال الشرقى مقاطعتا الباسك ونافارى ، كما تحدها أسبانيا جنوبا ، ويقال إن الكلمة مأخوذة من القلاع الصودية الكثيرة (كاستيلو Castillos) التى أقيمت لصد هجمات المسلمين . كانت تعرف عند المسلمين فى الأندلس بقشتالة .

البرتغاليون يحرصون على استقلالهم حتى وصلوا نضالهم ضد الإسلام على ساحل شمال إفريقية . وفى سبته حصل هنرى الملاح على معمودية النار . ولكن تبين أن محاولة غزو شمال إفريقية تفوق كثيرا قدرات البرتغال ، وعلى الرغم من رغبتها فى الحرب ، فقد أثرت أن تكون حربا غير مباشرة .

لقد عرفت إفريقية الغربية على نطاق أوروبا كلها بأنها أرض الذهب . ولو أن البرتغال تمكنت من الوصول مباشرة إلى مناجم الذهب ، لقضى ذلك على رخاء الدول الإسلامية فى شمال إفريقية ، وساعد البرتغال على الإبلال من الصراع الطويل ضد الإسلام . فضلا عن ذلك لو أن البرتغال تمكنت من وضع يدها على منتجات المناطق الاستوائية لوفر عليها ذلك دفع أثمان باهظة للتوابل ، ومكناها من الانضمام إلى محتكرى الاتجار فيها .

وأخير كانت هناك أسطورة **پريستر چون**^(١٥) ، وهو أمير مسيحي حكم فى قلب إفريقية ، وقطع الإسلام أواصره بأمرأء أوروبا المسيحيين . وكما يقول **أنوئارا**^(١٦) «كان (الأمير هنرى) يرغب فى معرفة ما إذا كان يوجد فى تلك المناطق أمراء مسيحيون لديهم من الحب للمسيح ما يدفعهم إلى تقديم العون له فى صراعه ضد أعداء العقيدة » .

وهذه التوليفة من الجشع التجارى والتعصب الدينى والمغامرة الحربية أعطت البرتغاليين حمية معنوية كفيلة بتنفيذ سياسة تتسم بالجرأة . ومع ذلك

(١٥) **Prester John** : ملك خرافى من العصور الوسطى فى آسيا ، ولكن تاريخه تجمعت حوله فى الأصل نواة من الحقيقة . وقبل أن يظهر **پريستر چون** على المسرح مهدت لظهوره خرافة شبيهة فى أوروبا حوالى عام ١١٢٢ . وبعد ذلك تجلّى **پريستر چون** على المسرح فى شخصية فاتح مسيحي يجمع بين كاهن وملك . عندئذ تختفى القصة الآسيوية لتظهر فى إفريقية .

(١٦) **جوميئز اينز دى أنوئارا** (٩ - ١٤٧٤) ، ثانى مؤرخ برتغالى مشهور يسجل الأحداث مرتبة وفق تواريخ وقوعها . له كتاب عن حويلات حصار سبته والاستيلاء عليها يعد تكملة لكتاب لوب «حولية الملك چون الأول» . وبعد إعداده بثلاث سنوات انتهى من مسودة كتابه «حولية اكتشاف غينيا وغزوها» الذى هو مرجعنا الرئيسى فى الوقوف على الرحلات البرتغالية المبكرة على طول الساحل الإفريقى وفى المحيط ، وبخاصة تلك التى تمت تحت رعاية هنرى الملاح .

فإن عبقرية هنرى المنظمة هي التي سمحت برسم وتنفيذ سلسلة من التحركات قدر لها أن تأخذهم إلى الهند وإلى «ما بعدها» . وكان أكبر خطر واجهته البرتغال هو الخوف الوهمي من أن هؤلاء الذين تجاوزوا رأس فن^(١٧) لم يعودوا قط ، وكذلك مما عرف عن الأطلسي من أنه بحر الظلمات . وكانت أساليب الأمير هنرى تقوم على العلم ، وكان أول قرار اتخذه هو جمع أكبر قدر من المعلومات عن إفريقية . وفي مركز قيادته في ساجرس ، وهي نتوء جبلي صخري يطل على البحر تجاه إفريقية . قام بجمع راسمي الخرائط وصناع الآلات البحرية والمتخصصين في بناء السفن . وهناك اضطلعت هيئة عامة بتنسيق ما يتجمع من معلومات عن إفريقية . وفي عام ١٤١٥ أبحرت سفينتان مسافة مائتي ميل إلى الجنوب من رأس فن^{١٨} . وفي عام ١٤٣٤ نجح جيل إينس في الالتفاف حول رأس بوچادير^(١٨) . وفي عام ١٤٤٢ وصل جونزاليس إلى أبعد من ذلك في اتجاه الجنوب ، وأقام البرتغاليون في عام ١٤٦١ مركزا في أرجوين^(١٩) ، كما وصل چوان دى سنتريم في عام ١٤٧١ إلى إلمينا^(٢٠) ، حيث أقيمت قلعة في عام ١٤٨١ . وهذه القائمة الموجزة بالمنجزات البرتغالية تبين أنه بمقدم عام ١٤٧٠ كان البرتغاليون قد دخلوا تجارة إفريقية الغربية .

ومع ذلك ينبغي عدم المبالغة في منجزات البرتغاليين . وكما يقول أحد النقاد ، «إن الرحلات التي بدأها الأمير هنرى لم تكن اقتحاما للمجهول ، وإنما جزء من محاولة مستمرة لانتزاع السيطرة على شريان اقتصادي هام كان حتى ذلك الوقت في أيدي أجنبية كثيرا ما كانت معادية» . وربما يكون ذلك تفسيرا لماذا لم يكن العرب الذين يتحكمون في الطرق البرية المؤدية إلى منحني النيجر يشغلون أنفسهم بالبحث عن طريق بديل . وكانت ضرورة التغلب على الموقع الاحتكاري

(١٧) Cap Nun : تجاه جزر كناريا أمام ساحل غرب إفريقية .

(١٨) Cap Bojadir : جنوب رأس فن . وكان جيل إينس أحد أتباع هنرى الملاح ، وقد عاد إلى سيده

حاملًا معه غصنا من نبات إكليل الجبل حصل عليه من أرض رأس بوچادير .

(١٩) Arguin : أي أغادير الواقعة على الساحل المغربي المطل على المحيط .

(٢٠) Elmina : مازالت تحتفظ بهذا الاسم في غانة الحالية .

لعرب شمال إفريقية هي التي دفعت جنوبا وغيرها من المدن الإيطالية إلى الاشتراك في حملات الكشف . ولم يكن لدى العرب دافع من هذا القبيل ، وعلى الجانب الآخر كان من صالحهم وقف كل محاولة لاكتشاف طرق بديلة . فضلا عن ذلك أخفق العرب في استخدام الابتكارات التقنية التي تحققت عند نهاية العصور الوسيطة .

رابعاً

ترتب على اكتشاف ساحل غرب إفريقية وصول الدول الأوروبية الأخرى ، وفي مقدمتها كاستيل والأندلس ، ولكن سرعان ما أصبحت فرنسا هي المتحدى البارز . وحاولت البرتغال أن تحمي مصالحها بحصولها على امتياز من البابا مارتن الخامس ومراسيم عامي ١٤٥٥ و ١٤٥٦ ، لكن أسبانيا زعمت أن أجداد إيزابيلا^(٢١) «كانوا دائماً يمتلكون أجزاء من إفريقية وغينيا» . وقد اعترف بهذا الزعم في المرسوم البابوي بولديوم كيم^(٢٢) الصادر في ٣١ يولية ١٤٣٦ . بيد أن مسألة ما إذا كان غزو إفريقية يعزى إلى أسبانيا أو البرتغال قد حسمت بعد اكتشاف أمريكا . فقد قسم البابا العالم بمقتضى المرسوم البابوي إنتر كاككتيا^(٢٣) الذي أصدره في الرابع من مايو ١٤٩٣ ، فمنحت أسبانيا حكم جميع الجزر والأراضي القارية في اتجاه الغرب والجنوب من «خط وهمي يبدأ من القطب الشمالي .. إلى القطب الجنوبي - على مسافة مائة فرسخ في اتجاه الغرب والجنوب من جزر أزورس والرأس الأخضر» . ومع ذلك رفضت البرتغال خط التقسيم هذا وأرادته أبعد في اتجاه الغرب : ودارت المفاوضات بين الدولتين ، وانتهت بعقد معاهدة ترويسلاس في السابع من يونيه ١٤٩٤ . وبموجب هذه

(٢١) إيزابيلا : (١٤٥١ - ١٥٠٤) ملكة كاستيل ، ابنة جون الثاني ملك كاستيل ، وحفيدة جون الأول ملك البرتغال ، وشقيقة هنري الرابع الذي تربع على عرش كاستيل في عام ١٤٥٤ ، وزوجة فرديناند ملك أراجون . جاءها إلهام باعتماد مخطط كولومبوس وتمويل مشروعه .

Bull Dudium Cum (٢٢)

Bull Inter Cactia (٢٣)

المعاهدة نقل خط التقسيم ٣٧٠ فرسخا إلى الغرب من جزر الرأس الأخضر .
وقد أكد البابا يوليوس الثاني المعاهدة بمقتضى المرسوم البابوى كاكوك^(٢٤)
الصادر فى الرابع والعشرين من يناير ١٥٠٦ ، وكان باستطاعة البرتغال
الارتياح لأن ادعاءاتها استقرت على أساس سليم .

ورغبت البرتغال فى فرض سيطرة كاملة على المنطقة بسبب طموحاتها فى
احتكار التجارة مع إفريقيا . وكان ذلك إيذانا ببداية نظام من الاحتكار ظل
قائما حتى العصور الحديثة . وأسباب ذلك يسهل فهمها . فإفريقية الغربية لم
تكن تنتج الذهب فقط ، وإنما الفلفل ومسك الزباد والعاج أيضا . واستنادا إلى
باتشيو فإن البرتغال كانت تحصل على مائة وسبعين ألف ريال من الذهب سنويا ،
وإن تجارة غرب إفريقية كانت منذ البداية احتكاراً ملكياً ، إذ لم يكن باستطاعة
أى شخص ممارسة التجارة فى هذه المنطقة قبل الحصول على إذن من الأمير
هنرى . وكان أول من حصل على امتياز كهذا هو فرانسوا جوميز ، الذى حصل
عليه فى عام ١٤٦٩ لمدة خمس سنوات مقابل مائتى ألف رى^(٢٥) . كما حصل
جوميز على احتكار أرجوين (أغادير) مقابل مائة ألف رى فى السنة . وقد
اكتشف الفلفل عندما قام أقييرو بزيارة بنين فى عام ١٤٨٦ . ومنذ ذلك الوقت
أصبحت هذه السلعة احتكارا ملكيا ، وظلت كذلك حتى عام ١٥٠٦ ، عندما منع
استيراد فلفل ملقا^(٢٦) بسبب منافسته للفلفل الهندى الذى كان البرتغاليون
يسيطرون على تجارته . وفيما بين عامى ١٤٩٠ و ١٥٠٦ كانت تخصص مائتا
كنتال للوكيل التجارى البرتغالى الرئيسى فى أنتيويرب ، وقد عاد هذا المبلغ بأرباح
طائلة . وكانت هناك سلع أخرى عالية الربحية ، ولكن هذه السلع جميعا سرعان
ما تضاعلت أمام الاتجار فى البشر .

Bull Ca Quque (٢٤)

(٢٥) المارافيدى أو الرى عملة فضية صغيرة استخدمت فى كاستيل والبرتغال باعتبارها وحدة الحساب ،
وكانت قيمة العملات المسكوكة من الذهب أو الفضة الثقيلة تقدر بعدد معين من المارافيدى أو الرى ، وكان هذا
العدد يزداد دوريا مع التدهور فى قيمتها .

(٢٦) تقع مقاطعة ملقا على الساحل الجنوبى الغربى لشبه جزيرة الملايو ، استولى عليها البرتغاليون
فى عام ١٥١١ .

ولا عجب أن كان الفرنسيون والإنجليز عازفين عن قبول أوامر أحد بابوات بورجيا التي لم تقبلها البرتغال نفسها ، ولم يكن فرنسوا الأول مستعدا لأن يرى الفرنسيين وقد استبعدوا من تجارة العصر الأكثر ربحا ، وعلق على ذلك قائلا : «إن الشمس تضيئ من أجلى ومن أجل الآخرين ، وإنى أود أن أرى تلك الفقرة من وصية آدم التي تستبعدني من القسمة» ، وكان الدخلاء الفرنسيون على استعداد تام للمخاطرة بسفنهم وأرواحهم التماسا للأرباح العائدة من تجارة غينيا .

وقد تبينت البرتغال أن الشراسة غير مجدية في إبقاء المتطفلين الفرنسيين بعيداً عن التجارة الذهبية ، إذ لم تكن هناك حجج بشأن بحار مغلقة يمكن أن تقنع فرانسوا الأول بأن من مصلحته الإبقاء على الاحتكار البرتغالي في وقت يستطيع فيه رعاياه ، عن طريق الاتجار مع الساحل الإفريقي الغربي ، الحصول على الذهب والفلفل بثمن يقل عن ذلك الذي يعرضه تجار الفلاندرز . وكان جان أنجو وغيره من تجار ديبب ولاروشيل يجهزون حملات كبيرة ليس فقط للتجارة مع غرب إفريقية ، وإنما كذلك للاستيلاء على السفن البرتغالية القريبة من جزر الرأس الأخضر . وقد تمكنوا فيما بين عامي ١٥٠٦ و ١٥٣١ من الاستيلاء على ثلاثمائة سفينة برتغالية ، كما تمكنوا عن طريق عرض أثمان أعلى للمنتجات على الساحل الإفريقي من تدمير التجارة البرتغالية تماما . وبذا تحطمت أول محاولة لإقامة احتكار ، كما أن الفرنسيين بعد أن تحدا احتكار البرتغاليين للتجارة سرعان ما تحدا حتى أسبقيتهم في الكشف .

فهل كان البرتغاليون حقا هم أول من وصل إلى ساحل إفريقية الغربية ؟ لقد قدم الفرنسيون في القرن السابع عشر ادعاءً بأن التجار من أبناء ديبب كانوا يمارسون التجارة على الساحل الإفريقي . يقول فيان دي بلفون الذي قدم هذا الادعاء تأييدا لسياسة كوليير^(٢٧) التجارية إن الوثائق الموجودة في ديبب تثبت

(٢٧) جان بابتيست كوليير : (١٦١٩ - ١٦٨٣) ، رجل دولة فرنسي كان في مقدمة المدافعين عن المذهب التجاري . وبرز في تنظيم الإدارة المالية ، ثم وجه اهتمامه إلى زيادة ثروة الأمة عن طريق تشجيع الصناعة والتجارة . وكان من أعظم منجزاته إنشاء البحرية التجارية ، وأصبح وزيرا لها في عام ١٦٦٩ ، وبعد ذلك تولى وزارة المستعمرات ثم وزارة القصر الملكي .

أن الفرنسيين قد سبقوا البرتغاليين فى ممارسة التجارة فى هذه المنطقة . وأكد قيام رحلات فرنسية فى الأعوام ١٣٦٤ و ١٣٨٠ و ١٣٨١ و ١٣٨٣ . واستنادا إلى دى بلفون فإن الفرنسيين أقاموا مستعمرات على الساحل عند «بيتى ديب» و «بيتى باريس» . ولكن مبنى بلدية ديب دمر فى عام ١٦٩٤ ، فلم تعد هناك من وسيلة للتثبت من الادعاءات الفرنسية ، ومع ذلك ففى حوالى عام ١٨٦٠ حاول پيير مارينى أن يثبت صحة الرواية بوساطة نسخة من إيصال ملاحى ادعى وجود أصله فى المتحف البريطانى . وقد حصل مارينى على هذه النسخة من لوكان دى روزنى الذى حصل عليها بدوره من مستر كارتر الذى قام بنسخها من الإيصال الأصيل . وقد أوضحت التحقيقات أنه لا يوجد مخطوط كهذا فى المتحف البريطانى . كما أن لغة الكتابة وأسلوبها يمتان إلى القرن السادس عشر أكثر مما يمتان إلى القرن الرابع عشر . كذلك كانت هناك اختلافات أخرى . وكان بلفون يعزو الفضل إلى تجار ديب ، فى حين تؤكد وثائق مارينى نور مدينة روان .

ويقول الفرنسيون إن فرنسا بعد عام ١٤١٠ كانت بسبب الحرب الأهلية عاجزة عن الاحتفاظ بارتباطاتها مع غرب إفريقية . ويستند الإدعاء الفرنسى إلى افتراض مؤداه أنه لما كان النورمنديون يعرفون الساحل المراكشى وجزر كناريا فلم يكن من الصعب عليهم أن يندفعوا نحو الجنوب . فضلا عن ذلك فقد قامت صناعة للعاج فى ديب فى القرن الخامس عشر ، ويزعم أن هذه الصناعة كانت تعتمد على العاج المستورد من غرب إفريقية . وهناك ثلاثة شهود لا تجمعهم رابطة يتحدثون عن وجود فرنسى فى غرب إفريقية . فبيتر دى مارى فى عام ١٦٠٢ يشير إلى هذا الوجود ؛ كما أن صمويل براون ، وهو جراح أقام فى قلعة فورناشو من عام ١٦١٧ حتى عام ١٦٢١ ، يعلن أن الفرنسيين هم الذين بنوا قلعة إلمينا . ودكتور دابر أيضا يتحدث عن حصن فرنسى مجهز بمدفعية ثقيلة لها أرقام تبدأ برقم ١٣ ، أما رقامها الأخيران فمطموسان . كذلك يتحدث الرحالة الفرنسى پير لا با عن الاكتشاف الفرنسى لإفريقية . وفوق

الخرائط التى أعدها راسمو الخرائط الفرنسيون ظهرت «بيتى باريس» ابتداء من عام ١٦٠٢ وبيتى ديبى» ابتداء من عام ١٦٣١ . بيد أنه لسوء الحظ لم يقدم أى دليل مدعم بالوثائق .

وفى الآونة الأخيرة وقفت مسز إيفيا مييروفيترز إلى جانب الادعاءات الفرنسية ، وذلك على أساس الروايات المحلية . فقد أقام الفرنسيون ، استنادا إليها ، مبنى مزودا بمصطبة للمدافع رسمت فوقها بعض النقوش . وقد حطم البرتغاليون هذا النصب التذكارى ، ولكنهم لم يزيلوا هذه النقوش . وتذكر مسز مييروفيترز أن هناك صورة للقديس أنطونى تعود إلى ذلك الوقت مازالت تستخدم على الساحل كتعويذة دينية ، وذلك على الرغم من أنها لم تستطع رؤيتها .

وفى مقابل ذلك توجد حجج لها وزنها . فلو كان للفرنسيين أسبقية فى الكشف فمن المؤكد أن فرنسوا الأول لم يكن ليترك تقسيم العالم بون تحدٍّ ، وكان لابد أن يتمسك بحقوقه . وفى القرن الرابع عشر لم تكن الأرقام العربية قد شاع استعمالها ، على الرغم من أن الإنجليز والفرنسيين كانوا على دراية بها . ويصعب التسليم بأن الفرنسيين قد وضعوا هذه الأرقام فى نصب تذكارى فى إلمينا ، ومع ذلك فإن فرنسا قد احتلت إلمينا فى عام ١٥٨٢ ، ومن المحتمل أن يكون الحصن قد شيد فى ذلك الوقت . أما بيازلى وپرستيچ ، اللذان بحثا تلك القضية ، فقد خلاصا إلى أنه بينما كان فى مقدور الفرنسيين الوصول إلى الساحل ، فليس هناك دليل على أنهم فعلوا ذلك ، ويبدو أن الرأى حول هذه القضية لم يحسم حتى الآن .

خامسا

فأى نوع من إفريقية واجهه الأوروبيون الأوائل ؟ لقد كان اهتمامهم مقصورا على المناطق الساحلية ، ولم يتوغلوا فى الداخل عدا فى حالة أو حالتين -

وبخاصة البعثة البرتغالية إلى مالى .^(٢٨) ولأن هدفهم كان التجارة ، فقد اكتفوا بالمناطق الساحلية ، واعتمدوا على الحكام ورؤساء القبائل المحليين لتزويدهم بمنتجات المناطق الداخلية . وكانت سياسة الأوروبيين على الساحل هي أن يبنوا قلعة ويقيموا علاقات ودية مع الأهالي لصالح التجارة . وقد أدرك الإفريقيون منذ اللحظة الأولى أخطار السماح للأجانب بامتلاك مكان محصن . وأجرى الرئيس كوامي أنسا تحليلا لأخطار ترك البرتغاليين يبنون قلعة ، وأعلن رداً على الطلب البرتغالي :

« لست غير مبال بالشرف الكبير الذى أسبغه على اليوم سيدكم العظيم رئيس البرتغال . قد كنت أسعى يوما إلى أن أكون جديرا بصداقته ، وذلك بتحري الدقة فى تعاملى مع البرتغاليين ، وبجهودى الدؤوبة لتدبير شحنة عاجلة للسفن . ولكن حتى ذلك اليوم لم ألاحظ قط فارقا كهذا فى مظهر رعاياه . فهم حتى الآن يكتفون بارتداء الملابس المتواضعة ، ويقنعون فى سهولة بما يحصلون عليه من بضائع ، دون أية رغبة حتى الآن فى الاستمرار فى هذا البلد ، ولا تغمرهم السعادة أبدا إلا عندما تكتمل شحناتهم ويتخذون عدتهم للعودة إلى الوطن ، والآن ألاحظ فارقا غريبا . ذلك أن كثيرين ممن يرتدون الثياب الغالية يتوقون إلى السماح لهم ببناء البيوت ومواصلة الحياة بيننا . فرجال لهم مثل هذه المنزلة ، وعلى رأسهم قائد يبدو من مظهره أنه من عبيد الله خالق الليل والنهار ، لا يمكن أن يُكرِّهوا أنفسهم على تحمل مشاق هذا المناخ ؛ ولن يكون باستطاعتهم تدبير أى من وسائل الترف المتوفرة فى بلدهم . إن تباين

(٢٨) عندما شعر محمد الأول منسا مالى بوطأة السنغى لم يجد بداً من الاستعانة بقوة خارجية لساندته ، فاستغاث فى عام ١٤٨١ بالعثمانيين ، ثم عاد فطلب مساعدة البرتغال ، وبسبب خشية ملك البرتغال من امتداد نفوذ العثمانيين إلى قلب إفريقيا ، فقد أسرع بالاستجابة لاستغاثة المنسا . وبعث إليه بسفارتين لا يعرف شئ عن أخبار الأولى منهما ، أما السفارة الثانية فتوجهت عن طريق إلينا ، ووصلت إلى عاصمة مالى ، ولم يعد من أعضائها الثمانية إلا شخص واحد هو بطرس رنيل الذى قدم وصفا لأحوال مالى فى ذلك الوقت . وفى عام ١٥٣٤ استنجد المنسا محمود الثانى بالبرتغاليين ، فجاءت بعثة لم يكن هدفها مساعدة المنسا ضد أعدائه ، وإنما لبحث مسائل تجارية .

الأهواء المألوف لدينا جميعا سيؤدى حتما إلى الشقاق والخصام ؛ وإنه لمن الأفضل كثيرا أن تمضى كل أمة منا فى السياسة نفسها التى انتهجتها حتى الآن ، فيسمح لسفنكم بالمجئ والذهاب كما هى العادة ، ثم أن الرغبة فى أن يرى كل منا الآخر بين الفينة والأخرى هى التى ستصون السلم فيما بيننا . ولكون الأرض والبحر متجاورين دائما ، فإنهما على خلاف باستمرار ويتشاحنان حول أيهما سيدعن للآخر ، فالبحر يحاول فى عنف شديد إخضاع اليابسة ، واليابسة بدورها مصممة فى عناد مماثل على أن تناوئ البحر . »

وكان هدف البرتغاليين هو إقامة منطقة يستطيعون منها السيطرة على المناطق الريفية ، فالقلعة تمكّنهم من أن تكون لديهم «... جالية مدنية مجاورة نعتمد عليها بوصفها جزيرة للنفوذ البرتغالى . » وهكذا فإن القلاع التى كان من المقرر نشرها على طول الساحل كانت بمثابة تحدٍّ مباشر للحكام الإفريقيين ، وهم قد اعتبروها كذلك . وقد بذل كوامى أنسا قصارى جهده لتفادى اتخاذ قرار بشأن هذه القضية ، ولكن البرتغاليين استطاعوا إرغامه على أن يعطيهم الأرض . أما فى وايداح^(٢٩) فقد أصر الملك على عدم إقامة بيوت على الطراز الأوروبى ، بل إن الأوروبيين لم يكن باستطاعتهم أن يقيموا بيوتا حتى على الطراز الوطنى . وهكذا فى عام ١٧١٥ ، على سبيل المثال ، عندما سرق وكيل هولندى فى وايداح أربعين زوجا من الأحذية من الوكيل الإنجليزى ، قرر الأخير أن يتولى بنفسه تنفيذ القانون للقصاص منه ، فقام الملك بتجريد الوكيل الإنجليزى ، ووضع فى الأغلال وشحنه على أول سفينة توفرت له .

(٢٩) وايداح : مدينة قديمة مكتظة بالسكان فى داهومى ، بالقرب من كوتونو ، وتعرف بحديقة داهومى لكثرة ما بها من أشجار الموالح . كان للبرتغاليين قلعة بها ، وكانت من «الدول - المدينة» على ساحل الرقيق (ساحل غينيا) الذى أصبح داهومى فيما بعد ، كما كانت من أهم المراكز التجارية وكبرى المحطات التى تقوم بمرور الوسيط فى تجارة الرقيق . وقعت معارك شرسة بين قوات داهومى وفرنسا ، ونزلت حملة فرنسية فى كوتونو (ميناء داهومى الرئيسى) وقُعت على إثرها معاهدة «وايداح» فى أكتوبر ١٨٩٠ ، التى منحت فرنسا حق حماية پورتونوفو (عاصمة داهومى الآن) واحتلال كوتونو لفترة غير محدودة ، تعرف كذلك باسم «قيدا» .

ولم يكتف الرؤساء الإفريقيون بعدم السماح للتجار ببناء القلاع ، بل إنهم حتى عندما سمحوا بها ، كما فى حالة إلينا وغيرها ، ادعوا السيادة عليها ، كما طالبوا بأن تكون الموانى مفتوحة ، وبأن يكون باستطاعة أى شخص زيارتها . كذلك لم يشجعوا الأوروبيين على القيام بعمل مباشر ، ولم يكن يسمح لهم بالقيام بغارات من أجل الحصول على الرقيق ، وإنما كانوا يستطيعون شراءهم فقط . وفى عام ١٧٥٤ ، عندما قبض القبطان الإنجليزي لإحدى سفن نقل الرقيق على ثلاثة من الرعايا الأحرار ، قبض على قبطان السفينة الإنجليزية التى جاءت فى إثرها ، ولم يطلق سراحه إلا بعد أن ترك ثلاث رهائن .

ولقد ترتب على العلاقة مع التجار الأوروبيين اضطرابات سياسية واجتماعية . فحتى ذلك الوقت كانت السلطة السياسية فى أيدي الدول المنظمة فى الداخل ؛ ومع إدخال الأسلحة الأوروبية ، وكذلك مع ما جاء فى أعقاب التجارة من رخاء مادي - متجسدة فى بضائع فى أول الأمر ثم فى البشر بعد ذلك - نمت قوة الدول الساحلية . إذ أن هذه الدول كانت تعتمد على التجارة ، وكان هدفها توريد الرقيق والحصول على البنادق التى تستطيع بها مد سلطانها .

ولم يكن الزنوج الذين واجههم الأوروبيون على الساحل همجا أو يعيشون فى أحوال بدائية ، بل كانوا حتى فى ذلك الوقت تجارا ممتازين ولديهم نول حسنة التنظيم ومدن مسورة . وكان بعض حكامهم ملوكا أقوياء ، بيد أنه حتى صغار رؤساء القبائل كانت لديهم رغبة كاملة فى استخدام القوة ضد الأوروبيين . ولذلك فليس هناك أساس فى التاريخ للفكرة القائلة بأنه قبل القرن التاسع عشر كان الأوروبيون فى غرب إفريقية يعتبرون سادة ، وبأن الإفريقيين كانوا يرهبونهم . والحقيقة أن الأوروبيين أنفقوا أموالا كثيرة لإغراء الإفريقيين بالذهاب إلى أوروبا وإيهامهم بأبهة بلدانهم وعظمتها .

وثمة حقيقة أخرى لصالح الإفريقيين لم يتوانوا عن استغلالها ، وهى إنه على الرغم من أن كل دولة أوروبية حاولت إقامة احتكار يقصر التجارة على شركة واحدة ، فإن تنافس الدول الأوروبية على الفلفل والذهب والعاج كان بمثابة

ميزة كبيرة للإفريقيين . فضلا عند ذلك لم تكن لدى هؤلاء المتطفلين ممانعة في دفع أثمان أعلى ماداموا لا يتحملون تكاليف محددة ، من قبيل الإنفاق على وكالة تجارية أو على الوكلاء التجاريين اللازمين لتسييرها . وأدرك الإفريقيون ذلك ، فدأبوا على رفع أثمانهم .

وكان لدى الإفريقيين ، استنادا إلى مارمول ، استعداد للنظر إلى الأوروبيين على أنهم مخلوقات جبارة ، من ذلك أن الزنوج ، عندما رأوا الحملة المراكشية ، التي رافقها مارمول ، ظنوا أن سلطان مراكش يستخدم في الحملة مخلوقات جبارة يمكن أن تدمر الزنوج . فالبشرة البيضاء كانت تعتبر في بعض المناطق خاصة بأناس نهضوا من القبور ،^(٢٠) وكذلك كان الزنوج يخشون أن يكون سبب تجارة الرقيق هو أن الأوروبيين مغرمون بأكل اللحم الأسود .

سادسا

ربما كان الإتجار في الرقيق القادم من إفريقية قديما قدم التاريخ ، فقد انغمس العرب وأبناء شمال إفريقية في تجارة الرقيق قبل أن يكتشف البرتغاليون ساحل إفريقية الغربى ، وحتى بعد اكتشاف أمريكا لم تكن تجارة العرب في الرقيق مما يستهان به . ولكن التجارة عبر الأطلسى كانت أعظم أهمية بكثير بسبب اعتماد مزارع القطن وقصب السكر على عمل الرقيق . بيد أن دلالة الأطلسى في تجارة الرقيق دلالة كمية ، ففي خلال عشرين عاما نقل ملايين الإفريقيين إلى الأمريكتين ، وكان هذا الكم الضخم ، مقترنا بعجز العالم الجديد عن امتصاص السكان الزنوج في نسيجه الاجتماعي ، هو مبعث مشكلاته الاجتماعية والمعنوية .

(٢٠) «وكان عدد من الأسرى النصرى يقومون بخدمات في بلاط الشريف (السعدى) ، ورافقوه في رحلته ، وكان صغار الزنوج وكبارهم يتهافون على رؤيتهم والتحدث معهم ، معتقدين أنهم أعجوبة الخلائق البشرية ، وعلما أن بعض رجال حاشية الشريف أذاعوا في وسط القوم ، وبغية بث الخوف في قلوب الأسرى المسيحيين ، أن هؤلاء النصرى يأكلون اللحم البشرى ويمزقون أجساد ضحاياهم بمخالبهم وأسنانهم . » مارمول ، إفريقيا ، الترجمة العربية ، المجلد الثالث ، الصفحة ٢٠٢ .

والرق كمؤسسة لم يكن جديداً على أوروبا . فالتجار الأثرياء فى شمال إيطاليا كانوا يستوردون فتيات فى الثالثة عشرة والرابعة عشرة من مناطق التتار البعيدة ليتخزنوهن خادماً أو محظيات . وقد أسر أحد القباطنة البرتغاليين الأوائل ٢٣٣ فرداً من إفريقية ، كان بعضهم أسود البشرة مثل الإثيوبيين ، والبعض الآخر أبيض البشرة كالأوروبيين . ومع ذلك فإنه حتى نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر لم تكن هناك تجارة منظمة فى الرقيق . فأزورارا ، على سبيل المثال ، يذكر أنه فى خلال حياة الأمير هنرى لم يجلب إلى البرتغال إلا قرابة تسعمائة من الرقيق . وبسبب ما قام به المبشرون اليسوعيون من منع استخدام الهنود الأمريكيين كعمال فى المزارع التجارية ، عمد الاستعماريون إلى جلب الرقيق الزوج إلى جزر الهند الغربية وأمريكا ، بيد أنه طوال هذه الفترة كان الرقيق يجلبون فى أعداد صغيرة إلى أسبانيا والبرتغال . وكما يقول أزورارا فإنهم «كانوا يقومون بتعليم الحرف الميكانيكية لمن يجلبونهم فى سن الشباب ، كما كانوا يمنحون الحرية لمن يرون فيهم استعداداً لكسب عيشهم ، ويزوجونهم بنساء البلد ويعطونهم أملاكاً» . وكان الغرض من ذلك هو استخدام أسراهم من الإفريقيين كعمال زراعيين ، إذ أن شبه جزيرة أيبيريا قد أقفرت من سكانها فى أثناء صراعها ضد المغاربة . وأكثر هؤلاء الرقيق مهارة أصبحوا أصحاب حرف . وهكذا فإن الطبقات الدنيا من سكان شبه الجزيرة ، فى الفترة ما بين اكتشاف غرب إفريقية وبداية شحن الرقيق إلى أمريكا ، كانت تحقق باستمرار بالدم المغربى والزنجى .

فهل اللوم فى ذلك يقع بأكمله على الأوروبيين وحدهم ؟ لقد قام الإفريقيون بدور نشط فى هذه التجارة ، بل يمكن القول إنه دور بارز . كما كان لظهور داهومى وأشانتى كدولتين استبداديتين ، والصراع فيما بين ممالك اليوروبا المختلفة ، علاقة بأرباح التجارة . فأشانتى وداهومى كانتا تواقبتين إلى إقامة اتصال مباشر مع الأوروبيين بحيث تستطيعان الاستئثار بأرباح الوسطاء . إن ليقربول وپرستول ليستا وحدهما اللتين تعاظم ثراؤهما من دم الرقيق ، وإنما

تعاظم ثراؤها منه أيضا الدول الإفريقية التي تقتنص رعاياها وتأسرهم وتبيعهم رقيقا يكدحون بعيدا عن أوطانهم .

وجدير بنا أن نتذكر أن العرب ربما كانوا حتى أكثر أهمية في تجارة الرقيق من الأوروبيين . فالدول الإسلامية في السودان كانت ترى في اقتناص الوثنيين ممارسة عادية ، وربما تجد مشاعر المسلمين أفضل تعبير عنها في كلمة أمير كوتتاجورا^(٣١) «كيف يمكن لقط أن يكف عن صيد الفئران» . غير أن الرق في الدول الإسلامية كان مختلفا ، ذلك أن ابن الجارية من رجل حر يصبح حرا ، ومن ثم فإن الجوارى اللاتى كن يشكن العنصر الرئيسى في تجارة الرقيق إلى الشرق الأدنى كان يتم امتصاصهن بسهولة في النسيج الاجتماعى . ويقول أحد المصادر إن السبب الذى كان العرب من أجله يفضلون الفتيات الزنجيات فى حريمهم كمحظيات وخادمات هو أن البشرة السوداء تحتفظ فى أشهر الصيف بطراوتها وبرودتها ، وتلك ميزة تفتقدها النساء العربيات . كذلك لم يصبح الرقيق أبدا مشكلة اجتماعية فى الشرق الأدنى أو فى شمال إفريقيا ، ومرجع ذلك أنهم كانوا يستخدمون أساسا إما خدما فى المنازل أو جنودا فى الجيوش ، مثل الفصائل الزنجية فى جيش مولاى أحمد سلطان مراكش ، أو كانوا من الخصيان والموظفين المدنيين ، كما فى جميع بلدان الشرق الأدنى . وقد اختلط هؤلاء الرقيق بالرقيق القادمين من البلقان والقوقاز ، كذلك لم يظهر أبدا فى أى من هذه البلدان شعور بأن الإسلام يستحل استرقاق الزنوج . فمن كان يمكن أن يباع كرقيق هو غير المؤمن ، أبيض البشرة كان أو أسودها .

ومن السمات المميزة الأخرى للرق فى الشرق الأدنى هو أنه كان أساسا أحد مظاهر البذخ ، بيد أنه فى الأمريكتين كان له أساس اقتصادى وطيد : فالرقيق كانوا يجلبون أساسا للعمل فى المزارع التجارية . ولذلك فإن الزنوج فى الشرق قد امتصوا فى السكان المحليين ، إذ لم يكونوا يشكلون مجموعة عرقية ، كما أن اعتناقهم للإسلام كان يحل أية مشكلة اجتماعية .

(٣١) كوتتاجورا : إحدى إمارات الفولانى فى شمال نيجيريا .

كذلك لم يكن الرقيق سلعة تباع فقط للأجانب ، ففي إفريقيا بدورها كانت توجد سوق كبيرة للرقيق . وقد ترتب على عدم وجود حيوانات الجر ، سواء كوسيلة للانتقال أو للأعمال الشاقة ، أن أصبح استخدام البشر من ضروريات الحياة ، فى حين أن الحيوانات لم تكن تستخدم إلا فى البلدان التى تتوفر بها . وقد قام الاقتصاد الزراعى كله على الرق ، حيث لم يكن يوجد عمال أجراء ولا فلاحون يربطهم بالأسياذ نظام للمزارعة . ومن أجل الحصول على العمال اللازمين لحقل شخص ما ، أو لمنطقة أدخل فيها نظام الطوائف المهنية ، كان لابد من اقتناص الرقيق ، فينقض القناصة فى المساء على قرية أمنة ، يأسرون شبابها ويقتلون شيوخها . وكانت الدول الكبيرة ، بل الصغيرة أيضا ، تنظم حملات فى المناطق المجاورة للحصول على الرقيق ، وعندما اشتد الطلب على الرقيق كان المجرمون المدانون بالزنا والشعوذة والقتل يباعون كرقيق . وشاع فى الأيام الأخيرة أسلوب آخر هو القبض على أى مدين عجز عن سداد دينه ، وإذا تعذر القبض عليه فإنه يمكن القبض على أقاربه ، بل حتى على رجال قريته .

ومع ذلك ارتبط التطور الحقيقى لتجارة الرقيق بنمو المزارع التجارية فى جزر الهند الغربية . وهكذا فى عام ١٥١١ قام برلمان بوربو بتحرير الزوج الذين نزلوا هناك ، مع إشارة إلى أن فرنسا ، أم الحرية ، لاتسمح بأى رقيق . وكان مرجع هذه المشاعر «المهذبة» أنه لم يكن لفرنسا حتى ذلك الوقت مصلحة راسخة فى تجارة الرقيق . ولكنها سرعان ما أذعنت لقانون الضرورة الاقتصادية . فلم يكذ يمضى قرن واحد حتى طالب مجلس الدولة فيها بفرض رسم مقداره خمسة فى المائة على كل رقيق . وهكذا أدت الضرورة الاقتصادية بفرنسا ، مثلما أدت بغيرها ، إلى الانغماس فى تجارة الرقيق .

فما المزايا التى كان بلد ما يستخلصها من تجارة الرقيق ؟ فى عام ١٧٨٨ أعلنت لجنة التجار الذين يمارسون التجارة مع إفريقيا ما يلى : «ولكن آثار التجارة على بريطانيا العظمى مجزية للغاية فهى من حيث آثارها المباشرة . تستخدم قرابة ١٥٠ سفينة تنقل سنويا فى هذا البلد شحنات تزيد قيمتها على

مليون جنيه ، وتشكل مصنوعاتنا الجانب الأكبر من هذه الشحنات ؛ أما من حيث آثارها البعيدة فلا يكاد يوجد فرع من فروع التجارة نو أهمية لهذه الأمة لا يستخلص منها المزايا . وكان هذا بطبيعة الحال خلاف الأرباح من المزارع التي هي ثمرة عمل الرقيق الإفريقيين . كما أن إيريك وليامز ، وهو كاتب من أبناء جزر الهند الغربية يشغل الآن^(٣٢) منصب رئيس الوزراء في ترينيداد ، يقول عن حق إن نشأة الرأسمالية في أوروبا الغربية ترتبط ارتباطا وثيقا بأرباح تجارة الرقيق .

وقد نشأ نظام توريد الرقيق على نطاق واسع عندما أقدم فيليب الرابع ، ملك أسبانيا ، في عام ١٦٤٠ على منع كل تجارة مع البرتغال . فحتى ذلك الوقت كان التاج الأسباني ، الذي كان يسيطر على كل من الأمريكتين وساحل إفريقية الغربى ، قادرا على تزويد الأسواق بحاجتها من تدخل خارجي . ومع استقلال البرتغال أصبح توريد العمال مشكلة حادة ، ومنح الملك الأشييين^(٣٣) لإثنين من أبناء جنوا لم يكن باستطاعتها الوفاء به إلا عن طريق تعاقدات واسعة النطاق من الباطن . وأصبح الأشييين موضوع نزاع بين الدول وأحد منجزات بريطانيا الرئيسية ، إذ أن معاهدة أوترخت كانت الضمان للأشييين .

وكانت تجارة الرقيق تنمو بسرعة مع ارتفاع قيمة جزر السكر في أعين الأوروبيين ، ووصلت الأرقام إلى متوسط سنوى يتجاوز مائة ألف . وحتى بعد

(٣٢) وقت صدور الكتاب بطبيعة الحال .

(٣٣) الأشييين : كلمة أسبانية معناها التزام بالضرائب أو عقد ، وقد أصبح لها رنين سيئ بسبب معاهدة الأشييين في عام ١٧١٣ . فبعد قيام أسرة بوربون الملكية الأسبانية في عام ١٧٠٠ تأسست شركة فرنسية حصلت على الامتياز المطلق لتجارة الرقيق الأسبانية - الأمريكية . وفي معاهدة «أوترخت» للسلم طالبت الحكومة البريطانية بالاحتكار . وتبعاً لذلك خولت معاهدة «أشييين» للرعايا البريطانيين إدخال ١٤٤ ألفاً من الرقيق إلى سوقى پورتو بيللو ولافيراكروز ، وهو حق أسئى استخدامه . وبحجة تجديد أحكام هذه المعاهدة بدأت تجارة تهريب واسعة النطاق ، ونشأت خلافات كثيرة أعلنت الحرب بسببها في عام ١٧٣٩ . وبموجب معاهدة أخرى وافقت الحكومة البريطانية على تجميد معاهدة «أشييين» كدية مقابل أن تدفع أسبانيا مائة ألف جنيه .

انسحاب البريطانيين والفرنسيين من تجارة الرقيق ، لم يتناقص كثيرا عدد الإفريقيين الذي يباعون فى أسواق الرقيق ، كما يتبين من الأرقام التالية :

	١٠٠٠٠	١٧٨٨
متوسط سنوى	٨٥٠٠٠	١٧٩٨ - ١٨١٠
شرحه	٩٣٠٠٠	١٨١٥ - ١٨١٠
شرحه	١٠٦٠٠٠	١٨١٩ - ١٨١٥
شرحه	١٠٣٠٠٠	١٨٢٥ - ١٨١٩
شرحه	١٢٥٠٠٠	١٨٣٠ - ١٨٢٥
شرحه	٧٨٥٠٠	١٨٣٥ - ١٨٣٠
شرحه	١٢٥٠٠٠	١٨٤٠ - ١٨٣٥
	٦٤٠٠٠	١٨٤٠
	٦٥٠٩٧	١٨٤١
	٢٨٤٠٠	١٨٤٢
	٥٥٠٦٢	١٨٤٣
	٥٤١٠٢	١٨٤٤
	٣٦٧٨٥	١٨٤٥
	٧٦١١٧	١٨٤٦
	٨٤٥٣٦	١٨٤٧

ويرجع الانخفاض أساسا إلى أن جزءا من الأسطول البريطانى كان يتجول فى القرن التاسع عشر على طول ساحل إفريقية الغربى بهدف منع التجارة . فضلا عن ذلك فإن هذه الأرقام لا يمكن مقارنتها بأرقام التجارة فيما بين عامى ١٧٠٠ و ١٧٨٠ ، لأن هذه هى الفترة التى وصلت فيها قوة أصحاب المزارع التجارية إلى ذروتها . وكما أعلن بت^(٢٤) فإن الدخل السنوى الذى حصلت عليه بريطانيا من جزر الهند الغربية فى عام ١٧٩٨ وصل إلى أربعة ملايين من الجنيهات ، مقابل مليون واحد من التجارة مع بقية العالم . وتفيد تقديرات سيرچوسيا تشايلدز أن كل بريطانى يقيم فى جزر الهند الغربية «يوفر مع السود العشرة الذين يعملون معه ، بعد استبعاد مآكلهم واستخداماتهم واستهلاكهم ، وظائف لأربعة رجال فى إنجلترا» .

(٢٤) ولیم بت . رئيس وزراء بريطانيا فى ذلك الوقت .

وإلى جانب الأرباح من جزر الهند الغربية فقد أفاد الأوروبيون من التجارة مع غربى إفريقيا أيضا . فما نوع البضائع التى كانوا يبيعونها للإفريقيين ؟ لقد كان هناك نظام معقد للتجارة ؛ وأحصى **يوزمان**^(٣٥) فى كتاباته فى نهاية القرن السابع عشر مائة وخمسين سلعة مختلفة تبادلتها التجارة مع منطقة ساحل الذهب وحدها . وتنوعت الأصناف من المنسوجات القطنية والصوفية إلى الحلى والرصاص والسيوف والبنادق والبارود . وكان ربع الشحنات المرسلة إلى غمبيا يتكون من قصبان حديدية . وفيما بين أنجولا وساحل الذهب كانت المنسوجات الهندية تشكل الجزء الأكبر من التجارة . ويشير آدمز وباريوت^(٣٦) إلى مختلف أنواع المنسوجات المرغوب فيها . كما أن المنسوجات الهندية كانت هى الأصناف السائدة حتى بداية القرن التاسع عشر ، بيد أنه بعد الثورة الصناعية فى إنجلترا أصبحت المنسوجات تُصنع فى لانكشير ، وإن احتفظت بالأسماء والنقوش الهندية . وربما كان أعظم شاهد على مهارة العمال الهنود هو الأسماء والتشكيلات الواردة فى هذه القوائم – البيبوتابوليس ، الرومالس ، اللينجيس ، الكاستوز ، التشيلوز ، وكثير غيرها ، وقد حُرِّفَ بعض هذه الأسماء بحيث لا يكاد يبدو أنها هندية .

ويؤكد رينتشنون ذلك ، كما يعدُّ على النحو التالى الأصناف التى كان الإفريقيون يطلبونها من الفرنسيين : (١) الحرير الهندى ؛ (٢) الأسلحة والبنادق والمدافع والبارود ؛ (٣) وفى مقدمة كل ذلك الخمر ، «ماء الحياة» ؛ (٤) المرايا والسكاكين ؛ (٥) الأوانى الزجاجية ؛ (٦) المنتجات المرجانية . وقد وصف كاتب إفريقى أسلوب التجارة بقوله « إن المحطات أو الوكالات التجارية هى قواعد

(٣٥) وايم يوزمان : توفرت لديه خبرات ومشاهدات خاصة بوصفه الوكيل التجارى الرئيسى لشركة هولندية مقرها فى إلينا . أرسل عشرين خطابا إلى صديق له فى هولندا تضمنها كتاب بعنوان *New and Accurate Description of Guinea* ، نشر فى لندن فى عام ١٧٠٥ .

(٣٦) جون باريوت : ينتمى إلى القرن السابع عشر . عمل وكيلا للشركة الفرنسية الإفريقية . قام برحلتين على الأقل فى غرب إفريقيا فى الفترة ١٦٧٨ – ١٦٨٢ . له كتاب بعنوان *A Description of the Coasts of North and South Guinea* ، نشر فى لندن لأول مرة فى عام ١٧٣٢ .

لاغنى عنها للعمليات التجارية . وهى ما إن تقام ، ثم يزداد عددها ، حتى تنتشر التجارة على نحو أفضل كثيرا . فالسفن المحملة بالبضائع الأوروبية كانت إما تحمل معها التجار اللازمين أو تزود التجار الموجودين ببضائع يتجرون فيها . وكانت الأصناف التى ينبغى مبادلتها بالرقيق مختلفة ومتعددة ، ومن بينها الأوانى المصنوعة من النحاس أو القصدير ، صناديق الخرز العاجية المختلفة الأحجام ، البنادق والبارود ، والمشتريات الروحية والويسكى والبراندى والروم .

فماذا كانت آثار هذا التغلغل الأوروبى على ساحل إفريقية الغربى ؟ لقد نشأت فى المقام الأول طبقة من المولدين والمسيحيين الوطنيين ادعت لنفسها حق التمتع بمزايا خاصة . وقد أعترف بطبقة كهذه فى دول مثل داهومى . وقد انتمى إلى هذه الطبقة فالنتين مندريس ، أحد قباطنة السفن ، كما انتمت إليها أسرة دى سوزا صاحبة الدور الهام فى تاريخ داهومى الحديث . فضلا عن ذلك خلقت التجارة طبقة من أمراء التجارة الوطنيين ، مثل چاچا ونانا ، وبولاً - مدينة مثل براس وبونى اللتين لم تكونا قادرتين فقط على الوقوف فى مواجهة الأوروبيين ، بل على مزاحمتهم فى ميدانهم أيضا . وفى دلتا النيجر أدى الاتصال بالأوروبيين إلى نمو نظام البيوت التجارية ، وهو مزيج من التجارة والسياسة جعل من هذه المدن الإفريقية صورة مصغرة للدولة - المدينة فى إيطاليا . بيد أنه أدى قبل كل شئ إلى ظهور الدول الاستبدادية التى كانت داهومى خير مثال لها . والغرض هنا كان التجارة أيضا ، ولكن لما كانت هذه الدول غير واقعة على الساحل فقد أقامت حكما استبداديا يمكنها من التحرك فى اتجاه الساحل لإقامة علاقات تجارية مباشرة مع الأوروبيين . وثمة نتيجة أخرى هى أن قوة الدولة بأكملها أصبحت موجهة للحصول على الرقيق . ولم تكن هذه قوة سياسية واقتصادية فقط ، وإنما قوة روحية أيضا - مثل أرو تشوكو لونچ چوچو - استخدمت لصالح تجارة الرقيق . وكانت محصلة كل ذلك هى الانهيار التام لمعنويات المجتمع .

وكان الاعتبار الثانى - ولعله أكثر الاعتبارات أهمية - هو أنه مادامت التجارة فى البشر هى المصدر الرئيسى لرخاء غرب إفريقيا ، فقد انعدم الحافز على تنمية أى مجال من مجالات الإنتاج . وهكذا أسفرت تجارة الرقيق عن قتل الحوافز ، وإعاقة التنمية الصناعية والزراعية . فمن حيث الزراعة يمكن أن نلمس ذلك جيداً من السياسة التى انتهجها البرتغاليون تجاه شجرة زيت الشيئة^(٣٧) الذى كان أحد العناصر الهامة فى تجارة داهومى الداخلية . وبسبب خشية البرتغاليين من أن يكتسب أهمية فى تنمية التجارة المشروعة ، ومن ثم يحدث تأثيراً ضاراً على تجارة الرقيق ، فقد حملوا الملك على فرض رسوم باهظة على أشجاره ، وعندما فشلت الرسوم فى تحقيق الغرض اقنعوا الملك ، وهو صاحب مصلحة مماثلة فى تجارة الرقيق ، باقتلاع الأشجار .

وكانت النتيجة الثالثة للاتصال بالأوروبيين هى الإحساس العام بعدم الأمن . ذلك أن المرء إذا عاش فى دعر من أن يقبض عليه جاره ويبيعه فى سوق الرقيق فإنه يفتقد الشعور بالأمن ، وهو الأساس الذى لا يقوم بدونه أى مجتمع . ولذلك أصبح الإفريقيون شديدي الإيمان بأن يعيشوا حاضريهم وبأن يتركوا غدهم وشأنه . وهذه العادة التى تعنى فى الواقع أن الإفريقى يأكل جيداً وقت جمع المحصول ويتضور جوعاً قرب نهاية السنة الزراعية كانت هى النتيجة المباشرة للغارات من أجل الرقيق ، وأن إفريقى ذلك العصر لم يكن باستطاعتهم أن يفكروا فى المستقبل .

(٣٧) أو شجرة أم القرن ، لها بذر يؤخذ منه دهن وزيد ، وربما يكون هو القرتى الذى أشار إليه ابن بطوطة فى تحفة النظار : «والقرتى هو ثمر كالأجاص شديد الحلاوة ... ويدق عظمه فيستخرج منه زيت لهم فيه منافع فمنها أنهم يطبخون به ويسرجون السرج ويقولون به هذا الأسفنج ويدهنون به ... » المرجع السابق ، الصفحة ٦٨٩ .

الفصل الثامن

أويو وظهور الدول الساحلية على المحيط الأطلسي

ربما كانت أويو ، دولة اليوربا ، بتاريخها الطويل الحافل الذى ظل دون تسجيل على خلاف تاريخ برنو والسودان الغربى ، أكثر دول غرب إفريقيا شهرة . فمجتمع اليوربا ، بفنونه ودينه ، يقف على قدم المساواة مع أكثر المجتمعات والفنون والأديان مدعاة للإعجاب فى الجزء الغربى من بلاد السودان . كما أن الأشغال البرونزية وأعمال الحفر على الخشب لدى اليوربا والبينى^(١) تعد من أروع أعمال الإبداع الفنى فى غرب إفريقيا . ومع ذلك فنحن لا نعرف سوى النزر اليسير عن حضارة اليوربا أو تنظيمهم الاجتماعى ، ولذا فإن ما نقدمه يمكن أن يكون شديد الإيجاز .

وقد تناولنا الأبحاث الخاصة بأصول اليوربا فى فصل سابق بشىء من الإسهاب . واليوربا كانوا فى بداية تاريخهم إما أتباعاً للنوبى أو لإحدى القبائل الخاضعة لتلك الإمبراطورية . وفى القرن الثانى عشر قام أمير من البورجو^(٢) بإسمه أودوداوا بغزو المنطقة ، وبنى دولة مستقلة ، وكان ذلك بداية أويو .

(١) البينى : مجموعة قبلية إفريقية ، ذات روابط لغوية وثقافية وثيقة تقطن غرب النيجر الأدنى . كان لهم وقت وصول البرتغاليين إلى الساحل النيجيرى إمبراطورية ذات مستوى ثقافى وتنظيمى عال .

(٢) البورجو : (أو الباربا) منطقة داخلية فى غرب إفريقيا . ربما يكون اسمها مشتقاً من الحشائش المائية المسماة « بورجو » والمعروفة بقيمتها الغذائية العالية للماشية . مع مجىء الاستعمار تنازع عليها الفرنسيون والبريطانيون فقسمت بينهم ، ولذا نرى الجزء الغربى منها يقع فى داهومى ، والشرقى فى إيلورين بنيجيريا . تحيط بها أراضى اليوربا من الجنوب .

ولما كانت أسرة بورجو الحاكمة وثيقة الارتباط بالنوبى ، فإن التزاوج فيما بينهم كان أمراً شائعاً ، وقد تزوج أورانيان ابن أوبوداوا بأميرة من النوبى . وفى ذلك الوقت كانت البلاد مكونة من غابات كثيفة ، وكان حكامها الأوائل خبراء فى الصيد واقتفاء الأثر . وبسبب كثافة الغابات كان اليوربا يتجمعون فى قرى صغيرة سرعان ما أصبحت مدناً . وخلف أوبوداوا ابنه أورانيان الذى حقق شهرة أكبر . وكان أورانيان أصغر أبناء أوبوداوا السبعة ، وقد توج الستة الآخرون رؤساء أيضاً ، ولكن الألفين (حاكم) أويو أعترف به كرئيس لدولة اليوربا . وخلف أورانيان ابنه أچاكا الذى عمل بالفعل كنائب للملك عندما ذهب أورانيان إلى بنين . وكان أچاكا أميراً هادئاً ، وأرغمة عمه أولوا على أن يدفع الجزية ، واعتزل بعد حكم دام سبعة أعوام ، وارتقى شانجو العرش ووجد أن أويو يسيطر عليها الأولويو - كورو الذين لن يسمحوا له بدخول عاصمته ، ولكنه تمكن من دخولها عن طريق الاختيال . وشن طوال الأعوام السبعة التالية ، بمساعدة أصحابه من النوبى ، حرباً ضد رؤساء اليوربا المتوجين الآخرين حتى اعترفوا لأويو بالزعامة . وبعد هذه الأعوام السبعة انسحب إلى الغابة وشنق نفسه . وعاد أچاكا إلى العرش وكرس كل اهتمامه لطرد النوبى ، وحالفه التوفيق فى ذلك .

ولفترتى حكم أچاكا وشانجو أهمية كبيرة فى فهم تاريخ اليوربا المبكر . وقد كان لحكام اليوربا ، على غرار الشعوب البدائية فى أماكن أخرى ، مدة حكم محددة - سبعة أعوام . وكان أچاكا مصلحاً ينشد أن يجعل من الملكية قوة مركزية فى بلاد اليوربا . لذلك كان من الضرورى إلغاء فترة الأعوام السبعة . وعلى الرغم من أنه كان يحظى بتأييد قوى بين النوبى ، فإن العناصر المختلفة ، فى ارتباط بالنوبى ، لم تسمح بتحطيم الأعراف . فاعتزل أچاكا ، ولكنه لم يقدم على الانتحار . وخلفه شانجو الذى حاول بمساعدة النوبى إخضاع الرؤساء الذين ساندوا أچاكا . وكان حكمه الذى استمر سبعة أعوام فترة حروب متواصلة ضد رعاياه . وبعد انقضاء الأعوام السبعة احتفل بذهابه إلى الغابة وشنق نفسه هناك . وشانجو هو آخر حاكم حافظ على فترة الأعوام السبعة ، ولذلك رفع إلى

مصاف الآلهة . أما أچاكا الذى كان يعيش فى هدوء بعد فترة الأعوام السبعة الأولى ، فقد أصبح ملكا للمرة الثانية ، وطرد أتباع شانجوشن الحرب ضد النوبى ، وأخيراً أكد استقلال اليوربا .

غير أن أتباع شانجو استقروا فى مكان يدعى أوجو ، وأخذوا بعد فترة يفسون إلى إيفه ، مدينة اليوربا المقدسة ، من أجل التجارة ، حيث استقبلوا بحفاوة شديدة ، وحملوا معهم عبادة شانجو ورغبوا فى الاحتفال بعيده . ولكن أونى (حاكم) إيفه طردهم تحاشياً لوقوع حرب أهلية ، وإن كان ذلك قد أدى بالفعل إلى الحرب الكبيرة فى تاريخ اليوربا المبكر - حرب الموديكي . وفى البداية كان النصر حليف أونى إيفه ، ولكن أوجو انتصرت فى النهاية ، وقبل شعب اليوربا بأسره عبادة شانجو .

وبوفاة شانجو انكسرت عادة ارتقاء العرش لمدة سبعة أعوام . وطوال الفترة بين القرنين الحادى عشر والثامن عشر واصل اليوربا توسيع سلطتهم ، وإن يكن مع تقلبات كبيرة . غير أن أويو لم تكن مملكة مركزية . فبنين مثلاً أسسها أناس من أويو ، وأسرتها الحاكمة فرع من أسرة أويو . واستمدت سلطتها الملكية من الهيئة التى أرسلها حاكم أويو ، ولكنها كانت مستقلة سياسياً . وبالمثل كانت دولة داهومى تابعة لأويو ، وما دامت الجزية تدفع والتجارة مستمرة ، فإن أويو تدع الأمراء المحليين وشأنهم .

ولم يكن اليوربا مجموعة عرقية واحدة ، بل كانوا تنوعاً من قبائل توحد بينها الأعراف الحضارية للمجموعة الحاكمة . وكانت معابدهم ومراتبهم الاجتماعية شبيهة بمثيلاتها عند الهنود ، وتعتبر المجموعات القبلية المختلفة أعضاء فى مجتمع اليوربا شريطة اعترافها بسلطة أونى إيفه الروحية وسلطة الألافين (الحاكم) السياسية . والنتيجة أن اليوربا كانوا على غرار الهوسا نظاماً للحكم أكثر منهم دولة واحدة . ولكن بينما كانوا يفتقرون إلى سلطة مفردة ، فإن سلطة الأونى الروحية وسلطة الألافين السياسية لم تكونا محل نزاع . كذلك لم يكن من أمور السياسة أن تتعرض الدول البعيدة عن المركز للغزو . فأى قائد ساخط يعلم

أن ثمن الفشل هو فقدان حياته كان يفضل أن يقيم لنفسه دولة جديدة على أن يتراجع . وبالمثل يستطيع الأمير غير المدرج في تسلسل وراثته العرش أن يؤسس دولة جديدة ، ولا يطلب منه أكثر من أن يخطر الألافين ، وبمرور الوقت يرسل حاكم أو يو هيئة السلطة ويتم الاعتراف به كحاكم شرعى لتلك المنطقة .

والحكام لم يكونوا مستبدين ، فسلطتهم تخضع لرقابة كبار موظفى الدولة الذين يتولى بعضهم مناصبهم بالوراثة ، وكذلك لرقابة رؤساء العشائر ، وقبل كل شىء **الجمعيات السرية**^(٢) والكهنة . وكان كهنة شانجو مجموعة قوية شأنهم شأن جمعية أوجبونى أقوى الجمعيات السرية لدى اليوربا . وإذا لم يكن الحاكم سهل الانقياد ، فإن الجمعية تستطيع دائماً إرغامه على الانتحار بأن ترسل له ببض الببغاء . ونظراً لقدسية شخص الحاكم ، فإن إراقة دمه تعتبر عملاً مقدساً ، وإذا لم يذعن الملك لاقتراح الجمعية بالانتحار ، فإن الخنق يكون الحل الأخير . ولكن لما كان الملك مهيباً بالمثل لهذه الظروف ، فإن هذا الإجراء كان نادراً ما يحدث .

وتنظيم الدولة عند اليوربا بسيط للغاية . فالألافين يحظى بالاحترام على غرار الامبراطور الرومانى المقدس ، ولكن الشعب لا يرغب فى طاعته إلا عندما تكون لديه القوة الكافية لإملاء إرادته . وللألافين حرسه الخاص ، الإيشو ، ووكلاؤه ، الإيلارى ، الذين يجمعون له القبيلة بناء على أوامره . وفى أو يو فإن سلطته تحدها الأويوميسى ، وهى هيئة الرؤساء الذين يتوارثون رئاسة عشائر الأويو ؛ وفى المقاطعات يحكم البال أو الأوبا كأمير إقطاعى .

(٢) جمعيات ذات طابع دينى أساساً وتعتبر بمثابة الأرستقراطية الحاكمة ، وتكون فى بعض الحالات - مثل جمعية التندا فى إفريقية الاستوائية - الوسيلة الوحيدة للحكم . وهى تعمل على دعم القانون وتكون فى الوقت نفسه ضابطاً يحول دون قيام استبدادية كاملة . وفى إفريقية يوجد بوضوح ترابط بين الجمعيات السرية والهيكل السياسى للقبيلة . ومع تطور السلطة من المجالس المحلية إلى الأوتوقراطية القبلية كان هناك تطور مواز للجمعيات السرية فى إفريقية . وهى تتكون لدى البمبرة من جميع المراهقين المختونين ، ويتولى رئيسها حراسة المعبد وإدارة شؤون التراث القبلى . أما على ساحل غينيا فهى عبارة عن أندية خاصة لا تقبل فى صفوفها إلا من يصلح من الأفراد ، وتتمتع بنفوذ سياسى واجتماعى خطير . ووجدت فى داهومى جمعية شهيرة عرفت «بميثاق الدم» . وتعتبر الجمعيات الدينية فى إفريقية الاستوائية عشاً للجمعيات السرية .

ولكن الحاكم الحقيقى لم يكن البال أو الأوبا ، وإنما أعضاء جمعية « أوجبونى » الذين يتكونون من أكثر النبلاء نفوذاً فى المدن ، كما يشكلون البلاط ، وجعلوا من أنفسهم السلطة الحقيقية وأصحاب القرار فى المدن ، أما الأوبا فهو من الناحية النظرية الموظف التنفيذى الذى يعطى تلك السياسة قوتها . وقد تدعمت سلطة أعضاء الجمعية بسبب ما يشكلونه من هيئة انتخابية تقوم بانتخاب الأوبا من بين العشيرة الحاكمة .

وكان مما شجع الطبيعة الأوليجاركية لسلطة اليوربا أنهم كانوا أساساً سكان مدن ، إذ كانوا أكثر المجموعات التى تسكن الحضر فى إفريقية ، ومنظمين وفق نظام طوائف حقيقى . وكانت الصناعة ، حيث وجدت ، تقوم على الطائفة . وقد توفرت لهم حماية فعالة بفضل أسوار المدن وتركز السكان ، وكان معنى ذلك توفر الوقت لدى الطبقات العليا ليكرس أفرادها أنفسهم فى تفانٍ لشؤون الحرب والسياسة .

وقد اعتمدت قوة الامبراطورية على الحكام ، وتدعم بناء الدولة بفضل سلسلة من الحكام الأقوياء فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، وفى القرن السادس عشر قاد إديچى ، حاكم نوبى ، جيشاً إلى بلاد اليوربا ، وفى الجزء الأخير من هذا القرن كانت غزوات نوبى من العنف والتوفيق بحيث دمرت مدينـة أويو القديمة . وفى الفترة نفسها أدخل الحصان إلى بلاد اليوربا ، ربما من بلاد النوبى ، مما عزز قوتهم . وقد احتل النوبى أجزاء من بلادهم ، وشن أورومبوتو الحرب ضد بوسا ، ولكنه لم يوفق ضد النوبى . كذلك أخفق أجيبيوبيدى فى زحزحة النوبى من أويو ، ولم يتمكن من ذلك إلا بمساعدة أبيبا ، وفى نهاية الأمر تغلبت أويو على التهديد القادم من الشمال .

وكان البرتغاليون من أوائل الأوروبيين الذين عرفوا شيئاً عن حكام اليوربا ، ولكن معلوماتهم عن اليوربا لم تكن جديدة ، وقد حصلوا عليها عن طريق اتصالهم بالمناطق الساحلية . مثال ذلك أن باروس وباتشيو يشيران إلى ملك عظيم وقوى يدعى أوجانى حكم فى الداخل ، وكان يعتبر بين الزنوج « كالبابا بيننا » .

وقالا إن الوثنيين كانوا يحتفظون بالأوجاني في احترام وتوقير كبيرين . وكان حكام بنين يفعلون الشيء نفسه ، ويرسلون إلى أويو القضيب النحاسي الذي يعنى السلطة الملكية . وكان طبيعياً أن يعتقد البرتغاليون أن الأوجاني كشخص لا يقل أهمية عن « **پريسترچون** » الأسطوري^(٤) .

وبمقدم نهاية القرن السابع عشر استعادت أويو قوتها بعد فترة من التدهور ، واستطاعت بمساعدة الحصان هزيمة قوة الفون^(٥) الصاعدة . ويذكر بوزمان أن جيوش أويو وصلت إلى پورتونوفو^(٦) في عام ١٦٩٨ ، وتم إخضاع بلاد الفون . أما القائد الذي أخفق في العودة بملك الفون سجيناً فقد شنق . بعد ذلك أرسل ملك أويو جيشاً إلى بلاد البوسا^(٧) . وهكذا كانت أويو ، عند موت أوجيچي ، قد امتدت كثيراً في اتجاه الشمال والغرب . ومع ذلك ضعفت سلطة الألافين مع نمو سلطة الباسورون (رئيس الوزراء) والكافانكا (قائد الجيش) . وفي حوالي عام ١٧٢٥ استولى الباسورون جاها على السلطة الفعلية ، ومنذ ذلك الوقت أصبح المسؤولان الكبيران في الدولة ، الباسورون والكافانكا ، الحاكمين الفعليين للبلاد . وبذلك قبض الباسورون جاها على السلطة الفعلية في إمبراطورية يحدها النيجر شمالاً والبحر جنوباً وغرباً ، وتضم مملكة داهومي . وكان جاها في الحقيقة أول رجل من العامة يستولى على السلطة السياسية ، وظل يحتفظ بسلطته عن طريق تدبير اغتيال أسياده الملكيين . وقرب نهاية حياته استطاع

(٤) جون القسيس (پريسترچون) : انظر ، الحاشية ٧ - ١٥ أعلاه .

(٥) في داهومي الحالية عندما أعلن تاكوبونو ملكاً في أوائل القرن السابع عشر قام بتأسيس الأسرة التي حكمت داهومي حتى نهاية القرن التاسع عشر . وجرى العادة عند موت الملك أن يحنط جسمانه وينبع عدد من الناس للقيام بخدمته في الدار الأخرى . والصلة وثيقة عند الفون بين الإنسان والحيوان ؛ إذ يزعمون أن لكل إنسان شبيهاً وصنوا من الحيوان .

(٦) پورتونوفو : عاصمة داهومي ، ومركز تجاري رئيسي بها ، تقع بالقرب من كوتونو ميناء داهومي الرئيسي . كانت لها أسماء كثيرة ، وهذا الاسم هو الذي عرفت به لدى الفرنسيين . بها العديد من المساجد والكنائس .

(٧) بوسا : تقع على النيجر . أصبحت في عام ١٨٩٤ موضع منافسة بين إنجلترا وفرنسا ، وقام الفرنسيون بغزوها .

الحاكم أبرودون أن يحرز نصراً على الكافانكا وأن يهزم الباسورون . وأبقى أبرودون على السلطة الملكية ، ولكنها سلطة ظاهرية أكثر منها سلطة حقيقية . فالسلطة كانت بالفعل فى أيدي كبار موظفي الدولة . وكان تهديد الفولاني يلوح فى الأفق ، وأنيط بالكافانكا دور شرير فى تقويض قوة اليوربا .

بنين

كان البرتغاليون أول من وصل من الأوروبيين إلى ميناء جواتو العظيم ، حيث وجدوا مملكة مستقرة تمارس السلطة هناك . وكانت بنين فى عصورها الأولى دولة أوليجاركية يقسم زعمائها إلى ثلاث فئات ، يحتل المرتبة العليا بينها الأوزاما الذين يتوارثون مناصبهم ويتقدمون على الأسرة الحاكمة . وقد كانوا أمراء شبه مستقلين وظيفتهم الرئيسية تنصيب أويبا^(٨) جديد ، وكانوا هم النبلاء الذين دعوا أويو إلى إرسال أمير ليحكمهم ، كما يشغلون غالبية المناصب الرفيعة فى الدولة . وكان رؤساء المدن ، برغم كونهم أقل مرتبة ، أكثر فعالية وتأثيراً لأن مناصبهم لم تكن وراثية . وكان العسكريون والرؤساء الدينيون ينتمون إلى هذه الفئة . ويلى هؤلاء رؤساء القصر الذين كانوا رؤساء فى البلاط .

وكان الأوزاما أقوياء دائماً ، ويستطيعون فى جميع الأحوال تحدى السلطة الملكية . ومع ذلك فإن أى حاكم قوى باستطاعته دائماً أن يضرب مجموعة من الرؤساء بالمجموعة الأخرى ، ولكن الأوزاما والأمراء الملكيين الذين يملكون إقطاعات من الأرض باستطاعتهم إثارة المتاعب لأى حاكم ضعيف .

يقول مؤرخ بنين إن المملكة تأسست على أيدي الأوبا جوبو ، أحد أبناء أوبوداوا ، الذى أصبح حاكماً تحت اسم أوجيسو ، أى أن بنين تأسست على وجه التقريب فى نفس الوقت الذى تأسست فيه أويو . وقد قام أوجيسو ، بسبب مؤامرات زوجته

(٨) الأوبا : الاسم الذى كان يحمله ملوك بنين .

ذات الحظوة لديه ، بنفى ابنه الوحيد كالدرهان ، وهو عمل ندم عليه فيما بعد ، ولكن الأمير رفض العودة إلى بنين . وبعد وفاة أوجيسو سادت فترة من الفوضى ، وأوفدت سفارة إلى إيفه لطلب أمير آخر ، فأرسل أوداودا ابنا آخر من أبنائه هو أورنايان . وتزوج أورنايان بأميرة محلية وأنجب منها ولداً أسماه إيواكى ، وعندما شب إيواكى عاد أبوه إلى إيفه تاركاً إياه كاول أوبا لبنين . وفى عهده هو وخلفاؤه من بعده زاد النبلاء سلطتهم وكونوا إمبراطورية أوليجاركية ، فتصدى لهم إيويديو ، خامس حاكم لبنين ، وتمكن من تقليص سلطتهم . وعندما تبين له أن النبلاء المحليين بقيادة أوجياموى يعارضون الأسرة الحاكمة فى إيفه ، قام بنقل العاصمة ، وأوقع الهزيمة بالنبلاء الساخطين ، ومنع النبلاء من حمل سيوف الدولة ، وأرغمهم على الوقوف عندما يكونون فى حضرته . وقد خلفه ابنه أوجووتا الذى كادت بنين تحت حكمه أن تكون فى حالة حرب دائمة . وفى عهده قديم صناع البرونز من إيفه إلى بنين .

كانت بنين حتى ذلك الوقت دولة مستقلة ، وكانت قوة النبلاء المحليين قد تحطمت . وقد نظمت المملكة على أساس سليم مكنها من التوسع . حدث هذا فى عهد أوداجبيديو ، وفى أيامه وصل أهالى بنين حتى أكرأ ليقيموا لهم مستعمرات . ودام حكمه أكثر من خمسة وعشرين عاماً ، وامتد نفوذ الأوبوات فوق مناطق واسعة من نيچيريا الحالية . بيد أنه أصيب بالعرج ، وهى عادة تفقده أهليته للحكم ، فحاول إخفاء عاهته ، واعتاد أن يحمل إلى قاعة الاستقبال ، وكان دائماً أول من يصل إليها . وذات يوم اكتشف رئيس الوزراء عاهته ، فأرغم على الاعتزال . وبعد أوداجبيديو جاءت سلسلة من الحكام الضعاف ، حتى تولى السلطة إيويارى - الذى سُمى عن جدارة بالكبير - وذلك بقتل أخيه الأصغر الذى اغتصب العرش . وشغل إيويارى دائماً بالحرب . فلم يكن له هناك فقط أعداء أقوياء فى الخارج يتعين قمعهم ، بل كانت هناك أيضاً ثورات داخلية . وتم أيضاً إخضاع النبلاء الذين زادت سلطتهم فى عهد الملوك الضعاف . وتحت حكم إيويارى وصلت مملكة بنين إلى ذروة قوتها . ويشير البرتغاليون الذى زاروا بنين فى هذا الوقت إلى حاكم بنين على أنه السيد الأعلى لسبعة ملوك .

ولم يكن أيويارى فاتحا حربيا عظيما فقط ، وإنما كان أيضا مصلحا أدخل الحفر على الخشب وأشغال العاج إلى بنين ، كما أحضر إليها إيجبو غومياغن الذى اشتهر بحق بمهارته فى الحفر على الخشب ، وأدخل الإيزيكين ، وهى آله هوائية . وفى عهده أقام الأوروبيون أول اتصال لهم مع بنين ذات الأهمية لهم بسبب إنتاجها من الفلفل . وكان من شأن النفوذ الأوروبى أن يحدث ثورة فى مجتمع المناطق الساحلية ، ولكن تأثيره فى بنين لم يكن بنفس درجته فى داهومى وأشانتى .

وبعد وفاة إيويارى دبَّ الضعف فى أوصال المملكة ، فالأوتوقراطية التى أقامها تحتاج إلى حاكم قوى ، ولم يكن أحد ممن خلفوه حاكماً من ذلك الطراز . فقد حكم خليفته إيزوتى أربعة عشر يوماً فقط . وبعد وفاته قام الأمير أوكبامى بقتل ابن إيزوتى وزوجته ذات الحظوة كى يستولى على العرش . ولكن قسوته أرغمت الشعب على طرده ، ورفض أولوا ، الابن الثانى لإيزوتى ، العرش خوفاً منه . عندئذ عرض الصولجان على ابنة إيزوتى الكبرى ، بيد أن شكوى نسائية وقفت فى طريقها . وأرسى شعب البينى فى ذلك قاعدة تقضى باستبعاد النساء من الحكم . وهكذا راح العرش يستجدى من يجلس عليه . وكان أوكبامى غير محبوب للمرة بين النبلاء الذين أثروا بقاءه بعيداً عن السلطة العليا . وأخيراً تمكن النبلاء من إقناع أولوا بقبول التاج ، غير أن حكمه لم يدم طويلاً ، وعند وفاته قرر النبلاء ، حرصاً على إبعاد أوكبامى عن العرش ، إلغاء الملكية ، وأقاموا نظاماً أوليجاركياً .

وأدى ضعف بنين إلى تعرضها للغزو ، وقام العامة الذين لم يكونوا يحبون النبلاء الكبار بدعوة أوكبامى للعودة ، وتوجوه ملكاً ، واتخذ لنفسه اسم أوزولوا . وواجهته فى حكمه مهمتان : أولاهما ، قمع النبلاء الذى زادت سلطتهم بدرجة هائلة : ثانيتهما التصدى للغزو الأجنبى . واستقر رأيه على ضرورة سحق هذه الغزو ، وبعد أن ترك عاصمته للنبلاء الثانى خرج لمحاربة إيوو . وطال أمد الحرب دون نتيجة ، فطلب مدداً من بنين ، ولكن النبلاء لم يكونوا حريصين على

مساعدته ، ورفضوا نجاته ، فوقع أسيراً فى أيدي إيوو ، بيد أنه تمكن من الهرب ، وفى نهاية الأمر ألحق الهزيمة بمعارضيه . وكان لأوزلوا عدو خارجي آخر ، هو زعيم الإديجا . وهنا أيضا كان النصر حليفه ، وخلال فترة حكمه اتسعت رقعة بنين بدرجة هائلة ، ولكنها حرمت من الهدوء الداخلى مثلما حرمت من السلم الخارجى ، إذ استمر يحارب جيرانه حتى مات بسهم مسموم فى موقعة إيشان .

وكان لأوزلوا ثلاثة أبناء يحقد كل منهم على الآخرين ، بيد أن أكبرهم مات قضاءً وقدرًا . أما الآخران فقد ولدا فى يوم واحد من أمين مختلفتين . وعلى الرغم من أن أروانران كان يكبر أخاه ببضع ساعات فإنه لم يكن الوريث الشرعى لأن أمه لم تخبر الأوبا بمولده قبل أم أوساوى . وهكذا أصبح أوساوى هو الوريث الشرعى . وكان أروانران شديد التأثير لأنه برغم كونه الأكبر سناً لم يكن الوريث الشرعى ، لذلك حاول أن يغتال أوساوى .

وعندما مات أوزلوا خلفه أوساوى ، وتوج تحت اسم إيسيچى . غير أنه واجه تحدى أروانران الذى أصبح رئيساً للأودو . وكان الأودو تواقين إلى تقليص سلطة المملكة ، فناصروا ادعاءات أروانران . وفى إحدى المواقع قتل ابن أروانران الوحيد ، فانتحر أبوه غرقاً من فرط حزنه عليه . واستتب السلم بضعة أشهر . بيد أن هدف الأودو كان تدمير سلطة بنين ، لذلك استمر القتال حتى تجرعوا هم مرارة الهزيمة كاملة على أيدي إيسيچى . ومع ذلك فقد تمكن حاكم الأودو من الفرار ، ولكنه طورد إلى أن أرغم على الاعتراف بسيادة الأوبا .

وإيسيچى هو المسؤول عن حرب الإيدا (١٥١٥ - ١٥١٨) ذات النوافع الغربية . فقد اعتاد أوليا ، وهو رئيس قبيلة مجاورة ، أن يزهو بأن زوجته ليست جميلة فقط ، وإنما عفيفة أيضا . وعلى الفور شرع إيسيچى بهمة زائدة فى إثبات أن السيدة ، ولو أنها جميلة ، ليس لديها كل هذا القدر من الفضيلة الذى يزعمه زوجها . وأرسل واحداً من أكثر حُجَّابه وسامة كى يوقع بها ، ووفق الحاجب فى مهمته بعد أن قدم لها هدايا ثمينة . ولم يقنع الأوبا بذلك ، بل أبلغ

الأمير منافسه بأنه زوج امرأة فاسقة . وأسر أوليا الأمر فى نفسه ، وأخذ يحيك المؤامرات مع الإيدا الذين قاموا بمهاجمة بنين . ولكنهم أخفقوا فى تحقيق أى نصر .

وخلال هذه الفترة تعرضت بنين لتغيرات كثيرة . فقد أسفرت غزوات حكامها منذ أيام إيويارى عن إخضاع عدد كبير من القبائل الخارجية التى امتصت بالتدريج . كما جلبت الغزوات عدداً كبيراً من الرقيق إلى بنين التى أصبحت مركزاً تجارياً كبيراً احتشد فيه التجار الأجانب . وكان إيويارى أول حاكم يقيم اتصالاً مع الأوروبيين . فقد قام روى دى سيكوير بزيارة بنين فى عام ١٤٧٢ ، ومنذ ذلك الوقت حتى منتصف القرن الثامن عشر كان الأوروبيون على اتصال مستمر بها . وكانت بنين أكبر مورد للرقيق الذين يؤسرون من قبائل الإيبو ، وقد رحب إيويارى بالأوروبيين لا إيماناً بدينهم ، وإنما بسبب البنادق التى يستطيع الحصول عليها منهم .

وفى أيام إيسيجى أصبح نفوذ البرتغاليين سائداً فى بنين . وقد أوفد إيسيجى مبعوثاً إلى لشبونة ، وعند عودته صحبه عدد من المبشرين . وفى عام ١٥٤٠ أرسل إيسيجى إلى ملك البرتغال صليباً من النحاس . وقد كتب نوارت بايرز إلى الملك ميشيل فى ٢٠ أكتوبر ١٥١٦ يقول « إنه صحيح تماماً أنى صديق لملك بنين ، وذلك لأن ملك بنين يصادق كل من يبلغه شيئاً طيباً عن سموكم . ونحن نتناول الطعام مع ابنه . وقد ابتهج ملك بنين كثيراً بوصول المبشرين ، وخرج المبشرون مع الملك إلى الحرب ورافقوه عاماً بأكمله ، ولم يكن باستطاعة الملك أن يفعل شيئاً حتى وضعت الحرب أوزارها ، إذ كانت لديه رغبة فى سلم » السر العظيم . « وقرب نهاية العام ، فى شهر أغسطس ، أمر الملك ابنه وإثنين من نبلائه العظام أن يتعمدوا ، كما بنى كنيسة فى بنين . وقد تعلموا القراءة ، وفعلوا ذلك جيداً . »^(٩) . ووجد الزوار الإنجليز بدورهم أن الملك يتحدث البرتغالية بطلاقة .

(٩) للاطلاع على النص الكامل (بالإنجليزية) لخطاب نوارت بايرز إلى ملك البرتغال فى ٢٠ أكتوبر ١٥١٦ ، انظر ، بازيل دافيدسون ، The African Past ، مكتبة بنجوين الإفريقية ، الصفحتين ١٩٠ و ١٩١ .

إن الفائدة الرئيسية التي عادت على بنين من اتصالها بالأوروبيين هي حصول حكامها على البنادق التي تيسر لهم غزو القبائل الداخلية . وفي عهد أورغوجبوا ، خليفة إيسيجي ، جردت حملة لغزو لاجوس إحدى مدن اليوربا . بيد أن الرؤساء نوى الأغطية البيضاء على رؤوسهم - حكام لاجوس التقليديين - ظلوا على قوتهم ، إذ أن التغيير في السلطة العليا لم يكن له أثر مادي على مركز لاجوس .

وعندما كان أورغوجبوا يغزو لاجوس ، تأمر عليه النبلاء وحاولوا أن يستبدلوا به ولي العهد . وتبين أورغوجبوا من التحقيق الذي أجراه أن ولي العهد ليس ملاماً ، ومع ذلك ألغى لقبه . وشن خليفته هنجبوندا حرباً مظفرة ضد الأويو . وتم تثبيت الحدود بين بنين وأويو على أنها بلاد إيكيتي . وكان خلفاؤه ضعافاً ، لذلك حدثت ثورات مستمرة بقيادة الأمراء الذين تجرئ في عروقهم الدماء الملكية . وظل لبنين مظهر الدولة العظيمة ، وكانت في النصف الأخير من القرن التاسع عشر على درجة من القوة تكفي لإرغام إبادان على الجلاء عن إيكيتي .

أشانتى (١٠)

كانت أشانتى وداهومى ، من نواح كثيرة ، مختلفتين عن بنين . فبينما كانت بنين من الناحية السياسية ، على غرار أويو ، أوليجاركية لا يكف النبلاء بداخلها عن التآمر ضد الملك ، كانت أشانتى وداهومى دولتين استبداديتين ، كما كانتا منظميتين من أجل الحرب وليس من أجل التجارة . لقد كانتا دولتين داخليتين شاغلتهما الأساسى هو الوصول إلى الساحل لإقامة علاقات مباشرة مع التجار الأوروبيين بحيث تستطيعان الحصول على البنادق والبارود بثمن رخيص ، وبيع الرقيق بون وسطاء . ذلك أن الوسطاء يمتصون غالبية الأرباح التي تحققها التجارة .

(١٠) الأشانتى : ينتمون إلى أسرة الأكان (انظر الحاشية التالية) . شكلوا آخر وأكبر مملكة من ممالك الأكان . يتكون منهم أحد الأقسام الإدارية الثلاثة الرئيسية في ساحل العاج (كوت دى ديفوار حالياً) . اتخذ ملكهم اسم « أشانتيهين » وعاصمتهم كوماسى .

واتبعت داهومي وأشانتى هذه السياسة بإصرار شديد ، واستطاعتا فى غضون القرن الثامن عشر بناء دولتين بمقدورهما الصمود فى وجه الغارات .

ويزعم الأشانتى ، على غرار القبائل الأخرى المنتمية إلى مجموعة الأكان^(١١) ، أن لهم أصلاً شمالياً . وتقول أساطيرهم إنهم قدموا من الصحراء ، بل إن الأكان حتى فى الوقت الحاضر يزعمون نوعاً ما من القربى لشعب چنى . وقد انتشرت قبائل الأكان المختلفة على امتداد منطقة تشكل اليوم بولتى غانة وساحل العاج .

وكان النمو فى أشانتى بطيئاً مقارنة بالدول القبلية المحبة للحرب ، وكانت دولة داخلية ليس لديها شريط ساحلى ، على حين أن الدول الواقعة على الساحل هى التى دخلت فى اتصال مع التجار الأوروبيين ، وتستخلص مزايا التجارة ، كما تقوم بدور الوسيط وتتمتع باحتكار فعلى لتوريد الرقيق . ومعنى هذا أن ما كان الأوروبيون يبيعونه من بنادق وبارود من أجل الحصول على الرقيق إنما يدعم تلك الدول التى هى على اتصال مباشر بهم . وهكذا أدى التدخل الأوروبى إلى الإخلال بتوازن القوى على الساحل . فقد زاد رؤساء المناطق الساحلية من قوتهم ، ومن ثم قدرتهم على المساومة ، على حساب رؤساء الداخل . وإذا كان ذلك لم يسفر عن سيطرة سياسية ، فمرجعه حقيقة أن اهتمام هؤلاء الرؤساء كان ينصب على التجارة فى المقام الأول ، وأنهم كانوا يسيطرون سيطرة فعالة على تجار المناطق الداخلية التى تنقل بحراً . وقد سيطرت كالابار^(١٢) وبراس^(١٣) وغيرهما من الإمارات الأوليجاركية الساحلية على تجارة المناطق الداخلية .

(١١) الأكان : أهم مجموعة عرقية فى غرب إفريقيا وموطنها ساحل العاج . كانت هجرتهم من الشمال عملية طويلة الأمد بدأت حوالى القرن الثانى عشر واكتملت حوالى عام ١٦٠٠ .

(١٢) كالابار : مدينة وميناء بالقرب من خليج غينيا . وهى الاسم الذى أعطاه المستكشفون البرتغاليون وقت وصولهم فى القرن الخامس عشر للقبائل التى تقطن ساحل غينيا . كان أهل كالابار يعملون كوسطاء بين التجار البيض على الساحل وقبائل الداخل ، واشتهرت بينهم جمعية الإيجبو السرية .

(١٣) براس : ميناء وموطن أوروبى على نهر براس أحد أفرع دلتا نهر اليئجر . أهالية يعملون وسطاء بين الميناء والداخل ، ولكن التجار الأوروبيين قيّدوا نشاطهم خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر . كانت البضائع تصل إلى الميناء على قوارب نهريّة لتنقلها السفن بحراً . قد يكون اسمها Brass مأخوذاً من الأدوات والفخاريات الحاسبية التى كان التجار الأوروبيون يبادلونها مقابل الرقيق وزيت النخيل .

ولم تكن أشانتي في موقع يمكنها من منازعة هذه الهيمنة المتفوقة . فقبل أن يستقر الأوروبيون كانت قبيلتا مامبروسى^(١٤) وداجومبا^(١٥) هما القبيلتان الأكثر قربى لدول السودان ، ولديهما خيالة ودروع تهيمن على المنطقة . وبعد وصول الأوروبيين أصبحت الدولتان السائدتان هما الدنكير^(١٦) التى تتحكم فى مناجم الذهب ، والأكامبو التى توفرت لها هيمنة كبيرة بفضل موقعها الجغرافى على امتداد طريق التجارة من الشمال إلى الجنوب . ويقدر من تنظيم القبائل المجاورة فى دولة واحدة ، ونتيجة لإقامة المراكز التجارية على الساحل ، تمكنت أشانتي من أن تحتل المكانة التى تمتعت بها مامبروسى وداجومبا ذات يوم ، والتى تسربت فيما بعد إلى الأكامبو والدنكير .

ومن حسن طالع كوماسى أن ظهر بها فى أكثر الفترات حرجا فى تاريخ أشانتي زعيمان بارزان حقاً هما أوزاى توتو وأوكوروفو أروكوى (الكاهن أروكوى)^(١٧) . وكان النجاح الذى حققه أوزاى توتو هو الذى أرسى أسس دولة أشانتي ، بل إن أوكوروفو أروكوى الكاهن الكبير ورئيس وزراء كوماسى ، كان حتى أكثر أهمية من أوزاى توتو . فدهاؤه السياسى هو الذى بنى فى الحقيقة دولة قوية على أساس فتوحات أوزاى توتو .

(١٤) مامبروسى : قبيلة فى غرب توجو .

(١٥) داجومبا : اسم أطلقه الهوسا على الداجبامبا فى شمال ساحل العاج ، الذين قد يكونون من الأصل العرقى للموسى ، إذ يشتركون معاً فى نفس الملامح الجسدية واللغوية والاجتماعية . كانت لهم ذات يوم مملكة قوية حاربت ضد الأشانتي فى القرن الثامن عشر . وهم قوم محاربون ومزارعون ، ويشغلون برعى الماشية والتجارة . بينهم نسبة ضئيلة من المسلمين .

(١٦) الدنكير : كانوا من دول الأكان القوية فى الجنوب الغربى من أشانتي ، وكانت ولايات الأشانتي الصغيرة تدين لهم بالولاء .

(١٧) حوالى منتصف القرن السابع عشر أقام حكام بعض ولايات الأشانتي تعاوناً بقيادة رؤساء كوماسى فى محاولة لقمع انتهاكات النوما . وعندما أصبح أوزاى توتو ملكا (كوماسيهين) فى عام ١٦٩٧ تمكن هو وكاهنه أروكوى من توسيع هذا التحالف ، مما ترتب عليه إيقاع هزيمة حاسمة بالنوما . ثم عقدا العزم على تحرير الأشانتي من التبعية للدنكير ، وذلك بتحويل التحالف إلى اتحاد عسكري بإمكانه إقامة جماعة روحية للأشانتي بأكملهم يستعاض بها عن الوحدة الروحية الخاصة بكل ولاية . (النوما عشيرة أخرى من الأكان) .

وفى نهاية القرن السابع عشر كان الساحل مقسماً إلى إمارات صغيرة تشن الحروب باستمرار ضد بعضها بعضاً . وفى هذا الصدد لم تكن أشانتي تختلف عن غيرها . فالغرض من هذه الحروب لم يكن إقامة مملكة قوية عن طريق تدمير الممالك الأخرى ، وإنما حمل الملوك المنافسين على الاعتراف بسيادة الفاتح . وفى كل مرة تعرضت فيها القوة السائدة للتقهقر ، كانت الدولة التابعة تشهر السلاح فى وجهها وتمتنع عن دفع الجزية ، ومن ثم لابد أن تُشن حملة جديدة . وقد رأى أروكويى أنه ما دام الأشانتي شعباً واحداً ، فإن الحروب بين الأشقاء ينبغي تجنبها ، ولذا فقد عقد العزم على توحيد قبائل الأشانتي حول العرش الذهبى^(١٨) الذى تتجسد فيه روح الأشانتي ، فهذا العرش هو الذى صعد عليه مؤسس شعب الأشانتي إلى السماء . ولم يجلس عليه أحد قط ، بل يستعمل فقط فى المناسبات الشعائرية . كان العرش فى تصور أروكويى هو الحاكم الحقيقى لشعب الأشانتي ، وكان باستطاعة كل رئيس وعشيرة تقديم فروض الطاعة للعرش دون أى شعور بأن كرامته قد مُسّت . وهكذا يكون أروكويى هو الشخص الذى أعطى الأشانتي إحساساً بالوحدة ، ومن هنا يمكن القول إنه كان بمثابة « الأب » لشعبه .

وبفضل النظام الذى أدخله أروكويى أمكن صهر الأشانتي فى أمة واحدة . وتقول الأساطير المحلية إن أوزاى توتو قد أصدر مرسوماً عالياً بأنه يتعين على أى عضو جديد ينضم إلى الاتحاد ألا يبوح بتاريخه القبلى السابق حتى وإن تعرض للموت . فتاريخه ينبغي أن يبدأ منذ يوم انضمامه إلى الاتحاد . وكانت الأعراف المحلية لمجموعات الأشانتي المختلفة موضع احترام ، وقد أبقي على سلطة الرؤساء ، وأصبحوا أعضاء فى مجلس رؤساء الأشانتي . ولم يكن من

(١٨) العرش الذهبى : تقول الأساطير إن أروكويى قد أحضر من السماء عرشاً خشبياً مزيناً بالذهب ، وذلك قبل انعقاد اجتماع كبير للرؤساء والشعب ، وإن هذا العرش هبط برفق على ركبتى أوزاى توتو . وأعلن أروكويى أن العرش بهتوى على روح شعب الأشانتي بأسره ، وأن قوة الأمة تتوقف على صونه . وقد أصبح لكل فرد من الأشانتي ولائان . أحدهما للعرش بولته ورئيسه ، والآخر للعرش الذهبى وحارسه الذى هو الآن الأشانتيين وكذلك الكوماسيهين . وكان للعرش الذهبى قداسة دائمة خاصة به ، كما كانت له أسبقية على الأشانتيين أنفسهم .

اليسير أن تنجح هذه السياسة في الهيمنة على الدنكير أو الجيامن أو الاكواييم^(١٩) ، فهؤلاء لهم ثقافتهم الخاصة المميزة ، كما كانوا يتطورون بدورهم إلى مرحلة الأمة على غرار الأشانتى . وربما كان من الأيسر لو أن الأشانتى طوروا نظاماً لإدارة المقاطعات به حكام مسؤولون أمام كوماسى ، وذلك بدلا من الإبقاء على الرؤساء المحليين فى السلطة . فقد احتفظ هؤلاء الرؤساء بسلطتهم على قبائلهم كاملة غير منقوصة ، وكان من شأن أى ضعف يطرأ على سلطة كوماسى وقوع ثورات هناك وهناك . كما أن أشانتى كانت محاطة بدول تم غزوها ، ولا تُكِنُّ أية محبة لكوماسى ، وتتحين الفرصة للإطاحة بالدولة الغازية . وسنرى فيما سيأتى أنه مع نمو سلطة الإنجليز كانت هذه الدول أول من تخلى عن أشانتى .

وبينما كان أروكوى هو مؤسس وحدة الأشانتى ، فإن دور أوزاى توتو ، الفاتح العظيم ، لا ينبغى التهوين من قيمته ؛ فلولا فتوحات أوزاى توتو لظلت خطة أروكوى مجرد أحلام . كما أن أوزاى توتو قد أرسى الأساس الذى بنى أروكوى فوقه . وقد وجهت أولى حملات توتو الرئيسية ضد الجومبا . وفى أول هجوم له ردُّ على أعقابه بعنف . عندئذ تبين له أنه ما لم تتوحد قوة شعب الأشانتى ضد الجومبا ، فلن يتيسر سحقهم . وصنع أروكوى مزيجا سحرى حمل الأشانتى على أن يهبوا حياتهم للصراع من أجل النصر . وسحر الجومبا . عند هذا المنعطف أظهر أروكوى حنكته السياسية ، فقد أوجد « العرش الذهبى » الذى أصبح منذ هذه اللحظة الرمز لوصول الأشانتى إلى مرحلة الأمة .

وقد كرس أروكوى وأوزاى توتو جل وقتهما لتدعيم الحلف عندما تعين على الاتحاد مواجهة التهديد الأكبر الموجّه من الدنكير المتحكمين فى مناجم الذهب ، والذين يتحتم أن تمر تجارة أشانتى عبر أراضيهم . وقد أرغمت المصالح الاقتصادية أشانتى على أن تبحث لها عن طريق إلى الساحل ، مما أدى إلى اصطدامها بالدنكير . وأخفق الدنكير فى اتخاذ الحيطة اللازمة . ولا بد أنهم

(١٩) الاكواييم : من مجموعة أمم الأكان التى تعيش فى شمال ساحل العاج . وتتحدث هذه المجموعة لغة التوى التى يتحدث بها الاشانتى أيضا .

أدركوا أن الأشانتي يجدون من الصعب الاعتماد عليهم في الحصول على معدات الحرب ، وأنهم يحاولون حل هذه المشكلة بالقوة . كما كان عليهم تقليص قوة الأشانتي بمنع بيع الأسلحة لهم ، ولكنهم بدلا من ذلك سمحوا للأشانتي بتكديس كميات كافية من السلاح . وما إن فعلوا ذلك حتى قام أوزاي توتو بإرسال الملكة الأم^(٢٠) ، وهي امرأة ذات جمال باهر ، إلى أراضى العدو . ورأها ملك الدنكيرا في مكان السوق ، وغرق إلى أذنيه في حبها ، فاختطفها واستثير أوزاي توتو ، بل شعب الأشانتي كله ، غضبا للمهانة التي لحقت بهم . ومات حاكم الدنكيرا ، وعامل خليفته نتون جيكارى شعب الأشانتي بازدراء شديد ، حتى لقد طالبهم بإتاوات متزايدة ، وكذلك بالزوجة المفضلة لدى كل رئيس من رؤسائهم .

وأرغم الأشانتي على أن يعلنوا الحرب قبل أن تكتمل استعداداتهم ، وسار جيش الدنكيرا إلى أشانتي ، وأصبح على مسيرة عشرة أميال من كوماسي . وفي أدنكو أبدى الرئيس مقاومة شديدة بجيشه الصغير ، وأوقف زحف الدنكيرا سبعة أيام ، وهي فترة سمحت للأشانتي بتعبئة قواتهم ، وفي فايازي أوقعوا بالدنكيرا هزيمة ساحقة . وسقط حاكم الدنكيرا في ميدان القتال . عندئذ صمم أوزاي توتو على سحق الدنكيرا وأخذ يتقدم داخل أراضيه . ولحقت بالدنكيرا هزيمة ثانية على ضفاف نهر أوفين ، وضمت الأرضى الواقعة على ضفته اليسرى إلى أشانتي ، وطرح أتباع الدنكيرا ولاهم ، واكتمل النصر للأشانتي . ومن بين الغنائم التي وقعت في أيديهم المذكرة التي وافق الهولنديون بمقتضاها على أن يدفعوا إيجار قلعة المينا للكومندا (إحدى قبائل المنطقة) . ومن الكومندا انتقلت المذكرة إلى الدنكيرا ، ومنهم إلى الأشانتي .

وعلى الرغم من هزيمة الدنكيرا ، فإن أوزاي توتو كان عليه أن يحارب آخر حلفائهم ، ومن بينهم الأكيم . فقد أصبح الأكيم ولايات تابعة ، ولكن سرعان ما

(٢٠) الملكة الأم : تسمى الماجيرا لدى البرنو بلغة الكانورى ، كما تسمى كانديس في مروي ، حيث كانديس كلمة زغاوية تعنى الأم . وليس من الضروري أن تكون الملكة الأم هي الأم الحقيقية للملك . وكانت تتمتع بامتيازات كثيرة وسلطات واسعة في الحكومة .

نشأت صعوبات بخصوص دفع الجزية . لذلك قرر أوزاي توتو فى عام ١٧٣١ غزو مملكتهم ، وسمح الأكيـم للأشانتى بعبور نهر برا^(٢١) ، وعندئذ نصبوا له كميناً . وأصيب أوزاي توتو بسهم وهو فى سريرته ، واختفى جسده فى النهر ، وقتل الرؤساء الذين صحبوه عن آخرهم . عندئذ واجه الأشانتى أزمة ، ولكنهم خرجوا منها منتصرين بفصل الأساس المتين الذى أرساه أروكويى .

وأدت الحملة الفاشلة ضد الأكيـم إلى انتفاضة القوى التى أخضعها الأشانتى لتوهم . ومع ذلك تمكن أوكوبو وارى^(٢٢) ، الذى خلف أوزاي توتو كحاكم للأشانتى ، من إخضاع الأكيـم والاستيلاء على مذكرات إيجار ثلاث قلاع فى أكرا . وفى عهده امتدت سلطة الأشانتى إلى بونى ، وهزم البونيتشين ، وأرغم على الاعتراف بسيادة الأشانتيين^(٢٣) . وعند موت أوكوبو وارى ثار الأكيـم مرة أخرى بعد أن وعدوا بتأييد من داهومى ، ولكن الأشانتى أخضعوهم قبل أن يتمكنوا من الاستفادة الفعالة من هذا التأييد . وانتهج أوزاي كوجو^(٢٤) ، الذى خلفه على العرش فى عام ١٧٥٢ ، سياسة توسعية . وحدث أن قُتل بعض التجار من الأشانتى فى أراضى الباندا ، وعندما أعلنت أشانتى الحرب على الباندا ، انضمت جيامن ووساو ودنكيريا وكونج إلى الباندا . واستطاع الحلفاء مقاومة الأشانتى لبعض الوقت ، ولكن أشانتى انتصرت فى النهاية . وسرعان ما تمكنت أشانتى ، مستغلة الخلاف الذى نشب حول عرش داجومبا ، من إخضاع تلك الدولة لسيطرتها . بيد أن أوزاي كوجو ، على غرار من سبقوه ، كان فى متاعب

(٢١) برا : أحد أنهار ثلاثة فى ساحل العاج تخترق الخط الساحلى الرملى المنخفض لتصب فى البحر . والنهران الآخران هما الفولتا وأنكويرا .

(٢٢) أوكوبو وارى : حكم حوالى الفترة ١٧٣١ - ١٧٤٢ ، أدخل ولايات الأكيـم الشمالية والسيفى فى اتحاد الأشانتى .

(٢٣) البونيتشين : ملك البونى ؛ الأشانتيين : ملك الأشانتى .

(٢٤) أوزاي كوجو : حكم فى الفترة ١٧٥٢ - ١٧٨١ ، ولذلك فلا يمكن أن يكون قد خلف أوكوبو وارى ، ولا بد أن يكون قد خلفه حاكم آخر أو أكثر .

مستمرة مع الدول المجاورة . وكان الأكيم مرة أخرى هم العدو الرئيسي ، ولكنهم في هذه المرة تحالفوا مع أسّين ذات الاتصال الوثيق بالفانتى^(٢٥) . وطلب أوزاى كوچو من الفانتى أن يوقفوا على الحياد ، مغرياً إياهم بقدر لا يستهان به من الذهب . وأخذ الفانتى النقود ، ولكنهم لم يتعففوا عن الإخلال بالوعد ، وأقسم أوزاى كوچو أن يلحق الفانتى درساً . وقد أوفى بقسمه فى عام ١٧٦٥ ، إلا أنه لم يكن باستطاعته شن حملة ضد الفانتى ، ومات فى عام ١٧٨١ . ومنذ أن مات أوزاى كوچو إلى أن أصبح أوزاى توتو كوامينا أسيب^(٢٦) حاكماً لأشانتى فى عام ١٨٠٠ تولى السلطة فى أشانتى حكام صغار تمتعت أشانتى فى عهدهم بفترة من السلم . وفى عهد أوزاى كوامينا بدأت فترة جديدة فى تاريخ أشانتى ، إذ اشتد الاندفاع نحو الساحل ، وسرعان ما دخل الأشانتى فى نزاع مع الفانتى ومؤيديهم الإنجليز .

داهومى

كانت داهومى المملكة التى جذبت أعظم قدر من الاهتمام فى القرن التاسع عشر . فنساؤها المحاربات ، وبسالة الفون^(٢٧) الحربية ، والتنظيم الإدارى للمملكة ،

(٢٥) الفانتى : شعب يعيش فى كوت ديفوار على ساحل الرأس - منطقة إلينا - سيكوندى ، ويتحدث لغة قريبة من لغة الأشانتى ، ولديه تنظيم مماثل لتنظيمهم ، وإن كان أقل ولعاً بالحرب ، وربما يكون من نفس أصلهم العرقى .

(٢٦) تقول الموسوعة البريطانية إن إوزاى بونسو تولى حكم الأشانتى فى الفترة ١٨٠٠ - ١٨٢٤ . ولذلك قد يكون أوزاى بونسو تسمية أخرى لأوزاى توتو كوامينا أسيب . قاد حملة فى الفترة ١٨٠٦ - ١٨٠٧ لغزو الفانتى وصلت إلى الساحل ، وأرغمت قادة القلاع الإنجليزية والهولندية على الاعتراف بسلطة الأشانتى على الفانتى ، وقبول الأشانتى كأصحاب لهذه القلاع . كما قام بغزوات أخرى للدول الساحلية فيما بين عامى ١٨٠٨ و ١٨١٦ .

(٢٧) قسمت مملكة ألادا بعد وفاة أحد ملوكها بين أبنائه الثلاثة ، وأسس ثالثهم ، وهو تاكوبونو أوداكو ، مملكة داهومى فى الشمال . وتقول الأساطير إن تاكوبونو ذهب إلى «دان» ملك شعب «الفون» وأرهبه بمطالب كثيرة ضاق بها ، فتساعل عما إذا كان لدى تاكوبونو «معدة لا تشبع أبداً» فهاجمة تاكوبونو وقطع رأسه وألقى بجثته فى أساس القصر الذى كان يبنيه . ومن هنا جاء اسم دان هومى Dan-homey (أو داهومى) ، أى معدة دان . وقد أعلن تاكوبونو ملكاً «الفون» ، وأسس الأسرة المالكة التى حكمت داهومى حتى نهاية القرن التاسع عشر .

ورقى أعرافها ، كل ذلك أثار فضول الرحالة الأوروبيين . وتعد داهومى من نواح كثيرة المثال الكلاسيكى للدولة الحربية الإفريقية . وقد أسس آخرون ، مثل شاكا^(٢٨) (مؤسس دولة الزولو^(٢٩)) ممالك حربية ، ولكنها كانت ممالك سريعة الزوال ، فى حين أن داهومى ظلت طيلة قرون ثلاثة ، تحت حكم ملوكها من الفون ، تنتهج سياسة قوامها التوسع . ويندر أن يوجد فى أى مكان فى العالم شعب أخضع كل شئ فيه لصناعة الحرب ، حتى إسبرطة القديمة أو بروسيا فى العصور الوسطى ، بمثل ما فعلت داهومى . فقد كان كل شئ فيها ينظم على أساس الحرب ، فالحرب هى منظّمة الخطو . وفى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر حذت حذو داهومى كل دولة كبيرة على الساحل تقريباً ؛ مثل إبادان وأشانتي وغيرهما .

وعواقب هذه السياسة يمكن تصورها جيداً . فهى تعنى الإهمال التام للزراعة ، وتناقص السكان بسبب ماترتب على غزو داهومى من دمار واسع النطاق وغارات من أجل الرقيق ، وبسبب استدعاء النساء للخدمة فى الجيش فى أكثر سنوات عمرهن خصوبة . وكان جيش داهومى قوة حسنة الانضباط والتنظيم ، وعلى الرغم من أنه لا يمكن مقارنة أفرادها بجنود أوروبا المدربين ، فإنه كان القوة الأكثر تسليحاً والأفضل تدريباً فى غرب إفريقيا . ومع ذلك لم يكن النجاح حليف سياسة داهومى ، فسياستها الحربية لم تكن مرتبطة بأى مقصد سياسى . لقد كان الفون قوة يخشى بأسها ، ولكنهم أخفقوا فى خلق الامبراطورية التى تؤهلها لهم بسالتهم الحربية . وربما أمكن أن نلمس ذلك على أفضل وجه لدى مقارنتهم بالأشانتي .

(٢٨) شاكا : فر «شاكا» من موطن والده سنزانجاكونا (١٧٥٧-١٨١٦) ، وفى موطنه الجديد نال إعجاب ديجيسوايو ، وهم زعيم لثلاثين رئيساً ، وقيل إنه دبر لموت سنزانجاكونا ولولاية شاكا عرش الزولو برغم أنه لم يكن الوريث الشرعى . وقد بدأ فى عام ١٨٢١ غزو ناتال ، وأفرغها من جانب كبير من سكانها ، وتمكن بقسوة بالغة من بناء إمبراطورية ، حتى لقب بأنثيلا إفريقيا نسبة إلى أنثيلا ملك الهون العظيم . كان شاكا أول من نخل فى اتصال مع الأوروبيين فى عام ١٨٢٤ .

(٢٩) الزولو : يقطنون جنوب شرق إفريقيا ، ويكوّنون القسم الشمالى الشرقى من مقاطعة ناتال فى جنوب إفريقيا . وهم إحدى قبائل مجموعة النجونى من شعب البانتو . وتقول اسطورة الزولو ، التى تعززها روايات الرحالة ، إنهم قبيلة مستقلة استقرت فى وادى نهر ميولوسى الأبيض عند نهاية القرن السابع عشر . يشكلون الآن عصب حركة إنكاثا فى جنوب إفريقيا ، التى تتخذ موقف العداء من المؤتمر الوطنى الأفريقى .

وربما كان أساچا الكبير أكثر توفيقاً من أوزاي توتو فى هزيمة أعدائه . ولكن بينما كان يقف إلى جانب أوزاي توتو واحد من أكثر رجال الدولة الإفريقيين حنكة ومقدرة ، فإن أساچا كان عليه أن يعتمد على القوة الحربية وحدها . وقد كانت محاولة أروكويى لصهر وحدة عشائر الأشانتى ودمجها فى أمة واحدة عن طريق « العرش الذهبى » حركة رائعة جديرة برجل دولة فى إفريقية القرن الثامن عشر . فضلاً عن ذلك لم يؤد تفوق الأشانتى فى السلاح ، ولا براعتهم الحربية ، إلى إغفال أن إلهة الأرض هى أكثر مصادر الثروة خصوبة . فعندما تنور رضى الحرب لم يكن ممكناً حدوث مخالطة جنسية أو زراعة . لذلك لم يكن الأشانتى يخوضون حرباً إلا بعد التروى اللازم ، وكانت الحرب لديهم وسيلة لغاية أكثر منها غاية فى ذاتها .

ولكن على الرغم من أن الفون أخضعوا كل شئٍ للحرب ، فإنهم وهبوا أيضاً فن إدارة شؤون الدولة . والحقيقة أنهم بنوا أمة عن طريق الحرب ، غير أنهم دعموا فتوحاتهم بسياسة حكيمة ، وأدخلوا آلهة الشعوب المقهورة فى معبدتهم الخاص الذى يضم آلهتهم ، وبذلك أمكنهم امتصاص هذه الشعوب . غير أنه مورست رقابة حازمة على الكهنة الذين يعدون بعد الملك أقوى هيئة فى المملكة . فهؤلاء يجرى تدريبهم فى الأديرة^(٣٠) ، وأعطاهم ذلك شعوراً بالتضامن والوحدة جعل منهم قوة كبيرة . وعلى أية حال فهم يخضعون لسلطة الحاكم ، وذلك لأن الدين فى نظر ملوك الفون هو آلية إدارية ينبغى استخدامها لصالح الدولة . والوجه الأكثر أهمية لدين داهومى هو عبادة السلف . ويحتل تـوواكيو ، الجد الأعلى للقبيلة ، مكانة خاصة . والملك هو نفسه الكاهن الأكبر ، وقد استخدم الداهوميون عبادة السلف كوسيلة لدعم النسيج الاجتماعى ، ويعزز الأسلاف المؤلهون سلطة الحاكم الذى يكتسب الأولوية عند وفاته .

(٣٠) تستمر عملية التدريب على الكهانة فى الأديرة فترة سنتين أو ثلاث سنوات يفرض فيها على المتدرب مراعاة العفة التامة والامتناع عن شرب الخمر والشره فى الطعام أو الاشتباك فى شجار . ويعيش المتدرب تحت رعاية كاهن ، وفى السنة الأولى يلقن شعائر التطهر وينام فى أحراج معمورة بالأشباح والأطياف ؛ وفى الثانية يتعلم الطلاسم والتمايم والمحرمات الدينية ؛ وفى الثالثة العرافة والكهانة .

وكانت « الشعائر » كبيرة الدلالة فى سياسة داهومى ، فهى الوسيلة التى يستشار بها الأسلاف . وفى كل قضية يعتقد فيها أن رأى الأسلاف جدير بأن يؤخذ فى الاعتبار يوفد رسول إلى السماء . وفى فترات ثابتة خلال السنة تقام « شعائر مهيبية » تقطع فيها رقاب آلاف الناس^(٣١) ، وهكذا فإن هذه الشعائر التى استرعت كثيراً أنظار الرحالة الأوروبيين إنما هى جزء من نظام للإبقاء على السلطات الملكية ، وذلك بأن يعلن للشعب أن الأسلاف استشيروا وأنهم وافقوا على السياسة .

والملك هو أب العالم أو سيده ، وبناته يتزوجن بكبار الضباط فى الدولة ، ولكن الأميرات سواء كن متزوجات أو غير متزوجات - ما لم تكن متزوجات برجال من طبقتهم - لديهن الحرية فى اختيار العشيق الذى تهواه قلوبهن . والملك يحتفظ بحريم كثير ، ولكن هؤلاء مجرد نساء البيت ، أما الزوجات الملكيات فيعرفن بزوجات « الپانثر »^(٣٢) ، ويعتبر النظر إليهن انتهاكاً للحرمة ، وعندما يتجولن يقرع جرس حتى يبتعد المارة عن طريقهن .

وكانت الإدارة المركزية فى داهومى أمراً جديراً بالملاحظة . فقد نظمت كسولة حربية استبدادية . ولكن هذه الاستبدادية كانت نظاماً مقبولاً بسبب اشتباك الفون فى صراع ضد الشعوب المجاورة . وفى البلاط كان أمراء الأسرة الملكية يستطيعون التحدث بون قيود ، والملك ينصت إلى آراء موظفيه المتمرسين ، وقد قسمت المملكة إلى مقاطعات يخضع كل منها لحاكم من قبله يطلق عليه الكابوسير . والكابوسيرات هم القضاة الرئيسيون ويتمتعون بسلطات كبيرة . أما البعض الآخر ، مثل يوجن وزير الملك فى وايداح ، فهم أعين الملك وأذانه ، ويفرضون رقابة حازمة على التجار الأوروبيين ، ولكنهم لم يكونوا مستبدين صغاراً ، فأى شخص يمكنه الاستغاثة بالملك من تجاوزاتهم . فضلاً عن ذلك يحتفظ الملك باتصالات مستديمه مع الحكام عن طريق رسل يقيمون على مسافات منتظمة .

(٣١) كان من المتبع بين قبائل الأشانتى والفون عند موت الملك أن يحتط جثمانه ، وأن يذبح عدد من الناس ليقوموا بخدمته فى الدار الأخرى ، فالسلف من ملوكهم يأخذون فى أعينهم صفة الآلهة العظام الحماة لمصالحهم .

(٣٢) النمر أو الكوجر (الأسد الأمريكى) .

كان الفون الذين أقاموا هذه المملكة الشهيرة محصورين أول الأمر في هضبة أبومي ، تحدهم من الشمال جبال ساقالو ، أما من الجنوب فمملكة لم تدخل في اتحاد أدجا أو پورتو نوڤو . ولكن فيما عدا الناجو ، إلى الغرب منهم ، وهم شعب من اليوربا ، فإنهم ينتمون جميعاً إلى الإيوى ، ومهد المملكة هو اللاداح ، أو أرداح . فقد كانت أرداح بالفعل مملكة مستقرة في القرن الخامس عشر ، وقد أشار إليها ليو الإفريقي . وأشار ميركاريتور في عام ١٥٦٠ وبلفارتيت في عام ١٥١٥ إلى مملكة دامى حول أرداح . وكانت أرداح تعتبر مملكة هامة ، فقد أوفدت في عام ١٦٥٨ مبعوثاً إلى فيليب الرابع ملك أسبانيا ، وآخر إلى فرنسا في عام ١٦٧٠ . وتقول الروايات إن شعب أرداح قدم من أجاسون ، وحوالي عام ١٦٢٠ مات ملكها داج - باسرى غينو تاركاً المملكة لأبنائه الثلاثة الذين توصلوا إلى اتفاق بأن يحكم أكبرهم مكان أبيهم ، وبأن يحاول كلا الأخوين الآخرين إقامة دولة خاصة به . واتجه داکو ، الأخ الأصغر ، نحو الشمال واستقر بين كينا وأجبونى ، في مكان يتبع رئيساً محلياً يدعى أويسو سمح للأمير الأجنبى بأن يقيم فيه . ولكن داکو أخذ على مهل يزداد قوة ، وسرعان ما بدأ القلق يساور أويسو من تزايد أتباع داکو ، فسأله عما إذا كان سيظل يبني على قدر ما تسع معدته . وأخذ داکو الأمر على محمل الجد وقام بذبح الأمير ، وفوق جسده بنى قصره . وهكذا بدأ البيت الملكى الداھومى سيرته في الغزو .

وحول داکو انتباهه إلى صغار الأمراء والرؤساء الذين يهيمنون على المنطقة ، والذين كان داکو بدوره من قبل واحداً منهم ، وسرعان ما تمكن من إخضاع بعضهم لسيطرته ، وبخاصة رئيسا پاخى وأغبون ، كما خاض حرباً ضد الماهى . وعند موته لم يكن هناك ما يميز أبومي عن غيرها من الولايات التابعة . وخلفه ابنه أخو الذى قاد ثورة من قبل ، وكان يحيا حياة قنّاص في الغابة . ولدى سماعه بموت أبيه أسرع إلى العاصمة ، وارتقى العرش بعد أن قتل مغتصباً للعرش أعلن نفسه ملكاً . وواصل أخو سياسه أبيه في إخضاع الرؤساء المجاورين

لسيطرة داهومى . ودام حكمه ثلاثين عاماً تدعمت الدولة خلالها كثيراً ، وتحول رؤساء القبائل فى بطناء إلى أتباع للمملكة . وعند موته فى عام ١٦٠٠ كان هناك مطالبان يتنافسان على العرش : أبوساسا ابن الحاكم الراحل ، وأخوه أكبا . وكان النصر حليف أكبا . ولكن أبوساسا لجأ إلى أويو . وتحرك جيش من أويو فى اتجاه داهومى التى أرغمت على الاعتراف بسيادة أويو . وظلت داهومى طيلة الأعوام الثلاثين التالية تابعة لأويو ، ولكنها تبعية تعين على أويو أن تفرضها بحملات حربية مستمرة . وعلى الرغم من تبعية أكبا لأويو فإنه لم يتخل عن حياة الغزو ، واستطاع أن يخضع شعب الجبى الذى يعيش بالقرب من مستنقعات نوهوا ، كما قام بغزو الولايات التابعة الصغيرة التى تضمها الهضبة .

وفيما بين موت أكبا وعهد أغاچا الذى ارتقى العرش فى عام ١٧٠٨ ، وكان أول حاكم تاريخى لداهومى ، أحكم الفون فى أبومى قبضتهم على الهضبة ، وكان تفوقهم عليها لا شك فيه . ومع ذلك فقد استمروا فى حالة تبعية لأويو ، ولم يكن الماهى يعترفون بسلطتهم . وسائر الملك الجديد أغاچا الزمن ، وكان يعلم أن تجارة الرقيق هى الطريق الرئيسى إلى الرخاء . وقد أشار دابور^(٢٣) إلى أن داهومى « ... بلد يقع بين أرديرا وبنين تجاه الشمال الشرقى ، وهكذا فهى لا تصل إلى الساحل . وتُجلب أعداد كبيرة من الرقيق من المملكة إلى أرداح الصغيرة ، بعضهم أسرى حرب ، وبعض آخر حكم عليهم بهذه العقوبة عن جرائم ارتكبوها . وهؤلاء الرقيق يباعون للهولنديين والبرتغاليين الذين يقومون بنقلهم إلى أمريكا » . ولم تكن أرديرا وحدها فى هذا المضمار ، إذ كانت تجارة داهومى فى الرقيق أكبر حجماً . وانصرف اهتمام أغاچا إلى الاستئثار بمزايا التجارة كاملة باستبعاد الوسطاء وإقامة اتصال مباشر مع الجالية الأجنبية التى تمارس التجارة . وقد عادت عليه فتوحاته فى الشمال الغربى بأعداد كبيرة من الرقيق ، ولكى يدعم

(٢٣) أولفيرت دابور : جغرافى هولندى عرف بالكفاءة وحسن الاطلاع . أصدر فى عام ١٦٦٨ كتاباً تحت عنوان وصف إفريقيا Description of Africa ، نشر فيه عدداً من التقارير العالية القيمة عن أحوال بنين وبعض الدول والمدن الإفريقية الأخرى ، وقد جمع معلوماته من مصادر معاصرة كثيرة . يأخذ عنه كثيرون ممن يكتبون عن إفريقيا .

مركزه تعين عليه أن يجد له منفذاً إلى البحر حيث يمكنه أن يقيم جالية تجارية أجنبية ، وأن يبيع الرقيق ، وأن يحصل على الأسلحة والذخيرة دون وسطاء . لذلك قرر أن يحول اهتمامه إلى الولايات التابعة الساحلية . وكانت أرداح ، وهي الدولة التي هاجر منها سلفه ، تحتفظ بعلاقات طيبة مع أبومي حتى عهد أغاچا ، ولكنها دخلت في حلف دموى مع ملك الهويدا ، وحذرت مراراً من الاستعدادات التي تجرى للحرب في أبومي . وبعد أن قامت داهومي بغزو الهويدا هاجم أغاچا أرداح ، وتمكن من فتحها بعد مذبحة كبيرة . وأعقب هذا الفتح خضوع چاكين ، وهي بلد إلى الغرب من وإيداح . ولكن أغاچا كان عليه أن يزحف نحو الشمال قبل أن يستطيع إتمام فتوحاته ، وذلك لمواجهة الغزو القادم من أويو . وتمكن الأويو من صد الجيش الداهومي ، ولكنهم أنهكوا ، ومن ثم لجأ الملك إلى الحيلة . وكانت معه مقادير كبيرة من شراب مسكر ، فتركها وانسحب مسافة ما . وعندما وجد جيش الأويو أن الجيش الداهومي قد انسحب بدأ أعمال النهب . ولم يكن الداهوميون يعرفون هذا النوع من الشراب ، وأفرطوا في تعاطيه ، وسرعان ما فقدوا وعيهم ، فانقض عليهم الداهوميون وهم على هذه الحالة ، وثأروا منهم بعنف . ومع ذلك رأى أغاچا أن من الحكمة العمل على تهدئة الأويو بإرسال هدايا كثيرة تصحبها واحدة من أجمل بناته . وبعد أن تمكن من تأمين حدوده الغربية على هذا النحو عن طريق القوة الحربية الممزوجة بالخنوع ، عاد إلى مهمته التي لا تتوقف على الساحل . فقد أرسلت له وإيداح ، أكثر المدن الساحلية أهمية ، رداً ينطوى على التحدى ، وعقد أغاچا العزم على سحقها . ولم تكن وإيداح تدرك أن أغاچا يمكن أن يعود بهذه السرعة ، ولذلك لم تتخذ أية إجراءات دفاعية ، وسقطت المدينة دون مقاومة . وعندئذ فتح أغاچا كلا من سارى وتوفيز . وعلى الرغم من الهزيمة التي لحقت بداهومي ، فإنها لم تقهر وكان مازال لها جيش في الميدان .

وأدت غارة أغاچا على الساحل إلى دخوله في اتصال مع الأوروبيين . وكان نفوذ الانجليز في ذلك الوقت سائداً في وإيداح ، لذلك كانوا يؤيدون تلك الدولة .

ولكن الفرنسيين كانت لهم بدورهم وكالة تجارية فى وايداح ، فساندوا أبومى . وقد تعرضت وايداح لهزيمة أخرى ، ومنذ ذلك الوقت أصبح نفوذ الفرنسيين هو السائد فيها . ومع ذلك ظل شعب وايداح يراوده الأمل ، فطلب العون من أويو التى أرسلت جيشاً أعمل التخريب فى داهومى ، ولكن أغاچا رفض فى تعقل سحب قواته من وايداح . وقد أدت حروب أغاچا المستمرة إلى تقلص جيشه ، ولما لم تكن التعزيزات الكافية متاحة له فقد كَوْن فى عام ١٧٢٩ كتيبة من النساء المحاربات ، اللاتى كن هن الأمازونات ،^(٣٤) وبهن استطاع أغاچا غزو وايداح ، ولم تكن سلطته على الساحل قد استقرت بعد . وبينما كان أغاچا مشغولاً فى بلاد الماهى ، ثارت الولايات الساحلية فى عام ١٧٣١ بتشجيع من الهولنديين والإنجليز ، فأرسل أغاچا أفضل قائد لديه وجزءاً كبيراً من جيشه إلى الساحل ، وسحقت الثورة ونهبت الوكالات التجارية الهولندية والإنجليزية . وفى النهاية خضعت وايداح وجميع الولايات الساحلية لداهومى .

وأصبحت كتيبة « الأمازونات » التى كوْنها أغاچا أوسع الكتائب شهرة فى جيش داهومى . وفى الأصل لم تكن هذه الكتيبة من كتائب الصفوة ، إذ كانت تتكون من نساء قبض عليهن بتهمة الزنا أو سبقت إدانتهم بجرائم أخرى . وكن يعطين الخيار بين الالتحاق بالجيش أو القتل . وقد تأثر أغاچا بشجاعتهم ، وجعل منهن وحدة نظامية فى الجيش .

وكان غيزو هو الذى جعل من « الأمازونات » الفيلق المختار فى الجيش ، واستبعد منه الرقيق والعناصر الإجرامية ، وسن قانوناً يلزم كل شخصية معروفة

(٣٤) الأمازونات : تقول الأساطير اليونانية إنهن شعب خرافى من النساء اللاتى يحترفن الصيد والقتال ويقطعن الثدي الأيمن ليسهل عليهن استخدام القوس . وليس هناك تعليل مؤكد لأصل اللفظة وتاريخها . والتفسير الوحيد المقبول هو القصة المألوفة لأرض بعيدة كل شئ فيها يسير فى الطريق الخاطئ ، وهكذا تحارب النساء ، فى حين أن الحرب هى وظيفة الرجال . وفى القرن السادس عشر أكد المستكشف الأسباني فرانسيسكو دى اوربينانا أنه دخل فى نزاع مع نساء محاربات فى أمريكا الجنوبية على ضفاف نهر المارانون الذى سُمى فيما بعد « بالآمازون » . ومن المؤكد وجود « الأمازونات » فى جيش داهومى فى العصور الحديثة . ويقال إن وجودهن اختفى خلال الحماية الفرنسية .

تقديم إحدى بناته للملك . وجندت أولئك البنات فى الأمازونات ، وكن يعرفن بأنهن زوجات الملك . وكان يحكم بالإعدام على من يزنى بهن .

وقسمت «الأمازونات» إلى خمس سرايا : ١) حاملات البنادق ؛ ٢) قانصات الأفيال ؛ ٣) حاملات السيوف ، ٤) راميات السهام ؛ ٥) المشاة . وكن يخضعن لتدريب مكثف . وقد شاهد دَنكان تمريناتهن ، ويقدم إلينا وصفا لهجوم صورى على سياج من الخوازيق ، وكانت الأرض والأسوار مغطاة بالأشواك ، ولكن الأمازونات اندفعن فوقها وعدنا للملك بالأسرى . وبفضل هذا النوع من التدريب تكونت لديهن مناعة ضد الألم والمشاق ، وأصبحن القوة الأشد رهبة فى غرب إفريقية .

وبينما كان أغاچا مشغولاً فى الجنوب ، كانت ماهى تخلق المتاعب فى الشمال الشرقى . وماهى بلد جبلى يتعين على قوافل التجارة التابعة لداهومى أن تمر عبر أراضية وهى فى طريقها إلى بلاد السودان . ولم تكن تضاريس ماهى ملائمة لعمليات المشاة فى جيش داهومى ، وعلى الرغم من أن الملوك كانوا يرسلون الجيوش بانتظام لغزو ماهى ، فإن فتوحاتهم لم يكن لها طابع الدوام . فحملة أغاچا فى عام ١٧٣٠ أقرت سلطته فى القرى المحصنة ، وحافظت على طرق التجارة مفتوحة ، ولكن ماهى لم تقهر . وتلك مشكلة واجهت الملوك الذين خلفوه ، وظلت ماهى حتى الغزو الفرنسى شوكة فى جنب داهومى .

وقد ترك أغاچا عند موته مملكة كبيرة لابنه وخليفته **تغبوصون** .^(٢٥) بيد أن سلطة داهومى لم تكن مدعمة تماماً إلا فوق الهضبة . وظلت ماهى ، شأنها شأن غيرها من الدول المجاورة ، تعكر صفو السلم . وعلى الرغم من أن الدول الساحلية قد تعرضت للهزيمة أمام تنظيم أغاچا المتفوق ، فإنها لم تكن قد قهرت بعد ،

(٢٥) **تغبوصون** : ورد اسمه فى المتن هكذا Tegboesun ، ولكنه ورد تغبيزو Tegbesu فى حاشية بالصفحة ٢٣٥ من كتاب دافيدسون ، The African Past (نقلًا عن كتاب روبرت نوريس ، مذكرات عهد بوسا أهادى ، ملك داهومى Memoirs of the Reign of Bossa Ahadee . King of Dahomy ، الصفحة ١١) وجاء فى هذه الحاشية أن بوسا أهادى هو نفسه الملك تغبيزو الذى حكم داهومى فى الفترة ١٧٢٧-١٧٧٥ .

وظلت على استعداد لخلق المتاعب . وكانت لدى الأويو فى الغرب رغبة مستمرة فى تخريب الدولة التابعة لها التى تزداد قوة ، وفى إخضاعها لسيطرتها . وهكذا لم يكن تغبوصون يواجه مشكلة سهلة . بل إن الأمر الأكثر أهمية هو أنه واجه فى الفترة الأولى من حكمة ثورة قام بها وزيره الثانى ميو ، وقد تمكن وزيره الأول غو من سحق هذه الثورة فى عام ١٧٣٥ . وفى عام ١٧٣٧ قام جيش الأويو بغزو داهومى . وتقهر الملك ، فى حين أبدت العاصمة أجبوني مقاومة شديدة . بيد أن الأويو عادوا أدراجهم بعد أن أعمالوا النهب ، وأسروا أعداداً كبيرة من الرقيق . وقد أصبحت غزوات الأويو سمة سنوية بارزة . وفى كل عام ينقضون على داهومى كالجراد ، ينهبونها ويخربونها ويعوبون بالرقيق . كذلك لم تكن تلك هى النهاية . فالمهاى ، الذين لم يتوقعوا أن يكون خليفة أغاچا فاتحا فى عظمة أبيه ، قاموا بالثورة . وأرسل تغبوصون جيشاً لمواجهة الموقف . بيد أن المهاى اعتصموا بالجبال ، ومنها أخذوا يسببون المتاعب لجيوش داهومى . ومع وجود هدنة من حين لآخر ، استمرت حرب العصابات هذه حتى عام ١٧٧٢ عندما شعر المهاى بحاجتهم إلى بضع سنوات من السلم . كذلك لم يكن هناك هدوء على الساحل . فقد كان للبرتغاليين قلعة قوية فى بلاد وايداح ، وأحسوا أن الإدارة المركزية لدى داهومى يمكن أن تؤدي إلى تقليص أرباحهم من تجارة الرقيق ، ومن ثم قدموا التأييد للوايداح والبوبو ، وكانوا يجنون الحماية فى القلعة ، ولكن غو أخضعها فى عام ١٧٤١ . وفى عام ١٧٤٣ ، بينما كانت داهومى مشغولة مع المهاى والأويو ، شهر الوايداح والبوبو السلاح مرة أخرى ، وحاصروا الحامية الداهومية فى المدينة ، ولكن غو تمكن من طردهم بجيش قوامه خمسون ألفاً .

وكان تغبوصون بدوره يرغب فى توسيع الإمبراطورية ، وسنحت له الفرصة فى عام ١٧٤٢ عندما مات أوزاى توتو ، حاكم أشانتي . وقد ثار النبلاء الساخطون والدول التى فتحت حديثاً ضد أوكويى وارى ، وأرسلت فرقة من الجنود الداهوميين لمساعدته . وسحقت الثورة فى يسر ، ولم تسفر المغامرة عن شئ . وفى عام ١٧٥٠ راودت الأشانتي فكرة أن يلقنوا الداهوميين درساً ، وقاموا بغزو البلاد ، ولكنهم رنوا على أعقابهم .

ومع ذلك لم تقهر المنطقة الساحلية . فقد رفض الوايداح والبويو الذين تعرضوا لهزائم متكررة الاستسلام لقدرهم . كذلك لم يكن الإخلاص طابع الداهوميين الذين تسند إليهم المناصب في هذه المنطقة ؛ من ذلك أن نائب الملك أعلن العصيان في عام ١٧٤٥ ، وأعدم شنقاً . ولكن أشد المتاعب التي واجهها تغبوصون جاءت من صهره شامبو . فقد ازدادت قوة شامبو كثيراً ، ولخشيتته من غضب الملك فر هارباً إلى البويو ، وسرعان ما أصبح قائداً عاماً لجيشهم . وفي عام ١٧٥٣ أرسل الملك جيشاً كبيراً ليحسم القضية تماماً ، فانسحب البويو إلى المستنقعات ، وطاردهم الداهوميون وأوقعوا بهم هزيمة ساحقة . وبحلول عام ١٧٦٣ كانت قوتهم قد نمت بدرجة تكفي لمحاصرة الداهوميين في وايداح نفسها ، ولكنهم أخفقوا في الاستيلاء على القلعة . وظل تغبوصون ، حتى وفاته في عام ١٧٧٣^(٣٦) ، يقاتل من أجل إخضاع البويو ، ولكن دون جدوى .

وواجه الملك الجديد كانجلا (١٧٧٥ - ١٧٨٩) المشكلات المعهودة لملوك داهومي ، وهي تدعيم السيطرة على الساحل وإخضاع الماهي ودرء خطر الأويو وتوسيع المملكة . وقد حالفه الحظ بوجود خلاف على وراثته العرش في وايداح . واغتنم كانجلا هذه الفرصة ونصب مرشحه على العرش . وكانت تُرسل جيوش نظامية كل عام لتخريب ماهي ، ولكن شعب الجبال ظل على عناده . وقام الأويو بهجوم في عام ١٧٨١ ، ولكنه كان مجرد غارة أخرى ، فقد كانت قوة الأويو تتقوض بالفعل ، وعلى الرغم من أنهم ظلوا على درجة كافية من القوة عشر سنوات أخرى ، فقد ازدادت داهومي ثقة بنفسها . وفي عام ١٧٧٨ قام كانجلا بمهاجمة أبي بالتعاون مع الأدا^(٣٧) التي يجيد أهلها القتال في المستنقعات . ولم يستطع الأبي الصمود في وجه الجيوش المتحالفة ، وأخضعوا بعد قتال وحشي . وكل هذا القتال المتواصل كانت له آثاره . وفي عام ١٧٨٢ قاست داهومي كثيراً بسبب مجاعة حلت بها .

(٣٦) كما يتضح من الحاشية السابقة فإن تغبوصون ظل يتولى الحكم حتى عام ١٧٧٥ ، وذلك يؤكد أن الملك الجديد كانجلا تولى الحكم في ذلك العام .

(٣٧) الأدا : هي نفسها « أرداح » ، انظر الصفحات السابقة .

وكان النقل مشكلة كبرى واجهت داهومى فى حروبها على الساحل بسبب كثرة الأخاديد والأنهار الصغيرة التى تعوق حركة الجيوش . ولكى يدعم الداهوميون سيطرتهم على البلاد قاموا ببناء الجسور والطرق وردم الخنادق . وقد أوضحت الثورات التى يقوم بها الشعب الساحلى بين الحين والآخر أن سيطرة داهومى تفتقر إلى الاستقرار ، وأن الشعب الساحلى يرفع راية العصيان كلما سنحت الفرصة .

وفى عام ١٧٨٣ عادت داهومى إلى انتهاج سياسة توسعية ، فهاجمت باداجرى^(٣٨) بيد أن هذا الهجوم كان مجرد مناوشة أولية . وفى العام التالى قام الداهوميون ، بالتحالف مع ملك لاجوس ، بمهاجمة باداجرى للمرة الثانية وأحرزوا نصراً مرموقاً . وكان ذلك بداية حلف مع لاجوس استمر حتى خضعت لاجوس للحماية الإنجليزية . وكان الغرض من الحلف مهاجمة مدن اليوروبا المختلفة فى الداخل والاستيلاء على تجارتها . ولكن داهومى لم تكن على درجة من القوة تكفى لمهاجمة الأويو . وكانت الصعوبة تكمن فى أن الدول الأخرى تستطيع بدورها طلب حماية الأويو . وفى عام ١٧٨١ طلبت ألادا ، على سبيل المثال ، حماية الأويو، وهو ما يعنى أن داهومى لم يكن باستطاعتها أن تهاجمهم .

وفى عام ١٧٨٩ خلف أغونويو كانجلا ، وكان حاكماً ضعيفاً ، ولكن كان عليه التصدى لمشكلة ماهى . فسيّر إليها ثلاثة جيوش ، ولكنه أخفق فى إخضاع أهل الجبال نوى المراس الصعب . ولقد كان ملك ألادا يتوق علناً إلى موت الملك الراحل ، ولكن أغونويو أثر الهدوء خشية من الأويو . وعلى الرغم من أن أغونويو لم يكن موفقاً فى حملاته الحربية ، فإنه كان حاكماً عادلاً . فقد خفض الضرائب وحارب جشع الجبابة . وخلال حكمه الذى استمر ثمانى سنوات ازداد رخاء داهومى ، وكانت هذه الفترة من الهدوء هى التى هياؤها للنجاح الذى حققته فى النصف الأول من القرن التاسع عشر .

(٣٨) باداجرى : مقاطعة تابعة كانت تدفع الجزية لدولة بنين .

الفصل التاسع

غرب إفريقيا في القرن التاسع عشر ازدهار الإسلام

أولاً

قامت الدولة في غرب إفريقيا ، مثلما قام اقتصادها ، على تجارة الرقيق . وقد حظرت بريطانيا تجارة الرقيق في عام ١٨٠٧ ، كما ألغت الرق على نطاق الامبراطورية البريطانية في عام ١٨٣٣ . وفي غضون بضع سنوات حذت فرنسا حذوها . وكانت معارضة الدولتين الكبيرتين لتجارة الرقيق بمثابة نذير الموت لها .

وطرح موقف الدول الأوروبية الجديد تجاه تجارة الرقيق مشكلتين أمام الدول الإفريقية : أولاها أن الرقيق يشكلون عصب صادرات غرب إفريقيا ، وأن حصيلة بيعهم تكفي لسداد أثمان جميع الواردات تقريباً . فبماذا يستعاض عن هذه التجارة ؟ ثانيتهما أنه كان هناك حتى إلغاء هذه التجارة التقاء في المصالح بين الأوروبيين والدول الإفريقية الساحلية .

والآن أصبحت مصالح كل من الجانبين على طرفي نقيض . فقد ظلت للدول الساحلية مصالحها في تجارة الرقيق ، على حين انصرفت فرنسا وانجلترا بنشاط إلى القضاء عليها ، وإلى التوغل في الداخل التماساً للتجارة المشروعة . وكان هناك إدراك بأنه ما لم يمارس ضغط أوروبي على الدول الداخلية ، فلن تتوقف الإغارة من أجل الحصول على الرقيق « رذيله السودان الكبرى » . وهكذا ارتبطت النوافع التجارية « والإنسانية » ارتباطاً وثيقاً بالتوغل في الداخل .

كانت الدول الإفريقية فى مأزق . فالتحول المفاجئ فى موقف أوروبا تجاه تجارة الرقيق قوّض الأساس الذى تقوم عليه القوة السياسية فى المناطق الداخلية . ولقد اكتسبت الدول الساحلية قوتها على أساس مقايضة البشر بالبنادق والبارود ، والآن أدركت فجأة أن سوق الرقيق قد تدهورت إلى أدنى مستوى . والحقيقة أن البرتغاليين والأمريكيين كانوا مازالوا يمارسون تجارة واسعة فى الرقيق ، بيد أن هذه التجارة أصبحت محفوفة بأخطار متزايدة ، حتى أنها توقفت من الناحية الفعلية فى الستينات من القرن التاسع عشر . وأصبحت الأسواق المتاحة الوحيدة هى أسواق شمال إفريقية وغرب آسيا . وعلى ضوء هذا التغير فى توازن القوى يمكن أن نرى قيام دولة الفولانى فى سكتووماسنة ، وكذلك قوة التوكولور فى بلاد السودان . وعلى الساحل واصلت أشانتي وداهومى ازدهارهما بسبب قوة المشاعر القومية وما يكمن لديهما من مقدرة حربية . ولكن دلتا نهر النيجر كانت هى المنطقة التى استغادت حقا من هذا التغير فى السياسة .

وكانت قد أقيمت فى دلتا النيجر « سلطة قضائية قنصلية » - وهى نوع من « الحكم الثنائى » بين الضباط البريطانيين المشرفين على شحنات السفن والدول - المدينة التى نشأت على الساحل . وفى القرن التاسع عشر ازداد طلب البريطانيين على الصابون بسبب اهتمامهم بالنظافة . وقد اكتشف أن زيت النخيل أكثر ملائمة لصناعة الصابون من الشحوم الحيوانية ، وأنه يمكن استخدامه أيضا فى تشحيم الآلات . وهكذا كان باستطاعة دلتا النيجر أن تتحول إلى تجارة مشروعة نون أن يهتز اقتصادها . وكان لدى الدول - المدينة أساطيل نهريّة قوية - قوارب مسلحة بالمدافع - وأسوار محصنة للسيطرة على تجارة الزيت وتأديب القبائل الداخلية المناوئة . بيد أن الرقابة الثنائية^(١) أخذت تتداعى فى دلتا النيجر مع مقدم السبعينات ؛ ودخل الضباط البريطانيون المشرفون على شحنات السفن فى

(١) بمقتضى اتفاقات وقعت بين بريطانيا وزعماء الساحل أقيم اختصاص قنصلى يقضى بتعاون الفريقين فى مراقبة تجارة الزيت ، ومنح التجار البريطانيين حق التقاضى أمام قناصلهم وفقا لقوانينهم .

نزاع متزايد مع أمراء التجارة المحليين . واستخدمت الحلقات والكراتلات والمقاطعة فى محاولة لتحطيم قوة الخصوم . وكان أفراد الجالية التجارية الأجنبية تواقين إلى التوغل فى الداخل لكسر احتكار رؤساء القبائل ، أما هؤلاء الرؤساء فلم يكونوا فقط مشغولين بالحيلولة نون ذلك ، وإنما كانوا يهدفون أيضا إلى تصدير الزيت رأسا إلى أوروبا .

وفى بلاد السودان كان الموقف مختلفاً ، فليست بها ثروة مادية تنتظر من يقوم بجمعها . وحتى فى أشانتي لم تزدهر تجارة الزيت ، ولم يكن الكاكاو قد أدخل بعد فى غرب إفريقية ، كما لم تكن للكولا سوق فى أوروبا . وواجهت أشانتي ، شأن غيرها من نول غرب افريقية ، مشكلة الصادرات التى تدفع من حصيلتها ثمن وارداتها من البنادق والبارود ، وإن وجدت بعض العون فى الذهب والتبر ، على حين أصبحت تجارة بلاد السودان مع شمال إفريقيا والشرق أعظم أهمية بكثير ، وكان ذلك بطبيعة الحال هو المنفذ الرئيسى لتجارة هذه البلاد ؛ ولم يعد يصل إلى الساحل الغربى سوى القليل من الرقيق الذين يؤسرون فيها .

وثمة سمة مميزة أخرى للقرن التاسع عشر ، ربما تسترعى الانتباه أكثر من غيرها ، هى ظهور الروح القومية . فحول مثل أشانتي وداهومى وبرنو والبنمبرة كان رد فعلها واحداً عندما واجهت الغزوات الأجنبية . كما أن إحياء دولة البرنو تحت حكم الكانمى^(٢) فى مواجهة جهاد الفولانى لا يمكن تفسيره إلا من زاوية القومية . فالفولانى كانوا إخوة فى الدين ، ولم ينكر الكانمى أن الهوسا لديهم آراء هرطقية للغاية . ولكن عندما طلب حكام الهوسا العون من السلطان^(٣) هب لنجدهم عن طيب خاطر .

وكانت المسألة الأساسية التى واجهت مسلمى السفانا^(٤) هى الخلاف حول تفسير قواعد الإسلام . قبل والكانمى ، مثلاً ، اختلفا حول هذه المسألة ؛ كذلك

(٢) الشيخ محمد الأمين الكانمى : يتناول الفرع « سابعا » من هذا الفصل حياة الشيخ الكانمى بالتفصيل ، كما ترد تفاصيل أخرى فى الفرع « ثالثا » .

(٣) الإشارة هنا إلى سلطان البرنو .

(٤) السفانا : المناطق التى تحد الغابات الاستوائية وتقع بينها وبين الصحارى الحارة .

فعل عمر^(٥) وأحمد^(٦) . ويدل أحمد على أن ولايات البمبرة التي قبلت حماد^(٧) سلطانا عليها لا يمكن شرعاً أن تعتبر ولايات يتعين الخروج للجهاد ضدها . وفي كلتا هاتين الحالتين كان الجانب الديني هو العباءة التي يختفى تحتها الصراع من أجل السلطة ؛ فالفولاني في سكتو ، وكذلك التوكولور ، كانوا يتوسعون ، ويرنون ماسنة كانتا تقفان في وجه هذا التوسع . كما أن ماسنة التي قامت نتيجة للجهاد ضد الوثنيين كانت تمارس أعمال القتل ضد التوكولور متحالفة مع البمبرة . وهكذا أصبح الإسلام يستخدم من كلا الجانبين لدعم مركزه .

كذلك أدى ظهور مجموعات جديدة مثل التوكولور والفولاني إلى بزوغ الروح القومية . ففي برنو قام الكانمي ، بعد فقدانها أقاليمها الغربية ، بتنظيم مقاومة على أساس قومي واستطاع صد زحف الفولاني وطردهم . كما أن ممالك الهوسا لم تتوقف أبداً عن القتال ، كما سنرى ، وظلت حتى قيام الحكم البريطاني تقاثل من أجل الاستقلال . وكان الخوف من قيام الهوسا بثورة داخلية شديداً للغاية ، حتى أنه عندما هدد رابع الامبراطورية كان الفولاني عاجزين ، بل عاجزين ، عن

(٥) الحاج عمر : (١٧٩٧ - ١٨٦٤) ، من التكرور ، نشأ في فوتا جالون (السنغال) ، يعرف أيضاً باسم عمر سيوتل . تربي تربية دينية ، وبخل في الطريقة التيجانية . لقي عثمان دان فوديو في سكتو وحمادو الشيخ في حمداً لاي ، وزوجه محمد بل بابنته . له فتوحات كثيرة ، وضم تمبكت إلى مملكة الواسعة التي شملت ماسنة والفوتاتورو . قضى الفرنسيون على دولته عندما شرع أولاده يمدون سلطانهم إلى شمال وادي النيجر .

(٦) الشيخ أحمدو : ابن الحاج عمر . حمل لواء الجهاد الإسلامي بعد وفاة أبيه . عهد إليه أبوه ، أثناء حملته على ماسنة ، بالنظر في شؤون المملكة ، وجعله خليفة له على أتباع الطريقة التيجانية . خاض نصالاً مستمرا ضد الخارجين عليه . وقد ثار ضده بعض أفراد التيجانية غير معترفين بسلطته الدينية حينما اتخذ لقب أمير المؤمنين . توفي في عام ١٨٩٨ .

(٧) حمادو الشيخ (حمادو سيكو) : ظهر بين الفولاني حوالي عام ١٨١٥ داعية ومجاهد إسلامي في منطقة ماسنة يدعى حمادو باري . اشترك في حملات عثمان دان فوديو لفتح بلاد الهوسا . ومكافأة له على أعماله منحه عثمان لقب الشيخ وجعله أميراً على ماسنة ، فاستولى على چنى وتمبكت ، ومد سلطانه على جزء من بلاد البمبرة . ويدل من حمادو وردت في المتن كلمة حمد ألي (أي الحمد لله) ، وهذا خطأ وقع فيه المؤلف ، ذلك أن « حمد ألي » هو الاسم الذي أطلقه حمادو الشيخ على مدينة أنشأها في بلاد البمبرة . واتخذها عاصمة له . هذا وقد توفي حمادو الشيخ في عام ١٨٤٨ .

الدفاع عن الحدود . وقد أدرك الفولاني في سكتو قوة الروح القومية ، وكانوا يخشون أنه ما لم تتم تهدئة الهوسا ، فإنهم يمكن أن يطيحوا بهم عن طريق الانضمام إلى الأجانب . لذلك حاولوا التوصل إلى اتفاق معهم . وقد منع استخدام الفولفيد^(٨) كلغة ، واستخدمت لغة الهوسا في كل من الأغراض الرسمية والاجتماعية ، كما أخذ استخدام لغتهم يتزايد في الأعمال الإدارية . وهكذا كان الفولاني يندمجون ببطء في الهوسا ، حتى قبل أن تصبح نيجيريا الشمالية جزءاً من الإمبراطورية البريطانية .

وكان نمو الروح القومية لدى البمبرة حتى أكثر إثارة . فعلى الرغم من أن البمبرة قد تعرضوا لهزائم متكررة على أيدي الحاج عمر ، الذي كان لجيشه تفوق هائل بفضل حملة البنادق والمدافع من الـوولوف ، فإنهم لم يلقوا السلاح قط . فبعد أن هزمهم الحاج عمر عابوا إلى محاربته بالتحالف مع الفولاني ، وعندما تبين لهم أن الفولاني ضعاف للغاية انضموا إلى الفرنسيين . ولكن مسعى البمبرة لم يكن إحلال السيادة الفرنسية محل سيادة التوكولور ، ولذلك فإنه عندما استقر النفوذ الفرنسي في البلاد حاربوا مرة ثانية من أجل استقلالهم . وكان التفوق الهائل للفرنسيين ، وكذلك ما أصاب البمبرة من تعب وإرهاق بسبب الحرب ، هما اللذان أديا إلى وضع حد للحرب .

وفي بلاد اليوريا بدورها ظهر إطار مماثل . فإقامة إمارة للفولاني في إيلورين ، وانهيار إمبراطورية الأويو ، يمكن أن يحملا المرء على توقع سقوط اليوريا ، مثلما حدث للهوسا ، تحت السيطرة الأجنبية . ولكن الروح الحربية لدى اليوريا أكدت نفسها من جديد بعد أن واجهت الغزو الأجنبي ، وأصبحت إبادان وأبيكوتا مركزى المقاومة عند اليوريا . وكانت أشانتي وداهومى في طريقهما بالفعل إلى أن تصبحا بولتين قوميتين ، ولقد أدت حروب القرن التاسع عشر إلى تقوية هذه المشاعر . وهكذا أصبحت القومية الصاعدة هي السمة المميزة الأكثر وضوحاً لغرب إفريقيا في القرن التاسع عشر .

(٨) الفولفيد : هي لغة الفولاني .

ثانيا

يعد الغزو المراكشى ، وما أعقبه من فوضى دامت قرنين ، على جانب كبير من الأهمية لفهم تاريخ القرن التاسع عشر . وقد أدى انهيار السلطة المركزية فى منحنى النيجر إلى نمو قوة بعض قبائل الصحراء ، التى كانت قبيلتا الكيل أوى^(٩) والأوليمندن^(١٠) أكثرها أهمية . وسنحت للقبائل الصحراوية عندئذ فرص غير محدودة لمهاجمة جميع القوافل ، وعاد عليها ذلك بمنافع كثيرة . وطوال القرن التاسع عشر توغل الطوارق ببطء فى وادى النيجر ، واستقروا فى مقاطعات مختلفة . وكان عليهم لأول مرة أن يقوموا بدور نشط فى الحياة السياسية للمنطقة . ولذلك فمن الضرورى أن نلم بفكرة ما عن قبائل الصحراء الرئيسية التى قُدر لها أن تحدث تأثيراً على بلاد السودان .

فالكيل أوى قبيلة تنتمى إلى قبيلة أوراغن القوية ، وقد استقرت فى وادى أول . وقد أصبحت هذه القبيلة على درجة كبيرة من القوة فى موطنها الجديد . وفى عام ١٧٦٠ قام الكيل أوى بطرد حكام الهابى من أسبن ووضعوا أيديهم على البلاد ، وفى الوقت نفسه توصلوا إلى اتفاق مع الزنوج وافق حاكم أسبن بمقتضاه على أن يتزوج بامرأة سوداء . وكانت نتيجة ذلك أن أصبحت الكيل أوى قبيلة مختلطة ، واتخذ أفرادها لأنفسهم العادات المستقرة الخاصة بالزنوج ،

(٩) الكيل أوى : كيل معناها قبيلة . وهم أحد فروع الطوارق . تمكنوا بمعاونة سيدهم إدريس ألوما سلطان البرنو من طرد الكيل جيريس من أير والسيطرة على طريق القوافل الذى يربط بلاد الهوسا بغات ، وهو طريق كان ذا أهمية حيوية لبرنو . ينسبهم إبن خلون إلى قبيلة قتامة الذين قدموا من اليمن وعاشوا وتكاثروا فى كردفان ومنطقة النيل الأزرق . وقد عرفوا بتعاونهم مع قوات الاحتلال الفرنسى .

(١٠) الأوليمندن : يرتبطون بمجموعة صنهاجة (زناتة) القريبة من الطوارق . استوطنوا النيجر الأعلى واستولوا على المراعى الخصبة حول غاو متحدین حامية الأرم ، وتخلبوا عليها . وقد استرد الأرم عاصمة السنغى القديمة ، ومع ذلك سقطت مرة أخرى فى أيدي الأوليمندن . ورد إسمهم «العلوميديون» «وعلم الدين» فى ترجمتين مختلفتين لكتاب بوفل (The Golden Trade of the Moors) ، الأولى قام بها دكتور زاهر رياض تحت عنوان الممالك الإسلامية ، ١٩٦٨ ، الصفحة ٢٢٩ ؛ والثانية قام بها دكتور الهادى أبو لقمة ودكتور محمد عزيز تحت عنوان : تجارة الذهب وسكان المغرب الكبير ، بنغازى ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٨ ، الصفحة ٣١٨ .

وعاشوا فى أكواخ من القش بدلا من الخيام . وكانت لغة الهوسا معروفة لديهم كلفة الطوارق تماماً ، ولذلك كان الطوارق الحقيقيون يعاملونهم بازدراء . وكان الأبوجيلى الذين ساءوا المنطقة الواقعة إلى الجنوب من أسبن مماثلين للكيل أوى إلى حد كبير ، فهم ثمرة لتزاوج نساء الطوارق بالجنود الزنوج ، وبخاصة السنغى والهوسا .

وقد تحالفت الكيل أوى مع قبائل كثيرة أصغر حجماً ، أهمها قبيلتا الكيل فادايى والكيل فيروان^(١١) ، وهما قبيلتان مشاغبتان كانتا تشنان غارات مستمرة على قبيلة الأوليمندين . وبينما كان اتحاد الكيل أوى قوياً فى أسبن ، كانت هناك مجموعة لا تقل قوة هى اتحاد الإيتيسان^(١٢) والكيل جيريس^(١٣) الخاضع لسيطرة حاكم أغادس ، وتمكن الكيل أوى من طرد أفرادها من هذه المنطقة . ومنذ ذلك الحين كان هناك عداة مستمر بين الاتحادين .

وقد استقر الكيل جيريس ، بعد أن طردهم الكيل أوى ، فى بلاد الأوليمندين ، حيث وحدت بينهم الكراهية المشتركة للكيل أوى . وكان لدى الكيل جيريس والإيتيسان عدد كبير من الخيول ، ولكونهما قبيلتين إثنيتين فقط فقد كان التماسك بينهما شديداً ، على حين كان اتحاد الكيل أوى مكوناً من قبائل لا تتحد فيما بينها إلا بين الحين والآخر ، كما حدث فى حالة الهجوم على أولاد سليمان^(١٤) .

(١١) الكيل فيروان : قبيلة شديدة الارتباط بطوارق الجزء الشرقى من الصحراء الكبرى الذين يسمون بربوا . وهى إحدى العشائر المهاجرة الأولى من الكيل أوى .

(١٢) الإيتيسان : فرع من الصنهاجة .

(١٣) الكيل جيريس : تربطهم قرابة شديدة بالإيتيسان . وهم من الهوارة فى فزان ، ولذلك فهم بالمثل من الطوارق . وقد استوطنوا منذ عام ١٠٦٧ بين توات وغاو على النيجر .

(١٤) أولاد سليمان : قبائل مركزها منطقة هوارة على خليج سرت . وقد انتشرت فى غرب بحيرة تشاد وفى منطقة البراييش بصحراء تاودينى شمال تمبكت . وأثناء مقاومة الاحتلال الفرنسى أدى التنارع بين الطوارق والعرب إلى قبول إحدى عشائر أولاد سليمان للحماية الفرنسية ، وكان ذلك طعنة لحركة المقاومة .

وعند بداية القرن التاسع عشر دخلت مجموعات أخرى غرب إفريقية ، ومن بينها عرب الشوا الذين استقروا بالقرب من بحيرة تشاد ، وهم شعب مسالم يهتم برعى الماشية أكثر من اهتمامه بفلاحة الأرض ، بيد أن الشيخ الكانمى استفاد منهم فى حملاته على الفولانى . وكان الشعب الأكثر قوة هو أولاد سليمان ، وهم قبيلة عربية نزحت إلى الصحراء واستقرت على الحدود الشمالية لبرنو ، وانضم إليهم كل مغامر فى المنطقة المحصورة بين الريف وفزان ، حتى لقد استطاعوا أن يقدموا للميدان ألفا من الخيالة ، كما كانت قوتهم من الضخامة بحيث خشى سلطان البرنو لقاءهم . وكان الهدف الذى وضعه أولاد سليمان نصب أعينهم هو طرد الكيل أوى من بلما والسيطرة على تجارة الملح ، ورأوا أن أفضل طريقة لتحقيق ذلك هى حرمان الكيل أوى من جمالهم ، ومن ثم بدأوا غاراتهم على الكيل أوى ، ويقول بارث إنهم نجحوا فى الاستيلاء على ثلاثين ألف جمل . ولم يكن استمرار ذلك ممكنا . وكان أمام الكيل أوى أحد حلين : إما تدمير أولاد سليمان أو الانتقال إلى مراعى جديدة . واستقر رأيهم على الحل الأول ، وقاموا فى هذا الصدد بجهد هائل لقوا فيه تحريضا من برنو التى رأت فى وجود عصابة قوية من قطاع الطرق على حدودها الشمالية مصدر قلق دائم لها . واستطاع الكيل أوى حشد سبعة آلاف من الخيالة وراكبى الجياد ، وفى عام ١٨٥٠ أخذوا أولاد سليمان على غرة ، وأوقعوا بهم هزيمة قاسية . والآن بعد أن لم يعودوا يشكلون تهديداً وضعهم سلطان البرنو تحت حمايته ، واستخدمهم فى حراسة حدوده الشمالية .

وفى الغرب كان الأوليمندن ، بعد غزوهم لتمبكت فى عام ١٧٧٠ ، هم المجموعة السائدة . وعلى الرغم من أن ظهور الفولانى فى ماسنة كان يعنى أنهم لم يعودوا يسيطرون على تمبكت ، فقد كان لهم أصدقاؤهم هناك ، ومن ذلك أن الشيخ البكاى^(١٥) ومعظم رجال الدين تحالفوا معهم ضد الفولانى .

(١٥) أحمد البكاى شيخ الكونتتا (انظر الحاشية ٩ - ٩٨ أنناه) .

ثالثا

كان القرن التاسع عشر عصر ازدهار للإسلام . فبعد سقوط السنغى كانت سطوة المسلمين من جوانب كثيرة آخذة فى الأفول . وكان البمبرة والموسى ، وهما القوتان الأساسيتان فى غرب بلاد السودان ، من الوثنيين ، على حين كان هناك تسامح إزاء الممارسات الوثنية فى بلاد الهوسا والبرنو برغم اعتناقهم الإسلام . كما أن اعتناق الفولانى للإسلام ، سواء فى ماسنة أو فى بلاد الهوسا ، كان يسير ببطء . وهكذا لم يكن هناك ما يحمل على الاعتقاد بأن الإسلام يمكن أن يصبح عاملاً حيوياً فى هذه المناطق .

ويمكن أن نرجع التحول الملحوظ فى هذا الوضع إلى ظهور الطوائف المتشددة فى الدين فى الصحراء . وكان السنوسيون^(١٦) هم أكثر هذه الطوائف أهمية . فقد بنى محمد المدنى زاوية بالقرب من مصراته ، وقام بتنقية شعائر الدين من البدع ومحاربة التضرع للأولياء والتبرك بالقبور . ودعم ابنه محمد بن عبد الله السنوسى سلطة طريقته على أهل الصحراء الشرقية التى تعنى السيطرة عليها أن السنوسيين يستطيعون ضمان طريق مأمون إلى بلاد السودان . وقد تغلغت الأفكار الإصلاحية تغلغلا ظاهرا فى بلاد السودان على طول هذا الطريق . فضلا عن ذلك كان معظم رجال الدين فى كانوا وتمبكت من بين من تلقوا العلم على أيدي رجال الزوايا بالصحراء ، ومن ثم اعتنقوا أفكار المصلحين .

(١٦) الحركة السنوسية : مؤسس هذه الحركة هو السيد محمد بن على السنوسى الخطابى الحسنى الإديسى ، (١٧٨٧ - ١٨٥٩) ، فهو من سلالة الأدارسة ، وهو جزائرى الأصل ، ولد فى مستغانم بالجزائر فى ديسمبر ١٧٨٧ . انتقلت السنوسية من نطاق الصوفية العادية إلى الصوفية المجاهدة شأن معظم الحركات الصوفية المغربية . فقد حلت محل العصبية القبلية ، وتولت أمر الكفاح ضد الغزاة . أنشأ مؤسسها قاعدة للسنوسية فى واحة الجغبوب بصحراء مصر الغربية ثم فى الكفرة بصحراء ليبيا . قضى الفترة الأخيرة من حياته فى الجغبوب . خلفه ابنه الأكبر السيد محمد المهدي السنوسى الذى تولى السلطة فى الفترة ١٨٥٩ - ١٩٠٢ . وكانت الحركة قد أصبحت إمارة سياسية لها أرض وشعب ، وامتدت فى عهده إلى برنو والنيجر وإلى وسط الصحراء وإفريقية المدارية الغربية وشمال تشاد وغدامس

وشرع الإفريقيون بدورهم ، وبأعداد كبيرة ، فى زيارة شمال إفريقية وشرقها ، وكذلك الأماكن الإسلامية المقدسة . ويشير دنهاى إلى كثرة عدد الحجاج فى برنو ، وإلى عدد من كانوا يمرون بأراضى البرنو فى طريقهم إلى مكة . ومن بين الزعماء الثلاثة الكبار الكانى وعمر والشيخ عثمان ، فإن الأخير هو وحده الذى لم يؤد فريضة الحج . أما الكانى فقد تعلم فى فاس وزار مكة ، وأمضى عمر سبع سنوات فى المشرق وعاد خليفة للطريقة التيجانية^(١٧) . وذلك ليس كل ما فى الأمر . فالفاتحون الجدد كانوا جميعاً رجالاً متعلمين . من ذلك أن الكانى وعثمان دان فوديو وعمر لم يكونوا ضليعين فى المناظرات فقط ، وإنما فى قرص الشعر أيضاً ، وذلك على نقيض صارخ لمن سبقوهم من حكام ، إذ لم يكن بين حكام غرب إفريقية العظام من عرف عنه نبوغ فى العلم ، وإنما كان يعتمدون على من لديهم من متفقيهم .

ويحتل الفولانى فى سكتو مكان الصدارة بين الدول الإسلامية فى القرن التاسع عشر ، ليس فقط لأنهم أول من بدأ الحركة الإصلاحية ، بل كذلك لأن بولتهم هى الوحيدة التى عاشت إلى يومنا هذا . فالحاج عمر أخذ أكثر مما يستطع استيعابه ، وفشل فى تدعيم فتوحاته ، كما أن أسرة الكانى الحاكمة سقطت قبل أن يقضى عمر على هجوم رابع وعلى ماسنة . بيد أن الأمر الأكثر أهمية هو أن كلا من أحمدو وعمر كان متأثراً من بعض النواحي بسكتو . وقد أنفق عمر وقتاً لا يستهان به فى كل من برنو وسكتو ، بل إن أحمدو طلب نصيحة الشيخ عثمان فيما إذا كان على حق فى خروجه للجهاد .

(١٧) الطريقة التيجانية : تنسب إلى أبى العباس أحمد بن محمد بن المختار ، وهو فقيه مغربى ولد بالجزائر فى عام ١٧٣٧ . خرج لأداء فريضة الحج ، وأمضى فترة بالقاهرة عند عودته إلى بلاده . غلب عليه الاتجاه الصوفى فانضم إلى الطريقة الخلوتية ، ولكن سرعان ما اتخذ لنفسه اتجاهاً جديداً ضمن هذه الطريقة . وعند وفاته فى عام ١٨١٨ كانت الطريقة التيجانية قد علا شأنها فى المغرب . وكانت الحركة التى قادها الحاج عمر من أهم الحركات الحربية التى قام بها أفراد التيجانية . وكثيراً ما كان أفراد مثل هذه الطرق الصوفية يفرضون أنفسهم على الناس باسم الدين ، ويزاولون السحر وينافسون الكهنة المتطبيين من الوثنيين فى صناعتهم ، فحل المرابط محل الكاهن والساحر ، كما حلت جماعات الطرق الصوفية محل الجمعيات السرية الوثنية .

بيد أنه على الرغم من أن النصر كان حليف الإسلام ، بمعنى اعتناق عدد كبير من القبائل للإسلام ، وامتداد الحدود الجنوبية للإسلام حتى الغابات المطيرة في بلاد اليوروبا وجبال أداماوا في وسط إفريقية ، فإن الأمر المثير هو أن الاندفاع الإسلامي قد تم احتواؤه . ذلك أن اليوروبا كان باستطاعتهم أن يضعوا قيداً حاسماً على الفولاني في سكتو ؛ كما أن الموسى أوقعوا هزيمة حاسمة بماسنة ، ولم يتعرض البمبرة للقهر على الرغم من الهزائم المتكررة . وفي الغرب كان باستطاعة **كونج**^(١٨) تحدى **سامورى**^(١٩) ، وحتى في بلاد الهوسا لم يكفّ حكام الهابي أبداً عن القتال . ولم يكن أمراء الفولاني يسيطرون إلا على المدن ، وكانوا يخشون أن يهب رعاياهم ثائرين ، ونظروا بذعر شديد إلى تنصيب فخر الدين بن رابح على الحدود الشرقية لبلادهم . وبمقدم منتصف القرن التاسع عشر كانت الحركة الإسلامية العظيمة قد فقدت حيويتها وعنفوانها .

فضلا عن ذلك لم يكن اعتناق الإسلام عامل توحيد ، إذ لم ينجح في التغلب على النزاعات الانعزالية والقبلية . فالتوكولور لم يحاربوا ضد سامورى فقط ، وإنما ضد الفولاني أيضاً ، وحروب الفولاني مع البرنو هي حروب بين دولتين إسلاميتين يتزعم كل منهما رجل دين . وكان كل من المسلمين والوثنيين يخشون بأس رابح . كذلك لم تكن جيوش المجاهدين مكونة من مسلمين فقط – بل إن الفولاني الوثنيين هم أول من أيد الشيخ عثمان . وقد حارب مسلمو البمبرة من أجل قبيلتهم أكثر مما حاربوا من أجل دينهم ، وذلك برغم أن كثيرين منهم حاربوا في جيوش عمر ضد الفولاني . لقد كانت النزعة القومية الوليدة ، وليس الدين ، هي العامل السائد في القرن التاسع عشر .

(١٨) **كونج** : مستوطنة أنشأها السينوفو في أراضي السفانا شمال كوت ديفوار . اشتهرت بإنتاج الكولا . استولى عليها في عام ١٧٣٠ مهاجرون حولوها إلى مركز تجارى هام . في عام ١٨٨٩ قبل رئيسها اتفاقية وضعت بمقتضاها تحت الحماية الفرنسية ، فاجتاحها سامورى ودمرها وطرده الفرنسيين منها .

(١٩) **سامورى** : المجاهد أحمد سامورى تورى ، جد زعيم غينيا السابق أحمد سيكوتورى ، وزعيم الحركة الإصلاحية التي نهضت في جنوب سنغامبيا ، وأخذت طريقاً مماثلاً لحركة الحاج عمر . بلغت حركته ذروتها في عام ١٨٨١ ، وتمكن الاستعمار الفرنسي من القضاء عليها بعد أن خاض سامورى ضده نضالاً طويلاً ومريراً . اشتهر بالقدرة العسكرية والتقوى والحماسة الدينية . قضى على الشعوذة والسحر والمعتقدات الوثنية ، وأمر بإنشاء الزوايا ، وشجع الإقبال على المدارس .

رابعاً

كان الفولانى أصحاب الدور الكبير فى النهضة الإسلامية يتحركون طيلة القرون الماضية نحو الشرق . ويقول ديلافوس إن إبراهيم سعنو أسس أسرة ملكية فى عام ١٦٩٠ ، وإن الفولانى ظلوا لفترة طويلة يمارسون الترحال مع ماشيتهم ، ولكن إذا استثنينا جالية كبيرة فى ماسنة تابعة للمندنغو ، ومن بعدهم للسنگى ، فإن الفولانى لم يكن لهم حتى ذلك الوقت دور سائد فى الحياة السياسية .

وبعد سقوط إمبراطورية السنگى اعترف الفولانى فى أول الأمر بسيادة المراكشيين ، ثم بسيادة البمبرة فى سيكو ، غير أنه تَكَشَّفَ أمام الفولانى مع نهاية القرن الثامن عشر عصر جديد . وقد حولهم أحمدو فى ماسنة وعثمان دان فوديو فى بلاد الهوسا ، إلى عنصر تمزيق .

وعثمان دان فوديو أعظم أهمية بكثير من الشيخ أحمدو ، ليس فقط لأنه زعيمه الروحى ، بل كذلك لأن ما أنجزه عن طريق سلسلة متوالية من الأحداث الموفقة كان أقوى تأثيراً . وقد ولد عثمان فى مَرْت^(٢٠) بأرض غوبر فى ديسمبر ١٧٥٤ . وأبوه محمد - المعروف « بالفودى » أى الفقيه - فولانى هاجر من فوتا تورو . وقد درس فى أغدس ، وبعد أن أكمل دراساته جاء إلى غوبر وبدأ دعوته ، وسرعان ما اكتسب مركزاً موقوفاً ، وأصبح معلماً لأطفال الأسرة المالكة . وقد شغل هذا المنصب فى أيام **ياكب ونفاتا** . غير أن المتاعب بدأت عندما ارتقى العرش

(٢٠) تقول بعض المصادر إن عثمان دان فوديو ولد ببلدة طَقْلُ (وترد أيضاً فى صورة طَقْلُ أو دَغْلُ) بأرض غوبر . وقد وردت مَرْتُ فى مقطع شعري للشيخ عبد الله بن محمد ، فى كتابة تزيين الورقات ، الصفحة ٣٢ : « وإذا مَرَرْتُ مَرْتُ حَيَّ حَيْهْمُ » . وجاء بحاشية الجزء الانجليزى من هذا الكتاب أن مَرْتُ هى البلدة التى ولد بها الشيخ عثمان (الصفحة ٩١) . كذلك جاءت العبارة التالية فى تزيين الورقات الصفحة ٢٧ : « ويدخلون فى جماعته ونحن فى بلده الذى اشتهر به ونسب إليه ، وهو طَقْلُ » .

« ولد الشيخ عثمان فى قرية « طَقْلُ بأرض جوبر » ، عبد الله آدم الالورى ، الإسلام فى نيجيريا وعثمان بن فودى ، الصفحة ٣٥ . وقد وردت كلمة دَغْلُ فى إنفاق الميسور ، الصفحة ٩٨ .

تلميذه يُنْفَ^(٢١) الذى كان ينبغى أن يكون مسلماً تقياً . وعلى الرغم من أن ينْفَ قد تعلم على أيدي عثمان ، فإن إسلامه لم يكن صحيحاً ، وكانت لديه رغبة فى تشجيع الوثنية لا لشيء إلا لمضايقة أستاذه . لذلك رأى عثمان أنه من الحكمة أن ينسحب إلى قرية طَقْل ، وأن يتفرغ للدين . بيد أن أتباعه تزايدوا فى طقل مع تدفق أعداد كبيرة من فوتاتورو وماسنة تحت رايته . لذلك ساورت ساركن (سلطان) غوبر الشكوك ، فقد أصبح المسلمون بمثابة تهديد له ، إذ كانوا يشكلون مجموعة شديدة التماسك تتملكها رغبة دائمة فى تحدى سلطة الدولة . ومن ثم كان يُنْفَ تواقاً إلى إخضاع المسلمين ، وقام بمهاجمة معقلهم الرئيسى فى طقل .

وكان بعض أتباع شيهو (الشيخ عثمان) نوى صلابة شديدة فى الرأى ، وكان تلهفهم على اغتنام فرصة للصدام مع الحاكم أقوى من تمسكهم بأحكام دينهم . وكان أشهر أفراد هذه العصابة التى تموج بالاضطراب هو عبد السلام^(٢٢) الذى استثار السلطان بامتناعه عن منح البركة لجنوده . وبناء عليه أرسل يُنْفَ جنوداً ليحيثوا بعبد السلام إلى القضا^(٢٣) ، عاصمة غوبر . وقبض على عبد السلام وأتباعه ، ولكن عثمان تمكن من إطلاق سراحهم . وجاءت الإثارة من

(٢١) ياكب : سلطان غوبر ، وقد حكم فى الفترة ١٧٩٥ - ١٨٠١ ؛ وخلفه ابنه نافاتا فى الفترة ١٨٠١ - ١٨٠٢ ؛ وبعد وفاة نافاتا خلفه ابنه يُنْفَ الذى حكم فى الفترة ١٨٠٢ - ١٨٠٨ ، وقد كان ينْفَ تلميذاً للشيخ عثمان فى عهد أبيه نافاتا . وقد ضببت غالبية الأسماء على إتفاق اليسور وتزيين الورقات وكذلك الحركات الإسلامية فى غرب إفريقية وقيام دولة الفولانى .

(٢٢) عبد السلام المشار إليه هنا لا ينتمى إلى قبيلة الشيخ عثمان ، وإنما إلى قبيلة عريو . نزل مكاناً قريباً من دار الشيخ وسماه « دار السلام » . كان من تلاميذ الشيخ وأحد محاكيه فى الوعظ والدعوة . « فضاف بعض الجماعة من وعيدهم وهو قوم أخينا عبد السلام فهاجروا قبلنا » تزيين الورقات ، الصفحة ٥٤ .

« ثم رجعنا إلى بلدنا فأخرج جيشاً بعد ذلك إلى جماعة عبد السلام فغزاهم ... فتهيأنا للهجرة . فهاجرنا إلى مكان فى أطراف بلاده فى البوادي يسمى قُدُ » . المرجع نفسه ، الصفحة ٥٥ .

(٢٣) القضا : يقال القالاوا أيضاً . أسسها بابارى ساركن غوبر لتكون عاصمة له ، وذلك فى أرض زنفرا بعد أن فتحها فى عام ١٨٠٧ .

الفولانى : ذلك أن ينف اعتبر ما أقدم عليه الشيخ تحدياً لسلطته ، فهاجم طقل وفر عثمان إلى قُدْ . وكانت هذه هى هجرة الفولانى .^(٢٤)

وعندما فر عثمان إلى قُدْ هبَّ لنجدته الفولانى من مختلف ممالك الهوسا ومن ماسنة - الوثنيون منهم والمسلمون على السواء . وأعلن الشيخ أميراً للمؤمنين ، ولكن هذه لم تكن انتفاضة للمؤمنين ، ولا حتى للفولانى ؛ فقد كانت زنفرا ، إحدى ممالك الهوسا ، هى أول من هب لمساعدته ، لا لشيء إلا لوضع حد لسيطرة غوبر . فالغوبراوا (شغب غوبر) كانوا يقيمون أصلاً فى أغدس ، ولكن الطوارق طربوهم منها ، ومن ثم جاءوا الى زنفرا واستقروا فى شماليتها ، وسرعان ما تحووا سلطة ساركن زنفرا ، وأصبحت هناك حالة حرب مستمرة بين زنفرا وغوبر . وكانت غوبر أكثر قوة ، وتمكنت من تدمير برنين عاصمة زنفرا . ومع ذلك استمرت زنفرا نولة مستقلة ، وإن ظلت محصورة فى المقاطعات الشمالية ، ولذلك كانت حليفاً طبيعياً للشيخ عثمان . وبسبب تحالف الفولانى مع زنفرا أرغم ساركن غوبر على التفكير فى السلم ، وكتب إلى الشيخ عثمان يطلب إليه العودة إلى طقل . وقدم الشيخ شروطه ، وهى « أن يتوب الأمير ، ويخلص دينه كما ينبغى ، ويتفق هو والمسلمون على دين واحد ، ويبسط القسط والغدل ، ويرد جميع ما سلبوه من الجماعة وما أسروا منهم »^(٢٥) ، وأوفد الساركن مبعوثاً ، ولكن الشيخ أصر على أن يحضر الحاكم بنفسه ، ولم تقبل غوبر المهانة ، واستمرت الحرب .^(٢٦)

(٢٤) يحدد بوثل يوم ٢١ فبراير ١٨٠٤ تاريخاً لهذه الهجرة . انظر ، بوثل ، المرجع السابق ، الصفحة ٢٢٦ .

(٢٥) إتفاق اليسور ، الصفحة ٩٨ .

(٢٦) « ثم أنه كان أمير « غم » أرسل إلى الشيخ وطلب أن يصلح بينه وبين أمير غوبر وأخبر الشيخ أن أمير غوبر ندم وعزم أن يقبل على الشيخ كل خلة طلبها منه ... واتفق رأينا أن يجتهد الأمير ويسير إلى الشيخ بنفسه ، ويأخذ من الشيخ كل ما يريد ، .. فذهب ذلك الوزير حتى وافى الأمير وأخبره بجميع الأمور ، فكاد أن يقبل منه ، فجمع أهل مشورته ، واتفق رأيهم على عدم مسيره وإنفاذ البرداء ، فأنفذوا الشيخ الشريف .. فأخبره باباء الأمير عن المسير .. » المرجع نفسه ، الصفحتان ١١٥ و ١١٦ .

عندئذ كانت غوبر حريصة على كسب حلفاء لها ضد الفولانى . وكتب ينف إلى حكام الهابى^(٢٧) الآخرين لمالك الهوسا - كاتسنا ، كانو ، زازاو (زاريا الآن) ، بورا ، أسبن - يقول لهم إنه ترك جنوة نار صغيرة تنمو دون أن ينتبه إليها ، وإن نارها قد أحرقتة ، وطلب إليهم أن يعيروا انتباهاً لخبرته وأن يقوموا بعمل ضد الفولانى المحليين فى ممالكهم ، حتى لا يتكرر عندهم ما حدث فى مملكته . وعقد هؤلاء الحكام العزم على التصدى بعنف للفولانى الذين رأوهم بالفعل يتقاطرون نحو غوبر .^(٢٨) ولكن الفولانى كانوا متأهبين لذلك ، وتمكنوا من الإفلات .

وقرر ساركن غوبر تسيير حملة ضخمة ضد الشيخ ، ولكن بعض خيالاته من الفولانى انحازوا إلى جانب الشيخ . وبعد مناوشات محدودة عجز فيها فرسان الهوسا عن الانتشار السليم فى المستنقعات التقت القوتان فى تابكين كُت^(٢٩) (عام ١٨٠٤) . ولم يكن لدى الشيخ سوى عشرين من الخيالة ، لذلك اعتمد على رماة السهام . أما الهوسا فقد اعتمدوا على الخيالة الذين يرتدون الدروع والذين عجزوا عن الصمود أمام رماة السهام من الفولانى ، وانعقد لواء النصر لقوات الشيخ عثمان بقيادة أخيه عبد الله . ولم يكن هذا النصر حاسماً ، ولكنه دعم قوة الشيخ ، إذ تجمعت تحت رايته أعداد متزايدة من الفولانى ومن الهوسا الساخطين .

(٢٧) الهابى : هم قبائل النوجون الزنجية السودانية التى عاشت فى باندياجاراً ومبرى جنوب غرب تمبكت ، والتى ظلت متشبثة بوثنيتها قروناً كثيرة ضد ضغوط الامبراطوريات الإسلامية الكبيرة والامبراطوريات التى ازدهرت فيما حولها . تنظيمهم دينى وهمى يحكمه مجمع شديد التكامل من الأفكار الفلسفية والكونية تحت حكم رؤساء كهنة مقدسين « الهوجون » . يقوم دينهم على عبادة الأسلاف التى تمثلها أعمال الحفر الشهيرة لديهم .

(٢٨) « وكان من حديثها أنه لما خرج بريدنا من عند أمير غوبر أخذ الأمير فى التأهب والجهاز .. ، وكاتب إخوانه : أمير كاشنة وأمير كنو وأمير زرك وأمير لورا وأمير أزين فأجابوه كلهم بما التمس منهم من مساعدته ومعاونته على كل من انتسب إلى الشيخ وأنزوا له فى الغزو » إنفاق الميسور ، الصفحة ١٠٣ .

(٢٩) ويقال كُت فقط : « فأخرج لنا أمير المؤمنين جيشاً إليه وأمرنى عليه والتقينا معه فى مكان يسمى فرنم قريباً من حوض هناك يسمى كُت » تزيين الورقات ، الصفحتان ٥٥ و ٥٦ . ووردت كُتو فى إنفاق الميسور ، الصفحة ١١٠ : « تمام الخبر عن واقعة كُتو » .

غير أنه لم تكد تمضى بضعة أيام حتى تعرض بلُّ لكارثة في مكَّد ، مرجعها أن خيالة الفولاني تحت قيادة ثُنْب كاشو لم تكن لديهم دراية بالحرب ، فلانوا بالفرار فجأة^(٢٠) . وانسحب بلُّ ، ثم عاود الهجوم وأحرز النصر إثر تلقيه دعماً من قوات ساركن دَنَك وساركن برنو وساركن مَفَر ، بعد أن طرح هؤلاء الحكام ولاهم لساركن غوبر . وهكذا مرة أخرى كانت العناصر غير الفولانية - زعماء الهوسا غير الراضين عن غوبر - هي التي قدمت لنجدة الشيخ^(٢١) . غير أن الشيخ كان يرغب في إقامة تحالف مع كب ضد غوبر ، كما يرغب في أن تقف ممالك الهوسا الأخرى على الحياد . وإذا وضع هذا الهدف نصب عينيه ، فقد كتب في يولييه ١٨٠٤ إلى حكام كاتسنا وكانو وزازا قائلاً لهم إن هدفه هو « نصر الحق على الباطل وإحياء السنة وإخماد البدعة »^(٢٢) . ولم تكن لدى كاتسنا وكانو اللتين تزهران بتاريخهما الإسلامي - وبخاصة كاتسنا التي اعتنقت الإسلام على أيدي المغيلي - رغبة في الانصاف إليه ، ولكن ساركن زازا أصبح من أتباع الشيخ . غير أن الشيخ لم يكن عازماً على انتهاج السلم ، بل كان عاقد العزم على غزو غوبر ، وربما ممالك الهوسا جميعاً .

وانتشرت الحرب عندئذ في بلاد الهوسا بأسرها . وقام أنصار الشيخ في كاتسنا وكانو بثورة ضد حكام الهابي ، وانضموا إلى الشيخ بأعداد كبيرة . ولم يكن الشيخ في ذلك الوقت متحالفاً مع زنفرا فقط ، وإنما مع زازا أيضاً ، كما

(٢٠) « فنزل جيشنا بمَكَّد ونزلوا بكرار وقد جرى بيننا وبينهم محاورات ... فتبعهم الخيل وبعض الرجال ... فاقتتلوا ساعة ، فانهز المنافق ثنب كاشو في خيل له ... فكانت الهزيمة فاستشهد جماعة من القراء والصلحاء حتى انتهى الفل إلى الجيش » . المرجع نفسه ، الصفحة ١١١ .

(٢١) « ثم أنه لما سار الجيش إلى منى في مدة قليلة ورد علينا بريد غد ولغ وأمير دنك وأمير برم وأمير مفر كلهم بالتهنئة ، وكان أمير برم ومفر ودنك قبل هذا الجهاد بغاة على أمير غوبر ولما وصل إليهم الخبر بما صنع الله للمسلمين فرحوا بذلك جداً ، ورغبوا فينا لعداوتهم له ، لا رغبة في الإسلام ، فداريناهم على ذلك لشدة احتياجنا إلى الميرة فأطلقوا إلينا غيرهم وتجارهم ، وانتفعنا بذلك » . المرجع نفسه ، الصفحة ١١٢ .

(٢٢) المرجع نفسه ، الصفحة ١١٤ .

وقف إلى جانبه عدد من نبلاء الهابى فى غوبر، وفى كبٌ بدورها كان له أنصاره . وكان عثمان مسًى ، وهو ابن كُنْتُ سابق ، يأمل فى أن يظفر بعرش كبٌ بتأييد من الفولانى . وفى عام ١٨٠٥ تحرك المطالب بعرش كبٌ نحو برنين كبٌ بمساعدة جيش من الفولانى بقيادة عبد الله شقيق الشيخ عثمان وعلى جيدٌ قائد قوات الفولانى ، وتمكن من اكتساح فودٍ حاكم كبٌ بعد قتال ضارٍ استمر ثلاثة أيام . وأصبح عثمان مسًى عندئذ حاكماً ،^(٢٣) ولكنه انضم بقواته فى نهاية العام إلى فودٍ (ساركن كبٌ) والكيل چيريس وحاكمى غوبر ومارادى ضد الفولانى . وهكذا واجه الفولانى تحدياً خطيراً ، لأن ذلك كان ائتلافاً من أضخم ثلاث قوى فى شمال بلاد الهوسا يؤازره الطوارق . ورأى بلٌ وعبد الله انتظار ما تجئ به الأحداث ، ولكن على جيدٌ ، القائد العام لقوات الفولانى ، رأى مهاجمة القوات المتحالفة ، وانتصر رأيه ، وقام جيش الفولانى بمهاجمة قلعة كولد الموالية ونهبها ، ومنها تحرك جيش الفولانى نحو ألوس الواقعة على بعد عشرين ميلاً غرب غواند . وفى ألوس قام جيش الفولانى بمهاجمة القوات المتحالفة ، ولكنه تعرض للهزيمة بعد قتال ضارٍ منى فيه بخسائر فادحة (نوفمبر ١٨٠٥) .^(٢٤)

(٢٣) « نكر غزوة كبٌ . وكان من حديثها أنه لما نزلنا سانبغره ومعنا جموع أهل كبٌ ممن أمانونا على جهاد غوبر وفيهم عثمان مسًى ، وكان الشيخ ولاء على من سمع له من أهل كبٌ وكان له جهة من بلد كبٌ قبل هذا باغيا على سلطان كبٌ ، فاجتمعنا وشاورنا فى أمرنا ، فاجتمع رأينا فى غزو كبٌ فخرج بالراية قائد الجيش على جيد مع الوزير الأكبر ... ثم نهض إلى الحصن ففتحه الله عليهم فقتلوا وغنموا غنيمة عظيمة لم يغم بمثلها وأسكنوا عثمان مسًى فيه » . المرجع نفسه ، الصفحة ١٢٣ . [برنين كبٌ تعنى مدينة كبٌ الرئيسية الحصينة] ؛ وربما كان الوزير الأكبر المشار إليه هنا هو عبد الله شقيق الشيخ عثمان .

(٢٤) « نكر وقعة ألوس ... وأخبرنا بتحزب التوارك والغواير وسائر أهل أحوس إلينا - فاتفق رأى سادتنا على الخروج إلى لقائهم ، ورأى البعض على انتظارهم حتى يصلوا إلى رجالنا فصدر الكل على الخروج إلى لقائهم بعد ذلك ، فخرج بالراية قائد الجيوش ... فسرنا حتى نزلنا بكولد ، وهو حصن فيه أهل الذمة وبعض الجماعة ، فاكله الجيش ونهبوا ما فيه ... فمضينا حتى انتهينا إلى جميع التوارك ... ولما سمعنا بحسبهم رأينا أثارهم وعبأنا للقتال ... فرموا ورمينا ، فحملت ميعنتهم على ميسرتنا ، فكانت الهزيمة .. » المرجع السابق ، الصفحتان ١٢٣ و ١٢٤ .

وبعد هذه الهزيمة تراجع الفولاني إلى زنفرا وأعادوا تنظيم قواتهم ، على حين قام الشيخ عثمان بتسوية الخلاف حول وراثة عرش زنفرا . وفي الوقت نفسه فشلت القوات المتحالفة في الاستيلاء على غواند . وهذا الفشل لم يؤد إلى إضعاف القوات المتحالفة فقط وإنما قدم أيضا سندا معنوياً للفولاني . وبعد بضعة أشهر أحرز الفولاني نصراً مؤزراً على الطوارق (مارس ١٨٠٦) عند غولبن فأفر بالقرب من زُرْم^(٣٥) وترتب على ذلك تمزيق الائتلاف ، لأن الطوارق لم تعد لهم مصلحة في محاربة الفولاني ، كما أن سلطان أغادس أصبح حليفاً . وأدى هذا الخروج على الحلف إلى تدعيم صفوف الفولاني . ومع ذلك فكما يقول بلُّ ، « ولما انفصلنا من أمر الوس اشتد في بلادنا الجوع لانتشارها فخرجت بالعرير إلى الأطراف الغربية »^(٣٦) . واستمرت الحرب المتقطعة في الشمال ، وذلك لأن فود لم يكن راغباً في الخضوع . وسقطت مدن كب واحدة تلو الأخرى ، وربما كان بلُّ صادقاً عندما قال « فهاجت نار من فوق ، كرامة للشيخ ، فانتشرت في ديارهم فكانت سبباً للفتح ، ففتح الله علينا ومالت الخيل على جندهم حتى أفنؤهم ، وقتل من قتل بالحصن من رجالهم ، وسبى ذراريهم ونساؤهم وجمع أموالهم »^(٣٧) .

وفي أثناء ذلك ركب الفولاني الموج في ممالك الهوسا الأخرى . فقد سقطت كانو وبورا في أيديهم ، ثم استداروا نحو حليفهم السابقة زنفرا ، واستولوا عليها أيضا . وفي عام ١٨٠٦ لم يعد يقف في وجههم غير كاتسنا وأرغنغ . وقام بلُّ في ذلك العام بهجوم غير موفق على القضاوا^(٣٨) ، عاصمة أرغنغ . ولدى

(٣٥) « هذه قصيدة ميمية في وقعة فأفر واد بزُرْم » تزيين الورقات ، الصفحة ٧٤ .

« غزوة فأفر وكان من حديثها أنه لما هزم الله التوارك .. ولما رجعوا لبلادهم أخذوا بالتأهب إلى غزو زُرْم فمكثوا طويلا ... ولما نحووا نحو زُرْم رجعنا لبلادنا » إنفاق الميسور ، الصفحة ١٤٠ .

(٣٦) المرجع السابق ، الصفحة ١٢٧ .

(٣٧) المرجع نفسه ، الصفحة ١٤٧ .

(٣٨) « ذكر غزوة القضاوا الأولى ... اجتمعنا وشاورنا في أمرنا فاتفق رأينا على قتاله والمسير إليه .. وقتلناهم أشد قتال ، حتى كاد يفتح لنا ، واستشهد من جماعتنا الكثير ... » المرجع نفسه ، الصفحتان ١١٧ و ١١٨ .

عودته وجد أن والده مصاب بمرض خطير . وفى العام التالى وقعت أرغنع معاهدة سلم ، ولكن الشيخ رفض قبولها ، وأصر على أن يحضر زعماء أرغنع ويعلنوا الخضوع أمامه . وعندما فعلوا ذلك ذبحهم الفولانى واستثيرت أرغنع وواصلت الحرب .^(٣٩) وقام بلٌ بمحاولة أخرى ضد القضاوا فى عام ١٨٠٧ ، ولكنه أخفق للمرة الثانية .^(٤٠) ووصل الفولانى فى عام ١٨٠٨ إلى ذروة نجاحهم ، فقد تغلبوا على مقاومة أرغنع ، وخضعت لهم جميع مدن كبٌ ، وغزوا قلعة القضاوا بدورها .^(٤١)

فضلا عن ذلك فإنه بينما كان الفولانى فى أوج انتصاراتهم ، كان باستطاعة كاتسنا التصدى لهم . كما أن حكام الدول الأخرى من الهابى بدورهم لم يتخلوا كلية عن آمالهم . وفى شططهم استداروا نحو إمبراطور البرنو الذى كان سييدا عليهم . ولكن وا أسفاه ! فامبراطورية البرنو التى كانت يوماً ما ذات قوة وبأس ، والتى حكمها مايات (ملوك) بنى سيف دون منازع لأكثر من ألف سنة ، أصبحت الآن مجرد صورة باهته لأمجادها السابقة . ومع ذلك فقد أوفد السلطان وزيره لمساعدة حكام الهابى . وحرر الوزير ، ورفع الفولانى فى برنوراىه العصيان .

(٣٩) « ذكر غزوات أرغنع ، وكان من حديثها أن أهل أرغنع سالمونا ، ثم رأينا أخلافا . فنبذ إليهم الشيخ عهدهم ، ولما سمعوا بذلك وجهوا من أشرفهم ليطلبوا لهم الأمان ، فقتلهم أغيلمات ، فثار الحرب ومضى الجند ، وفيهم الوزير الأكبر عبد الله وقائد الجيش على جيد وعبد السلام ، فقاتلوا أرغنع أشد قتال ، وحاصروه ولم يفتح عليهم فرجعوا » المرجع نفسه ، الصفحة ١٤٨ .

(٤٠) « غزوة القضاوا الثانية ... فاتفق رأينا فى غزو القضاوا وعلينا قائد الجيش فاجتمعنا وشارونا ، فاتفق رأينا فى غزو التوارك فسرنا إلى معسكرنا لنعبر إليهم ، فلقينا أشرفهم وافوا يلتمسون الصلح ، فصالحناهم على عهود ومواثيق » . المرجع نفسه ، الصفحتان ١٤٥ و ١٤٦ .

(٤١) « غزوة فتح القضاوا الثالثة وأمرك بالتهيؤ إلى غزو أطراف القضاوا ... فقاتلنا هناك ... ففتح الله علينا الحصن طرفة عين ، فمال المسلمون عليهم بالقتل والأسر ، وقتل أميرهم ينف ... وكان المسلمون أينما كانوا يتوقعون وقعة القضاوا ... فلما كانت الوقعة وسارت بها الركبان سقط فى أيديهم ، وانكسر ظهورهم ، فتأب بعضهم ، وتابع آخرون ، فاستقام أمر البلاد ، واطمأن جوانبها ، والحمد لله رب العالمين » . المرجع نفسه الصفحة ١٤٩ .

لذلك أوفد **ماي برنو**^(٤٢) رسولا إلى الشيخ التماسا للسلم . وبناء عليه كتب **بل** إلى **الماي** يشرح له أسباب الحرب ومنشأها ، كما أوفد **بل** رسولا إلى رؤساء **الفولاني** يحظر عليهم شن الحرب ضد **برنو** . بيد أنه وقت وصول الرسول إلى **برنو** ، كان جيش **برنو** قد بدأ حملة أخرى . وتصدى له **إبراهيم زاك**^(٤٣) ، وهو رئيس **فولاني** في تلك المنطقة ، وأوقع به الهزيمة ووصل إلى مشارف عاصمة **برنو** ، ولكنه أخفق في الاستيلاء عليها . وكان ذلك بداية للحرب التي استمرت حتى النصف الثاني من القرن التاسع عشر .

ولهذا النزاع الطويل الأمد جانبه المثير والممتع ، ليس فقط بسبب ما فيه من إثارة تاريخية بوصفه حرباً بين زعيمين بارزين مثل الشيخ **الكانمي** و**سلطان بل** ، وإنما أيضاً بسبب الرسائل المتبادلة^(٤٤) بينهما والتي كتبت بلغة دينية ساحرة ، والتي يمكن مقارنتها من حيث السفسطة والسباب واستخدام المعتقدات الدينية من أجل أغراض دنيوية بالرسائل التي تبودلت بين **إيفان الرهيب** و**الأمير كوريسكي**^(٤٥) .

واستولى **الفولاني** على السلطة في المناطق الغربية من **برنو** ابتداء من عام ١٨٠٧ ، ودمروا **غسريميغو** عاصمة **برنو** القديمة ؛ وقد تبين **ماي أحمد** أنه ليس قوياً بدرجة تكفي لإبداء مقاومة فعالة ضد **الفولاني** ، فاشتط في عام ١٨١١

(٤٢) هو أحمد بن علي الماي الرابع والستون الذي حكم **برنو** في الفترة ١٨٠٨ - ١٩٧١

(٤٣) « ثم أنه توفي ابن عبور ، فقام الفقيه الأستاذ ، المحب المتقن **إبراهيم زاك** ، وجاهد فخر **برنو** حتى وصل قريبا من الحصن ، وكاد أن يسلمهم . » ، **إنفاق الميسور** ، الصفحة ١٥٦ .

(٤٤) يتضمن كتاب **إنفاق الميسور** عدداً كبيراً من الرسائل المتبادلة بين **محمد بل** والشيخ **الكانمي** ، وهي رسائل مطولة للغاية بحيث لا يفيد هنا في شيء نقل مقتطفات موجزة منها ، وكذلك فإن المجال لا يسمح بالنقل منها في توسع . ومن ثم فلا مناص من الاكتفاء بالإشارة إلى أنها ترد في الصفحات ١٥٧ إلى ١٩٢ لمن أراد دراستها بعمق .

(٤٥) **إيفان الرابع** : (١٥٢٠ - ١٥٨٤) : تُوِّج قيصرًا لروسيا في عام ١٥٤٧ ؛ **ألنريه كوريسكي** : كان خصماً عنيداً لـ **إيفان الرهيب** ، من سلالة أمراء **كييف** ، دافع عن حقوق النبلاء المقيهورين بمهارة أدبية كبيرة .

واستدار نحو الشيخ محمد الكانمى زوج إبنة حاكم نجالا . وأثبت الشيخ المتفقه فى الشريعة أنه جندى ممتاز ، وتلقى فى حربه ضد الفولانى مساعدة من عرب الشوا الذين استقروا بمحاذاة ساحل تشاد . وحشد الشيخ جيشاً قوامه ٤٥٠ من الخيالة وثلاثة آلاف من المشاه ، وبهذه القوة الصغيرة استطاع أن يوقع الهزيمة بإبراهيم زاك .^(٤٦)

خامساً

لقد اعترف ببرنو لفترة طويلة باعتبارها القوة الإسلامية الرئيسية فى إفريقية الوسطى ؛ ولذلك كان الشيخ تواقاً إلى أن يعرف على أى أساس يشن الفولانى الجهاد . وكان هدفه أن يثبت أن الفولانى ليسوا معنيين بإصلاح الدين ورفع شأنه ، وأن مقصدهم الحقيقى هو الاستيلاء على السلطة . وفى سلسلة من الرسائل تجادل الزعيمان الدينيان حول ما هى أركان الإسلام وما يشكل كفراً . وهذه الرسائل - التى يمكن بالمصطلحات الحديثة أن ندعوها دعاية إيديولوجية - تلقى ضوءاً هاماً لا على الدبلوماسية الإفريقية فقط ، وإنما أيضاً على معرفتهما العميقة بالإسلام .

كان الخلاف الفقهى بين الفولانى والبرنو ، كما سبق أن أوضحنا ، يدور حول ما هى أركان الإسلام . من ذلك قول بل عن أهل برنو : « أنا نجاهد أهل برنو وغيرهم بالكفر ، واستمسك فى تفكيرهم بركوب الأمراء لبعض المواطنين ، قصداً للصدقة بها ، وانكشاف الحرائر ، وأخذ الرشوة وأكل مال اليتيم ،

(٤٦) « فقام الفقيه الأستاذ المحب المتفنن إبراهيم زاك ، وجاهد وخرب برنو حتى وصل قريباً من الحصن ، وكاد أن يسالمهم ثم رجع وقام الأخوان الغلاتيون ... وجاهدوا أرض برنو من جهة اليمين ، فوجه إليهم أمير برنو جنوداً والله تعالى يردها عنهم ، حتى أفنوا أكثر جنود برنو ... ولما رجع أمير برنو هناك واستغاث بمن تخلف عنه ، وفيهم الحاج الأمين ابن محمد الكانمى ، فهجموا على الطائفة ، فاستشهدوا فانتشر باقى الناس إلى ممتنع البلاد . » إنفاق الميسور ، الصفحتان ١٥٦ و ١٥٧ . [وبذلك يتضح أن المقصود هنا ليس الشيخ محمد الكانمى وإنما ابنه الحاج الأمين .]

والجور فى الحكم - كما ثبت عندنا من كفرهم ، بجهل الأصول ، والذبح للأحجار والأشجار»^(٤٧). ويتهمهم فضلاً عن ذلك بممارسة طقوس دينية معينة فى النهر شبيهة بتلك التى كان المصريون يمارسونها على ضفاف النيل ، وبأن لديهم بيوتاً معظمة يمارسون فيها طقوسهم الرئيسية وعليها حراس معينون .^(٤٨) ولا يؤمن سلطان بل برواية الكانمى بأن شعب برنو من المسلمين وبأن زعماءه يؤمنون بمحمد ، « لأننا لا نعرف ما إذا كانوا يتبعون وصايا فقهاءهم أم حادوا عنها » . ويمضى بل فى اتهامه للكانمى بأنه كاذب يدرك جيداً أن سلطان برنو وأهلها كفار ، ويزعمون بأنهم يقرون بالإسلام . فضلاً عن بعض نقاط أخرى تناولها الشيخ عثمان ، إذ يقول إن برنو وممالك الهوسا تفرض ضرائب لا تقضى بها الشريعة ؛ وإن موظفيها فاسدون ويتخذون لأنفسهم ألقاباً لا يقرها الإسلام ؛ وإن أهلها يرفضون التخلّى عن أعراف أسلافهم ، ثم أن العقوبات التى توقع على مرتكبى الجرائم لا تتماشى مع الشريعة ؛ فهم لا يرحمون الزانى أو الزانية ، ولا يقطعون يد السارق ، ولا يتبعون أحكام الشريعة ، وإنما يستعيزون عنها بعقوبات ذات أساس اقتصادى .

فضلاً عن ذلك فإن حكام الهوسا يعيشون فى قصور مزينة ، ويحتفظون حريم كثير ، وتلك أمور يحرمها الإسلام . ولا ينكر الكانمى اتهامات بل ، وتزخر رسائله إليه بمستوى من السفسطة يفتقر بل إليه ، ويقول إن اتهاماته الخمسة لا تجعل من الحرب عملاً مشروعاً .^(٤٩) « إن قلتم : فعلنا ذلك بكم لكفركم فإننا براء

(٤٧) من رسالة وجهها بل إلى الكانمى ، المرجع نفسه ، الصفحتان ١٦٤ و ١٦٥ . وكلمة « تكفيرهم » فى هذا الاقتباس وردت هكذا بالنص ، وربما كانت صحتها « تكفيرهم » .

(٤٨) « أنهم ينبحون للأحجار وللأشجار ، ويعملون للبحر ، كما كانت القبط تفعل للنيل أيام الجاهلية ، وأن لهم بيوتاً معظمة فيها أصنامهم ، ولها سدة . » من رسالة أخرى من بل إلى الكانمى ، المرجع نفسه ، الصفحة ١٧٣ .

(٤٩) « ومن أعظم حججكم على تكفير عامة المؤمنين ، ركوب الأمراء لبعض المواطنين ، قصداً للصدقة بها ، وكشف رؤوس الحرائر ، وأخذ الرشوة ، وأكل مال اليتيم ، والجور فى الحكم . وهذه الخمسة لا تبيح لكم هذا الفعل ... » المرجع نفسه ، الصفحة ١٥٨ .

من الكفر ، بعيدون عن ساحته ، فإذا كان إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، ومعرفة الله ، وصوم رمضان ، وعمارة المساجد ، كفراً – فما الإسلام ؟ .. أما ركوب الأمراء فبدعة شنيعة مذمومة ، وجب النهي عنها والإنكار على فاعلها ، ... وأما كشف الرأس فحرام أيضاً ، ورد القرآن بالنهي عنه ، لكن لا تكفر فاعلته ... وكذا أخذ الرشوة وأخذ مال اليتيم والجور في الحكم ، وكل ذلك من الكبائر التي نهى الله عنها ، لكن لا يكفر أحد بعد أن استقر إيمانه بذنب ، فلو أمرتم بالمعروف ، ونهيتم عن المنكر ، واعتزلتم الناس حين لم ينتهوا ، لكان أحسن من هذا القتل ، إذ الأمر والنهي متوقف على شروط : منها ألا يؤدي إلى ما هو أعظم منه ، وهذا نهيكم قد ورطكم ، وأدخل عليكم وعلى المسلمين ضرراً دنيوياً وأخروياً ... »^(٥٠)

والكانمي فضلاً عن ذلك يتهم الفولاني بأنهم : (١) يطؤون الكتب التي يرد فيها إسم الله ؛ (٢) ويحنتون باليمين ؛ (٣) ويقتلون الرجال ويأسرون النساء والأطفال^(٥١) ؛ ويخلص من ذلك إلى ما يلي : « فيا عجباً منكم بعد أن كانت لكم التقدمة في العلم والدين ، أحببتم الملك ورغبتم فيه وسوَّكت لكم نفوسكم ، وتخيَّلتُم ما تخيَّلتُم ، واستدللتُم بظواهر لا تنهض لكم دليلاً ... »^(٥٢)

ورد بلُّ على الكانمي لا يقل أهمية . فهو يرفض ما يقوله الكانمي عن الشيخ عثمان ، ويتهمة بالتخبط والجنون^(٥٣) . وحجته في ذلك أنه ما دام الشيخ يقول

(٥٠) من رسالة أخرى من الكانمي إلى بلُّ ، المرجع نفسه ، الصفحتان ١٥٨ و ١٥٩ .

(٥١) « نعم رأينا منكم ما ينكره كل موفق ، وذلك إهانتكم للكتب برميها في الطرق وفي المواضع المستقنرة – وفيها اسم الله تعالى . وتعلمون أن من ألقى آية من القرآن في موضع مستقنر كفر ، والعياذ بالله ! وكذلك رأينا من بعضكم من يعاهدون ويؤكدون الإيمان ، ثم ينقضونها بعد توكيدها ، بقتل الرجال واسترقاق النساء والأبناء ... » المرجع نفسه ، الصفحتان ١٥٩ و ١٦٠ .

(٥٢) المرجع نفسه ، الصفحة ١٦٠ .

(٥٣) « وأما قولك : يا عجباً – إلى فعلكم ، فكلام مختلط ، أو كلام من تخبطه الشيطان من المس ، تشهد لنا بالخير ، ثم تشهد لنا بالشر ، كفى بهذا خبالاً وخبطاً ... وهكذا قولك في الشيخ عثمان بن فودي : شهدت له بالخير ، ثم ألمت إليه بالشر ، خبطاً منك وخبالاً في قلبك ، كفى بهذا منك نقيصة » . المرجع نفسه ، الصفحة ١٦٩ .

بأنهم جلبوا المتاعب للمسلمين بسبب الحرب ، فإن ذلك لا يعنى إلا أنه يتخذ جانب الهوسا . وفى هذه الحالة يوضح بل أن الكانمى لا يعنيه ما يقوله الشيخ . وربما يكون بل قد أدرك أنه بمقتضى الشريعة لا يمكن تبرير الحرب ضد ممالك الهوسا برفض الكانمى للعرض الذى قدمه الشيخ بأن يدع فقهاء الشرق يقررون ما إذا كانت هذه الحرب جهاداً أم لا . (٥٤)

لقد أوضح بل سبب حروبه مع برنو ، وهو لا يرجعها إلى كفرهم الذى لا يملك بشأنه دليلاً يكفى لأن يكون حكماً قائماً بذاته ، « لأنه ما بعث أمير برنو - على ما بلغنا - على إذاية المجاورين لكم من الجماعة المنتسبين إلى الشيخ ، حتى ألجأهم إلى الهجرة ، وبدأهم بالمقاتلة ، إلا التعصب لملوك حوس ونصرتهم ، ... فهؤلاء كفار مرتدون مثلهم بإجماع ، ... أما أموالهم ففى ردها لهم وجعلها فى الفئ خلاف تقرر فى علم الفقه ... فإذا كان الأمر كما ذكرت من أنهم تابوا وأقلعوا ، فوضع القتال إذ ذاك عما بيننا وبينهم واجب » . (٥٥)

وكتب عثمان دان فوديو بدوره إلى الكانمى يقول : « وقد بين لنا الشيخ الحق ورأيناه واتبعناه » (٥٦) . وجاء فى رد الكانمى على الشيخ : « وكذلك رأينا من بعضكم من يعاهدون ويؤكدون الأيمان ، ثم ينقضونها بعد توكيدها ، بقتل الرجال واسترقاق النساء والأبناء ، فيا عجباً منكم بعد أن كانت لكم التقدمة فى العلم والدين ، أحببتهم الملك ورغبتم فيه وسوّلت لكم نفوسكم ، ... » .

(٥٤) « أعلم أن سبب قتالنا لكم فلائكم واليتم كفار حوس (الهوسا) دوننا بغير تقية منهم ... ولقيامكم أيضاً على إذاية المجاورين من الجماعة حتى ألجأتموهم إلى الهجرة ، وبدأتموهم بالمقاتلة ، تعصباً لملوك حوس ونصرة لهم ... » المرجع نفسه ، الصفحة ١٦٧ .

« فإذا كان الأمر كما قيل فسنوجه بريتنا (مخداد بن ليم) ويحضر معه سادات المشرق من الجماعة ، فتوجهون أنتم من ترضونه لأموالكم وتأمينونهم وراء ظهوركم ، فيكون الموعد بسيكو فيتعاقدون على عهود ومواثيق يتوافقون عليها ويتراضون فيوضع القتال ، ويثبت السلم ... فإذا كان الأمر كما ذكرت من أنهم تابوا وأقلعوا فوضع القتال إذا ذاك عما بيننا وبينهم واجب » . المرجع نفسه ، الصفحتان ١٧٤ و ١٧٥ .

(٥٥) المرجع نفسه ، الصفحات ١٧٢ إلى ١٧٥ .

(٥٦) من رسالة لحمد بل رداً على الشيخ الكانمى ، المرجع نفسه ، الصفحة ١٦٢ .

واستدللتهم بظواهر لا تنهض لكم دليلاً ، لا سيما وقد سمعنا من سير الشيخ عثمان بن فودي ورأينا في تأليفه ما يخالف فعلكم »^(٥٧) . وما يريده الكانمي هو أن يأمر الشيخ أتباعه بعدم الإغارة على برنو . وهكذا يتضح أن عثمان دان فوديو لم تكن لديه حجة لشن الحرب ، فضلاً عن أن الجهاد لا يمكن الخروج له إلا بشروط ، ومن المشكوك فيه ما إذا الشيخ قد تقيد بهذه الشروط ، فرسالته إلى أحمدو حاكم ماسنة تبين أنه لم يكن يولى الشروط الموضوعة للخروج للجهاد أهمية كبيرة .

وكانت هناك أسباب أخرى لثورة الفولاني لا تقل أهمية عن الأسباب الدينية ، في مقدمتها انزعاج حكام الهابي المتزايد من النفوذ الذي تكتسبه طبقة الفقهاء التي تتعارض أعرافها الاجتماعية مع أعراف الهوسا . وقد أصدر نفاتا ، أمير غوبر ، الذي شغل الشيخ عثمان في عهده منصب معلم الأسرة المالكة ، قوانين لتقليص قوة تلك الطبقة ، يقول عنها محمد بل : « فلم يرعنا إلا إنذار أمير غوبر نفاتا بثلاثة أمور : أنه لم يرض لأحد أن يعظ الناس إلا الشيخ وحده ، ولم يرض لأحد بالإسلام إلا وارثه من آبائه ، ومن لم يرث الإسلام فليعد إلى ما وجد عليه آبائه وأجداده ، وألا يتعمم أحد بعد اليوم ، ولا تضرب امرأة بخمارها على جيبها - وهذا إنذاره في الأسواق ، كل ذلك سعى منه في مكيدتنا ... »^(٥٨) .

ويعتبر ذلك بطبيعة الحال تعدياً على حقوق المسلمين . وكان أمن الدولة هو الذي دفع نفاتا إلى اتخاذ هذه الإجراءات . فالإسلام كان يقتصر على طبقات معينة في بلاد الهوسا : وكان من الضروري المحافظة على النسبة بين الوثنيين والمسلمين ، فزيادة عدد المسلمين تعنى أن تكون السلطة في أيدي الفقهاء . وكانت قوة المسلمين كأقلية تكمن في تماسكهم الاجتماعي ؛ وكان نفاتا يأمل في القضاء على هذا التماسك عن طريق منع لبس العمامة وارتداء الخمار . بيد أن

(٥٧) المرجع نفسه ، الصفحة ١٦٠ .

(٥٨) هذا الاقتباس لم يرد بنصه في المتن ، إنما صاغ باننيكار معانيه بأسلوبه . ولما كان الأمر لا يعنى اختلافاً في الصياغة ، فقدت أثرت أن أورده طبقاً لنصه في إتفاق الميسور ، الصفحتين ٩٦ و ٩٧ .

هذه الإجراءات لم تسفر عن ثورة ، على الرغم من أنها كانت تعنى أن الفقهاء قد انقلبوا على حكام الهابى ، وبدأوا تحريض السكان .

وقد تفشى السخط فى بلاد الهوسا . إذ أن الحروب المستمرة منذ نهاية القرن السادس عشر ، وكذا غزوات الكوارارافا ، أدت إلى تدمير الاقتصاد . ولجأ الحكام من أجل الحصول على البنادق والبارود والخيول إلى زيادة الضرائب .

وقد ترتب على الضرائب إبعاد التجار الأجانب من كانوا منذ بداية القرن الثامن عشر ، وفرضت ممالك الهوسا الأخرى بدورها الضرائب والمكوس على قوافل التجارة . بل إن العامل الأكثر أهمية فى زيادة السخط العام كان نظام إيرادات الأراضى ، وكذلك الجانجالى التى فرضت على أغنام القبائل الرعوية . فهذه الضرائب قد فاقمت السخط كثيراً بين الفلاحين . وكان تجنيد الهوسا للمسلمين إجبارياً فى جيوشهم بمثابة إضافة الوقود إلى النيران المضطربة . وكانت الحادثة التى أشعلت ثورة الفولانى متصلة بهذه القضية الأخيرة ، فقد رفض عبد السلام ، أحد أتباع الشيخ عثمان ، أن يبارك الجنود الذين جندتهم غوبر من بين رعاياها المسلمين . وهكذا لم تكن الأسباب الاقتصادية أقل أهمية من الأسباب الدينية .

ويزداد ذلك وضوحاً إذا أجرينا تحليلاً للطبقات التى أيدت الجهاد . أولاً ، كان هناك نبلاء الهابى غير الراضين عن غوبر ؛ ويلي هؤلاء أهمية الزنفرا الذين كانوا يعتبرون غوبر عدوة لهم ؛ وكان هناك أيضاً المطالب بعرش كبّ ؛ وكان لابد لنبلاء الهابى والزنفرا أن يتخذوا جانب أى متحدٍّ لسلطة غوبر . وبصرف النظر عن هؤلاء النبلاء ، فقد حصل الشيخ على تأييد الفولانى الفقراء ، المسلمين والوثنيين على السواء ، الذين أثقلت الجانجالى كاهلهم . كذلك أيده أهل القضاوا ، مسلموهم ووثنيوهم ، فى المراحل الأولى ؛ كما كان الفولانى من سكان المدن يتخذون حتى وقت نجاح الثورة موقفاً معتدلاً من الشيخ عثمان . فخيالة غوبر من الفولانى ، على سبيل المثال ، حاربوا فى البداية ضد الشيخ ، ولكنهم ما إن

أدركوا قوة الشيخ حتى تخلوا عن يُنْفَ ، أمير غوبر . وربما لقي الشيخ التأييد أيضاً من التجار ، وكذلك الحرفيين ، بسبب الضرائب الفاحشة والطابع التعسفى للإدارة ، وقد استفاد الشيخ كثيراً من هذه النقطة الأخيرة ، ومن حقيقة أن حكام الهابى قد استبدلوا بالعقوبات التى نصت عليها الشريعة عقوبات اقتصادية .

ولم تتضح الجوانب الدينية والعرقية للجهاد إلا بعد نجاح الشيخ عثمان ، فكل حملة الرايات تقريباً كانوا من الفولانى ، بل إن حكام الهابى الذى اتخذوا جانبه ، مثل حاكمى زنفرا وزُورُ ، قد حل محلهم الفولانى . وهكذا أفاد الشيخ كثيراً من السخط الاقتصادى والسياسى المتفشى فى بلاد الهوسا كى يفرض سيطرة المسلمين من الفولانى .

لقد كانت ثورة الفولانى رد فعل للتجديلات التى أدخلها الهوسا على إداره ، ولم يكن مرجعها حقيقة أن يُنْفَ قد هاجم نعالها فى اصطهاده للمسلمين . أو أن الوثنيين قد أصبحوا خلال أيامه أكثر مجاهرة بتقيدهم بأعرافهم التقليدية ، وإنما مرجعها أن عهدى يُنْفَ ونافاتا قد شهدا تزايد سلطة طبقة الفقهاء . وقد أخفقت إجراءات نفاتا لتقييد نموهم ؛ وكان باستطاعة هؤلاء الفقهاء استغلال السخط السائد بإبلاغ التالاكوا أن حكام الهابى غير مسلمين . وإلى جانب الفساد فى الإدارة والضرائب الباهظة - التى ركز عليها المجاهدون لكسب تأييد شعبى - ركز الشيخ كثيراً على إدارة القضاء . فقد شكوا من أن حكام الهابى لا يتبعون الشريعة ؛ فهم لا يجلدون أو يرجمون الزانى أو الزانية ، ولا يقطعون يد السارق ، ولا رقبة القاتل ، ولا أطراف من يحدث أذىً بدنياً بشخص آخر . والحقيقة أنهم تخلوا عن القانون العبرى القديم ، قانون العين بالعين والسن بالسن ، واستعاضوا عنه بالمفهوم الحديث للعقوبات الاقتصادية . وفى هذا النظام مساس بالفقهاء من الناحية الشخصية ، فكانوا فى مقدمة من عارضه . وفى بلاد الهوسا اقتصر دورهم على تأدية الواجبات الدينية ، ولم يكن يسمح لهم بالتدخل فى الشؤون السياسية . أما الحكام الأكثر اهتماماً بأمور الاقتصاد والإدارة فلا يطلبون مشورة العلماء .

والواقع أن بلّ قد سلّم بذلك ضمناً عندما كتب إلى الكانمى يقول بأن الفولانى لا يعرفون ما إذا كانت برنو تتبع وصايا علمائها .^(٥٩)

ويمكن ملاحظة أن ثورة الفولانى كانت فى أساسها حركة محافظة ذات نغمت عرقية خافتة من حقيقة أن الفلاحين الفقراء الذين ساندوها بحماسة فى مراحلها الأولى سرعان ما خبت حميتهم وانقلبوا على الفولانى . الأمر الثانى أن زعماء الحركة كانوا أن يكونوا جميعاً من الفولانى . وليس مرجع ذلك أنه كانت لديهم معرفة أكبر بالإسلام ؛ فبعضهم كان جاهلاً ، مثال ذلك زعماء البرنو من الفولانى الذين أحالوا الكانمى - عندما سألهم عن أسباب الحرب - إلى الكتب الدينية . بل إن الشيخ أحمى لم تكن لديه الكتب الكافية لتسيير الإدارة وفقاً لأحكام القرآن . فضلاً عن أن الفولانى ما إن يصلوا إلى السلطة حتى يصبح لديهم من الحريم أكثر مما لدى حكام الهابى ، كما كانوا يعيشون فى قصور مزينة ؛ واستمرت الضرائب على نفس فداحتها فى عهد الطبقة الحاكمة القديمة . ومع ذلك فقد طبقوا إجراءات تنطوى على تمييز ضد الوثنيين والهوسا ، وأصبح القضاء بأسره موجهاً ضد الوثنيين ، وكان هناك قانون لهم وآخر للمسلمين . فطبقاً للشريعة يدفع من يقتل شخصاً من غير عمد دية لأهل القتل ، ولكن أعراف الوثنيين تمنعهم من قبول تعويض نقدى عن وفاة قريب لهم ، ولذلك يقلت المسلم من أى عقاب . وثمة مثال أكثر أهمية هو أنه عندما ألغيت الجانجالى ، كانت الماشية واللحوم التى تباع فى الأسواق معفاة من الضريبة ، على حين لم تكن الحال كذلك بالنسبة للخضروات . وكان المستفيدون من ذلك هم الفولانى بطبيعة الحال . كذلك جُرد الوثنيون من حق حمل السلاح ، لأن واجب حماية السلطنة يقع على عاتق المسلم . وبذلك تكون الدولة فى ظل الفولانى قد تخلت عن

(٥٩) « فاعلم أنا ذكرنا فى كتابنا الأول أنه ليس عندنا حقيقة أثمتها وسلطينها ، ولكن يبلغنا الأخبار بما هو أكثر مما ذكرت فيهم ، وهل هم باقون عن ما يؤثر عن أوائلهم أم غيروا » . المرجع نفسه ، الصفحة ١٧١ .

المبادئ الثلاثة : المساواة أمام القانون ؛ واجب كل فرد في الدفاع عن الدولة ؛ تساوى الفرص أمام الجميع . وهكذا تكون سياسة العصور الوسطى التي انتهجها الفولاني قد سحقت سياسة الهوسا العصرية الصاعدة .

سادسا

بمقدم عام ١٨٠٨ كان قد تم دحر كبّ وأرغغ^(٦٠) ، وكانت كاتسنا^(٦١) هي الوحيدة التي استطاعت الصمود في وجه الفولاني خلف أسوار مدينتها العظيمة طيلة سنوات سبع ، بل إن بداية المجاعة لم تستطع أن تخضع المدينة . ولم يغادر حاكم كاتسنا مدينته ويلجأ إلى مارادى إلا عندما ارتفع ثمن النسر غير النظيف ووصل إلى ٥٠٠ كوردى . وأصبحت مارادى وكبّ وأرغغ ودندى مراكز تقف في وجه الإسلام . فالمارانوا (شعب مارادى) واصلوا مهاجمة الفولاني في كاتسنا ، بل وحاصروا المدينة ، ولم تتمكن كاتسنا من طرد الهوسا إلا بمساعدة سكتو . وقد أقدم نَنَكَم ، حاكم مارادى^(٦٢) ، على الانتحار بعد فشله ، وخضعت مارادى للفولاني بعض الوقت .

وبعد عام ١٨٠٧ ترك الشيخ الشؤون الدنيوية للدولة في أيدي أخيه عبد الله وإبنة محمد بِلْ ، وقسم المناطق التي فتحها فيما بينهما: بِلْ على المناطق الشرقية

(٦٠) « ذكر غزوات ارغغ .. ثم اجتمعنا وشاورنا ، فاتفق رأينا على غزوهم وغزو أورغ فسار الجيش وعليه قائد الجيش ، فشننا الغارة على أهل أرغغ فأصبنا غنائم ... ثم أنه لم نزل السرايا منا غادية عليهم ورائحة ، حتى استلانو ، فاجتمعنا وشاورنا في أمرنا فاتفق رأينا على غزو أرغغ فمضينا بالجند ، حتى نزلنا عليهم ، فطلبوا منا الصلح ، فصالحناهم ، فحينئذ استقام لنا بلد كبّ . » المرجع نفسه ، الصفحتان ١٤٨ و ١٤٩ .

(٦١) « تلخيص ما وقع في كاشنة .. فسار أمير كاشنة الكافر الذي ولى بعد المقتول إلى دَنَكَم ونزل بها فصار إليه عمر دلاج في نفر يسير ، فكانت الهزيمة ورجع عمر دلاج إلى حصن كاشنة ، ثم أنهم نهضوا إلى حصن كاشنة ، فأخرجوا عمر دلاج منه ، وأكلوا جميع ما وجدوه . » المرجع نفسه ، الصفحتان ١٢٨ و ١٢٩ . [كاشنة هي كاتسنا] .

(٦٢) ربما تكون كلمة « نَنَكَم » اسم مكان أيضاً ، فقد أشار إليها إتفاق اليسور (الصفحة ١٣٠) على أنها كذلك « فساروا وعليهم الأخ المظفر إلى دنكم » . أما مارادى فهي إحدى مقاطعات غوير ، وأغلب سكانها من الهوسا ، وأكثر من نصفهم مسلمون . انظر أيضاً الحاشية ٩-٦٨ أدناه .

ويتخذ سكتو عاصمة له ؛ وعبد الله على المناطق الغربية ويتخذ غواند عاصمة له .^(٦٣) وفي عام ١٨١٧ مات عثمان المجاهد الذي ألهم الفولاني الحمية والتشدد ، وحثهم على أن يخوضوا حرباً لا رحمة فيها ضد الوثنيين ، وكذلك ضد المسلمين الذين لا يتقنون بأصول الإسلام . وعلى الفور نشأ نزاع بين بل وعمة عبد الله ، فقد كان عبد الله يتوقع أن يخلف الشيخ باعتباره أكبر أفراد العائلة سنّاً ، وعندما ركب إلى سكتو وجد أن أبواب المدينة قد أغلقت في وجهه ، فقفّل عائداً إلى غواند . بيد أنه في طريق عودته وجد أن عبد السلام ، الذي أدى عدم استعداده لمنح البركة لقوات غوبر إلى قيام الغوبراوا (أهل غوبر) بمهاجمة الشيخ ، قد أعلن راية العصيان واستولى على كلنبنته ؛ ففرض عبد الله الحصار على المدينة ، وهب بل لمساعدته . وعندما رأى عبد الله ابن أخيه ترجل عن جواده واعترف به قائداً للمؤمنين .^(٦٤) وسحقت ثورة عبد السلام بسهولة على أيدي جيشي سكتو وغواند اللذين اندمجا في جيش واحد .

وقد نظم الشيخ عثمان إمبراطوريته بطريقة خاصة . فقد منح الرايات لمختلف رؤساء الفولاني ، وقام هؤلاء بطرد الهابي من مناطقهم وأصبحوا أمراء عليها . واستمرت هذه العملية في عهد خلفائه ، وفي إيلورين وأدماوا قام إثنان من حملة رايات أمير المؤمنين بتأسيس إمارتين للفولاني .

(٦٣) « ولما فتح الله له وليّ أخاه الوزير سائر بلاد الغرب وولاني سائر بلاد الشرق » المرجع نفسه ، الصفحة ٢١٢ .

(٦٤) جاء في الجزء الانجليزي من تزيين الورقات ، الصفحات ١٨ إلى ٢١ ، أن الثوار قد أقاموا في نهاية الأمر في كلنبنته ، بالقرب من غواند ، عندئذ هب بل لمساعدة عمه بعد مناشدة من إحدى زوجات عبد الله ، وأن النزاع بينه وبين عمه ، وإن كان يرجع في الأساس إلى الطريقة التي عولجت بها وراثة الإمارة ، إنما يعزى أيضاً إلى خلاف مذهبي بين الاثنين حول الموقف الذي ينبغي اتخاذه من ثوار من قبيل عبد السلام . فعندما ظهر بل أمام كلنبنته ، وقابل عمه هناك ، ثار بينهما جدل حول ما إذا كان أتباع عبد السلام وثنيين أم لا . وقد سقطت كلنبنته في العام الثامن عشر من الجهاد (١٨٢٠-١٨٢١) . ويقال إن عبد الله كان متسامحاً حليماً ، مع قدر كبير من العزم والتصميم ، بل عدم الرحمة إذا ما تطلبه تحقيق الهدف الأخير ، كما يقال إن موقفه من عبد السلام قد خلا من الحقد والكراهية والمشاعر المتطرفة .

وأوقعت زنفرا الهزيمة بسُلطان بِلُّ في أول عام من حكمه ولكن الفولاني ثأروا لهزيمتهم . وكان موت الشيخ بمثابة حياة جديدة تزود بها كل من لديه رغبة في التصدي للفولاني والإسلام . فتحالف ساركن كاتسنا وساركن غوبر مع الطوارق . ولكن الفولاني أنزلوا هزيمة قاسية بالحلفاء في موقعة دِع عام ١٨٢٠ ؛ ووقع ساركن غوبر في الأسر ،^(٦٥) وقتل ساركن كاتسنا ،^(٦٦) ولان الكيل چيريس بالفرار . لذلك طلب بِلُّ إلى شعب غوبر أن يختار حاكماً جديداً ، فاختاروا إبنة فوديو .

وأمضى بِلُّ الجانب الأكبر من حياته يحارب الهوسا ؛ وظل كُنْتُ كِبُّ^(٦٧) بوجه خاص شوكة في جنبه . وفي عام ١٨٢٣ سَيَّر عبد الله قوة كبيرة بقيادة محمد البخاري بن الشيخ عثمان ضد فودٍ ، حاكم كِبُّ ، الذي كان عندئذ في كُْمْبَ . وانضمت قوة من سكتو إلى قوات غواند ، واستطاع فودٍ طرد جيوش الفولاني المتحالفة ؛ ومع ذلك فإن الحروب المستمرة أنهكت قوى شعب كُْمْبَ ، وأرغم فود على الاعتزال . وفي عام ١٨٢٦ تعقبته قوة من الفولاني ، وتمكنت من قتله .^(٦٨) لقد أبقى فودٍ بلاد الهوسا الشمالية بأسرها في غليان مستمر ؛ ولذلك

(٦٥) « فلما كانت الواقعة وسارت بها الركبان سقط في أيديهم ، وانكسر ظهورهم ... » إنفاق الميسور ، الصفحة ١٤٩ .

(٦٦) « وخرج إليه أمير كاشنة ، وسار حتى وصل بمحله فعبأ للقتال ، فتلاقاهم الجماعة ، ولم ينجعوا فيهم شيئاً ، فرجعوا إلى حصنهم وتحصنوا ، فسار إليهم أمير كاشنة بالجيش ، حتى وصلوا إلى الحصن وقاتلوه ، فرجعت إليهم خيل الإسلام من ناحية فهزموهم ، وقتل أمير كاشنة ... » المرجع نفسه ، الصفحة ١٢٩ .

(٦٧) انظر الحاشية ٦ - ٣٣ أعلاه .

(٦٨) « فسار أمير كاشنة الكافر (فود) الذي ولى بعد المقتول إلى دنكم ونزل بها فسار إليه عمر دلاج في نفر يسير ، فكانت الهزيمة ورجع عمر دلاج إلى حصن كاشنة ، فأخرجوا عمر دلاج منه ، وأكلوا جميع ما وجدوه ، ورجعوا إلى دنكم وكان الأخ المظفر محمد محمود من أهل الحفاظ ، ممن أعان جماعة كاشنة على جهادها ... ولما أخرجوا عمر دلاج ، خرج بالراية وقد اتفق خروجه بخروج جماعة كنور لنصرة عمر دلاج ، حتى اجتمعوا قريباً من حصن كاشنة فساروا وعليهم الأخ المظفر إلى دنكم فقاتلوا أشد قتال ، ففتحوها بإذن الله ، وقتلوا أمير كاشنة الكافر ، وصناديد قومه... » إنفاق الميسور، الصفحتان ١٢٩ و ١٣٠ .

فإن موته ، وحلول ساركن هزيل محله فى كب ، أنعشا أمل الفولانى فى وضع حد للمقاومة ، ولكن نون جدوى . فقد قامت أسرة حاكمة جديدة فى أرغنغ . وكان كران أول ساركن من كب لأرغنغ . وحافظ كران على أعراف حكام كب الموروثة ، وقاد المقاومة الوطنية . وهكذا كان لأرغنغ نور حيوى فى حركة المقاومة ضد الفولانى لا يقل عن نورها أيام الغزو المراكشى . وفى عام ١٨٣١ شن سلطانا سكتو وغواند هجوماً على الكنت ، واستوليا على عدد كبير من المدن ، وأضرما النار فى غنغ ، وهزم كران ومات أثناء المعركة . بعد ذلك ظلت أرغنغ طيلة ثمانية عشر عاماً (١٨٣١ - ١٨٤٩) تعترف بسيادة الفولانى ، لكنها عادت فأكدت استقلالها . وفى عام ١٨٣٥ واجه بل من جديد جيشى مارادى وغوبر ، ولكن القوتين المتحالفتين دحرتا فى موقعة داكوراوا . وخضعت مارادى للفولانى ثمانية أعوام استعادت بعدها استقلالها .

وأمضى العم وإبن أخيه سنوات حكمهما يشنان الحملات على الوثنيين والهوسا ، ولكنهما أخفقا فى تحقيق الاستقرار فى مملكتهما . وكانت مارادى ، عند وفاة بل ، خاضعة لسيطرة الفولانى ؛ وتعرضت أرغنغ للافول بموت كران ، وقبلت ممالك الهوسا الأخرى سلطة الفولانى . وكان ذلك ضرورة ما حققه الفولانى من نجاح ، وبعد وفاة بل حدث أفول سريع .

كان بل أكثر حكام الفولانى ثقافة وكفاءة ، كما كان تقياً ورعاً على غرار أبيه وعمه من قبله . ويقول المؤرخ عن حق « إنه كان عادلاً لا ينفق من بيت المال » . وفى مظهره الشخصى كانت له هيئة تبيلة ، ويبلغ طوله خمسة أقدام وست بوصات ، وله لحية قصيرة مجعدة سوداء ، وفم دقيق وجبهه رقيقة وأنف إغريقى وعيناوان سوداوان . وكان عالماً واسع الإلمام ليس فقط بتاريخ الإمبراطوريات الإسلامية ، بما فيها الإمبراطورية التى قامت فى أسبانيا ، وإنما بالمذاهب المسيحية المبكرة أيضاً . ويعرف جميع صور البروج وبعض المجموعات النجمية وكثيراً من النجوم ، ويلم باستيلاء بريطانيا على الهند . وكان قبل كل شئ ولوعاً بتقصى المعرفة ، فقد وجه إلى كلاپرتون أسئلة كثيرة عن أوروبا ليقف على أحوالها .

وركّز بلّ كثيراً على المعرفة : « إن المعرفة لا يمكن بلوغها إلا بالعلم ، والمتعلمون هم أقرب الناس إليها » . ومع ذلك فقد سار ذكره في التاريخ على أن يحرق الكتب ، والكانمى من بين من اتهموه بذلك .^(٦٩) وعلى الرغم من أنه كان مغرماً من الناحية الشخصية بالكتب ، فلم يفلح في السيطرة على رجال القبائل ذوى المراس الصعب .

ولم يعين بلّ عند وفاته خلفاً له ، ولم يترك سوى بعض النصائح للوزير .^(٧٠) « حذار من الشقاق ، ولتكن أول من يتبعه بشأن ما تتفق عليه الرايات الثلاث . » وكان هناك حزبان في البلاط ، الحزب الذى يؤيده القائد العام للجيش ، ويرغب فى تنصيب البخارى ، خال بلّ ، أميراً للمؤمنين ، ولكن أسرة بلّ أوضحت أن عبد الله سلطان غنّذ لن يؤيد أى شخص ليس من سلالة الشيخ عثمان . وانتخب عتيق على^(٧١) ، ابن الشيخ عثمان ، تحت إسم ساركن المسلمين . وقد بدأ عتيق ، الذى وصفه كلابرتون بأنه « أمير تُعَوِّزُهُ الكفاءة » ، عهده بغارة على دامارى ، وهى مدينة مسورة فى زنفرا ، ولكنه لم يوفق فى محاولته . وفى العام التالى (١٨٤٠) حاول أن يستولى على مدينة مسورة أخرى ، وأخفق للمرة الثانية ، وهذا الفشل المتكرر شجّع أعداءه . فقام ساركن غوبر ومارادى ، بالتحالف مع الطوارق ، بمهاجمة أمير غوبر صنيعة الفولانى . وهذا الأمير هو على فوديو ، ابن بلّ وابن أخ ساركن غوبر ، ويقول عنه المؤرخ « إنه كان شائن السلوك ، يبتز الأموال ، ويفرط فى القهر والملاذات ، وإنه كان يفسق ويعربد حتى أن أمه كانت تجئ وتشاهد المجون وتجالس المعرّبين » . وكان شديد الفجور حتى لم تكن أية امرأة جميلة فى إمارته تأمن على نفسها . ويؤكد المؤرخ عن حق أنه « اعتاد أن

(٦٩) من رسالة من الكانمى إلى بلّ « نعم رأينا منكم ما ينكره كل موفق ، وذلك إهانتكم للكتب برميها فى الطريق وفى المواضع المستقنرة - وفيها اسم الله تعالى . وتعلمون أن من ألقى آية من القرآن فى موضع مستقنر كفر .. » المرجع نفسه ، الصفحتان ١٥٩ و ١٦٠ .

(٧٠) وزيره الأكبر غطاطور بن ليما .

(٧١) ويقال أبوبكر عتيق . حكم فى الفترة ١٨٣٧-١٨٤٢ ، حاول إدخال بعض الإصلاحات فى وقت كانت فيه الحماية الدينية لدى الفولانى أخذه فى الانحسار .

يسلك سلوكاً لم يُعرف عن أحد من سلاطين غوهر على الرغم من أنهم كانوا وثنيتين . ولم يكن سلوك النبلاء الآخرين خيراً من سلوكه . ولذلك فلا عجب أن بلغ استياء الشيخ أحمدو ، الحاكم الفولاني لماسنة ، من سلوكهم حداً أعلن معه أنه إذا احتفظ أهل سكتو بأكثر من زوجتين فسيجى لتخليص الدين من البدع .

وفى عام ١٨٤١ قام عتيق بمهاجمة غوهر التى أصبحت تشكل مع مارادى مركزاً للمقاومة . ولم يكن المارادوا ، الذين عزز الهوسا من كاتسنا قواتهم ، قد فقدوا كل أمل فى استعادة أراضيهم القديمة - بل إن السعدى ظل يطلق على حاكم مارادى إسم ساركن كاتسنا - بل كانوا دائماً فى طليعة المقاومة . واصطدم عتيق بجيشى غوهر ومارادى اللذين اضطرا الفولانى إلى الفرار . غير أن الفولانى عادوا واكتسحوا الحلفاء من ميدان المعركة . وفى العام الخامس من حكمه هاجم عتيق غوهر للمرة الثانية ، وعلى الرغم من الهزيمة التى ألحقها بجيش غوهر وكاتسنا ، فإنه أخفق فى الاستيلاء على حصونهما . وفى طريق عودته اشتد عليه المرض ، وأراد جنوده التخلي عنه فى الطريق ، ولكن عندما أعيد إلى وطنه كان قد فارق الحياة .

وأعاد موت عتيق طرح مسألة وراثة الحكم . وكان الإمام ، وكذلك جزء من الجيش ، إلى جانب أحمد الريافى^(٧٢) . أما الوزير فكان يؤيد علياً^(٧٣) كما أيده أبناء جت القائد العام للجيش . وعلى الرغم من أن على جت نفسه كان أكثر ميلاً إلى الريافى ، فقد أقنعه أبنائه بتأييد على . وفى المجلس حاول الإمام حث المجتمعين على اختيار أحمد الريافى بإعلانه أن معارضة اختياره إنما هى من عمل الشيطان . غير أن النتيجة كانت غير متوقعة : إذ شعر على جت بأنه أهين وغادر الاجتماع . وفى الاجتماع التالى جاء أحمد الريافى بصحبة أنصاره ، وكذلك فعل أحمد عتيق^(٧٤) ، ابن السلطان الراحل . أما على جت ، أهم نصير لعلى ،

(٧٢) أحمد الريافى : ابن الشيخ عثمان ، تولى الإمارة فى الفترة ١٨٦٧ - ١٨٧٣ .

(٧٣) على : ابن محمد بل ، تولى الإمارة فى الفترة ١٨٤٢ - ١٨٥٩ .

(٧٤) أحمد عتيق : ابن عتيق على ، تولى الإمارة فى الفترة ١٨٥٩ - ١٨٦٦ .

فقد التمس مشورة الوزير ؛ وكان الوزير يعلم جيداً أن القائد قد ارتبط بتأييد على ، وترك له الخيار قائلاً : « أما عنى فساكون خادماً لمن تضعونه فى السلطة » . عندئذ طلب على جت أن يحضر على من محمد بل الاجتماع ؛ وعندما حضر أقسم له القائد العام يمين الولاء .

وحكم على حتى عام ١٨٥٩ ، وفى عهده انهارت إمبراطورية سكتو المتداعية . وقد هاجم غوبر فى العام الأول من حكمه ودحر جيشها ، غير أنه عندما انسحب الفولانى تقدم الغوبراوا وألحقوا دماراً واسعاً بمناطق الحدود ، وأصبح الغوبراوا الآن أكثر جرأة وإقداماً ، وكما يقول المؤرخ ، « كان الوثنيون يغيرون فى كل اتجاه » . ولم يكن الوثنيون هم وحدهم الذين أثاروا المتاعب لعلى ، بل كان عليه أن يواجه المتاعب من ابن عمه أحمد عتيق . فبعد أن خاب أمل عتيق فى أن يصبح أميراً للمؤمنين أخذ يصارع أخاه عمر الذى رفض أن يستقبله فى حصنه ، وأطاح عتيق بعمر الذى سلم القلعة إلى أخ آخر ، هو سامبا . وأخذ سلطان غوبر يتحين الفرصة ، وبحيلة بارعة أرغم سامبا والجزء الأكبر من قواته على مغادرة القلعة ، ثم دمرها . عندئذ طلب عتيق المساعدة من الأمير موسولومى . وأرسل جيش من سكتو ، غير أنه بالقرب من قلعة غوص « انقض عليهم سلطان غوبر ، ودارت بين الجانبين معركة عنيفة استشهد فيها أرت ساه ساهاب القائد العام المسلم للجيش وكبار القادة فى جيشه . ولاذ جيش المسلمين بالفرار وتشقت بطريقة مشينة » . وكان انتصار غوبر كاملاً . واستقبلت زنفراً المنتصرين بالأحضان ، وتم إخلاء كل حدود سكتو الشمالية .

ولم تكن غوبر هى المنطقة الوحيدة التى تتعرض فيها سلطة الفولانى للانهايار : فقد أصبح حكام كانو الفولانيون معروفين بالجبن على نطاق بلاد الزنوج ، وفى عام ١٨٤٤ حاولت أسرة الهابى الحاكمة القديمة أن تستعيد المدينة ، ولكنها دحرت بعد قتال استمر عاماً . كذلك أمكن عزل كانو عن إمارات الفولانى الأخرى ، على الرغم من تمتعها بالأمان بسبب أسوارها العالية . ولم تكن الطرق آمنة ، فالننچى الوثنيون يسيطرون على القرى بعيداً عن الطرق الرئيسية ، وباستطاعتهم قطع المواصلات كلما شاءوا .

وكان البخارى مصدر المتاعب الكبرى التى واجهها على . فهذا الزعيم الفولانى ، الذى كان شيخاً لقبيلة خديجة ، قد سبب - بالتحالف مع برنو - قدراً هائلاً من المتاعب لسكتو . وعندما تولى البخارى الإمارة كان عليه أن يواجه تحدى أحملو ، أخيه الأصغر ، فقد تأمر أحملو مع سكتو ، وحمل أمير المؤمنين على خلع البخارى . ولم يكن البخارى ، الأمير المحارب المقدام ، بالشخص الذى يقبل ذلك فى استسلام ، فبعد أن طرد من خديجة ، ألقى بنفسه بين ذراعى برنو . ولم يكن يحرك الشيخ غير رغبته الشديدة فى خلق المتاعب لإخوانه المسلمين ، فزود البخارى بالرجال والسلاح . وبمساعدة هذا الجيش تمكن البخارى من غزو خديجة وقتل أخيه . وفى عام ١٨٤٧ قام وزير سكتو باستدعاء البخارى باسم أمير المؤمنين . ورفض البخارى فى أول الأمر ، ولكنه تحرك فيما بعد على رأس جيش . غير أنه لم يكن تواقفاً إلى الحرب ، وأرسل الهدايا إلى الوزير . وكان الوزير قد قبل بالفعل رشوة كبيرة من كانوا لأن البخارى « نشر الرعب والدمار حتى أبواب كانوا نفسها » ، ولأن من مصلحتها أن تسحقه . وفى موقعة تلت ذلك كان النصر للبخارى . وفى عام ١٨٤٩ أرسل « جيش ضخم » بقيادة عبدو جيدانو ، رئيس وزراء سكتو لمحاربة البخارى . ولم تشترك فى هذا الجيش سكتو وحدها ، ولكن كانوا وزارياً وزنقراً أيضاً ، غير أن الجيش لحقت به هزيمة نكراء . وأعطت هذه الانتصارات أملاً لوزير البرنو الذى فكر فى تكوين حلف كبير ضد الفولانى يضم غوبر ومارادى وأسبن ، وكذلك القبائل الغربية . وكان أعظم ما يطمح فيه الوزير هو غزو كانوا . غير أن المتاعب مع وداى فى الشرق ، ثم اندلاع حرب أهلية فى برنو نفسها ، أنقذت الفولانى .

ولم يكن ذلك هو نهاية متاعب على . فقد قام بخلع الأمير صادق بتحريض من ساركن ياكى - قائد عام قوات كاتسنا - المتطلع إلى الإمارة ، ولكن كايلا ساركن ياكى لم يُنصب أميراً . ونتيجة لذلك أصيبت كاتسنا بضعف شديد ، واستطاعت قوات ماراداو وغوبر قطع الطريق بين كاتسنا وسكتو بحيث لا يمكن دفع الجزية . وفى عام ١٨٤٩ رفع كُنت كَبَ راية العصيان ، وكان قد قبل سيادة

الفولانى فى عام ١٨٣١ . وأصبح على أرغنغ تحت حكم يعقوب ، ابن القرانى ، أن تكون من جديد مركزاً هاماً للمقاومة التى يبدىها الهوسا .

وفى عام ١٨٥٠ دحر هجوم على زنفرا شنته مارادى وغوبر بالتحالف مع الطوارق . وفى العام التالى أحرزت مارادى نصراً مرموقاً على كاتسنا . وهذه الهزائم المستمرة أدت بالفولانى إلى شن حملة كبيرة لإخضاع غوبر ومارادى . ودعا أبوبكر عتيق ، حاكم راباً ، جميع الأمراء الشرقيين إلى الانضمام إليه فى حملة ضد غوبر ومارادى . وتمكنت جيوش الفولانى المتحالفة من أن تلحق الهزيمة بقوة كبيرة للعدو ، وأضرمت النار فى جيدان غريرى ، عاصمة غوبر ، ولكنها هزمت أمام مارادى . وفضلاً عن ذلك أخفقت فى إخماد روح القتال لدى الهوسا والوثنيين .

وبينما فشل الفولانى فى الشمال فى إخضاع الهوسا والوثنيين ، كانت مملكة غواند فى الغرب فى محنة أشد سوءاً . فقد كانت غواند تطالب بالنيچر الأوسط بأسره . ووضع الفولانى فى ليبتاكو وصاى أنفسهم تحت حمايتها . وفى غورما على الضفة الغربية للنهر كان الفولانى قد غزوا الأماكن الرئيسية ، ولكن بعد أفول الاندفاع الأول للحركة الدينية تزعزع الاستقرار بدرجة ألحقت اضطراباً بالمواصلات على طول هذا الطريق الهام . وعند زيارة بارث لهذه المناطق كان عدم الاستقرار قد أجبر قوافل الكولا التى تبدأ من غونچا فى ساحل العاج على التخلّى عن الطريق المباشر من پندى إلى كيمبا . فضلاً عن عدم وجود إدارة لدى غواند فى كفاءة إدارة سكتو . وقد كانت غواند تتكون من أجزاء من بولة كبّ القديمة ، هى ليبتاكو وصاى وغواند ، ثم مزقت إلى جزأين هما كبّ وچيرما . وكانت كبّ قد قبلت سيادة الفولانى فيما بين عامى ١٨٣١ و ١٨٤٩ ، ولكنها عادت فأكدت استقلالها فى عام ١٨٤٩ . وفى چيرما استمرت المقاومة بقيادة زعيم يدعى داوود تمكن ، بمساعدة كب فى أرغنغ ، من تحرير چيرما بعد حروب استمرت أكثر من عشرين عاماً (١٨٤٦-١٨٦٦) .

ويعطينا بارث ، الذى زار سكتو ، وصفا للحالة التى كانت عليها البلاد فى النصف الأول من القرن التاسع عشر . ولم يبد تفاؤلاً بشأن قوة الفولانى ؛ ففى الشمال والشمال الغربى لم يكن للفولانى أية سيطرة . يقول بارث : « ومع ذلك فكما يتبين من الأمور فإنه ما لم ينجح الفولبى فى أن يسحقوا تماماً الأقاليم المستقلة فى الشمال والشمال الغربى (وهو أمر مستبعد كثيراً على ضوء الضعف الحالى لإمبراطورية سكتو) ، أو يقيم الغوبراوا والماراداوا الذين ما زال ملكهم يحمل لقب ساركن كاتسنا بغزو هذه المدينة من جديد ، فستواصل هذه البلاد تدهورها ، وتزداد كل عام خراباً » . ومرة أخرى يقول : « إن فزع هؤلاء الغزاة المخنثين من رئيس الغوبراوا المولع بالحرب ، ابن يعقوب ، هو أمر يكاد لا يصدق . فقد حكم منذ عام ١٨٣٦ ، وكان فى العام السابق (١٨٣٥) قد حرّض جميع السكان المحليين فى مختلف المناطق ضد القبيلة الحاكمة . ولقد تماهوا كثيراً فى فزعهم حتى أنهم أزالوا تماماً إسمه الحقيقى ، ولم يكونوا ينادونه بغير الماياكى أى المحارب » .

وهكذا ففى عام ١٨٥٤ ، بعد خمسين عاماً من الحروب المستمرة ، كان الموقف غريباً حقاً . ففى دِنْدِ تمكّن داوود ، أمير چيرما ، على الرغم من هزيمته فى الميدان ، من الهرب إلى يلو حيث واصل المقاومة . أما على ، أمير المؤمنين ، الذى قاد الحملة بنفسه ، فقد ترك المنطقة لأنه لم يستطع مسابقة ابن عمه خليل الذى كان يطالب بهذا الجزء من كَبْ . وبسبب الحرب فى دِنْدِ وما ترتب عليها من انهيار الاتصالات أصبح موقف الفولانى فى صاى لا يمكن الدفاع عنه ؛ وكانت غواند عاجزة عن عمل شئ ينقذ الموقف . فقد أصبحت القبائل الوثنية أكثر جرأة بحيث تعين على أهل غواند القيام بحملات منتظمة يومى الثلاثاء والخميس لجمع الخشب . وفى سكتو لم يكن الموقف أقل سوءاً ، إذ كان الوثنيون يَسْبُون الناس من أماكن لا تبعد عن سكتو أكثر من عشرة أميال . كما أن الطريق المباشر إلى كانو ، الذى لم يكن مأموناً فى يوم ما ، قد قطع الآن تماماً . وفى عام ١٨٥٢ دُمِّرَ الهوسا مدينة مونويا ، وفى عام ١٨٥٤ لم يعد فى الإمكان جمع

الجزية من كاتسنا . كذلك قطعت غوير منذ عام ١٨٥٣ الصلة بين سكتو وغواند . ويحكى بارث رواية خمسين عاماً من حكم الفولاني في بلاد الهوسا . « واضعين في الاعتبار الافتقار الشديد إلى الشجاعة والإقدام بين الأهالي ، وضعف على وروحه غير الولوعة بالحرب ، وضحالة خليل التامة ، وحيوية الشاب المحارب المقدام مادي ، رئيس كبّ التائر ، الذي بدأ من موطنه في أرغنغ ، على مسافة لا تتجاوز مسيرة ساعتين من موطن خليل ، حاملاً معه لهيب الدمار في كل اتجاه - مقاطعة زامرما الثائرة وعلى رأسها حاكم على نفس القدر من الفتوة والنشاط ، هو داوود بن حمّان جيّماته - مقاطعة دندينا في ثورة علنية ، وممزقاً كل سبل الوصول إلى النهر . »

ويبدو أن الفولاني لم يكونوا يمارسون سلطة الحكم في بلاد الهوسا الشمالية إلا في مدنها المسورة ، ولا يسع بارث إلا الشعور بالأسى « للحالة الباعثة على الرثاء التي أجد عليها هذه المملكة المتسعة » . ويبدو من رواية بارث أن الفولاني كانوا يعيشون في خوف دائم من أن يقوم الوثنيون يوماً ما بغزوهم في عقر دارهم . ولم ينقذ غواند من غزو دندٍ لها سوى افتقار الأخيرة إلى الخيالة . ومع ذلك ظل الفولاني يثبتون وجودهم كقوة أربعين سنة أخرى . واعترف الأمراء بسكتو كزعيمة روحية لهم ، لكنهم أخذوا يزداون استقلالاً . وظلت الإمبراطورية عظيمة من حيث اتساعها ، ولكن على درجة من الضعف لا يمكن وصفها بسبب مقاطعاتها التي لا تجمع بينها سوى صلات واهية . »

وبمقدم عام ١٨٦٦ كانت غواند راغبة في إحلال السلم بينها وبين ساركن كبّ . وبمقتضى معاهدة توغا تخلت غواند عن كل ادعاءاتها بالسيادة على أرغنغ ، وأصبح من حق أرغنغ أن تحتفظ بجميع المدن التي تضع يدها عليها ، شريطة أن يظل الرقيق الذين أسروا في أيدي أسريهم . وبعد أن أصبحت دندٍ وكبّ مستقلتين ، لم يعد لغواند صلة مع صاي وليبيتاكو . وعقب ذلك لم تعد غواند من ولايات الفولاني . وفي عام ١٨٧٣ عندما تولى حنفى إمارة غواند ، بدأ ساركن

كَبَّ الحرب مرة أخرى ، واستمرت هذه الحرب بصورة متقطعة حتى عام ١٩٠٢ عندما استولى عليها البريطانيون ، ولم تتخل مارادى أو دندِ قط عن الصراع ، وظلَّتا حتى عام ١٨٩٨ تشنان الهجمات على كاتسنا ؛ وعندما فر أمانو إمبراطور التوكولور ، بعد هزيمته ، إلى دندِ قطع الوثنيون رأسه . ولم يكن الموقف أفضل فى كانو . فقد واصل ننجى الوثنى تهديد العاصمة ، وفى عام ١٨٩٨ تقدم سلطان ديما غُرم إلى أسوار المدينة قبل أن تلحق به الهزيمة . وهكذا لم يتوقف الهوسا قط عن المقاومة . وبعد بلُّ كاد الفولانى أن يكونوا فى حالة دفاع دائماً . فممالك الهوسا الشمالية كانت تغير على الفولانى باستمرار ، وكانت المدن المحصنة هى التى مكنت الفولانى فى الجزء الأخير من القرن التاسع عشر من الصمود فى وجه الهوسا .

سابعاً

كانت الأحوال صعبة للغاية فى برنو عندما بدأ الغزو الفولانى ، فقد نجح هذا الغزو فى إرسال الماي أحمد^(٧٥) إلى المنفى ، وإخضاع عاصمته والأقاليم الغربية لسيطرة الفولانى . وفى خضم المحنة قام ماي البرنو باستدعاء الكانمى .

ويعد محمد بن أمين الكانمى أحد زعماء الإسلام البارزين فى غرب إفريقيا . وقد ولد فى فزان ، وعلى الرغم من أن أبويه كانا من الكانورى ، فإن الكانمى كان مبرزاً فى علوم القرآن . كما أدى فريضة الحج ، وأقام فترة طويلة فى المدينة ومصر . وكانت زوجته إبنة حاكم إحدى المقاطعات - نجالا - ، وبسبب الاعتدال البالغ فى حياته وحسن طباعه « كان الشيخ يحظى بحب وتقدير عظيمين . وقد أثبت الكانمى ، إلى جانب مواهبه كشاعر وفقيه ودبلوماسى ، أنه جندى لامع يتمتع بعبقرية جسورة ورأى صائب ، حتى أنه استطاع بأربعمائة جندى أن يهزم حامية للفولانى قوامها ثمانية آلاف ، وذلك بتسليق الأسوار ليلاً ومباغته العدو .

(٧٥) انظر الحاشية ٩-٤٢ أعلاه . (هو أحمد بن على آخر ماي لبرنو قبل أن تظهر أسرة الشيخ الكانمى وتصبح صاحبة السلطة الفعلية .)

وقد استثير الكانورى حين روى لهم الكانمى رؤيا مفادها أن الله عهد إليه بمهمة تحرير برنو . وخلال الشهور العشرة الأولى كسب أربعين موقعة .

والقوة الرئيسية التى اعتمد عليها هى الخيالة الذين بلغوا ثلاثين ألفا ، إلى جانب عشرة آلاف راجل . ولم تكن قوة الخيالة مكونة من الكانورى فقط ، بل أيضاً من عرب الشوا الذين جُنُّوا بأعداد كبيرة . وكان رجال الحرس الذين يشكلون صفوة هذا الجيش يرتدون « سترات من السلاسل تصنع فى برنو وبلاد السودان » . ويقول دنهام إن هذا الحرس لا يمكن مقارنته إلا بجيش الفولانى الذى كونه السلطان بل .

وبمقدم عام ١٨١٤ كان الشيخ قد تمكن من صد الفولانى ، على الرغم من إخفاقه فى إعادة فتح المقاطعتين الشماليتين الشرقيتين - كتاغوم وخديجة - اللتين كانتا قد ضمتا إلى إمبراطورية الفولانى .

وبمضى الوقت كان الكانمى قد وطّد أقدامه ، وكانت برنو قد تقلصت مساحتها كثيراً . يقول دنهام : « كان يحدها من الشمال جزء من كانم والصحراء ؛ ومن الشرق بحيرة تشاد التى تغطّى عدة آلاف من الأميال المربعة وتضم كثيراً من الجزر المأهولة ؛ ومن الجنوب الشرقى مملكة لوغون ونهر شارى الذى يفصل برنو عن مملكة باجرمى وتختفى معالمه فى مياه بحيرة تشاد ؛ وفى الجنوب مملكة مندرا ، وهى مملكة مستقلة عند سفح سلسلة جبال ممتدة قديمة ؛ وفى الغرب بلاد السودان » .

وحول الكانمى اهتمامه إلى إعادة المناطق التى كانت تابعة لبرنو إلى سيطرة الماي . فبيجرمى التى كانت تابعة لبرنو أكدت استقلالها خلال فترة غارات الفولانى . وقد كرّس الشيخ الفترة بين عامى ١٨١٦ و ١٨٢٤ لغزو بيجرمى ، التى عرف أهلها بالقوة والولع بالحرب ، وقد أوقعوا الهزيمة مرتين بالكانمى - ولم يستطع الشيخ التغلب عليهم إلا بمساعدة قوات من فزان . وعن طريق الاستفادة من نزاع نشأ تمكن الكانمى ، بمساعدة يوسف باشا حاكم فزان ، من أن ينصب

مرشحه عثمان على العرش . غير أن عثمان كان عازفاً عن الاعتراف بسيادة برنو بصرف النظر عما قدمه من وعود عندما كان حريصاً على ضمان مساعدة الشيخ . وأجبر الكانمى على أن يسير إليه سلسلة من الحملات ، وفى النهاية تمكن من إقناعه بالاعتراف بسيادة برنو ، وتعيين مندوب عنه يقيم فى بلاطه .

وعلى الرغم من أن الشيخ خرج منتصراً ، فإن برنو عانت كثيراً . فقد قتل السلطان نونمه^(٧٦) فى موقعة نجالا فى عام ١٨١٧ ، كما فقد الشيخ أيضاً ابنه الأكبر فى الحملة . وكان موت السلطان بطريقة غريبة للغاية . « لم يكن سلطان برنو يحمل أية أسلحة ، فمما يحط من كرامته أن يدافع عن نفسه » ، ولذلك كان يجلس ووجهه مغطى بشال ، « واخترقت جسمه مائة حربة » . وحدث كل هذا على بعد ٥٠٠ ياردة من قلعة أنغالا . وقد شهد دنهام انتصار برنو الحاسم فى عام ١٨٢٤ ، ووصف هذا الانتصار بكثير من التفصيل . كان الشيخ يتحرك مع بعض قواته فى مارس ١٨٢٤ نحو أنغالا عندما هاجمه البيغرميون فى السهول الواقعة إلى الشمال الشرقى من أنغالا . ولم تكن لدى الشيخ رغبة فى القتال ، الأمر الذى زاد من جرأة البيغرميين . ولذلك اتخذ تدابير وقائية . فوضع رقيقه من الموسفو^(٧٧) ، المدربين على استخدام البنادق الحديثة ، فى الجناح الأيسر ، كما وضع المدفعين اللذين كانا لديه فى المقدمة مع العرب ، وحاملى الغدارات على يمينهم ويسارهم . واتخذ الشيخ مقر قيادته فى القلب يحيط به حاملو الرماح من الكانمبو . وقام البيغرميون ، وعددهم خمسة آلاف من الجنود الأشداء بقيادة

(٧٦) هو نونمه بن أحمد المائى الخامس والستون الذى تولى السلطنة فى عام ١٨٠٧ ، ثم تركها فى عام ١٨١١ ، ولكن الشيخ الكانمى - صاحب السلطة الفعلية - أعاده إليها فى عام ١٨١٤ ، وظل بها حتى عام ١٨١٧ .

(٧٧) الموسفو : مجموعة تشادية تنتمى لغويّاً إلى المجموعة التشادية - الحامية ، كما أنها إحدى مجموعات «الصو» المكونة إلى جانب الموسفو من الكوتوكو والبودوما والبوليو وغيرها . وهذه المجموعات لم تنشئ بولاً مستقلة ، وإنما كانت على هيئة مدن صغيرة ، ولذلك كان من السهل على حكام البرنو التعامل معها كل على حدة . وقد تمكن هؤلاء الحكام من امتصاص بعضها ، على حين واصلت مجموعات أخرى البقاء ، ومنها الموسفو .

ماتى رئيس ، بمهاجمة القلب ، غير أن المدفعين مزقاً شملهم . عندئذ هاجمهم خيالة الكانورى وأوقعوا بالبيغرميين هزيمة منكرة . وترجل الرؤساء كى يعبروا النهر ، فقتلوا عن آخرهم ، وكان انتصار الكانمى حاسماً .

وقد سببت إقامة السلطة العثمانية فى طرابلس قلقاً كبيراً للكانمى ، إذ بعث باشا طرابلس قائده محمد المُنقى لاحتلال القواعد فى فزان . وفى عام ١٨١٧ أغار المُنقى على حدود برنو . وانزعج الشيخ بطبيعة الحال . ولما كان يواجه بولا معادية فى الشرق والغرب ، فلم يكن يرغب فى أن يهدد باشا عثمانى حدوده الشمالية . وكان يخشى أن يقتدى بل بالمثل الذى سبق أن ضربه ، فيتحالف مع طرابلس ضد برنو . والحقيقة أنه كان هناك ما يدعو إلى القلق ؛ فقد دخل بل فى مراسلات ودية مع الباشا ، ولم يأت عام ١٨٢٦ حتى كان الكانمى قد نجح فى زعزعة النفوذ العثمانى ، إذ تمكن رئيس محلى يدعى عبد الجلال ، بتأييد من العدد الكبير من السكان الذين ينتمون إلى برنو ، من طرد العثمانيين من فزان . ويمكن أن نلمس قلق الشيخ الهائل ، الذى سببته له علاقة برنو بطرابلس ، من رغبته فى شق طريق إلى مكة عبر وسط إفريقية لتجنب المناطق التى يسيطر عليها الباشا . ولكن حالت دون تحقيق هذه الرغبة الأحوال المضطربة فى وسط إفريقية ، وعمليات النهب التى يتعرض لها الحجاج بالقرب من بحيرة فترى . وسبب آخر لعداء برنو هو أنه خلال الاضطرابات مع بيغرمى بعث الشيخ بأسرته إلى فزان معتمداً على الحلف الذى وقعه ، فاحتجز الباشا أفرادها هناك .

كذلك كانت للشيخ متاعبة مع وادى . فقد نمت قوتها بدورها ، وقامت بالتعاون مع الطوارق وأهالى فزان بنهب كانم . ويصف دنهام كانم بأنها « أسوأ بلاد الزنوج حظاً وأكثرها تعرضاً للاضطهاد ، وهى طلباً للحماية تتأرجح بين وداى وبرنو » . وكان الطريق من برنو إلى كانم وعراً ، وعلى الرغم من أن الشيخ كان يُسير جيشاً كل عام ، فإنه لم يستطيع أبداً تحقيق شئ جدى .

وبعد نجاح الشيخ فى بيغرمى أولى المشكلات الداخلية جلُّ اهتمامه . فجعل ممارسة شعائر الدين أكثر صرامة ، وأقام الحد على من يرتكب الفحشاء . وكان فى مقدمة ما اتخذه من إجراءات تشجيع التجارة مع شمال إفريقيا ، وإقامة علاقات طيبة مع جيرانه ، ولكن الخوف من غارات الفولانى كان قوياً ، بحيث لم يكن يسمح لأى غرباء بدخول العاصمة فى غياب الشيخ . وقد مات الشيخ الكانمى فى عام ١٨٣٥ .

ولم تكن لدى الشيخ أية مطامح فى الحلول محل الأسرة المالكة القديمة ، وكان فخوراً بأن يُعرف على أنه محرر شعبه . ومع ذلك فقد ركز كل السلطة بين يديه ، وحكم البلاد كحاكم دنيوى مطلق . وبالتالى كانت له مع الماي متاعب ليست باليسيرة ، ورغب خليفة أحمد فى التخلص منه ، ولكن الهزائم العسكرية أرغمت الماي على استدعاء الشيخ . وحاول الشيخ أن يستبدل بالماي أخاه ، بيد أن هذا الأخ بدوره أعرب عن عدم استعداده لقبول الشيخ كسيّد له . وبعد ثلاث سنوات أعاد نونمه إلى العرش ، ولكنه جرده من كل سلطة . وعندما مات السلطان العجوز أجلس أخاه محمد على العرش ، وأقام له قصرأ فى بيرناى الجديدة ، واستقر هو فى أنغورو ، على بعد ثلاثة أميال . وبرغم أن ثلاثة^(٧٨) مايات تولوا العرش خلال فترة وجوده فى السلطة ، فإن قبضة الكانمى المحكمة على البلاد هى التى أرغمت المايات على قبول وضع أقل شأنأ .

وخلف الكانمى ابنه الشيخ عمر (١٨٣٥-١٨٨٠) ، وكان قد أعرب عن رغبة صريحة فى أن يخلف ابنه الأصغر عبد الرحمن أخاه عمر . وحاول عمر أن يبنى

(٧٨) هؤلاء المايات الثلاثة هم : نونمه بن أحمد ، الماي الخامس والستون (١٨٠٧-١٨١١) ، وفى عهده أصبح الكانمى صاحب السلطة الفعلية فى برنو فى عام ١٨٠٩ ؛ محمد نجلروما ، الماي السادس والستون (١٨١١-١٨١٤) ، وقد عزله الشيخ الكانمى وأعاد نونمه بن أحمد الذى استمر فى الحكم حتى عام ١٨١٧ ؛ إبراهيم أخو نونمه ، الماي السابع والستون (١٨١٧-١٨٤٧) . أما آخر المايات ، وهو على بن دولاتو ، الماي الثامن والستون ، فقد حكم أربعين يوماً فقط إذ ذبحه الشيخ عمر محمد الكانمى ، بعد أن لحقت الهزيمة بهذا الأخير فى موقعة قوصيرى .

إمبراطوريته بأساليب سلمية ، ونجح فى ذلك مع بيغرمى ، كما نجح مع الفولانى بعد حملة غير موفقة . ولكن تعذر عليه كبح جماح الولايات التابعة الكبيرة المسيطرة على الحدود الغربية ، وواصلت هذه الولايات غاراتها داخل إمبراطورية الفولانى . وعندما تعرض حاكم زندر للتهديد قام بثورة ، فسير عمر جيشاً بقيادة عبد الرحمن لسحقها .

وهياً ذلك الفرصة لإنصار الأسرة المالكة القديمة . إذ خلت العاصمة من القوات ، وسلح آل سيفى أنفسهم ، ودعوا ملك وداى إلى المجئ للإطاحة بعمر وإعادة أسرتهم إلى السلطة ؛ وتحرك جيش وداى نحو قوصيرى فى مارس ١٨٤٦ ؛ ولم يدرك عمر أن غزواً أجنبياً قد وقع إلا عند وصول هذا الجيش إلى قوصيرى ، فاتخذ الإجراءات على الفور ، فقيد الماي إبراهيم بالأغلال ، وبعد أن جمع قوة تقرب من الخمسمائة تحرك نحو قوصيرى . وضرب معسكره على نهر لوجونى ، فى حين كان الوداى على الضفاف الشرقية لنهر شارى . وأغلقت قوصيرى أبوابها فى وجه الجانبين ، ولكن عواطفها كانت مع الأسرة المالكة القديمة . وبفضل المدفعين اللذين يمتلكهما عمر لم يتمكن الوداى من عبور النهر . عندئذ قدمت قوصيرى المساعدة لقواتها بأن دلتها على مخاضة فى النهر لا يقوم على حراستها إلا عرب الشوا الذين انضموا إلى الوداى ، فأخذ عمر على غرة . وفى موقعة قوصيرى فى ٨ مارس ١٨٤٦ لحقت الهزيمة بعمر ، وسقط أخوه الأصغر فى أيدي الوداى ، وكذلك المدفعان . ومع ذلك اتخذ عمر إجراءً سريعاً ، ففى ١٠ مارس قطع رأس الماي .

والآن ترك عمر قوصيرى ، وتراجع نحو الغرب فى حالة أقرب إلى الفرار ، فطارده الوداى حتى نجورنو ، ونهبت العاصمة ، وفى بيرناى أعلن سلطان وداى رسمياً تنصيب على ، ابن الماي إبراهيم ، حاكماً لبرنو . بيد أن جيش برنو كان لا يزال سليماً ، وكان عبد الرحمن يتحرك شرقاً لملاقاة غزو الوداى ، ولم يكن سلطان محمد تواقاً إلى مواجهة جيش برنو الرئيسى ، واستقر رأيه على السلم ،

وخان حلفاءه فى برنو ، وأبلغ عمر أن النبلاء الكبار قد دعوه للمجئ والإطاحة بمغتصب السلطة ، وقدم دليلاً على ذلك مراسلات أنصار آل سيفى . وقبل محمد هدية من المال وانسحب إلى مملكته .

ومع ذلك فإن المائ على والشخصيات البارزة فى برنو فضلوا الموت وهم يقاتلون على أن يعيشوا بقية حياتهم فى المنفى . وسحق المائ فى موقعة حامية ، وسقط على ، آخر مايات آل سيفى فى الميدان ، وتلك نهاية ملائمة لأسرة حكمت فى حوض تشاد لأكثر من ألف عام . وهكذا وقع بأنصار الأسرة المالكة القديمة انتقام رهيب .

وأصبح عمر الآن آمناً على عرشه . وقاد حملة على زندر ، واستسلم الحاكم ، ولكن أعيد إلى منصبه . كما قاد حملات على القبائل الأخرى التى أعلنت العصيان ، ونجح فى إعادتها إلى نفوذ برنو . ولكن عمر ، على الرغم من نجاحه البارز فى إعادة إقرار سلطة برنو ، سرعان ما باعد بينه وبين كثيرين من مؤيديه ، ومرجع ذلك اتخاذه الحاج بشير وزيراً ومستشاراً خاصاً له ، وهو ابن تيراب مستشار والده وصديقه القديم . وظل تيراب مستشاره الخاص حتى سقط فى موقعة قوصيرى .

وكان الحاج بشير رجلاً متعلماً كثير الأسفار ، ويتمتع بنظرة إلى الأمور أعمق مما هو مألوف لدى الإفريقيين ، كما أدى فريضة الحج ، ولكنه شابته رذيلتان : ولع بالنساء إلى درجة الجنون ، وتقدير شديد . فقد جمع حريماً بلغ خمسة آلاف امرأة قال عنه بارث إنه كان متحفاً بشرياً لجمال المرأة . ولكن بينما أظهر موهبة ملحوظة فى جمع النساء والثروة ، لم تكن لديه مقدرة إدارية ولا حربية لتسيير شؤون إمبراطورية عظيمة من إمبراطوريات العصور الوسطى . ويذكر بارث على سبيل المثال أن الوزير كان حريصاً على إبقاء طريق التجارة مع الشمال مفتوحاً لدرجة أنه كان على استعداد لأن يدع العثمانيين يحتلون بلما وكوآر . وكان ذلك هو مدى قدرة الوزير كرجل دولة . ونتيجة لذلك أخذ السخط يطفو على السطح ، ووجد الساخطون قائداً لهم فى شخص الأمير عبد الرحمن .

غير أن عبد الرحمن لم يكن بعد مستعداً للثورة ، وكان على علاقات ودية مع حاكم مندرًا الذي أقنعه بالثورة . وقاد الوزير حملة إلى مندرًا ، ولكن لما لم تكن لدى أى من الطرفين رغبة فى القتال ، فقد قنع الوزير بهدية من عشر جوارى . ووضح الآن مقصده الحقيقى من قيادة هذه الحملة ، إذ أراد بها أن تكون حملة إغارة من أجل الرقيق داخل بلاد الموسغو الوثنيين . وقد كانت قبيلة الموسغو جزءاً من اتحاد الكوارارافا ، ولكن عندما تحطمت قوة هذا الاتحاد نجحت الموسغو بدرجة ما فى الاحتفاظ باستقلالها . غير أنه كان استقلالاً مزعزعاً ، إذ أن الفولانى والبيغرميين والبرنو كانوا يشنون غارات مستمرة على الموسغو . فقد كان من صالح برنو الإبقاء على القوة الحربية للقبائل الوثنية لتكون بمثابة قيد على الفولانى . وهكذا فعلى الرغم من حرصه الشديد على أسر الرقيق ، فإنه لم يكن راغباً فى تحطيم قوتها .

وفى النصف الثانى من عام ١٨٥٣ رفع عبد الرحمن راية العصيان ، وأعلن نفسه حاكماً لغوجيبا . وتعقبه عمر والوزير هناك ، ولكنهما هزما فى المعركة التى ترتبت على ذلك . وحاول الوزير الفرار بثروته إلى وداى ، ولكنه وقع فى أسر عرب الشوا الذين بعثوا به إلى كوكاوا حيث تبين لعبد الرحمن أنه مدان بالخيانة وأعدمه شنقاً . وسمح لعمر بأن يعيش فى بيت الوزير السابق ، ولكنه نفى فى عام ١٨٥٤ إلى ديكوا . وكان شعبه لا يزال يكنّ له حباً هائلاً ، فاستعاد مكانته . وفوق سهول « أرض الكبير » استطاع عمر إحراز نصر حاسم واستعادة مملكته ، وأعدم مغتصب السلطة عبد الرحمن .

وسمحت الأحوال المضطربة فى إمبراطورية برنو للطوارق بتدعيم قبضتهم فى الشمال . ولم يلق التيبو ، القائمون منذ زمن بعيد على حراسة الطريق إلى بلما وفرزان ، تأييداً من برنو فى حربهم ضد الطوارق ، وشيئاً فشيئاً استولى الطوارق على تجارة الملح ، كما كانوا يغيرون على كانم التى تحولت إلى أرض جرداء بعد أن كانت قلب الإمبراطورية .

وواتى عمر الحظ فكان له ابن ولوع بالحرب . فمنذ عام ١٨٦١ أخذ إبنه بوكار يشن الحملات على الموسغو الذين تمكن من إخضاعهم فى عام ١٨٦٥ ، وفى العام نفسه هاجم أداماوا ، من إمارات الفولانى ، ولكن بون أن يحقق نجاحاً . وفيما بين عامى ١٨٦٩ و ١٨٧١ وجه حملاته نحو البيديت الذين اعتابوا نهب كانم . بل إن بوكار تمكن من أن يعيد قوصيرى إلى طاعته .

وخلف بوكار والده فى عام ١٨٨٠ ، وكانت فترة حكمه (١٨٨٠-١٨٨٤) أقصر بكثير من أن تحقق شيئاً ملموساً . فقد أمضاها بأكملها فى حملات حربية على مختلف القبائل التى كانت دائمة الثورة . وتعين على خليفته التصدى لأعظم تهديد واجهته برنو فى تاريخها الطويل - وهو الغزو الذى قام به رابح .

وتاريخ رابح الشخصى على قدر كبير من الأهمية والإثارة . فقد نمت مطامحه وصقل قدراته فى ظل القوة المتصاعدة لأسرة محمد على فى مصر . فتحت حكم محمد على وإسماعيل كانت مصر تسعى إلى التحول إلى دولة عصرية . وكان محمد على قائداً عسكرياً لامعاً . وفى عهده قامت مصر بفتح السودان . وعلى الرغم من أن إسماعيل كان أكثر طموحاً ، فإنه كان يفتقر إلى المعية أبيه^(٧٩) وإنما كانت لديه الفطنة السياسية ليدرك أنه إذا كان لمصر أن تصبح قوة حقيقية فلا بد لها أن تحظى بتأييد دولة أوروبية ما . ورفع إسماعيل راية مكافحة الرقيق ، فضمن له ذلك عطف بريطانيا ، ومن ثم خدمات بعض الضباط البريطانيين من أمثال غوردون وصمويل بيكر^(٨٠) .

(٧٩) هكذا وردت فى النص الإنجليزى ، ولكن إسماعيل هو ابن إبراهيم باشا وحفيد محمد على .

(٨٠) جاوز بانىكار الحقيقة كثيراً . فلم يكن شرطاً أبداً أن تحظى مصر بتأييد دولة أوروبية لكى تصبح قوة حقيقية ، وإنما كان يكفى لكى يتحقق ذلك أن تتوقف الدولة الأوروبية عن التدخل فى شؤون مصر وأن تكف أذاها عنها . ومن المؤكد أن بريطانيا لم تتحرك يوماً بدوافع عطف نحو مصر ، سواء عندما رفع إسماعيل راية مكافحة تجارة الرقيق ، أو عندما أقدم هو أو أى حاكم غيره على القيام بعمل ما . وإنما عملت بريطانيا حثيثاً ودائماً على خدمة أهدافها الاستعمارية ، وعلى أن تتخذ من مصر بعد أن استعمرتها نقطة وثوب لاستعمار السودان الشقيق . ولم يكن الضباط البريطانيون من أمثال غوردون وبيكر ممن يمكن أن يقدموا خدماتهم لمصر ، ولكنهم كانوا خدم البلد الذى ينتمون إليه .

وعلى الرغم من أن السودان وإفريقية الاستوائية كانتا اسمياً تحت إمرة حاكم عام يقيم في الخرطوم ، فإن الحكام الحقيقيين للمنطقة كانوا مجموعة من تجار الرقيق وحلفائهم من رجال الإدارة . وكان من بين هؤلاء الحلفاء الزبير^(٨١) الذي عين حاكماً لبحر الغزال في عام ١٨٧٠ . ولم يقنع الزبير ببحر الغزال فاستولى على باشوية دارفور عنوة . وكان لذلك رد فعل عنيف لدى حكومة القاهرة ، فاستدعت الزبير الذي كان على درجة من السذاجة بحيث ذهب ليسجن هناك . عندئذ أعلن ابنه سليمان راية العصيان ، ولكنه هزم على أيدي المصريين ، وتشقت شمل جيشه .^(٨٢)

أما رابع الذي كان جندياً في الجيش المصري في السودان ، فقد وجد أن من الأجدي له أن ينضم إلى الزبير في غاراته من أجل الرقيق . وكان تشقت جيش الزبير هو الفرصة التي ينتظرها رابع ، فتحرك نحو الغرب بجيش صغير قوامه تسعمائة وستين من حملة البنادق . وكان يطمح في أن يؤسس لنفسه مملكة ، وهي غاية نذر لها طاقاته الهائلة ، ومن أجل تحقيقها كان عليه أن يحصل على أكبر قدر من الأسلحة الحديثة ، وسبيله الوحيد إلى ذلك هو أسر الرقيق وبيعهم للتجار . وكان جيشه صغيراً ، ولكنه مزود بالبنادق الحديثة ، وفضلاً عن ذلك كان مقسماً إلى ألوية ويتولى تدريبه وقيادته جنود محترفون . وفي عام ١٨٨٣ كان تحت إمرته ١٥٠٠ من الجنود المسلحين بالبنادق ، واستطاع

(٨١) الزبير ود رحمت منصور : (١٨٣١-١٩١٣) ، قائد وإداري سوداني ، اشتغل بالتجارة في بداية حياته واشتد نفوذه بمنطقة بحر الغزال . تمكنت الحكومة المصرية من استمالته فقام بفتح دار فور . استدعى للقاهرة وعاش بها مدة طويلة ، ثم نزع للسودان حيث مات . وتختلف المصادر مع ما جاء في المتن من أنه سجن في القاهرة ، ولكنه منع من العودة إلى السودان بتأثير من غوريون . فقد عاش في القاهرة مكرماً ، وتخلّى له الخديوي إسماعيل عن أحد قصوره في حلوان ، كما كان مقرباً من توفيق نجل الخديوي .

(٨٢) تقول المصادر أيضاً إن سليمان بن الزبير لم يقم بثورة ، وإنما افتعل غوريون هذه الثورة ليتمكن من قتله ، وقد علم الزبير ، بعد عودته من الحرب التركية الروسية التي اشترك فيها (عام ١٨٧٧) ، بمقتل ابنه في بحر الغزال في عام ١٨٧٩ ، وقد ظل حتى آخر لحظة في حياته يعتقد أن ابنه قد قتل برغم ولاءه للحكومة المصرية .

بهذه القوة أن يهزم جيشاً كبيراً سيره إليه سلطان ودای . وأصبح الطريق إلى بحيرة تشاد ممهداً أمامه ، كما أصبح باستطاعته شن غاراته من أجل الرقيق في منطقة واسعة للغاية .

وبمقدم عام ١٨٨٩ كان رابح قد أقام في المنطقة حكومة على درجة عالية من الاستقرار ، وامتد نفوذه إلى نهر شاري . وبتشجيع منه نفذ حاكم داركومبي ولاءه لملك ودای . كما أن حاكم ودای الذي فكر في أن يعيد تأكيد سيادته قد تعرض لهزيمة حاسمة . والآن قرر رابح سحق بيغرمي ، وتلك مهمة أنجزها بسهولة كبيرة .

ودخل رابح بالفعل في صراع مع الفرنسيين الذين كانوا يحاولون ربط ممتلكاتهم في شمال إفريقية بممتلكاتهم في غرب إفريقية ووسطها . وقاد كرامبل حملة من الشمال إلى وسط إفريقية ، ولكن سلطان داركومبي قام بمهاجمة اللواء ونجح أفرادهم في ودای . واستولى رابح على مائة بندقية وكمية كبيرة من الذخيرة .

وواجهت برنو الآن قراراً صعباً . فقد استقر رأى الشيخ حكيم على أن الفطنة تقتضي التصدي لرابع قبل أن يستفحل أمره . وكان لديه جيش من ثلاثة آلاف مقاتل مسلحين جميعاً بالبنادق ، كما كان باستطاعة برنو أن ترسل إلى الميدان جيشاً يزيد على ذلك بعشر مرات . لذلك قرر الشيخ حكيم مهاجمة رابح ، ولكن بينما كان حكيم بصدد اتخاذ قراره هاجمه رابح . وبغباء شديد وجد جيش برنو نفسه يخوض مستنقعات شاسعة ، كما لم يكن نداً لجيش نظامي يسوده الانضباط ، ووقعت به هزيمة حاسمة على أيدي رابح .

وشرع رابح الآن في فتح مناطق برنو المختلفة . وفي عام ١٨٩٣ قام بتخريب نغوليو ونهبها ، وفي عام ١٨٩٤ فتح إمارة دايباني ، وفي عام ١٨٩٦ انطفأت الومضة الأخيرة في مقاومة برنو عندما فتحت مقاطعة بيدي الوثنية .

وكرّس رابح جلّ وقته لتنظيم إمبراطوريته ، فسمح للرئيس المحلي بالاستمرار في ممارسة سلطاته، ولكنه منح الضباط الذين يعينهم سلطة الرقابة على أعماله .

وأعاد تنظيم تحصيل الضرائب ، وحدد المبالغ التى يتعين على كل مقاطعة أن تدفعها . وزاد قوة الجيش إلى خمسة آلاف ، ونظمه فى وحدات من ١٥٠ جندياً إلى ٢٠٠ جندي . ووضع خططاً للحملات المقبلة عن طريق تخزين مؤونة كافية . ولو أن رابع أتيح له الوقت الكافى لتمكن من تحطيم قوة أمراء البرنو ، وتأسيس ملكية عسكرية تعتمد على إدارات محلية ، ولأمكنه أيضاً إخضاع الفولانى الذين سادهم الذعر بالفعل من قوته .

غير أن الوقت كان يمضى سريعاً . ففرنسا كانت تكتسب على مهل مزيداً من الأراضى . وفى عام ١٨٩٨ قبل البيغرى بعثة فرنسية لخشيتهم من رابع . وفى عام ١٨٩٩ أرسلت فرنسا حملة صغيرة بقيادة بريتونيه . ولكن بريتونيه هزم فى تاغبو . كذلك وصل البريطانيون والألمان من الجنوب إلى حدود برنو ؛ ونشطت بريطانيا فى بلاد الهوسا ، وألمانيا فى أداماوا . وفى عام ١٩٠٠ أرسلت فرنسا ثلاثة ألوية ضد رابع ، وفى موقعة قوصيرى هزم رابع وقتل .

ثامناً

يعد سقوط السنغى ، كما رأينا ، بداية فترة من الفوضى . إذ قامت القبائل الصحراوية والإمارات الوثنية بتخريب المنطقة ونهبها . وكان البمبرة أكثر القبائل الوثنية أهمية . والبمبرة - وهم تعبير شامل لكل القبائل الوثنية فى المقاطعات الغربية من بلاد السودان^(٨٢) - ينتمون إلى مجموعة المندى اللغوية ، وبرز وجودهم مع بداية القرن السابع عشر . وكانوا أصلاً خاضعين لأباطرة مالى ، وسنحت لهم فرصة للتوسع مع انهيار تلك الإمبراطورية ، فشرعوا على مهل يسيطرون نفوذهم على بلاد السودان بأسرها ، وذلك بفضل شخصية الحكام الذين تولوا مقاليد أمورهم منذ منتصف القرن السابع عشر ، ومن هؤلاء الحاكم المقتدر كاليان الذى حكم فى سيجوفى الفترة ١٦٥٢ - ١٦٨٢ ، وقام فى عام ١٦٧٠ بالهجوم على تمبكت ، وأرغم الباشا على التبعية له ودفع الجزية . وفى أثناء ذلك

(٨٢) يرد تعبير البمبرة فى تاريخ الفتاش كمقابل الوثنيين ... أربعاً وعشرين قبيلة أرقاء .. ثلاثة منه من كفار قبائل بنبر .. ، الصفحة ٥٥ . (قبائل بنبر هى قبائل البمبرة .)

استولى **الحسنيون**^(٨٤) على السلطة في مراكش . وطارد الرشيد أحد أعضاء أسرته إلى ضواحي تمبكت ، ولكن إمبراطور البمبرة التقى به على رأس جيش كبير ، وأرغم الجيش المراكشي على التراجع . وأعقبت موت كالديان في عام ١٦٨٢ فترة من الفوضى دامت إلى أن ارتقى **بيتون كوليبالي**^(٨٥) العرش .

كان بيتون كوليبالي أعظم حكام البمبرة ، بيد أن حتى في عهده لم يكن البمبرة شعباً متحداً ، بسبب كثرة مآلديهم - على غرار موسى - من زعماء منغمسين في حروب مهلكة مستمرة . ولم تفلح محاولات بيتون في جمع شملهم في مملكة واحدة . وفي عام ١٧٢٥ ، بعد بضع سنوات من توليه الحكم ، حاصره في سيجو حاكم آخر تذكر إحدى الروايات أنه أحد أباطرة مالي ، وتقول رواية أخرى إنه أحد حكام كونج الأول . ولكنه تغلب على منافسه ، ثم أخذ يوسع حدود مملكته . وكان السلاحان اللذان اختارهما لتحقيق هدفه جيشاً عاملاً وأسطولاً نهرياً . كما شكل حرساً بريطوريا عرف **بالتونديون**^(٨٦) قوامه شبان طموحون ورقيق محزون ومجرمون يؤثرون الموت على الرق ، وأنشأ من هذه المجموعات

(٨٤) **الحسنيون** : يعرفون بالأشراف العلويين . استقرت أحوالهم في عام ١٦٦٦ على أيدي مولاى الرشيد الذى اغتصب الحكم من أخيه أحمد الشريف . ويعد الرشيد بحق مؤسس الأسرة العلوية التى مازالت تحكم مراكش حتى الآن . وقد نشأت هذه الأسرة في الجنوب موطن الأشراف الذى خرجت منه الأسرة العلوية أيضاً . وتنتمى كلتا الأسرتين إلى فرع شهير من الأشراف يعرف بالأشراف الحسنيين تمييزاً لهم عن الأشراف الحسينيين الذين يقطنون الشمال . [انظر ، الدكتور صلاح العقاد ، المقرب العربى ، الصفحة ٦٨ وما بعدها .]

(٨٥) **كالديان** : ورد اسمه هكذا في المتن وورد اسمه بالكامل في تريمينجهام (A History of Islam in West Africa ، الصفحة ١٤٨) على النحو التالى : **كالديان كولوبالي** ، ويقول تريمينجهام إن كالديان يستمد شهرته من شهرة حاكم من سلالة هو بيتون مامارى كولوبالي الذى حكم في الفترة ١٧١٢-١٧٥٥ ، كما يقول إن بيتون هو الذى أسس دولة سيجو ، وإنه كان رئيساً لرابطة عمرية تحولت إلى جيش وكسبت شهرة كبيرة وغنيمة هائلة من الرقيق .

(٨٦) **تونديون** : التونديون الوثنيون من الوولوف . ويقول تريمينجهام (المرجع السابق ، الصفحتان ٤٦ و ٢٢٤) إن التونديون أطاحوا حوالى عام ١٢٠٠ بأسرة مَنَّا الحاكمة ، وإنه بعد ذلك بمائة عام حُلَّت محل التونديون أسرة من الغولبي جاءت من منطقة تيرمى شمال شرق فوتا ، حيث سُمِّي الحكام الجدد « لام تيرمى » ، أى رؤساء التيرمى . وربما يكون إسم التونديون الوارد في المتن مشتقاً من هذا السياق .

جيشاً نظامياً ، وشرع فى توسيع أسطوله واختار له عشيرة من الصيادين - السومونو^(٨٧) الذين زودهم بعدد كبير من الرقيق . ومُنح السومونو احتكاراً على النقل النهري ؛ فكان لهم الحق فى تحصيل المكوس من الركاب . وفى مقابل ذلك كان عليهم وضع عدد من السفن تحت تصرف الملك .

ومضى بيتون كوليبالى فى استخدام جيشه وأسطوله اللذين شكلهما وفق طراز جديد . ففتح مقاطعات مالى ومد سلطة البمبرة إلى ماسنة ، وأرغم باشاوات تمبكت مرة أخرى على الاعتراف بالبمبرة أسياداً لهم . أما البمبرة غير المستعدين لقبول حكمه ، وبخاصة كوليبالى مساسى^(٨٨) ، فقد أرغمهم على مغادرة مملكته ، فتحكوا إلى الجانب الآخر من النهر حيث أسسوا مملكة كآرتة .

ومرة أخرى كان موت بيتون كوليبالى بداية فترة من الفوضى ، إذ لم يكن ابنه الأكبر حازماً فذبحه الحراس أصحاب السلطة الفعلية واعتنق ابنه الثانى الإسلام ، فاستثار ذلك مشاعر الشعب ، وقد قتل بدوره بعد حكم قصير . وخلفه رقيق يدعى كفاديوغو دام حكمه ثلاث سنوات ، ثم تولى السلطة رقيق آخر يدعى نغولا ديارا .

وكان نغولا ديارا ثالث حاكم عظيم لمملكة البمبرة ، وكان عند ارتقائه العرش قد تجاوز الأربعين ، بيد أنه فى فترة حكمه التى استمرت أربعة وعشرين عاماً (١٧٦٣ إلى ١٧٨٧)^(٨٩) أعاد النظام وقيد سلطة الحرس وضباطه ، ووسع امبراطورية

(٨٧) السومونو: إحدى عشائر البمبرة الوثنية فى منطقة ماسنة ، أفلتت فى بداية القرن التاسع عشر من قبضة البمبرة الوثنيين وانضمت إلى مملكة حمادو الشيخ فى ماسنة .

(٨٨) يورد تريمينجهام (المرجع السابق ، الصفحتان ١٤٨ و ١٤٩) أسماء وتواريخ وأحداثاً مختلفة لا أرى بأساً من الإشارة إليها . فيقول إن مساسى Musa-Si هو اسم العشيرة المناقسة لبيتون ، وإن مسا تولى الحكم فى الفترة ١٦٥٠-١٧١٠ ، وإن فوليكورد (الذى حكم فى الفترة ١٧٤٥-١٧٥٤) هو الذى دخل فى نزاع مع بيتون فى عاصمته سيجو ، وإن سى باماما (١٧٥٤-١٧٥٨) هو الذى فر واستوطن فى كآرتة بين السوننكى .

(٨٩) يقول تريمينجهام ، الصفحة ١٤٩ ، إن ديارا حكم خلال الفترة ١٧٦٦-١٧٩٠ ، وأنه انتصر على الفولانى فى كالارى وماسنة ، وأنه سيطر على چنى وسكنو وتمبكت ، وأنه تعرض لنكسات عندما هاجم الموسى فى ياتنغا .

البمبرة التي كاد الصراع بين الجماعات المتنازعة فيها أن يقضى عليها . وأعاد فتح تمبكت : وكان الباشوات خلال فترة ضعف البمبرة قد خضعوا للأوليمندن . وقد ذاع صيته حتى أن چاكسون ، القنصل البريطاني في مراكش ، سمع عنه في عام ١٨٠٠ ، أي بعد موته بثلاثة عشر عاماً . ويقول چاكسون إن ملك البمبرة كانت لديه ثلاثة قصور في تمبكت ، وقصر في چنى . وفي تمبكت كانت السلطة موزعة بين الأروما^(٩٠) والبمبرة ، فاختص الأروما بالشؤون الداخلية ، والبمبرة بالشؤون الحربية .

وتمكن نغولا ديارا من استعادة ولاء الفولاني في ماسنة بعد أن رفعوا راية العصيان . وشن حملة على حاكم ياتنغا ، وهو من الموسى ، تأييداً لمطالب بالعرش . وقد ذكر مونفو بارك^(٩١) أن حاكم ياتنغا قاد حملة مفاجئة على چنى ، ولم يستطع البمبرة الذين أخذوا على غرة أن يحولوا نون تخريب المدينة ونهبها . وبعد نغولا ديارا جاء منسونغ^(٩٢) الذي واصل أعراف حكام البمبرة .

وكان موت منسونغ في عام ١٨٠٨ بداية فترة جديدة في تاريخ بلاد السودان . إذ بدأ جهاد الفولاني في بلاد الهوسا ؛ وأصبح ازدهار الإسلام ملموساً في بلاد السودان أيضاً ، وواجه البمبرة الوطأة الشديدة لهذا الازدهار .

(٩٠) الأروما : سلالة الغزاة المركشيين ونساء أرسقراطية السودان . اكتسبوا بمرور الوقت مميزات خاصة وأصبحوا أصحاب السلطة الفعلية ، وانفصلوا عن مراكش . وهم أشبه «بالمولدين» في الأندلس من أب عربى أو بربرى وأم مسيحية ، أو «البركبول» في الحروب الصليبية من أب سورى وأم يونانية .

(٩١) مونفو بارك : (١٧٧١-١٨٠٦ م) مستكشف اسكتلندى أوفد لاستكشاف النيجر . وصل غمبيا في يونيو ١٧٩٥ ، وصعد في النهر ، ثم شرع في استكشاف المناطق الداخلية ، وعبر حوض السنغال الأعلى ومنطقة كارتة . امتلأت رحلته بالمشاق والصعاب ، وقد سجنه رئيس مراكش بضعة أشهر . سار في اتجاه المصب حتى سيلا ، ثم سيجو ، لكنه اضطر للعودة بسبب المشاق وانعدام الوسائل . ضمّن أحداث رحلته كتابه Travels in the Interior of Africa (توجد نسخة منه بدار الكتب بكوننيش النيل) وفي عام ١٨٠٢ قاد رحلة أخرى لاستكشاف النيجر انتهت بفرقه في النهر عندما هاجمه بعض الأهالي .

(٩٢) منسونغ : حكم في الفترة ١٧٩٠-١٨٠٨ ، وقد خلف نغولا ديارا الذي حكم في الفترة ١٧٦٦-١٧٩٠ ، وجاء بعده دا ديارا في الفترة ١٨٠٨-١٨٢٧ ، زاره مونفو بارك .

وكان أحمدو ، من الفولاني ، أول المنادين بالجهاد في بلاد السودان . وهو شخصية أقل أهمية من الكانمي وعثمان دان فوديو ، وقد شارك في الأحداث المثيرة التي وقعت في غوبر ، غير أن علماء چنى ، وكانوا إما من الطوارق أو الأرما ، لم يسمحوا له بالوعظ في مسجد چنى . وكان أحمدو مرابطاً هاماً عرف بالورع والتقوى ، وسرعان ما اجتمع له مريدون . ودخل مريدوه في نزاع مع الأربو^(٩٢) الذين حكموا ماسنة كأتباع للبمبرة . وقُمع الأربو بسهولة ، ولكن ملك البمبرة أرسل جيشاً لتأييد تابعه . وفي ٢١ مارس ١٨١٨ أوقع أحمدو الهزيمة بجيش البمبرة ؛ كما لحقت بالبمبرة هزيمة ثانية في ١٢ مايو من العام نفسه .

وكان محمد غاليچو من بين من قبلوا زعامة الشيخ أحمدو الروحية . وقد أقام غاليچو إمارة صغيرة للفولاني في ماسنة . ويعد هزيمة الأربو توقع الشيخ أحمدو أن يقسم غاليچو يمين الولاء له . ولكن غاليچو بينما كان راغباً في الاعتراف بزعامته الروحية ، لم يكن مستعداً لقبوله حاكماً دنيوياً . وطرد غاليچو بعد صراع لم يدم طويلاً ، فذهب إلى غواند حيث أعطاه عبد الله بقعة واسعة في لبيتاكو .

وأصبح مركز أحمدو الآن وطيداً في ماسنة ؛ وأنشأ عاصمة له في حمدالاي . وتميزت حمدالاي على سكتو بكون ماسنة دولة دينية . وكان يدير السلطة مجلس من أربعين عالماً يبتون في كل أمور السياسة ويعملون كمحكمة عليا ؛ وفي كل مقاطعة يوجد قائد عسكري ولجنة تشريعية وأخرى دينية ، وباستطاعة هاتين اللجنتين دعوة المجلس الأعلى في حالة اختلافهما مع القائد العسكري . وعند وفاة أحد أعضاء المجلس الأعلى تقوم هيئة من ستين عالماً يسمون المحكمين بتعيين عضو آخر بدلاً منه .

(٩٢) الأربو : اللقب الذي اتخذته حكام ماسنة ، ومعناه « قائد الهجرة » . وقد رفض حمادو الشيخ هذا اللقب باعتباره غير مناسب لوضعه ، واتخذ مثل الشيخ عثمان لقب « أمير المؤمنين » ، وزعم أنه آخر الأئمة الاثنى عشر . (انظر تريمنجهام ، المرجع السابق ، الصفحات ١٥٠ و ١٧٧ و ١٧٩ .)

وقد حاول المجلس الأعلى أن يحكم طبقاً للشريعة الإسلامية ، ولكن أعضائه لم يكن لديهم أى كتب فى الفقه ، وأمضوا فى المجلس سبع سنوات قبل أن يحصلوا من عثمان دان فوديو على بعض الكتب التى مكنتهم من إسناد أحكامهم . وكان حكام حمدالاي أكثر المجاهدين تشدداً : يمعنون فى اضطهاد الوثنيين ، ويحرّمون التدخين ، وينزلون أقصى أنواع العقاب بمن ينتهكون الشريعة .

وعلى الرغم من أن أحمدو قد أقام دولة دينية ، فقد عجز عن استمالة المسلمين من الأعراق الأخرى . ففى مويتى ، على سبيل المثال ، كان الفولانى يخشون حتمية قيام علاقات ودية بين التجار المولدين ، الذين كانت صلاتهم مع تجار تمبكت وچنى ، وهؤلاء التجار وحلفائهم من الطوارق . ولذلك اضطهدهم الفولانى بغرض تدمير تجارتهم .

واعتبر البمبرة معركة عام ١٨١٨ ثورة مقاطعة نائية ، وعقنوا العزم على سحق الفولانى بمهاجمتهم فى أضعف نقطة لديهم - ما شيتهم . وكان الفولانى على استعداد للتضحية بكل شئ دفاعاً عن ماشيتهم . وقد جرت عاداتهم على الانتقال بماشيتهم من مكان لآخر بحثاً عن المرعى ، لذلك كان من السهل على البمبرة الإغارة عليهم . وبعد بضع مفاجآت اتخذ الفولانى تدابير لحماية الماشية بإرسال قوات لحراستها ، ولما تبين للبمبرة أن الغارات أكثر تكلفة أخذوا يرسلون حملات منتظمة .

واستطاع البمبرة ترويض أنفسهم على ضياع ماسنة التى لم تكن سوى إمارة تابعة تدفع الجزية ، وليس لضياعها تأثير جدى على قوتهم . ولكن الموقف كان مختلفاً تماماً فيما يتعلق بحكام ماسنة من الأريو . فظهر حمدالاي هدد نفس مصدر قوتهم . لذلك حاربوا الفولانى بعزم شديد أملين أن تؤدى مقاومتهم إلى تدخل فعال من جانب البمبرة . وذلك هو ما حدث على وجه التحديد . فقد أرسل دا^(٩٤) ، حاكم سيجو ، حملة للاستيلاء على ماشية الفولانى ، ولكنه هزم .

(٩٤) هو دا ديارا الذى خلف منسونغ ، انظر الحاشية ٩ - ٩٢ أعلاه .

وبعد هزيمته استدار نحو فيل تتغارا ، المحارب العظيم من البمبرة ورئيس سارو .
ومنذ ذلك الحين أصبحت الإغارة على الفولاني الشغل الشاغل لمحاربي سارو
من البمبرة .

وحروب الحدود هذه لم تكن أبداً حروباً حاسمة . وقد فقد الفولاني ماشية
كثيرة ، على الرغم من إحراز بضعة انتصارات ملحوظة ، واستمرت الحرب مع
البمبرة ، وإن كان قد اعترف بالفولاني كقوة مستقلة . وفي الوقت نفسه فإن
أحمو لم تغب عن باله الطريقة التي عاملته بها چنى ، لذلك عقد العزم على الحط
من شأنها بقوة السلاح . وبعد حصار استمر تسعة أشهر استسلمت چنى .
وخضعت لأولوة وادى النيجر لحكم واحد من الأتقياء . وعلى الرغم من أن السنقى
كانوا مسلمين ، فقد كانوا مولعين بشراب العسل المخمر ، وليست لديهم أية
حماسة لأداء الصلاة . وقد تبين لهم أن الحاكم الفولاني متشدد ، لذلك عزموا
أمرهم على طلب المساعدة من سارو وسيجو ليطرحوا عنهم حكم الفولاني
المكروهين . ولسوء الحظ اكتشفت مكاتباتهم مع البمبرة . وفي هذه الأثناء قتل
القاضى ، وألقى بالفولاني الذين تركوا فى المدينة إلى خارجها . وأرسلت
حمدالاي جيشاً نظامياً تحت إمرة القائد العام ، وأعلن أن چنى فى حالة ثورة ،
وهو ما سمح للفولاني بتحويل أهلها إلى رقيق والاستيلاء على ممتلكاتهم .
وعجزت چنى عن الصمود وسقطت فى أيدي الفولاني .

ولم يكن الأردو ، أى البمبرة فى سيجو وسارو ، هم وحدهم الذين يتعين على
حمدالاي الدخول فى نزاع معهم . فالفولاني الوثنيون فى الجنوب كانوا
يعارضونهم أيضاً . واشتدت حماسة الفولاني فى بوبو بوجه خاص للإغارة على
قوافل المسلمين ، لذلك أرسلت حملة ضدهم . وهزم الفولاني الوثنيون فى موقعة
نغونكورو ، ووقع فى أيدي المسلمين المنتصرين عدد كبير من الأسرى ، وخيروهم
بين الموت أو اعتناق الإسلام . بيد أن مقاومة الوثنيين لم تتوقف ، ففى هجوم ليلى
مباغت قتل الفولاني الوثنيون قائد المسلمين ، وعجز الجنود المسلمون عن
الاستيلاء على قرية نوما المحصنة .

وفى بلاد ديلغودى ، التى حاول الفولانى فتحها ، كانت توجد ثلاث قبائل أعلن رؤساؤها الأربو خضوعهم لحمدالآى ، ولكن الفولانى كانوا يأملون إدماج أراضيها فى مملكتهم . وحدث نزاع على رئاسة هذه القبائل أتاح لهم فرصة للتدخل .

وبسبب غزو ديلغودى دخل الفولانى فى نزاع مع موسى . فقد خشى يانتغا نابا^(٩٥) أن يكون غزو الفولانى نذير شر له ، فعبا جيشه . وعندما هزمت ديلغودى استغاثت بياتنغا . وأرسل النابا جيشاً أوقع هزيمة ساحقة بالفولانى . ومع ذلك كان سلوك موسى سيئاً ، واستطاع الفولانى إعادة فتح البلاد بمساعدة الرؤساء المحليين .

وقد حدث فزع شديد فى كآرته نتيجة لهزيمة سيجو على أيدي الفولانى فى موقعة نوكونا . وكان موديان موريبا ، الذى حكم كآرته حتى عام ١٨٣٤ ، يحتفظ بعلاقات سلمية مع الفولانى ، ولكن ابنه غاران كان ذا طبيعة مختلفة ، وكان خليله والأثير لديه فولانياً مسلماً ويكثر من الحديث إلى الملك عن حمدالآى ، وسئم الملك هذا الحديث وطرد خليله الذى لم يسعه إلا اللجوء إلى حمدالآى . عندئذ قام جيش بقيادة الشيخ أحمدو بغزو كآرته ، ولكن غاران أوقع به الهزيمة ، وأرغمت الوحدات المهزومة على التراجع ، وتعقبها البمبرة وأحاطوا بها ، ولكنهم قبل أن يجهزوا على جيش الفولانى وصلت تعزيزات من ماسنة أنقذت الشيخ أحمدو .

وقد أحدث ظهور الفولانى كقوة إسلامية تأثيراً سيئاً على قبيلة ولد مبارك المغربية . فالمسلمون كانوا حتى الآن أتباعاً لها ، ولكنهم أحنوا يتحولون إلى ماسنة ، وهو ما أغضب سيدى مختار^(٩٦) رئيس قبيلة ولد مبارك ، فعزم على

(٩٥) يانتغا نابا : حاكم يانتغا .

(٩٦) الشيخ سيدى المختار الكبير : (١٧٢٩-١٨١١) ولد فى أروان ، وأقام دعوته على الجهاد الأكبر ، أى جهاد النفس ، باعتباره خير وسيلة للإصلاح ونشر الإسلام . حقق نجاحات كثيرة ، واجتذب دارسين كثيرين مما أثار حسد وغيره عدد من المتفكرين فى العلوم الإسلامية . دخل فى مجالات كثيرة كان فارسها الذى لا ينزع ، ألف أكثر من ثلاثمائة كتاب ورسالة ركز فيها على أهمية الجهاد الأكبر .

تدمير قوة الفولاني ، فجهز جيشاً مغريباً كبيراً غزا به ماسنة ، ويرغم ما لاقاه المغاربة من نجاح ملحوظ في بداية حملتهم ، فقد دحروا في النهاية وأرغموا على الانسحاب .

وكان هناك عدو أكثر خطورة هو جيش الطوارق . فبدا الصحراء كانوا يعتنقون على منطقة السقانا ، ويدخلون في نزاعات مع الفولاني . وكان التفوق بوجه عام من نصيب الفولاني ، ولكن الطوارق ظلوا يشكلون خطراً .

وفي عام ١٨٢٦ فتح الفولاني تمبكت ، ولم يكن هذا العمل مقبولاً لدى سيدي محمد^(٩٧) ، رئيس البكاى ، فهو لكونه من سلالة أسرة قديمة من الأولياء البارزين لم يكن مستعداً لقبول سلطة الشيخ أحمدو ، وطُلب إلى أنصاره الامتناع عن إيتاء الزكاة . وعندما واجه الفولاني هذه الثورة قرروا قمعها بالقوة . وتحطمت مقاومة الأرما والطوارق تماماً ، وانسحب سيدي محمد من أزواد ، وخلفه رئيس أكثر ولعاً بالحرب هو أحمد البكاى^(٩٨) الذي عاد إلى أزواد . أما الطوارق الذين أثار حماسهم وجود زعيمهم بين ظهرانيتهم ، فقد بدأوا في نهب القرى ، وركزوا في سلسلة من الحملات على إبادة ماشية الفولاني . وفي هذه المرة كان الطوارق أكثر توفيقاً . فمع مقدم عام ١٨٤٣ كانت الحروب وأعمال السلب والنهب المستمرة التي يمارسها الطوارق قد أرغمت الفولاني على توجيه حملة كبيرة لسحقهم ،

(٩٧) سيدي محمد : عالم بارز ومرشد ديني ، وكان من الكونتات الذين هاجروا من توات في القرن الخامس عشر إلى غرب الصحراء الكبرى ، حيث اكتسب احترام بني حسن في مراكش . ورغم أنه رجل علم ودين فقد أبدى استعداداً لمساندة الإجراء العسكري الذي اتخذته بنو حسن ضد فرع من الصنهاجة يرتبط به عن طريق المصاهرة ، ونشأ بسبب ذلك نزاع بينه وبين أقاربه .

(٩٨) سيدي أحمد البكاى : من زعماء الكونتات البارزين في الصحراء الكبرى الغربية . وهو ابن سيدي محمد ، واستقر في ولاته . أدخل الطريقة القادرية في غرب إفريقيا . عاصر وصول المسكشفي الألماني بارث إلى بلاده ، فكتب رسالة إلى زعماء المنطقة للسماح له بالمرور بصفته صديقاً لبلاده وضييفاً عليها . التف حوله سكان الصحراء لمقاومة الحاج عمر الذي بدأ يبطش بهم ويرغمهم على اتباع الطريقة التيجانية . [الحواشي ٩٦ و ٩٧ و ٩٨ مأخوذة في الأساس عن كتابين هما: دكتور محمد سعيد القشاط ، الطوارق ، مركز دراسات وأبحاث شؤون الصحراء ، ليبيا ؛ بيتر ب. كلارك ، West Africa and Islam ، لندن ، ١٩٨٢ .]

ولكنهم تعرضوا لعقاب صارم . ففي موقعة تويا على ضفاف النيجر حاقت بهم هزيمة مشؤومة ، وقتل كثيرون منهم أو غرقوا في النهر ، وسقطت تمبكت في أيدي الطوارق بقيادة زعيمهم الروحي أحمد البكاي . ولكنه نصر لم يفد شيئاً . فتمبكت تعتمد على ماسنة في الحصول على الملح ، وباستطاعة الفولاني ، حتى وإن انسحبوا من المدينة ، العودة إلى إخضاعها ، فاضطر سيدى البكاي إلى المساومة : الفولاني يحرسون المدينة ؛ والسلطة المدنية تترك في أيدي اثنين من القضاة ، أحدهما من السنغى والآخر من الفولا .

وعلى الرغم من العداء بين أحمد البكاي وحمدالاي ، فقد احتفظ البكاي بعلاقات ممتازة مع سكتو التي قام بزيارتها حيث استقبله بلُ باحترام كبير . ولكنه بسبب انصرافه إلى العلم كان عديم الفعالية ، وليست لديه دراية حقيقية بالشؤون السياسية .

وفي عام ١٨٤٥ مات الشيخ أحمدو ، وخلفه ابنه أحمدو الذي عرف بأحمدو شيخو . ولم يكن أحمدو الثاني محارباً ، بيد أن ابن عمه بالبُو ، قائد جيوش الفولاني ، كان باستطاعته قمع البمبرة والطوارق . وكان لابد أن يواجه أحمدو بدوره مشكلات الفولاني الدائمة في ماسنة - وفي مقدمتها كيفية التغلب على الطوارق الذين لا يصرون فقط على رعى ماشيتهم في منطقة الدلتا ، وإنما على نهب القرى أيضاً . وفي عام ١٨٤٦ ، بعد أن خلف أحمدو شيخو أباه في حكم حمدالاي بعام واحد ، نُحر الطوارق في معركة كبيرة . لكن هذه الانتصارات ، سواء أكانت لصالح الفولاني أم الطوارق ، لم تغير الموقف عسكرياً ؛ وواصل الطوارق الإغارة على مناطق منحنى النهر ونهبها .

وكان عهد أحمدو الثاني عهد حروب مستمرة . فالبمبرة والفولاني لا يكفون عن الإغارة على أراضي بعضهم بعضاً . وكان التفوق إلى جانب البمبرة الذين استولوا على أعداد كبيرة من ماشية الفولاني . كذلك لم يذق أحمدو الثاني طعم السلم في تمبكت بسبب مضايقات سيدى البكاي المستمرة له . لكن الأسيرة لم تكن مخصصة في قبول سلطته ، وإن استطاع أحمدو أن يرغمهم على احترام النظام .

ومع ذلك احتفظ البكاى بهيمنتة الروحية عن طريق صداقته لسكتو ، وبهيمنتة السياسية عن طريق التحالف مع الأوليمندين . ومات أحمدو شيخو فى عام ١٨٥٣ ، وخلفه إبنه أحمدو الثالث .

وفى عام ١٨٥٤ قرر الفولانى تسيير حملة إلى الطوارق ، ولكن غزوا قام به الموسيقى فى الجنوب أرغمهم على تغيير خططهم . وواصل البكاى معارضته للفولانى . بيد أن السنغى ، على الرغم من كراهيتهم للفولانى ، كانوا أشد كراهية للطوارق ، ولذلك لم يكونوا يريدون محاربة الفولانى . وهكذا استطاع الفولانى البقاء فى تمبكت .

وكان عهد أحمدو الثالث مضطربا . فعمر وطّد بالفعل أقدامه فى الغرب ، وسرعان ما استطاع تحطيم قوة البمبرة . ولذا واجه أحمدو الثالث طوال عهده مهمة تحطيم عمر . وستتناول فى الفرع التالى من هذا الفصل محاولاته المتعددة وأسباب فشله فى نهاية الأمر .

وقد أسدى الفولانى فى سكتو وماسنة خدمة كبيرة للسودان ، إذ كانوا سداً منيعاً فى وجه بدو الصحراء الذين أخذوا يستقرون فى بطاء ببلاد السودان . وقد شاهداهم بارث فى لىپتاكو وفى بلاد الهوسا . كما يرجع إلى الفولانى الفضل الأكبر فى إحباط محاولة الطوارق .

تاسعا

ولد عمر ، آخر المجاهدين العظام فى القرن التاسع عشر ، فى فوتاتورو فى عام ١٧٩٤ ، وهو الإبن العاشر لسيدى عثمان . وفى عام ١٨٢٧ ، وبعد أن أمضى بضعة أشهر فى فوتاجالون ، قرر أن يصبح سيده عبد الكريم^(٩٩) إلى

(٩٩) الشيخ عبد الكريم أحمد بن الناقل : من علماء فوتاجالون البارزين ، أخذ عن الشيخ محمد الغالى . وقد تخلف عن القيام برحلة الحج مع الحاج عمر لمرض ألم به .

مكة ، ولكن عبد الكريم لم يستطع القيام بالرحلة ، فقام بها عمر بمفرده . وهناك التقى بالشيخ محمد الغالى^(١٠٠) ، فأصبح من مريديه ومقهما^(١٠١) للطريقة التيجانية . وأقام فى الحجاز حتى أثر فى الشيخ بورعه وتقواه فمنحه بركته . وفى الوقت نفسه أصبح شيخاً وخليفة لإفريقية السوداء كلها .

وبعد أن أقام سبع سنوات فى المشرق بدأ رحلة العودة . وفى طريق عودته أقام علاقات وثيقة مع مشايخ جامعة الأزهر الذين ينتمون إلى طريقته ، كما زار برنو وسكتو ، وظل فى سكتو حتى وفاة بل فى عام ١٨٥٢ ، عندما انتقل إلى حمداً لاى حيث أكرم الشيخ أحمو وفادته . وقد رأى أحمو فى عمر منافساً له ، ولكنه سمح له بالإقامة فى حمداً لاى حيث رزق ولداً هناك . ثم انتقل إلى تيرو ، ولكن فى سيكورو أودعه حاكم تايغولو السجن . ويقول البعض إن ذلك قد حدث بناء على مشورة أحمو . ولكن عمر لم يمض وقتاً طويلاً فى السجن ، وسرعان ما وصل إلى الفوتا .

وخير ما يوصف به الموضع السياسى فى الفوتا فى ذلك الوقت هو أنه فوضى منظمة . فالعلمانى ، كما كان الحكام يُعرفون ، ليس لهم دور فعال ؛ إذ يحكمون لفترة قصيرة ليستبدل بهم غيرهم . أما السلطة الفعلية فهى فى أيدي رؤساء العشائر . وعندما عاد عمر إلى الفوتا فى عام ١٨٤٦ لقي ترحيباً حاراً من العلمانى . وسرعان ما أدرك أن الحالة غير المنظمة بين الفوتا والسنغال لابد أن تعطى الفرصة للفرنسيين الذين بدأوا يوطدون أقدامهم فى البلاد .

كان عمر فى وضع مواتٍ بوجه خاص ، ويقيم علاقات شخصية مع كبار العلماء فى الحجاز وسوريا ومصر . كما التقى بشيخ برنو وسلطان سكتو وأمضى

(١٠٠) سيدى محمد الغالى : كان فى مكة مجاوراً ، فاجتمع به الحاج عمر هناك ، ومكث معه حتى أتم مناسك الحج ، وظل يخدمه ثلاث سنوات ، وتلقى عنه الأذكار . وقد نظم عمر فى سلك الطريقة التيجانية ، وتعهدته حتى بلغ مبلغ الفطام ، وجعله من خلفائه .

(١٠١) مقدم الطريقة : نائب شيخها ، وهو من أمره الشيخ ، أو من أذن له بالإذن ، بتلقين الأذكار والأوراد اللازمة ، بعد أن يكون قد تدرب على يديه ، وهو الذى يأخذ عليه الناس العهد .

معهما بعض الوقت ، وكذلك مع الشيخ أحمـلو فى حمـدالـى . وهكذا كان لديه فهم أفضل مما لدى أى شخص آخر لما يفكر فيه المصلحون والحكام فى غرب إفريقيا . وكان لعمر ميزة أخرى . فهو لأنه عاش بالقرب من الساحل كان باستطاعته أن يلحظ على الطبيعة مدى نمو قوة الأوروبيين ، وقادراً بدرجة كافية على أن يدرك أنه من غير قدر من المشاركة والتعاون معهم ، فلن يكون ممكناً بناء وحدة سياسية مستقرة . وهكذا حاول استمالة الفرنسيين . وفى عام ١٨٤٦ تمت مقابلة بينه وبين كاي فى نوناي ، كذلك رحب به قائد قلعة بايل .

وكان هدف عمر مزبوجاً : فهو من ناحية يرغب فى تدعيم منطقة التكرور عن طريق جعلها مركزاً لقوة التيجانية ؛ كما يعمل من ناحية أخرى على توسيع سلطته بإدخال الوثنيين فى الإسلام . فأخذ فى جمع الأتباع عن طريق الوعظ والدعوة فى المدن المحيطة بالطرق . وفى الفوتا كسب بعض الأتباع ، ولم يلبث الرؤساء أن ضاقوا ذرعاً بقوته الآخذة فى النمو . وأوفد يمبا سـكـلو ، رئيس الديالوكابوغو^(١٠٢) ، ثلاثة رسل لتهديد الشيخ . بيد أن عمر كان يتمتع بقدرة على الإقناع مكنته من إدخال هؤلاء الرسل فى الإسلام . والآن بعد أن أصبح الخطر ماثلاً تماماً أمام يمبا قرر التصدى لعمر ، فهاجمه بجيش كبير ، ولكن عصابة عمر الصغيرة من المتحمسين أوقعت به الهزيمة على الرغم من تفوقه العددي . وسقطت إمارة يمبا فى يد عمر الذى أدخل أهلها فى الإسلام بحد السيف . وتمكن يمبا بمساعدة رئيس البانديوغو من مقاومة عمر فى القرية الحصينة تاييا التى تحدثت عمر قرابة خمسة شهور ، ولكنه استولى عليها فى النهاية بهجوم شنه عليها . واعتنق يمبا الإسلام ، ودعا عمر إلى دنغوراي . وبعد هذا النجاح الأول جند عمر المزيد والمزيد من الرجال ، وسرعان ما خضعت فوتا تورو بأكملها لسيطرته . واستدار عمر الآن نحو هدفه الرئيسى - إخضاع البمبرة الوثنيين .

(١٠٢) فى ترمينجهام ، المرجع السابق ، الصفحة ١٨١ ورد جيمبا ساخو حاكم جالونكة بدلا من يمبا سـكـلو رئيس الديالوكابوغو ، وكذلك نـجـيراي بدلا من دنغوراي ، وهى التى استقر فيها الحاج عمر بعد عودته من الحج وجولاته فى مصر وبرنو تحت حكم الكانمى وسكتو تحت حكم محمد بلّ وماسنة (١٨٢٨) تحت حكم حمانو شيخو .

كان البمبرة في ذلك الوقت ، كما رأينا ، أعظم قوة حربية في السودان . فلو أن عمر أسس مملكة مستقرة ، إذن لأمكن سحق ممالك البمبرة . فضلاً عن ذلك فإن البمبرة وثنيون ، ولذا فإن شن الحرب عليهم لابد أن يكون إنجازاً للشيخ جديراً بالتقدير . ولذلك عقد عمر العزم على الخروج للجهاد .

وتحرك عمر من دنغوراي بجيشه المجند حديثاً . واتجه تفكيره إلى اتخاذ دنغوراي قاعدة للعمليات ، ومنها يخضع صغار الرؤساء على حدود بلاد البمبرة . فخرّب بمبوك ، واتجه إلى فاربنا التي كان أحد قواده ، عثمان بوبو ، يهاجمها من اتجاه آخر .

وكانت فرنسا قد وطّدت أقدامها بالفعل في السنغال ، ولها حامية في باكل ومحطة تجارية في سينوبولو ، وكان على قوات فوتا تورو أن تمر بهذين الموقعين لتصل إلى بلاد البمبرة . فإذا ما اعترض الفرنسيون طريق عمر فلا بد أن تنتهي الحملة كلها بكارثة ، ولذا كان من الضروري ضمان حيادهم ، فأودع عمر أبناءه رهائن في أيدي الفرنسيين .

وفي باكل قرر عمر تخريب بلاد البمبرة بعد أن تلقى مدداً من فوتا ، فركز قواته على الضفة اليسرى للنيجر ، ولكن ملك كارتة اعترض طريقه بجيش كبير . وأسقط في يد عمر ، إذ أن خطته كانت تقوم على مفاجأة البمبرة ، ولذا أرسل فصيلة كبيرة من جيشه لعبور النيجر عند نقطة بالقرب من قايس ، ومهاجمة البمبرة من الخلف . ودحر البمبرة ولانوا بالفرار . وأعاد مامادي كانديان تجميع قواته ، ودارت رحى معركة ثانية يوم الخامس عشر من فبراير ١٨٥٥ . ودُحر كانديان للمرة الثانية ، واعتنق الإسلام . وأرسل عمر ثلاثة من طلبته يحملون الأنباء الطيبة إلى الفوتا من أجل تجنيد المزيد من القوات . بيد أن البمبرة كانوا لا يزالون بعيدين كثيراً عن الهزيمة . كذلك لم يكن الفولاني في ماسنة سعداء بانتصار عمر ، لخشيتهم من أن يجيء نورهم بمجرد أن ينتهي عمر من البمبرة . وأصبح على البمبرة في كارتة الدخول في صراع مع التوكولور ، وهو صراع لم

يكن هناك ما يدعمه سوى القومية والدين ، وطوال فترة سيطرتهم لم يكن باستطاعة التكرور المسلمين إخضاع البمبرة الوثنيين .

وهكذا فإن اعتناق مامادى للإسلام لم يكن بأية حال إيذانا بنهاية البمبرة ، بل كان بالأحرى بداية المقاومة القومية . واستطاع عمر أن يوقع الهزيمة بقوة البمبرة التي حاولت قطع اتصالاته عن طريق فرض الحصار على نيويورو ، ولكن البمبرة سرعان ما أرسلوا جيشين آخرين للميدان أخفق التوكولور فى هزيمتهما . وكان هناك موقع عسكري آخر للبمبرة تحت إمرة كانديان ، وقد وصفه رافينال^(١٠٣) بأنه من أفضل القرى المحصنة فى غرب إفريقيا . وعانى جيش التوكولور الذى يحاصر كانديان خسائر كبيرة بلغت خمسمائة رجل دون تحقيق أية نتيجة ؛ كذلك دحر البمبرة فصيلة أخرى للتوكولور ، وبلغ الموقف درجة من الدقة حملت عمر على طلب مدد جديد من قوتيا ، وجاء بنفسه ليشرف على حصار جيوشه لكانديان .

ووصل جيش من البمبرة لإنقاذ الحامية ؛ وعندما رأى البمبرة الشيخ تراجع جيشهم ، فتعقبه الشيخ ، ولكنه لم يستطيع الالتحام به إلا عندما قسم جيشه إلى فصائل . وهكذا بعد أن نجح البمبرة فى خديعتهم ، شنوا هجوماً على عبد الفقيه ، أحد ضباط عمر . ودحر عبد الفقيه ، ولكن عمر وصل فى الوقت المناسب لإعادة الأمور إلى نصابها . ووجه عمر اهتمامه الآن إلى ديوارا^(١٠٤) التى أعلن ملكها خضوعه فى نفس الوقت الذى خضع فيه مامادى ، بيد أنه بعد أن فشلت الانتفاضة العامة التى قام بها البمبرة أعلن ملك ديوارا العصيان . وأرسل عمر أحد ضباطه لمعاقبة ديوارا ، ولكنه لم يوفق ، فذهب عمر بنفسه ، وتحقق له النصر فى القتال الذى دار هناك .

(١٠٣) ١. رافينال (Raffenal) : ورد اسمه رافينل (Raffenel) فى تريمينجهام ، الصفحة ١٧٢ ؛ وكذلك فى بوفل ، الصفحة ٢٣٦ . وهو رحالة فرنسى زار هذه المناطق فى منتصف القرن الماضى ، ووضع كتاباً عن رحلته عنوانه Nouveau Voyage au Pays des Nègres .

(١٠٤) ديوارا (Dywarra) : ورد اسمها ديوارا Dyara فى تريمينجهام ، الصفحة ٤٥ . حصلت على استقلالها عندما قام المرابطون بغزو غانة ، وفى عام ١٧٥٤ خضعت للبمبرة فى عهد مساً ، ولكنها احتفظت بقدر من الاستقلال . ظلت تناوى الإسلام إلى أن سقطت فى أيدي الحاج عمر فى عام ١٨٥٤ .

غير أن عمر لم يكن قد صفى حسابه مع البمبرة ، وكان يعلم أنهم يمكن أن يثوروا مرة أخرى . ولذا كان هدفه هو القضاء التام على كل مقاومة فى بلاد البمبرة ، وعملاً على تحقيق هذا الهدف أوفد مبعوثاً إلى أحمدو الثالث يقترح عليه تقسيم البلاد بينهما . وكانت ماسنة مرتابة فى الزيادة الهائلة فى قوة التوكولور ، لذلك رد عليه أحمدو بأنه مرتاح لما هو قائم . وكى يؤمن أحمدو ممتلكاته أرسل جيشاً لمساعدة كآرته ، غير أن هذه القوة لقيت الهزيمة على أيدي عمر . كذلك اتخذ عمر خطوات دبلوماسية ، ولم يكن يرغب فى أن تتدخل سيجو فى حملته على كآرته وديوارا ، فبعث برسول إلى سيجو يبلغها أن خلافه إنما هو مع ديوارا وحدها ، وأنه راغب فى أن يظل على علاقات طيبة معها . وبإدله حاكم سيجو نفس المشاعر ، وبعث إليه بم رابط من التوكولور ، ولكن نبلاء بولته لم يشاطروه وجهة نظره بحجة أنه يريد تسليم سيجو إلى الفاتح التوكولورى ، وتمكنت مؤامرة فى البلاط من عزله وقطع رأسه . وهكذا أخفقت المحاولات لإقامة علاقات ودية مع البمبرة فى سيجو والفولانى فى ماسنة فى وقت يصفى فيه حسابه مع كآرته وديوارا .

كذلك عجز عمر عن إقامة علاقات ودية مع الفرنسيين أيضاً ، فقد لجأت بقايا جيش كآرته بعد هزيمتها إلى **خاصونكى** ، وصمم عمر على معاقبة **الخاصو** ، وسير جيشاً إلى بلادهم ، وسقطت إثنتان من قلاعهم الهامة ، ولكن **ميدى**^(١٠٥) العاصمة ، حيث يقيم الملك ، أيدت مقاومة عنيفة . وكانت تحمى ميدى قلعة بناها الفرنسيون ، على حين قبل **الخاصو** الحماية الفرنسية . وهكذا دخل عمر ، بسبب هجومه على **خاصونكى** ، فى نزاع مع الفرنسيين . وصمدت ميدى ، ودحر جيش التوكولور ، وأرغم على التراجع . وعاد عمر إلى كونديان فى فولوبوغو ، عن طريق بمبوك ، على رأس سبعة آلاف رجل ، حيث بنى قلعة هناك .

وظل عمر فى هذا المكان حتى ديسمبر ١٨٥٧ ، ثم احتل بوبو ، حيث دخل مرة أخرى فى نزاع مع الفرنسيين . وفى الشهر نفسه أوقع هزيمة بجيش فرنسى

(١٠٥) **الخاصو** فى فوتاجالون : ميدى عاصمة فوتاجالون .

فى نديوم ، واستولى على مدفعين . ومن بوبو انتقل إلى فوتاتورو . وفى غضون عام قام بتنظيم هجرة هائلة للتوكولور فى اتجاه الشرق ، إذ أدرك عمر بالفعل أنه إذا كان لابد من الاحتفاظ بالأراضى التى فتحها فإنه يتعين عليه توطين أتباعه فيها ، ولما كان البمبرة فى كآرته فى حالة ثورة دائمة ، وكانت علاقته بالفرنسيين قد ساءت ، فقد تركزت آماله على تدعيم سلطته فى كآرته وفولوبوغو عن طريق التوكولور هناك . بيد أنه أثناء زحفه نحو فولوبوغو حاول الاستيلاء على حصن ماتان الفرنسى ، ولكنه لم يوفق . وفى مَرَكيا نجح فى هزيمة البمبرة والديوارا بمساعدة المدفعين . ولكن فى غضون ذلك أوقع الفرنسيون هزيمة قاسية بجيش آخر للتوكولور انتهت بسقوط حصنين لهم فى فوتاتورو فى أيديهم . وهكذا قرر عمر التخلّى عن الفوتا تماماً ، وكى يدعم مركزه على ضفاف النيجر قرر إخضاع سيجو لسيطرته .

ولم تكن علاقات سيجو مع عمر ودية . فقد ساعدت الديوارا ، وجعلت من أراضيتها ملجأً للفارين من البمبرة . وأدرك عمر أنه ما لم يسوِّ حساباته مع سيجو ، فسيظل مركزه غير مأمون . فضلاً عن أن الطعام فى مَرَكيا أخذ فى النقصان ، فترك النساء وتحرك نحو نيامينا . وبفضل المدفعين اللذين كانا لديه لم يجد صعوبة فى هزيمة البمبرة فى سيجو .

وسنحت لعمر فرصة جديدة للفتح . ذلك أن رئيس السانساندينغ الذى كان خاضعاً لسيجو ، ثم خضع فيما بعد للفولانى ، رأى من الأفضل له أن يعيش تحت حكم التوكولور ، لذلك دعا عمر إلى القدوم لتحريره ، ولبّى عمر دعوته بحماسة شديدة ، ولكن لم تكد تمضى خمسة شهور حتى تبين للسانساندينغ أن مظالم عمر أشد جوراً من مظالم الفولانى . وبعد أن أحيط أحمو الثالث علماً بالوضع كتب إلى عمر عارضاً عليه أولوية مطلبه بسانساندينغ ، إذ أنه أدخل شعب سيجو فى الإسلام . ورد عليه عمر مقترحاً إقامة حلف ضد سيجو ، واعتبر أحمو هذا الرد إهانة له ، فسيرّ جيشاً بقيادة عمه قوامه ثمانية آلاف من الخيالة وخمسة آلاف راجل مسلحين بالرماح وألف بندقية ، تأييداً لمطلبه ولحمل عمر على الانسحاب من سانساندينغ .

واستطاع جيش الفولاني الانضمام إلى البمبرة دون أن يلقي مقاومة من التوكولور ، وحدثت مواجهة بين الجيشين عبْر النهر استمرت شهرين ، عندئذ قسم عمر جيشه إلى جزأين أحدهما بقيادة ألفا عمر بويلا عبْر النيجر عند سانساندينغ ، والآخر بقيادة ألفا عثمان عبْر النيجر عند مكان أدنى . وفى يناير ١٨٦١ لحقت هزيمة ساحقة بجيشى البمبرة والفولاني المشتركين ، وتراجع جيش الفولاني نحو ماسنة . وبعد أسبوع من انتصار تيو تحرك عمر نحو سيجو التى لم تبد أية مقاومة .

ونتيجة لفتح التوكولور لأقوى بولة فى بلاد السودان انقلب التوازن فى هذه البلاد . ولو أن عمر استطاع إحكام قبضته على سيجو وكآرته لدان له وادى النيجر بأكمله . وكان الفولاني فى ماسنة هم القوة الوحيدة التى تستطيع إبداء مقاومة ما ، فضلاً عن أن المسلمين فى منحنى النيجر كانوا فى غالبيتهم من أتباع الطريقة القادرية^(١٠٦) ، فى حين كان عمر الداعية البارز للطريقة التيجانية . وربما كان ذلك هو ما دعا الشيخ البكاى ، أحد الشخصيات البارزة فى تمبكت ، إلى الاستنجاد بالملكة شيكتوريا . ومع ذلك فإن سفراءه لم يذهبوا أبعد من طرابلس ، حيث أعادهم الحاكم العثماني محملين بالهدايا .

والتمس رؤساء قبائل البمبرة إحلال السلم ، ولكن عمر أصر على أن يعتنقوا الإسلام ، وأرغموا على ترك أبنائهم وإخوتهم كرهائن . واتخذ عمر من سيجو عاصمة لإمبراطوريته . ومع ذلك فإن علياً ملك سيجو لم يستسلم ، وكان يتوقع المساعدة من أحممو . وسير حاكم الفولاني جيشاً كبيراً ، ولكن عمر أوقع به الهزيمة . وفكر أحممو فى إجراء مفاوضات ، ولكن عمر لم يكن مستعداً لقبول

(١٠٦) الطريقة القادرية : طريقة صوفية تنتسب إلى مؤسسها عبد القادر الجيلاني أحد الأقطاب الأربعة : الرفاعي والجيلاني والبنوي والدسوقي . انتشرت فى العراق واليمن والصومال والهند وتركيا ومصر والمغرب وغرب إفريقيا ووسطها ، وبخاصة بين قبيلة الكونتة العربية وفى منطقة نفوذ عثمان دان فوديو وأحممو لويو . ومن أشهر قادتها سيدى أحمد البكاى .

السلم بون تسوية خلافتهما حول سيجو عن طريق تحكيم أحمد المرابطين .
وفضل أحمدو الحرب على التخلي عن إدعاءاته الوهمية في سيجو . وسارع عمر
باغتنام هذه الفرصة ، فترك ابنه أحمدو في سيجو نائباً عنه وقام بغزو ماسنة .

كان لدى عمر جيش قوامه ثلاثون ألفاً ، وفي موقعة كوينهو أوقع هزيمة
بجيش الفولاني الذي تراجع إلى چنى . وتولى أحمدو الثالث قيادة هذه القوة
وأحاط بعمر في سيوال بين سفارا وحمدالاي . وواجه عمر أزمة حرجة ، ولكن
الفولاني فشلوا في الاستفادة من الموقف . فبدلاً من مهاجمة عمر ، انتظروا أن
أن تكون المبادأة من جانبه . واستفاد عمر من الوقت كثيراً في إعداد قذائف
لمدفعيه ، وبعد أن استكمل ما كان لديه من نقص من الذخيرة هاجم الفولاني
الذين عجزوا ، مثلما عجز البمبرة من قبل ، عن الصمود أمام القذف المتواصل
من جانب رجال مدفعية عمر من الوولوف . وعلى الرغم مما أبداه أحمدو الثالث
من بطولة في الحرب ، فقد هزم جيشه ودخل عمر إلى حمدالاي مظفراً . وهكذا
فتح عمر كل الأجزاء الغربية من بلاد السودان . ووقع أحمدو الثالث أسيراً
وقطعت رأسه ؛ وأودع على ملك سيجو السجن . بيد أنه برغم هذا النصر الذي
يبدو حاسماً ، فإن الفولاني لم يكونوا قد هزموا تماماً ، وكانوا على درجة كبيرة
من العناد ، وراحوا يتحينون الفرصة التي سرعان ما سنحت . فعمر كان تواقاً
إلى فتح تمبكت ، العاصمة التجارية لبلاد السودان ، كما كانت أيضاً معقلاً
للطريقة القادرية . ولكنه قبل أن يتمكن من مهاجمة تمبكت هبّ الفولاني ثائرين .
ووجد عمر أن اتصالاته مع سيجو قد قطعت ، وأن الخناق قد ضيق عليه في
حمدالاي ، ولكن الشعب العجوز كان على درجة هائلة من التمرس بحيث لا يوقع
به في عرينه ، فأسرع بالهرب محاولاً الانضمام إلى جيش التوكولور الرئيسي ،
بيد أن الفولاني كانوا في أعقابه ، وفي بندياغاره أرغم عمر على القتال وانعقد
لواء النصر للفولاني في ١٢ فبراير ١٨٦٤ ، ولاقى عمر حتفه . وهكذا فإن عمر
على الرغم من أنه دمر مملكتي البمبرة والفولاني ، فإنه أخفق في تدعيم فتوحاته .

وبينما كان عمر يفتح بلاد الفولاني ، كان أحمدمو يحكم في سيجو ، وقام بزيارة لأبيه في حمداً لاى في عام ١٨٦٢ ، ولكن عمر أعاده خشية قيام البمبرة بالثورة . وعقد أحمدمو العزم على أن يقضى تماماً على رؤساء البمبرة العسكريين ، حتى إذا ما ركب الحمق رؤوس البمبرة فلا يجدون لهم قادة . لذا أخذ يوليهم اعتباراً كبيراً بغية كسب ثقتهم . وفي ٢٣ مارس ١٨٦٣ دعا أحمدمو رؤساء البمبرة إلى اجتماع يستمعون فيه إلى محتويات رسالة وردت من عمر . وعندما جاءوا ألقى القبض عليهم وأرسلهم إلى حمداً لاى حيث قطع عمر رؤوسهم .

وهكذا نجح أحمدمو في كسب الجولة الأولى . ولكن ذلك لم يكن يعنى أن الثورة لن تحدث ، إذ سرعان ما نشبت الثورة في سانساندينغ وفي كل منطقة الشمال والشمال الشرقي . وأخذ أحمدمو الآن يعمل بصورة مستقلة ، فلم يعد باستطاعته الاعتماد على أبيه الذي يصارع الموت في ماسنة ، ولم يلبث أن مات .

وقد سببت الثورة العامة شمال النهر مصاعب كثيرة لأحمدمو . لذلك عزم على ألا يذيع نبأ موت أبيه . وقام البمبرة الثائرون بذبح أفراد حاميات التوكولور . وأرسل مصطفى ، حاكم نيورو ، مدداً إلى أحمدمو قوامه ألفا رجل . وبعد أن أضاف تييرنو ألساني هذا المدد إلى جيشه قام بالهجوم على سانساندينغ ، ولكنه هزم وأرغم على التراجع . وأثبت بوبوسيس ، الذي قاد مقاومة البمبرة في سانساندينغ ، أنه قائد مقتدر . وفي عام ١٨٦٤ ظهر مركز جديد للمقاومة التي يبديها البمبرة هو سيجو نفسها . فقد بدأ كيغى مارى ، أخو حاكم سيجو الأخير ، الإغارة على المدينة . وتعرض أحمدمو لهزيمة ثانية في عام ١٨٦٥ ، ولكنه أحرز في وقت لاحق من هذا العام نصراً مرموقاً على كيغى في توغو ، ومع ذلك لم تنكسر روح القتال لدى البمبرة .

وبينما أحمدمو يواجه هذه المتاعب استطاع التوكولور في ماسنة تحت قيادة تيديانى إخضاع الفولاني بصورة فعالة . وبحلول عام ١٨٦٦ كان قد نجح في إخضاع ماسنة ، ولكنه لم يظفر بالنجاح نفسه ضد البمبرة ، فقد أخفق أمام سانساندينغ .

فى هذه الأثناء كانت إمبراطورية عمر قد تمزقت من الناحية الفعلية . فتيديانى يحكم فى ماسنة ، وحبيبو فى دنغوراي ، ومختار فى كونياكرى ، والرقيق مصطفى فى نيورو . وتعين على أحمى الانتظار بضع سنوات قبل أن يتمكن من إخضاع الإمبراطورية لسيطرته ؛ وفى عام ١٨٧٠ انتزع نيورو من مصطفى^(١٠٧) ، وفى عام ١٨٧٢ باغت حبيبو ومختار وأودعهما السجن . وهكذا كان أحمى بمقدم عام ١٨٧٢ قد أعاد توحيد مختلف أقسام إمبراطورية عمر ، فيما عدا ماسنة التى ظلت تحت حكم تيديانى .

ومع ذلك لم تكن سيطرته فعالة . فالبمبة كانوا يشكلون تهديداً مستمراً ، وظلوا يقاتلون على الرغم من هزائمهم المتكررة . فضلاً عن ذلك كان تغلغل الفرنسيين فى بلاد السودان يضى سريعاً فى طريقه ، فقد وصلوا إلى بماكو فى عام ١٨٨٣ . ورأى أحمى من الحكمة أن ينتقل من سيجو إلى نيورو ، وانتقل بالفعل فى عام ١٨٨٤ .

ولم يكن التغلغل الفرنسى ممكناً إلا لأن قوة أحمى لم تكن وطيدة الأركان . وعندما فتح الفرنسيون سيجو فى عام ١٨٩٠ رحب بهم البمبة كمخلصين ، بيد أنهم لم يكونوا أقل من التوكولور عزوفاً عن قبول سيادة الفرنسيين ، وسرعان ما ثاروا ، ولكنهم سحقوا . وواصل الفرنسيون تقدمهم وبلغوا كونياكرى فى ديسمبر من هذا العام ، وفى يناير ١٨٩١ هزموا التوكولور فى معركة حاسمة ،

(١٠٧) يقول دكتور عبد الرحمن زكى إن إخوة أحمى الثلاثة قاموا فى ثلاثة مراكز عسكرية للدفاع عنها ، فى نيورو وكونياكرى وديالا ، بالإضافة إلى حاميات كوندان ومورجولا ودينغوراي وماسنة ، وإنه مما يؤسف له أن شقيقه عجيبو حاكم دنغوراي تحالف مع الفرنسيين ضده ، فأدرك أن بقاءه فى سيجو أكثر خطراً عليه ، فقرر فى عام ١٨٨٤ الذهاب إلى نيورو ، وخلع شقيقه «المنتقى» عن الحكم ، ثم تخلى عنها فيما بعد . حركة الإصلاح الدينى فى غرب إفريقية (صحيفة معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد ، المجلد الثالث عشر ، ١٥٦) . ومن الواضح أن دكتور عبد الرحمن قد قصد بعجيبو شقيقه حبيبو ، وإنه قصد بالمنتقى شقيقه مختار .

ويقول تريمنجهام ، الصفحة ١٨٥ ، إن إخوة أحمى كانوا يحكمون بصورة مستقلة من الناحية الفعلية . فحبيب الذى ثار فى عام ١٤٨ كان حاكماً لدنغوراي ، ومختار كانت عاصمته فى كونياكرى ، ومصطفى رقيق والده كان يحكم كارتته من نيورو .

وتراجع أحمـدو إلى بندياغارا ، ومن هناك أعلن الجهاد ضد الفرنسيين وعرض حلفا على سامورى وملك سيكاسو بهدف طرد الفرنسيين ، ولكن هذا الحلف لم يتحقق . وفى عام ١٨٩٣ عزم الفرنسيون على الإجهاز على سلطة أحمـدو ، وشرعوا يغيرون على بقايا الإمبراطورية . وفى هذا العام سقطت سان وچنى فى أيدي الفرنسيين ؛ وفى العام التالى سقطت كآرتة وماسنة . وفى عام ١٨٩٥ هزم أحمـدو بصفة نهائية وأرغم على الفرار ، ووقع فى أيدي الوثنيين .

عاشرا

كان سامورى زعيماً أكثر ثورية من عثمان دان فوديو أو الحاج عمر . وهو على غرار معظم زعماء السودان فى القرن التاسع عشر كان زعيماً دينياً وسياسياً فى آن واحد . والحقيقة أنه وجد فى بلاد السودان خلال هذا القرن زعماء كثيرون يحملون القرآن بيسارهم والسيف بيمينهم . ومن المؤكد أن سامورى قد تحلى بهذا التقليد العظيم . وبينما كان الحاج عمر شاعراً وفيلسوفاً أثرى لغة التوكولور ، كما كتب أيضاً بالعربية ؛ وبينما أُعترف بعثمان دان فوديو عالماً ورعاً وتقياً ترك السياسة لأخيه وإبنه ؛ فإن سامورى كان جندياً بسيطاً ، وإنما على جانب كبير من المهارة ، وظل يشن حرب عصابات على الفرنسيين لأكثر من عشرين عاماً .

كانت خطته غاية فى البساطة . وقد مارس نشاطه على حدود سيراليون وساحل العاج وغينيا وليبيريا . وهكذا إذا ما ركز البريطانيون قواتهم ضده انتقل إلى أراضى الفرنسيين والعكس . لم يكن له معسكر ثابت ، بل كان ينتقل بحريمه وجيشه ورقيقه من مكان لآخر . وهذه القدرة على الحركة لم يكن لها نظير . وفى وقت ما ، على سبيل المثال ، يكون لديه جيش قوامه عشرون ألفاً مع من يتبعهم من نساء وأطفال وخدم ، ومع ذلك تكون لديه القدرة على التحرك بسرعة ، وهى قدرة وفرت له بضع مزايا من بينها أنه كانت تمكّنه من أن يجند لجيشه من كل المناطق .

وكان الأسلوب المستخدم هو كتيبة التجنيد^(١٠٨) ، ولما كان البديل هو الموت أو الرق ، فإن الخدمة في جيش سامورى كانت تعتبر امتيازاً كبيراً . ثانياً لم تكن لدى سامورى قاعدة للعمليات ، ولم يكن غزو الأرضى يؤثر فيه ، فالأمر لا يعنى الانتقال إلى منطقة أخرى . وقد قام الفرنسيون مراراً بغزو مناطقه ، ولكنه سرعان ما يحشد جيوشاً جديدة ويغزو مناطق جديدة . وهكذا كان الأمر بمثابة لعبة « الغمضية »^(١٠٩) التى برع فيها سامورى .

والموقف السياسى بدوره كان فى صالح سامورى . فالسلطة السياسية تحطمت تماماً فى بلاد السودان ، وأعلن سامورى نفسه « إماما » ليدعم مكانته . ولكن ينبغى عدم المبالغة فى قيمة الكسب الذى حققه سامورى من هذا اللقب . فزعماء الفولانى والتوكولور كانوا من أعلام الجهاد ، وحافظين للقرآن متفقهين فيه . ولا يعزو أحد إلى سامورى أنه فقيه إسلامى . وأقرب من يقارن به هو رابع ؛ فكلاهما قاطع طريق هدفه إقامة إمبراطورية . وعلاقة الإسلام بهدف كهذا لا تعدو أن تكون علاقة واهية .

وكان القرن التاسع عشر هو فترة أمراء الحرب فى بلاد السودان . من ذلك سلسلة أمراء الحرب التى دفعت بلاد اليوريا إلى مواجهة داهومى والفولانى . وكان أمراء الحرب من الفولانى يعرفون كنموذج لمن يحمل لقب شيخ ويقيم لنفسه إمارة . كما أن الشيخ الكانمى ، الذى أبلى بلاء حسناً فى الفقه والحرب على السواء ، استولى على مملكة برنو القديمة . وكان سامورى خير مثال لأمراء الحرب .

ولم يكن فشل سامورى النسبى مرجعه افتقاره إلى المهارة الحربية أو الفطنة السياسية ، وإنما كان وجود الأوروبيين هو مصدر سوء حظه . إذ كانت فرنسا

(١٠٨) كتيبة التجنيد Press gang : كتيبة يقودها ضابط مكلف بإكراه الناس على الالتحاق بالجيش .

(١٠٩) الغمضية : لعبة أطفال يغمض فيه أحدهم عينيه ، وبعد إعطاء الباقيين وقتاً كافياً للاختباء يمشى

للبحث عنهم .

تبسط نفوذها ، ببطء ولكن فى اطراد ، على الأجزاء الغربية من بلاد السودان . وقد برزت أسماء سلسلة من الحكام الفرنسيين باعتبارهم ممن أخضعوا مناطق واسعة من بلاد السودان للعلم الثلاثى الألوان^(١١٠) . وقد شن سامورى فى بداية السبعينات حملة على إمبراطور التوكولور الفسيحة ، ولكن هذه الغارات على ما كان يعتبر مناطق للتوكولور أدخلته فى نزاع مع الفرنسيين . لذلك قرر سامورى أن يطرح جانباً هذا الجزء من بلاد السودان . وكان الفرنسيون بدورهم سعداء بالتخلص منه ، لانشغالهم فى ذلك الوقت فى حملة على المرابطين فى السنغال الذين كانوا يشكلون خطراً مباشراً للغاية .

واستخدم سامورى هذه الفسحة من الوقت بمهارة ، فجنوده الذين عرفوا بالصوفا^(١١١) كانوا يغيرون على مناطق واسعة وبعيدة وينشرون الرعب فى الجزء الشمالى من ساحل العاج وفى غينيا وسيراليون ، وزاد ذلك من عدد جنوده ورقيقه . بيد أن الصدام مع الفرنسيين لم يكن ممكناً تجنبه طويلاً لاسيما أنه لم يعد لديهم ما يشغلهم عن مواجهته . وحتى عام ١٨٧٩ كان سامورى قد غزا أراضى صغار الرؤساء ، وشرع فى تكوين جيش كبير يغير به على مناطق التوكولور . بيد أنه فى عام ١٨٨٢ اصطدم الصوفا بالفرنسيين بالقرب من بماكو ولحقت بهم الهزيمة . وفى عام ١٨٨٥ دخل سامورى مرة ثانية فى مناوشة مع الفرنسيين . وزعم كل من سامورى والفرنسيين أنه صاحب منطقة بورى الغنية بالذهب ، وساء موقف سامورى وانسحب إلى سيراليون . وهناك وقع معاهدة مع فرنسا يعترف فيها بملكيتها للضفة اليسرى من النيجر ، حتى نقطة التقائه مع تنكيسو . وهنا أيضاً واجه المتاعب . ولم تعترف مملكة كيساكو بسلطانه ، وصمدت القلعة الكبيرة فى وجهه أكثر من عشرة شهور . والآن طلب سامورى من الفرنسيين

(١١٠) العلم الثلاثى الألوان هو العلم الفرنسى .

(١١١) الصوفا : المعنى الحرفى لهذه الكلمة هو سائس الخيول (Groom) أو أحد أفراد الفرقة التى تحرس قصر الحاكم . وقد استخدمهم كل من رابح وسامورى فى جيوش نظامية . ويقول تريمينجهام ، الصفحات ١٦٥ و ١٨٥ و ١٩١ نقلاً عن ا . بيروز ، إن سامورى قام بتجميع القرى فى ١٦٢ مقاطعة تضم كل منها أكثر من عشرين قرية ، وتخضع كل مقاطعة لرئيس يتم اختياره وفقاً لأعراف المندنكا ، وإلى جانبه يعين إثنان من الصوفا ، وذلك ظاهرياً لمساعدته ، وفى الحقيقة للإشراف عليه .

مساعدته فى إخضاع القلعة . ومن منطلق حكمة شديدة رفض الفرنسيون طلبه ، وذلك لأن سامورى كان مستغرقاً فى كيساكو ، فى حين كانت فرنسا تخضع بقية بلاد السودان .

كذلك واجه سامورى المتاعب من جانب آخر . فحتى الآن كان سامورى يحصل على السلاح من البريطانيين الذين وجدوا أن تلك أفضل طريقة لشغل الفرنسيين . ولكن سرعان ما تبادل الصوفا إطلاق النار مرتين مع البريطانيين ، مما جعل هؤلاء يدركون الأخطار التى ينطوى عليها تزويد سامورى بالسلاح . وبدأت القوات البريطانية تتحرك صوب حدود ساحل الذهب . وإذا كان الفرنسيون يدركون أن الاحتلال الفعلى يمثل من وجهه نظر القانون الدولى تسعة أعشار حق الملكية ، فقد تحركوا سريعاً بدورهم نحو حدود ساحل الذهب .

وما إن وقف الفرنسيون والبريطانيون فى مواجهة بعضهم بعضاً ، حتى أخذ القلق يساور سامورى بشأن استمرار حصوله على السلاح والذخيرة . لذلك قرر التحرك من جبال كونج صوب حدود ليبيريا ، حيث يمكنه من هناك مواصلة إنهاك الفرنسيين . ولكن الفرنسيين واصلوا مطاردته بعنف ، وكانت حركة جيشه قد تباطأت للغاية بسبب كثرة من معه من نساء ورقيق وممتلكات وأتباع . كما أن الشعوب التى قهرها طويلاً أصبحت قيئاً على حركته ، فكانت تهاجم جيشه باستمرار وتقوم بنهبه ، وتُطْلَع الفرنسيين باستمرار على تحركاته . وفى ٢٨ سبتمبر ١٨٩٨ ، بينما كان سامورى يؤدى صلاة العشاء ، باغته بعض الإفريقيين من حلفاء الفرنسيين وقطعوا رأسه .

ومع ذلك فقد أصبح سامورى هو البطل القومى لغرب إفريقيا . أما قس وفضائعه ، وأساليبه فى التجنيد ، وكثرة الرقيق الذين يعملون فى جيشه كحمالٍ للسلاح والذخيرة ، والمتطلبات اليومية لجيش يتحرك باستمرار ، فهذه قد نساها الناس جملةً وتفصيلاً ؛ ولم يعودوا يذكرون الآن سوى قوات الصوفا المروعة التى كان باستطاعتها شن حرب العصابات . كذلك نُسيت الآن حقيقة أن هذه الحرب كان موجهة ضد التوكولور وكيساكو ، على حين أن حملاته ضد الفرنسيين ،

فيما عدا حملاته في السنتين الأخيرتين التي لم تكن ذات أهمية حقيقية ، قد تحولت إلى أسطورة وطنية . ففي ذلك يعد سامورى شخصية هامة حقاً ، حيث برز في الأحوال غير المستقرة لسودان القرن التاسع عشر كواحد من أمراء الحرب نوى الأهمية الكبيرة ؛ غير أننا ينبغي ألا نخلط بين الصراعات الوطنية حقاً التي شنتها نول مثل أشانتي أو داهومى وبين حملات سامورى . فحتى عمر قد أدرك ضرورة تدعيم سلطة في بلاد السودان ، إذا كان يتعين شن نضال وطنى حقيقى ضد فرنسا . وكانت محاولته بناء إمبراطورية تمتد من السنغال إلى ماسنة تشكل تهديداً حقيقياً للغاية لفرنسا . غير أن فرنسا كانت هى القوة السائدة بالفعل فى السنغال ، وعجز عمر عن تدعيم بلاد السودان . أما سامورى ، على خلاف عمر ، فلم تكن لديه فكرة عن ضرورة هذا التدعيم . وكان السلب والنهب هما ما يفهمه من الناحية الواقعية . بيد أن جنوده من الصوفا كانوا أقوياء ، وأبدوا مقاومة فعلية ضد الفرنسيين ، فأصبح سامورى رمز المقاومة الإفريقية ضد أوروبا .

غرب إفريقيا في القرن التاسع عشر

الدول الساحلية

شهدت نهاية القرن الثامن عشر تفسخ الأويو . وكان موت أبيودُن هو بداية النهاية . بقول **صمويل جونسون**^(١) : « لقد طُفح بالامة كيل الظلم : فالقسوة والاعتصاب والغدر انتشرت على نطاق واسع : والمقاطعات كانت تتن تحت نير القهر . وأصبح الاسترقاق واعتصاب الأملاك لآتفه الجرائم من الأمور التي تحدث كل يوم ، وكان إرهاب الأمراء ومظالمهم فوق كل احتمال » . وهب كبار النبلاء ثائرين .

وكان من أبرز هؤلاء أسانفا ، **كافانكا الألافين**^(٢) ، الذي كان مقره في إيلورين . وطلب الألافين إلى أسانفا مهاجمة إيويري المدينة المنيعه . وكان ذلك بمثابة حكم بالموت ، لأن من عادة اليوريا أن الكافانكا إما أن ينتصر أو يموت . فقام الكافانكا بقتل الرسول الملكي ، وأعلن استقلاله . وكانت هذه هي الضربة الأولى ، وتبعه رؤساء آخرون . وسرعان ما أصبح الرؤساء التابعون ، برغم ولائهم للإسمى للألافين ، مستقلين من جميع النواحي ، وأخذوا يتقاتلون فيما بينهم . وقد انفرد أسانفا بأنه أول من أدخل عناصر أجنبية في هذه الحرب المهلكة .

(١) **صمويل جونسون** : صاحب كتاب History of the Yorubas (تاريخ اليوريا ، لندن : ١٩٢١) . وقد اكتمل هذا الكتاب في عام ١٨٩٧ ، ولكنه لم ينشر إلا في عام ١٩٢١ . ويوصف بأنه أهم دراسة أجريت لتاريخ اليوريا ، ويستند أساساً إلى الروايات الشفهية لمملكة اليوريا (انظر الحاشية ١-٢٩ أعلاه) .

(٢) **كافانكا الألافين** : القائد العام لجيش الألافين (الملك) .

كانت هذه العناصر هي الفولاني الدين أخذوا يستقرون في إيلورين . وطلب أسانفا إلى عالم بارز يدعى عليمي أن يستقر في إيلورين ، فجاء ومعه أتباعه المسلمون ، وانضم إليهم كثيرون من مسلمي اليوربا والهوسا . والهوسا جنودٌ من طراز جيد ، مما أعطى أسانفا ميزة على أمراء الحرب الآخرين من اليوربا . وانتقلت أعداد كبيرة من الفولاني ببطء إلى إيلورين ، وأدخلوا السكان المحليين في الإسلام ، وظهر حزب مسلم قوى . وتبع ذلك وقوع انقلاب ، وهزم أسانفا على يد قائد فولاني هو أبو السلام ، ابن عليمي . أما الفولاني الذين لم يكملوا بعد غزوهم لبلاد الهوسا ، فقد كسبوا موقع قدم في بلاد اليوربا .

كانت أحوال اليوربا خلال هذه الفترة جديرة بالشفقة . فالحروب المهلكة كانت أمراً مألوفاً . وأخذت تطوف بأرجاء البلاد مجموعات قوية تنقض على القرى الآمنة في سكون الليل ، وبذلك فإنه حتى إذا تمكن الرجال من الفرار ، فلا بد أن يسقط الأطفال والنساء في أيديها لبيعوا كرقيق^(١) . وأصبحت الجندية المهنة الشائعة لليوربا ؛ وأهملت الصناعة والزراعة . وتقدم الصفوف رجال جبارون طموحون يفتقرون إلى الضمير والأخلاق ، وحاولوا بناء سلطتهم حول أماكن محصنة . وكانت تلك هي بداية إبادان وأبيوكوتا ، المدينتين القويتين في بلاد اليوربا . وقد أقيمت الأولى فوق صخرة لصد غزوات داهومي ، وأقيمت الثانية لصيانة بلاد اليوربا من هجمات الفولاني .

(١) كان قناسة الرقيق ينقضون على القرى في الصباح الباكر أو أثناء الليل يطلقون الرصاص على أهلها ويشعلون النار في منازلها ، حتى إذا بادر سكانها بالهرب تلقفهم المحاصرون وشرعوا في اصطيادهم . وكان الموت نصيب من يبدى أية مقاومة ، وإذا نجح بعض الهاربين في الاختباء بأحد الكهوف فإن الغزاة يطلقون عليهم مادة الفلفل فيرغمونهم على الخروج مخافة الاختناق . وكان الرقيق يساقون كالماشية بعد أن يربطوا من أعناقهم بالحبال ، ويسيرون في صفوف طويلة تحت مباشرة رؤساء يحملون في أيديهم كرابيج كبيرة يهبطون بها على أبدان هؤلاء البؤساء . وكان الضعيف الذي يسقط من الإعياء يحل وثاقه ويترك مكانه حتى يموت . [نقلا عن الدكتور زاهر رياض ، تاريخ غانة الحديث ، دار المعرفة ، ١٩٦١ ، الصفحتين ٥٠ و ٥١ .]

أما الفولاني الذين انتفخت أوداجهم من جراء سهولة انتصارهم على ممالك الهوسا ، فقد ساد لديهم اعتقاد بأن بلاد اليوربا بدورها قد دان قطافها ، ولكنهم جانبوا الصواب . فطاقة الفولاني كانت مشتتة بالفعل على امتداد منطقة فسيحة للغاية . كما أن الافتقار إلى فكرة سياسية ، وإلى خطة حربية فعالة ، وقبل كل شيء إلى التنسيق ، كان يلحق الخراب والفوضى بفتوحاتهم . وقد أخفقوا في إحكام قبضتهم على بلاد الهوسا قبل أن يمدوا نشاطهم إلى الكمرون وإلى برنو ، وأخيراً إلى بلاد اليوربا . ولذا لم تكن قوتهم تركز على أساس صلب . فكل ما فعلوه هو اجتياحهم للأراضي وإدخال بعض الناس في الإسلام . وفي بلاد اليوربا لم يضيق عليهم الخناق فحسب ، وإنما حوصروا في نهاية الأمر داخل قلعهم في إيلورين .

وكان الكبح الذي يقع في بلاد اليوربا مزدوجاً . فخيالة الفولاني لم يكونوا نوى أثر في المنطقة^(٤)؛ ثانياً كانت هذه هي المرة الأولى - بخلاف برنو - التي تعين فيها على الفولاني مواجهة شعب ينمي وعياً قومياً . فالحرب فيما بين اليوربا بعضهم بعضاً لم تكن تعتبر عملاً خاطئاً ، وإنما في حرب ضد أجنب مثل الفولاني فإن الأمة كلها تقف متحدة . وهكذا فإن ما كان يقف بالفعل في وجه الفولاني في بلاد اليوربا ، كما في برنو ، هو شعور بالانفصالية . وكان لدى اليوربا شعور بأنهم أمة ، ويعتبرون الفولاني غزاةً أجنب ، لذا وقفوا في وجههم جبهة موحدة . بيد أنهم استمروا في الوقت نفسه يحاربون بعضهم بعضاً . وكانت إيلورين مقاطعة حدودية ، وعجز الفولاني عن تركيز أية قوات كبيرة ؛ ومن ثم فإن الحرب المهلكة لم يكن لها من الناحية الفعلية أي أثر في القضية . وقد يقول المرء إن فتح إيلورين وغدر أسانفا قد عادا على اليوربا بإدراك أنهم شعب واحد . وقد حطَّ من قدر أسانفا باعتباره خائناً لشعب اليوربا ، وأصبحت الحرب ضد الفولاني نضالاً من أجل صيانة الوجود القومي .

(٤) هذه منطقة غابات يتعذر على الخيالة الحركة فيها .

وتعد بداية ظهور وعى قومى فى النضال ضد الفولانى ، فى كل من برنو وبلاد اليوربا ، ذات أهمية حيوية فى فهم الوضع السياسى فى نيچيريا اليوم . فقد تفوقت قومية اليوربا على قومية الكانورى بسبب التعليم المسيحى الذى عزز وعى اليوربا بإعطائهم وسيلة لكتابة لغتهم وأدباً قومياً . كما لقيت القومية التشجيع فى كتب مثل تاريخ اليوربا لسمويل چونسون ، ولكن تظل الحقيقة الأساسية ، وهى أن غزو الفولانى لإيلورين كان الصخرة التى بنيت عليها قومية اليوربا . لذلك أصبح من المبادئ الأساسية فى عقيدة اليوربا أنه مهما اشتدت المعارك الداخلية ، فإن القتال من أجل طرد الفولانى يعد التزاماً قومياً لا ينبغى أن يخل به شئ .

وهكذا كانت نتيجة عدوان الفولانى نهوض قومية اليوربا . فلقد ظهرت إلى الوجود فى غرب إفريقية فكرة جديدة أكثر فعالية فى الصمود فى وجه الفولانى من مقاومة اليوربا المسلحة . وبعد ذلك بمائة عام كان لزعيم شمالى أن يتحدث عن استئناف تقدم الفولانى نحو البحر . كان ذلك مجرد بلاغة ؛ فالشماليون عجزوا عن أن يدركوا ما الذى اعترض طريقهم .

داهومى

سادت فى نهاية القرن الثامن عشر فترة هدوء تحت حكم أغونويو ، وهو أمير مسالم وفر فترة هامة لالتقاط الأنفاس ، لأن داهومى فى القرن التاسع عشر كانت أكثر ولعا بالحرب . وعند موته خلفه أدانزان ، وسجن أخاه الأكبر غيزو الذى كان وليا للعهد ، وبيعت أم غيزو لتجار الرقيق .

كان أدانزان أميراً قاسياً ، وما زالت تحكي في داهومي روايات كثيرة عن قسوته ، منها المدرسة التي أنشأها لتدريب الضباع والأسود لاستخدامها في إرهاب أعدائه بالقائم في أقفاصها ، واعتياده شن بطون النساء لمعرفة نوع الجنين ، وإخصاء الرجال الذين يعتقد أنهم يتخلقون بأخلاق النساء . ولم يكن الداهوميون مستعدين لتحمل هذا الحكم القاسى فترة طويلة . ودخل إخوة غيزو وأخواته في حلف للإطاحة به ، ولقوا في ذلك مساعدة فريق من الناس الذين قُدِّرَ لهم القيام بدور هام في القرن التاسع عشر .

وقد ترتب على إغارة داهومي على الساحل أن أصبحت على اتصال مع الأوروبيين . وكان النفوذ الأوروبى ينمو فى ببطء بسبب سيطرة الدولة على التجارة الخارجية . ومع ذلك حصل بعض التجار عند نهاية القرن الثامن عشر على قدر من النفوذ يكفى لتمكينهم من التدخل فى شؤون المملكة ، ومن هؤلاء شاشا فرانشيسكو دى سوزا ، وهو پرتغالى مؤلّد قدم إلى وايداح فى عام ١٧٨٨ كقائد للقلعة البرتغالية . وقد اعتزل شاشا منصبه بعد وصوله بقليل ، وبدأ يعمل كتاجر مستقل له ارتباطات فى بادجرى ووايداح ، وكذلك فى البرازيل . وكان دى سوزا صاحب نفوذ كبير فى وايداح ، بل كان أكثر أهمية من الحاكم نفسه . وقد استدان منه أدانزان أموالاً كثيرة كان دى سوزا يخشى عدم سدادها ، فقدم إلى أبومى وهدد بقطع جميع الارتباطات التجارية والانتقال إلى بلاد اليوروبا إذا لم يسدد له دينه .

وكانت تلك خطوة متهورة إذ أودعه أدانزان السجن . وفى السجن دخل دى سوزا فى حلف دم مع غيزو ، وتمكن بمساعدة مؤيدى غيزو من الفرار من السجن . وأصبح دى سوزا الآن مرتبطاً مع غيزو بكلمة شرف ، وكذلك بمصالح اقتصادية ، وقدم إلى الأمير كميات من المنسوجات القطنية والمشروبات الروحية والدخان مكنته من استمالة حراسه والهرب بدوره من السجن . وقد ازداد أنصاره كثيراً حتى أنهم لم يجدوا صعوبة فى الوصول إلى العرش .

وقد كان فرانشيسكو دى سوزا ، بوصفه أبرز مولد فى داهومى ، يمثل مجموعة التجار المولدين الذين سيطروا على الحياة الاقتصادية فى الساحل ، والذين كسب أدانزان عداهم بسبب فداحة الضرائب والقسوة فى تطبيق القوانين . وقد ارتبط بعضهم - مثل أولفويه حاكم الحصن الفرنسى فى وايداح - بالأسر الحاكمة . فأخت أولفويه كانت متزوجة بأغونويو ؛ لذلك عمل كوسيط بين غيزو ودى سوزا الذى كان مختلفيا . وهكذا جاء غيزو إلى السلطة بمساعدة مجموعة من الأمراء المتحالفين مع طبقة كومبرانورية مولدة ، وبذلك يكون غيزو قد أدخل منذ بداية عهده عنصرا خطراً فى نظام الدولة بداهومى . وقام غيزو بتنصيب دى سوزا حاكماً لغلهاوس ، وتقييد سلطات اليوغافان الذى كان حتى ذلك الوقت يشرف إشرافاً فعلياً على الجالية التجارية الأجنبية . ومادامت المصالح الأوروبية تقتصر على التجارة ، فإن ذلك لم يكن يضعف داهومى ، بيد أن المولدين اتخذوا جانب الأوروبيين عندما أصبح لهؤلاء أطماع سياسية . وهكذا ففى عام ١٨٨٠ تأمر شاشا الرابع مع البرتغال لإخضاع داهومى للحماية البرتغالية .

ويتسم عهد أدانزان بأهمية كبيرة لأن داهومى لم تصبح مستقلة حقاً إلا تحت حكمه . فحتى ذلك الوقت كانت داهومى تابعة للأويو ، وعلى الرغم من أنها قد قامت خلال القرنين السابقين بغزو كل الدول المجاورة تقريباً ، فإنها هى نفسها كانت مملكة تابعة . وقد توقف أدانزان عن دفع الجزية وأثار ذلك غضب حاكم الأويو ، وبعث إلى ملك داهومى برسول يحمل فأساً وأبلغه أنه لا بد أن يكرس قدراً أكبر من الاهتمام بحقوقه حتى تصل الجزية بانتظام . ورد عليه أدانزان فى تحد قائلاً له إن ملوك داهومى عرفوا السيف أكثر مما عرفوا الفأس وإنهم يفضلون فلاحه الأرض بالسيف .

وقد أصبح غيزو ملكاً فى لحظة مواتية للغاية . فبمقدم عام ١٧٧٠ كانت إمبراطورية الأويو آخذة فى التداعى ، وكان تأكيد الكافانكا للاستقلال مجرد

ستر للضعف الكامن فى إمبراطوريته . وقد استفاد أتباع الأويو من الضعف الذى طرأ عليها ونقضوا ولائهم للكافانكا . واحتفظت داهومى بقوتها الحربية ، على حين كانت قوة عدوها الرئيسى تتداعى . ولذلك عقد غيزو العزم على أن يحطم إلى الأبد التهديد الذى ظل معلقا فوق دولة داهومى مثل سحابة تنذر بالرعد والمطر . فقام بغزو إمارات اليوربا الواقعة على حدود داهومى وأدمجها فى مملكته . ولكن حين وهى دولة على حدود داهومى ، طردت الحاكم وأقامت أوليجاركيه تحت حكم جندى يدعى أشادا . وعجز غيزو عن غزو حين وأرغم على عقد صلح معها وعاد إلى بلده . وبعد عامين قام أشادا بصحبة ألف من التجار بزيارة أغبونى ، ففاجأه غيزو وهزمه ، وسقطت حين فى يده .

بيد أن نجاح غيزو الكبير كان فى الجنوب . فقد شد أزره الحلف الذى أقامه مع لاجوس ، والذى احتضنه « البرازيليون » وأبناء سيراليون المقيمين فى داهومى . إذ أن لاجوس ، على غرار داهومى ، كانت شديدة الاهتمام بتجارة الرقيق ؛ لذلك كان التحالف بينهما أمراً طبيعياً . وقد عاش كوسوكو ، أمير لاجوس ، فى پورتونوفو ووايداح حيث أقام علاقات وثيقة مع تجار الرقيق البرتغاليين ، وكان لأفراد أسرته دى سوزا وأولفقيه تأثير كبير فى اكتساب جانبه . وقد تدعمت كثيرا مصالح تجار الرقيق فى عام ١٨٤٥ عندما استولى كوسوكو على لاجوس . واعتاد الحلفاء أن يغيروا على المناطق الداخلية باستمرار . وتأثرت بادجرى بوجه خاص بهذه الحملات التى تُشن من أجل الرقيق . وأصبحت لاجوس ووايداح وپورتونوفو المراكز الرئيسية لهذه التجارة على الساحل .

وكان غيزو على علاقات ودية مع تشودى ، رئيس أبيوكوتا ، ويكن احتراماً كبيراً لمهارته العسكرية ، وساوره اشك فيما إذا كان يستطيع غزو أبيوكوتا . وبموت تشودى ساءت العلاقات سريعا مع أبيوكوتا ، فهاجمها غيزو . ولم يوفق غيزو فى الاستيلاء على المدينة ، ولكنه نهب القرى . وكان مرجع فشله أن الإغبا

أقاموا علاقات ودية مع المبشرين والتجار البريطانيين ، ولذا أرسل البريطانيون العون لهم . وبهذا العون تمكنت أبيوكوتا من أن تصد الهجوم . وأخذ غيزو هزيمته مأخذ الجد ، وشرع يعد للحرب بهمة وحماسة . بيد أن غزو أبيوكوتا أوقف مرارا ، وسبب ذلك أن هدف غيزو كان الحصول على الرقيق . فالحرب لم تكن من أجل التوسع ، وإنما من أجل الرقيق . وأوضحت المقاومة التي أبدتها أبيوكوتا أن فتحها سيكون باهظ الثمن ، ولذلك فإنه على الرغم من غاراته المستمرة على الإيغبا لم يقم بأية محاولة للاستيلاء على أبيوكوتا ، وفضل مهاجمة مدن أضعف مراساً ، مثل أوكيادُنْ ، على بعد ثلاثين ميلاً إلى الشمال الغربى من بادجرى . وفى عام ١٨٤٨ تمكن غيزو من الاستيلاء على المدينة بمساعدة أهلها والحصول على عشرين ألفاً من الأسرى .

وفى هذه الأثناء أخذت الدول الأوروبية ، وبخاصة بريطانيا وفرنسا ، تبدى اهتمامها بتدعيم نفوذها على الساحل . ونجحت فرنسا فى عام ١٨٥١ فى توقيع معاهدة تجارية مع داهومى ، تعهد غيزو بمقتضاها بالمحافظة على سلامة الحصن الفرنسى فى وايداح . وأرسلت بريطانيا بعثة إلى غيزو لإقناعه بالتخلي عن تجارة الرقيق مقابل تعويض مالى . فضلاً عن ذلك كانت حريصة على وقف هجمات غيزو المستمرة على أبيوكوتا والجزء الجنوبى من بلاد اليوربا . ومنذ عام ١٨٤٣ كان ملك داهومى مستعداً للموافقة على استقرار البريطانيين فى وايداح ، بل كان راغباً أيضاً فى التخلي عن تجارة الرقيق إذا ما دفع له تعويض مناسب . كذلك كان المبشرون تواقين بوجه خاص إلى استمالة الداهوميين إلى مجال نشاطهم . وفى عام ١٨٤٨ ذهب وينيت حاكم ساحل الذهب إلى أبومى ، ووقع معاهدة أضفت الحماية على التجارة البريطانية ، وأعلن الملك أنه سيتخلى عن تجارة الرقيق . وفى عام ١٨٥٠ حاول القنصل البريطانى بيكرافت مرة ثانية إدخال الملك فى المسيحية عن طريق إبراز مزايا التجارة المشروعة ، وعرض على الملك تعويض مقداره ثلاث آلاف جنيه استرلينى لمدة ثلاث سنوات مقابل تخليه عن تجارة الرقيق .

غير أن الملك لم يكن على استعداد للتخلي عن تجارة الرقيق ، وأعلن أن الداهوميين ليسوا فلاحين وإنما هم محاربون ، وأن رخاء الدولة يتوقف على هذه التجارة . ومضى الملك فى طريقه معربا عن شكواه من نفوذ المبشرين المتزايد فى بادجرى وأبيوكوتا ، واقترح أن تترك بريطانيا هاتين المدينتين وشأنهما ، وأن يستقر البريطانيون فى وايداح . ورفض بيكرافت ذلك . وكانت النتيجة أن وقع غيزو فى عام ١٨٥١ معاهدة مع فرنسا .

وأصبحت بريطانيا الآن مقتنعة بأن داهومى عاقدة العزم على تدمير أبيوكوتا ، وأرسل إلى غيزو احتجاج شديد اللمجة ، وحذر المبشرون فى أبيوكوتا وبادجرى من الغزو الوشيك . وكانت خطة الداهوميين تقضى بغزو أبيوكوتا ، فى حين تقوم پورتونوفو ولاجوس بغزو بادجرى . وتدخلت بريطانيا بصورة فعالة ، إذ قدمت الذخيرة لأبيوكوتا وقام رعاياها بتوجيه الدفاع عن المدينة .

وتقدم غيزو نحو أبيوكوتا بجيش قوامه عشرة آلاف رجل وستة آلاف من « الأمازونات » . وتظاهر شعب إيشاجا بالاستسلام ، ولكنه حذر أبيوكوتا خفية ، وهكذا فقد الداهوميون عنصر المفاجأة ، فضلاً عن ذلك فسدت بعض ذخيرتهم ، ومع ذلك تقدموا بفيلق مترابط . ووصف بيرتون ، الذى زار داهومى فى ذلك الوقت ، الهجوم قائلاً إنه وقع على كلا ضفتى أوغون ، وكانت المسافة بين نقطتى الهجوم حوالى الميلى . وحارب الداهوميون منذ شروق الشمس حتى الغسق ، وتراجعوا فى نظام ، ولم يجرؤ جيش الإيغبا على تعقبهم . وكانت خسائر الداهوميين فى الأرواح فادحة .

وأدى الفشل عند أبيوكوتا إلى تعريض الائتلاف بأكمله للخطر . ورغبت أبيوكوتا ، بتأييد من المبشرين ، فى إزاحة كوسوكو من لاجوس ، كما رغبوا فى أن يظل الطريق بين أبيوكوتا وبادجرى مفتوحاً ، ولذا كان من الضرورى حماية بادجرى من كل من داهومى ولاجوس . وهكذا شكلت بادجرى وأبيوكوتا حلفاً ضد داهومى وأصدقائها ، ووضعتا نفسيهما تحت حماية بريطانيا غير الرسمية .

والآن حاول غيزو إقناع بريطانيا باتباع سياسة الحياد . وبرر هجومه على أبيوكوتا بغارات الإيغبا المستمرة على أراضيهم ؛ كما برر فشله أمام أبيوكوتا

بالافتقار إلى القوات الكافية سواء لحماية المدن المفتوحة أو لمحصنة أبيوكوتا .
ووعده بأنه في هجومه التالي على أبيوكوتا لن يمس البريطانيين إذا اتخذت
بريطانيا موقف الحياد .

غير أن اعتبارات التبشير ومحاربة تجارة الرقيق كانت تُسيطر على
السياسة البريطانية ، كذلك كان للمصالح التجارية دور هام . وسرعان ما التقت
مصالح التبشير بالمصالح التجارية . وكانت لاجوس هي المفتاح إلى الداخل ،
كما كانت تعد أهم ميناء لتجارة الرقيق بعد وايداح وپورتونوفو . لذلك كان
ضروريا لكي تزدهر « التجارة المشروعة » الاستيلاء على لاجوس وتدمير تجارة
الرقيق .

ولم يقف غيزو مكتوف اليدين بعد هزيمته تحت أسوار أبيوكوتا . وفي كل
عام كان يهدد بالهجوم ، ثم يقنع بالإغارة على مناطق الإيغبا . ومع ذلك فقد
هاجم ملك سافو وهزمه ، وهو الملك الذي كثيرا ما تباهى بأنه أقوى من
داهومي .

وفي عام ١٨٥٨ مات غيزو ، وخلفه غليغلي الذي واجه ثورة داخلية أمكنه
سحقها بسهولة . وفي عام ١٨٦٠ أقام غليغلي « الطقس الديني الكبير » لأبيه ،
وفي العام التالي أخذ يستعد لكي يشن على أبيوكوتا الحملة التي أرجئت طويلا .
ولكن مرض الجدري أضعف كثيرا من قوة جيش داهومي ، وأرغم الداهوميون
على التراجع قبل محاصرة أبيوكوتا . وفي عام ١٨٦٢ قاد غليغلي جيشاً من
سنة آلاف للهجوم على إيشاغا التي قدمت لغيزو معلومات خاطئة خلال غزوه
لأبيوكوتا ، وسقطت المدينة ونُهبت بون صعوبة كبيرة . وفي العام الذي تلاه
هاجم الداهوميون إيغبارا - وهي مدينة صغيرة - ودمروها تماما ، ثم تقدموا
نحو أبيوكوتا ، غير أن غليغلي انسحب بون مهاجمتها بسبب سوء قيادة جيشه
ذي العشرة آلاف رجل ، والكميات الكبيرة من الذخيرة لدى أبيوكوتا التي رمت
أسوارها تحت إشراف البريطانيين . ومع ذلك عاود غليغلي الهجوم عليها في
العام التالي ، وإنما من أحد جانبي النهر فقط . وبعد قتال استمر ساعتين فقد
فيه غليغلي الكثير من رجاله قرر أن يتراجع ، ولكن التراجع هذه المرة لم يكن
منظما ، وسرعان ما تحول إلى فوضى شاملة ، وتعبه الإيغبا ، وفقدت داهومي
في هذه الحملة أربعة آلاف رجل .

وهيمن على الفترة اللاحقة من حكم غليغلي قيام علاقات مع فرنسا . فمع تزايد النفوذ البريطاني في لاجوس ، كانت فرنسا تركز على وايداح وپورتونوفو . وكل خطوة بريطانية في لاجوس كان يرد عليها بخطوة فرنسية في داهومي .

وكانت شركة فرنسية قد حصلت في عام ١٨٤٠ على إذن ببناء حصن في وايداح حيث كان البريطانيون والبرتغاليون يمتلكون قلعا بالفعل . وفي عام ١٨٥١ فشل البريطانيون في إقناع رئيس پورتونوفو بقبول الحماية البريطانية ثم قذفوا المدينة بالقنابل . ولذلك قبلت پورتونوفو في عام ١٨٥٣ الحماية الفرنسية . وفي عام ١٨٥٨ أعطى الملك غليغلي للفرنسيين قرية كوتونو وستة كيلو مترات من الأرض إلى الداخل .

وقد احتل الفرنسيون بيتي پوپو في عام ١٨٦٤ ، وپورتو ساجيرو في عام ١٨٦٨ . وفي هذه الأثناء كان البريطانيون يدعمون ممتلكاتهم على طول الساحل النيجيري . وكانت ألمانيا بدورها منهمكة في توجو لاند . وقد أدت الحرب الفرنسية الألمانية في عام ١٨٧٠ إلى وقف التوسع الفرنسي ، ولكن الفرنسيين الذين كانوا يواجهون نمو قوة الألمان في توجو احتلوا كوتونو وپورتونوفو بقوة عسكرية . واحتج الملك غليغلي على هذا الخرق للمعاهدة ، غير أن فرنسا بدلا من أن تسحب قواتها العسكرية بدأت تفرض الرسوم في عام ١٨٨٧ . وكان لذلك أهمية كبرى بالنسبة للملك لأنه أدى إلى نقص كبير في إيراداته ، وأوضح للتجار أن الرسوم ينبغي دفعها لوكلائه المعتمدين وحدهم . وفي الوقت نفسه أعلن فسخ معاهدة عام ١٨٧٨ ، وطلب إلى الفرنسيين الجلاء عن پورتونوفو وكوتونو . ولم يبد الفرنسيون استعداداً للانسحاب ، وفي عام ١٨٨٩ استولى الداهوميون على پورتونوفو إثر هجوم مفاجئ ، ولم تكن لدى فرنسا قوات كافية بالقرب من پورتونوفو حتى تستطيع اتخاذ إجراء فعال ضد الداهوميين ، ورأت أن من الأفضل تسوية الأمور بالوسائل الدبلوماسية . وبوضع هذا الرأي في الاعتبار قام الحاكم بايول بزيارة داهومي في عام ١٨٨٩ ، فاستقبله غليغلي بكياسة ، ولكنه رفض أن يبحث معه أية أمور ، كذلك لم يسمح له بمغادرة البلاد . بيد أن بايول قبل أن يغامر بدخول داهومي كان قد أخذ كابوسير (حاكم)

كوتونو كرهينة . وتوقعا للأحداث المقبلة تم تعزيز حامية كوتونو بثلاث فصائل من الرماة المهرة ، فى الوقت الذى كان فيه الطراد ساكس يقف على مقربة من المكان . وفى عام ١٨٨٩ استبد بغليغلى مرض قضى عليه ، وخلفه بيحانزين .

واستفاد بايول من الفترة بين موت غليغلى ومجئ بيحانزين وفر من داهومى . والآن انتزع الفرنسيون پورتونوفو من الداهوميين ، وأخذ بيحانزين يستعد لمهاجمة المواقع الفرنسية على طول الساحل ، وقبل أن يشرع فى الهجوم على الفرنسيين قبض على مبشرى وايداح وتجارها كرهائن . وكان بين الرهائن المبشر نورچيرى الذى قام فيما بعد بدور هام فى مفاوضات السلم .

ولم يفلح الداهوميون فى الاستيلاء لا على كوتونو أو پورتونوفو ، ولذلك بدأوا المحادثات . ولكى يدال بيحانزين على حسن نواياه أفرج عن المبشرين . وكان الفرنسيون بدورهم راغبين فى التفاوض ، وأوفدوا الأب نورچيرى إلى أبومى . وكان بيحانزين على استعداد للتنازل عن حقه فى جمع الرسوم فى كوتونو وتسليم پورتونوفو ، كما وافق أيضا على قبول الحماية الفرنسية . وفى مقابل ذلك وافقت فرنسا على أن تدفع له عشرين ألف فرنك سنويا .

ومع ذلك فإن الداهوميين لم يكونوا قد قبلوا الهزيمة ، وكانوا يريدون فترة يلتقطون فيها الأنفاس ويعيدون تنظيم جيوشهم ، إذ كانوا يدركون أن الجيش الفرنسى أفضل تسليحا وتنظيما . وبالنقود التى يقدمها الفرنسيون اشترى بيحانزين مدافع سريعة الطلقات من الألمان ودعا جنود توجو الذين دربهم الألمان لإعادة تنظيم الجيش . وفى عام ١٨٩١ قام بيحانزين بمحاولة ثانية لطرد الفرنسيين بدأها بغزو پورتونوفو فى أغسطس من العام نفسه ، وعاد بألفين من الأسرى . وفى العام التالى هاجم الداهوميون سفينة فرنسية فى نهر الويمى . ورأى الفرنسيون الغزو الألمانى لتوجو ، وأدركوا ضرورة العمل بسرعة حتى يمكن إبقاء الألمان بعيدين عن داهومى . وفى العام نفسه قام الكولونيل بودز بغزو أبومى ، وفى غضون عام واحد كان قد غزا المملكة بأسرها .

أشانتى

ارتقى أوزاى كوامينا أسيبى^(٥) عرش أشانتى فى عام ١٨٠٠ ، وكان حاكما مرموقا دخل الأشانتى فى عهده فى نزاع مع كل من الفانتى والأوروبيين على الساحل ، وواجه فى بداية عهده المتاعب المعتادة مع جيرانه ، ولكنه تغلب عليها بحلول عام ١٨٠٥ ، وبدأ الحرب فى ذلك العام ، وهى حرب استمرت مائة عام مع فترات توقف ، ولم تنته إلا مع توطد السيادة البريطانية .

وقد بدأت هذه الحرب على نطاق محدود ، عندما قام الأشانتيين^(٦) بتسوية خلاف بين ثلاثة من رؤساء الأسين ، ولكن رئيسين منهم تنازعا حول مضمون التسوية ولم يتقيدا به . وبعد أن حاول الأشانتيين تسوية الأمر عن طريق التفاوض بدأ الحرب وطرود الأسين عبر نهر برا ، وفى النهاية لجأوا إلى أبورا عاصمة اتحاد الفانتى .

كان الفانتى فى ذلك الوقت أقوى شعوب الساحل ، ولهم اتصال دائم مع الأوروبيين الذين اعتاد الفانتى معاملتهم بقدر كبير من الازدراء . وبحلول عام ١٧٦٥ كان رؤساء الفانتى المختلفون فيما بينهم قد أقاموا اتحاداً ، وكان المسائل العامة تناقش فى مجلسهم ، واستطاعوا توسيع حدود مملكتهم طريق الدبلوماسية والحرب . وأدرك الفانتى أنه سيكون عليهم إن عاجلا أو آج أن يحاربوا الأشانتى . ولم يكن الأشانتى حتى ذلك الوقت قد دخلوا فى نزاع مع أية قوة كبيرة فيما عدا داهومى ، حيث كان النصر فى هذا الصدام حليف الداهوميين . وكان رؤساء الفانتى الذين اجتمعوا فى أبورا يعلمون أنهم يبتئون فى مسألة سلم وحرب ، ولكن لم يكن من اليسير وجود خيار لديهم . فبعد أن أخرجوا الأشانتى من حساباتهم تعين عليهم إما أن يتخذوا جانب الأسين ، أو

(٥) ورد اسمه فى كتاب الدكتور زاهر رياض تاريخ غانا الحديثة : « أوزاى توتوكوامينا بونسو » :

أما فى الموسوعة البريطانية فقد ورد اسمه « أوزاى بونسو » فقط . وعلى أية حال فإن هذا الاسم هو الذى يعرف به ، بل إنه أستخدم على هذا النحو فى المتن ، انظر الفقرات التالية من هذا الفرع .

(٦) الأشانتيين : ملك الأشانتى .

يقبلوا التبعية دون إطلاق نار . ومع ذلك فثمة عامل آخر ساعدهم على اتخاذ قرارهم ، وهو أنهم لن يستطيعوا فى حالة الهزيمة اللجوء إلى القلاع . وهكذا لم يكن لدى الفانتى ما يفقدونه إذا ما حاربوا الأشانتى .

ولم يكن الأشانتيهين تواقا إلى محاربة الفانتى ، واقترح عليهم إرسال مندوبين لمناقشة الأمر ، والسماح للأشانتى بمطاردة الرؤساء الهاربين داخل أراضي الفانتى . وأجاب الفانتى بقتل الرسل ، وكانت النتيجة نشوب الحرب التى انتهت بتعرضهم لهزيمة قاسية ، ووصل جيش الأشانتى إلى أبورا . والآن لجأ الرئيسان - من الأسين - اللذان كانا سببا فى الحرب ، إلى قلعة كيب كوست ، وأرغم الحاكم البريطانى على أن يصل إلى قرار . وقضى قراره بتأييد الفانتى والرئيسين اللذين لجأ إلى الحصون . وتقدم جيش الأشانتى الآن نحو الحصون ، وعلى الرغم من إخفاقه فى الاستيلاء عليها ، فإن البريطانيين وحلفاءهم حوصروا بداخلها . وقرر الحاكم تورين تسليم الرئيسين ، ووافق على الاعتراف بتبعية بلاد الفانتى للأشانتى ، ويحق للأشانتى فى ملكية الأرض التى تقوم عليها الحصون الأوروبية . بل إن تورين سلم نصف من لجأوا إلى حصن أنامبو . وهكذا خرج الأشانتى مظفرين تماما من أول حملة لهم على الساحل .

وهكذا اشترى الحاكم تورين السلم بخيانة أصدقائه . وتيقن الأشانتى من أن البريطانيين لا يولون اعتباراً للناس ، وأن اهتمامهم منصرف إلى عارة وحدها . وقد كانت فعلة تورين التى لا يمكن تبريرها أول حلقة فى سلسلة التخبیط والأخطاء الفاحشة التى تميزت بها علاقات بريطانيا مع الأشانتى .

وفى النصف الثانى من عام ١٨٠٦ قرع الأشانتى طبول الحرب وأخذوا يتقدمون نحو الشرق مدمرين ما فى طريقهم من محاصيل . وفى عام ١٨٠٧ كانوا لا يزالون عند الساحل ، ثم أرغمهم انتشار الجدرى والنوسنتاريا على عبور نهر برا .

ورفض الفانتى قبول الخضوع لمجرد أنهم خسروا معركة واحدة . وما إن انسحب الأشانتى حتى بدأوا يتحرشون بحليفتى الأشانتى على الساحل - أكراميلينا . واستطاعت أكرام أن ترد الفانتى بحسم ؛ وعند إلمينا أخفق الفانتى أيضا . وفضلا عن ذلك بعثت إلمينا برسول إلى أشانتى ، وسير الأشانتيهين جيشا قوامه خمسة وعشرون ألفا تحت قيادة أبوكوفيرفير إلى إلمينا ، وقوة أصغر من أربعة آلاف بقيادة أبادنكوا إلى إكرام . وطلب إلى أبوكوا رئيس الأكيم مساعدة دنكوا ، ولكنه بدلا من أن يفعل ذلك أعلن الحرب على الأشانتى ، وانضم إليه قريبه رئيس الأكواپيم . وقلب ذلك خطة الأشانتى رأسا على عقب . وطلب إلى أبوكوفيرفير أن يستدير نحو المتمردين ، على حين اتجه دنكوا نحو الساحل وعبر فيرفير نهر برا فى فبراير ١٨١١ ، ولكن الرؤساء المتمردين قاتلوا بعناد وأنزلوا بالأشانتى خسائر فادحة فى الأرواح ، وأرغم الأشانتى على طلب العون من أكرام . وعندما وصل المدد من أكرام قرر المتمررون التقهقر ؛ واستطاع الأكواپيم شغل جيش الأشانتى عن طريق شن حرب عصابات فى المؤخرة .

وفى هذه الأثناء كان فيلق دنكوا الصغير قد هزم جيش الفانتى عند أبام ، ولكنه أصيب بخسائر فادحة ، ولم يعد فى حالة تسمح له بمحاربة جيش الأكيم . لذلك قرر دنكوا التقهقر ، بيد أنه مات بالجدري قبل أن ينفذ خطته . وهكذا فشلت تماما حملة عام ١٨١١ التى علق عليها الأشانتى كل هذه الآمال الكبار .

لذلك كان أوزاى بونسو غير راض عن نتائج الحملة ، وقرر فى عام ١٨١٤ إخضاع بلاد الفانتى كلها لسيطرته . ولتحقيق هذا الغرض كان من الضرورى أولاً سحق رؤساء الأكيم والأكواپيم المتمردين . فأرسل فيلقا صغيرا بقيادة أيبا دنكوا ليخلق طريق الهرب فى اتجاه الجنوب الغربى - إلى الأكيم . وتقدم الجيش الرئيسى بقيادة أمانكوا وهزمه فى يسر ، وواصل سيره نحو أكرام . وهناك انتظر عاما مؤملا أن يبدأ المتمررون بمهاجمته ، وفى هذه الأثناء لم يكن لدى جنوده عمل يؤبونه فنهبوا أكرام ، فتحول هذا الحليف إلى عدو . والآن تحرك أوزاى نحو الأكواپيم ، ولكن نون نجاح يذكر . ومع ذلك سرعان ما واثاه الحظ لقاء مثابرته . فقد سقط رئيس الأكيم فى أيدي وحدة مغيرة من الأشانتى ولجأ إلى الانتحار ، كذلك وقع رئيس الأكواپيم فى أيديهم عن طريق الغدر .

ونتيجة للحملات الثلاث توطدت أقدام الأشانتي وأصبحوا أصحاب السلطة العليا على ما يسمى غانة الآن . إذ خضع لهم الأكيـم والأكوايـم ، وتحطمت أطماع الفانتي في إقامة دولة ساحلية لهم ، وتحولوا إلى ولاية تابعة للأشانتي ، واضطر الأوروبيون إلى الاعتراف بسيادة الأشانتي .

ومع ذلك كان موقف أشانتي ضعيفا بدرجة جوهرية . لقد كان لها ميزة محلية ، ولكن بريطانيا كان باستطاعتها في أي وقت ممارسة تفوقها الساحق على الساحل . وفي هذا الوقت كانت بريطانيا مشغولة بإحكام قبضتها على الهند ، ولكن كان يتعذر عليها أن تعيش في ساحل الذهب في ظل تهديد دائم بوقوع غزو من الشمال ، واستغل الفانتي الموقف بمهارة شديدة ، فنعتوا الأشانتي بأسوأ الصفات ، وقالوا عنهم إنهم لا يولون إهتماما لشيء غير الحرب . وعامل الأشانتي البريطانيين كأصدقاء للفانتي ، إذ أن البريطانيين قد تدخلوا والتمسوا لهم المغفرة . وكانوا يعتقدون أن باستطاعة بريطانيا حمل الفانتي على احترام نصوص الاتفاقية . وكانت « الشركة » من جانبهم حريصة على الاحتفاظ بعلاقات طيبة مع الأشانتي الذين يتحكمون في الطريق إلى الداخل ، فإذا ما مورست التجارة المشروعة بفعالية كان على الشركة أن تختار بين الاتفاق مع الأشانتي أو غزوهم .(٧)

وكان البريطانيون واعين بالبدائل المتاحة ، وفي عام ١٨١٧ أوفدت إلى كوماسي بعثة برئاسة فريدريك جيمس ، وعضوية ت . أ . بلويتش(٨) ،

(٧) كانت هناك ثلاث شركات في منطقة ساحل الذهب ، بريطانية وفرنسية ودانمركية ، ولكن ضعف الشركة الدانمركية اضطرها إلى بيع جميع حقوقها للشركة البريطانية ، ولم يلبث التنافس التجاري بين الشركتين البريطانية والفرنسية أن اضطر الشركة الفرنسية إلى الانسحاب ، وبذلك خلا الجوالشركة البريطانية .

(٨) توماس إيوارد بلويتش : (١٧٩٠ - ١٨٢٤) ، رحالة إنجليزي ومؤلف . في عام ١٨١٤ حصل على وظيفة لدى « الشركة الإفريقية للتجارة » التي أوفدته إلى ساحل الذهب . وفي عام ١٨١٧ أوفد بصحبة جيمس وهتشنسون في بعثة إلى كوماسي . وأعد في عام ١٨١٩ سردا لرحلته في كتاب عنوانه Mission From Cape Castle to Ashantee (بعثة من كيب كوست إلى أشانتي) .

وهتشنصون وآخرين . ووقعت معاهدة وافق الأشانتي بمقتضاها على ألا يشنوا الحرب ضد الدول الساحلية « قبل أن يتيحوا للحاكم فرصة للتدخل » ؛ وعلى أن تكون صيانة السلم بين الأشانتي والشعوب الساحلية تحت حماية الشركة . وأعطى الحاكم حق معاقبة الزائرين من الأشانتي « الذين يدانون بجرائم ثانوية » ، فى حين يعهد بالجرائم الكبرى إلى الأشانتيهين . واحتج بلاط الأشانتي أيضا على تخفيض إيجار القلاع ، وهذه المسألة بدورها أمكن علاجها .

وهذه « المعاهدة المبهمة الصياغة ذات الوجهين » كانت عرضة لسوء التفسير . وثمة صعاب ثلاث كان يمكن أن تنشأ . فقد قبلت بريطانيا مسؤولية قمع الفانتي إذا ما فشل الأشانتي فى ذلك ، وأن تتخذ موقف الحياد فيما إذا قرروا معاقبة الفانتي . فضلا ذلك كان هناك اختلاف تام بين المفاهيم القانونية لدى البريطانيين والأشانتي ؛ إذ كان من الصعب الاتفاق على ما يعد عناصر جريمة ثانوية وعناصر جريمة كبرى . كما أن الفانتي الذين تعمل الشركة لصالحهم لم يكونوا بدورهم مستعدين للتقيد بنصوص المعاهدة .

وسرعان ما واجهت المعاهدة اختباراً قاسياً . ففي عام ١٨١٨ انهمك الأشانتي فى حرب مع غايمان ، ومنع الملك إرسال أية أنباء عن الحرب إلى الساحل . ولما انقطعت الأنباء خلص الفانتي إلى أن الأشانتي تعرضوا لهزيمة حاسمة . ولذلك أساعوا معاملة التجار الأشانتي ، وأخذوا يتصرفون على أساس أن الأشانتي قد هزموا . أما الرسل الذين جاؤا فى النهاية بأنباء الانتصار وهم يحملون عظام الفك الخاصة بالأعداء فقد أهينوا بشدة . وشكا الأشانتي إلى الحاكم الذى تحاشى التدخل فى المسألة . وفى مارس ١٨١٩ احتج الأشانتيهين رسميا لدى الحاكم طالبا معاقبة المجرمين ، وإلا اضطر إلى غزو مملكة الفانتي . ولم يتخذ الحاكم أى إجراء برغم كثرة ما قُدم من احتجاجات ؛ ولكن باوديتش الذى كان حاضرا عرض الذهاب إلى كوماسى .

واستقبل باوديتش بحفاوة ، وشكا الأشانتيهين من عدم أمانة الحاكم . وقد جرت العادة أن يُدفع إيجار الحصون فى صورة بضائع . وطبقا لما قاله الملك فإن الحاكم يفرض أثمانا للبضائع أعلى من الأثمان العادية بمقدار خمسين فى

المائة ، ولذلك لم يكن الإيجار يدفع بالكامل . وقد أقرت المعاهدة الجديدة بذلك ، كما سلمت بأن بلاد الفانتى جزء من إمبراطورية الأشانى . أما الأشانتيين والرؤساء الأشانى فقد أقروا هم أنفسهم بأنهم رعايا بريطانيون .

وكان ذلك إنتصاراً هاماً لباوديتش ، فالمعاهدة جعلت من أشانى محمية بريطانية ، ومع ذلك رفض الحاكم التصديق على المعاهدة لأنها جعلت الفانتى مقاطعة من مقاطعات أشانى ، بل رفض أن يسمح لرسل الأشانتيين بالتوجه إلى لندن لشرح الأمور للحكومة فى لندن . وقد تحلى الأشانتيين بقدر ملحوظ من الصبر والحلم ، فعلى الرغم من أن الشركة وحلفاءها الفانتى قد استثاروه مراراً ، فقد أحجم الأشانى عن غزو الساحل . وفى عام ١٨٢٢ راود الأشانى أملاً فى أن تتحسن الأمور عندما تستولى الحكومة البريطانية على الحصون الساحلية من الشركة وتخضعها لإدارتها المباشرة . وعين سيرتشارلز ماكارتى ، حاكم سيراليون ، حاكماً لساحل الذهب أيضاً . ولكن سيرتشارلز سرعان ما خضع لنفوذ تجار الساحل ، ولم يفعل شيئاً لعلاج مظالم الأشانى .

وفى عام ١٨٢٢ أدت حادثة صغيرة فى نهاية الأمر إلى استتارة الأشانى . فقد سب أحد رجال الشرطة الأشانتيين أمام بعض تجار الأشانى فاخطفوه . لذلك عبرت جيوش الأشانى نهر برا فى عام ١٨٢٣ قبل أن يتمكن الحاكم ، الذى كان يستعد للحرب ، من القيام بهجوم . وفى معركة أسمانكو التى دارت رحاها فى عام ١٨٢٤ واجه سيرتشارلز جيش الأشانى بقوة صغيرة من وحدات بريطانية وبعض وحدات إضافية من الفانتى . وتأكد لسيرتشارلز أن السخط متفش فى صفوف الأشانى ، وإنه إذا ما عزف النشيد القومى البريطانى ، فإن رؤساء الأشانى لابد أن يتخلوا عن ملكهم ، فلما لم يحدث ذلك لم يعد أمام ماكارتى من خيار سوى محاربة الأشانى . وفى الساعة الرابعة بعد الظهر نفذت ذخيرته ، فعبرت جيوش الأشانى النهر ، وهزمت البريطانيين تماماً وكان الحاكم نفسه بين من سقطوا فى ساحة القتال .

ولم يعيش أوزاى بونسو ليقطف ثمار النصر ؛ إذ مات فى أثناء الحملة ،

وخلفه أوزاي يلو . وكان موته يعنى أن الأشانتي قد غابت شمسهم . ومع ذلك ففي عام ١٨٢٦ عبر جيش كبير نهر برا ، وبعد تحركات دامت سبعة أشهر تجمع هذا الجيش في دودوا استعدادا لمهاجمة أكرا . وهنا أحرز البريطانيون وحلفاؤهم نصرا جديرا بالذكر ، وتداعت قوة الأشانتي الهجومية ، وأعربوا عن رغبتهم في السلم . غير أنه بسبب عناد الفانتي والدنكييرا استمرت حرب لا نهاية لها حتى عام ١٨٣١ .

وفي عام ١٨٣١ وقعت معاهدة مع الأشانتي ، وبمقتضاها : ١ - وافق الأشانتي على إيداع ستمائة أوقية من الذهب وعضوين من الأسرة المالكة كضمان ؛ ٢ - يمنح الاستقلال لاتباع الأشانتي السابقين ، وكذلك للأسين وغيرهم ممن طلبوا الحماية البريطانية ، على أن يمنعوا من إهانة الأشانتيين ؛ ٣ - يمتلك البريطانيون بمقتضى حق الفتح الأرض المقامة عليها حصونهم ؛ وهذا البند هو أهم البنود جميعا .

وبمقتضى معاهدة عام ١٨٣١ أصبحت الأجزاء الجنوبية من ساحل الذهب - أى المنطقة التى يحدها نهر برا شرقا ، ونهر الفولتا غربا ، وتمتد حتى حدود أشانتي - محمية بريطانية وعزل الأشانتي عن البحر ، وأصبحت الذخيرة التى يشترونها تمر بمناطق تخضع للحماية البريطانية . وأدت هذه المعاهدة إلى وقوع حرب أهلية فى أشانتي . ذلك أن الجوابن ، من أعضاء الاتحاد الأصليين ، لم يكونوا مستعدين لقبول سيادة كوماسى ، فأعلنوا الثورة ، ولكن سرعان ما حلت بهم الهزيمة . ولكن على الرغم من الصدام المتكرر بين مصالح البريطانيين والأشانتي ، ووقوع حوادث مختلفة حاول كل من أنصار الحرب في كوماسى وحلفاء بريطانيا استغلالها كمبرر لشن الحرب ، فإن الحرب لم تقع لأن الأشانتيين كان حاكما مسالما .

ومع ذلك أرغم الأشانتي في عام ١٨٦٣ على الحرب . فقد عثر رجل من الأشانتي على « صاجتين » من الذهب ، وبدلا من أن يسلمهما إلى خزانة الأشانتي كما يقضى العرف ، احتفظ بهما لنفسه واتجه نحو الجنوب . وكان

ذلك جرما كبيرا فى قانون الأشانتى ، وبعث الأشانتيهين إلى الساحل طالبا تسليم الرجل ، بل إن الأشانتى تعهدوا بالألا يلحق بالرجل أى أذى . ووقع الحاكم پاين فى مأزق شائك . فالدليل ضد الرجل مجرد إشاعة ؛ والجريمة من وجهة نظر الإنجليز ليست بالجريمة الكبرى . ولم يكن الحاكم مطمئنا إلى العهد الذى قطعه الأشانتيهين على نفسه . ومع ذلك لم يفت پاين أن حمايته للرجل « ستوغر صدر أقوى ملك على الساحل ، إن لم تثر غضبه » .

وقررت الحكومة عدم التنازل عن الجانى . وجاءت سفارة ثانية من كوماسى فى فبراير ١٨٦٣ ، واتهمت بريطانيا رسميا بخرق المعاهدة . وهكذا كانت المعاهدة المبهمة الصياغة سببا للحرب التى نشبت فى ذلك العام . فعندما رفضت بريطانيا تسليم الرجل شرع الأشانتى فى شراء الذخيرة . وكانوا مازالوا فى سلم مع الدنكييرا الخاضعين للحماية البريطانية ، غير أن هؤلاء عندما أدركوا أن شراء السلاح سيؤدى إلى الحرب اعترضوا طريق هذه القوافل . واعتبر ذلك استفزازا جديدا . وفى مارس ١٨٦٣ عبر الأشانتى عبر نهر برا مرة أخرى ، وأرغموا البريطانيين الذين كانوا تحت قيادة الماجور كوتشرين على الانسحاب . وبرغم هذا الانتصار فقد اضطر الأشانتى إلى الانسحاب خوفا من انتشار الجدري والدوسنتاريا .

وشعرت الحكومة فى لندن ، مثلما شعر الحاكم فى كيب كوست ، بأنه لا مناص من غزو الأشانتى ، وبأنه لابد من إظهار قوة بريطانيا للأشانتى وللدول الخاضعة للحماية . ورأت الحكومة أن إرسال جيش بريطانى عبر نهر برا يمكن أن يكون أكثر تأثيرا . وحتى الآن كان الأشانتى دائما فى موقف الهجوم ؛ وعقد الحاكم پاين العزم على غزو الأشانتى . ولكن الفصائل المكونة من أبناء جزر الهند الغربية ، والتى تشكل قلب الجيش ، لم تستطيع تحمل قسوة المناخ ، واضطر البريطانيون إلى الانسحاب . وفى عام ١٨٦٥ أرسل الأشانتى سفارة بهدف إقرار السلم ، ولكن تباهى الماجور كوتشرين بأن الأشانتى يلتمسون السلم أدى إلى انسحاب السفارة على الفور . ومع ذلك لم يقم الأشانتى بغزو المحمية مرة ثانية . وقد مات الأشانتيهين كواكو نوا الأول فى عام ١٨٦٧ ، فى حين كان الأشانتى من الناحية الرسمية مازالوا فى حالة حرب مع البريطانيين .

ونتيجة لنهوض الأشانتي ونمو قوة البريطانيين على الساحل تبدد كل ما كان لدى الهولنديين من مطامع في إقامة إمبراطورية في غرب إفريقية . غير أنه كان لهم عدد كبير من الحصون انتزع أغلبها من الأشانتي ، وأهمها إلمينا . وتوصل الهولنديون والبريطانيون إلى اتفاق بشأن تبادل بعض الحصون لتجنب التداخل بينها . وهكذا فإن تبعية قبائل إفريقية حليفة للبريطانيين ، الدنكييرا والواسا والكومندا ، كانت تنقل من دولة أوروبية إلى دولة أوروبية أخرى ، على حين ظلت إلمينا ، التي كانت تابعة للهولنديين ، راسخة في ولائها للأشانتي . ولم يشارك الهولنديون أنفسهم في الحروب ، والحقيقة أنهم كانوا يحتفظون بعلاقات ممتازة مع كوماسي .

وفي عام ١٨٦٧ واجهت أشانتي متاعب من جراء احتفالات تشييع جنازة الملك الراحل ، ولكن الملك الجديد **كوفى كريكاري** أرسل في العام التالي جيشا لمساعدة إلمينا المشتبكة في حرب مع اتحاد الفانتي . وحاولت الحكومة البريطانية التوصل إلى هدنة بين الفانتي وإلمينا وقدمت اقتراحات قبلتها إلمينا وقبلها الفانتي ، وتقضى بتعليق التحالف بين الأشانتي وإلمينا لمدة ستة أشهر وباستئناف العلاقات التجارية . وكان طبيعيا أن تقبل إلمينا هذه الاقتراحات لأن وصول جيش الأشانتي لمساعدتها يتطلب ستة أشهر على الأقل .

وغدت المشكلة حتى أكثر تعقيدا عندما قرر الهولنديون في عام ١٨٦٩ ترك الساحل ، كما كانوا مستعدين للتخلي عن حصونهم لاعتبارات مالية . وزعم الهولنديون أن الأشانتي ليس لهم حقوق في إلمينا ، وأنه لا يربطهم بها سوى علاقات صداقة ؛ غير أنهم عجزوا عن أن يفسروا لماذا كانوا يدفعون إيجار القلعة للأشانتي . ولذلك أحجم البريطانيون عن الاستيلاء على إلمينا قبل أن يلمسوا دليلا على أن الأشانتي ليس لهم حقوق هناك . وأرسل الهولنديون موظفا إفريقيا يدعى بانجي إلى كوماسي ليحصل على إعلان بهذا المعنى من الأشانتيين . وقام بانجي بتزوير وثيقة كان من الواضح أنها أُرضت البريطانيين .

وفى ٩ ديسمبر ١٨٧٢ تحرك جيش الأشانتي من كوماسى صوب الجنوب ، وبعد أن عبروا نهر برا هزموا الجيوش المتحالفة فى سلسلة من المصادمات . وبوغتت قوة بريطانية صغيرة ولحقت بها الهزيمة بالقرب من نوكوا . وتقهقرت الجيوش المتحالفة ، ولكنها بعد أن دعمت صفوفها استطاعت صد الأشانتي . وبدأ أن الأشانتي قد هزموا ، ولكن الحلفاء أصيبوا بخسائر فادحة فى الأرواح ، ولذلك قرروا التفرق . ولم يتعقب الأشانتي الجيش المتحالف ، وإنما أقاموا معسكرهم فى نوكوا . وفى شهر مايو تجمع جيش كبير للفانتى والدنكييرا فى چوكوا ، عندما انقض عليهم الأشانتي وقضوا تماما على الجيش المتحالف . وتحرك الأشانتي الآن نحو إلينا التى كانت تحاصرها قوة بريطانية قوامها مائة وعشرة من جنود البحرية ومساعدتهم من الإفريقيين . ولم يكن كل شئ على ما يرام بالنسبة لجيش الأشانتي ؛ فالجدرى والدوسنتاريا كالمعتاد نالا منه كثيرا ، ولذلك كانوا تواقين إلى التراجع بشرف ، ولكن الأشانتيهين كان متصلبا ، وليس على استعداد للسماح للجيش بالعودة إلا بعد غزو كيب كوست .

فى هذه الأثناء كان المدد يتدفق من سيراليون وبريطانيا . وفى أكتوبر وصل سير جارت وولزلى ، أحد جنود بريطانيا البارزين ، ليتولى قيادة الحملة . ووضع وولزلى خطة لهجوم ذى ثلاث شعب ، بيد أن طابور كولونيل وارد تعرض لهزيمة حاسمة على أيدي أساموا نكوانتا ، بل إن الطابور الآخر لم يبدأ فى التحرك . ومع ذلك فإن الجيش الرئيسى بقيادة وولزلى عبر نهر برا . وواصل جيش الأشانتي الذى تمرس على حروب الغابات إعاقه التقدم البريطانى ، ولكنهم لم يكونوا نداءً للبريطانيين الأفضل تسليحا ؛ فبنادق الأشانتي التى تحشى من فوهتها لم تكن تقارن بالبنادق البريطانية ذات الطلقات السبع . يقول ستانلى - الذى رافق الجيش كمراسل حربى - إن الأشانتي كانوا بالمثل نوى تجهيز طيب ، وإنهم كانوا أكثر من نداءً للبريطانيين فى مناطق الغابات . ووصل وولزلى إلى كوماسى ، ولكنه وجدها قد هجرت . وكان قلقا على خطوط تموينه ، ويتحاشى أن يضيق عليه الخناق فى كوماسى ، فقرر الانسحاب قبل موسم الأمطار . وفى طريق عودته لحق به رسول من قبل الأشانتيهين ، وأبلغه أن

الأشانتية على استعداد للتسليم بشروط . وكانت النتيجة توقيع معاهدة قومينا^(٩) التي وجهت في نهاية المطاف ضربة إلى قوة الأشانتى أصابتها بالشلل . فبمقتضاها وافق الأشانتية على ما يلي : ١ - التنازل عن كل إدعاءاته بالسيادة على الدنكييرا والأكامبو والأسبن والأدانسى ؛ ٢ - دفع تعويض مقداره خمسون ألف أوقية من الذهب ؛ ٣ - التخلي عن التحالف مع إلمينا ؛ ٤ - سحب قواته من الجنوب الغربى ؛ ٥ - إبقاء الطرق التجارية والطريق بين كوماسى وبراف مفتوحة ؛ ٦ - وقف تقديم الأضاحى البشرية .^(١٠)

ودمرت معاهدة السلم نسيج النظام الإمبراطورى للأشانتى ، فقد ثارت المقاطعات ، وفى كوماسى عزل كوفى كريكارى فى عام ١٨٧٤ ، وارتقى العرش ملك جديد يدعى منسا بونسو . واستطاع منسا بونسو هزيمة الجوابن الذين أعلنوا راية العصيان ، وأعاد تلك الولاية إلى سلطة كوماسى المباشرة . ولكن على الرغم من أنه استطاع إقرار سلطة كوماسى فإنه لم يكن محبوبا ، إذ كان ينظر إليه على أنه تابع للبريطانيين . وفاض الكيل بالزعماء عندما فر أمير من

(٩) تقول الموسوعة البريطانية إن الأشانتى لم يقبلوا هذه المعاهدة كتسوية دائمة ، وظلوا يشكلون تهديدا لأراضى الشاطئ ، وإنه بعد مفاوضات مطولة لاحقة أرسل البريطانيون إنذارا إلى كوماسى فى عام ١٨٩٥ ، أعقبه بحملة عسكرية أخرى ، وحل اتحاد الأشانتى ، وإعلان الحماية البريطانية على البلاد . وبسبب حاجتهم إلى حماية مناطق الأشانتى الداخلية التجارية من الاحتلال الفرنسى والألمانى ، وكذلك إلى مكافحة غارات سامورى من أجل الرقيق ، قاموا فى الفترة ١٨٩٦ - ١٨٩٩ بتعزيز نفوذهم فى مناطق الأشانتى الشمالية .

(١٠) كانت لدى الأشانتى قبل اعتناقهم المسيحية عادة تقديم الأضاحى ، فينحرون الطير والكلاب والخنازير والأغنام حسب المناسبات ، والغرض هو انتقال قوة الحياة والإحضاب إلى المتعبد . أما الأضاحى البشرية فلم تكن تقدم إلا فى المناسبات الكبيرة مثل موت الملك والأعياد السنوية .

الأشانتى يطالب بعرش غايمان إلى البريطانيين طالبا حمايتهم . فأرسلت إلى الساحل بعثة من الأشانتى تحمل الفأس الذهبية . وأساء البريطانيون فهم طبيعة الفأس ، واعتقلوا أن الأشانتى الذين يشترون بنادق شنيدر التى تحشى من الخلف يستعدون للحرب . لذلك أعد البريطانيون لعبور نهر برا ثانية ، وعلى الفور استسلم منسا بونسو طالبا السلم . وأغضب ذلك حزب الحرب فى كوماسى ، وعندما طلب منسا فى عام ١٨٨٣ تحكيم البريطانيين فى الخلاف بين إثنين من الرؤساء ، عزل من منصبه ، وخلفه كواكا نوا الثانى ، ولكنه مات فى يونيه ١٨٨٤ . وكان موته بداية فترة من الحرب الأهلية استمرت حتى عام ١٨٨٨ ، عندما أجلس برمبه على العرش تحت اسم كواكا نوا الثالث ، وكان صبيا فى السادسة عشرة يخضع لسيطرة أمه (الملكة الأم) . وفى عهده أعاد الأشانتى تدعيم موقفهم . بيد أنه فى عام ١٨٩٥ طلب وزير المستعمرات إلى الأشانتى قبول مقيم بريطانى ، وعدم شن الحرب على القبائل التى تعيش خارج أراضيهم . وتشاور الأشانتى فيما بينهم ، وفى ٢٨ مارس ١٨٩٥ بعثوا بسفارة إلى إنجلترا . وفى أبريل وصل حاكم جديد^(١١) يحمل تعليمات بتقديم إنذار إلى الأشانتى يذكرهم فيه بأن الغرامة لم تدفع ، وبأن طرق التجارة لم تبق مفتوحة ، وبأن تقديم الأضاحى البشرية مازال مستمرا ؛ وإذا لم تصل إجابة مرضية حتى ٣١ أكتوبر فستعتبر الحكومة البريطانية نفسها حرة فى اتخاذ ما تراه من إجراءات .

وكانت السياسة التى يتبعها البريطانيون ذات وجهين : فكانوا يمنحون الحماية لكل رئيس يتمرد على الأشانتيين ؛ وفى الوقت نفسه يريون منه تحمل عبء الغرامة بأكمله . وكان السبب الحقيقى للإنذار هو أن بريطانيا قد قررت غزو أشانتى . وعندما لم يقم الأشانتيين بالرد فى الوقت المحدد ، تحرك طابور

(١١) هو السير وليم مكسويل الذى عين حاكما لقلعة كيب كوست .

بريطاني نحو كوماسى ، ولم يلق أية مقاومة ؛ وفى كوماسى أعلن
الأشانتية خضوعه بخلع نعليه ، وخلخاله الذهبية ، وأحاط بقدمى القائد
البريطانى .(١٢)

بل أن الأشانتى عانوا حتى مهانة أكبر . ففى عام ١٩٠٠ قدم الحاكم العام
إلى كوماسى ، وطلب إليهم أن يسلموه « عرش الملك الذهبى » ليجلس عليه ،
وأعلن أن ملكة بريطانيا هى سيدة الأشانتى ، وأن من حقه كممثل للملكة أن
يجلس عليه .(١٣) وأصاب هذا الطلب الأشانتى بالذهول ، فالعرش هو رمز
قوميتهم ، ولذلك أخذوا تحت حكم الملكة الأم يستعدون للحرب ، واحتجز الحاكم
ومن معه فى الحصن ، وفرض عليهم حصار محكم . وعلى الرغم من أن
الأشانتى أبدوا مقاومة عنيفة ، كما لجأوا إلى حرب العصابات ، فإن طابور
الإنقاذ الذى أرسل تحت قيادة الكولونيل ولكوكس استطاع الوصول إلى
كوماسى وأصبح الأشانتى فى نهاية الأمر جزءاً من إمبراطورية لا تغيب عنها
الشمس .

(١٢) قرر الأشانتى الخضوع والدخول فى حماية « الرجل الأبيض » ، ومع ذلك تقدم الطابور
البريطانى ، ودخل كوماسى فى ١٧ فبراير ١٨٩٩ ، وفى اجتماع عام قدم الملك خضوعه التام للقائد
البريطانى فرانسيس سكوت .

(١٣) كان الملك قد أخفى « عرشه الذهبى » فى مكان ما حتى لا يدنسه الغزاة . وكانت مطالبة
الأشانتى بتسليمه إهانة يتعذر عليهم احتمالها ، إذ هم ينظرون إليه كرمز تتجمع فيه جميع أوراخ
أسلافهم ، ولم يكن الملك يجلس عليه إلا نادراً وفى المناسبات الكبيرة ، فكيف وجلوس حاكم أجنبى
عليه !!

الجزء الثاني

الفصل الحادى عشر

الاقتصاد

أولا

لم تكن أوروبا القرن التاسع عشر هى منشأ الاستعمار فى إفريقيا ، فالاقتصاد بلاد السودان منذ أقدم العصور كان اقتصاد مستعمرات . والسمة المميزة لاقتصاد المستعمرات هى أن التجارة تكون هى السائدة فيه ، وليس الإنتاج . صحيح أنه فى العالم الحديث تضطلع المناطق المستعمرة بإنتاج البضائع للبلدان الاستعمارية . من ذلك أن المنتجات الاستوائية التى لا تنتجها أوروبا ، وكذلك المعادن كالقصدير أو الحديد التى لا تتوفر لهذه البلدان كفايتها منها ، يتم إنتاجها لإشباع حاجة السوق . بيد أن اقتصاد المستعمرات تسيطر عليه بضع شركات أجنبية تكاد تنفرد بكل أرباح التجارة . وقد كانت تسيطر على التجارة فى مستعمرات فرنسا السابقة فى غرب إفريقيا ثلاث شركات كبيرة ، وفى مستعمرات بريطانيا السابقة فى المنطقة نفسها تسع شركات . وثمة سمة ثانية هى أن تمويل التجارة والإنتاج يكون فى أيدى جالية أجنبية . فالشركات التجارية تقدم قروضا إلى الوسطاء المحليين ، وهؤلاء بدورهم يقدمون القروض إلى المنتج الفعلي . وهكذا فإن المحصول حتى قبل أن ينضج لا يعود ملكاً للمنتج . وسمة ثالثة لاقتصاد المستعمرات هى أن الموارد الإنتاجية للبلد لا تنمى لصالحه وإنما لتلبية متطلبات اقتصاد أكثر تقدما . وهكذا فإن غالبية المناطق إنما تعتمد على ناتج أولى واحد ، أو منتجين ، تتقلب أسعاره أو أسعارهما تقلبا شديداً .

فهل كانت هذه الظاهرة جديدة فيما يتعلق ببلاد السودان ؟ وهل كان اقتصاد هذه البلاد فى العصور الوسطى يختلف اختلافا كبيرا عن اقتصادها

اليوم ؟ لابد من الاعتراف بأنه فيما عدا بلاد الهوسا واليوربا لم يكن النظام يختلف اختلافا ملحوظا . والحقيقة إنه فيما يتعلق بالمناطق الواقعة شمال بلاد الهوسا كان النظام فى حالة أسوأ ، ذلك أن الاستعمار الحديث ينمى الموارد الاقتصادية ، وإن يكن بطريقة غير متوازنة ، على حين أن استعمار العصور الوسطى لم يكن ينمى أية موارد . ولم تجر دراسة جادة للسيطرة الاقتصادية التى مارسها دول شمال إفريقيا على بلاد السودان من زاوية تأثيرها على اقتصاد المنطقة . والمنتجات التى كانت موضوعا للطلب - الرقيق والخصيان والذهب والعاج والزباد والعنبر والمسك - لم يكن ممكنا أن تؤدى بحكم طبيعتها إلى تنمية الموارد الاقتصادية . وكان محصول التصدير النباتى الوحيد هو الدخن الذى يصدر إلى قبائل الصحراء . وقد أدخل العرب الذين قدموا من الشمال والشرق بعض محاصيل جديدة - القطن والأرز والقمح ، وفي مقدمتها جميعا التبغ - ولكن إنتاج هذه المحاصيل كان من أجل التجارة البينية (فيما بين المناطق الإفريقية) فى المقام الأول ، ولم تكن موضوع طلب فى الشمال بسبب حجمها الكبير ، وتكاليف نقلها عبر الصحراء . وهكذا كانت صلة الشمال الإفريقى التجارية تفرض على بلاد السودان اقتصاد سلب ونهب .

ثانيا ، كانت التجارة فى أيدي تجار شمال إفريقيا . فتجار غدامس وتوات ومراكش أو وكلاؤهم كانوا يوجدون فى كل المراكز التجارية الرئيسية . والواردات، وكذلك الصادرات ، كانت فى أيديهم . ونحن بينما نسمع عن العدد الكبير لقوافل الشمال الإفريقى التجارية التى كانت تزور بلاد السودان ، فإننا لا نسمع شيئا عن أى تجار من أهل السودان قاموا بزيارة لشمال إفريقيا . وحتى فى بلاد السودان كان تجار شمال إفريقيا يمولون التجارة ، ولم يكن الإفريقيون سوى وكلاء لهم .

ولذلك كان شمال إفريقيا هو الذى يجنى منافع التجارة ، فأبناؤه كانوا يتحملون عبء المخاطر ويحصلون على الأرباح . والحقيقة أن بعض المدن الصغيرة الواقعة على طرق القوافل الرئيسية كانت تعيش أساسا على التجارة عبر الصحراء . كما أن رخاء سجماسة العظيم بأكمله كان مرجعه التجارة مع

بلاد السودان . وقد برزت أهميتها عندما منع السلطان أحمد بن طولون (١) التجار المصريين والسوريين من استخدام الطريق الذي يبدأ من الواحة الخارجة إلى غرب بلاد السودان بسبب كثرة حوادثه . وأدى ذلك بتجار المشرق إلى المجئ إلى مراكش حيث أقاموا في سجلماسة . وتزايد رخاء المدينة بدرجة كبيرة ، وأصبحت تحقق لخزانة القيروان إيرادات مقدارها أربعمئة ألف دينار ، وهو مبلغ كان يعادل نصف إيرادات منطقة البربر بأكملها ، ويعطينا فكرة عن أهمية التجارة . وعلى الرغم من أن المدينة كانت مزدهرة عندما زارها ابن بطوطة ، (٢) فقد كتب ليو الإفريقي في أيامه يقول إن المدينة كانت أطلالا ، (٣) إذ أنها خربت بعد موت السلطان أحمد المنتصر في عام ١٣٩٣ .

ومدينة تلمسان كانت مركزاً آخر تمتع برخاء كبير بسبب تجارته مع بلاد السودان . وكانت قليلة الإنتاج ، بل لم يكن بها سكان كثيرون ، ولكنها أصبحت محطة نهائية للتجارة عند الطرف الشمالي ، وبخاصة بعد أن احتل المسيحيون وهران . وقد حققت أرباحاً وفيرة عن طريق فرض المكوس على واردات بلاد السودان وصادراتها . ولم تكن المدن الكبيرة هي وحدها التي تحصل على الأرباح من التجارة ، بل إن المدن الصغيرة الواقعة على طول طريق القوافل كانت تحصل بدورها على أرباح ضخمة . فمدينة مثل تاغواست كانت تصدر المنتجات الصوفية إلى ولايته وتمبكت ؛ ومدينة أخرى مثل يفران تصنع الأوعية النحاسية وأواني الزينة كانت سوقها الوحيدة في بلاد السودان . ولقد كان ليفران بطبيعة الحال فترة مجد عارضة . ففيما بين عامي ١٥٠٩ و ١٥٤١ ، عندما احتل البرتغاليون أغادير ، كانت مركزاً لتصدير المصنوعات الأوروبية إلى بلاد السودان .

وكانت توجد بغالبية المدن الجنوبية في مراكش نسبة كبيرة من السكان

(١) أحمد بن طولون : مؤسس الدولة الطولونية في مصر ، التي حكمت في الفترة ٨٦٨ -

٩٠٤ .

(٢) « وتوجهت برسم السفر إلى بلاد السودان فوصلت إلى مدينة سجلماسة وهي من أحسن المدن وبها التمر الكثير الطيب » تحفة النظار ، الصفحتان ٦٨٣ و ٦٨٤ .

(٣) « وتبدو سجلماسة في الوقت الحاضر مهذمة تماما كما سبق أن قلنا ، فإن سكانها تجمعوا في قصور وتشتتوا في كل مكان تقريبا من أراضي المنطقة » وصف أفريقيا ، طبعة الرياض ، الصفحة ٤٩٩ .

السود . ومرجع ذلك ليس سواد بشرة السكان ، بل إن عدداً كبيراً منهم اتخذ محظيات من بلاد الزنوج ، وكان معظم سكان هذه المدن من أبناء المحظيات . من ذلك أن أبا يزيد الحمّار^(٤) الذي قام بثورة في شمال إفريقية كان ابن جارية سودانية . وقد حقق هؤلاء الشماليون أرباحاً طائلة من التجارة ؛ فالجارية الصغيرة السن التي تساوى ستة مثاقيل في غاو يمكن أن تباع في فاس بخمسة عشر ؛ والحصان الذي يساوى ست دوكات^(٥) في بلاد البربر يمكن أن يباع بأربعين أو خمسين نوكة في غاو . بيد أن منتجات غرب إفريقية كانت دائماً من مواد الترف في شمال إفريقية . لذلك لم تكن التجارة تعود على الفقراء بمنفعة تذكر ، وإنما كان المستفيدون الرئيسيون منها هم التجار الأغنياء والأمراء .

لقد كانت هذه أساساً تجارة في سلع الترف ، ويمكن أن نلمس ذلك من البضائع التي أرسلها حاكم تنسّته على سبيل الهدية إلى سلطان فاس . وقد حمل هذه البضائع سفير زنّجى أثار سلوكه ونطقه فكاهاة ومرحاً وغبطة بين رجال البلاط في فاس ، وكانت كلها تقريباً واردة من بلاد السودان ، ومن بينها خمسون رقيقاً زنّجياً وخمسون جارية زنّجية وعشرة خصيان وزرافة وجمل وعشر نعائم وستة عشر من قط الزباد ورطل من المسك وآخر من العنبر وستون من جلود بقر الوحش التي تصنع منها الدروع الخفيفة . ويذكر ليو الأثمان التي كانت هذه الأشياء تباع بها في فاس ، فالرقيق يباع بعشرين نوكة والجارية بخمس عشرة والخصى بأربعين والجمل بخمسين وقط الزباد

(٤) أبو يزيد مخلص بن كيداد : من قبيلة يفران الزناتية . ولد من " جارية هوارية " . قاد أقوى الثورات ضد الفاطميين في المغرب الأقصى وأخطرها وأطولها أمداً . وشملت ثورته أربع مراحل بين انتصار وانكسار ، وشغلت هذه الثورة عصر القائم بأمر الله كله وعامين من عهد ابنه اسماعيل المنصور الذي سجل انتصاره على أبي يزيد في عام ٩٤٧ ببناء مدينة أسماها " المنصورية " . وقد وقعت بأبي يزيد هزيمة منكرة في ذلك العام وسقط أسيراً في أيدي المنصور . وعندما استولى على مرماجنة في المرحلة الثانية من ثورته أهداه أهلها حمراً أشهب اللون ، فكان يركبه ، ولذلك سُمي صاحب الحمّار . [انظر ، دكتور السيد عبد العزيز سالم ، المغرب الكبير ، الجزء الثاني (العصر الاسلامي) ، الدار القومية للطباعة والنشر ، ١٩٦٦ ، الصفحات ٦٢١ إلى ٦٣١ ؛ وكذلك الموسوعة البريطانية ، مادة " Abu Yazid " ، وأيضاً تاريخ أفريقيا العام ، اليونسكو ، الطبعة الانجليزية ، المجلد الثالث ، الصفحات ٣٢٣ وما بعدها .]

(٥) الدوكة Ducat : عمله إيطالية ذهبية ترد في المصادر العربية باسم مثقال ، وكانت تزن في أيام ليو الإفريقي حوالي ثلاثة غرامات ونصف الغرام .

بمائتي دوكة وكان الرطل من المسك أو العنبر يساوي ستين دوكة ، أما جلود بقر الوحش وهي أرخصها ، فكانت القطعة منها تباع بثمانى دوكات ، لذلك كان من المجزى القيام برحلة إلى بلاد السودان بأكبر عدد ممكن من الجمال .

ومع ذلك فإن الرحلة إلى بلاد السودان لم تكن أبداً رحلة للمتعة . فقد كانت الصحراء حاجزاً مهيباً يحدد الظروف التى تباشر فيها التجارة . كما أن بحر الرمال الذى يفصل السودان عن عرب شمال إفريقيا هو فراغ من الناحية الفعلية ، وتسيطر بلاد السودان على الجزء الجنوبى منه بمختلف واحاته . وفى فترات الضعف ، أو عندما تسود الفوضى فى المناطق المأهولة ، كان أهل الصحراء ، الطوارق والبربر ، والعرب أيضاً ، ينقضون على السكان الزنوج المستقرين ويعملون فيهم النهب . ونادراً ما كان البيض^(٦) فى الصحراء هم السادة ، حتى حلت الفوضى التى أعقبت الغزو المراكشى فأعطتهم الفرصة لأن يعملوا النهب نون خوف من الانتقام .

لقد كانت الصحراء عازلاً بين بلاد السودان والشمال ، ولم يكن بالإمكان عبورها إلا عن طريق القوافل المنظمة . ومرجع ذلك هو الصعوبات الضخمة التى تكتنف عبور الصحراء فرادى أو فى أعداد صغيرة . فضلاً عن ذلك كان هناك خطر قيام قبائل الطوارق والتيبو بمهاجمة من يعبرها . وهكذا أصبحت القوافل هى وسيلة عبور الصحراء .

ولكى تحقق التجارة أقصى ربح لها ، فلا بد أن تكون الأصناف التى يتم الاتجار فيها خفيفة الوزن غالية الثمن ، وفى مقدمة هذه الأصناف الذهب والرقيق والعاج والمسك والعنبر والزباد ، وذلك بسبب ربحيتها الشديدة وخفة وزنها . وأدت التجارة مع الشمال إلى وجود طرق مألوفة ونشأة المحطات الوسيطة التى يجد فيها المسافر المتعب بعض الراحة . وفى بلاد السودان نفسها أدت هذه التجارة إلى نمو المدن الواقعة على حافة الصحراء والتى هى بمثابة نهايات لخطوط القوافل . وهذه المدن أشبه ما تكون بالحصون والمدن الواقعة على الساحل والتي نشأت بعد الكشف الأوروبى للساحل الغربى . وربما

(٦) إشارة إلى الطوارق ، وهم ليسوا زنوجا .

كانت العلاقة التي ربطت بين نهوض غانة ومالى وتجارة الصحراء هي نفس العلاقة التي ربطت بين نهوض أشانتي وداهومى والتجارة البحرية . إذ أن نتيجة هذه الحركات - من بحرى الرمال والمياه - كانت واحدة : وهي تنمية وازدهار حضارة تجارية .

وتطور تجارة غرب إفريقية يمكن أن يكون - منذ العصور التاريخية على الأقل - وثيق الارتباط بدخول الجمل والنخيل . وثمة اختلاف فى رأى حول تاريخ استخدام الجمل لأول مرة فى الصحراء . فالبعض يقول إن الجمل وجد فى الصحراء منذ زمن بعيد ، ودليلهم على ذلك الهياكل العظمية لجمل العصور السحيقة . ومن ناحية أخرى توجد أدلة كثيرة على أن الجمل يمكن ألا يكون من أصل إفريقى . والأدلة سلبية بحكم طبيعتها . فالقرطاجيون بينما كانوا يعرفون الحصان والفيل ، يبدو أنهم لم يكونوا يعرفون الجمل . كما أن هيروdot في تعداده الشامل لحيوانات إفريقية لم يشير مطلقا إلى الجمل . ولم يستخدم الرومانيون الجمال فى حملاتهم الإفريقية المبكرة . ويقول سالوست إن الرومان رأوا الجمل لأول مرة فى الحملة ضد ميثريداتس^(٧) ويذكر بلينى أيضا أن الجمل له أصل آسيوى أكثر منه أصل إفريقى . لذلك يبدو محتملا أن يكون الجمل والنخيل مستجدين نسبيا فى شمال إفريقية ، وأن يكونا قد وصلا إليه حوالى القرن الرابع الميلادى . وكان جوتييه وجيزيل ، وهما خبيران فرنسيان فى شؤون شمال إفريقية والصحراء الكبرى ، من أنصار هذا الرأى .

ومن المؤكد أن إدخال الجمل والنخيل قد أحدثا ثورة فى النقل ، وهى ثورة لا بد أنها أثرت بدورها فى التجارة . فبمساعدة سفينة الصحراء أصبح من الممكن نقل حمولات أثقل وزنا ، وقلت المخاطر عما سبق ولو أنها كانت لا تزال كثيرة ، كما أصبحت الرحلة تستغرق وقتا أقل . وكانت النتيجة نمواً فى النشاط

(٧) ميثريداتس السادس : (١٣١ - ٦٣ ق . م) ملك بونتوس القديمة ، ويعرف بميثريداتس الأكبر . اشتبك مع الرومان فى ثلاثة حروب عرفت باسمه . كان بسبب دهائه وشجاعته وقدرته على التنظيم أخطر خصوم روما الشرقية .

التجارى أسفر عن نشأة عدد كاف من المدن عند نهايات الطرق عند الجانب الآخر من الصحراء . ونمت المدن لضمان إمدادات مطردة وكبيرة من البضائع المطلوبة ، وتوفير احتياجات المسافرين ووسائل الراحة اللازمة لهم . وهذه المراكز الحضرية لابد أنها شكلت النوى لأول جيدة التنظيم . كما أن غانة التي جاءت إلى الوجود فى هذا الوقت لابد أنها أصبحت على علاقة وثيقة بالتجارة عبر الصحراء الكبرى .

وكانت هناك خمسة طرق معروفة جيداً تربط شمال إفريقية ببلاد السودان . وكان أبعدھا غربا هو الطريق الذى يسير بمحاذاة الساحل من مراكش حتى بلاد السودان فى الجنوب ، وكان هذا الطريق هو أيسرها قبل إدخال الجمل . أما الطريق الغربى فكان يبدأ من مراكش والجزائر حتى سجلماسة ومنها إلى بلاد السودان . وكان هناك طريقان فى الوسط ، أحدهما يبدأ من طرابلس ويمر بفزان ومرزق وكُوَار إلى بحيرة تشاد ، والآخر يبدأ من غدامس ويمر بغات حتى بلاد الهوسا وغرب بلاد السودان . أما الطريق الشرقى فكان يبدأ من برقة ويمر بالكفرة وتبستى . وكان هذا الطريق وعرا ولم يطرأ عليه تحسن ما إلا فى القرن التاسع عشر مع نمو قوة السنوسيين فى هذه المنطقة وإنشاء المزارع وحة العيون . فضلا عن ذلك فإنه بينما كان مايات برنو أقوىاء ، وكان الحفصيو الذين أقاموا علاقات طيبة معهم يحكمون فى تونس ^(٨) كان باستطاعه إمبراطورية البرنو حماية الطريق من فزان حتى تشاد من تهديد الطوارق بالرغم من أنه كان طريقا اصطناعيا ووعرا . ولكن هذا الطريق لم يعد مأمونا فى القرن الثامن عشر بسبب الضعف الذى طرأ على إمبراطورية البرنو ، ولذلك هجرته القوافل . وفى القرن التاسع عشر أصبحت زندر أكثر أهمية ؛ فقد أفادت فى ربط برنو بالشمال على امتداد الطريق الغربى المار بغات وغدامس .

(٨) « (قال ابن سعيد) .. ويليهم الكانم وهم خلق عظيم ... ولهم التغلب على بلاد الصحراء إلى فزان وكانت لهم مهادنة مع الدولة الحفصية منذ أولها .. » العبر ، المجلد السادس ، الصفحة ١٩٩ .

وربما كان ضروريا بالمثل أن نلم بالأخطار والمصاعب التي كان على القوافل أن تواجهها . فالصحراء الكبرى ذات مساحة شاسعة على الرغم من كثرة ما يوجد بها من واحات ووديان تنعم بحياة نباتية وحيوانية . وهناك مناطق جبلية مثل تبستي وأحجار وأير ، بيد أن غالبية الصحراء تتكون من كثبان رملية عالية ثابتة ومتحركة ، ومنخفضات تغطي بطونها الحصباء ، وهضاب عرت العوامل المختلفة صخورها . وكانت هناك دائما مشكلات العطش والمتاعب الجسمانية ، مثل تشقق الشفاه وبشرة الوجه بسبب العواصف الرملية . وعلى الطريق من فاس إلى تمبكت كانت المياه مشكلة دائمة ، لذلك اعتاد المسافرون أن يحملوا معهم على ظهور الجمال مؤونة من المياه تكفيهم سبعة أيام ، بيد أنه حتى هذه الكمية كانت تنفد في بعض الأحيان ، عندئذ كانوا يرغمون على ذبح الجمال واستعمال الماء الذي تحتزنه ، وإذا لم يكن هذا الماء كافيا فلا يكون أمامهم سوى مواجهة الموت . هذا فضلا عن الخوف الدائم من أن تضل القوافل طريقها في الصحراء ، وكانت القوافل تتغلب إلى حد ما على هذه المشكلة باصطحاب أدلاء^(٩) يعرفون مواقع العيون ويمكنهم الاهتداء بالنجوم مثل الملاحين . كذلك كان هناك دائما احتمال تعرض القوافل لهجمات رجال القبائل الصحراوية . ومع ذلك كان للصحراء سحرها أيضا ؛ ففيما وراءها يوجد ذهب بلاد السودان الذي أغرى كثيرين جدا من المغامرين بالسعى إلى الثروة على الجانب الآخر من الصحراء .

وقد أثارت بعض القصص الخيالية شهية التجار من أهل الشمال ، ومنها تلك القصة التي رواها منساموسى للعمري في القاهرة ،^(١٠) وهي قصة كانت بطبيعة الحال دعاية خالصة ، ومفادها أن الذهب نتاج نباتي ، كما أنها قصة

(٩) الدليل : أسماء ابن بطوطة « التكشيف » . « والتكشيف إسم لكل رجل من مسوفة يكثره أهل القافلة » تحفة النظار ، الصفحة ٦٨٥ .

(١٠) انظر ، رواية منساموسى لفضل الله العمري ، الحاشية ٣-٤٩ أعلاه .

ونورد هنا قصة أخرى رواها الإدريسي : « فإذا أخذ النيل في الرجوع والجزر رجع كل من في بلاد السودان المنحشدين إلى تلك الجزيرة بحثا يبحثون طول أيام رجوع النيل فيجد كل منهم في بحثه هناك ما أعطاه الله سبحانه كثيرا أو قليلا من التبر وما يخيب منهم أحد فإذا عاد النيل إلى حده باع الناس ما حصل بأيديهم من التبر .. » نزهة المشتاق ، المجلد الأول ، الصفحة ٢٤ .
[المقصود بالنيل هنا هو نهر النيجر .]

موغلة في القدم . فالفقيه^(١١) في القرن العاشر الميلادي يذكر أن الزنوج يزرعون الذهب في الصحراء ، كما يزرع غيرهم الجزر ، وأنهم يحصدونه في الصباح . ويكرر ياقوت هذا المعنى . ومن العمرى يمكننا أن نقف على التفاصيل الكاملة لهذه القصة المثيرة . فقد قال له الإمبراطور إن هناك نوعين من النباتات التي تنتج الذهب ، نوع يظهر في الربيع وينمو في الصحراء في أعقاب سقوط المطر ، وذلك لا يُعَوَّل عليه لأن سقوط الأمطار في الصحراء ليس مؤكداً ، والنوع الآخر ينمو على ضفاف النيل ويزدهر طول العام . والمنطقة التي يوجد بها الذهب بكثرة هي تلك الواقعة جنوب غانة . ويظهر الذهب في أغسطس عند اشتداد الحرارة ، وعندما يفيض النهر لا يكون لازماً سوى الحفر للحصول عليه . ويبدو أن المنسا كان يتمتع بسعة خيال هائلة ، لأن القصة الأخرى التي رواها للعمرى عن سلفه الذي أبحر إلى المحيط تبدو بالمثل ممارسة لخيال خالص .^(١٢) وثمة قصة أخرى لأحد الرحالة تتعلق بذهب بلاد السودان رُوِيَتْ لبتنكورت في جزر كناري . وتفيد هذه القصة أن الزنوج كانوا يدعون نوعاً ضخماً من النمل يحفر الأرض ليخرجوا الذهب ثم يبادلونه بمنتجات أخرى .

وكان تجار مصر وشمال إفريقية يميلون إلى تصديق هذه الروايات ، وكان يتدفق عليهم من الذهب ما يكفي لإثارة اهتمامهم بالتجارة . وكانت الأرباح

(١١) ابن الفقيه : أبو بكر أحمد بن محمد بن إسحاق الهمزاني . جغرافى عربى وضع حوالى عام ٩٩٣ مؤلفاً شاملاً عنوانه كتاب البلدان . وقد فقد هذا الكتاب ، ولكن عمل له مختصر يقول دى غويه إن الذى وضعه يحتمل أن يكون على بن حسن الشَّيْزُرَى حوالى عام ١٠٢٢ . ونشر دى غويه هذا المختصر فى عام ١٨٨٥ فى المكتبة الجغرافية العربية ، المجلد الخامس . [أنظر ، الموسوعة الإسلامية ، المطبعة العربية ، مادة « ابن الفقيه » .]

(١٢) « قال فى مسالك الأبصار : قال ابن أمير حاجب : سألته عن سبب إنتقال الملك إليه - فقال إن الذى قبلى كان يظن أن البحر المحيط له غاية تترك ، فجهز مئتين سفن ، وشحنها بالرجال والأزواد التى تكفيهم سنين ، وأمر من فيها ألا يرجعوا حتى يبلغوا نهايته أو تنفد أزوادهم ؛ فغابوا مدة طويلة ، ثم عاد منهم سفينة واحدة وحضر مقدمها ، فسأله عن أمرهم . فقال : سارت السفن زماناً طويلاً حتى عرض لها فى البحر فى وسط اللجة واد له جرية عظيمة ، فابتلع تلك المراكب وكنت آخر القوم فرجعت بسفينتى ، فلم يصدقته : فجهز ألفى سفينة ألفاً للرجال وألفاً للأزواد ، واستخلفتى وسافر بنفسه ليعلم حقيقة ذلك ؛ وكان آخر العهد به وبمن معه ... » صبح الأعشى ، الجزء الخامس ، الصفحتان ٢٩٤ و ٢٩٥ .

هائلة ، وفيها تكمن الإثارة . وفي أوقات استقرار الحكم ببلاد السودان كان الخطر يقل إلى أدنى حد . كذلك لم يعدم الأمر عناصر مثيرة أخرى . فنفس أسماء سجلماسة وأودغست وولاته وتوات ، تلك المدن الخاملة في الصحراء ، كانت تثير فيهم ذكريات تجارة الذهب . ومن هذه المدن سجلماسة التي شيدها البربر في عام ٧٥٨ ، وأصبحت عاصمة تافيلت (١٣) - الجزء الجنوبي من مراكش - في عام ٩٠٨ ، وكانت النقطة التي تبدأ منها القوافل رحلتها الطويلة . وقد أعطاها وضعها الممتاز عند سفح منطقة الكول بجبال الأطلس موقعا مواتيا . وكانت تشكل المحطة النهائية العظيمة في الشمال لتجارة الصحراء . وقد أمكن زراعة الخضروات والمحاصيل الغذائية عن طريق نظام للقنوات . قال ابن بطوطة عن سجلماسة إنها « من أحسن المدن وبها التمر الكثير الطيب وتشبهها مدينة البصرة في كثرة التمر ولكن تمر سجلماسة أطيب وصنف إيراد منه لا نظير له في البلاد » (١٤) وكان المكان يزدحم بأمراء التجارة الذين أثارت بيوتهم وحدائقهم حسد أكثر الناس ترحالا وهو ابن بطوطة الذي قابل هناك أخا لتاجر تعرف إليه في الصين . (١٥)

وكان المسافرون الذين يتجمعون هناك ينعمون بكل اللذات التي يمكن أن توفرها « مدينة من أكبر مدن العالم المزدهمة بالسكان » ، والتي تعيش على التجارة . وكانت هناك وكالات تجارية وسماسرة يمكنهم تزويد القادم بمعلومات عن حالة التجارة في بلاد السودان ، وفوق كل ذلك ذهب وصياغ اشتهروا بصنع أرقى المشغولات الذهبية وأنقاها . والباحثين عن اللذة كان هناك الطعام الشهى :

(١٣) تافيلت : أكبر واحات الصحراء الكبرى . بها حتى الآن أطلال سجلماسة . وهي مهد

أسرة الأشراف العلويين التي لا تزال تحكم المملكة المغربية .

(١٤) تحفة النظار ، الصفحة ٦٨٤ .

(١٥) « وتزلت منها عند الفقيه أبي محمد البشري ، وهو الذي لقيت أخاه بمدينة قنجنفو من

بلاد الصين فياشد ما تباعدا فأكرمني غاية الأكرام » ، المرجع نفسه ، الصفحة نفسها .

السحالي والكلاب المسمنة (١٦) والقمح والتمور التي تفوق في حلاوتها كل فاكهة أخرى. (١٧) ثم كانت هناك نساء جميلات الطلعة يسهل تيلهن ، ويتمتعن ببداية كانت موضع الإعجاب على نطاق العالم العربى . (١٨)

وعلى مسيرة خمسين يوما إلى الجنوب من سجلماسة توجد المدينة الشهيرة أودغست . وكان بإمكان المسافر الذى يمضى قرابة الشهرين فى الصحراء تحت نير الحرارة والعواصف الرملية أن يجد الراحة فى هذه المدينة التى تمتعت بشهرة لا تفوقها فيها سوى باريس المعاصرة . وقد اشتهرت بجودة طعامها ، وتفوقت طاهياتها فى صنع الفطائر والكعك المحشو بالجوز والشعرية بالعسل ولحوم الجمال المجففة والتعابين المطهوه فى الماء والملح أو الاسفنت . وأطعمة كهذه لابد أن تثير شهية أكثر الناس ولعاً بالطعام وتذوقا له . وكانت أثمان الطاهيات مرتفعة ، وتباع الواحدة منهن بمائة مثقال ذهباً . (١٩)

وعندما زار بارث أودغست الصحراء الكبرى وجد نساءها فى حالة عبث وسعى إلى اللذة على الرغم من أن أخلاقهن كانت قد تحسنت على أيامه . وقد اشتهرت نساؤها بجمالهن على الرغم مما قاله أحد المسافرين فى العصور الوسطى من « أنك لا تكاد تجد أحدا من السكان ليس ضحية حمى أو أعراض

(١٦) « وأهل سجلماسة يسمنون الكلاب ويأكلونها كما يصنع أهل مدينة قفصة وقسطيلية ... » البكرى ، المرجع السابق ، الصفحة ١٤٨ .

« وقد حكى ابن سعيد .. وليس فيها ثياب ولا كلاب لأنهم يسمنونها ويأكلونها ... » صبح الأعرشى ، الجزء الخامس ، الصفحة ١٤٦ .

(١٧) « وبها نخيل كثير وأنواع من التمر لا يشبه بعضها بعضها وفيها الرطب المسمى بالبرنى وهى خضراء جدا وحلاوتها تفوق كل حلاوة » نزهة المشتاق ، المجلد الأول ، الصفحة ٢٢٦ .

(١٨) « ونساوهم يستعملونه فى السمن وخصب البدن ولذلك هن فى نهاية السمن وكثرة اللحم . » نزهة المشتاق ، المجلد الأول ، الصفحة ٢٢٦ .

(١٩) « وبها سودانيات طبابخات محسنات تباع الواحدة منهن بمائة مثقال وأكثر تحسن عمل الأطعمة الطيبة من الجوزنيقات والقطايف وأصناف الحلوات وغير ذلك . . » البكرى ، المرجع السابق ، الصفحة ١٥٨ .

الاكتئاب » . وكان المسافرون يهيمنون فى نشوة غامرة من خصورهن النحيلة وأردافهن وصدورهن وأكتافهن الممتلئة ، على حين كانوا فى الوقت نفسه ينعون عليهن تجردهن من الأخلاق . (٢٠)

ومع ذلك فإن أودغست ، ملكة الصحراء ، لم تكن تنتج ما يكفيها من الطعام . فكل ما كانت الواحة تنتجه هو مقدار محدود من الأغذية بمجهود الرقيق لمواجهة استهلاك سكانها ، ولكنها كانت تستورد الجانب الأكبر من احتياجاتها من مواد الترف ، بما فيها الأغذية . وكان باستطاعة التجار المحليين أن يفرضوا ما يشاءون من الأسعار التى يُرغم المسافرون المتعبون على دفعها . وقد قام المرابطون بتدمير هذه المدينة الغربية التى سيطر الجشع التجارى على كل شئ فيها ، حتى على نزوات النساء ، وسقطت فى أيديهم فى عام ١٠٥٠ . (٢١)

وفى الطرف الجنوبى من الطريق كانت تقع مدن السودان الكبيرة - غانة وتمبكت وولاته ثم كانوا فيما بعد . وكانت وولاته تقع عند الطرف الجنوبى لطريق القوافل على مسيرة عشرة أيام من تغازة ، وتمر الرحلة إليها بأكثر مناطق الصحراء قسوة ، فالحر فيها قانظ ، ولا يوجد بها سوى القليل من النخيل ، ولكن السكان كانوا يزرعون القثاء . وكان يقطنها المسوفة الذين يرتدون ملابس مستوردة من مصر . ويقول ابن بطوطة الذى كان يولى النساء الجميلات اهتماماً كبيراً إن نساء وولاته ذوات جمال فائق . (٢٢)

(٢٠) » وبها جوار حسان بيض الألوان همتثنيات القنود لا تنكسر لهن نهود لطاف الخصور ضخام الإرداف واسعات الأكتاف . المرجع نفسه ، الصفحة نفسها .

(٢١) » وفى سنة ست وأربعين غزا عبد الله بن ياسين أودغست ، وهو بلد قايم العمارة مدينة كبيرة فيها أسواق ونخل كثير وأشجار الحناء . المرجع نفسه ، الصفحة ١٦٨ . [الإشارة هنا إلى العام الهجرى ٤٤٦ الذى يقابل العام الميلادى ١٠٥٤ ، وفى هذا اختلاف عماورد بالمتن .]

(٢٢) » وبلدة إيولاتن شديدة الحر وفيها يسير نخلات فى ظلالها البطيخ وماؤهم من أحساء بها ولحم الضأن كثير بها وثياب أهلها حسان مصرية وأكثر السكان بها مسوفة ولنسائها الجمال الفائق وهن أعظم شأنا من الرجال . تحفة النظار » الصفحة ٦٨٧ . [إيولاتن هى وولاته ؛ والمسوفة هم الطوارق أهل اللثام .]

وكانت هذه المدن تعتمد كلية على تجارة الشمال . ويمكن بدرجة ما تفسير ظهورها وسقوطها بما يطرأ من تغيرات على السلطة عند الطرف الشمالى ، فالطريق يفقد أمنه بسبب ظهور قبيلة صحراوية ، وما يفاقمه من دمار ناشئ عن قحولة المنطقة . ونرى ذلك على نحو أفضل فيما يتعلق بتمبكت .

فقد تأسست تمبكت فى عام ١٠٠٠ ، وكانت محلة صغيرة استقر فيها بعض تجار چنى للمتاجرة مع الطوارق ، وسرعان ما برزت أهميتها بسبب موقعها الجغرافى . وهى تقع عندمنحنى النيجر حيث يتوغل النهر فى الصحراء كثيرا ، ويكون عند أقرب نقطة له من واحة الصحراء الفسيحة - توات . لذلك كان « المسافرون يتوقفون هنا . وزاد السكان بمشيئة الله ، وبدأ الناس يبنون لأنفسهم مبانٍ أنيقة . وكانت القوافل القادمة من الشمال والشرق فى طريقها إلى مالى تتوانى فى المعسكر لتكملة مؤونتها وسرعان ما قامت سوق ، واستبدلت بالحاجز المصنوع من أشجار شائكة جافة حظيرة مرتفعة من الحصير أصبحت مكانا يلتقى فيه المسافرون القادمون بالزوارق والجمال . »

هذه هى الميزة الكبيرة التى تمتعت بها تمبكت . فلم تكن هناك مدن كثيرة على غرارها يتحكم موقعها فى التجارة الصحراوية والنهرية ؛ ذلك أن المدن الواقعة فى المنطقة المنخفضة تغمرها المياه فى أثناء الفيضانات ، على حين أن المدن المرتفعة تتعرض للعزلة والجفاف عندما ينخفض النهر . وكان يمكن لچنى التى أسماها دى بوا (٢٣) « لؤلؤة النيجر » أن تكون منافسا لتمبكت لو لم تكن تقع فى منطقة منخفضة . والنيجر ينحنى متجها نحو الجنوب الشرقى قبل وصوله إلى تمبكت ، ثم تنحسر المستنقعات التى تتكون بسبب ارتفاع منسوب المياه لتصبح مجرى محدداً للغاية . وتمبكت نفسها تنعزل عن النهر عندما

(٢٣) فليكس دى بوا : صاحب الكتاب الممتع Tombouctou la Mystérieuse (تمبكت

الغامضة) الذى يتضمن سرداً لتاريخ المنطقة ووصفاً لمدينة وسجلا بالنطق الفعلى لأسماء سلاطين السنغى . أنظر الحاشية ١ - ١٤ أعلاه .

تنخفض المياه ، ولكن قناة تصلها بقرية كابرة^(٢٤) التي تبعد عنها مسافة ثمانية أميال ، وتضطلع بمسؤولية التجارة النهرية عندما تنخفض المياه .

وفى عهد منساموسى كانت تمبكت قد أصبحت مدينة هامة ، وزادها موسى أهمية عندما بنى بها مسجد سنكورى^(٢٥) ، ولكنها لم تصل إلى أوج مجدها إلا فى عهد سلاطين السنغى . فمع انتقال السلطة السياسية إلى شرق منحى النيجر أصبحت تمبكت ، المركز التجارى الأول لبلاد السودان . ومع ذلك احتفظت تمبكت طوال تاريخها بالسِمات المميزة لمدينة صحراوية . ويقول ابن بطوطة إن تمبكت لها مظهر مدن الطوارق ، وإن معظم سكانها ينتمون إلى قبيلة المسوفة .^(٢٦) كذلك يذكر بارث - الذى زار المدينة فى الفترة ٣-١٨٥٤ - أن تمبكت خاضعة لنفوذ الطوارق ، وعلى الرغم من مظهر تمبكت كمدينة صحراوية فقد كانت ذات أهمية كبيرة نتيجة لتحكمها خلال العصور الوسطى فى توزيع الواردات القادمة من الشمال . فبسبب وقوعها عند نقطة حيوية على النهر ، فإن تجار الشمال عندما يصلون إليها يستطيعون الاستفادة من النهر فى توزيع بضائعهم . وقد أدرك أباطرة بلاد السودان منذ وقت مبكر أهمية النقل النهري وبذلوا ما فى وسعهم لتنظيم هذه الوسيلة الحيوية من وسائل الاتصال ، فكان هناك موظفون مهمتهم تزويد المسافرين بحاجتهم من القوارب ، وجمع المكوس ممن يستخدمون النهر فى أغراض النقل . وقد تمتعت تمبكت وكابرة بموقع نموذجى ساعدهما على التحكم فى التجارة .

(٢٤) ورد فى طبعتى الرياض والمغرب لكتاب ليو الأفريقى وصف إفريقيا أن كابرة تبعد إثنى عشر ميلاً عن تمبكت . وجاء اسمها « كابر » فى النص العربى لكتاب تاريخ السودان . كذلك ورد بحاشية فى الصفحة ٢٥ من الترجمة الفرنسية لهذا الكتاب أنها كتبت فى إحدى مخطوطات النص العربى « كبيرة » وليس كابر .

(٢٥) هو مسجد تمبكت الكبير الذى بنى فى عهد منسا موسى فى عام ١٣٢٥ ، وقد قام ببنائه عربى من الأندلس صاحب المنسا فى عودته من مكة . هدمه القاضى العاقب فى عهد أسكيا داود وبنى مكانه مسجداً جديداً ما زالت أطلاله باقية حتى اليوم .

(٢٦) « ثم سافرنا منها إلى تَنبُكُتو ... وبينها وبين النيل أربعة أميال وأكثر سكانها مسوفة أهل اللثام » تحفة النظار ، الصفحة ٧٠١ [ويقصد ابن بطوطة بالنيل هنا نهر النيجر ، أما المسوفة فهم الطوارق .]

وميزة أخرى تمتعت بها تمبكت هي شهرتها على نطاق بلاد السودان كمركز للدراسات الإسلامية . ويثير ذلك قدراً من الدهشة لأن غاؤ وجدت بها مساجد ومدارس حتى قبل أن تبدأ تمبكت حياتها . ولكن تمبكت كانت على اتصال أوثق مع الشمال ، وتوجد بها دائماً أعداد كبيرة من البربر والطوارق ، إلى جانب طبقة من المرابطين من أهل موريتانيا لها وضع سائد في المدينة . وهذه الطبقة هي التي قَدِّمَتْ إلى تمبكت خيرة ما لديها من أساتذة وفقهاء عظام ، وكانت مصدر شهرتها كمركز للدراسات الإسلامية ، مما جذب إليها طبقة من التجار الأثرياء لديها الرغبة في تشجيع العلماء .

وأدى سقوط حكم الأساكي (٢٧) إلى تدهور تمبكت : فالباشوات عجزوا عن حفظ النظام ، والبمبرة والفولاني والطوارق أخذوا يغيرون عليها بصورة مستمرة . ونتيجة لذلك أخذ التفوق التجاري يتسلل في بطن إلى مدن الهوسا ، حتى أن القوافل القادمة كانت وقت زيارة بارث لغرب إفريقية قد أصبحت صغيرة الحجم ، وبارث يعتبر التقديرات التي توضع في شمال إفريقية ، مثل تقديرات چاكسون ، بأن متوسط القافلة عشرة آلاف جمل ، تقديرات تنطوي على مبالغاة شديدة . ففي أيامه نادراً ما كانت أية قافلة تزيد على ألف جمل ، بل إن عدد جمال القافلة العادية كان يتراوح بين السبعين والمائة .

وكان لمدن السودان بعض السمات المميزة . ففي غالبيتها تعيش جاليات أجنبية كبيرة ترتبط بالطبقات الحاكمة بروابط الدين ، وفي بعض الأحيان بروابط المصاهرة . (٢٨) ولكن رجال الأعمال والعلماء المقيمين فيها لم يكونوا سواء بحكم الأصول العرقية أو العقيدة مؤيدين للدول الزنجية ، بل كانوا في كل مناسبة على استعداد للتضحية بمصالح الدولة من أجل مصالح الشماليين .

(٢٧) بعد الغزو المراكشي ، وانهار دولة السنغى ، وتولى باشوات مراكشيين حكم البلاد .

(٢٨) « فوصلت إلى مدينة مالى .. وقصدت محمد بن الفقيه ... وكان الفقيه متزوجاً بيئت عم

السلطان فكانت تتفقدا بالطعام وغيره » تحفة النظار ، الصفحة ٦٩١ .

وُجِدَتْ بهذه المدن أحياء خاصة للمقيمين الأجانب . ففي غانة ، كما يقول البكرى ، كانت تفصل المدينة الوثنية عن المدينة الإسلامية منطقة شجيرات كثيفة يتخللها طريق يصل بينهما .^(٢٩) وهكذا كان التجار الأجانب المسلمون يعيشون في منطقة مختلفة ؛ وفي مدن معينة مثل غاو كانوا يعيشون على الضفة الأخرى للنهر . وكانت لهم حياتهم الخاصة ، شأنهم شأن التجار الأوروبيين الذين ظلوا حتى وقت قريب يعيشون على الساحل . والحقيقة أنه كان هناك تشابه صارخ بين التاجر القادم من شمال إفريقيا المقيم في بلاد السودان والتاجر الأوروبي على الساحل . فكلاهما انتهى إلى نوع من حياة العزلة بعيدا عن الجماعة التي يستخلص منها أرباحه . وكانت الحياة الاجتماعية لهؤلاء التجار تقتصر على استضافة بعضهم بعضا ، أو استضافة أعيان البلد . وكان الزائر « الأبيض » الرفيع الشأن يلقي دائما ما يلقيه الملوك من ترحيب وضيافة وتكريم . وكان يوجد في مدن الهوسا قنصل للعرب يرعى مصالح التجار الأجانب .

وفي القرن التاسع عشر كانت تجارة شمال إفريقيا بأسرها تقريبا في أيدي تجار غدامس وتوات . وعلى الرغم مما لحق بهذه التجارة من أضرار نتيجة لبزوغ نجم الفولاني وظهور القبائل الصحراوية وإلغاء تجارة الرقيق ، فقد كان لا يزال لها شأنها . ومن حين لآخر كان يشاهد على الطريق تاجر مراكشي يدعى أنه من الأشراف يسافر مع « سُرِّيَّته »^(٣٠) ومرافقاتها الكثيرات . وكان لهؤلاء التجار الأغنياء ، شأن اليهود في أوروبا العصور الوسطى ، نفوذ كبير

(٢٩) « مدينة غانا مدينتان سهليتان أحدهما المدينة التي يسكنها المسلمون وهي مدينة كبيرة فيها إثنا عشر مسجدا .. ومدينة الملك على ستة أميال من هذه وتسمى بالغابة والمساكن بينهما متصلة ... » البكرى ، المرجع السابق ، الصفحة ١٧٥ .

« وقد ذكر في تقويم البلدان : أنها مدينتان على ضفتي نيلها ، إحداهما يسكنها المسلمون والثانية يسكنها الكفار ... » صبيح الأعشى ، الجزء الخامس ، الصفحة ٤٨٢ .

(٣٠) وردت في المتن « siriya » والسُرِّيَّة كلمة عربية صحيحة ، جمعها سرارى ، ومعناها المرأة الملوكة التي يتخذها الرجل للذاته الجسدية بطريقة غير شرعية . [انظر ، جبران مسعود ، الرائد ، مادة « السُرِّيَّة » ، الصفحة ٨١٩ .]

على سياسات البلد استطاعوا تحقيقه عن طريق تقديم القروض للأمرء المحليين . من ذلك أن الأمير الكبير والقدير عبد المؤمن^(٣١) كان مدينا للتاجر المغربي عبد الخالق بثلاثين مليون كوردي . والعلاقة مع الأهالي كانت دائما على مستويين : فعلى المستوى الأعلى كان باستطاعه التجار ، بسبب ثروتهم ومعرفتهم بالعالم الخارجي وانتمائهم إلى نظام اجتماعي أجنبي ، إقامة علاقات ودية مع أفراد الأسرة الملكية وكبار الأعيان . وهكذا يمكن مقارنة مكانة دي سوزا في وايداح بمكانة التاجر محمد بن الفقيه^(٣٢) في بلاط المنسا . أما على المستوى الأدنى فكانت علاقتهم لا تتعدى وكلاءهم ومن يعيش معهم من النساء . وكان لهؤلاء العملاء أهمية كبيرة . إذ أن التاجر الأجنبي الذي يعيش على الساحل أو في العاصمة بعيدا عن وطنه ، كان يعتمد كلية على وكيله في الحصول على البضائع وتصريفها . وعلى غرار قباطنة السفن والوسطاء الذين اكتسبوا نفوذا على الساحل ، كان التجار من الونقارة بالمثل عنصرا قويا في مجتمع السودان .

وربما كان الونقارة أكثر الشعوب السودانية غربة . فهم على غرار النيو^(٣٣) الذين جاؤا بعدهم كانوا جميعهم تقريبا مسلمين وتجارا محترفين يقومون بجمع المنتجات وبيعها في المدينة . وقد ساد الاعتقاد طويلا بأن بلاد الونقارة هي التي

(٣١) عبد المؤمن بن علي : مؤسس دولة الموحدين في المغرب . في عام ١١٤٥ تمكنت طائفة جديدة من الموحدين تحت قيادته من محاصرة فلول المرابطين في فاس ، ثم الاستيلاء عليها . أسس مملكة جديدة امتدت من المحيط الأطلسي إلى سرت ، ولكنها لم تعمر أكثر من مائة عام . [أنظر ، المغرب الكبير ، المرجع السابق ، الصفحات ٥١٧ وما بعدها ؛ وكذلك تجارة الذهب وسكان المغرب الكبير ، الصفحتين ١٤٥ ، ١٤٦ - وهو ترجمة عربية صدرت في ليبيا لكتاب بوقل ، المرجع السابق .]

(٣٢) محمد بن الفقيه زوج بنت عم المنسا سليمان سلطان مالي الذي حكم في الفترة ١٣٤١ - ١٣٦٠ . أنظر ، الحاشية ١١-٢٨ أعلاه . وبخصوص أسرة دي سوزا في وايداح ، أنظر الصفحات الأخيرة من المتن بالفصل السابع أعلاه .

(٣٣) النيو : إحدى المجموعات العرقية في ساحل العاج ، وبينهم نسبة كبيرة من المسلمين .

يجئ منها الذهب ، (٣٤) ففي أغلب الأحوال كان هؤلاء الوسطاء هم الذين يجلبون الذهب لبيعه في المدن السودانية . وكان التجار من الونقارة يعملون لحساب رؤسائهم في شمال إفريقية ، بيد أنهم كوسطاء حققوا أرباحاً كبيرة استثمروها في تجارة الرقيق . وقد أصبحوا بوجه عام من المسلمين واتخذوا عادات رؤسائهم ، وكانوا أساساً أداة في انتشار الإسلام فاقت في أهميتها الدول المنظمة . وكانت مصالحتهم في انتشار الإسلام ذات ثلاثة أوجه : (١) كانت الجماعات التي تعتنق الإسلام توفر سوقاً مأمونة لبيع التمام : (٢) كان الونقارة يشجعون بيع القطن ، ذلك أن مزارع القطن الواسعة التي بدأوها بعمل الرقيق كانت تحقق أرباحاً كبيرة ؛ (٣) كانت الاحتياجات المادية للسكان الذين يعتنقون الإسلام تضمن للونقارة سوقاً مواتية مطردة الاتساع . وهكذا فإن انتشار الإسلام في غرب إفريقية كان يرجع إلى الحماسة الدينية لدى بعض المجاهدين ، بقدر ما يرجع إلى اعتبارات الربح المجردة لدى الونقارة .

فما الدور التي قامت به البيوت التجارية الكبيرة في عواصم الدول في ذلك كله ؟ كانت هذه البيوت تعمل أساساً كوسطاء بين التجار الإفريقيين والعالم الخارجي ، وهي التي تقرر الصادرات والواردات وكمية كل صنف . فضلاً عن ذلك فإنها تتحكم في أسعار الصرف ، لأنها على غرار المؤسسات التجارية في العصور اللاحقة كان بإمكانها ، مادامت واردات البلاد وصادراتها في أيديها ، أن تحدد أين ينبغي تحقيق الأرباح .

وقد تغير نظام التجارة من التجارة الصامتة (٣٥) التي وصفها هيروبوليت

(٣٤) « وتتصل مملكته (ملك غانة) وأرضه بأرض ونقارة وهي بلاد التبر المذكورة الموصوفة به كثرة وطيباً ... » نزهة المشتاق ، المجلد الأول ، الصفحة ٢٣ .

(٣٥) أنظر الحاشية ١ - ٤ أعلاه وبها إشارة إلى التجارة الصامتة واقتباس واف بشأنها عن ياقوت الحموي ، كتاب معجم البلدان . ونورد هنا اقتباساً آخر عن صبيح الأعشى : « قال ابن الصائغ : وحدث أن من أمم السودان الداخلة من لا يظهر لهم بل إذا جاء التجار بالملح وضعوه ثم غابوا ، فيجئ السودان فيضعون إزاءه الذهب ، فإذا أخذ التجار الذهب ، أخذ السودان الملح . » الجزء الخامس ، الصفحة ٢٩١ .

إلى المبادلات التجارية المعقدة القائمة على الائتمان . وكانت التجارة الصامتة فعالة في الذهب بوجه خاص . وقد جرت عادة تجار الشمال أن يذهبوا إلى المناطق التي يوجد بها الذهب ، ويضعون كمية البضائع التي يريدون بيعها ، ويضع السكان المحليون مقدار الذهب الذي هم على استعداد لدفعه ، وإذا اتفق على ترتيب يقبله الطرفان يتم التبادل .

فماذا كانت أسباب ممارسة « التجارة الصامتة » ؟ ليس من اليسير معرفة هذه الأسباب : فصعوبات اللغة كان يمكن التغلب عليها ، وإذا كان الخوف هو السبب فلا بد أن يكون ذلك كافيا لكي تمتنع التجارة أصلا . ربما يكون التفسير المعقول الوحيد هو أن السكان المحليين لم يكونوا يرغبون في الكشف عن مصدر الذهب ، وأن أفضل طريقة اعتقدوا أنها تحقق لهم ذلك هي تجنب كل اتصال . وقد يفسر ذلك لماذا قطعت العلاقات التجارية مع الونقارة عندما أسروا إثنين من الأهالي وأخذوهما إلى مالى . فالأهالي كان باستطاعتهم إرغام الونقارة على إعادة الرجلين قبل أن يستأنفوا التجارة . وقد تكون هذه أول محاولة للمقاطعة ، ولاستخدام الاحتكار بشكل فعال من جانب شعب بدائي استطاع عن طريق منع التوريد أن يحقق مراميه . ويمكن أن نلمس أن ذلك كان أساسا محاولة للمحافظة على الاحتكار من حقيقة أن الصينيين قد مارسوا الأسلوب نفسه فيما يتعلق بتجارة الحرير .

وبصرف النظر عن العنصر الاحتكاري في « التجارة الصامتة » فإن التقدم في التجارة مع الشمال ربما لم يكن أقل من مثيله في أى مكان آخر من العالم ، وليس في ذلك ما يثير الدهشة ، إذ أن التجارة كانت بأكملها في أيدي العرب ، وتسيطر عليها بضع شركات تجارية . فتنظيم قافلة تجارية وتوفير دليل لها ، ثم المضى في رحلة تستغرق عادة ستة أشهر ، وتوزيع البضائع في الداخل من خلال التجار المحليين ، وشراء الذهب والعاج والزباد والرقيق ، كل ذلك يتطلب خبرة ائتمانية وجسارة وكفاءة تنظيمية . وكان ذلك في الحقيقة مشروعا ينطوى على المغامرة وذا طبيعة رأسمالية عالية . فالمخاطر التي تحف بسفر الأفراد على مسؤوليتهم الخاصة لا بد أنها كانت بالغة الضخامة ، كما أن رأس المال اللازم

كان من شأنه ألا يبقى داخل التجارة سوى الأفراد نوى الثراء الشديد والموغلين في المخاطرة .

وكان أشهر البيوت التجارية التي نعرف عنها شيئاً بيت **إخوان المقرئ** . (٣٦) وكان المركز الرئيسى لهذا البيت التجارى الكبير فى سجلماسة ، المحطة التي تبدأ منها القوافل . وقد أقام إثنان منهما فى تلمسان وإثنان آخران فى ولاته . وكان الأخوان المقيمان فى ولاته مسؤولين عن الطرف الجنوبى لطريق القوافل فى السودان ، ومن مهامهما تنظيم تصدير المنتجات السودانية . أما الطرف الموجود عند تلمسان فكان يشرف على الواردات من شمال إفريقيا وأوروبا والشرق الأوسط . ولكن المركز الحقيقى كان فى سجلماسة ؛ حيث يمكن مقارنة أثمان منتجات كل من أوروبا وبلاد السودان ، واتخاذ قرار بشأن الأصناف المطلوبة والأثمان التي يمكن أن تباع بها . وقد حاول إخوان المقرئ ، على غرار المغامرين التجاريين فيما بعد ، التوغل فى الداخل ، بل إن أحدهما وصل فى عام ١٣٥٢ إلى العاصمة مendenغوحيث لم يواجه أية متاعب لأن البيت التجارى التابع لهم كان معروفاً جيداً ، كما كان لهم وكيل فيها .

أما الجالية التجارية العربية فى مالى فكانت تجمع بين أفرادها رابطة وثيقة ولها تنظيمها الخاص بها . وفى عهد سليمان كان رئيس الجالية العربية فى مالى هو **محمد بن الفقيه الجزولى** (٣٧) ، وهو مراكشى تزوج بابنة عم منسا سليمان . وكان من بين أعضائها البارزين الآخرين **عبد الوكيل المقرئ** ، المتزوج

(٣٦) تكون بيت تجارى من خمسة إخوة يسمون المقرئ ، وكانوا شركاء متساوين ، يقيم إثنان منهم فى ولاته حيث يجمعان العاج والذهب ، وفى بعض الأحيان يزوران الأسواق الهامة فى الجنوب ، ويقيم إثنان آخران فى تلمسان مهتمهما تزويد الآخرين بالمنتجات الأوروبية ، أما الخامس فهو رئيس المؤسسة ومقره فى سجلماسة التي كانت لا تزال أهم مراكز الشمال ، حيث يراقب الأسواق عن قرب ويخبر إخوته بتقلبات أسعار البضائع .

(٣٧) « وكنت كتبت قبل ذلك لجماعة البيضان وكبيرهم محمد بن الفقيه الجزولى وشمس الدين بن النقويش المصرى ليكتبوا لى دارا ... » تحفة النظر ، الصفحة ٦٩٠ .

بابنة محمد بن الفقيه ، وشمس الدين بن النقويش المصري . (٣٨)

ولم تكن مصالح المصريين في السودان بالأمر الجديد . ويذكر **حدود العالم** (٣٩) أن التجار المصريين اعتادوا زيارة بلاد السودان ومعهم الملح والرصاص لبيعهما مقابل وزنهما ذهباً ، كما اعتادوا أيضاً سرقة أطفال الزنوج وخصيهم وبيعهم في مصر . وكانت واحة الخارجة هي منفذ مصر إلى بلاد السودان ، وقد أشار ابن حوقل إلى تجارتها مع بلاد السودان . (٤٠) ويؤكد السودان بدورهم العلاقات القديمة مع مصر . وكانت غاو بصفة خاصة على علاقة وثيقة بواحة الخارجة ، ولكن يبدو أن النشاط التجاري مع المصريين قد توقف بعد سقوط غانة . وقد أراد منسا موسى إحياء المصالح المصرية للحد من السيطرة الشمالية ، لذلك روج للحج على نطاق واسع ، فعادت بلاد السودان إلى ذاكرة التجار المصريين والسوريين ، ولم تكد تمضي بضعة سنوات حتى أصبح الشرق منافساً للشمال .

ويذكر ابن خلدون أنه عندما زار بسكرة في عام ١٣٥٣ (٧٥٤هـ) التقى

(٣٨) الاسم الصحيح لعبد الوكيل المقرئ هو « الفقيه المقرئ عبد الواحد » وهو صهر محمد بن الفقيه .

« وجاء صهره الفقيه المقرئ عبد الواحد بشمعة وطعام ثم جاء ابن الفقيه إلى من الغد وشمس الدين بن النقويش ، وعلى الزودي المراكشي ، وهو من الطلبة ... » تحفة النظر ، الصفحة ٦٩١ .

(٣٩) **حدود العالم** : مخطوطة في الجغرافيا ، مؤلفها فارسي مجهول الاسم ، وتعرف باسم « مخطوطة يومانسكي » ، وربما كانت أقدم مخطوطة جغرافية بالفارسية .

(٤٠) « حتى يمضي على ظهر الواحات إلى أرض النوبة ، أخذاً إلى البحر المحيط وممتداً إلى حقيقة الغرب بنواحي أرض غانة وأرض أودغست » « وأما الواحات فإنها بلاد كانت معمورة بالمياه والأشجار والقرى والروم قبل فتحها ، وكان يسلك من ظهرها إلى بلاد السودان بالمغرب على الطريق الذي كان يؤخذ ويسلك قديماً من مصر إلى غانة فانقطع » ابن حوقل ، المرجع السابق ، الصفحتان ١٤٣ و ١٤٤ .

بالسفير القادم من تكده الأمير يوسف بن مرزا الذى أبلغه أن قافلة قوامها إثنا عشر ألف جمل قدمت من الشرق ومرت بتكده فى طريقها إلى مالى .^(٤١) ويشكل ذلك فى أى وقت مغامرة تجارية كبيرة ، كما أن دخول التجار العرب الشرقيين إلى هذا المجال قد حطم بصورة فعالة الاحتكار الذى تمتع به حتى ذلك الوقت الإفريقيون الشماليون .

كما أن ملفانتي (عام ١٤٤٧) أفاض كثيرا فى شرح أهمية التجارة الشرقية ، وإن تبين له أن تجار غدامس ومراكش يسيطرون على التجارة . كذلك لم تكن التجارة من حيث قيمتها مما يستهان به . ولما كانت هذه التجارة تتجه إلى تشجيع الاحتكار فقد ترتب عليها تركيز مالى . ويذكر ابن حوقل أنه وجد فى حوزة تاجر من أودغست صكاً قيمته أربعون ألف دينار حصل عليه من تاجر فى سجلماسة .^(٤٢) وكان مضيف ملفانتي فى توات يمتلك ثروة شخصية مقدارها مائة ألف دينار ، وكان أخوه المقيم فى تمبكت أكبر تاجر هناك . كما يذكر ملفانتي أن التجار المصريين اعتابوا القدوم إلى توات وهم فى طريقهم إلى السودان ومعهم قطيع من الأغنام تعدادة نصف مليون .

وهكذا كانت تجارة السودان ذات طابع رأسمالى عالى التنظيم ، وتستهدف تحقيق الربح السريع أكثر مما تستهدف تنمية الإنتاج . وكانت الأرباح تتدفق على خزائن أمراء التجارة فى توات وغدامس وسجلماسة ، ومنها يمولون التجارة . وكان تجار توات يحمون مصالحهم بفرض عمولة مقدارها مائة فى

(٤١) «ولقد قدمت على بسكرة سنة أربع وخمسين أيام السلطان أبى عنان ... ولقيت صاحب تكرت عند يوسف بن مزنى أمير بسكرة وأخبرنى عن استبحار هذا المصرى فى العمارة ومرور السابلة وقال لى اجتاز بنا هذا العام سفر من تجار المشرق إلى بلد مالى كانت ركبهم إثني عشر ألف راحلة وذكر لى غيره أن ذلك هو الشأن فى كل سنة ، وهذا البلد فى طاعة سلطان مالى من السودان » العبر ، المجلد السابع ، الصفحة ٥٢ .

(٤٢) « ولقد رأيت صكا بدين على محمد بن أبى سعدون بأودغست ، وشهد عليه العدول باثني وأربعين ألف دينار » ابن حوقل ، المرجع السابق ، الصفحة ٦٥ .

المائة على جميع العمليات التي يؤدونها للتجار غير المنتمين إلى شركتهم .

والطبيعة الاحتكارية للتجارة فى حاجة إلى تأكيد وتوضيح ، وذلك لأن السودان ، فيما عدا الونقارة ، لم يكونوا يحققون أرباحاً من التجارة . إذ أن التجارة كان يسيطر عليها العرب ، كما كانوا يمولونها ، ولم يكن دور الونقارة يتعدى التوزيع المحلى ، بل إن التمويل القصير الأجل كان يقوم به التجار الأجانب . وهكذا فإن أى شخص فى تمبكت يمتلك جملاً أو جزءاً من جمل كان يمكنه أن يطلب قرضاً فى صورة قماش ، فيقدم إليه الممول الأجنبى القماش ، وبهذا القماش يشتري إما رقيقاً أو ملحاً ، وأى من هاتين السلعتين كان يمكن بيعه بربح كبير . ويمكن للتاجر أن يشارك فى الربح دون أن يستخدم شيئاً سوى رأسماله . وهذا التمويل القصير الأمد هو الأساس الذى تمارس وفقاً له التجارة عند الطرف السودانى . فالتاجر يقدم البضائع والموزع يذهب لبيعها وتسوق البضائع التى يحتاج إليها . ويفضل التسهيلات الائتمانية فى شكل بضائع تجارية كان باستطاعة التاجر الأجنبى التحكم فى تجارة الداخل . ولم يكن ذلك قصراً على الموزعين ، فكلابرتون عرضت عليه سلفة مالية غير محددة المقدار من تجار غدامس ، وكان باستطاعته الحصول على نقود فى كانوا بإعطاء كمبيالة على القنصل البريطانى فى طرابلس .

فما السلع التى كانت بلاد السودان تصدرها ؟ كان الذهب أبرز السلع . وقد رُويت عن تصدير الذهب من بلاد السودان قصص حافلة بالمبالغات . وقد رأينا خيبة أمل أحمد .^(٤٣) وقد قدر بارث التجارة فى الذهب القادم من تمبكت فى منتصف القرن التاسع عشر بعشرين ألف جنيه استرلينى سنوياً . وكان الذهب يجلب من بامبوك أو بورى ، وإن كان أساساً من المدينة الأولى . وحتى

(٤٣) الإشارة هنا إلى أحمد الذهبى سلطان مراکش الذى راودته أحلام ضخمة حول ثراء

نولة السنغى وذهبها والسيطرة على مناجم الملح فيها ، فقرّر غزوها ، ثم جاءت نتائج الحملة هزيمة ومخيبة لأماله . انظر الفصل الخامس أعلاه : الغزو المراكشى .

إذا افترضنا أن التجارة كانت أضخم حجما وقت ازدهار الإمبراطوريات ، فإنها لم تكن كبيرة للغاية . فضلا عن أن المنطقة الغنية بتبر الذهب كانت توجد في السودان الغربى ؛ وبداية من القرن السابع عشر انتقل مركز تجارة بلاد السودان إلى كاتسنا وكانو . وكانت تجارة الرقيق أكثر أهمية حتى من تجارة الذهب . فهذه التجارة كانت توفر الجنود للجيش من مراکش حتى تركيا ، والجواري للحريم أو كخادومات في المنازل ، والخصيان لحراسة الحريم ، والرقيق العاديين لزراعة الأرض . وكانت قافلة الرقيق الطويلة تذهب إلى الشمال وإلى الشرق ، ولذلك فإن كل البلدان العربية تقريبا كان لديها خليط كبير من الدم الزنجى فى سكانها .

وكانت تجارة الرقيق تعنى أن الدول المنظمة تقوم بحملات اعتيادية فى المناطق الوثنية - بلاد لم لم -^(٤٤) لأسرهم . وقد وصف كل من بارث ودينهام حملات أسر الرقيق فى كثير من التفصيل . وعرفنا من البكرى أن غانة اعتادت أن تفعل الشئ نفسه ، وكذلك مالى وسنغى . وترتب على ذلك أن الحروب فى بلاد السودان كانت أساسا غارات من أجل الرقيق ، بل إن الجزية كانت تدفع بالرقيق أكثر مما تدفع بالذهب . فالرقيق أصبح هو العملة الشائعة فى غرب إفريقيا .

وكان للرقيق بطبيعة الحال أهمية بالغة . وكانت كل الممارسات التجارية تجرى فى غرب إفريقيا على أساس ائتمان يتراوح مدته بين شهرين وثلاثة أشهر . والرقيق أفضل وسيلة للدفع للتجار الأجانب . ومن ذلك أن مونتييه الذى باع كمية من البضائع لسلطان سكتو أعطى سندا باثنين وسبعين رقيقا يحصل عليهم فى كانو . ويذكر ليو أيضا أن السلطان فى برنو يشتري الأصناف التى

(٤٤) يقول عنها ابن بطوطة « بلاد الليميين وهى آخر عمالة مالى ... » تحفة النظار ، الصفحة ٦٩٠ . ويسمى البكرى الدمدم « وإذا سار السائر من بلاد كوكو .. انتهى إلى مملكة يقال لها الدمدم يأكلون من وقع إليهم » البكرى ، المرجع السابق ، الصفحة ١٨٣ .

يحتاج إليها من التجار الأجانب ، ثم يخرج في حملة لأسر الرقيق ، فإذا استطاع الحصول على عدد كاف دفعه للتجار ثمنا للبضائع التي اشتراها ، فإذا لم يتمكن فعليهم الانتظار حتى العام القادم والصلاة من أجل نجاح حملة السلطان القادمة . (٤٥)

وصنف آخر أكثر إثارة هو قط الزباد . فهذا الحيوان البرى فى غرب إفريقية كان يصدر فى أعداد كبيرة إلى شمال إفريقية لأنه ينتج إحدى مواد الترف العربى التى يشتد الطلب عليها - وهى المسك - ويتم الحصول على المسك بضرب القط حتى يفرزه . وتجدر الإشارة إلى صنفين آخرين ، أحدهما الصمغ . ويذكر البكرى أن المملكة العربية فى أسبانيا تستورد كميات كبيرة من الصمغ من غرب إفريقية . (٤٦) والثانى هو العاج ، ويصدر أساسا إلى أسواق شمال إفريقية . وكانت تجارة غرب إفريقية مع أوروبا أيضا تتكون من العاج والصمغ والرقيق .

فما البضائع التى كانت بلاد السودان تستوردها ؟ ان استقرار تجارة الواردات من الشمال يدعو إلى الدهشة . وكانت الأصناف الأساسية منذ البداية

(٤٥) « لكن الملك الحالى لهذه البلاد جاء بتجار من بلاد البربر ليأتوه بخيل يستبدلونها بعبيد ، يأخذون مقابل كل فرس خمسة عشر أو عشرين عبدا ، فكان يشن الغارة على العدو بهذه الخيل ، ويترك التجار ينتظرونه إلى عودته . وربما مكثوا فى انتظاره شهرين أو ثلاثة أشهر ، وهم على نفقة فى هذه المدن . وعند عودته يجلب معه أحيانا من العبيد ما يكفى لأداء المبلغ الواجب للتجار ، وأحيانا يضطر التجار إلى انتظار السنة الموالية لأن الملك لم يكن له من العبيد ما يفى بالثمن ، فهذه الغارة لا يمكن القيام بها دون خطر إلا مرة واحدة فى السنة » وصف إفريقيا ، طبعة المغرب ، الجزء الثانى ، الصفحتان ١٧٦ و ١٧٧ .

(٤٦) « ثم تسير منه إلى شرف عال مشرف على أودغست فيه طير كثير - وفيه أشجار الصمغ الذى يجلب إلى الأندلس يصمغ بها الديباج » ، البكرى ، المرجع السابق ، الصفحتان ١٥٧ و ١٥٨ .

هى الملح والخيول والملابس والكتب ، ومجموعة متنوعة من البضائع الأوروبية بدءا من السيوف من مصانع سولنجن فى ألمانيا إلى المرايا والزجاج من البندقية . وكان الملح أهمها جميعاً لانعدام وجوده فى أى مكان فى غرب إفريقيا . وكانت الدول القوية ، مثل غاو وفرنو ، تتحكم فى مناجم الملح بالصحراء الكبرى - ففرنو تتحكم فى مناجم بلما ، وغاو فى مناجم تغازة وفيما بعد فى مناجم تاودينى . وقد أصبح الملح سلعة مربحة للغاية بسبب بعد مناجمه عن مراكز الاستهلاك الرئيسية ، وصعوبات نقله ، والطلب الهائل عليه مع قلة الكميات المعروضة منه . ويقول إبن بطوطة إن حمولة جمل من الملح كانت تساوى فى ولاته ما بين ثمانية وعشرة مثاقيل أودنانير ذهبية ، وفى مالى كانت تباع بمبلغ يتراوح بين عشرين وثلاثين دينارا ، وقد يصل إلى أربعين دينارا فى بعض الأحيان . (٤٧)

وكان ملح تاودينى مكوناً من خمس طبقات ؛ والطبقة الرابعة منها خليط من الأسود والأبيض وهى أفضل الطبقات . وفى تمبكت كان ثمن لوح الملح بين ثلاثة آلاف وستة آلاف ودعة ، تبعا لما إذا كانت القوافل قد وصلت أم لا . ويصف بارث فى شئ من التفصيل الأساليب المعقدة لتجارة الملح . وتجار غدامس الذين يتحكمون فى هذه التجارة كانوا يشترون التوركيدى (٤٨) فى كانو ، ثم يمشون إلى أروان حيث يبادلونه بالملح بسعر ست قطع من التوركيدى لكل لوح من الملح ، ثم يأخذون الملح إلى تمبكت حيث يباع بستة مثاقيل لكل ثمانية ألواح من الملح . بل إن ثمنه أعلى من ذلك فى سانساندينغ حيث يبادل لوح الملح

(٤٧) « فيحملون منها الملح ويبيع الجمل منه بايوالاتن بعشرة مثاقيل إلى ثمانية ، وبمدينة مالى بثلاثين مثقالا إلى عشرين وربما انتهى إلى أربعين مثقالا . وبالملاح يتصارف السودان كما يتصارف بالذهب والفضة ، يقطعونه قطعا ويتبايعون به . » تحفة النظار ، الصفحة ٦٨٤ .

(٤٨) التوركيدى : نوع من القماش كان ينسج فى كانو ، وشاع استعماله كعملة فى تمبكت .

بمثقال . ومرجع ذلك أساسا تكلفة النقل ؛ فالمالح يتم تفريغهُ من فوق ظهور الجمال في جافربى ، ومن هناك يحمل على ظهور الحمير . أما الدول الجنوبية ذات الموقع غير الملائم فكان عليها أن تعتمد على غاو وتمبكت من أجل الحصول على المالح . وكانت ألواح المالح تجزأ إلى قطع أصغر يأخذها التجار المحليون إلى الداخل . وكان التحكم فى مناجم المالح يعنى السيطرة الاقتصادية على بلاد السودان . والحقيقة أن رغبة أحمد الذهبى فى استغلال احتكار المالح والسيطرة على تجارة بلاد السودان هى التى دفعته إلى الغزو المراكشى . لهذه الأسباب كان المالح غالى الثمن ويكاد أن يساوى مثل وزنه ذهباً .

والحصان كان صنفاً هاماً آخر . فالخيول الأصيلة لم تكن توجد فى غرب بلاد السودان ، بل إن البغال كانت تجلب إلى بلاد الهوسا عن طريق الحجاج . وفيما بعد أصبحت الخيول نادرة ، وترتب على ندرتها ارتفاع كبير فى أثمانها . فدولة السنغى ، فى قمة مجدها ، لم يكن لديها سوى أربعة آلاف حصان ، فى حين كانت لديها أعداد كبيرة من المشاة . ومع ذلك فإن الحصان هو الذى أعطى الشماليين ميزة على جيرانهم الوثنيين . وكانت الخيول تجلب من الشمال والشرق ، وفى السودان كانت أثمانها ، استناداً إلى ليو ، تصل إلى عشرة أمثال أثمانها فى بلادها الأصلية .^(٤٩) ويمكن أن نلمس أهمية الخيول من الرعاية التى كانت توفرها لها الإمبراطوريات السودانية . فكعت ، على سبيل المثال ، يذكر أن الاسطبلات الملكية فى غانة كان بها ألف حصان . « ويقال إن له ألف خيل مربوطين فى داره عادة معروفة إن مات واحد منهم فى صبح جئ بأخر مكانه عوضه قبل المساء وفى الليل كذلك ولا ينام واحد منهم إلا على زربية

(٤٩) « لا يوجد فى هذه البلاد من الخيل غير البرانين الصغيرة ... أما الجياد فتأتى من بلاد البربر ، تصل مع القافلة ثم تعرض بعد عشرة أيام أو اثنى عشر يوماً على الملك ليأخذ منها العدد الذى يريده ويدفع فيه ثمناً مناسباً .» وصف إفريقيا ، طبعة المغرب ، الجزء الثانى ، الصفحتان ١٦٦ و ١٦٧ .

ولا يربط إلا بحريز فى عنقه وفى رجله ولكل منهم أنية من النحاس يبول فيها لا يقطر من بوله على الأرض قطرة إلا فى الإناء لا فى ليل ولا فى نهار ولا ترى زبلا واحدا تحت واحد منهم ولكل منهم من الخدمة ثلاثة أنفس يجلسون تحته واحد منهم يقوم بعلفه وواحد منهم بسقيه وواحد منهم موكل على رصد بوله وحمل زبله .»^(٥٠) وفى سنغى كانت هناك قبيلة خاصة بالخيول ، وكانت لكانو وكاتسنا تجارة ناجحة مع الجنوب فى الخيول .

كما كانت القوافل تنقل إلى الجنوب النحاس والملابس المطرزة والدمقس وزجاج البندقية والرصاص ، والصلب والسيوف من سولنجن ، والبنادق فيما بعد . ويقول ليو إن الكتب كانت صنفاً هاماً وإن الإفريقيين أحبوا أكثر من أى شعب آخر ، وإنهم كانوا يستوردونها بأعداد كبيرة .^(٥١)

وبينما استحوذت العلاقات التجارية الخارجية على اهتمام كبير ، فإن التجارة الداخلية التى أهملت كانت أعظم أهمية . وأياً ما كانت العلاقات السياسية لدول السودان فإن هذه الدول نادراً ما كانت تتدخل فى شؤون القوافل التجارية . ويذكر بارث أنه على الرغم من أن ممالك الهوسا المستقلة كانت تحارب الفولانى ، فإنها كانت تسمح للقوافل بالمرور دون أن تتعرض لها . وقد برزت فى هذه التجارة الداخلية ثلاث جماعات - الونقارة والديولا والهوسا . ويذكر ليو أن الونقارة - وهم بلد يضعه ضمن بلاد الهوسا - كانوا يتاجرون مع بلاد بعيدة .^(٥٢) وحتى فى المناطق التى يتعذر استخدام الحيوانات فيها كانت

(٥٠) تاريخ الفتاش ، الصفحة ٤١ .

(٥١) « يوجد فى تومبوكتو العديد من القضاة والعلماء والأئمة .. ويبيع هنا الكثير من الكتب المخطوطة التى تلتى من بلاد البربر . ويجنى من هذا البيع ربح يفوق كل بقية السلع . » وصف إفريقيا ، طبعه الرياض ، الصفحة ٥٤١ .

(٥٢) « والسكان أغنياء كثيراً لأنهم يذهبون مع بضائعهم لأقطار بعيدة ولأنهم يجاورون من الجنوب ، البلاد التى يوجد بها الذهب بكميات كبيرة » المرجع نفسه ، الصفحة ٥٥٢ .

البضائع تحمل فوق رؤوس الحمالين .^(٥٢) ونجد تأييداً لذلك أيضاً لدى بارث الذى كتب بعد ليو بثلاثة قرون . فاستناداً إليه كان تجار الهوسا يذهبون إلى برنو ومعهم أعداد كبيرة من الحمالين يحملون على رؤوسهم شحنات الكولا والتبغ والقطن والأقمشة والملابس ، بل كانوا يزورون دارفور ومعهم التوركيدي والريجا لمبادلتها بنحاسها وحميرها .

وربما كان الهوسا أكثر الجماعات الثلاث أهمية . فموقعهم الجغرافى على جانب الطريق الممتد من الشمال إلى الجنوب، وقربهم من برنو وبلاد اليوربا ، وفرا لهم ميزة كبيرة . كما أن خصوبة التربة وكدح الشعب سمحا لهم بالاستفادة من هذه الميزة إلى أقصى درجة . وكانت كاتسنا وكانو من أكثر مدنها تقدما . ويذكر ليو الإفريقى أن كاتسنا قرية صغيرة ليس بها صناعة وسكانها فقراء وجهلة .^(٥٤) ومع ذلك فإنها برزت فى ميدان التجارة عند نهاية القرن السابع عشر . فبفضل موقعها وطيب هوائها أصبحت لها ميزة على منافستها العظيمة كانو . وبينما كان المرء يرغب على استخدام الحمار للسفر من كانو جنوباً ، فإنه كان يمكنه استخدام الجمل من كاتسنا . كما أن كاتسنا أقرب إلى الشمال ، ومن ثم أكثر ملائمة للقوافل التجارية القادمة من الشمال . كذلك كان لدى كاتسنا صناعة هامة متخصصة فى المنتجات الجلدية والسروج التى اشتهرت بها على نطاق غرب إفريقية .

غير أن كانو كانت أهم مدن الهوسا . ويتحدث ليو عن تجارها المتمدنين الأثرياء ، وعن سورها المبنى من الطين .^(٥٥) وقد تدهورت أهميتها بسبب

(٥٢) « ويضطر تجار وانغارة ، حينما يسافرون لبلاد الذهب ، أن يجتازوا جبالا عالية ووعرة لا تستطيع حيوانات النقل اجتيازها فينظمون أنفسهم كالتالى : يحمل عبيدهم على رؤوسهم البضائع والأشياء الضرورية لهم ، والموضوعة فى قشور قرع عريضة وعميقة . ويستطيع كل عبد أن يقطع عشرة أميال سيرا وحتى أكثر من ذلك مع حمل مقداره مائة رطل على الرأس .» المرجع نفسه ، الصفحة ٥٥٢ .

(٥٤) « وكل الأماكن المسكونة فى هذا القطر هي قري صغيرة مؤلفة من أكواخ القش ولجميعها منظر كرية .. وهنا يجتمع الفقر والدناءة.» المرجع نفسه ، الصفحة ٥٥٠ .

(٥٥) « ولها جدار سور ، مبنى من عواميد ومن طين . والبيوت مبنية من نفس المواد . ويتألف السكان من صناع متمدنين ومن تجار أغنياء .» المرجع نفسه ، الصفحة نفسها .

الحروب المستمرة التي أفقدت القوافل أمنها ، والضرائب الباهظة التي يفرضها الحكام . وانتقل التجار إلى كاتسنا . وفي القرن التاسع عشر حدثت حركة في الاتجاه الآخر ، فتحت حكم الفولاني أصبحت كاتسنا العاصمة العظيمة لبلاد السودان . وكانت الميزة التي تتمتع بها كاتسنا ذات وجهين : فقد كانت أعظم مدينة صناعية داخل إفريقية ، كما كانت مركزاً تجارياً عظيماً . ونظراً لوقوعها في أكثر مناطق غرب إفريقية خصوبة كان باستطاعتها أن تفي باحتياجاتها من الطعام ، وكذلك باحتياجات صناعاتها من المواد الأولية . كما أن أسوارها التي بلغ محيطها سبعة أميال ، كانت تعطي مواطنيها شعوراً بالأمن .

ويصف كل من كلاپرتون وبارث كاتسنا بشيئ من التفصيل ، ويقولان إن سكانها يتراوحون بين ثلاثين وأربعين ألف نسمة ، ويصلون خلال موسم العمل إلى ستين ألفاً . وهم خليط يسوده الكانوري والهوسا ، وإن تواجد بها التجار من جميع أنحاء غرب إفريقية وشمالها ، بل من مصر أيضاً . والمدينة تفتقد الجاذبية ، وبيوتها تبنى من الطين والقش ، وهي مقسمة إلى جزأين يفصلهما مستنقع يستخدم كمجرور أيضاً .

وكانت أهمية كاتسنا ترجع إلى تجارتها ، إذ كانت أكبر سوق في بلاد السودان ، وكانت لسوقها أهمية رئيسية ، ويوجد بها موظف لتنظيمها والإشراف عليها . وتم توفير أحياء مستقلة بها للأنواع المختلفة من البضائع . فالماشية تباع في الضواحي ، والأطعمة والخضروات في أحد الأحياء ، والأقمشة سواء المنتجة محلياً أو المستوردة في حي ثان ، والسيوف والسكاكين والأصناف المماثلة في حي ثالث ، والمرايا وأبواب الطعام والأواني الفخارية في حي رابع . وكانت هناك سقائف مستقلة للرقيق بعضها للذكور وبعض للإناث وبعض ثالث للأطفال . وثمان كل صنف يحدده موظف السوق الذي يحصل عن كل صفقة تزيد قيمتها على ثمانمائة كردي على عمولة مقدارها خمسون كردياً . ومن العادات الأخرى التي سادت في سوق كاتسنا أن يقدم البائع خصماً مقداره إثنان في المائة من ثمن البيع « مجلبةً للحظ » ؛ وإذا تم البيع في بيت مستأجر يكون صاحب البيت هو المستفيد . وإذا لم يكن المشتري بعد وصوله إلى بيته

راضيا عن السلعة التي اشتراها يمكنه إعادتها - لأن اسم البائع يطبع على القماش - واسترداد نقوده بعد خصم نسبة مئوية صغيرة .

ولما كانت صناعتنا القطن والجلود هما الصناعتان الأساسيتان في كانو ، فإن منتجاتهما تشكل جزءاً كبيراً من تجارتها . وكانت الأقمشة القطنية تُصدر إلى تمبكت ، وإن لم يكن مباشرة بسبب الأحوال المضطربة ، إذ تنقل أولاً إلى غات وغدامس ، ومنها إلى تمبكت .

وكانت ميزة كانو الكبيرة هي أنها بيت المقاصة الكبير لبلاد السودان . وبينما كانت قيمة المتقال تتقلب بعنف في تمبكت ، وكان حكام برنو يتلاعبون في أسعار الصرف لاستخلاص أكبر قدر من الأرباح ، فإن قيمته ظلت ثابتة في كانو ، لذلك كانت لديها تجارة ترانزيت ذات قيمة كبيرة . وكانت أثواب النوبي والريجا تأتي إلى كانو حيث تباع لتجار الشمال . وقد برز في سوق كانو تجار من النوبي . وكانت هناك سلعة هامة أخرى في تجارة الترانزيت هي ملح النطرون الذي تقوم القوافل القادمة من برنو بنقله إلى جومل ، ومنها ينقل إلى النوبي عن طريق كانو . وكان الملح بدوره سلعة هامة في هذه التجارة ، وتتزود ممالك الهوسا الجنوبية والأجزاء الشمالية من بلاد اليوربا بحاجتها منه عن طريق كانو . وقد قدر بارث قافلة الكيل أوى القادمة إلى كانو بما يتراوح بين ألفين وخمسمائة وثلاثة آلاف جمل ، يستطيع كل جمل منها أن يحمل أربعاً ألواح من الملح . وتصل المكوس المفروضة على الملح إلى نصف مليون كردى .

وقد حاول بارث أن يعطى تقديراً لتجارة كانو وللإيرادات التي تعود على الدولة منها . ووضع قائمة بالأصناف المصنوعة في شمال إفريقية وأوروبا والمتوفرة في كانو . فالقطن أهم الواردات ، وتصل قيمته إلى أربعين مليون كردى ؛ كما تستورد كانو من الحرير السميكة حمولة قرابة مائة جمل قيمتها سبعون مليون كردى ، ومن الأقمشة الصوفية ما قيمته خمسة عشر مليون كردى ، ومن الخرز خمسون مليوناً ، ومن السكر إثنا عشر مليوناً ، ومن الورق خمسة ملايين ، والسيوف خمسون مليوناً ، والنحاس والقصدير عشرون مليوناً ، وزيت الورد أربعون مليوناً . وبذلك تبلغ قيمة واردات كانو مبلغاً جديراً بالاعتبار هو

٢٩٧ مليون كردى . وحتى إذا حولنا هذا المبلغ إلى جنيهات استرلينية لكان مبلغاً له دلالة يقرب من مليون ونصف المليون . وكانت الصادرات كبيرة بدورها . فقد وصلت قيمة صادرات الأقمشة القطنية وخصدها ، استناداً إلى بارث ، إلى ثلاثمائة مليون كردى ؛ تبلغ حصة تمبكت فيها ستين مليوناً . وبلغت قيمة صادرات الصنادل عشرة ملايين ، والجلود خمسة ملايين ، والعاج خمسة وسبعين ألفاً ، والرقيق مائتى مليون .

ومع ذلك كانت هناك سلعة أخرى فى التجارة الداخلية هى جوزة الكولا التى تعد من أهم مواد الترف فى غرب بلاد السودان . وكانت أمانة إحدى مواطنات زاريا هى التى أدخلت الكولا فى بلاد الهوسا ؛ وبسبب مذاقها المر ، وخواصها كمثيرة للشهوة الجنسية ، وقدرتها على إرواء العطش ، اشتد الإقبال عليها وأصبح من المؤلف تقديمها إلى الضيوف . وتقسم جوزة الكولا إلى ثلاث رتب حسب الحجم والموسم ؛ فالمحصول المبكر منخفض الثمن ، فى حين أن المحصول المتأخر أغلى ثمناً بسبب صغر حجم الجوزة . ويمكن الاحتفاظ بالجوزة الجيدة لمدة سنتين ، أما الجوزة الرديئة فلا تتجاوز عشرة أشهر . ويقول بارث إن كانوا تصل إليها كل عام حمولة خمسمائة حمار . وكانت سلجا هي المركز العظيم للكولا . أما الحمير فيقدمها الموسيقى والأشانتى . كذلك كانت سلجا مدينة تجارية ، ويقدم إليها التجار من بلاد الهوسا البعيدة عبر طرق غير مأمونة لشراء جوزة الكولا ، وبيع مصنوعات الساحل^(٥٦) للشعوب الواقعة على المحيط . وكانت سلجا مدينة بائسة ، فحتى الماء عليها أن تشتريه . لذلك فإن الهوسا إذا

(٥٦) وردت فى النص الانجليزى كلمتا Coast , Sahel متجاورتين ، وكلاهما تبدو للوهلة الأولى بمعنى واحد ، ولكن الواقع فى النص غير ذلك . فالمقصود بكلمة Coast هنا هو النول الواقعة على المحيط الأطلسى ، أو النول الساحلية . أما كلمة Sahel فربما قصد بها أمر آخر . ومن المعروف أن العرب يسمون الصحراء بحر الرمال . وكل بحر له ساحل ، وبذلك يكون الساحل هنا هو النول الواقعة جنوبي الصحراء الكبرى ، أى المتعارف عليه فى المتن ببلاد السودان . وقد اصطلحت نواتر الأمم المتحدة على تسميتها « بدول الساحل » .

ما قرروا الإقامة لفترة طويلة فإنهم يفضلون الإقامة في يندى ، وهي مكان مريح . وكانوا يُحضِرُون معهم الأقمشة والملح والبطاطين الصوفية والأخفاف ، وهي أصناف تحقق التجارة فيها أرباحاً عالية « إن المائة من جوزة الكولا التي تشتري في سلجا بثلاثة عشر تباغ في سكتو أو كانو أو أية سوق رئيسية أخرى من أسواق الهوسا بما يتراوح بين مائة وثلاثة وأربعين ومائة وخمسة وستين . » بل إنها تباغ بأثمان أعلى في تمبكت التي تحصل على حاجتها من جوزة الكولا من تنغرين . وقد يتراوح ثمن الجوزة الواحدة بين عشر ودعات ومائة وبعة (٥٧) تبعا لحالة العرض . وكان يمكن الاستفادة من الأرباح في شراء الأشياء التي يندر وجودها على ساحل المحيط .

وثمة سلعة أخرى احتلت مكاناً هاماً في التجارة هي ملح النطرون . ويقول بارث أن كانوا يمر بها في السنة العادية ما لا يقل عن عشرين ألف حمل من هذا الملح الذي يجلب أساساً من برنونيوبى وزندر .

فضلاً عن ذلك دخلت في التجارة منتجات أخرى مصنوعة في مختلف المناطق . فزجاج النوبى وخرزهم انتشرا على نطاق غرب إفريقية . كذلك كانت للصنادل التي يصنعها الأرماء في تمبكت سوق جاهزة تمتد حتى شمال إفريقية . وكان تخصص المناطق المختلفة في منتجات مختلفة من بين الحوافز المشجعة للتجار . من ذلك أن أثمان الثياب التي يصنعها النوبى تقل أسعارها في غندُ عنها في كاتسنا بقدر ٢٠ في المائة . ولذا يقوم التجار بنقل البضائع من منطقة لأخرى .

ثانياً

من المتطلبات الجوهرية للتجارة الواسعة وجود عملة سليمة . وكان أساس العملة هو الذهب . فعلى سبيل المثال يذكر ليو أنه لم تكن توجد في چنى أية عملات أجنبية ، وإنما يستخدم الذهب الخالص كعملة ، أما المعاملات الصغيرة

(٥٧) يقول ليو الأفريقى إن الودع « قواقع مجلوبة من بلاد فارس » ، وصف إفريقية ، طبعة الرياض ، الصفحة ٥٤١ . وتقول الحاشية ٤٣ في الصفحة نفسها إنها « تأتي في الحقيقة من جزر الملديف في المحيط الهندى » .

فتتم بالقضبان الحديدية (٥٨) وفي تمبكت أيضاً يستخدم الذهب الخالص كمقياس للقيمة ، حيث المثلقال هو العملة المسكوكة الرسمية ، وتتحدد قيمته بالتبر . وفي أيام ليو كانت قيمة المثلقال فى تمبكت ٢٣٨ , ٤ غرام من الذهب (٥٩) ويقول بارث إنه تُستخدم فى بلاد السودان أنواع مختلفة من المثلقال ، ومثلقال أغادس ومنغو وتمبكت أكثرها رواجاً ، بيد أن مثلقال أغادس فقد أهميته عند بداية القرن التاسع عشر . وقد كان من المتعذر استخدام المثلقال فى الحياة اليومية ، وذلك لارتفاع قيمته بالنسبة لاحتياجات الناس اليومية ، ومن هنا ظل - فيما عدا الصفقات الكبيرة - مجرد معيار للقيمة ، كما كان - شأن العملات الذهبية فى كل مكان - عملة إسمية ، وله تداول عام حتى فى المناطق التى لم يكن هو العملة فيها . ومن أمثلة ذلك أن الأشانتى لم يكونوا يرفضونه فى معاملاتهم على الرغم من أنهم يستعملون التبر أكثر مما يستعملون المثلقال . وكانت له قيمة ثابتة من الذهب ؛ فكل ثلاثة عشر مثقالا تعادل أوقيتين من الذهب الخالص .

وفى القرن التاسع عشر استعملت عملات أخرى . وقد شاع استعمال ريال ماريّا تريزا^(٦٠) والريال الأسباني^(٦١) ، وبخاصة فى برنو وبلاد الهوسا . والشئ الهام فى هاتين العملتين هو أنهما ثقيلتا الوزن ومصنوعتان من معدن نفيس .

(٥٨) « والعملة التى يستعملها الزوج من ذهب غير مسكوك أى التبر . كما يستعملون قطعاً من الحديد لتسديد ثمن أشياء زهيدة القيمة ، كالحليب والخبز والعسل ، وتزن الواحدة من هذه القطع رطلاً أو نصف رطل أو ربع رطل . » المرجع نفسه ، الصفحة ٥٣٧ .

(٥٩) « وتستخدم قطع الذهب الصافى عوضاً عن العملة المسكوكة ، فى حين يستعمل الودع لشراء الأشياء البسيطة ، وهى قواقع من بلاد فارس ، ويعادل الأونس الرومانى من الذهب ستة وثلاثين من دنائيرهم . » المرجع نفسه ، الصفحة ٥٤١ .

(٦٠) ريال ماريّا تريزا : الريال كلمة مقتبسة من « ريال » الأسبانية بمعنى « الملكى » . ضرب ريال ماريّا تريزا لأول مرة فى عام ١٧٥١ ، ويسمى فى مصر بالريال « أبو طاقة » نسبة للنافذة أى « الطاقة » المرسومة على صدر النسر المصور على أحد وجهيه .

(٦١) الريال الأسباني : سُمى فى مصر « بالريال أبو مدفع » ، وقد اختلفت أسعار الريالات المختلفة من نمساوية وهولندية وألمانية وأسبانية وغيرها طيلة تداولها بمصر منذ عهد محمد على ، وتراوحت بين ١٩ و ٢٤ قرشاً ، وقد ظلت متداولة إلى أن أوقف التعامل بالريالات الأسبانية والهولندية والنمساوية .

وكان التبر والعملات الذهبية تستعمل لأغراض التجارة على نطاق واسع ، وبالنسبة للصفقات الكبيرة كان باستطاعة التاجر أن يقدم إذن صرف . وقد اعتاد التجار العرب تقديم كمبيالات (أوراق مالية) يمكن صرفها في إحدى المدن التجارية الكبيرة . فبارث على سبيل المثال عرض عليه مبلغ نقدي مقابل سحب كمبيالة على القنصل البريطاني في طرابلس .

وبالنسبة للصفقات الصغيرة كان الإفريقيون يستعملون عملات عديدة من أكثرها شيوعاً الودع والخرز الزجاجي . وكان الخرز الشائع في لون الشيكولاته وتحيط حلقة بيضاء بوسط كل خرزة . أما الودع الذي يجى من المحيط الهندي فترجع أهميته إلى صغر قيمته . وجميع الصفقات التي يجريها الإفريقيون لتلبية احتياجاتهم اليومية تتم بالودع أو الخرز الزجاجي . وكان الودع أكثر العملات قبولاً على نطاق إفريقية بأسرها ، وقد حل محل أكثر النقود قيمة مثلما حدث للفاردينغ (٦٢) في إنجلترا العصور الوسطى .

وقد أخذت قيمة الودع في الانخفاض السريع في أواخر العصور الوسطى . ففي أيام ليو كان المتقال يحتوى على ٢٣٨ ، ٤ جرامات من الذهب ، (٦٣) ويساوى ٤٠٠ ودعة فقط . وسبب ذلك أن الودع أُحضر في أول الأمر من جزر ملديف إلى الهند . ومن هناك جاء به التجار العرب إلى مصر ، ومن مصر ذهب إلى غرب إفريقية . وبعد التغلغل الأوروبي في المحيط الهندي انتقلت كميات هائلة من الودع إلى موانئ غرب إفريقية ، ومن هناك أخذ يتغلغل إلى الداخل في بطن . وقد أدى الغزو المراكشى إلى انخفاض قيمته ، ويذكر كعت أن قيمة الودع

(٦٢) الفاردينغ : أصغر عملة إنجليزية ، ويساوى ربع بنس . أصبح جزءاً من نظام العملة منذ حكم إدوارد الأول ، وكان حتى أيام ماري عملة فضية ، ثم استعمل فاردينغ نحاسي في عهد جيمس الأول ، ثم استبدل به فاردينغ من البرونز في عام ١٨٦٠ .

(٦٣) « وتساوى الأوقية الرومانية من الذهب عندهم ستة مثاقيل وثلاث مثقال . » وصف إفريقية ، طبعة المغرب ، الجزء الثاني ، الصفحة ١٦٧ . ومن المعروف أن الأوقية تساوى ٢٨,٢٥٦ جراماً ، وبذلك فإن المتقال السوداني يساوى ٢٣٨ ، ٤ جرامات من الذهب .

انخفضت بعد الغزو إلى ثلاثة آلاف ودعة للمثقال الواحد . وفى الوقت الذى زار فيه بارت غرب إفريقية كانت قيمته قد انخفضت بدرجة هائلة . ففى كانو كان سعر صرف المثقال أربعة آلاف ودعة ، فى حين كان فى تمبكت يتراوح بين ثلاثة آلاف وخمسمائة وأربعة آلاف . وكان الجنيه الاسترلى فى أيام بارت يتراوح بين إثنى عشر ألف وثلاثة عشر ألف ودعة ، فى حين كان ريال مارياتريزا والريال الأسباني يساوى كل منهما ألفين وخمسمائة ودعة .

ولم تكن هذه العملات هى المقاييس المقبولة الوحيدة للقيمة . ففى برنو مثلاً يذكر المقريزى أن نوعاً من القماش يسمى « الوندى » يستخدم كعملة ، وكل « قطعة منه طولها عشرة أذرع » ، ولكنه تيسيراً لاستعمالها تقسم إلى قطع طول كل منها ذراع واحد أو أقل . كما يقول إنه استعملت فى التجارة مواد أخرى مثل النحاس والرصاص وبعض الأصداغ ، ولكن قيمتها تقدر بالقماش . ويذكر دنهام ذلك أيضاً ويقول إن العملة الشائعة فى برنو هى أقمشة قطنية على هيئة قطع ، ولكنه يضيف أنه عرفت فى لوجون عملة معدنية مكونة من ألواح رقيقة من الحديد على هيئة حذوة حصان ، كل ٣٠٠ قطعة منها تساوى ريالاً .

فضلاً عن ذلك استعمل النحاس والبرونز أيضاً . يقول ابن بطوطة : « ومعدن النحاس بخارج تكدا يحفرون عليه فى الأرض ، ويأتون به إلى البلد فيسبكونه فى نورهم ، يفعل ذلك عبيدهم وخدمهم . فإذا سبكوه نحاساً أحمر صنعوا منه قضباناً فى طول شبر ونصف ، بعضها رقاق وبعضها غلاظ . فتباع الغلاظ منها بحساب أربعمئة قضيب بمثقال ذهب ، وتباع الرقاق بحساب ستمئة وسبعمئة بمثقال ذهب وهى صرفهم . يشترون برقاقها اللحم والخطب ، يشترون بغلاظها العبيد والخدم والذرة والسمن والقمح . ويحمل النحاس منها إلى مدينة كوير من بلاد الكفار وإلى زغاي وإلى بلاد برنوا . » (٦٤) وعلى ساحل المحيط كانت الحلقات المعدنية وقضبان البرونز والنحاس الأصفر والأحمر تقبل على نطاق واسع فى التعامل . ولكن الملح هو العملة الأكثر قبولا . ويقول ابن بطوطة إنه ليس من الضرورى عند السفر فى السودان حمل أية نقود ، بل يكتفى ببعض الملح ، فبه يمكن الحصول على كل ضرورات الحياة .

(٦٤) نقلا عن تحفة النظار ، الصفحة ٧٠٥ . [كوير المشار إليها فى هذا الاقتباس هى غوير .]

ثالثا

كان لدى إفريقيا فى العصور الوسطى نظام صناعى . وقد استطاع هذا النظام ، على الرغم من أنه لم يكن كمثيله فى آسيا وأوروبا ، أن ينتج سلعاً جيدة النوع لتلبية احتياجات السوق المحلية . وهذه الصناعة لا تعنى بطبيعة الحال الإنتاج الكبير فى ظل نظام المصانع ، وإنما مجرد حرف وصناعات منزلية . وكان عدم ارتداء جماعات وثنية كثيرة للملابس قيماً على التوسع فى الصناعات القطنية . وكانت المصنوعات الفخارية هى الأوانى الأكثر شيوعاً فى المنازل ، وذلك بدوره لم يكن يشجع على الإنتاج الكبير . فضلاً عن أنه لم يكن فى هذا البنيان الاجتماعى سوى القليل من العائلات التى تهتم بالحصول على منتجات الصناعة . ولما كانت هذه العائلات شديدة الثراء ، فقد كانت تستعمل الأقمشة الحريرية المشجرة وغيرها من أنواع المنسوجات القادمة من أوروبا وشمالى إفريقيا أكثر مما تستعمل المنتجات المحلية .

وفى كل حضارة من حضارات العصور الوسطى كان كبار حماة الفن والثقافة هم رجال البلاط والنبل ورجال الدين الذين يحتاجون إلى الملابس المطرزة الغالية الثمن وإلى معدات الحروب وأسلحتها . ولما كان باستطاعتهم بناء القصور الفخمة ، فإن ذلك لم يكن من شأنه فقط أن يوفر الوظائف للشعب ، وإنما أن يخلق أيضاً الأساس الضرورى لإنتاج البضائع ذات النوعية الجيدة . أما فى أفريقيا فإنه فيما عدا بضعة استثناءات ملحوظة لم تكن الصناعات المحلية تلقى تشجيعاً من رجال البلاط أو رجال الدين .

والحقيقة أن الدولة فى بلاد اليوريا وبلاد الهوسا ومنطقة خليج بنين كانت تشجع الفنون إلى حد ما ، كما أن ذلك صحيح بوجه خاص بالنسبة لإيفه وبنين وداهومى . فالمعابد بما تحفل به من أعمال برونزية وخشبية ، والقصور بما فيها من أعمال الحفر والنقوش ذات النسق العربى ، والدروع وغيرها من المنتجات التى يطلبها رجال البلاط ، كانت بمثابة تشجيع للصناعة المتخصصة . ولكن ذلك كان فى الجنوب أساساً ، وبخاصة فى المناطق التى يتمتع فيها الأويو بنفوذ قوى . فالأويو كما رأينا كانوا دولة أوليجاركية بها أرستقراطية مستقرة .

ويفضل العدد الكبير من النبلاء وصغار الملوك وكبار التجار توفرت سوق للمنتجات المحلية . ومن المناطق الأخرى التي تطورت فيها الصناعة إلى حد ما بلاد الهوسا ، التي كانت مع ذلك ظهيراً سياسياً . ومرجع ذلك أنه كان يوجد بهذه البلاد ، كما فى بلاد اليوروبا ، عدد كبير من الدول الصغيرة والتجار الكبار . بيد أنه حتى فى هذه الدول كانت الفنون الصناعية امتيازاً خالصاً لطبقة معينة . وفى بنين كانت عملية سبك البرونز بأكملها فى أيدي أحفاد الشخص الذى أدخل هذه الصناعة فى البلاد ، الذين يعيشون فى حى خاص بهم . وفيها اقتصرَت الصناعات على العاصمة ؛ ومع ذلك كان باستطاعة رؤساء الأحياء والقرى الحصول على الدقوف والسيوف الخشبية ذات المقابض المنحوتة اللازمة للشعائر الدينية . أما العاج فيخصص كلية للملك .

وكانت كانو أشهر مركز للصناعة فى بلاد السودان . ويقول بارث إنه بينما انحصرت أهمية تمبكت فى كونها مركزاً للتجارة ، فإن أهمية كانو كانت مستمدة من التجارة والصناعة معا . وكانت كانو فى الحقيقة هى مانشستر غرب إفريقية ، فقد كان القطن هو صناعتها الرئيسية . وكانت تنسج فى كانو أنواع مختلفة من الأقمشة أهمها التوركيدى ، أى ملابس النساء ، والريغا وهى قمصان الرجال الطويلة ، والزين أى الأقمشة الصوفية المخططة المختلفة الألوان ، واللثام الأسود (البراقع) ، وارتبطت بذلك صناعة النيله . وقد أمكن للكاناوا (أهل كانو) أن يضيفوا على التوركيدى أجمل مواد الصباغة ، وهو ما لم يستطيعوا أن يحققوه بالنسبة للريغا ، وذلك أمر مستغرب تماماً . وكانت المنسوجات القطنية المصنوعة فى كانو تصدر إلى جميع أنحاء غرب إفريقية من أرغوين إلى بيغرمي ، ولكن كانو كانت تواجه فى الجنوب منافسه شديدة من اليوروبا .

وفى كتابه Black Byzantium (بيزنطة السوداء) وصف نادل فى تفصيل كثير كيان نظام الطوائف فى نوبى ، كما وجد قبله بثلاثين عاماً ، وهو ما لم يطرأ عليه تغيير يذكر منذ العصور المبكرة . ويقول إن المجموعة التى تشارك فى ورشة عامة فى بيدا تكون أيضاً وحدة عمل ، وعرف ذلك بالإفاكو . وكل شخص

ينتمي إلى وحدة العمل ، سواء أكان من أقرباء رئيسها أم غريباً عنه ، يخضع لقواعد الإيفاكو . ولكل ورشة عريف يشرف على إنتاج المجموعة . ولذلك فلا يوجد إلى جانب دخل المجموعة أى دخل فردى . « إن التعاون الكثيف تفسره طبيعة هذا الإنتاج الكبير ، كما تفسره متطلبات الكفاءة والوفر ؛ فاستخدام فرن مشترك ومخزن مشترك للوقود والمواد الأولية ، وتخصص مهام الورش المختلفة ، وتقسيم العمل داخل الورشة الواحدة ، هذه جميعاً تضافرت لضمان درجة عالية من الكفاءة والعمل المشترك .»

ويقول دكتور نادل إنه فى العصور الأولى كان عريف الورشة هو الذى يقوم بدور المقاول والممول بالنسبة للورشة ، ورئيس الطائفة هو الذى يقوم بهذا الدور بالنسبة للصناعة ، ورئيس الطائفة موظف لدى البلاط ويمثل الملك فى كل الشؤون المتعلقة بتلك الصناعة . وهكذا ففى بيदा إذا وصل أى تاجر أجنبى ومعه الخرز فإنه لا يعرض بضائعه أو أحجاره الثمينة فى السوق ، وإنما يذهب إلى رئيس الطائفة الذى يختار من بضائع التاجر ما يراه لائقاً بالملك ورجال البلاط . ويقدم رئيس الطائفة نصائحه إلى الملك بخصوص الشراء ، وبعد إتمام الصفقة يوزع العمل بين الورش المختلفة . ويحتفظ رئيس الطائفة لنفسه بعمولة مقدارها ٢٠ فى المائة ، وهذا المال يساعد على تمويل الصناعة . فإذا ما طلبت ورشة ما رأسماً أو مواد أولية أو عمالاً قام بتوفير احتياجاتها . لذلك فإن رئيس الطائفة هو محور الصناعة بأسرها . وينطبق هذا بوجه خاص على صناعة الخزف فى بيदा . ورجال البلاط هم العملاء الرئيسيون لهذه الصناعة التى تعمل بكامل طاقتها لتلبية متطلبات مرافقات الحريم والبائئات والمهور .

وقد تطور نظام الطوائف كثيراً فى غرب إفريقية . فالفتاش على سبيل المثال يذكر أنه كانت توجد فى تمبكت ٢٧ ورشة للترزية ، كل منها تحت إشراف عريف ، ولدى كل عريف ما بين خمسين صبياً ومائة صبى يعملون تحت إدارته .^(٦٥) وذلك إلى جانب مشرفون مدققون لملاحظة عمل الصبيان . وفى غير

(٦٥) « وأخبرنى محمد بن المولود أنه رأى منها ستة وعشرين بيتاً من بيوت الخياطين المسماة بتند بناء مكسورة ولكل واحدة من تلك البيوت شيخ رئيس معلم وعنده من المتعلمين نحو خمسين وعند بعضهم سبعين إلى مائة ..» تاريخ الفتاش ، الصفحة ١٨٠ .

صناعتى الخزف والبرونز ربما لم تكن سلطات العريف يمثل هذه الضخامة فى الصناعات الأخرى التى لا تتطلب رأسمالا يمثل هذا الحجم ، ولكن لا يوجد اختلاف ملحوظ بين هذه الصناعات . فرسوم الالتحاق بالطائفة ، والعلاقة بين العريف والصبى ، والمدة التى يقضيها الصبى فى التدريب ، وعلاقة الورش المختلفة برئيس الطائفة ، وعلاقة رئيس الطائفة بالبلاط ، كل ذلك كان نسقاً جيد الإعداد وركيزة للتنظيم الصناعى . وباستطاعة العامل المدرب ، فى فترات الرخاء ، أن ينشئ ورشة خاصة به عن طريق الاقتراض من أحد تجار الهوسا أو الونقارة .

وفى غالبية الحرف المتخصصة كانت التقنيات وقفا على فئة معينة من الناس . فصناع الخزف فى بيذا كانوا وحدة وثيقة الترابط ويزعمون أنهم هاجروا من مصر . وكانت فترة التدريب الطويلة التى يقضيها الصبى ، وتكلفة فتح ورشة جديدة ، بمثابة قيد على انتشار الحرفة . وفى تمبكت على سبيل المثال كان فن صنع الأخفاف وقفاً على رجال الأرماء الذين يرفضون قبول صبيان من القبائل الأخرى .

ورأس المال كان قيذاً آخر . ففي صناعة الزجاج كان ينبغى بناء فرن عرضه خمسة أقدام وعمقه قدمان فى وسط الكوخ ، ويتعين تغطية فوهته بقطع من الفخار ، وتزويده بكمية ضخمة من حطب الوقود كى يظل عند درجة حرارة عالية لمدة إثنتى عشرة ساعة على الأقل لإتمام العملية . وتتطلب صناعة الزجاج أيضاً الحصول من برنو على الصودا والرمل والمعدات اللازمة لها . وإلى جانب دفع الأجور للصبيان ، يوجد لدى كل عريف عدد من الرقيق للقيام بالأعمال الشاقة ، وذلك بدوره يتطلب قدراً من رأس المال .

ولم يكن هناك تخصص وظيفى فقط ، وإنما تخصص جغرافى أيضاً . فالنوبى على سبيل المثال تخصصوا فى صنع الخزف والخلاخيل والزجاج ، وكان زجاجهم ذا لون أسود داكن لامع ، ولكنهم لم يتفوقوا أبداً فى تلوينه . وأنتج النوبى أيضاً نوعاً خاصاً من « الأتواب » . وتخصصت بنين وإيفه فى المشغولات

والتماثيل البرونزية ، وكانت لهذه المشغولات أهمية خاصة لأنها لم تكن تستخدم في الطقوس الدينية فقط ، بل في تسجيل التاريخ أيضاً . وكانت صناعة الأخفاف تخصصاً لتمبكت وكانو . كذلك كانت كانو مركزاً كبيراً لصناعة الجلود . والأخفاف المصنوعة في كانو تجمع بين المتانة وقوة التحمل والنوق الرفيع ، ولها سوق كبيرة لا في غرب إفريقية فقط ، وإنما في الشمال أيضاً . وكانت الجلود المدبوغة ، وبخاصة النوع الذي اشتهر باسم « الجلد المراكشي » صناعة أخرى مستقرة في كانو . وكان هذا النوع يصنع من جلود الأغنام الحمراء التي انفردت بها كانو ، وذلك بعد ديبغها بعصير نبات محلى . (٦٦) ومن مراكش كان هذا الجلد يصدر إلى أوروبا . كما اشتهرت كاتسنا بدروعها المبطنة .

وصناعة القطن هي الصناعة التي انتشرت على نطاق غرب إفريقية بأكمله . ويقول دنها إن صناعة القطن كانت على درجة كبيرة من التقدم في بلاد اليوروبا ، ويذكر الشيء نفسه عن بلاد الهوسا . ويعطينا كلاپرتون وصفا لصناعة القطن . فبعد أن يجمع القطن من شجيراته يجهز بعناية ويوضع في سلال ، ثم تقوم النسوة بغزله على مغزل رقيق . وقد عرف هناك نوعان من الأنوال : رأسى ويستخدمه الرجال ، وأفقى وتستخدمه النساء . والأول مستقيم ضيق يعمل بالبدالات . والشريط الطويل الضيق من القماش ينسج بعرض خمس بوصات وطول عشرة أذرع ، ويقسم إلى خمس قطع طول كل منها ذراعان . وذلك نمط ذو طابع فردى من أنواع العمل يخالف مثيله في صناعة الزجاج ، ويقوم به الرجل مع أبنائه غير المتزوجين . وقد شاهد كلاپرتون في بعض هذه الأكواخ أكثر من ثمانية أو تسعة من المغازل والأنوال .

(٦٦) « وعلى وادى برعة شجر كثير وثمار عظيم وهناك شجر التاكوت يشبه شجر الطرفاء

وبهذا التاكوت يدمغ الجلد الغدامى « البكرى » . المرجع السابق ، الصفحة ١٥٢ .

وكانت الأقمشة القطنية سلعة هامة في تجارة غرب إفريقية ، وكان التجار البرتغاليون والهولنديون والبريطانيون ينقلونها من بنين إلى ساحل الذهب حيث يشتد الطلب عليها . والأقمشة المصنوعة في إفريقية شديدة المتانة . وقد تبين لكاتب بريطاني في بداية القرن العشرين أن أقمشة كانو واليوربا القطنية أمتن كثيرا من أقمشة لانكشير وتعيش مدة أطول ، وإن تميزت لانكشير برخص منتجاتها . وقد تفوقت أقمشة كانو بوجه خاص من حيث الجودة واللمعان وجمال الألوان .

وعلى الرغم من أهمية هذه الصناعات ، فإن مكانة صناعة التعدين في الاقتصاد جديدة بإشارة خاصة . ذلك أن استخراج الملح والذهب والنحاس ، وكذلك ملح النطرون ، كان من دعائم اقتصاد بلاد السودان . وقد اكتسبت تكدا أهميتها لا بسبب تجارتها فقط ، وإنما بسبب صناعاتها التعدينية أيضاً ، فقد تخصصت هذه المدينة في إنتاج النحاس ، ويقوم بالعمل في مناجمها الرقيق من كلا الجنسين . وبسبب وقوع مناجمها في وسط الصحراء كانت ظروف العمل فيها بالغة القسوة ، لذلك فإن إحلال عمال جدد كان يجري على نطاق واسع ، وربما تطلب الأمر دفعة جديدة من الرقيق كل ستة أشهر . ويتم تحويل النحاس إلى قضبان طولها شبر ونصف شبر ، بعضها رفيع والآخر سميك . وتستخدم هذه القضبان محلياً ، أما النحاس في صورته الخام فيصدر إلى برنو وغوير والمناطق الوثنية .

وقد عرف غرب إفريقية منذ القدم استخراج النحاس على نطاق واسع : عرفه سكان غانة ، كما أبلغ منسا موسى المصريين بأنه يمتلك مناجم للنحاس . ووصف ابن بطوطة استخراج النحاس في تكدا بشئ من التفصيل ، ويقول : وديار تكدا مبنية بالحجارة الحمر ، وماؤها يجري على معادن النحاس . يتغير لونه وطعمه بذلك» .^(٦٧) وعلى الرغم من معرفة السودان القديمة بالنحاس ، فإن مدى سيطرتهم على مصادر إمداداته موضع خلاف . فنحن نسمع منذ أقدم العصور عن أن بلاد السودان تستورد النحاس من شمال إفريقية ومصر . والحقيقة أن بعض إمبراطوريات بلاد السودان سيطرت على تكدا ، ولكن الأمر الأرجح هو أن تكدا لم تكن تنتج من النحاس ما يفي باحتياجاتها .

(٦٧) يرد هذا الاقتباس في تحفة النظر ، الصفحة ٧٠٤ .

وثمة مدينة أخرى كانت تعتمد كلية على الصناعة هي تغازة ، وهي مدينة تقع على مسيرة خمسة وعشرين يوما إلى الجنوب من سجلماسة ، ولم تكن لها حضارة يمكن أن تعتز بها . وبيوتها مبنية من صخور الملح الصلبة ، ولكن سقوفها تصنع من جلود الجمال .^(٦٨) والعنصر السائد فيها هو رجال القبائل الذين يستخدمون الرقيق في استخراج الملح . ولبلما طابع مماثل إلى حد كبير . وفي منطقة بحيرة تشاد كان لصناعة ملح النطرون أهميتها الكبيرة . ويقول بارث إن قوافل هذا الملح تذهب بانتظام إلى كانو ، ومنها ترسل إلى الجنوب . ومع ذلك فمن الناحية الاقتصادية تتم مبادلة كل ذلك بالذهب . صحيح أن معظم الذهب هو من الذهب الغريني ، وأن عمليات استخراجها ربما لم تكن أكثر تقدما من العمليات التي يتبعها الإفريقيون اليوم في تلك المناطق ، ولكن بعض الذهب في أشانتي والموسى كان يستخرج عن طريق التعدين ، وعلى أية حال فقد احتفظ بالإنتاج عند مستوى عال جداً ، وأصبحت بلاد السودان تعرف بأنها أرض الذهب .

رابعاً

من الأسئلة الهامة في التاريخ الإفريقي هو لماذا لم يتطور في القارة نظام سليم للزراعة . فغرب إفريقية به أنهار كثيرة ، ومما يثير الدهشة أنه لم يستخدم منها نهر واحد في أعمال الري . ولا يمكن أن يكون مرجع ذلك أن أبناء غرب إفريقية عجزوا عن اختراع الساقية ، لأن الصفوة منهم كانوا يقومون بانتظام بزيارة شمال إفريقية وشرقها ، فلو أنهم كانوا مهتمين حقاً بالاشتغال بالزراعة لما تعذر عليهم الاستعانة بخبير من هناك . وإذا كان منسا موسى قد استطاع الحصول على مهندسين معماريين من شمال إفريقية ، وإذا كان أباطرة البرنو قد استطاعوا الحصول على خبراء أترك لتدريب جيوشهم على استعمال الأسلحة

(٦٨) « فوصلنا ... إلى تعاى ... وهي قرية صغيرة لا خير فيها ومن عجائبها أن بناء بيوتها ، ومساجدها من حجارة الملح وسقفها من جلود الجمال .. ولا يسكنها إلا عبيد مسوفة الذين يحفرون على الملح ... وقرية تغازة على حقاتها يتعامل فيها بالقناطير المقنطرة من الذهب ...» المرجع نفسه ، الصفحة ٦٨٤ .

النارية ، فإنه لا يمكن قبول التفسير القائل بأن الافتقار إلى الساقية كان هو السبب فى إهمال الزراعة . كما لا يمكن القول بأن الزراعة لم تتطور بسبب عدم سخاء التربة . فهضبة الجزائر والهضبة الإيرانية وهضبة الدكن بالهند ليست أكثر سخاء . بيد أن نظام الفوجارا^(٦٩) فى شمال إفريقية ، ونظام الرى الجيد فى بلاد فارس ، والقناطر والسدود والخزانات فى هضبة الدكن ، هذه جميعا توضح أنه حيث تبدى الدولة اهتماماً بالزراعة يمكن التغلب على العقبات الزراعية . كذلك لا يمكن القول بأن الإفريقيين كانوا زراعاً غير مهرة . فالزراعة هى فى المقام الأول علاقة الإنسان بالبيئة - فعليه أن يُكَيِّف أساليبه لتناسب بيئته - فحقول المصاطب على سفوح الجبال ، وزراعة الفاداما ، وحتى الزراعة المتنقلة^(٧٠) ، كانت كلها مساعٍ للتكيف مع البيئة ، وتبين أن الإفريقى زارع ماهر . وإذا ما تعين إنجاز المزيد فلا يمكن أن يكون ذلك إلا عن طريق تدخل الدولة . فلماذا عجز النظام الحكومى فى غرب إفريقية بصورة متسقة عن رعاية الزراعة ؟

التفسير بسيط . وهو ان اهتمام دول غرب إفريقية كان منصباً فى المقام الأول على التجارة ، ولم يكن لديها اهتمام يذكر بتنمية الزراعة . كما أن تجارة الرقيق أدت إلى إهمال الزراعة . فالرقيق كان الحصول عليهم سهلاً ، وكانت الدول فى بلاد السودان تقوم بغارات نهب من أجل أسر الرقيق وبيعهم لتجار شمال إفريقية . وقد عرفت بلاد السودان منذ أقدم العصور بأنها سوق للرقيق . بل يبدو أن قرطاجة كانت تحصل منها على الرقيق . وكانت برنو بلا منازع فى

(٦٩) استخدم سكان الواحات أساليب مختلفة للرى ، من بينها الفجّارا والشايف والعيون والآبار الطبيعية والاصطناعية . والفوجّارا موجودة بوجه خاص فى توات وغورار ، وهى عبارة عن قنوات من صنع الإنسان تحفر تحت سطح الأرض بميل خفيف لجلب المياه الجوفية إلى الواحة بفعل الجاذبية الأرضية .

(٧٠) كانت خصوبة الأرض تقل بعد عدد من المحاصيل بسبب عدم استخدام الحيوان فى الزراعة وعدم معرفة التسميد ، ولذلك كان الزارع يضطر إلى التخلّى عن قطعة الأرض التى يزرعها والانتقال إلى غيرها ، وربما عاد إلى القطعة الأولى بعد فترة من الوقت ، ومن هنا سميت هذه الزراعة بالتنقلة . وبذلك لم تكن الأرض غير المزروعة سوى احتياطى للأرض الزراعية المملوكة للقبيلة .

مقدمة الدول المشتغلة بتجارة الرقيق ، وكان الطريق من تشاد إلى طرابلس مارا بـكُؤار وفزان هو طريق الرقيق . وهذا الطريق الملطخ بالدماء ، الذي تتناثر فيه آلاف الهياكل العظمية ، لابد أن يذكر المرء باستمرار بما أحدثته تجارة الرقيق من تأثير مدمر على حياة السودان الاقتصادية . فالزراعة تعنى خلق طبقة من الفلاحين ، سواء على هيئة أقنان مرتبطين بالأرض أو رجال أحرار لفلاحتها ، ثم بعد ذلك يصدر الفائض للحصول على مواد الترف . بيد أنه لم تكن هناك سوق يصدر إليها الناتج الزراعى ، كما لم يكن من بين السمات المميزة للتجارة الإفريقية وجود فائض من منتجات الزراعة يسمح بالتصدير . ولم يكن ممكناً أن تتطور الزراعة ما دام الرق سائداً : فقد كانت الدول فى بلاد السودان حتى فى أفضل أيامها ، باستثناء الهوسا ، تقوم على سلب الرقيق .

ويتضح ذلك إذا ما قارنا بين بلاد السودان والهند . ففي الهند التى قام اقتصادها دائماً على الاكتفاء الذاتى ، كان رخاؤها يعتمد لاعلى التجارة وإنما على الزراعة . وكانت الدولة تعتمد على الإيرادات التى تعتمد بدورها على الزراعة ، لذلك قامت الدولة بدور فعال فى رعايتها . فأقيمت السدود والجسور والخزانات والبحيرات الصناعية . ولما كانت إيرادات الأرض هى المصدر الرئيسى للدخل ، فقد كان هناك حشد هرمى من الموظفين ابتداء من باتوراي (رئيس) القرية فصاعداً ، مهمته تقدير إنتاجية الأرض واتخاذ الإجراءات لزيادتها ، ومسح الأرض وتقدير درجة خصوبتها حتى يمكن ربط الضريبة عليها . كما أن أشغال الري والتحكم فى المياه كانت تعنى بدورها وجود إدارة للأشغال العامة وجهاز إدارى لترشيد استخدام المياه . لذلك كانت الهند ، على غرار غيرها من البلدان الزراعية ، دولة بيروقراطية فى جوهرها .

أما فى غرب إفريقيا فلم تكن الزراعة أبداً حرفة هامة ، وإن كانت قد ازدهرت بالفعل . فكعت يذكر أن الأساكي كانت لديهم مزارع كبيرة تنتج الدخن والأرز . كما يذكر بارث أن تجارة أغادس هى أساساً فى الدخن الذى يشتري من الزنوج . وكانت أشجار الصمغ من بين المحصولات الأخرى التى تزرع على نطاق واسع . وقد ذكر البكري فى القرن العاشر أن منطقة السنغال تنتج

الصمغ الذى يبادل به القطن من الممالك العربية فى الأندلس .^(٧١) ويشير ليو الإفريقى ألى أنه توجد فى چنى كميات وافرة من الشعير والأرز والقطن . وكان اللحم رخيصاً أيضاً بسبب القطعان الكبيرة من الماشية . وفى تمبكت ومالى وغازو وغوير وكانو كانت المواد الغذائية موجودة بوفرة .^(٧٢) كما يقول ليو إن الحقول تفلح بطريقة جيدة . ويذكر كل من بارث وكلاپرتون أن الزراعة يعتنى بها كثيراً ، وأن جميع الحقول محاطة بسياح محكم ، وأن المحصولات الرئيسية هى القطن والأرز والنيلة والقمح والبصل والقثاء . وقد وجد بارث مزارع كبيرة للتبغ بالقرب من كانو وبلاد الموسغو . أما دنهام فقد وجد القمح والنيلة والأرز والتمر هندى ، وكذلك الفول السودانى والبقول ، بكميات وافرة . وكلاپرتون بدوره يعتبر بلاد الهوسا منطقة للزراعة الجيدة ، وتحدث عن « بلد ذى زراعة جيدة » أشبه بمنتره منمق فى بريطانيا . كما توجد مزارع للقطن محكمة السياج ، بل إن الهوسا يستخدمون بذرة القطن لتغذية الماشية .

وقد أدخل التبغ إلى غرب إفريقية بعد الغزو المراكشى ، وكانت مراكش قد حصلت عليه من الأندلس . وقرب نهاية القرن الثامن عشر أصبحت زراعته حرفة أساسية . ويبدو أن بعض التبغ كان يُصدّر إلى مراكش . وقد ترتب على تدعيم سلطة الفولانى فى حمداً لى توجيه ضربة إلى محصول التبغ ، فقد حُرّم مضغه وتدخينه باعتبار ذلك مخالفاً لتعاليم الإسلام .

وكان التدهور الكبير فى الزراعة يرجع إلى حقيقة أنه لم يكن هناك ، بعد انهيار الإدارة المركزية فى بلاد السودان ، أمن يسمح للفلاحين بفلاحة حقولهم

(٧١) أنظر الحاشية ١١ - ٤٦ أعلاه .

(٧٢) « أما الشعير والروز والماشية والسّمك والقطن فتوجد (فى چنى) بكثرة كاثرة ... والحبوب والمواشى (فى تمبكت) كثيرة جداً ، بحيث إن اللبن والسمن يستهلكان فيها بكيفية مفرطة ... ويكثر فى البلاد (فى مالى) الحب والقطن واللحم ... الخبز واللحم فيها (فى غازو) كثيراً جداً .. تضم (غوير) عدداً كبيراً من قرى يسكنها رعاة الغنم والبقر ، لأن فيها كمية وافرة من هذه الأنعام ... ويعيشون (فى كانو) من تربية الغنم والبقر أو من فلاحة الأراضى التى تنبت كثيراً من الحب والأرز والقطن .. » وصف إفريقيا ، طبعة المغرب ، الجزء الثانى ، الصفحات ١٦٢ إلى ١٧٣ .

فى هدوء وسلام . وقد لاحظ بارث ، وهو مراقب شديد التدقيق ، أنه فيما بين عامى ١٨٥٠ و ١٨٥٤ تحولت المنطقة الواقعة بين زندر وكانو إلى صحراء حقيقية بعد أن كانت يوماً ما أحد مشاهد الحياة الزاخرة بالنشاط والكثيرة المدن والقرى ، بل إنه فى غضون أربع سنوات مضت بين زيارتين متتاليتين له كانت حقول التبغ المزدهرة بالقرب من كاتسنا قد خربت بها الحروب الداخلية الضروس .

كذلك لم يكن نظام الزراعة وقفاً على المناطق الداخلية . فالحقيقة أن الزراعة فى الدول الساحلية كانت أكثر تطوراً . وقد وجد دنكان محاصيل ممتازة من أنواع مختلفة من القمح والأرز تزرع فى داهومى ، وكان يرى أن شعب مالى يتمتع بكفاءة زراعية ممتازة ويستخدم روث البقر سماداً للتربة . وكان دنكان شديد التأثر بحالة الزراعة حتى أنه قارن الحقول المزروعة جيداً فى داهومى بمثيلاتها فى بريطانيا .

كذلك لم يكن ملوك داهومى غافلين عن أهمية الزراعة . ففي القرن التاسع عشر كانوا يشجعون بنشاط توطيين الزنوج الذين قدموا من البرازيل أو سيراليون بمنحهم قطعاً من الأرض دون مقابل . وقد وجد دنكان بالقرب من وايداح مزارع ناجحة يمتلكها زنوج عائدون من البرازيل .

وقد أدخل هؤلاء الرقيق العائدون أساليب جديدة . وزار دنكان مزرعة بها طاحونة لطحن الذرة والكاسافا « عبارة عن طارة ، ليست أفقية وإنما عمودية مثل طاحونة الشعير ، وعرضها قرابة ست بوصات ، وتدور داخل جرن على شكل نصف دائرة . وحافة الطاحونة مغطاة بلوح من النحاس مخرم بثقوب صغيرة ، واللوح مثبت على الحافة بالمسامير مع وجود الجانب المدبب نحو الخارج . وتدار الطارة بنفس الطريقة التى يدار بها حجر المسنن ، ويمكن رفع الجرن أو خفضه حسب الحاجة . وهذه الآلة صنعها صاحب المزرعة بنفسه بالقرب من هذا المكان » .

ومع ذلك ينبغى أن يقر فى الأذهان أنه على الرغم من أن أباطرة السودان وملوك داهومى وغيرهم كانوا يشجعون زراعة المحاصيل الغذائية ، فإن نولهم كانت قائمة أساساً على تجارة الرقيق ، وتضحى بأى محصول يتعارض مع هذه المصلحة الحيوية . فعندما أراد الونقارة تشجيع زراعة القطن ، وانتهاج سياسة

نشطة لهداية الوثنيين ، تعارض ذلك بشدة مع مصالح تجارة الرقيق . وبالمثل فى داهومى ، حيث استطاع البرتغاليون فى القرن التاسع عشر ، عندما أحسوا أن صادرات زبد الشيئة ستشجع نمو التجارة المشروعة ، ومن ثم تلحق الضرر بتجارة الرقيق ، حمل حاكم داهومى على فرض رسم باهظ على هذه المادة . ولكن التجارة استمرت دون نقصان فضوعف الرسم . ولم يحل ذلك المشكلة ، وإنما إدى إلى التهريب ، فاضطر الملك إلى اقتلاع أشجار زبد الشيئة .

وكانت الغرتى أو شجرة زبد الشيئة التى يستخرج الزبد من حباتها تزرع على نطاق واسع فى بلاد السودان . يقول ابن بطوطة « والغرتى .. ثمر كالأجاص شديد الحلاوة مضر بالبيضان إذا أكلوه ، ويدق عظمه فيستخرج منه زيت لهم فيه منافع . فمنها أنهم يطبخون به ويسرجون السرج ، ويقولون به هذا الأسفنج ، ويدهنون به ويخلطونه بتراب عندهم ويسطحون به الدور كما تسطح بالجير » . (٧٣)

أما سكان مناطق الغابات المطيرة فالزراعة هى حرفتهم الرئيسية ومحور ديانتهم . ووظيفة الحاكم ، كما رأينا ، هي استرضاء الآلهة كى ينتظم المطر . ولديهم سنة قمرية طولها ٣٥٤ يوماً ، وترتبط كل فترة من السنة ارتباطاً وثيقاً بعملية زراعية معينة . من ذلك أنه فى شهر مارس ينبغى أن يؤسر رجل أجنبى ويضحي به بدفنه فى الأرض فى احتفال كبير . وفى بنين يتعين التضحية بعذراء عند الاعتدال الربيعى لضمان محصول طيب . وبالمثل فإن احتفال اليوم^(٧٤) فى أشانتى وبنين هو أساساً احتفال دينى مرتبط بالزراعة . ويؤكل محصول اليوم

(٧٣) تحفة النظار ، الصفحة ٦٨٩ .

« ومنها شجر اسمه فاريتى ، حمّله شببيه بالليمون وطعمه يشبه الكمثرى بداخله نوى ملحم ، يؤخذ ذلك النوى وهو طرى ، فيطحن فيخرج منه شئى شببيه بالسمن يجمد ، وتبيض به البيوت وتوقد منه السروج ، ويعمل منه الصابون وإذا قصد أكله وضع .. صبيح الأعشى ، الجزء الخامس ، الصفحة ٢٨٨ .

(٧٤) اليوم : نبات من الفصيلة الديوسقورية ، منه أنواع تزرع لدرناته التى تؤكل ، وأنواع للتزين . ولفظه يام معريه عن البرتغالية ، وهذه من أصل إفريقى .

الجديد فى احتفال كبير بعد أن يضحى بالرقيق قربانا لإلهة الأرض كى يزيد دمهم من خصوبة التربة . وفى اليوم الخامس يوفد رسول إلى الأسلاف . ولاحتفال اليوم دلالة سياسة أيضاً . ففى أشانتى وداهومى وبنين يتعين وجود الرؤساء الصغار فى البلاط خلال هذا الاحتفال .

وعلى شاطئ المحيط كان المحصولان الرئيسيان ، إلى جانب اليام ، هما الكسافا ونخيل الزيت . وهذه المحاصيل الثلاثة تشكل أغذية السكان الأساسية . وقد ازدهرت القاقلة الذكرية لبعض الوقت إلى أن أتى الفلفل الهندى على سوقها ، وحاول البرتغاليون إدخال شجرة جوز الهند ، ولكن المحاولة أخفقت .

كيف كانت الزراعة منظمة فى بلاد السودان ؟ ففى إمبراطورية السنغى كان الامبراطور نفسه أكبر مالك الأرض ، ويذكر الفتاش أنه توجد ضياع ملكية فى جميع أقاليم الإمبراطورية .^(٧٥) كذلك كان الحكام والوزراء يمنحون مساحات ضخمة من الأرض ، وكان العلماء بدورهم يمنحون مساحات ضخمة . ويقدم كعت مثلاً للسخاء الملكى ، هو أن محمد تُل - المعلم الواسع النفوذ - قد منح سبعين قرية بجميع من يقيم عليها من الرقيق ، كما مُنح حق تسلم إيجار الأرض من الرجال الأحرار فى هذه القرى .^(٧٦) وكان النبلاء والعلماء هم كبار ملاك الأرض ، ولم يكن الملك يمنحهم الأرض فقط ، بل الرقيق اللّازمين لأعمال الزراعة أيضاً .

ولكن الرقيق الذين يفحلون الأرض تم إمتلاكهم فى الحروب ،^(٧٧) فقد أدت الحروب المستمرة مع مالى إلى امتلاك أربع وعشرين من القبائل المستعبدة ،

(٧٥) « وليس فى قرية من قرى ماذكرناه إلا وله فيه عبيد وفنّف وحرث . » تاريخ الفتاش ، الصفحة ٤٩ . [الفَنَف هو الملاحظ أو المشرف .]

(٧٦) « ويكون ماوجد فى تلك المسافة من ثلاث قبائل - ملكا له ، أى للشيخ محمدتل ، ومن ليس هؤلاء فيكون حوزا له » المرجع نفسه ، الصفحة ٣٢ .

(٧٧) « ثم سألّه أيضاً (أسكيا محمد سأل السيوطى) عن أمر أربعة عشر قبيلة الذين وجدهم بيد شى بار مملوكة له ورثها عن أبائه فقال الشيخ صفهم لى فوصفهم له فقال أما نصفهم فملكه لك سائغ وأما النصف الآخر فتركهم أفضل لأن فيه شبهة . » المرجع نفسه ، الصفحة ١٤ .

ثلاث منها تنتمى إلى البمبرة ، وأفرادها أقنان يعملون بالزراعة لدى ملوك مالى ، وقد قام حكام السنغى بتوطين الزارعين المهرة من أبناء هذه القبائل الثلاث فى ضياعهم ، وفى الحملات ضد الموسيقى والدوغون ثم اقتناء أعداد أخرى من الرقيق ، وتم توطين رقيق الموسيقى فى منطقة دِنْدِ .

ويتفاوت عدد الرقيق فى كل ضيعة بين عشرين ومائة أسرة حسب مساحتها .^(٧٨) وتتكون كل أسرة من رجل وزوجته وأطفاله وتمنح قطعة من الأرض تفلحها من أجل الملك ، وتعمل تحت إشراف ملاحظ يعرف بالفَنَفَ ينتمى إلى رقيق المالك . ويشرف فَنَفَ واحد على عمل عشرين أسرة من الرقيق ، وإذا كانت المزرعة كبيرة - يورد كعت مثالا لمزرعة فى دند يعمل بها مائتا رقيق - يعين فَنَفَ كبير ليكون مسؤولا عن المزرعة .

وإلى أن جاء أسكيا محمد كان الملك يمتلك كل ما تنتجه المزارع الملكية ، ويستخدم هذا الانتاج لمواجهة متطلبات أهل بيته الكثيرى العدد ، بمن فيهم رقيق البلاط ، وكذلك لإطعام القوات الموجودة فى الحاميات المختلفة . أما الفائض فيخزن فى الشئون الملكية لمواجهة أى نقص عارض . ويقوم الحاكم بتوفير البنور والأكياس الجلدية التى تعبأ فيها الحبوب . وفى وقت الحصاد يقوم كبار الموظفين فى إدارة الإيرادات بزيارة المزارع للإشراف على الحصاد والتعبئة ، واعتاد الملك أن يمنح الفَنَفَ المسؤول عن مزرعة ما قضيبا من الملح وبعضا من جوزة الكولا وقميصا أسود ورداء أسود لزوجته .^(٧٩)

و الناتج من المزارع الملكية يكفى لسد احتياجات البيت الملكى . ويقول كعت

(٧٨) « فى تحت يد بعض الفنافى مائة عبد وعند بعضهم خمسون وستون وأربعون وعشرون ... » المرجع نفسه ، الصفحة ٩٤ . [الفنافى جمع فَنَفَ]

(٧٩) « ويرسل أسكى لرئيسهم مع الرسول الذى يأتى لحمل صنونه ألف كورية والكملية الواحدة من الملح والقميص الأسود والملحفة السوداء لزوجة ذلك الرئيس » المرجع نفسه ، الصفحة ٩٥ . [الصُنُون جمع صُنِيَّة ، وهى كيس من الجلد يسع حوالى ٢٥٠ لترا ؛ والكملية هى القضيبي .]

إن هذا الناتج يتجاوز في بعض السنين أربعة آلاف كيس يسع كل كيس ما بين مائتي لتر ومائتين وخمسين لترا من الحبوب .^(٨٠) والنبلاء بدورهم ينتجون طعاما يكفي أهل قصورهم . أما الطبقات الفقيرة فتتضور جوعا أو تعيش على التسول ما لم تكن مرتبطة بأحد النبلاء . وهناك ضياع موقوفة على المساجد ، ومن ثم فهي مخصصة لسد حاجة أبناء السبيل . فأسكيا داوود ، على سبيل المثال ، قدم مزرعة يقوم بفلاحتها ثلاثون من الرقيق لسد حاجة الفقراء في تمبكت^(٨١) ، ولابد أن آخرين قد اقتفوا أثره .

ويبدو من رواية الفتاش أن المنح الملكية إذا لم تستخدم فلا بد أن ترد للتاج ، من ذلك أن الملك كان قد منح حقل أرز لأحد المعلمين ، فأهمل فلاحته ، فادعى كَبَرُ هَرَم .^(٨٢) ، وهو رقيق يقع الأرز في منطقة نفوذه ، أن المعلم فقد حقوقه في حقل الأرز بسبب الإهمال ، وقال إن الحقل نتيجة لذلك قد أعيد إلى أملاك الملك وإنه من واجبه كممثل للملك أن يقوم بفلاحته .

ولا يبدو أن السودان قد تمتعوا برخاء أكبر في العصور الوسطى . فالطبقة العليا من الأمراء والتجار والمعلمين كانت أفضل حالا بكثير ، كما أن أحوال المسلمين الفقراء لم تكن شديدة السوء ، ولكن الوثنيين - وهم كثيرون - كانوا يعيشون بالتاكيد في ظل ظروف بدائية للغاية . ذلك أن قدرهم في ظل حكام يعتبرونهم "أشياء" تباع كان قدرا يدعو إلى الأسى حقاً .

(٨٠) « وقد يحصل له من ذلك من الطعام في بعض سنين ما ينيف على الأربعة آلاف صنية » المرجع نفسه ، الصفحة ٩٤ .

(٨١) « وكان يرسل (أسكيا داوود) للقاضي العاقب بن محمود كل عام أربعة آلاف صنية ينقسمها على مساكين تنبكت وأقام لمساكين تنبكت جنانا فيها ثلاثون عبدا اسمه جنان المساكين » مرجع نفسه ، الصفحة ١١٥ .

(٨٢) هَرَم معناها حاكم ، والمعنى هنا حاكم كَبَر ، أو كابرة في كتابات أخرى .

الفصل الثاني عشر

الإدارة

أولا

الدولة كيان اصطناعي تعتمد قوته على مدى حسن تنظيمه . وما المحافظة على القانون والنظام ، وتوفير الأمن في وجه العدوان الخارجي ، ووجود نظام للقوانين ونظام محكم لجمع الإيرادات ، سوى علامات مميزة لدولة حسنة التنظيم . وقياسا على هذه المعايير هل يمكن القول بأن إمبراطوريات السودان في العصور الوسطى كانت نولاً أكثر منها تجمعات ضخمة من القبائل ، أدت إليها وجمعت بينها القوة المجردة ؟ الإجابة على هذا السؤال واضحة لا لبس فيها ؛ فقول السودان في العصور الوسطى كانت لديها تنظيمات على درجة عالية من الكفاءة . ومن الخطأ النظر إليها علي أنها دول إقطاعية . فالإقطاع بمعنى حيازة أرض من أمير إقطاعي يدين له فرد في المقابل بالولاء ، ويؤدي له خدمة عسكرية ، لم يتطور في غرب إفريقيا . والحقيقة أنه نشأ في مناطق معينة من غرب إفريقية إقطاع وليد . غير أن هذا الإقطاع يختلف اختلافا له دلالتة عن الإقطاع الذي وجد في أوروبا .

ففي بلاد السودان كان النظام العام نوعا من السمو والسيادة ، والسلطة العليا يُعترف بها على أنها التفوق ، ولكن الدول التابعة تحتفظ ببلاطها الخاص وجيوشها . وكان كل من الجزية والرقيق هما الأسلوب المألوف الذي يتبعه الأمراء المهزومون تعبيراً عن اعترافهم بالإمبراطور سيّداً لهم . ويعنى هذا أن سلطة هؤلاء الأمراء تظل كاملة ، وأن أى إضعاف للسلطة الإمبراطورية كان يؤدي إلى ثورات مستمرة . وهكذا نجد في تاريخ هذه الدول تكرارا للحملات ضد نفس الشعب .

وقد اختلف التنظيم من منطقة لأخرى . ففي مالى والسنگى وغيرهما من إمبراطوريات السودان كانت الدولة منظمة كوحدة ومقسمة إلى إدارات إقليمية . واتباع إطار مماثل فى داهومى . ولكن فى بلاد الیوربا والأشانتى كان الحاكم رئيسا لاتحاد ؛ ويحتفظ الحكام الخاضعون له بسلطتهم فى مناطقهم . وفى بنين كانت سلطات النبلاء الذين يتوارثون ألقابهم ، حتى وإن قُيدت ، سلطات لها دلالتها ؛ وفى الیوربا كان الألفين أويو يُعترف به باعتباره الحاكم الأعلى ، ولكن عليه أن يؤكد سلطته من وقت لآخر ليُجعل دعاواه المبهمة حقيقة واقعة . أما حكام ممالك الیوربا المختلفة فكانوا أن يكونوا مستقلين ، وقد أجرى فروبنیوسن مقارنة بارعة بين نول الیوربا وبين الإمبراطورية الرومانية المقدسة .

وهكذا يمكن تقسيم النظام الإدارى فى بلاد السودان إلى فئتين عريضتين : أولاهما تتكون من برنو ویوربا وبنين ، ولديها نظام إقطاعى وليد به نبلاء بالوراثة يسيطرون على مقاطعات . والنظام ربما بلغ حد الكمال فى برنو فى عصورها الأولى ، فهنا كان مجلس الملك يسيطر عليه أمراء الأقاليم الذين يكونون فى بعض الأحيان أقوى من الملك ، فالكيغامة والغلديمة والیريمة ^(١) ، على سبيل المثال ، أمراء إقطاعيون أقوياء ، بل هم أمراء عسكريون شبه مستقلين . وكانت طبقة الأمراء - بسبب كثرة أولاد الملوك - عنصر تمزيق فى الإمبراطورية . أما فى مالى وسنگى ، وربما فى غانة ، فالعناصر الإقطاعية كانت ضعيفة ، والسلطة عادة فى أيدي أمراء أو حكام يدفعون الجزية أو قادة عسكريين . ومن **الفتاش** يمكن الحصول على فكرة عن الإدارة فى إمبراطورية السنگى . ولذلك يجدر أن ندرس بشئ من التفصيل التنظيم الإدارى لهذه الإمبراطورية .

كان تنظيم إمبراطورية السنگى بسيطا للغاية . ففي المركز توجد السلطة الإمبراطورية وحولها تتجمع الدول التابعة التى تدفع الجزية ، وتقدم الهدايا المعتادة ، وتساعد السلطة الإمبراطورية فى حملاتها على الدول الأخرى بالرجال والمؤن . وفى بعض الأحيان يوجد فى البلاط ممثل مقيم للإمبراطور ، ولكن

(١) انظر الحاشية ٦ - ٧٠ أعلاه .

سلطته محدودة ، وبوسع الدول التابعة أن ترفع راية العصيان فى أى وقت تضعف فيه السلطة المركزية ، أو إذا ارتقى السلطة فى الدول التابعة أمير مولع بالحرب .

والأقاليم الرئيسية فى الإمبراطورية أفضل تنظيما ، فهى مقسمة إلى مناطق يتولاها حكام . وهؤلاء الحكام يكونون غالبا أمراء من الدم الملكى ، إما إخوة للإمبراطور أو أبناء عمومته ، ويتوقف توليهم لمناصبهم على الرضى الملكى ، وبإستطاعتهم الانتقال من مقاطعة لأخرى .

وكان النظام الإدارى فى الواقع على ثلاثة مستويات : نواب الملك الكبار الثلاثة - **الكرمن فار** ^(٢) الذى يسيطر على المناطق الشمالية ؛ **البغد فار** ^(٣) الذى يسيطر على المناطق الجنوبية ؛ **الباغن فار** ^(٤) الذى يسيطر على المناطق المتاخمة للمالى . وهذه المناصب يشغلها الأمراء الذين يتمتعون بثقة الإمبراطور الكاملة ، والكرمن فار هو أيضا **الكتفار** ^(٥) ، وهو لقب شرفى يعترف بحامله على أنه الأمير الأول . والكرمن فار هو أكثر المناصب أهمية فى الإمبراطورية ، وفى عهد

(٢) **كُرمَن فار** : أى حاكم **كُرمَن** ، وكلمة **فار** أو **قَرَن** أو **قَرِن** أو **قَرَب** من أصل **مندنغو** ومعناها رئيس أو حاكم أو قائد عسكري ، وكرمن فار هو أرفع منصب بعد الأسكيا ، وقد شغله عمر أخو أسكيا الحاج محمد ، وكرمن هو موطن محمود كعت صاحب تاريخ الفتاش ، «اعلم رحمنا الله وإياك أن الإمام العادل والسلطان الفاضل أسكيا الحاج محمد لما تولى السلطة أقام طريقة سنغى وجعل فيها قواعد وذلك أن ليس له أحد فى جنده يفرش له فى مجلسه إلا جنكى وكلهم يحملون له التراب إلا جنكى فإنه لا يحمل إلا دقيق الطعام وكلهم يقلعون الطاقية عند حمل التراب إلا كرمين فار» تاريخ الفتاش ، الصفحة ١١ .

(٣) **بُغدفار** : رئيس أو حاكم دند فى جنوب السنغى . «وليس فيهم من يتعدى عليه بقول الصدق إلا بُغدفار» المرجع نفسه ، الصفحة ١١ .

(٤) **باغن فار** : أى رئيس باغن أو حاكمها . وباغن مقاطعة تابعة ضخمة المساحة بين بحيرة ديبو وتمبكت ، «وفى العام الخامسة غزى (أسكيا محمد) باغن فار» . المرجع نفسه ، الصفحة ٧ .

«وفى السابع عشر أرسل (أسكيا محمد) عليا المسمى **كَلْ قَلْن** وبلغ محمد كرى إلى باغن فار مع **قَت**» . المرجع نفسه ، الصفحة ٧٦ .

(٥) **كتفار** : كلمة من أصل **مندنغو** تعنى الحاكم الأول أو الرئيس الأعلى .

« فاستغاث لذلك بكتفار عمر » . المرجع نفسه ، الصفحة ٤٠ .

أسكيا محمد شغله عمر فى أول الأمر ثم يحيى بعد موته ، وكلاهما من إخوة الإمبراطور ، وبعد موت يحيى ، خلال حكم أسكيا ، شغل عثمان بن أسكيا محمد منصب الكرمن فار ، وعندما تولى أسكيا محمد بونكان السلطة ، عهد إلى أخيه عمر بهذا المنصب . وقد شغله حماد حفيد أسكيا محمد بعد موت بونكان وفرار عمر ، وعند موته خلفه على كُسل^(٦) ابن أسكيا محمد . وخلال عهد أسكيا داوود تولى هذا المنصب ثلاثة أشخاص : أحدهم كسيه الزغراني^(٧) ، وقد يكون هو الشخص الوحيد الذى ولى هذا المنصب من غير أفراد الأسرة الحاكمة ؛ وخلفه يعقوب أخو إسماعيل ؛ وأخيراً محمد بوندان بن داوود . وخلال عهد إسحاق الثانى شغل منصب الكرمن فار محمود ابن أسكيا إسماعيل^(٨) .

ولكن الفتاش الذى ينكر بالتفصيل أسماء الأمراء الذين شغلوا منصب الكرمن فار لا يشير إلى نائبي الملك فى بُدٍ وباغن ، وتوضح إشارة عارضة أنه يتولاهما أمراء إما إخوة للإمبراطور عن طريق الأم أو من أقرب أقربائه ، والأرجح أنه ساد فى بُدٍ وباغن نظام مماثل ، لأن السنغى فى دند على صلة بكب وممالك الهوسا وغورمة وممالك الموسى الجنوبية ؛ ولم تكن باغن تسيطر فقط على المناطق الغربية والمناطق المتاخمة للمالى ، وإنما على الصحراء الجنوبية حتى ولاته أيضاً . وكان السنغى يعلقون أهمية كبيرة على حوهم الشمالية ، لأنه إلى جانب منصب نائب الملك كان أهم قائد عسكري لديهم ، وهو بَلَمَع^(٩) يوجد أيضاً فى الشمال ، ويتخذ مقر قيادته فى كابرة .

(٦) «ثم أمر بأن ينادى كل من حضر هنالك من أولاده كلس فرم ... وكنفار على كُسل وأحضروهم وأمره بقراءة الكتاب عليهم .» المرجع نفسه . الصفحة ٧٤ .

(٧) «كسيه بن هولم : وهو زغراني الأصل ، وكان من أحباب أسكى داوود وأحظى الناس عنده فلما تولى داوود اسكيويه وكسى حينئذ يكون بلمع وجعله كنفار ومات فى كنفاروية فى بلد بوى وقبره هناك .» المرجع نفسه ، الصفحتان ١٨٥ و ١٨٦ . (كسى هو كسيه .)

(٨) «ثم كرمن فار يعقوب بن أسكى محمد تولى بعده ومكث فيها خمسة عشر سنة ومات فى تندر ... ثم كرمن مربنكن بن داوود عقب يعقوب ثم عزل حين مات أبوه أسكى داوود وتولى أخوه الحاج أسكيويه ... ثم كرمن فار محمود بن إسماعيل تولى كنفاروية بعد صالح وهو آخر كرمن فار ...» المرجع نفسه ، الصفحة ١٨٦ . مربنكن الوارد فى هذا الاقتباس هو نفسه محمد بونكان الذى أشار إليه پانيكار خطأ على أنه محمد بوندان .

(٩) بَلَمَع : لقب بلغة المئنگو يعنى الأمين العام للمملكة . ويرد جمعه بلامع فى المرجع نفسه ، الصفحة ١٨٦ .

ونواب الملك الثلاثة هم أهم موظفى الإمبراطورية ، ويسيطرون مع بلمع على معظم قواتها المسلحة ، وبإستطاعتهم إذا وحبوا قواهم أن يطيحوا بالأسكيا ، ولذلك يشغل هذه المناصب أكثر من يوثق فيهم من الأمراء .

وبينما كانت المقاطعات الوسطى تخضع لإدارة مباشرة ، فإن غالبية المقاطعات كان يحكمها أمراء تابعون من أهمهم البركى^(١٠) وهو الحاكم الوحيد الذى يشير إليه تاريخ الفتاش على أنه ملك ، وترجع أهمية بر إلى موقعها ، فبسبب وقوعها على الذراع الأيمن للنيجر ، أسفل كرمن ، فإن لحكامها دورا هاما فى تاريخ السنغى ، كما أن حاكم بر هو الأمير الحاكم الوحيد الذى أيد الأسكيا فى العصيان الذى وقع ضده ، وكوفىء على ذلك بمنحه حكم قر .^(١١) ولكن محاولة ثانية للقيام بنفس الدور خلال ثورة بلمع صادق^(١٢) انتهت بكارثة ، إذ تمكنت قوات إسحاق الثانى من تخريب بر . وهكذا فمن الخطأ اعتبار الدول المختلفة التى أشارت إليها التاريخ مقاطعات فى الإمبراطورية ؛ فهى أساسا ولايات تابعة تعترف بسيادة الإمبراطور . وبينما يشير الفتاش مرارا إلى الكرمن فار وبلمع ، وأحيانا إلى الدندفار والباغن فار ، باستثناء مملكة بر ومقشرن كى^(١٣) ، فإنه لا يشير مطلقا إلى حكام الممالك التابعة .

(١٠) البركى : كى بلغة السنغى معناه الرئيس أو صاحب الأمر والنهى ، بر مقاطعة شمال بحيرة ديبو على الذراع الأيمن للنيجر ، «ولا فيهم من ينهائهم عن أمر ويتبعه أحب أم كره إلا بركى .» المرجع نفسه ، الصفحة ١١ .

(١١) «ومع أسكى محمد بركى منس كور وليس معه أحد من سلاطين التكرور وسنغى غيره ولم يجبه أحد دعاه غيره ونصره الله أسكى محمد الحمد لله على ذلك فهرب شى بار إلى زاغ ... وكلهم مع شى بار إلا منس كور وحده فإنه هرب إلى أمير أسكى محمد وبايعه ... مع بركى منس كور بن موسى الذى أمره أسكى محمد على أرض قر حين نصره الله على شى بار .» المرجع نفسه ، الصفحات ٥٣ و٥٤ و٥٥ - [منس هنا بمعنى ملك بلغة المندنغو ، وهو لقب يحمله رؤساء بر .]

(١٢) بلمع صادق : ابن أسكيا داوود . «وأما سبب الشر الواقع بين أسكى محمد بان بن أسكى داوود وبين أخيه بلمع صادق وذلك سبب فناء سنغى وفتح باب الشر بينهم وسبب فساد ملكهم وقطع سلك نظام دولتهم إلى أن نزلت محلة أهل مراکش بهم .» المرجع نفسه ، الصفحة ١٢٦ .

(١٣) مقشرن كى : رئيس المقشرن ، وكان المقشرن يشكلون إحدى قبائل الطوارق بالقرب من النيجر «وبنت زوجة مقشرن كى ماتت ببلدة تنبكت .» المرجع نفسه ، الصفحة ١١٨ .

ومن سوء الطالع أن الإدارة في إمبراطورية السنغى ليست مدعمة بصورة كاملة بالوثائق ، والقليل الذى نعرفه من تاريخ الفتاش يسمح لنا بأن نفترض وجود إدارة عالية التنظيم لديها ، إذ يقدم ، على سبيل المثال ، قائمة بالمناصب الهامة يمكن منها أن نلم بفكرة عن هذا النظام الإدارى ، فقد كان هناك نواب الملك الثلاثة :

الْكُرْمِنْ فارٍ : ويقال عادة الكنفار - نائب الملك فى كُرْمِنْ ، وعاصمته تَنْدُرْمَ .

الدِنْدِ فارٍ : نائب الملك فى دند فى الجنوب .

الباغن فارٍ : نائب الملك عند الحدود الشمالية والغربية ؛ ويسيطر على الحدود المتاخمة لمالى .

كذلك كان هناك الأمراء التابعون الآتون :

بَرَكِيْ

بَن كِيْ

دِرِم كِيْ

تمبكت كِيْ

تَرْتَنَكِيْ

كَرَكِيْ

چِنَكِيْ

هَنْبِرَكِيْ (١٤)

مَقْشَرَن كِيْ

(١٤) «أما دِرِم كِي سندی ، وترتنكى ، وبن كى ، وكركى ، وچنكى وغيرهم ...» المرجع نفسه ، الصفحة ٥٤ .
« هَنْبِرَكِيْ مَنْسَ ... » المرجع نفسه ، الصفحة ١٨٠ .

ويشير تاريخ الفتاش إلى الحملات التي وجهت ضد تمبكت وچنى ، ويقول صراحة إن چنكى ظل يحكم مملكته حتى بعد الغزو . (١٥)

وكان بلمع أكثر الزعماء العسكريين أهمية ، ويشغل منصب قائد عام الجيش ، وتحت إمرته ضباط كثيرون أهمهم :

١ - الأسكيا : كان لقباً حربياً إلى أن اضطلع أسكيا محمد بالسلطة العليا . (١٦)
ويذكر الفتاش أن أسكيا باغن قائد جيشاً ضد تسك (١٧) ، كما يشير إلى محمد الذى خلف باغن فى منصب الأسكيا على أنه قائد فى الجيش .

٢ - المارنّف : بعد أن أصبح أسكيا لقباً لملوك الأسرة الحاكمة يبدو أن وظائف ذلك المنصب مارسها المارنّف ، فاسحاق ، على سبيل المثال ، قام بترقية أخيه محمد هاو من منصب المارنّف إلى منصب بلمع . (١٨)

٣ - ترع فرم (١٩) : رئيس الخيل .

٤ - ديينا فرم (٢٠) : قائد المقدمة .

(١٥) «أرسل رسوله إلى تنبكت وهو فى بلد چن يحاصره واثاه بأن أهل تنبكت يهربون ...» المرجع نفسه ، الصفحة ٤٨ .

« وچنكى من أصغر عبيد ملكى وارذل خدمه وحسبك أنه لا يقف إلا على زوجته أى زوجة ملكى ولها يعطى غرامة إقليم چنى . » المرجع نفسه ، الصفحة ٣٧ .

(١٦) « فانظر اسم اسكى فى وقت شى وزمنه وهو بخلاف ما عليه الناس بأن اسكى هو أول من لقب به . » المرجع نفسه ، الصفحة ٤٦ .

(١٧) « ثم اخرج اسكى يغن وارسله إلى تسك .. وهزم تسك جيش اسكى بغن . » المرجع نفسه ، الصفحتان ٥ و٤٦ .

(١٨) « واطلع أخاه محمد كاغ مارنّف وجعله بلمع . » المرجع نفسه ، الصفحة ١٤٥ ، [محمد كاغ هو محمد غاو ، وقد ورد خطأ فى المتن محمد هاو .]

(١٩) « ومن أولاد ترع فرم الفك . » المرجع نفسه ، الصفحة ٨٠ .

(٢٠) « وذلك أن ليس له أحد فى جنده يفرش له فى مجلسه الا چنكى . » المرجع نفسه ، الصفحة ١١ .
[چنكى هو دييناكى أو ديينا فرم .]

٥ - تُنْدِ فَرَمَ^(٢١) : قائد الجبل ، وقد تولى أسكيا محمد هذا المنصب قبل أن يصبح أسكيا .

٦ - كَرَى فَرَمَ^(٢٢) قائد المعسكر .

٧ - كُتْلُ فَرَمَ
٨ - كِسْرِيَّتْكَ
٩ - حَصْلُ فَرَمَ

واجبات هذه المناصب غير معروفة ، ولكنها بوضوح ألقاب حربية ، فحصل فرم ، على سبيل المثال ، أرسل لمطاردة الثائر بلمع صادق .^(٢٣)

وكان الأسطول صغيراً نسبياً ، وليس به سوى ضابطين لهما بعض الأهمية ، وكان الهيكى هو قائد الأسطول^(٢٤) ، وله أهمية بالغة ، حتى أنه أسندت إليه القيادة المستقلة لأحد الجيوش فى عهد سن على ، وكان الضابط الآخر هو الحار فرم^(٢٥) رئيس الملاحة .

وإلى جانب هؤلاء الضباط العسكريين ، الذين يبدو أنهم يشاركون فى الإدارة المدنية ، كان هناك عدد كبير من الوزراء الذين يتولون الإدارات المختلفة ، ومن بينهم :

-
- (٢١) « وفى هذا الجيش اسكى محمد وهو ملقب يومئذ بتتلفرم . » المرجع نفسه ، الصفحة ٤٦ .
(٢٢) « وكرى فرم علو . » المرجع نفسه ، الصفحة ١٤٨ .
(٢٣) « وفيه أخوه عمر كمزاغ وهو يومئذ كتل فرم . » المرجع نفسه ، الصفحة ٤٦ .
« ولا من يناديه باسمه (الحاج محمد) فى مجلسه إلا كسريتك . » المرجع نفسه ، الصفحة ١١ .
« واختار من قومه خمسين فارساً وأمر عليهم حصل فرم علو ... واحقهم حصل فرم هناك وخيول أصحاب بلمع (صادق) فى المرعى يأكلون الحشيش ودخل حصل فرم وقومه بينهم وبين خيولهم وجمالهم وهناك أخذوا جميع من معه وما معه من الجوارى والبسط وقبضوا جميع من تبعه إلا بلمع وحده فإنه رمى فرسه فى بحيرة كيم . » المرجع نفسه ، الصفحات ١٢٧ إلى ١٢٩ .
(٢٤) « وفى الجيش هيكى انظر أيضا اسم هيكى فى تولته وهو أيضا بخلاف ما يقولها أهل سنغى بأنه لم ينشأ إلا فى زمن اسكيا محمد وذكروا سبب تلقيب هيكى بذلك . » المرجع نفسه ، الصفحة ٤٦ .
(٢٥) « وهار فرم عبد الله ... » المرجع نفسه ، الصفحة ٧٤ . [حار فرم بلغة السنغى معناه وزير المياه . أى المسئول عن شرطة الأنهار والبحيرات ومصايد الأسماك الخ .]

فار منذُ : ربما كان أهم منصب مدنى فى الإمبراطورية ، وقد شغله كل من
إسماعيل وداوود قبل ارتقائهما العرش ، ومن المحتمل أنه كان مسؤولاً عن
الشؤون الداخلية . (٢٦)

ونيفرم : وزير الأرض .

باكل فرم : وزير الزراعة .

سع فرم : وزير الغابات .

كيسفرم : وزير الخزانة .

بنفرم : وزير المرتبات (مرتبات الجند والموظفين) .

باركى : وزير المبادلات (التجارة) .

دعى فرم : وزير المشتريات .

أرميز :
جيمكى : { وزيراً الأشغال العامة ، عهد إليهما ببناء تننرم .

كزى فرم : وزير البيضان .

ودكى فرم : وزير التموين .

كار فرم : وزير العدل .

لتن فرم : دلالة هذا المنصب غير معروفة . (٢٧)

(٢٦) « وكان فى أيام اسكى إسماعيل قحط وجوع وكان فار منذ يوم ينتقل ويطلع اسكويه . » المرجع
نفسه ، الصفحة ٨٧ .

« فأجابه كبيرهم وهو فار منذ . » المرجع نفسه ، الصفحة ١٠٥ .

(٢٧) ونيفرم : « ونيفرم ... » ، الصفحة ٧٤ .

باكل فرم : ورد اسمه خطأ فى النص الإنجليزى وصحته بابل فرم . « وبابل فرم فعم ... » الصفحة ٧٩ .

سع فرم : « وقام سع فرم وقال ... » الصفحة ١٥٠ . [ورد شاع فرم أيضاً فى موضع آخر من تلويخ

الفتاش : « شاع فرم علوا . » الصفحة ٧٤ .

=

وإلى جانب ذلك كان للمدن والقرى أيضا موظفوها الخاصون بها ، فالقرية لها رئيسها المسؤول أمام رئيس المقاطعة ، المسؤول بدوره أمام حاكم الإقليم . أما المدن فكان لها نظام أكثر إحكاما وتعقيدا ، فكل مدينة تخضع لحاكم يعرف بالقرَّب^(٢٨) . وكان حكام المدن عادة من سلالة الرقيق . ويشير الفتاش إلى حاكم كَبَر الذي تحدى سلطة بلمع ودعاه رقيقا متغطرسا .^(٢٩) وكان تحت إمرة القرَّب موظفون مختلفون يذكر كعت منهم :

مُنْذُ : مفتش شرطة المدينة أو رئيسها ؛

أشْرَع مَنذُ : منفذ الأحكام ؛

تَصَر مَنذُ : اختصاصه غير معروف ؛

بَرَبُوش مَنذُ : المسؤول عن الأجانب ؛

كُتْر بَنْدَ مَنذُ : المسؤول عن ضواحي المدينة ؛

= كلسفرم : «كلسفرم سليمان .» الصفحة ١١٨ .

باركى : «باركى بكر الزغراني .» الصفحة ٦٥ .

دعى فرم : «دعى فرم سن .» الصفحة ١١٨ .

أرميز : «أن يأتيا تندرهم ويتمان بناء سور داره والذي يتولى تلك البناء أرميزر واخاه باركى بكر الزغراني ابني دند فار .» الصفحة ٦٥ . وهكذا يتضح أن من عهد إليهما ببناء تندرهم هما أرميز وباركى بكر، وليس أرميز وجيمكى كما ورد فى المتن . «وقام جيمكى داوود بن اسحاق .» الصفحة ١٥٠ .

كُرى فرم : الوزير المسؤول عن شؤون الأسر البيضاء المقيمة فى المملكة والمسافرين العرب أو البربر .

«كرى فرم مور موسى .» الصفحة ٧٩ .

وَرَكى : «وَرَكى حمّاد» ، الصفحة ١١٨ .

كَلَر فرم : «كَلَر فرم بَكْر» ، الصفحة ١١٨ .

لُنْتَن فرم : «لُنْتَن فرم بَكْر» ، الصفحتان ١٠٥ ، ١١٨ .

(٢٨) القرَّب : كلمة بلغة المندنجو ، وقد تكون اسما لشخص أو لقباً ، ومعناها الرئيس الكبير .

«ثم أمر بعبده الذى هو رئيس عبيده وقومه المسمى فرب» الصفحة ٣٤ .

(٢٩) «وقصة ذلك .. إن كبر فرم كان غلاما (حاكما) لاسكى على كَبَر على عادتهم ومسكن بلمع ودار

سلطنته هى كبر .. وكان كبر فرم علوا هذا ظلوما غشوما خصيا فاجرا مسيطرا جاهلا جبارا عتيذا ...» ،

الصفحة ١٢٦ وما بعدها .

يُوبُ كِي : رئيس الأسواق . (٣٠)

ولدى إمبراطورية السنغى أيضاً عدد كبير من الموظفين الملحقين بشخص الإمبراطور ، أهمهم أسكيا الفع^(٣١) رئيس المجلس القضائي الخاص بالملك والمعلم الملحق بالإمبراطور ، ويعمل تحت إمرته عدد كبير من الكتبة ، من بينهم :

١ - باريكُي : رئيس المراسم والمشرف على الاحتفالات ؛

٢ - هُك كُري كِي : الخصى الرئيسي (رئيس خصيان القصر) ؛

٣ - هو كُركي : الأمين العام للقصر ؛

٤ - وَتَدَع : المترجم ؛ وربما كان المتحدث الرسمي باسم الملك ؛

٥ - غارشغ : المشرف على الخيل ؛ وربما يعهد إليه بالإشراف على الاسطبلات الملكية .

٦ - زَنَغ : اختصاصه غير معروف ؛

٧ - طُرُكُي : الحلاق الملكي .

٨ - جِيْمَكِي : رئيس خدم القصر ؛

(٣٠) «تنبكت منذ والبربوش منذ وكُيَر بند منذ .» الصفحة ١١٠ . [البربوش قبيلة عربية من قبائل موريتانيا الرئيسية .]

أشعر منذ لقب يستخدمه السنغى بمعنى رئيس الشرطة أو منفذ الأحكام ، وهو مكون من كلمة شرع (شريعة) التي انتشر استخدامها في لغات السودان في صورة الشرع . « هكذا قاله بابا أشعر منذ بمدينة چنى .. » الصفحة ٣٥ .

«وأصحاب اسكى الذين كانوا سكان تنبكت منذ وتصر منذ .» الصفحة ١٣١ .

ورد بحاشية بالصفحة ٢٠٣ من الترجمة الفرنسية لتاريخ الفتاش أن بربوش منذ هو المسؤول عن شؤون البربوش العرب . «والبربوش منذ ..» الصفحة ١١٠ .

«ويجد بوبُ كِي وتنبكت منذ والبربوش منذ وكُيَر بَنَد منذ .» الصفحة ١١٠ .

(٣١) أسكيا الفع : سكرتير أسكيا داود وخلفائه . عرف باسم اسكى الفع الانبارى ، وكذلك باسم بكر

لنبار . « اسكى الفع بكر الانبارى . » ، الصفحة ١٠٤ « وبكر لنبار أسكيا الفع هو الكاتب . » الصفحة ١٣٤ .

٩ - قَنْفَ : رئيس الرقيق . وكان عدد الرقيق كبيراً ، وكان لهم نور هام فى إدارة الممتلكات الملكية . (٣٢)

ويشغل الأمراء غالبية المناصب الهامة فى الدولة . ويصدق ذلك بوجه خاص على مناصب الوزراء . ويذكر الفتاش أنه فى خلال عهد أسكيا محمد شغل مناصب باغن فرم وكلسفرم ونيفرم وسع فرم وكرى فرم وحار فرم هذا أو ذاك من أبنائه . (٣٣) وقد شغل إثنان من أبناء كرمين فار عمر منصبين لهما أهمية كبيرة هما : باغن فار وترع فرم . (٣٤) كذلك يتعين توفير مناصب مناسبة لأبناء الملوك الذين لا يحصى لهم عدداً . فمثل هذه الوظائف هى التى تضمن ولائهم . والبنات بدورهن لا يمكن تجاهلهن ، كما يمكن بطبيعة الحال أن يتزوجن بالأمراء التابعين . وهكذا فإن إحدى بنات أسكيا محمد تزوجت بيلمع هنبركى ، وتزوجت

(٣٢) «ثم نادوا باركى وهو كركى ويطانته وبعض كبراء الجيش .» الصفحة ١٢٢ . «وباريقى تبكل الخصى .» الصفحة ١٤٨ . وردت هذكرى كى أيضاً فى تاريخ الفتاش . «ومن أمراء النواحي ابنه اسكى موسى وهذكر على فلن وغيرهم .» الصفحة ١٦ .
«ومعه ثمانمائة رجل من الجندى منهم ابنه اسكى موسى وهك كرى على فلان .» الصفحة ٦٥ .
ونُدع : المترجم بلغة السنغى . «وقال لترجمانه ونُدع قل لهذه الجماعة .» الصفحة ١٤٥ .
غارشغ : سرّاج أو مرتّق السروج ، «فقال أنا غارشغ بكر فقال انت من جندى قال نعم .» الصفحة ١٠١ .
«فقال (اسكيا داوود) ... فقال إلى من وفى أى شىء فقال العبد بعثتلى لحمل ميراث خيمك زنگ موسى سَقَنَسَارُ» الصفحة ١٠٢ .

طوكى : حلاق بلغة السنغى . «سرق ملحفة بعض جواريه اسمها غَنغى أم طُرْكُى بِرٍ .» الصفحة ١٢٦ .
جيمكى : رئيس العمال بلغة السنغى ، المسؤول عن الأشغال العامة ، ويقال أيضاً رئيس ميناء غِيَم فى أطراف مدينة غاو . «وقام جيمكى داوود بن اسحاق ...» الصفحة ١٥٠ .
قَنْفَ : والجمع قَنافى «وليس فى قرية من قرى ما ذكرناه إلا وله فيه عبيد وفنف وحرث فى تحت يد بعض القنافى ... والقنافى جمع قنف ، وهو رئيس العبيد ويقال أيضاً لرئيس السفينة .» الصفحتان ٩٤ و ٩٥ .
«اعطاه الحرث والعبيد وفنفيهم .» الصفحة ١٠٩ .

(٣٣) «ثم أمر بأن ينادى كل من حضر هناك من أولاده كلس فرع سليمان كند تكرى وونيفرم موسى يُنْبِل وشاع فرم علوا وحار فرم عبد الله وكتفار على كسل .» الصفحة ٧٤ .
(٣٤) «وأما كرمين فار عمر قد ولد أولاداً كثيراً إلا إن أكثرهم لم يصب اسما ولا موضعاً يشتهر به غير أنهم كلهم شجعانا أهلى القتال ... ومن أولاده ترع فرم الفك ... وباغن فار عبد الرحمن .» الصفحة ٨٠ .

أخرى بيلمع محمد كرى^(٣٥) ، الذى خلفه ابنه محمد^(٣٦) فى منصب بلمع .
وأكثر بنات عمر أهمية زوجة بركى وزوجة الأمير يعقوب الذى تولى منصب كرمين
فار فيما بعد . وعند موت كرمين فار يعقوب تزوجت أرملة باسكيا داوود^(٣٧) .
ولم تكن الوظائف الهامة توفر لأبناء الحاكم وحدهم ، وإنما لأبناء الأمراء
الآخرين أيضا . فبنغفرم محمد حَيْغَ^(٣٨) هو ابن حار فرم عبد الله . كما أن
اثنين من أبناء دندفار شغلا خلال عهد أسكيا محمد منصبى ارميز وبركى^(٣٩) ،
وكان بركى ، عند ارتقاء أول أسكيا العرش ، يشغل وزارة هامة ، كما تزوج
بأبنة عمر .

ولا يقدم **الفتاش** تفاصيل عن شاغلى المناصب خلال عهود خلفاء أول أسكيا ،
ولا تتوفر أية تفاصيل أخرى إلا خلال عهد أسكيا داوود ، وهى تفاصيل تؤكد أن
المناصب الرفيعة كادت أن تكون وقفاً على الأمراء . وفى عهد داوود شغل
منصب كرمين فار على التوالى ثلاثة من أبنائه ، كما شغل منصب بلمع إبنان
آخران .^(٤٠) ومن المناصب الأخرى التى شغلها أبناء الأمباطور بن فرم ،

(٣٥) «ومن بناته ... حار دعى أم هنبركى مَنَسُ .» تاريخ الفتاش ، الصفحة ٨٠ .

«ومن بناته ... حار داكى أم هنبركى مَنَسُ .» تاريخ السودان ، الصفحة ١٣٤ .

«وجعل حماد ولد أرى بنت أسكيا الحاج محمد كرمين فارى ابن بلمع محمد كرى .» المرجع نفسه ،

الصفحة ٩٤ .

(٣٦) صحة الاسم هنا حماد : «ثم حماد أريو بن بلمع محمد كرى .» المرجع نفسه ، الصفحة ١٣٥ .

«ثم استخلف بعد هروب كنفار عثمان فى كنفاروية كرمين فار حماد بن أريو بنت اسكى محمد وأبوه

بلمع محمد كرى .» تاريخ الفتاش ، الصفحة ٨٧ .

(٣٧) «وبناته كَبَرُ تزوج بها كنفار يعقوب ثم تزوجها اسكيا داوود بعد موت يعقوب .» الصفحة ٨٠ .

(٣٨) «ثم تولى اسكى اسحاق بعد موت اسكى إسماعيل وهو حار فرم عبد الله شقيقان أمهما كلثوم

... وحار عبد الله والد بنغفرم محمد حَيْغَ .» المرجع نفسه ، الصفحة ٨٧ .

(٣٩) «وأمر اسكى محمد بلمع محمد كرى وبنكفرم على كندا نكنكى أن يأتيا تندرم ويطمان بناء سور

داره والذى يتولى البناء أرميز وأخاه باركى بكر الزغراني ابنى دندفار .» الصفحة ٦٥ .

(٤٠) «ثم كرمين فار مريكن بن داوود عقب يعقوب ثم عزل حين مات أبوه اسكى داوود ... ثم كرمين

فارى الهادى بن اسكى داوود تولى كنفارويه بعد مريكن المذكور ... ثم تولى بعده كنفار صالح ابن اسكى

داوود .» الصفحة ١٨٦ .

لنتن فرم ، دعى فرم ، ونيفرم ، كارفرم ، وركى فرم ، حار فرم ، ويشير الفتاش إلى ثلاث فقط من بناته تزوجن بالحكام الذين يدفعون الجزية والمعلمين .

أما برنوفكانت منظمة بطريقة مختلفة ، إذ كان لها طابع إقطاعي أكثر وضوحا . وفى أيام برنو الأولى كان أهم الأشخاص فى المملكة هم الأمراء الإقطاعيون الأعضاء فى المجلس الأعلى . وفى البلاط تمارس الماجير (٤١) ، الملكة الأم ، والغوسما ، الملكة ، نفوذاً كبيراً . وللأمراء والمعلمين والرقيق بدورهم أهمية كبيرة فى البلاط . ويتكون مجلس الملك من طبقتين : طبقة الكاروبى ، أو المستشارين الأحرار مولدا ؛ طبقة الكاتشيللا أو الرقيق . ومع ذلك فقبل حروب البولالا كان المجلس الأعلى مكوناً من أمراء المملكة الذين يقبصون على السلطة كلها . ويتكون المجلس الأعلى من الموظفين الآتين :

١ - الكيغامة - القائد العام للجيش ؛

٢ - اليريمة ؛

٣ - المونيوميه ؛

٤ - الغلديمة ؛

٥ - التشيرومة - ولى العهد ؛

٦ - الأريچينومة ؛

٧ - الفوفومة ؛

٨ - الكاضلمة ؛

(٤١) الماجير : الملكة الأم الشرعية ، ولكن ليس من الضرورى أن تكون الأم الحقيقية للمائى ، وسواء حكم ابنها ، إن كان لها أبناء ، أو حكم شخص آخر ، فإنها تظل محتفظة بلقبها ومنزلتها وسلطانها ، ولها الكلمة النافذة فى شؤون الحكم . وقد قضت الماجير فاطمة بحبس ابنها المائى (حوالى عام ١٩٧٧) لسوء إدارته فى شؤون الحكم . وكانت الماجير عائشة أم المائى إندريس ألوما تمارس مهام الحكم الإسمى والفعلى خلال فترة وصايتها على ابنها فى الفترة ١٥٦٣ - ١٥٧٠ . (عن الدكتور طرخان ، المرجع السابق) . ومن المشهور فى دولة البرنو الإسلامية نسبة المائى إلى الأم بسبب سمو منزلة النساء عندهم ، وأمثلة ذلك كثيرة فى الفصل السادس أعلاه .

٩ - الكاغوستمة ؛

١٠ - البغارومة .

هؤلاء النبلاء هم الحكام الوراثيون لمختلف مناطق الإمبراطورية ، وينبغي أن يضاف إثنان من أبناء الرقيق :

١١ - المسطريمة ؛

١٢ - البيرومة .

ومرة أخرى فإن الإدارة في إمبراطورية الفولاني مختلفة عنها في الدول الأخرى . فقد أنعم عثمان دان فوديو براية الجهاد الخضراء على أفراد كثيرين . وكان هؤلاء يقومون مع أبنائهم بغزو الأقاليم ، ولكنهم كانوا يعترفون بأمير المؤمنين بوصفه رئيس الإمبراطورية .^(٤٢) وكان أمراء الأقاليم حكاما مستقلين في كل الأمور الداخلية ؛ بل إنهم يشنون الحرب ويقيمون علاقات خارجية خاصة بهم . ولم تكن هناك سياسة متناسقة أو إدارة . فكل رئيس قرية بيت في كل الأمور المتعلقة بالقرية ، كما يقوم بتحصيل الضرائب التي يرسل ما يتبقى منها بعد اقتطاع حصته إلى رئيس المقاطعة . وهذا الأخير له نفس الوضع بالنسبة للأمير . وبينما يقوم الأمير بتحصيل الإيرادات فإن الجزية الخاصة بسكتو يقوم بتحصيلها موظفو السلطان . ويعهد بتحصيل الجزية من المناطق إلى موظفي سكتو المختلفين ، فالغليمة ، على سبيل المثال ، مسؤول عن تحصيل الجزية من زمفرا وكاتسنا .

ولم تكن الجزية منتظمة أبدا ، وبخاصة من المناطق الشمالية والشرقية الدائمة الاضطراب . فبينما كانت زاريا تدفع الجزية كل شهرين ، فإن كاتسنا

(٤٢) «ثم بعد نحو عام جهز أمير المؤمنين جيشا وأعطى الراية محمدا فساروا مع جيش قليل ...»
تزيين الأوراق ، الصفحة ٧١ .

«قلم يفجأني إلا صائح : السلاح السلاح ، واصباحاه ، ففرزت الرايات حتى يأخذها أمير الجيش قائد الجيوش .» اتفاق الميسور ، الصفحة ١٠١ .
«ثم أنه لما اطمأنا أياما ، خرجت بالراية في طلب القوم ، فسلكت الشمال ...» المرجع نفسه ، الصفحة ١١٠ .

كانت تستطيع دائما انتحال الأعذار لعدم دفع الجزية بحجة أن الحرب مع غوبر ومارادى تأتي على كل إيرادات المنطقة ، وأن دفع الجزية يُحمّلها ما لا تطيق . كذلك لم تكن زمفرا أفضل حالا ، إذ بينما كان لكاتسنا على الأقل أمير مسؤول عن المنطقة كلها ، فإن الحالة المضطربة في زمفرا ألزمت حاكم كل مدينة محصنة أن يدين بولاء مباشر للسلطان .

ولم يترتب على غزو الفولاني لأراضى الهوسا أى تغيير فى النظام الإدارى لمختلف ممتلكاتهم . ففى كانوا مثلاً ظلت المناصب القديمة على ما هى عليه ، وإن شغلها حكام جدد . وكان الغلديمة أكثر الموظفين أهمية ، ويقول بارث إن نفوذه يفوق نفوذ الأمير نفسه .

وكان كبار الموظفين هم : السيركين نواكى - المشرف على شؤون الخيل ؛ الباندن كانو - قائد المشاة ؛ الألكالى - القاضى ؛ التشيروما - الوارث الشرعى ؛ السيركين باى - رئيس الرقيق ؛ الغانو - المشرف على بيت المال ؛ السيركين شانو - الأمين العام للإمدادات والتمويل فى الجيش . وخلال غياب الأمير لا يعهد بالسلطة إلى الغلديمة وحده ، وإنما بمشاركة الغانو والسيركين شانو .

وفى منطقة الغابات لم يكن الحكم ديمقراطياً ، فالطابع المفك للمجتمع يعنى أن يكون لكل عشيرة رئيسها ، وأن تتوحد العشائر وقت الحرب تحت قيادة رئيس أعلى . ولما كانت السلطة مجزأة على هذا النحو فإن القرارات المتعلقة بالقبيلة لا يمكن اتخاذها إلا عن طريق التشاور ، ولذلك يجتمع الرئيس الأعلى مع كبار السن للبت فى جميع المسائل الهامة .

وهذا التنظيم كان كافياً لقبيلة ، ولكن كانت توجد على شاطئ المحيط بول مثل داهومى وبنين وأشانتي ، وهى بول تتطلب نظاماً أكثر تعقيداً . ويمكن أن نأخذ داهومى مثالا ، على الرغم من أنها من نواح كثيرة لا تصلح نموذجا . فملوكها نوا سلطة مطلقة ، وقد اكتسبوا بمرور الزمن قدسية كبيرة باعتبارهم أصلا زعماء لأبناء بلادهم . كما تعزز مركزهم الدينى عن طريق عبادة الأسلاف التى مكنت كل ملك حى من الاعتماد على أسلافه المقدسين . والملك

محور السلطة كلها ، ويمكن أن نلمس سلطاته المطلقة من حقيقة أنه يستطيع تحويل الزنجر إلى رجل أبيض ، ولم يكن هذا بطبيعة الحال يعنى تغيير لون بشرته ، وإنما الإنعام عليه بوضع معين ، فيستطيع أن يرتدى بنطلونا وأن يحمل مظلة من طراز أوروبى .

ويلى الملك فى سلم السلطة الأمراء المليون ، ويلى هؤلاء كبار موظفى الدولة ، ومنهم «مين غاو» أعلى الضباط المدنيين ويشغل منصب رئيس الشرطة ؛ ويليه «غاو» - القائد العام للجيش . وكان «ماو» - قائد الميسرة والشخصية ذات المرتبة الثانية فى المملكة - هو المتحدث الرسمى باسم الملك والمسؤول عن إعلان الحرب وتحصيل الإيرادات واستلام الجزية . أما الشخصية ذات المرتبة الثالثة فى المملكة فهو «يوغاو» أو نائب الملك على الساحل ، بل هو عينا الملك وأذناه ، ويشرف على المقيمين الأجانب وعلى تجارتهم . وكانت الشخصية ذات المرتبة الرابعة فى المملكة هى الخصى الرئيسى ، وكان رئيسا للقصر ومشرفا على أهل البيت الملكى .

وفى داهومى لم يكن الموظف فرداً أبداً ، وإنما كان إثنين دائماً ، فحتى الملك كان مزوجاً - ملك للريف وآخر للحضر . ولم يكن ذلك ازواجاً فقط ، وإنما كان شخصين فى شخص واحد . فكل موظف كان مزوجاً ، موظف للملك الحى وآخر للملك الميت .

والكابوسيرات ، كما يعرف موظفو المقاطعات ، هم مجرد موظفين إداريين ، حتى عندما يكون الكابوسير مسؤولاً عن منطقة هامة . ومع ذلك فإن السقالو يعد استثناء لهذه القاعدة ، فهو يشرف على الطريق إلى ماهى ، ولذا فإن للحاكم حقاً معينة يترك تقديرها للظروف . ولكن ليس باستطاعة أحد ، حتى نائب الملك ، أن يحكم بإعدام أحد رعايا داهومى .

وتتم الاتصالات بين العاصمة وبوفا - مخفر الحدود مع مالى عند الشمال الغربى - بواسطة عدائين يقفون عند محطات بينها مسافات منتظمة .

ثانيا

كانت إمبراطورية البرنو على نقيض ملحوظ مع إمبراطورية السنغى ، فعلى الرغم من أن هذه الإمبراطورية بدأت كملكية إقطاعية ، فقد اتجهت فى فترة العصور الوسطى نحو المركزية ، وقطعت المركزية فيها شوطا أبعد بكثير من الشوط الذى قطعته فى منطقة السنغى . وقد شهدت حروب البولولا أفول الدولة الإقطاعية وظهور ملكية مركزية . كما أن عهد أباطرة البرنو الثلاثة العظام التى استغرقت القرن السادس عشر قد شهدت تدعيم الدولة ، وهو تدعيم تحقق من خلال سلسلة من الإجراءات . أولها إنشاء جيش عامل فرقته المختارة هى حرس القصر المكون بأكمله ، حتى ضباطه ، من الرقيق ، والذى يتولى تدريب أفرادهِ على استعمال الأسلحة النارية مدربون أتراك . ثانيها انتزاع الإمبراطور للسلطات القضائية من الرؤساء القبليين وحكام المقاطعات ، وتعيينه قضاة يشغلون مناصب دائمة فى الإمبراطورية . ثالثها تحصيل الإيرادات لمواجهة الانفاق على الجيش والإدارة ، وهو ما يعنى أن رجال الملك قد زانوا سلطتهم . فضلا عن ذلك أدت حروب البولولا إلى انحلال فى الإقطاع الذى كان قد نما فى برنو ؛ ففقد بعض الأمراء مقاطعاتهم ، وأصبحوا شاغلى مناصب مرموقة ، ولكن دون سلطة فعلية . غير أن البعض ، مثل الغلديمة ، الذى لم يتأثر بحروب البولولا ، لم يحتفظ بمكانته فقط ، وإنما بسلطته أيضا ، وعدد هؤلاء قليل . وعلى غرار النبلاء الفرنسيين فى عهد «العاهل العظيم»^(٤٢) تدفق نبلاء البرنو إلى مناصب البلاط وإلى الحروب .

وفى بطاء أفل نجم الأمراء الإقطاعيين ، ونشأ البيروقراطيون الرقيق . وفى الجيش ربما سار التحول بسرعة لا بأس بها ، ولكنه سار ببطاء فى مستويات

(٤٢) GRAND MONARQUE : ربما يكون المقصود هنا هو لويس الرابع عشر الذى حكم فرنسا فى الفترة ١٦٤٢ - ١٧١٥ ، والذى يلقب «بالمالك الشمس» «لويس الأكبر» . رفع الملكية إلى ذروة مجدها ، وحول الدولة إلى ملكية مطلقة ، فقد أكره النبلاء على الاعتماد على الملك فى أرزاقهم وفى الاحتفاظ بمراكزهم ، وأنقص سلطات ولاية الأمور المحليين .

الإدارة العليا . ومع بداية القرن الثامن عشر ازدادت أهمية الرقيق حتى سيطروا على الإدارة فى القرن التالى .

وأدى التدهور فى سلطة كبار ضباط الأقاليم إلى ظهور فريقين : أحدهما فريق الكوغانة – المستشارين الأحرار مولداً – الذين يمثلون مختلف المجموعات العرقية والإقليمية ؛ ثانيهما وأكثرهما أهمية فريق الرقيق ، وبخاصة ضباط الجيش المعروفون بالكلاشيلا . وفيما عدا المونييوما ، فإن جميع الضباط الذين قابلهم بارث ينتمون إلى هذه الطبقة . ويذكر ناختيغال^(٤٤) إثنين وأربعين من هؤلاء الرؤساء وستة عشر من حملة البنادق وخمسة وعشرين من رماة الرماح وواحداً من رماة السهام . ويسمح لنا ذلك بأن نلم بفكرة عن جيش برنو الذى كانت قوته الرئيسية تكمن فيما لديه من رماة الرماح ، ومع ذلك كان حملة البنادق هم الأكثر أهمية ، إذ أن البندقية كانت أداة فعالة فى ترسيخ سلطة برنو . وفى الوقت الذى دعم فيه الكانمى سلطته كان الرقيق ، موظفين مدنيين كانوا أم جنوداً ، قد أحكموا قبضتهم على البلاد . كما أن مجلس الملك الذى اشترك فيه أشرف المملكة ، المانياوات ، والمستشارون الأمراء مولداً ، قد تحول بعد حروب البولالا إلى هيئة صورية ، فالسلطة تركزت فى يد الإمبراطور ويمارسها الرقيق الذين يحيطون به . وفى البلاط احتفظ المستشارون الأحرار مولداً وكبار الأمراء بمكانتهم ، ولكن سلطتهم كانت محدودة . وفقد أعظم لقب بينهم ، الكيغامة ، القائد العام للجيش ، قيمته كلية ؛ إذ أصبح يمنح للرؤساء الصغار . والمهام التى أكسبت الكيغامة قوته فى الأيام الأولى أصبح يمارسها أحد الرقيق ، أما الخصيان ، المسطريمة واليرومة ، فلم يزيدا سلطتهما فقط ، وإنما اضطلعوا أيضاً بإدارة مناطق مختلفة .

(٤٤) چوستاف ناختيغال : (١٨٤٣ – ١٨٨٥) مستكشف ألماني ، أوفده ملك بروسيا فى عام ١٨٦٩ فى بعثة إلى سلطان البرنو ، فزار تبستى وبوركومناطق فى الصحراء الكبرى لم تكن معروفة للأوروبيين . ومن برنو ذهب إلى باجرمى ، ثم وصل إلى الخرطوم فى عام ١٨٧٤ ماراً بكريغان . وصف رحلته فى كتاب بالألمانية عنوانه SAHARA UND SUDAN . أوفده بسمارك كمفوض خاص إلى غرب إفريقية حيث قام بور هام كانت نتيجته ضم توجولاند والكمرون إلى الإمبراطورية الألمانية .

ويمنح القادة العسكريون وموظفو البلاط والأمراء والأعيان مقاطعات حسب أهميتهم . من ذلك أن الملكة الأم تضع يدها على أربع وعشرين مقاطعة مع إيراداتها ، ويحصل القادة العسكريون الذين يعهد إليهم بالدفاع عن الحدود على نصيب أكبر . ولبعض القبائل ، وبخاصة الوثنيون والبدو ، مندوب مقيم في البلاط يمثل مصالحها ، ويحصل على راتبه من إيرادات القبيلة . ويشغل هذا المنصب عادة شخص أثير لدى السلطان . وفي بلاد الهوسا سيطر الرقيق على الإدارة ، وبخاصة منذ أيام محمد روما .^(٤٥) فالأمير البرنوى دغانتشى حل محله أحد الرقيق . وبحلول منتصف القرن السابع عشر كان الرقيق قد وطبوا أنفسهم كطبقة إدارية ، وارتبط صعودهم بتدعيم السلطة الملكية .

وفيما عدا الأمراء المكيون والرئاسات القبلية المحلية ، أصبح الرقيق أهم مجموعة في الدولة . وهم على غرار الانكشارية التركية والحرس البريتورى الرومانى كانوا السلطة الحاكمة الفعلية في البلاد ، لأن المناصب الإدارية والحربية يتم شغلها أساسا من بينهم . وهناك سببان لهيمنة الرقيق في الإدارة . أولهما أنه كان من تقاليد الحكام المسلمين أن يجندوا للإدارة والجيش أشخاصا لديهم ولاء تام لإمبراطورهم . ففي إمبراطوريات شمال إفريقيا كان هذا الحرس البريتورى مكونا أساسا من أوروبيين ؛ وفي الهند كان الرقيق الأتراك والأفغان يزبون الحكام المسلمين الأول بحاجتهم من الكادر الإدارى . كما أن الاعتماد على الرقيق قد أملاه إلى حد ما يبدية الأمراء والرؤساء المحليون في كل مكان من اتجاه إلى عدم الولاء للحكومة الملكية المركزية . وكانت مزايا نظام الرقيق ذات شقين : أولهما أن الرقيق لا ولاء لديه إلا لمن ملكه ؛ ثانيهما أن هذا النظام أفسح الطريق للموهبة حيث المقدرة هي وحدها التى يُعول عليها . وكان

(٤٥) محمد روما بن يعقوب : من أعظم ملوك أسرة الرنفاوية أو الريفاوية التى حكمت كانو في القرن الخامس عشر ، وعهده من أزهى عهود كانو ، وخلالها حضر إلى كانو الإمام محمد المغيلى الذى تولى الإمامة والقضاء فيها ، كما حضر إليها من مصر الإمام جلال الدين السيوطى . (نقلا عن د. عيسى عبد الظاهر ، الدعوة الإسلامية في غرب أفريقيا وقيام دولة الفولاني ، الزمراء للإعلام العربى ، الصفحة ١٧١) . وهو الساركن العشرون في كانو ، وقد حكم في الفترة ١٤٦٣ - ١٤٩٩ .

بإستطاعة الرقيق الارتقاء إلى أرفع المناصب فى الإمبراطورية ، كذلك كان للرقيق أهميتهم أيضا فى اقتصاد الدولة .

والرقيق فى إمبراطورية السنغى أهميتهم فى المستويات الأدنى من الإدارة . والمعلمون هم الأشخاص المهمون حقًا فى الحكومة المركزية ؛ فقدرتهم على القراءة والكتابة ، وكذلك معرفتهم بالشرعية ، منحاتهم ميزة ساحقة . وهكذا شغل أحدهم منصب السكرتير الخاص للإمبراطور ، ومن ثم مستشاره الأمين ، ولذلك كانت أهمية الرقيق فى مجالات أخرى ؛ فهم المسؤولون عن أهل البيت الملكى ؛ كما أنهم رسل الملك ؛ ويشكلون الحرس البريتورى ، ويزوبون الجيش بالجانب الأكبر من الجنود ، بما فى ذلك فيالق الصفوة ، بل إنهم فى المقام الأول يتحكمون فى الإيرادات . وفى أيام الأساكي الأخيرين أصبح الموظفون من الرقيق على درجة كبيرة من القوة حتى أن بلمع - وهو من كبار النبلاء فى الإمبراطورية - كان يمكن لأى رقيق أن يتحداه .

وإلى جانب ذلك يقدم الفتاش أمثلة لرقيق مرتبطين بالإدارة وتحصيل الإيرادات ، وشديدى الثراء ويمارسون سلطات هائلة . من ذلك أن **مِسْكُلُ الله** ^(٤٦) ، وهو رقيق ، عهد إليه بالمسؤولية عن الإيرادات المتحصلة من مقاطعات معينة . وكان **مِسْكُلُ الله** رجلا ثريا واعتاد أن يعيش كئى نبيل عظيم . وقد اتهم بالفساد وطالبه السلطان بأن يقدم ألف كيس من الغلال ، فعرض **مِسْكُلُ الله** أن يقدم هذه الكمية من محصول العام السابق : وهو عرض أدهش السلطان الذى لم يكن لديه هو نفسه كل هذه الكمية فى مخازنه ، على حين كان لدى هذا الرقيق عدد كبير من «الشون» يختزن فيها الغلال ، ولذلك قدم الكمية المطلوبة بون مصاعب . ^(٤٧)

(٤٦) **مِسْكُلُ الله** : يعنى بلغة السنغى من بوسعة أن يفعل أى شىء .

«ولهم رئيس يقفون عليه اسمه **مِسْكُلُ الله** ومعناه **مِسْ كُلُ الله** كل أمر كان ويكون من كل ما هو كائن فى الدنيا والآخرة الله هو مقدره ومكوته سبحانه لا إله إلا هو ويحصده له من هذه المزرعة ألف صنون من الأرض تاريخ الفتاش ، الصفحة ٩٥ .

(٤٧) بشأن هذه الواقعة انظر ، المرجع نفسه ، الصفحات ٩٥ إلى ١٠١ .

وقد قامت نول السودان ، ومن بينها برنو ، على الحكم المطلق ، ولذلك فإن الملك هو الشخص الأكثر أهمية . ويقوم الملك الحاكم عادة باختيار خليفته من بين إخوته وأبنائه ، ولكن مركزه يتوقف على تأييد الأمراء وكبار النبلاء . وفي كل من إمبراطورية السنغى والفولانى لم تكن وراثة العرش ، كما رأينا ، مقيدة بنظام معين . فأمير بارز مثل محمد بل يمكن أن يصل إلى السلطة نون حرب أهلية ، ولكن كثرة الأمراء أعطت كبار النبلاء ، وبخاصة قادة الجيش ، الفرصة للتآمر . ومع ذلك فإن هناك حدوداً لهذا التآمر ، فالحاكم لابد أن يكون من سلالة مؤسس الأسرة الملكية ، وهو شرط يتمسك به كبار حكام الأقاليم والأمراء . فعندما تحدى أسكيا محمد نفوذ شى بان لم يؤيد الأسكيا أحد من كبار موظفى الدولة أو كبار النبلاء ، فيما عدا استثناء بارز هو الأمير التابع بركى منسا موسى وابنه منساكور^(٤٨) . وفى برنو بدورها لم يكن الشعب يكن حباً صادقاً لأسرة الكانمى الحاكمة ، على الرغم من أن الكانمى يعتبر محرراً . وكان من القيود على سلطة الإمبراطور كثرة عدد الأمراء الذين يتحكم بعضهم فى إيرادات وقوات مقاطعات بكاملها . وباستطاعة أعضاء الأسرة المالكة أن يعزلوا الملك وأن يستبدلوا به شخصاً آخر . وإمكانية القيام بعمل كهذا كانت بطبيعة الحال وقفاً على أقرب الأقرباء ، كما أن من يخلف الملك ينبغى عادة أن يكون سليلاً للأسرة المالكة . ومع ذلك فإن هناك استثناء ملحوظاً هو مالى ، حيث وُجد عدد من مغتصبى السلطة وقادة الجيش الذين صعدوا من صفوف الرقيق .

وفى مجتمع كهذا من الطبيعى أن يكون البلاط هو مركز السلطة . فالبلاط يوجد به الأمراء ومعظم الحكام ، فيما عدا الحكام المسؤولين عن الحدود . ويوجد فى إمبراطوريتى مالى والسنغى ، وكذلك فى برنو ، تدرج فى مراتب

(٤٨) «وله وزراء يومئذ تنيف على عشرة وزير منهم بركى منس موسى وكلهم مع شى بار إلا منس كور وحده فإنه هرب إلى أمير اسكى محمد وبإيعه وكان مع شى بار دندفار أفتب وهو من أشجع الناس وكان مع الحاج محمد مس كور المذكور ابن منس موسى .» الصفحتان ٥٤ و٥٥ . [شى بان الوارد إسمه فى المتن صحة إسمه شى بار .]

النبلاء . فبلمع أو القائد الأعلى له حق الجلوس على بساط في حضرة الإمبراطور ، كما أنه دون بقية النبلاء يظهر الاحترام للإمبراطور بالدقيق بدلا من التراب .^(٤٩) كذلك فإن كرمين فار ، الرجل الأول في الإمبراطورية ، يعفى من خلع غطاء رأسه عندما يتترب .^(٥٠) وقد أصبح كرمين فار أهم المناصب عندما أنعم أسكيا محمد على أخيه عمر - الكرمين فار - بلقب إضافي مماثل للقب «أمير الأمراء» عند أباطرة المغول ، هو لقب «كنفار»^(٥١) . وبركُى هو وحده الذى له حق معارضة السلطان ، سواء لقيت هذه المعارضة هوى لديه أو لم تلق . وندفار له حرية الكلام^(٥٢) ، كما أن لأحد الشرفاء امتياز الجلوس مع السلطان على سريره ، فى حين باستطاعة القاضى استخدام الرسل الملكيين .^(٥٣)

والامتيازات فى برنو ذات ترتيب مختلف . فكبار النبلاء يتمتعون بامتياز تغطية سروجهم بقماش كبير يتدلى إلى الأرض ، والمرتبة الثانية تغطى سروجها بقماش يصل إلى نهاية كفل الحصان ، أما المرتبة الثالثة فلها حق تغطية سروجها بقماش أبيض .

وفى برنو ، كما فى إمبراطوريتى السنغى والفولانى ، كان الرؤساء العسكريون أقوياء . فالقائد العام لجيش برنو يتمتع بسلطات هائلة ، ويعتبر أبناؤه، على غرار أبناء الماي ، أمراء للإمبراطورية . وعلى الرغم من أنه لا يستطيع أن يصبح الماي ، فبمقدوره أن يؤثر فى الأمراء بدرجة تكفى لأن تجعل

(٤٩) اعتقد أن المقصود هنا هو «چنكى» وليس بلمع . «وذلك أن ليس له أحد من جنده يفرش له فى مجلسه الاجنكى وكلهم يحملون له التراب إلا چنكى فإنه لا يحمل له إلا دقيق الطعام» الصفحة ١١ .

(٥٠) «وكلهم يقلعون الطاقية عند حمل التراب إلا كرمين فار .» الصفحة ١١ .

(٥١) «وتولى عمر كمزاغ الكنفاروية وذلك فى تلك السنة وهو أول من تسمى بهذا الاسم ولم يكن قبل ذلك بخلاف بلمع وينكفرم فإن اسميهما موجودان منذ زمن شى» الصفحة ٦٢ .

(٥٢) «وليس فيهم من يتعدى عليه بقول الصدق إلا نندفار ولا فيهم من ينهاء عن أمر ويتبعه أحب أم كره إلا بركى» الصفحة ١١ .

(٥٣) «ولا فى أرضه من ينادى عبده ويرسله بأمر ولا يقدر أن يأبى ويفعل له فى الأمر ما يفعل فى امراسكى إلا القاضى ... ولا من يجلس معه على سريره إلا الشرفاء ..» الصفحة ١١ .

منهم أداة سهلة الانقياد . وكانت الكلمة الحاسمة فى اختيار السلطان فى إمبراطورية الفولانى بدورها هى للقائد العام للجيش . ولكن سلطة الإمبراطور فى برنو تحد منها بصورة فعالة سلطة أمراء الأقاليم : اليريمة الذى يحرس التخوم الشمالية ؛ الغلديمة حاكم الغرب ونائب الملك هناك ، والذى لا يتحكم فى المقاطعات الغربية فقط ، وإنما يشرف أيضا على ممالك الهوسا التى تدفع الجزية .

وفى غاو ، كما فى برنو ، ليس للحكام نفس أهمية كبار النبلاء . إنهم يحكمون مقاطعات ، ولذلك فهم موظفون لهم أهميتهم ، ولكن لكونهم لا يتحكمون فى مناطق الحدود ، ولا يشغلون أية قيادات حربية كبيرة ، فلا يمكن مقارنتهم بنبلاء المرتبة الأولى .

وفى منطقة السنغى يمكن القول إن كلمة «كُي» استخدمت بمعنى حاكم له مرتبه أمير . وهكذا يتحدث الفتاش دائما عن مَقْشَرَ كُي وَمِلْكِى وباركُي . وقد يمنح لقب «فار» للولاة الذين يضطلعون بكل من السلطتين المدنية والحربية . من ذلك دندفار الذى يسيطر على دِنْدِ أبعد مقاطعات إمبراطورية السنغى إلى الجنوب ، على جانبى النيجر أسفل نهر ساي . كما أن قَرَبَ لقب يحمله أحد كبار رجال الإدارة من الرقيق . ويذكر الفتاش ذلك فيما يتعلق بمالى، مفترضا أنه مستخدم فى غاو بدورها . (٥٤)

وفى غالبية هذه الدول يعتبر رئيس الخصيان شخصا ذا أهمية كبيرة ووثيق الصلة دائما بالإمبراطور. ولما لم تكن له أسرة فإنه يُعتقد أن المشورة التى يقدمها - بوصفه رقيقاً - إلى سيده لايشوبها غرض . وكما رأينا فإن هؤلاء الرقيق زاولوا سيطرتهم بالتدريج حتى أحكموا قبضتهم على الإدارة ، وهم لم يكتفوا بتركيز السلطة فى أيديهم ، بل كدسوا ثروات كبيرة أيضا . وفى برنو يضطلع رئيس الخصيان بوظيفة الْمَسْطَرِيْمَة الذى يقوم على حراسة الملكة الأم ،

(٥٤) « وقد خرج كئك موسى (أى منسا موسى سلطان مالى) إلى الحج من هنا ... ثم أمر بعبدته الذى هو رئيس عبيده وقومه المسمى قَرَبَ » ، الصفحة ٣٤ .

وتحت إمرته يوجد **البرومة** الذى يقوم على حراسة الملكة ، ولكليهما أهمية كبيرة حتى خلال الفترة الإقطاعية . وعلى الرغم من أن هذين الموظفين من الرقيق ، فإن مكانهما هو فى المجلس الأعلى مع الأمراء . وفى إمبراطورية الموسى فإن رئيس الخصيان يلي كبار الإقطاعيين مباشرة ، ويتمتع بنفس مرتبة الكاهن الرئيسى والمشرف على أهل البيت الملكى . وفى داهومى لم يكن هناك أمراء إقليميون يتعين كبح جماحهم . فالكابوسيرات مجرد موظفين فى الدولة ليست لديهم أية سلطات مستقلة .

ولما كان للتجارة نور حيوى فى اقتصاد بلاد السودان وسياستها ، فقد حظيت باهتمام كبير من جانب الحكام . ويذكر ابن بطوطة أن التجار فى ولاته ، الواقعة فى اتجاه الشمال من مالى ، «هى أول عمالة السودان ونائب السلطان فيها فرباحسين وفربا معناه النائب ولما وصلناها جعل التجار أمتعتهم فى رحبة وتكفل السودان بحفظها وتوجهوا إلى الغربا وهو جالس على بساط فى سقيف وأعوانة بين يديه بأيديهم الرماح والقسى وكبراء مسوفة من ورائه ووقف التجار بين يديه وهو يكلمهم بترجمان على قريبهم منه احتقاراً لهم . فعندئذ ندمت على قديمى بلادهم لسوء أدبهم واحتقارهم للأبيض» .^(٥٥) وهكذا فإنه يتعين على التجار فور وصولهم إلى محطة الحدود أن يبلغوا الحاكم .

وبعد أن يحصل التجار على إذن من الحاكم يتقدمون نحو إحدى مدن السودان الرئيسية . وهنا يحلون ضيوفاً على أحد التجار الأجانب المقيمين الذى يرتب مع السكان المحليين إيجاد اتصال بينهم وبين التجار المحليين الذين يعملون كوسطاء ووكلاء تجاريين . والبيوت التجارية الكبيرة ذات المصالح الدائمة فى بلاد السودان مندوبون مقيمون يرعون مصالحها . من ذلك أن إخوان المقرى لهم مندوب فى تمبكت . وما إن يصل تاجر زائر حتى يسعى لزيارته التجار الأجانب المقيمون والتجار المحليون ، وكذلك رجال السلطات المحلية الذين يخصصون له ، إذا لزم الأمر ، مكاناً فى السوق يمكنه أن يعرض بضائعه فيه .

(٥٥) تحفه النظر ، الصفحة ٦٨٧ .

وكان التجار الأجانب ، وكذلك أفراد الجالية الأجنبية بوجه عام ، يعيشون مستقلين . فلهم حى خاص بهم فى المدينة ، ويرأسهم تاجر منهم يكون عادة أكبر التجار المقيمين سنا ، ومن واجباته تقديم المشورة إلى القادمين الجدد بشأن الطريقة الصحيحة لمباشرة النشاط ، وله مكان فى مجلس المدينة حيث يستطيع أن يعرض وجهة نظر الجالية .

وعند موت أحد الأجانب يختم بيته بحضور الجالية الأجنبية ، ويدير ممثل الجالية شؤونه حتى يتولاها وريث له .^(٥٦) ويوجد لدى الدول الإفريقية موظف مختص برعاية مصالح الجالية الأجنبية ، وتحت إمرته موظفون مختلفون مهمتهم التفتيش على السوق ، ورعاية القادمين الجدد . وقد أثنى الزائرون بوجه عام على أمانة السودان وصدقهم ونزاهتهم ، ويوقع الحاكم عقابا قاسيا بأى موظف يتبين فساداه . بل إن الحكام على الساحل أكثر حزمًا فى مراقبة التجار الأجانب . وفى داهومى وبنين كانت التجارة الخارجية من الناحية الفعلية احتكاراً حكومياً . فالتاجر الأجنبى عليه أن يخطر الموظف المختص بوصوله ويرغبته فى مزاولة التجارة ، ويقوم هذا الموظف بزيارة رسمية له . وبعد أن يقوم الموظف بالتفتيش على البضائع ويتبين له أنها مناسبة ، تناقش أثمان البضائع المقرر توريدها ، ويتم الاتفاق عليها . وبعد أن يحصل الملك وكبار النبلاء على حصتهم من الهدايا يسمح للموظفين والتجار الذين يأذن لهم الملك بالتجار مع الأوروبيين .

ولما كانت الممالك فى بلاد السودان تهتم اهتماما حيويًا بالتجارة الخارجية، فقد كانت الإجراءات تتخذ لضمان انتعاش هذه التجارة . ومن أهم الأمور ، إلى جانب نزاهة الإدارة ، ضمان الأمان الكامل للطرق ، ووجود نظام سليم للموازنين والمكايل . وقد وُحِدَتْ إمبراطوريات مالى والبرنو والسنگى موازينها ، كما أن من بين وظائف مفتشى السوق التأكد من استعمال موازين ومكايل صحيحة .

(٥٦) « فمن أفعالهم الحسنة قلة الظلم ، فهم أبعد الناس عنه ، وسلطانهم لا يسامح أحد فى شى منه ، ومنها شمول الأمن فى بلادهم ، فلا يخاف المسافر فيها ولا المقيم من سارق ولا غاصب ، ومنها عدم تعرضهم لال من يموت ببلادهم من البيضان ولو كان القناطير المقتطرة إنما يتركونه بيد ثقة من البيضان حتى يأخذه مستحقه » المرجع نفسه ، الصفحة ٦٩٨ .

ولم تكن أساليب الحرب المستخدمة في بلاد السودان تختلف عن تلك المستخدمة في آسيا وأوروبا . فالأسلحة تتكون من الأقواس والسهام والنبال والسيوف . بيد أنه يوجد فرق حيوى واحد ، هو أن بدو آسيا الوسطى أدخلوا الحصان فى حروبهم ، وأن الجيوش الآسيوية والأوروبية قامت على الخيالة . وفى أوروبا كانت الهيمنة فى العصور الوسطى للفرس ، وهو راكب حصان يرتدى الدروع أعطته قدرته على الحركة ميزة على المشاة .

فماذا كان الوضع فى بلاد السودان ؟ إن الحصان لم يكن من الحيوانات الشائعة . فملك غانة لم يكن لديه سوى ألف حصان ، وتوضح العناية التى يعطى إياها مدى قيمته العالية . ولم يكن يستثنى من ذلك إلا برنو . فحصان البرنو على الرغم من صغر حجمه حيوان قوى البنية ، مما جعل حكام البرنو فى غير حاجة إلى الحصول عليه من الشمال . وبفضل الحصان حققت الدول السودانية الإسلامية تفوقاً حريماً على الوثنيين . أما فى المناطق التى تعوق طبيعتها حركة الحصان ، فإن الوثنيين كانوا يستطيعون الصمود .

والميزة التى وفرها الحصان للدول التى لديها خياله يمكن أن نلمسها من وصف سنيلغروفي لغزو قام به الأويو لداهومى . فقوات داهومى كانت تتكون من المشاة ، ولكن لديها مدافع ، وهو ما تفتقر إليه الدول الداخلية فيما عدا برنو . وعلى الرغم من أن ملك داهومى أحرز نصراً فإنه كان يخشى غزواً ثانياً . «ولما كان قد خبر من قبل هول مثل هذه الأعداد من الخيول بالنسبة لجيشه المكون من المشاة ، فقد استقر رأيه على الفرار إلى الغابات والأدغال . »

وإذ أثر جيش داهومى دفع الجزية على مواجهة خيالة الأويو ، فإن المرء يمكن أن يتفهم جيداً سر نجاح حملات الإغارة من أجل الرقيق التى تشنها غانة ومالى والسنگى فى مناطق الوثنيين . وجدير بالذكر أن نجاح العصابات

الصغيرة من الكونكوستاتورات^(٥٧) الأسبان فى أمريكا اللاتينية ضد نول مستقرة ، مثل المكسيك وبيرو ، إنما يرجع إلى الميزة التى لاتقارن التى منحها الحصان لهذه العصابات .

وكانت معرفة إمبراطوريات السودان الإسلامية للحديد ميزة أخرى لها على الوثنيين . فزا الأيمن^(٥٨) أحضر معه حدادين يصنعون الحريون .^(٥٩) كذلك عرفت غانة ومالى الأسلحة المصنعة من الحديد التى أدخلتها على الأرجح عن طريق الشمال . وكما حدث فى أجزاء أخرى من العالم ، فإن الجمع بين الأسلحة الحديدية والحصان أعطى المسلمين ميزات هائلة على الوثنيين الذين لم يكونوا قد عرفوا مثل هذا الجمع بعد . ولم تكن جيوش دول السودان تقل كفاءة عن أى جيش آخر فى العالم حتى بداية الحروب الحديثة . وقد استطاعت غانة الصمود أمام البربر ، وكانت الحرب التى شنّها المرابطون المتحمسون طيلة أربعة عشر عاما هى وحدها التى حطمت قوتها الحربية .

ولم تكن الدول الوثنية فى حالة عجز تام . فما إن يحسن حملة الأقواس تنظيم صفوفهم ، وعندما لاتكون بلادهم مكشوفة للغاية ، فانهم يكونون أكثر من ندي للخيالة . ففى كريسى^(٦٠) وأچينكورت^(٦١) هُزمت زهرة الخيالة الأوروبيين

(٥٧) الكونكوستاتور : معناه الفاتح ، وقد أطلق على المحاربين الأسبان الذين فتحوا بقوة السلاح أجزاء من العالم الجديد ، وبخاصة المكسيك وبيرو ، فى القرن السادس عشر .

(٥٨) زا الأيمن : ومعناه «جاء من اليمن» «أما الملك الأول زا الأيمن أصل اللفظ جاء من اليمن قيل إنه خرج من اليمن هو وأخوه سائرين فى أرض الله تعالى حتى انتهى بهما القدر إلى بلد كوكيا ...» تاريخ السودان ، الصفحة ٤ . [أنظر أيضاً الحاشية ٤ - ٧ أعلاه .]

(٥٩) الحريون : رمح شائك أو حربة شائكة لصيد الحيتان .

(٦٠) كريسى : بلدة فرنسية صغيرة دارت فيها إحدى معارك حرب المائة العام بين فرنسا وإنجلترا فى عام ١٣٤٦ . وفيها انتصر إدوارد الثالث ملك إنجلترا على فيليب السادس ملك فرنسا ، واستطاع فيها الانجليز بأقواسهم الطويلة التى ظهرت لأول مرة فى أوروبا أن يبيدوا زهرة النبلاء الفرنسيين .

(٦١) أچينكورت : قرية فى شمال فرنسا اشتهرت بالنصر الذى حققه هنرى الرابع ملك إنجلترا على الفرنسيين فى عام ١٤١٥ ، وكان الجيش الانجليزى فيها يضم ٦٠٠٠ من رماة السهام ، وفى المعركة لم يأخذ الفرنسيون موعظة من خبرة معركة كريسى ، إذ كان خيالهم هدفا سهلا لرماة السهام الإنجليز .

أمام حملة الأقواس من العامة . وفى إفريقية بنورها كثيراً ما أكد حملة الأقواس تفوقهم . ويصف أبو حامد ^(٦٢) الأسلحة التى استخدمها الوثنيون وكان لها مثل هذا الأثر الفتاك على الخيالة السودان . «وقسيهم صغار قصار رأيهم فى بلاد المغرب ونبلهم ورأيت قسيهم وأوتارهم من لحاء الشجر الذى فى بلادهم ونبلهم قصار كل سهم شبر ونصالهم شوك شجر كالحديد فى القوة قد شلوه فى نبلهم بلحاء شجر يصيبون الحديق » . ^(٦٣) وهكذا كان باستطاعة الوثنيين الصمود أمام الخيالة السودان .

كذلك لم تكن القوارب غير مألوفة لدى السودان . ورواية منسا موسى عن الحملة التى خرجت لاكتشاف الجانب الآخر من المحيط لاينبغى أن تؤخذ مأخذ الجد . ^(٦٤) بيد أن سنّ على حاصر چنى بأربعمئة قارب ، بل فكر فى استخدام إحدى قنوات النيجر فى الالتفاف حول جناح جيش موسى . ^(٦٥) ويشغل الهيكل المشرف على القوارب منصبا رفيعا فى إمبراطورية السنغى . وفى برنو

(٦٢) أبو حامد الأندلسى القرنائى : محمد بن عبد الرحمن بن سليمان المازنى القيسى . رحالة أندلسى عربى وجامع للعجائب فى القرن الثانى عشر الميلادى . روى فى مصنفاته التواريخ الهامة لحياته الحافلة بالمغامرات . ولد فى غرناطة ، وترك موطنه إلى غير رجعة وهو فى الثلاثين ، فقصى بضع سنوات فى إفريقية ، ثم انتقل إلى القاهرة ، وتوقف فى دمشق ، ومنها إلى بغداد ثم فارس . وفى بغداد نشر المصنفين اللذين تسببا فى شهرته وهما : «المعرب عن عجائب المغرب» ؛ «تحفة الألباب (أو الأحباب) ونخبة الأعجاب» . وهما يحفلان بمعلومات طريفة وسجلات وثيقة ، وكذلك بأخبار تدخل فى باب العجائب والأساطير .

(٦٣) هذا الاقتباس نقلا عن الصفحتين ٤٢ و ٤٣ من كتاب تحفة الألباب ، الذى نشر تصه العربى فى عدد يولييه - سبتمبر ١٩٢٥ من مجلة Journal Asiatique.

(٦٤) انظر الحاشية ١١ - ١٢ أعلاه .

(٦٥) «فلما أصبح حتى فاض البحر وأحاط بالبلد وحال الماء بينهما وحصرهم شى بأربعمئة سفن لئلا يخرج خارج ولا يدخل داخل ثم ما فارقهم إلا أن قهرهم وملكهم ودخل فى سورهم ونزل فى وسط دار چنكى ...» تاريخ الفتاش ، الصفحة ٥٠ . «ثم شرع فى حفر بحر رأس الماء للوصول إلى بير فى البحر وهو يشتغل بذلك بالجد والاجتهاد فى قوة عظيمة فإذا الخبر جاء أن موسى كس عازم إليه فى جيشه بغزو ... فرجع للاقاة موش كى فالتقى معه فى چنكى تُعى قرية فى قرب بلد كب من وراء البحر فاقتتلوا هناك فهزمه سن على وهرب وتبعه حتى دخل فى حد أرضه » تاريخ السودان ، الصفحة ٧٠ .

وفرت بحيرة تشاد لآل سيفى حافزا كافيا على صناعة أسطول نهري مزود بقوارب يبلغ طول الواحد منها خمسين قدما ، ويستطيع نقل أكثر من خمسين شخصا مع خيولهم . ولدينا بعض الروايات عن معدات الجنود والطريقة التي يحاربون بها . ويقول دنهام إن الرؤساء وحرس الشيخ يرتدون دروعا من السلاسل أو الزرد . ويذكر كلايبرتون أن حملة الأقواس من الفولاني لديهم حقائب من الجلد تسع حاجاتهم ، كما «يحملون أوان من الحشائش الجافة مجذولة بإحكام شديد تستخدم في حفظ الماء» .

والخيالة مسلحون بالسيوف والدروع والرماح . وسيوفهم مماثلة لتلك التي استخدمها فرسان مالطة ، ولكن دروعهم أكثر إثارة . فالرأس مغطاة بخوذة مبطنة من القماش الأحمر ، أما الجنود فيرتدون دروعا مبطنة وجوارب تحمي سيقانهم . وفي كانو أدخل رومفا الخوذة الحديدية . ودرع الخيالة هو أكفأ الأجزاء في معداتهم ، وسواء منه المصنوع من جلد الثور أو الفيل «يكون جزءا دائريا ضخما قطره قرابة خمسة أقدام» .

وأسلوب القتال بسيط للغاية : فالخيالة هم القوة الرئيسية ، والمشاة يستخدمون كقوة مساعدة . وللخيالة عدد معين من المشاة لدعمهم ، ويستفيد المشاة من كل فرصة يتيحها لهم الخيالة .

ليس ذلك فحسب ، إذ أن السودان كان لديهم نظام للفروسية ، والعمرى يذكر ذلك عن مالى ، وعلى الرغم من أن المؤرخين لم يشيروا إلى هذا الموضوع فإن بول السودان الأخرى لابد أنها أدخلت نظاما شبيها . ويقول العمرى : «والأبطال من فرسانهم (فرسان بولة مالى) تلبس أساور من ذهب ، فمن زادت فروسيته لبس معها أطواقا من ذهب ، فان زادت لبس مع ذلك خلاخل من ذهب ، وكلما زادت فروسية البطل ألبسه الملك سراويل متسعة» (٦٦)

(٦٦) ورد هذا الاقتباس في صبح الأعشى ، الجزء الخامس ، الصفحة ٢٩٩ ، نقلا عن الشيخ سعيد الدكالى ، وليس نقلا عن العمرى .

والتنظيم الحربى بسيط بدوره . فهناك جيش صغير عامل مكون من رقيق البيت الإمبراطورى ، ثم هناك القوات الخاصة لأمرء الأقاليم ، ويتعين على كل حاكم منهم أن يقدم عددا محددا من الجنود للجيش الإمبراطورى ، وإلى جانب ذلك تسند إليهم مسؤولية حراسة الأقاليم الخاضعة لهم والإشراف على الحدود . أما القوات الإمبراطورية فمهمتها حراسة المدن الهامة ، وبخاصة تلك الواقعة على طرق التجارة ، وكذلك حراسة الطرق الصحراوية . وهذا النظام شبيه للغاية لما كان سائدا فى المشرق الاسلامى بأسره . كما أن الحاكم شبيه بالنائبدار فى الهند الذى تتوقف أهميته على عدد القوات التى يطلب إليه إعدادها .

وكانت داهومى هى أكثر الدول الحربية شهرة فى غرب إفريقية . ويقدم چون دنكان الذى طاف بداهومى فى الفترة ٢ - ١٨٤٣ ، وريتشارد بيرتون الذى ذهب على رأس بعثة دبلوماسية إلى بلاط غليغلى^(٦٧) ، وصفين لجيش داهومى يسمحان لنا بأن نلم بفكرة عن مقدرة داهومى العسكرية .

كان الجيش الداهومى مكونا من المشاة ، وليس به خيالة . ومع ذلك فبسبب الطريقة التى يجرى بها إعدادة للحرب أصبح قوة تثير الرعب فى غرب إفريقية . ودنكان ، على سبيل المثال ، يعتبره متفوقا على أى جيش آخر جنوبى الصحراء الكبرى . والحملات التى تشنها داهومى كان يجرى التخطيط لها بعناية كبيرة ، فالجواسيس يرسلون أولا إلى المملكة التى يقرر الملك غزوها ، ويتخفون عادة فى هيئة تجار ، ويدخلون فى «ميثاق دم»^(٦٨) مع الملك ، ويؤنون برجال يوثق بهم

(٦٧) للإلام بفكرة عن ريتشارد بيرتون ، انظر الحاشية ١ - ٥٩ أعلاه ، ونضيف إلى هذه الحاشية أنه من بين مؤلفات بيرتون كتاب عن داهومى عنوانه بعثة إلى غليغلى ملك داهومى A Mission to Gelele, King of Dahomey . ويلاحظ أن غليغلى يسمى أحيانا غليلى .

(٦٨) ميثاق الدم : فى داهومى وتوجد جمعية «ميثاق الدم» . يقوم نظام الاحتفال بها على مجموعة معقدة من الطقوس والنقوش والأنوات والمخاليط التى يجلس الأعضاء الجدد حولها ، ثم تحضر جمجمة بشرية بها خليط عجيب من تراب ورماد وحجر الصواعق وحديد البنادق ، ويؤخذ دم فصادة من مقدم ساعد كل منهم، ويلتقط هذا الدم السائل على قشرة ليمون ويصب فى الجمجمة التى تدار عليهم ليشرّبوا منها ، وبذلك يصبح كل الحضور إخوة فى الدم يتوجب عليهم التأخى والتعاون فى السراء والضراء ، ويسود اعتقاد بأن من يخرج على هذا الميثاق يصاب بالجنون المطبق أو تنزل به أشنع الكوارث .

في هيئة رقيق يعرضونهم للبيع لعلية القوم . وبذلك يكون هؤلاء الرقيق في موقع يسمح لهم بجمع معلومات يُطمأن إليها يبعثون بها إلي رؤسائهم الذين هم في حالة حركة مستمرة بوصفهم تجاراً . ويبعث التجار بهذه المعلومات إلى المسؤولين العسكريين في داهومي . والجواسيس لا يكافئون على الفور ، وإنما بعد انتهاء الحملة ، بعد التأكد من جوى المعلومات التي يقدمونها ومدى صحتها . وهكذا كانت هذه المعلومات عوناً كبيراً لداهومي في تخطيط حملاتها بدقة شديدة . وبعد جمع المعلومات يحاول الملك تهدئة شكوك عدوه الذي وقع عليه الاختيار . ويمكن له أن يحقق ذلك بالتظاهر بتحريك قواته في اتجاه مختلف والقيام بأنشط مضللة .

والجيش مقسم إلى جناحين ، كل جناح منهما تحت قيادة ضابط : الجناح الأيمن تحت قيادة المين غو ، والأيسر تحت قيادة الميو ، ويتكون كل جناح من فصائل مختلفة ، أشهرها فصائل الفانتى والأشانتي التي تشكل حرس البيت الملكي .

ويظل الجيش الداهومي في حالة استعداد دائم عن طريق التدريب العنيف . وقد أشرنا فيما سبق إلى تدريب «الأمازونات» ، ولم يكن تدريب القوات النظامية أقل عنفاً ، إذ تقوم باستعراضات عسكرية منتظمة أمام القادة العسكريين والملك ، ويجرى التفتيش على ملابس أفرادها وأسلحتهم . كما أن الحملات المستمرة في أرض متفاوتة الوعورة ، مثل مستنقعات الساحل وتلال الماهي ، قد أهلتها لمواجهة كل مخاطر القتال .

وكان لدى نول السودان معرفة بالتحصينات ، وبخاصة برنو التي طورت فن البناء بالحجر ، لذلك أمكنها إيجاد نظام سليم لبناء الحصون ، كما أن غالبية المدن الواقعة على حدود برنو كانت ذات أسوار ضخمة . وانتقل فن بناء الحصون من برنو إلى بلاد الهوسا ، ولكن بينما تبنى الأسوار في برنو إما من الحجر أو القرميد ، فإنها تبنى في بلاد الهوسا من الصلصال أو الطين . فمدينة كتاغوم ، على سبيل المثال ، لها سوران من الصلصال الأحمر ارتفاع الواحد

منها عشرون قدماً وسمكه عشرة أقدام ، وهذان السوران متساويان فى الحجم . كما توجد ثلاثة خنادق عمق كل منها عشرون قدماً : أحدهما فى الداخل ، والثانى بين السورين ، والثالث فى الخارج . وبالمثل مدينة غزوا الصغيرة ذات الأهمية الاستراتيجية، لأنها تحمى الحدود الجنوبية لاتحاد مارادى - غوبر ، فقد كانت ذات أسوار رباعية الأضلاع لها بوابات على كل جانب عمق الواحدة منها إثنا عشر قدماً ، وعند قممتها متاريس يمكن أن يتحصن فى كل منها إثنا عشر من رماة الأسهم .

والانطباع السائد لدى معظم الناس عن غرب أفريقية هو الإحساس بالعدل السائد بين الأهالى . ويدعوهم إبن بطوطة عن حق بأنهم نورو اهتمام أصيل بالعدل ، فقد اتصل بكثيرين من الزنوج وتبين له أنهم يمقتون الظلم أشد المقت . (٦٩) ويؤكد ليو الأفريقى ذلك ، فالزنوج شعب عادل ، وملوكهم يبذلون ما فى وسعهم لمنع الظلم . ويوافق الرحالة الأوروبيون بدورهم على ذلك .

وكان أباطرة مالى يضطلعون بجدية بدورهم كمصدر للعدل ، ويضرب إبن بطوطة مثالين لذلك : «وحضرت مجلس السلطان فى بعض الأيام ، فأتى أحد فقهاءهم ... وقام بين يدى السلطان وتكلم كلاماً كثيراً . فقام القاضى فصدقة ، ثم صدقهما السلطان ... وكان إالى جانبى رجل من البيضان ، فقال : أتعرف ما قالوه فقلت لا أعرف . فقال إن الفقيه أخبر أن الجراد وقع ببلادهم ، فخرج أحد صلحائهم إالى موضع الجراد فهاله أمرها فقال هذا جراد كثير . فأجابته جراحة منها وقالت إن البلاد التى يكثُر فيها الظلم يبعثنا الله لفساد زراعتها فصدقه القاضى والسلطان ، وقال عند ذلك للأمرأء إنى برئ من الظلم ومن ظلم منكم عاقبته ، ومن علم بظالم ولم يعلمنى به فذنوب ذلك الظالم فى عنقه ... وحضرت الجمعة يوماً فقام أحد التجار من طلبة مسوفة ويسمى بأبى حفص ، فقال يا أهل المسجد أشهدكم أن منسى سليمان فى دعوتى إالى رسول الله صلى الله

(٦٩) «فمن أفعالهم الحسنة قلة الظلم ، فهم أبعد الناس عنه ، وسلطانهم لا يسامح أحد فى شئ منه»

تحفه النظر ، الصفحة ٦٩٨ .

عليه وسلم . فلما قال ذلك خرج إليه جماعة رجال من مقصورة السلطان ، فقالوا له : من ظلمك ؟ من أخذ لك شيئا ؟ فقال منشاجو إيولاتن يعنى مشرفها أخذ منى ما قيمته ستمائة مثقال ، وأراد أن يعطينى فى مقابلته مائه مثقال خاصة . فبعث السلطان عنه للحين ، فحضر بعد أيام وصرفها للقاضى ، فثبت للتاجر حقه فآخذه . وبعد ذلك عزل المشرف عن عمله . « (٧٠)

فماذا كانت مصادر إيرادات الدول الإفريقية ؟ كانت ضريبة الأرض هى أساس نظامها المالى . وكقاعدة عامة لم تكن الضرائب تفرض على المحصول ، وإنما على الزارع . وفى بلاد الهوسا كانت هناك ضريبة الرأس على كل ذكر بالغ ، ومقدارها ثلاثة آلاف كوردى ، وإن تفاوت مقدارها من مكان لآخر . وفى كانو لم يكن الكوردين كازا (٧١) - ريع الأرض - يفرض على الأرض ، وإنما كان على رب الأسرة أن يدفع ألفين وخمسمائة كوردى . وساد فى برنو نظام مماثل . وفى زاريا لم تكن الضريبة تفرض على الفرد ، وإنما على الأنوات - خمسمائة كوردى على كل فأس ، على أساس أن الفأس تنتج ما بين مائة ومائتى حزمة من سيقان الحبوب ، كل حزمة بها مكيالان ، فى حين أن الفرد يكفيه خمسين مكيالا فى السنة . وهكذا فإن الفأس تنتج ما بين مائتى وأربعمائة مكيال ، فيكون الفائض لديه ما بين مائة وخمسين وثلاثمائة وخمسين مكيالا . وإذا كان كل رجل يعول فردين فإن ذلك يحقق له دخلا كافيا . ولما كان الافريقيون متعددى الزوجات ، فإن العمل الزراعى تؤديه الإناث ، ولذلك لابد أن يدخل الأسرة فى زاريا كان كبيرا . وحتى فى كانو وبرنو ، حيث يفرض على كل أسرة سعر جزافى موحد ، فإن دخل الأفراد الذين يعملون إلى جانب عمل الرقيق كان مرتفعا . وهناك ضرائب أخرى : سبعمائة كوردى على الوعاء الكبير من مواد الصباغة ؛ ستمائة كوردى على كل نخلة ؛ ضريبة صغيرة على الخضر

(٧٠) أوردپانيكار هذه الرواية بأسلوبه ، وقد أوردتها بنصها الأسمى ، المرجع نفسه ، الصفحة ٦٩٦ .

(٧١) وردت كودين كازا Kudi-n-Kasa فى پيتر ب. كلاك ، West Africa and Islam ، الصفحة

١٢٢ . ويقول كلارك ، نقلا عن تاريخ كانو ، إن الكودين كازا (ضريبة الأرض) واحدة من الضرائب المنافية للشريعة الإسلامية التى فرضها حكام كانو المسلمون فى القرن السابع عشر .

التي تباع في السوق . والضرائب على المنتجات الزراعية في بلاد الهوسا كانت تمييزية . فاللحوم والماشية التي تباع في السوق معفاة من الضرائب . وقد فرض حكام الهابي في القرن الثامن عشر ضريبة **الچانجالي** ^(٧٢) ذات العبء الفادح على الرعاة .

وفي العصور المبكرة لم تشكل إيرادات الدولة من الأرض عبئا ثقيلا على الفلاحين . تقول **تاريخ كانو** إن هذه الإيرادات لم تتعد ثمن المحصول خلال حكم الساركن السادس (في بداية القرن الثالث عشر) . ^(٧٣) وفي أيام ليو كانت إيرادات برنو من الأرض تساوي عشر المحصول . ^(٧٤)

وقد زادت حاجة ممالك الهوسا إلى الإيرادات زيادة كبيرة بحلول القرن السابع عشر ، لاسيما بسبب الحروب المستمرة التي أرغمتها على البحث عن مصادر جديدة ؛ وجمعت **الچانغالي** لأول مرة في نهاية هذا القرن . ومع إدخال المدفع في القرن الثامن عشر أصبحت الإيرادات الشغل الشاغل للحكام ، فازداد نشاطهم في جمع الضرائب من التجار . وفرضت ضريبة حتى على الزيجات . وقيدت بشدة سلطات الموظفين الإداريين ، سواء كانوا محافظين أم رقيقا رئيسيين . وبدأ الحكام في نهب هؤلاء الأخيرين وإرغامهم على تقديم الهدايا .

وإلى جانب هذه الضرائب كان لدى بلاد الهوسا وبرنو نظام محكم للغرامات . ففي كانو فرضت غرامة مقدارها عشرة آلاف كوردي للتعدى بالإيذاء البدني أو استعمال العنف ، وغرامة مقدارها مائة ألف كوردي للعمل غير

(٧٢) **الچانجالي** : هي الضريبة على الماشية ، انظر الحاشية ٦ - ٦٧ أعلاه . ويقول كلارك (المرجع نفسه ، الصفحتان ٩٩ و ١٢٣) ، نقلا عن **تاريخ كانو** ، إنها ضريبة أخرى من الضرائب غير الإسلامية التي فرضها حكام الهوسا ، وإنها أثارت سخط الرعاة من الفولاني ، وكانت باهظة بدرجة أدت إلى تقليص التجارة .

(٧٣) هو ناغوش بن تسراكي ساركن كانو السادس ، الذي حكم في الفترة ١١٩٤ - ١٢٤٧ .

(٧٤) «ولا يفرض عليه أي خراج ماعدا عشر ما تنتجه الأرض .» وصف إفريقيا ، طبعة المغرب ، الجزء الثاني ، الصفحة ١٧٦ .

الشرعى ، وفى حالة القتل يتم الاستيلاء على ممتلكات القاتل . ولكن البند الأكثر أهمية هو الرسوم على المواد المتداولة فى التجارة ، والتي أعفى منها تجار أسبن الذين ينقلون الملح مقابل تقديم بعض منه على سبيل الهدية . أما البضائع الأخرى فتفرض عليها رسوم تصل إلى خمسمائة كوردى عن كل حيوان ينقل حملاً . ويدفع نفس المقدار عن الجمل أو الثور الذى ينقل حمولات أثقل مما ينقله الحمار . وفى كاتسنا فرضت ضريبة مقدارها ألفان وخمسمائة كوردى عن كل أسرة ، وكذلك ضريبة مقدارها خمسمائة كوردى عن كل رقيق . وفى برنو ، وبخاصة فى مقاطعة مونيو ، يدفع كل رجل ضريبة رأس مقدارها ألف ودعة عن نفسه وألفا ودعة عن كل رقيق ، وألف ودعة عن كل حمل دابة . كذلك باستطاعة الأمراء الإقطاعيين تحصيل أموال كبيرة على سبيل الجزية .

وبند الإيرادات الأكثر أهمية فى بلاد الهوسا هو الضرائب على التجارة ، وقد استغل حكامها ذلك إلى أقصى حد . ويذكر ليو أن الضرائب أثقلت كاهل سكان غوبر - التى كانت فى ذلك الوقت مركزا تجاريا هاما ، وظلت كذلك إلى أن خرب الأسكيا تجارتها .^(٧٥) وتشير تأريخ كانوا إلى أن التجار الأجانب اضطروا إلى مغادرتها بسبب فداحة الضرائب . ويقول ليو إن حاكم ونقارة استخلص عائدات كبيرة من التجارة والضرائب .^(٧٦) ففى كانوا مثلا حقق تصدير البضائع واستيرادها إيرادات معقولة على هيئة مكوس ، وإلى جانب ذلك كان الحاكم يحتل على الإيجار من أكشاك عرض البضائع .

وكان يوجد بطبيعة الحال فساد ورشوة فى الإدارة . ومظاهر الفساد هذه هى التى أعلن الشيخ عثمان الحرب عليها . وبعض النقاط التى أثارها على

(٧٥) «وأثقل (الملك) كاهل السكان بالضرائب ، وكانوا قديما يحققون أرباحا تجارية هائلة ، فأصبحوا الآن فقراء ، ونقص عددهم أكثر من النصف ؛ لأن أسكيا أخذ من البلاد عددا كثيرا من الناس ، احتفظ ببعضهم أسرى واستخدم البعض الآخر كعبيد له» . المرجع نفسه . الصفحة ١٧١ . [أسكيا المشار إليه هنا هو أسكيا الحاج محمد الذى غزا كاتسنا فى عام ١٥١٢ ، ويمكن أن تكون حملته هذه قد وصلت إلى غوبر .]

(٧٦) «وانكرة إقليم يسكنه شعب كبير يحكمه ملك ويستخرج موردا كبيرا من رسوم السلع والضرائب التجارية» المرجع نفسه ، الصفحة ١٧٥ . [وانكرة المشار إليها هنا فى ونقارة] .

جانب كبير من الأهمية لأنها تسمح لنا بأن نلم بفكرة عن طريقة سير الجهاز الإدارى . وكان لجانب من هذه المظاهر ، مثل الاستيلاء على ممتلكات الشخص الذى يموت فى مملكتهم ، أثر عنيف على الطبقات الغنية . ولكن من اليسير أن نفهم لماذا سادت هذه العادة . فالحاكم كان هو صاحب الأرض كلها ، ولم يكن الأمراء الكبار يتمتعون إلا بحق الانتفاع ، وتعود الملكية إلى الحاكم عند وفاة المالك . وفى الهند المسلمة بدورها ، تحت حكم بعض السلاطين ، كان الحاكم يرث الممتلكات تلقائيا . وقد ساد نظام مماثل إلى حد كبير فى أوروبا خلال العصر الإقطاعى ، حيث كان على ابن المتوفى قبل أن يضع يده على التركة أن يدفع مبالغ كبيرة للأمير الإقطاعى . أما المظاهر الأخرى لسوء استخدام السلطة التى أثارها الشيخ فهى ثانوية نسبياً : الهدايا والرشاوى التى تقدم إلى كبار الموظفين مقابل قضاء الأعمال ؛ التاوزا أو اللحوم التى يحصل عليها مفتش السوق من الجزار ؛ الأغاما أو الرسم غير القانونى على البضائع الأخرى غير اللحوم ؛ الكامورا أو الاستيلاء غير القانونى على الحيوانات لنقل مؤن السلطان . ولكن هذه الحيوانات يتم ردها إذا تقدم صاحبها بشكوى ضد الموظف إلى مجلس الملك . ولذلك يمكن تقسيم سوء استخدام السلطة فى مجال الإدارة إلى ثلاثة أقسام : طلب الهدايا - وهو فى رأى بارث له طبيعة الرسوم ؛ سوء استخدام السلطة فى السوق ؛ إعطاء احتياجات الحاكم الأفضلية على احتياجات الأفراد . وقد استمر بعض هذه المظاهر خلال حكم الفولانى ، بل إن الهدايا المألوفة ما زالت تقدم إلى الحكام والرؤساء .

الفصل الثالث عشر

المجتمع والحضارة فى غرب إفريقيا

أولا

كان من الحقائق الثابتة فى فكر المؤرخين الأوروبيين أن إفريقية الاستوائية لم تقم فيها حضارة . ذلك أن نظام الدولة فى غرب بلاد السودان لم يكن حتى منتصف القرن التاسع عشر معروفا للدارسين الأوروبيين إلا من خلال الجغرافيين العرب مثل البكرى أو الإدريسى ، أو من خلال المؤرخين العرب مثل ابن خلدون والمقرئى . وقد كشفت زيارة بارث لإفريقية الغربية عن وجود كتابات باللغة العربية عن غرب إفريقية ، مثل كتابى السعدى وكعت ، وكذلك كتابات دان فوديو وبل وعمر .

ومع ذلك فإنه حتى بعد اكتشاف فن بنين وإيفه ، رفض الدارسون الأوروبيون التسليم بوجود طابع مستقل بذاته لثقافة غرب إفريقية . وبالنسبة للبعض كان صهر البرونز بطريقة الشمع المفقود انعكاسا إما للتأثيرات البرتغالية أو الهندية التى تحلت بمضى الوقت . ففروبنيوس ، على سبيل المثال ، شاهد فى إيفه ، لا ثقافة وطنية ، وإنما تدهور الفن الإغريقى .

ووجهة النظر القائلة بأن ثقافة غرب إفريقية لم تكن ثقافة وطنية ، وإنما ثقافة مستوردة تحلت مع الوقت ، وجدت دعما فى الأفكار التى يؤمن بها الإفريقيون عن ماضيهم . فليست هناك قبيلة واحدة من قبائل غرب إفريقية الرئيسية تزعم أنها من سكان المنطقة الأصليين : فجميعها تزعم أنها هاجرت إما من المشرق أو من الشمال . وغالبية هذه القبائل تزعم أنها إما من أصل

بربرى أو مصرى أو آسيوى . وهذا التطابق بين وجهتى النظر الأوروبية والإفريقية أعطى دعما إضافيا للنظرية القائلة بأن الحضارات التى جاءت مع المهاجرين قد تعرضت للتدهور .

ومن الغريب أن هؤلاء المهاجرين لم يجلبوا معهم لا أبجدياتهم ولا معداتهم مثل العجلة . وذلك لأن معظم الناس يسلمون بأن الإفريقى قد أخفق حتى العصور الحديثة فى وضع أبجدية ، وبأن الافتقار إلى العجلة قد اتخذ تفسيراً لعدم تطوير نظام سليم للنقل والزراعة .

إن العجلة والأبجدية اللتين تشكلان الأساس لأية حضارة - فالأولى لتنمية الموارد المادية ، والثانية لتطوير قيمها الثقافية والروحية ، واللتين كان يمكن أن يحققهما التدوين وإمعان التفكير باستمرار فيهما - لم يتم استحداثهما فى غرب إفريقية . فإذا لم يكن المهاجرون يعرفونهما ، فمن المستبعد أنهم كانوا أفضل حالا من السكان المحليين .

كما أن غرب إفريقية لم يقدم حتى الآن سوى النذر اليسير سواء من المدونات أو من الآثار القديمة ، على حين أن مناخ المنطقة ، وكذلك المواد التقليدية التى استخدمت فى البناء ، لا تحملنا على أن نتوقع من الحفائر القادمة ما يساعدنا على حل هذا الغموض . ومع ذلك فإن ما نعرفه عن السودان الأوسط له من الأهمية ما يكفى لأن نخلص إلى بعض الاستنتاجات غير النهائية عن الحضارة فى غرب إفريقية .

ثانيا

يجدر بنا أن نضع نصب أعيننا حقيقة أن حضارة غرب إفريقية هى من الناحية الجوهرية حضارة عصور وسطى . لذلك ينبغى ألا تقارن بالحضارة الصناعية الراهنة ، وإنما بالحضارة التى عرفت أوروبا قبل الثورة الصناعية .

والتنظيم الاجتماعى فى غرب إفريقية لا يختلف من الناحية المادية عن أى مجتمع آخر من مجتمعات الرقيق أو الأقنان . فعلى رأس المجتمع يوجد الحاكم

الذى كان يُعتبر فى إفريقيا المسلمة أميراً للمؤمنين . وترتبط شخصية الملك ارتباطاً وثيقاً بالسحر . ولم يكن يُوقَّر كسحرة حكام من أمثال سوندياتا وسنّ على فقط ، بل حتى حكام مسلمون مشهورون مثل إدريس ألوما وأسكيا محمد . وفى الدول الوثنية ارتبطت الخصوبة والأمطار بالملك . وكانت فترة السبع سنوات هى القاعدة بين النوبى واليوروبا . كذلك كان الحكام هم الرؤساء الروحيون للشعب . فإمبراطور موسى ، على سبيل المثال ، هو الحارس الرئيسى لأيك شعبه المقدسة ، وجرت عاداته أن يستشير أسلافه بانتظام . وفى داهومى وبين توفد رسل بانتظام إلى السماء لاطلاع الأسلاف على أحداث الأرض .

والحكام قدسيّتهم فى إفريقيا الوثنية . وبين الإيبو تعقب موت الملك فترة سبع سنوات يجرى المطالبون بالعرش خلالها نبوءاتهم . فإذا صدقت نبوءة أحدهم انتخب ملكا ، ولكن عليه قبل أن يُتَّوَّج أن يموت ميتة احتفالية . فيعامل الملك المنتخب على أنه جثة ويدفن فى قبر قليل العمق ، وبعد أن يمر خلال احتفالات تطهر مختلفة يظهر ككائن مقدس .

ولم يكن الملك نائبا للإله فقط ، وإنما هو نفسه مقدس . وهو كملك مقدس ليس بحاجة إلى أن يأكل أو ينام ، ولذلك فهو لا يأكل فى حضور أحد على الإطلاق . ولدى ملوك بنين وأشانتي فروض دينية كثيرة ، أهمها تقديم القرابين للأسلاف . فالملوك لا يموتون . ، وإنما يقصدون العالم الآخر ، ويظل موتهم سرا حتى يرتقى العرش ملك جديد . وإلى جانب الطقوس الدينية كان يفترض فى الملك أنه يتحكم فى المطر وخصوبة التربة ، وهو باعتباره متحكما فى الخصوبة عليه أن يموت ميتة احتفالية .

كذلك لم يكن الملك فى المناسبات الرسمية يخاطب أى شخص مباشرة ، بل يفعل ذلك من خلال موظف يعرف بترجمان الملك . ويصف ابن بطوطة مهام «الدوغا» فى بلاط مالى^(١) ، كما أن كُتّابا بريطانيين وأوروبيين كثيرين أفاضوا

(١) «فمن أراد يكلم السلطان كلم دوغا ، ويكلم دوغا لذلك الواقف ، ويكلم الواقف السلطان .» تحفة

النظار ، الصفحتان ٦٩٢ و٦٩٣ .

فى شرح مهامه فى بلاط ملوك المناطق الساحلية . ولأن الدوغا هو المتحدث
الرسمى باسم الملك ، فهو يتمتع بنفوذ هائل .

والملك ككائن مقدس يعامل باحترام شديد . وتعتبر طبيعة الملك المقدسة
جوهريّة لفهم النظام الاجتماعى واحتفالات البلاط فى إفريقية . فمن غير هذه
الطبيعة لا يكون هناك معنى لبعض مراسم البلاط مثل اقتراب الشخص من
الملك وهو يزحف على أربع ، وتتريب الرأس ، وغير ذلك من العادات .

ولم تكن الدول الوثنية هى وحدها التى تعامل الملك على أنه مقدس ، بل
شاطرتها فى ذلك بعض الدول الإسلامية الشهيرة . فبرنو ، على سبيل المثال ،
على الرغم من كونها دولة إسلامية ، كانت تعامل إمبراطورها على أنه ملك
مقدس . وفى قاعة التشريفات يجلس الملك فيما يشبه قفصا ذا قضبان ، ويغطى
وجهه بلباس . ولم يكن المايات الأخيرون فى برنو يحملون سلاحا أو يأكلون فى
حضور أحد . كما أن النبلاء لم يكونوا يواجهون الملك ؛ مثال ذلك أن الغديمة ،
وهو الحاكم القوى للتخوم الغربية ، كان يجلس وظهره إلى الملك مخافة ألا
تحتمل عيناه الضعيفتان مهابة الملك التى هى كأشعة الشمس القوية .

ومن المؤكد أن الملك فى العصور المبكرة كان كاهنا فى الأساس ، ولكن
السلطات الكهنوتية انتقلت فى بطاء إلى آخرين . وفى دلتا بنين كانت عبادة
الأسلاف من الطقوس الدينية الرئيسية ، وظل الملك لا مجرد رئيس عسكرى ،
وإنما الكاهن الأعلى أيضا .

ثالثا

لما كان الملك مصدر كل السلطة ، فإن البلاط كان المؤسسة الأكثر أهمية فى
هذه الدول . ولدينا لحسن الحظ رواية شاهد عيان لاحتفالات مالى . فالبلاط
يتبع مراسم دقيقة للغاية ، وعلى الرغم من أن هذه المراسم تختلف من منطقة
لأخرى ، فإن المبادئ الأساسية واحدة . ويزودنا ابن بطوطة بوصف غاية فى
الحيوية لبلاط مالى . فيقول إن سلطان مالى كانت «له قبة مرتفعة بابها بداخل

داره ، يقعد فيها أكثر الأوقات . ولها من جهة المشور طيقان ثلاثة من الخشب مغطاة بصفائح الفضة ، وتحته ثلاثة مغطاة بصفائح الذهب . فإذا جلس أخرج من شباك إحدى الطاقات شرابة حرير ... ثم خرج من باب القصر نحو ثلاثمائة من العبيد فى أيدي بعضهم القسى ، وفى أيد بعضهم الرماح والدرق . فيقف أصحاب الرماح منهم ميمنة وميسرة ، ويجلس أصحاب القسى كذلك فيدعون نائبه قنجا موسى ، وتأتى الفرارية وهم الأمراء ، ويأتى الخطيب والفقهاء فيقعدون أمام السلحدارية يمنا ويسرة من المشور . ويقف دوغا الترجمان على باب المشور وعليه الثياب الفاخرة . ويمضى ابن بطوطة قائلا : «ذكر جلوسه بالمشور - ويجلس السلطان أيضا فى بعض الأيام فى المشور وهناك مصطبة تحت شجرة ، لها ثلاث درجات يسمونها البنّى ، وتفرش بالحرير وتجعل المخاد عليها ، ويرفع الشطر ، وهو شبه قبة من الحرير وعليه طائر من ذهب على قدر البازى . ويخرج السلطان من باب فى ركن القصر وقوسه بيده وكنانته بين كتفيه ، وعلى رأسه شاشية ذهب مشدودة بعصابة ذهب ، لها أطراف مثل السكاكين رقاق ، طولها أزيد من شبر . وأكثر لباسه جبة حمراء موبرة من الثياب الرومية التى تسمى المطنفس . ويخرج بين يديه المغنون بأيديهم قنابر الذهب والفضة ، وخلفه نحو ثلاثمائة من العبيد أصحاب السلاح . ويمشى مشيا رويدا ويكثر التأتى ، وربما وقف ينظر فى الناس ، ثم يصعد برفق كما يصعد الخطيب المنبر . وعند جلوسه تضرب الطبول والأبواق والأنفاز ، ويخرج ثلاثة من العبيد مسرعين ، فيدعون النائب والفرارية فيدخلون ويجلسون ، ويؤتى بالفرسين والكبشين معهما ، ويقف دوغا على الباب ، وسائر الناس فى الشارع تحت الأشجار» .

وفى يوم الجمعة يقام بعد صلاة العصر نوع مختلف من الاحتفالات . ويقول ابن بطوطة إنه كان موجودا فى مالى خلال احتفالات عيد الأضحى وعيد الفطر . «يجلس السلطان فى أيام العيدين بعد العصر على البنّى ، وتأتى السلحدارية بالسلاح العجيب ، من تراكش الذهب والفضة والسيوف المحلاة

بالذهب واغمادها منه ورماح الذهب والفضة ودبابيس البلور . ويقف على رأسه أربعة من الأمراء يشربون الذباب ، وفي أياديهم حلية من الفضة تشبه ركاب السرج . ويجلس الفرارية والقاضي والخطيب على العادة ، ويأتى دوغا الترجمان بنسائه الأربع وجواريه ، وهن نحو مائة عليهن الملابس الحسان ، وعلى رؤوسهن عصائب الذهب والفضة فيها تفافيح ذهب وفضة . وينصب لدوغا كرسي يجلس عليه ويضرب الآلة التي هي من قصب وتحتها قريعات ، ويغنى بشعر يمدح السلطان فيه ويذكر غزواته وأفعاله . ويغنى النساء والجواري معه ويلعبن بالقسي . ويكون معهن نحو ثلاثين من غلمانهن ، عليهن جباب الملف والحر ، وفي رؤوسهم الشواشي البيض ، وكل واحد منهم متقلد طبله يضربه . ثم يأتى أصحابه من الصبيان ، فيلعبون ويتقلبون فى الهواء كما يفعل السندى ، ولهم فى ذلك رشاقة وخفة بديعة . ويلعبون بالسيوف أجمل لعب ، ويلعب دوغا بالسيف لعبا بديعا ، وعند ذلك يأمر السلطان له بالإحسان . فيؤتى بصرة فيها مائتا مثقال من التبر ، وينثر ما فيها على رؤوس الناس . وتقوم الفرارية فينزعون فى قسيهم شكرا للسلطان . وبالغد يعطى كل واحد منهم لدوغا عطاء على قدره . وفى كل يوم جمعة بعد العصر يفعل دوغا مثل هذا الترتيب الذى ذكرناه .

«وإذا كان يوم العيد وأتم دوغا لعبه ، جاء الشعراء ويسمون الجلا (بضم الجيم) وأحدهم جالى ، وقد دخل كل واحد منهم فى جوف صورة مصنوعة من الريش تشبه الشقشاق ، وجعل لها رأس من الخشب له منقار أحمر كأنه رأس الشقشاق . ويقفون بين يدي السلطان بتلك الهيئة المضحكة ، فينشدون أشعارهم . وذكر لى أن شعرهم نوع من الوعظ يقولون فيه للسلطان إن هذا البنبي الذى عليه ، جلس فوقه من الملوك فلان وكان من أحسن أفعاله كذا ، وفلان وكان من أفعاله كذا ، فافعل أنت من الخير ما يذكر بعدك . ثم يصعد كبير الشعراء على درج البنبي ، ويضع رأسه فى حجر السلطان . ثم يصعد إلى أعلى البنبي فيضع رأسه على كتف السلطان الأيمن ، ثم على كتفه الأيسر ،

وهو يتكلم بلسانهم ، ثم نزل . وأخبرت أن هذا الفعل لم يزل قديما عندهم قبل الإسلام ، فاستمروا عليه .

«وحضرت مجلس السلطان فى بعض الأيام ، فأتى أحد فقهاءهم وكان قدم من بلاد بعيدة ، وقام بين يدى السلطان وتكلم كلاما كثيرا . فقام القاضى فصدقه ، ثم صدقهما السلطان . فوضع كل واحد منهما عمامته عن رأسه ، وترب بين يديه . » ^(٢) وحتى عندما أرسلت سفارة من مالى إلى بلاط مراکش حملت معها أوعية من التراب ليترب أفرادها رؤوسهم . ^(٣) ولكن المسلمين فى البلاط لم يكونوا يفعلون ذلك ، وإنما يكتفون بالتصفيق . وبالمثل فإن الأهالى يدخلون الحضرة الملكية وهم راكعون ، فى حين يعفى الأجانب من هذه العادة .

(٢) جميع الاقتباسات الواردة فى هذا الفرع مأخوذة ، كما هو واضح ، عن تحفة النظر . وقد أورد بانتيكار بعضها مرسلًا وأورد البعض الآخر بين معقوفين ، وقد أوردتها جميعا بنصها الأسمى . تحفة النظر ، الصفحات ٦٩٢ إلى ٦٩٦ .

ويقول بانتيكار فى بداية الفرع التالى «رابعاً» إن ابن بطوطة هو شاهدنا الرئيسى على عظمة بلاط مالى ، على حين أن المراجع العربية الأخرى لا تخلو من إشارات من هذا القبيل . وفيما يلى اقتباس لا يقل أهمية وطرافة أنقله عن صبح الأعشى ، الجزء الخامس ، الصفحة ٣٠٠ .

«أما جلوس السلطان فى قصره فإنه يجلس على مصطبة كبيرة ، على نكة كبيرة من أبوس ، كالتخت على قدر المجلس العظيم المتسع ، عليها أنياب الفيلة فى جميع جوانبها ، الناب إلى الناب ، وعنده سلاح له من ذهب كله ؛ سيف ومزراق ، وقوس ، وتركاش ونشاب ، وعليه سراويل كبير ، مفصل من نحو عشرين نصفية ، لا يلبس مثله أحد منهم ، بل هو من خصوصيته ؛ ويقف خلفه نحو ثلاثين مملوكا من الترك وغيرهم ممن تتباع له من مصر ، بيد واحد منهم جتر من حرير عليه قبة ، وطائر من ذهب صفة بازى يحمل على يساره ، وأمرأوه جلوس يميناً وشمالاً ؛ ثم دونهم أعيان من فرسان عسكره جلوس ؛ وبين يديه شخص يغنى له وهو سياقه ، وآخر سفير بينه وبين الناس يسمى الشاعر ؛ وتنتهى إليه الشكاوى والمظالم فيفصلها بنفسه ؛ ولا يكتب شيئاً فى الغالب ، بل يأمر بالقول بلسانه ؛ وحوله أناس بأيديهم طبول ينقون بها ، وأناس يرقصون وهو يضحك منهم ؛ وخلفه صنجقان منشوران وأمامه فرسان مشدودان محصلان لركوبه متى أحب .»

(٣) «أنه لما قدم الحاج موسى الونجراتى رسولا عن منسى سليمان إلى مولانا أبى الحسن رضى الله عنه كان إذا دخل المجلس الكريم حمل بعض ناسه معه قفة تراب فيترب مهما قال له مولانا كلاما حسنا كما يفعل ببلاده» تحفة النظر ، حاشية بالصفحة ٦٩٤ .

رابعاً

إبن بطوطة مرة ثانية هو شاهدنا الرئيسى على روعة بلاط مالى والاحتفالات المرتبطة بالتشريفات الملكية (المشور) «ذكر جلوسه بقبته - وله قبة مرتفعة بابها بداخل داره يقعد فيها أكثر الأوقات . ولها من جهة المشور طيقان ثلاثة من الخشب مغطاة بصفائح الفضة ، وتحتها ثلاثة مغشاة بصفائح الذهب ، أو هى فضة مذهبة ، وعليها ستور ملف . فإذا كان يوم جلوسه بالقبة رفعت الستور ، فعلم أنه يجلس . فإذا جلس أخرج من شباك إحدى الطاقات شرابة حرير قد ربط فيها منديل مصرى مرقوم ، فإذا رأى الناس المنديل ضربت الأبطال والأبواق .

« ثم خرج من باب القصر نحو ثلاثمائة من العبيد فى أيدي بعضهم القسى وفى أيدي بعضهم الرماح الصغار والدرق . فيقف أصحاب الرماح منهم ميمنة وميسرة ، ويجلس أصحاب القسى كذلك . ثم يؤتى بفرسين ملجمين ، ومعهما كبشان يذكرون أنهما ينفعان من العين . وعند جلوسه يخرج ثلاثة من عبيده مسرعين ، فيدعون نائبه قنجا موسى وتأتى الفرارية وهم الأمراء ويأتى الخطيب والفقهاء فيقعون أمام السلحدارية يمينة ويسرة فى المشور ويقف بوغا الترجمان على باب المشور وعليه الثياب الفاخرة من الزردخانة وغيرها ، وعلى رأسه عمامة ذات حواشى لهم فى تعميمها صنعة بديعة ، وهو متقلد سيفاً غمده من الذهب ، وفى رجليه الخف والمهاميز ولا يلبس أحد ذلك اليوم خفا غيره ، ويكون فى يده رمحان صغيران ، أحدهما من ذهب والآخر من فضة وأسنتهما من الحديد .

« ويجلس الأجناد والولاة والفتيان ومسوفة وغيرهم خارج المشور ، وفى شارع هناك متسع فيه أشجار ، وكل فرارى بين يديه أصحابه بالرماح والقسى والأبطال والأبواق ، وبوقاتهم من أنياب الفيلة ، وآلات الطرب المصنوعة من القصب والقرع ، وتضرب بالطاعة ولها صوت عجيب . وكل فرارى له كنانة قد علقها بين كتفيه ، وقوسه بيده ، وهو راكب فرسه ، وأصحابه بين مشاة وركبان .» (٤)

(٤) تحفة النظر : الصفحتان ٦٩٢ و ٦٩٣ .

وقد أعقبت عودة منسا موسى من مصر إدخال عادات إسلامية إلى البلاط .
فالخطلة ^(٥) ، على سبيل المثال ، أصبح معترفا بها كشارة ملكية ؛ وبدأت عباآت
الشرف والعمائم تمنح تعبيراً عن الخطوة لدى الملك . ويقول كعت إن أسكيا
محمد بنكن كان أول إمبراطور يدخل **الفترف** - وهو نوع من البوق . وقبل ذلك
كان حكام أير هم وحدهم الذين يستخدمون الفترف . كما أدخل بنكن عادة
أخرى هي أن تسبقه موسيقى الدفوف عندما يخرج في رحلة نهريّة ، وكان أيضاً
أول من صنع أزياء من القطن لخدمه ، وزينهم بالأساور . ^(٦) وفي دولة السنغى
كان من عادة الملك حين يكون في مجلسه ويريد أن يبصق ، أن يتقدم إليه أحد
رقيقه ويمد إليه كمة فيبصق فيه ، ويقدم رقيق آخر قطعة قماش كي يجفف
شفتيه . وعندما يخرج الملك أو أمير ملكي في جولة بالمدينة على ظهر جواد ،
يسير على جانبية رجالن يمسان بسرجه ، ويضع الملك أو الأمير يديه على
كتفيهما . ^(٧)

وجرت العادة في مالى ، عندما يصل أى عربى إلى المدينة ، أن يقدمه
رئيس الجالية البيضاء رسمياً في البلاط . ^(٨) كما اعتاد السلطان أن يقدم

(٥) ومنها : الخطلة ، واسمها بالفارسية : الجتر ، ويعبر عنها العامة الآن بالقبة والطبر ، وهى قبة من
حرير أصفر ، تحمل على رأس الملك ، على رأس رمح بيد أمير يكون راكباً بحذاء الملك ، يظله بها حالة
الركوب من الشمس في المواكب العظام ، وسيأتى ذكرها في الكلام على ترتيب المملكة في الدولة الفاطمية . ،
صبح الأمشى ، الجزء الثانى ، الصفحة ١٣٢ .

(٦) « وأول من فصل ملف وند وصنع السوار لخدمه وأول من مشى بالدفوف في السفينة وهو الذى
اخترع فتوف وغبتند التى اللهو وفترف يشبه البوق وغبتند وهو كالطبل ... وهما معروفان عندهم ولم يكن
فترف إلا لسلطان أير ، تاريخ الفتاش ، الصفحة ٨٤ . [ملف وند معناها «أزياء من الجوخ» ، كما ورد في
الترجمة الفرنسية لتاريخ الفتاش ، الصفحة ١٥٨ (Vetements de drap) .]

(٧) « وكان إذا جلس مجلسه جاء رجل كلما أراد أن يتقل مد إليه كمة فيتقل فيه وكان إذا ركب يمشى
معه رجالن يأخذ أحدهما قريوس سرجه على يمينه والآخر على يساره ويضع يده اليمنى على رأس الذى على
يمينه واليسرى على رأس الذى بشماله وتبعوه في ذلك أولاده . المرجع نفسه ، الصفحة ١١٦ . [القريوس هو
جنو السرج ، أى قسمه المقوس المرتفع من قدام المقعد ومن مؤخره ؛ يتقل معناها يبصق .]

(٨) «فوصلت إلى مدينة مالى حضرة ملك السودان .. وصلت إلى مطلة البيضاء وقصدت محمد بن
الفقيه ولما فرغ من ذلك تقدمت فسلمت على منسى سليمان تحفة النظار ، الصفحتان ٦٩١ و٦٩٢ .

للزائر هدية رمزية تعبيراً عن الترحيب بقدومه . ولم يكن ابن بطوطة راضياً عن هديته . ^(٩) فعلى خلاف طغلق حاكم دلهي ^(١٠) لم يكرمه إمبراطور مالى على الرغم من أنه أقام شهرين في بلده . ولذلك فاتح الدوغا الذى أشار عليه أن يشكو إلى الإمبراطور . ومن الواضح أن سليمان قد نسى وجود ابن بطوطة ، فأصلح خطاه بأن أمر له بحصان ، ومنحه كل ما يلزم لحياة مريحة ، كما أنعم عليه بهدية مقدارها ثلاث وثلاثون بوكة وثلاث بوكة . وعند مغادرة ابن بطوطة البلاد منحه الإمبراطور هدية مقدارها مائة بوكة . ^(١١)

خامساً

ويلي الملك مرتبة أمراء الأسرة المالكة والرؤساء البارزون . وهؤلاء الرؤساء أمراء تابعون . وقد جرت العادة في بلاد السودان على استقدام أبناء الأتباع في بلاط الحاكم الأعلى ، وهى عادة مكنت الإمبراطور من أن يغرس الشعور

(٩) «ذكر سلطان مالى - وهو السلطان منسى سليمان .. وهو ملك بخيل لا يرجى منه عطاء كبير ... واستدعى الأمراء والفقهاء والقاضى والخطيب وحضرت معهم ذكر ضيافتهم التافهة وتعظيمهم لها - ولما انصرفتم بعث إلى الضيافة فخرج ابن الفقيه من داره مسرعاً حافى القدمين وقال قم قد جاءك قماش السلطان وهديته فقمتم وظننت أنها الخلع والأموال فإذا هى ثلاثة أقراص من الخبز وقطعة لحم بقري فعندما رأيتها ضحكت وطال تعجبي من ضعف عقولهم وتعظيمهم للشيء الحقير . » المرجع نفسه ، الصفحتان ٦٩١ و ٦٩٢ .

(١٠) المعنى هنا ليس طغلق نفسه ، وإنما ابنه محمد طغلق (١٣٢٥ - ١٣٥١) ، الذى امتدت في عهده رقعة بلاده ، وعرف بأنه طاغية سافك الدماء ، وقد بذل بعض المؤرخين محاولة لتبييض وجهه ، مثل ابن بطوطة ، « ولما مات السلطان تغلق استولى ابنه محمد على الملك من غير منازع له ولا مخالف عليه ... وهذا الملك أحب الناس فى إسداء العطايا وإراقة الدماء فلا يخلو بابه عن فقير يغنى أو حى يقتل وقد شهرت فى الناس حكاياته فى الكرم والشجاعة وحكاياته فى الفتك والبطش بذوى الجنايات » . المرجع نفسه ، الصفحة ٤٦٥ .

(١١) وفيما يلى بقية قصة ابن بطوطة مع منسى سليمان : «ذكر كلامى للسلطان بعد ذلك وإحسانه إالىّ - واقمت بعد هذه الضيافة شهرين لم يصل إلى فيهما شيء ... فتكلمت مع دوغا الترجمان فقال تكلم عنده وأنا أعبر عنك بما يجب فجلس فى أوائل رمضان وقمت بين يديه وقلت له إنى سافرت بلاد الدنيا ولقيت ملوكها ولى ببلادك منذ أربعة أشهر ولم تضيفنى ولا أعطينى شيئاً فماذا أقول عنك عند السلاطين ... فأمر لى عند ذلك بدار أنزل بها ونفقة تجرى علىّ ... وأعطانى معهم ثلاثة وثلاثين مثقالاً وثلاثاً وأحسن إلى عند سفرى بمائة مثقال ذهباً » . المرجع نفسه ، الصفحة ٦٩٢ .

بالولاء فى قلوب الأمراء الذين يدفعون الجزية ، وسمحت بأن يكون هؤلاء الأمراء على دراية بعادات البلاط الإمبراطورى وأساليبه ، كما أنها بمثابة تدبير وقائى : فالأمراء يعتبرون رهائن لضمان حسن سلوك آبائهم .

ويلى أمراء الأسرة المالكة كبار موظفى الإمبراطورية وولاة المقاطعات وقواد الجيش غير المنتمين إلى الأسرة المالكة . ويشكل هؤلاء الطبقات العليا . وهذه القشرة العليا الرقيقة - وقد رأينا فى الفصل الخاص بالإدارة كم هى رقيقة - هى صاحبة السلطة الفعلية ، وكادت أن تمتلك كل الأرض .

وللأمراء أهمية خاصة ، فهم مجموعة كبيرة بسبب كثرة أبناء الملك من حريمه الضخم ، والأسكيا العظيم يشتهر بأن لديه مائة من الأبناء ، ويشغل هؤلاء الأمراء معظم المناصب السياسية والرتب العالية فى الجيش ، ولأنهم يشكلون طبقة مستقلة - المَيِّنا^(١٢) فى برنو ، والسَن^(١٣) فى سنغى - فهم يعدون عنصر اضطراب ، غير أنه ما عدا فى الموسيقى حيث يُقَطَّع أولاد الحاكم ضياعا واسعة ، استمرت عادة الأباطرة فى بلاد السودان فى استخدام الأمراء الملكيين فى الإدارة المباشرة . وقد حاول الحكام انتهاج سياسة تدعم نفوذ الأسرة الحاكمة باتخاذهن زوجات من قبائل مختلفة وتزويج بناتهم بأتباعهم . وهكذا تزوج مقشرن كى بإحدى بنات الأسكيا ،^(١٤) ولو كان محمد الطورى من السركى وابن أخت سن على لتزوجت أخت هذا الأخير بأحد رؤساء السركى .

(١٢) المَيِّنا فى لغة الكاتورى بمعنى أمير (Mai - Na أو Maina) ، على حين أن الماي رام أو المريم (Mariam أو Mai - Ram) فى لغتهم بمعنى أميرة .

(١٣) سَن بلغة السنغى تعنى الرئيس أو رب الأسرة ، أو أحد أعضاء الأسر النبيلة . وكان السَن يعيشون فى تمبكت فى حى مستقل هو حى سنكرى (حى السَن) ، وقد أطلق اسم سنكرى على المسجد الذى أقيم هناك (مسجد سنكرى) . «وأما سَن بسين مفتوحة فنون ساكنة فهم أجل عباد الله فى زمانهم كرما وحفظ المروءة والسكوت وترك ما لا يعنى ولزوم بيوتهم ونفع المسلمين ورقد محتاجهم وتلك فيهم خلقة وجيلة رحمهم الله ورضى عنهم ...» تاريخ الفتاش ، الصفحة ١٧٩ .

(١٤) «وما عرفنا من الملوك من تولى له عشرة من الأولاد السلطنة سوى داوود وحده ومن أولاده أيضا ... ومن الإناث فكثيرة ومنهن ... وبنّت زوجة مقشرن كى ...» المرجع نفسه ، الصفحة ١١٨ .

يقول ابن أمير حاجب إن الطبقات العليا تتمتع بحق «السيد» . وقد استدعى حاجب انتباه منسا موسى إلى تعارض ذلك مع الإسلام وضرورة عدم السماح به . وتساءل الإمبراطور عما إذا كان يمكن أن تستثنى الأسرة المالكة من ذلك ، ولكن عندما قيل له إن ذلك غير ممكن أُلْقِعَ عنه .^(١٥) ومع ذلك ظل هذا الحق قائماً ؛ إذ يذكر الفتاش أن حاكم برّ حصل على وعد من أسكيا محمد بالآلا تؤخذ بناته كمحظيات وإنما كزوجات شرعيات .^(١٦) ويبدو من هذه الرواية أن الأمراء التابعين عليهم أن يرسلوا بناتهم إلى الحريم الملكي . وتقول تاريخ كانو بوضوح إن محمد رومفا قد أدخل «حق السيد» في بلاد الهوسا .

ولم يقتصر الأمر على ذلك ؛ فالفجور يشجعه حق الحاكم في أخذ بنات الجنود كمحظيات . وسبب ذلك أن الجنود كانوا يعدون رقيقاً للإمبراطور ، ومن هنا فله حق على بناتهم . ولما كان الرق هو أساس المجتمع في بلاد السودان ، فقد تفشى الفجور على نطاق واسع . فالطبقات العليا كانت تحتفظ بحريم كثير وكذلك بعدد كبير من الجوارى . كما جرت عادة السلاطين أن يقدموا هبات من الجوارى لكبار النبلاء والعلماء ، إذ كانت هذه الهبات إحدى الوسائل القليلة لكسب رضاهم . لذلك فلا عجب أن ذكر الفتاش أنه لم يولد أحد من الأساكى من أم حرة عدا أسكيا محمد مؤسس الأسرة .

(١٥) «قال في مسالك الأبصار : وذكر لى عنه ابن أمير حاجب : أنه حكى أن من عادة أهل مملكته أنه إذا نشأ لأحد منهم بنت حسناء ، قدمها له أمّة موطومة ، فيملكها بغير تزويج مثل ملك اليمين - فقلت له : إن هذا لا يحل لمسلم شرعاً - فقال : ولا للملوك ؟ - فقلت : ولا للملوك وأسأل العلماء . فقال : والله ما كنت أعلم ذلك وقد تركته من الآن ...» صبيح الأعشى ، الجزء الخامس ، الصفحة ٢٩٦ .

(١٦) «دخل معه بركى منس كور وأمسك بمعمدة من الشبكة الشريفة وقال يا اسكيا محمد هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا أبو بكر وعمر رضى الله عنهما دخلت في حرمتهم أطلب منك أشياء الأولى أن لا تجعل بناتى في الدار إلا بالنكاح » تاريخ الفتاش ، الصفحة ٦٩ . [دار هذا الحديث في الأراضى المقدسة حيث كان بركى في رفقة اسكيا محمد في رحلته للحج .]

وعلى الرغم من أن الحريم الكبير كان شائعا فإن النساء كن موضع تقدير ، ولا ينظر إليهن بأية حال على أنهن مجرد متاع . وحتى أيام أسكيا محمد فى غاو ، ومحمد رومفا فى كانو ، لم يكن النقاب قد عرف بعد . فضلا عن ذلك فإن الملكة الأم والملكة تشغلان مناصب هامة فى البلاط ، لا فى الدول الوثنية وحدها ، وإنما فى برنو ولدى الهوسا أيضا . وكما أشار بلُّ فإن هذه الدول كانت تضع الملكة على رأس الحريم ، وتلك عادة غير إسلامية سادت فى إفريقية غربيها وشرقيها ، كما سادت بين الغاندا بدورهم .

وفى برنو كان للملكة الأم - الماجيرا - مكانة هائلة ، وبور هام فى احتفالات البلاط ، كما كانت المسؤولة الوحيدة عمَّن يضمهم البيت الملكى ، وعن طعام الإمبراطور ، ولها حق القيتو على كل تصرفات الإمبراطور . أما الإمبراطورة - الغوسما^(١٧) - فتشغل بدورها مناصب واسعة السلطات . وبالنسبة لمالى لا تتوفر لدينا لسوء الحظ أية معلومات أصيلة ، ولكن إبن بطوطة يذكر أن العادة جرت بتتويج الإمبراطور مع الإمبراطورة التى تشاركه السلطة الأمبراطورية .^(١٨) وبين موسى أيضا تُتَّوَّج الملكة وتشارك فى السلطة مشاركة فعالة . وفى أشانتي تقوم الملكة الأم بدور نشط للغاية . وبين الأكان ينتخب الملكة الأم مجلس العشيرة الملكية ، وهى ترأس الدولة عند غياب الملك . وإذا مات أحد الحكام فإن الملكة الأم تتشاور مع كبار الموظفين لتعيين خلف له . أما فى سنغى حيث قامت مملكة إسلامية تماما ، وفى إمبراطورية الفولانى ، فليس للملكة الأم والملكة أى دور على الإطلاق . وهكذا فإنه حتى فى برنو ، التى خلا إسلامها من الشبهات ، سادت الأعراف الوثنية الخاصة بالقرابة والنسب .

(١٧) وردت «غومسو» "Gumsu" فى إمبراطورية البرنو الإسلامية ، المرجع السابق ، الصفحة ٢١٠ ، وكذلك «غومسا» "Gumsa" فى بالمر ، Bomu Sahara and Sudan ، الصفحة ٢٦ .

(١٨) «واتفق فى أيام إقامتى بمالى أن السلطان غضب على زوجته الكبرى بنت عمه المدعوة بقاسا .. وهى شريكته فى الملك ويذكر إسمها مع إسمه على المنبر » . تحفة النظر ، الصفحة ٦٩٧ .

والطريقة المتحررة غير العادية التي يعامل السودان النساء بها تنعكس بدورها في موقف الشيخ عثمان الذي عالج هذه القضية بطبيعة الحال بالرجوع إلى القرآن . وقد دُلَّ على أن القرآن لم يخص المرأة في أية آية منه بإعداد الطعام وغسل الملابس ، وإن ألزمهن بطاعة أزواجهن بما يتفق وتعاليم القرآن وأحكام السنة . ولذلك فمن الضروري أن يتعلمن ، أما الرجال الذين لا يعلمون بناتهن أو زوجاتهم فإنما يفعلون ذلك بدافع من حب الذات .

وهكذا كانت المرأة في إفريقية تحتل مكانا مرموقا . فحتى في مالي وبرنو حيث أصبح الإسلام هو الدين التقليدي أُعْطِيَت المرأة مكانة عالية . ولعل مرجع ذلك أن البربر والطوارق أصحاب أعظم أثر على الإسلام في بلاد السودان يكرمون المرأة . ويقول ابن بطوطة إن الإباحية كانت سائدة بين الجنسين . «دخلت يوما على أبي محمد يندكان المسوفي الذي قدمنا في صحبته ، فوجدته قاعدا على بساط ، وفي وسط داره سرير مظل عليه امرأة معها رجل قاعد ، وهما يتحدثان . فقلت له ما هذه المرأة ؟ فقال هي زوجتي . فقلت وما الرجل الذي معها ؟ فقال هو صاحبها ! فقلت له أترضى بهذا وأنت قد سكنت بلادنا وعرفت أمور الشرع ؟ فقال لي مصاحبة النساء للرجال عندنا على خير وحسن طريقة ، لا تهمة فيها ، ولسن كنساء بلادكم . فعجبت لرعونته وانصرفت عنه» . ويمضى ابن بطوطة قائلا : «دخلت يوما على القاضي بايواتن .. فوجدت عنده امرأة صغيرة السن بديعة الحسن فلما رأيته ارتبت وأردت الرجوع فضحكت مني ولم يدركها خجل ، وقال لي القاضي لم ترجع ؟ إنها صاحبتى ، فعجبت من شأنهما فإنه من الفقهاء الحجاج . وأُخْبِرْتُ أنه استأذن السلطان في الحج في ذلك العام مع صاحبتة ، لا أنرى أهي هذه أم لا ، فلم يأذن له» (١٩) .

وتلى هؤلاء الأمراء والملوك الأتباع طبقة المعلمين التي يتوقف نفوذها الفعلى على ورع الملك وعلى سياسته . فخلال حكم الأسكيا الذى منحوه تأييدهم كطبقة ، أو خلال حكم أباطرة البرنو الأخيرين ، تمتعوا بنفوذ قوى للغاية . وفى الوثنية

(١٩) ورد هذان الاقتباسان فى تمفة النظر ، الصفحة ٦٨٨ .

كان السحرة يحتلون مكان المعلمين ، فللسحرة نفوذهم القوي فى إفريقية الاستوائية ، ويعنون بصورة ما طبقة وراثية . وفى داهومى ربما كان النظام أشد تقدما بسبب نظرتة إلى الدين كوسيلة إدارية . فلقد أدرك حكام داهومى دلالة الدين فى المجتمع ، ومع ذلك فإن داهومى ليست فريدة فى هذا المضمار . ففى بلاد الموسيقى ، وكذلك فى بلاد اليوربا ، يحتل الكاهن مكانة هامة ، ويعتبر الدين والكهانة أداتين للتكامل القومى ، ومن ثمَّ عنصرين هامين فى المجتمع .

ويلى الكهنة التجار ورؤساء الطوائف الذين كانوا موظفين يعينهم القصر على الرغم من ضالة مكانتهم . وكان لدى البعض منهم عدد كبير من الرقيق الذين يستخدمون إما كحمالين أو كادحين فى الورش . وبرغم أنهم نادرا ما اهتموا بالسياسة وأن دورهم الاجتماعى كان محدودا ، فقد قاموا بدور هام فى الاقتصاد .

وبونهم بكثير يأتى الأحرار الذين يعرفون فى بلاد الهوسا بالتلاكوا . وطبقة التلاكوا أكبر مجموعة فى كل المجتمعات الإفريقية . فبارث على سبيل المثال يعتقد أن حوالى نصف سكان إمارة كانو ينتمون إلى هذه الطبقة ، وأن أفرادها بصورة ما أسوأ حالا بكثير من رقيق المنازل لدى الحكام وكبار النبلاء . فبينما باستطاعة هؤلاء الرقيق الارتقاء إلى المناصب العالية ، بل أن يصبحوا حكاما ، فإن الفلاحين الفقراء سحقتهم الضرائب ، وخربت الحروب المستمرة حقولهم ؛ كما أنهم يؤسرون فى حملات الإغارة من أجل الرقيق ، ويتعين عليهم باستمرار أخذ الحذر لا من غدر حكامهم فقط ، بل من قطاع الطريق من الطوارق والبربر . وقد أخذنا فيما سبق عن حدود العالم كى نوضح كيف كان التجار المصريون يأسرون أطفال الفلاحين الإفريقيين ؛ كما توضح الرسالة التى بعث بها ماى برنو إلى السلطان المملوكى فى مصر أن الفلاحين الأحرار ، سواء أكانوا مسلمين أم وثنيين ، ليسوا من هذه الناحية أفضل حالا من أسلافهم فى العصور المبكرة . ويحدث من حين لآخر ، إذا ما عجز أحد الحكام عن أسر الرقيق ليدفع ثمن وارداته ، أن يبيع فلاحيه رقيقاً .

ويلى الأحرار من هم من نسل الرقيق ، فهؤلاء حتى وإن لم يعوبوا رقيقاً لا يصبحون أبداً أحراراً تماماً . فهم يستخدمون عادة فى بيوت أسيادهم ، ويظلون من موالى الأسرة ، كما يقدمون الهدايا لأسيادهم السابقين الذين من حقهم أن يتخذوا من بناتهم جوارى لهم . بيد أنه كما يذكر باب كور^(٢٠) فإن بعض الأطفال يحررون عند ميلادهم وتتبناهم الأسرة ، ويكون فى إمكانهم الزواج بنساء حرائر ، بل إن بعضهم تزوج بنات أسيادهم .

ويلى الأحرار كذلك من يولدون لأباء من الرقيق ؛ فهؤلاء يظلون رقيقاً ، ويعمل أغلبهم فى خدمة أسيادهم ، ويظلون على أرضهم . ومع ذلك فهم لا يفلحون الأرض ، وإنما يصبحون من أرباب الحرف ، وباستطاعتهم أن يعملوا فى مزارعهم الخاصة بعد الانتهاء من العمل الذى يعهد به أسيادهم إليهم . وهناك حدود لحريتهم ؛ فليس باستطاعتهم مغادرة أرض سيدهم دون إذن منه ، وعليهم أن يحصلوا على إذنه قبل الزواج بفتاة سرعان ما تصبح جارية لسيدهم إذا حازت إعجابه . ومن ناحية أخرى لا يستطيع سيدهم بيعهم ، وبذلك يكونون أكثر شبها بالأقنان منهم بالرقيق .

وهكذا يمكن بوجه عام تقسيم الرقيق إلى أربع فئات . فى القمة يأتى الرقيق فى بيت الإمبراطور وبيوت على القوم . وهؤلاء لا يديرون أملاك سيدهم فقط ، بل يستطيعون أيضاً أن يصبحوا ضباطاً ، وأن يمارسوا نفوذاً قوياً فى الجيش . ويليهم رقيق الجيل الثانى الذين يتمتعون ببعض الحقوق ولا يمكن بيعهم . وإلى الفئة الثالثة ينتمى الرقيق الذين يحترفون المهن . وأخيراً يأتى الرقيق الذين يفلحون الأرض أو يعملون فى المناجم .

وقد قامت الزراعة فى بلاد السودان على عمل الرقيق . فالملك مثلاً يمتلك عدداً كبيراً من القبائل ملكية شخصية . من ذلك أن الأسكيا حصل بعد انتصاره على سنّ بار على أربع وعشرين قبيلة مملوكة لأسرة سنّ ، وحرر منها

(٢٠) انظر ، الحاشية ٦ - ٦٨ أعلاه .

الأسكيا إثنى عشرة قبيلة بناء على مشورة عبد الرحمن السيوطي ، أما القبائل الإثنتا عشرة التي احتفظ بها فهي أساساً طبقات محترفة تشتغل بأعمال تخص العبيد .^(٢١) وكان الاقتصاد يعتمد على هذه القبائل الإثنتى عشرة إلى جانب الرقيق الآخرين الذين يؤسرون فى الحروب . وهؤلاء جميعاً مرتبطون بالأرض ويمكن بيعهم أو تقديمهم كهدايا هم والأرض التي يفلحونها . وقد قدم الأسكيا إلى القاضي محمد تُل ، على سبيل الهدية ، أكثر من سبعين قرية تقيم فيها ثلاث من القبائل المستعبدة ، وكذلك الإيجار الذي يدفعه الرجال الأحرار فى هذه القرى . وذلك مجرد مثال واحد .^(٢٢) فالكرم الملكى يتجلى فى صورة هدايا من الرقيق ومن الضياع بمن عليها من الرقيق . وهذا النوع الأخير يقدم إلى العلماء . ولكون القبائل المستعبدة أساس الاقتصاد فإنه يجدر بنا تتبع دورها فى الإمبراطورية .

وثلاث من القبائل التي حصل عليها الأسكيا من سنّ بار تتبع البمبرة واعتادت العمل فى ضياع أباطرة مالى . كذلك استخدم سنّ بار أفرادها كأقنان زراعيين ، فيعطى كل زوج قطعة أرض صغيرة يزرعانها لسيدهما ، ويكون محصولها لمن يضمهم البيت الملكى ، ويخزن الفائض فى المخازن الملكية . وظل هذا النظام معمولاً به حتى أيام أسكيا محمد الذى انتهج سياسة مختلفة ، فقرر

(٢١) «ثم تهيأ أسكى الحاج محمد للرجوع فلما وصل مصر وجد هناك الشيخ عبدالرحمن السيوطى فسأله ... ثم سأله أيضا عن أمر أربعة وعشرين قبيلة الذين وجدهم بيد شى بار مملوكة له ورثهم عن آبائه فقال الشيخ صفهم لى فوصفهم له فقال له الشيخ أما نصفهم فملك لك سائغ وأما النصف الآخر فتركهم أفضل لأن فيهم شبهة فقال للشيخ فما الذين ملكهم لى سائغ فقال الشيخ الأولى قبيلة ... ثم قال أسكى للشيخ المذكور فما حال من ادعى من هذه القبائل أنه ابن حر أو حرة فقال الشيخ أما من يثبت أن أباه حر وأمه من هذه القبائل فملكه لك سائغ وأما من ثبت ...» تاريخ الفتاش ، الصفحات ١٢ إلى ١٤ .

(٢٢) «والتنبيه الثانى نذكر فيه ما للشيخ العالم التقى الولى الصالح محمد تل وينسبونه إلى بنى مداس من الكرامات والعطاء من الأمير اسكيا ... وجعل له أن يركب جملة ويسير به نهارا واحدا ويكون كل ما وجد فى تلك المسافة من ثلاث قبائل ... ملكا له أى للشيخ محمد تل ومن ليس من هؤلاء فيكون حوزا له ومبدأ تلك المسافة ... ومنتهاه إلى نودكسّر» المرجع نفسه ، الصفحتان ٢١ و٢٢ .

حداً أدنى يتعين على المزرعة أن تنتجه ، وحداً أقصى لما تحصل عليه الدولة منها ، وما يفيض عن ذلك يكون من حق الزارع . (٢٣)

وواجب القبيلة الرابعة هو قطع الحشائش اللازمة للجياد . وفي أيام الأساكي فرضت عليها أيضاً مهمة جديدة هي صنع القوارب التي يستخدمها شبان القبيلة في قطع الحشائش من ضفة النهر . كذلك عهد إليها أسكيا محمد بمهمة رعاية الخيول الملكية . (٢٤) أما القبيلة الخامسة فعليها واجبان : أحدهما توفير الأسماك المجففة للبيت الملكي ؛ ثانيهما تلبية طلبات الأسكيا من وسائل النقل النهري . ولهذه القبيلة ميزة ما على غيرها ، فأبناؤها مكرسون كلية لخدمة الملك ، ولا يمكن لأحد أن يستخدمهم أو يبيعهم إلا بإذن صريح من الملك ، ما عدا الصقلي الذي منح بعضاً منهم على سبيل الهدية . (٢٥) والقبيلة السادسة

(٢٣) «وسنذكر أسماء القبائل إن شاء الله ثلاثة منه من كفار قبائل بنبر الأولى ... فورثهم شى بار من أبيه شى عال .. ولكن هذه القبائل الثلاث من تلاله ملكى وعادتهم منذ كانوا بيد ملكى لا يتزوج أحد منهم إلا بعد أن أعطى أصهاره أربعين ألف ودع كراهية أن تدعى المرأة الحرية أو أولادها ورغبة فى أن يكونوا مع أولادهم فى ملك ملكى وهؤلاء القبائل الثلاثة المذكورة أنفا من أصل واحد ... وغرامتهم فى زمن ملكى منذ كانوا ملكا له أربعون ذراعاً للزوج وزوجته .. فلما ملكهم أسكى محمد جعل غرامتهم فى كل عام إذا حصنوا زروعهم يأمر رجلاً من قومه يأخذ غلاتهم فمن استطاع منهم أن يعطى عشر أقتات أخذها ومن استطاع عشرين فتاً أخذها وهكذا إلى ثلاثين فتاً فلا يجاوزها لأن هذا هو الحد الذى لا يزداد فوقها ولو استطاع صاحب الغرامة ألغا وكان اسكى محمد يأخذ بعض أولادهم ويجعلهم أثمان الأفراس» . المرجع نفسه ، الصفحتان ٥٥ و٥٦ . [التلاد : كلمة عربية صحيحة معناها التالذ أو المال الأصلي القديم ، والمقصود هنا الرقيق الذين ولدوا فى قصر ملكى ؛ الفت يساوى حوالى ١٢٠ لترا والجمع أقتات .]

(٢٤) «وأما القبيلة الرابعة والمسماة جُنْدِيكْت .. ومعنى الكلمة فى لغتهم قطاع الحشيش .. وغرامتهم .. قطع الحشيش للأفراس إلى أن صاروا فى يد اسكى محمد وتركهم ووجدهم لا يصلحون إلا لخدمة الأفراس ولكن زادهم اسكى محمد بأن أمر كبارهم أن يصنعوا لصبيانهم خدم الأفراس سفناً يخدمون بها الأفراس وكان اسكى محمد يأخذ بعض صبيانهم ويخدمهم أفراسه أين وجدهم» المرجع نفسه ، الصفحتان ٥٦ و٥٧ .

(٢٥) «وأما القبيلة الخامسة هم الزناجية ... يأخذ غرامتهم كلما غاص البحر يأخذ ممن استحق عشر حمزات من الحيتان اليابسات ومن استحق تسعاً فتسع ... كل بقدره لاكن لا يزيد فوق العشر وكل من أتى إليه بحاجة من حوائج السفن أخذ منهم سفينة وملاحين ويعطيه واتخذهم اسكى محمد واختار لخدمته وأهل =

مخصصة للعمل في البيت الملكي ، فأبناءؤها يعملون خدماً فيه ورسلاً خصوصيين للملك ، كما يقومون بدور الحرس للملك عند خروجه . ولكونهم مكرسين للخدمات الشخصية فقط ، فإنهم معفون من أن ينتجوا شيئاً لاستعمال القصر .^(٢٦) أما أبناء القبائل من السابعة حتى الحادية عشرة فيستخدمون كحدادين فقط . وهذه القبائل من سلالة رقيق مسيحي قدم إلى غاو من جزر المحيط الأطلسي ، وعلى كل أسرة منها أن تصنع مائة حربة ومائة سهم في السنة .^(٢٧)

وثمة حدث يلقي ضوءاً قوياً على الأحوال السائدة في تلك الأيام هو النزاع بين كعت وكَبَرِ فَرَمَ بشأن حقل أرز منحه الملك لكعت . من ذلك أن كبر فرم لم ينازع في المنحة الملكية ، وإنما ادعى أن الأرض جزء من الدومين العام ، وأنها كانت دائماً جزءاً من أملاك كبر فرم يفلحه من أجل الملك . فضلاً عن ذلك فإنه مهما يكن حق المعلم (كعت) في الأرض ، فهذا الحق لم يعد قائماً لأنه لا يفلحها . وعلى الرغم من أن الموظف عجز عن أن يجد له مخرجا ، فإن أراضي الدومين الملكي تشكل جزءاً بالغ الأهمية من اقتصاد الإمبراطورية .

وجرت العادة في بلاد السودان أن يستخدم الرقيق من أسرى الحرب في

=

بيته ما أذن لأحد أن يخدمهم ولا أن يبيعهم إلا هو وأولاده إلا الشريف الحسنى صقل بن عال فإنه قد أعطاه أولاد زنجي يسمى قرنطلك كلهم وهو يومئذ ألفان وسبعمائة حين قدم هذا الشريف إلى كاغ . المرجع نفسه ، الصفحة ٥٧ . (الصقل : مولاي أحمد عرف بالصقل بنغال : «فقرأما فإذا أنا فيها أحمد بن عبد الرحمن بن إدريس .. بن الحسن بن علي بن أبي طالب وأمه فاطمة بنت رسول الله ..» المرجع نفسه ، الصفحة ١٩ .)

(٢٦) «وأما القبيلة السادسة فاسمها أربي وهم عبيده وحشمه وبناته يخدم من زوجته ويحرثون له وأولاده وفتيانهم يحملون السلاح قدامه وخلفه في الحرب وغيرها ويرسلهم لحوائجه الخاصة ولا حاجة لهم غير خدمته وإذلك لا غلة عليهم» . المرجع نفسه ، الصفحة ٥٧ .

(٢٧) «وأما القبيلة السابعة والثامنة والتاسعة والعاشرة والحادي عشر فقبائل الحدادين ... وهؤلاء القبائل الخمس كلهم أبوهم واحد وهو عبدالنصارى حداد هرب من جزائر المحيط إلى كوكي ... وغرامتهم من زمن شى إلى زمن اسكى محمد مائة رمح ومائة سهم كل عام من كل بيت ... وأما الثانية عشر فقبيلة كُرْنَكُي ...» المرجع نفسه ، الصفحتان ٥٧ و٥٨ .

مزارع السلطان ما لم يكن قد بيعوا لتجار أجانب . وكانت تستخدم فى مزارعه بوجه خاص قبائل الموسيقى والدوغون والبيمبرة التى حاربها السنغى . وكل عمل خيرى فى بلاد السودان كان أساسه الفلاحة التى يقوم بها الرقيق . وهكذا فإنه أجل إطعام فقراء تمبكت خصص أسكيا داوود للفقراء مزرعة عرفت بالجنان يفلحها ثلاثون من الرقيق . (٢٨)

أما مجموعة الرقيق الذين يعرفون برقيق البيت الملكى فلهم بطبيعة الحال وضع خاص ، فهم فرقة مختارة يتمتعون بميزات يفتقر إليها غيرهم من الرقيق . (٢٩) وتعد هذه المجموعة طريقة باهظة التكاليف لاختيار الموظفين الإداريين والقادة الحربيين . فالافتقار إلى طبقة حاكمة مناسبة - وهى الطبقة التى وفرها فى النظام الإقطاعى ملاك الأراضى ووفرتها فى المجتمع البورجوازي الطبقة التجارية - هو من أسباب ضعف النظام الإدارى فى بلاد السودان . كذلك لم تكن هناك مصلحة طبقية حيوية مرتبطة بالدولة ، لذا لم تكن هناك طبقة مستعدة للدفاع عنها أو طبقة لديها ما تفقده إذا انعدم وجود الدولة . والولاء الشخصى كانت له دائما حدود ، وتلك صعوبة عجز السودان عن التغلب عليها .

عيب آخر شاب التنظيم الاجتماعى فى بلاد السودان نابع من الأسس التى يقوم عليها . فقد كانت يفتقد ، إن شئنا تعبيراً أفضل ، ما يمكن أن يسمى إيديولوجية . فبول السودان ، بتجارتها وجهازها الإدارى وأساليبها الإنتاجية القائمة على الرقيق ، تحولت على نحو أو آخر إلى بول مغتصبة أساسها اقتناص البشر والاتجار بهم ، مما زجَّ بها فى نزاع مع الإسلام . فهذه البول ، وكذلك التجار الأجانب الذين يعيشون على الرقيق ، لم يكن من صالحهم أن

(٢٨) وفنادى الفع كعت كاتبة بَكْرَ لَنْبَارَ ... وأعطاه (الأسكى) حرثاً يقال له زَنْفَرُغْ فى أرض يونٍ وعليها ثلاث عشر عبيد وهو الذى تخاصم (كعت) مع كبر فرم علوا عليه يحرثونه له اعطاه الحرث والعبيد وفَنَفَهُمْ واعطاه بَزْرَه أربعين صُنَّة . المرجع نفسه ، الصفحتان ١٠٨ و ١٠٩ .

(٢٩) انظر الحواشى ١١ - ٨٦ و ١١ - ٨٧ و ٨٨ - أعلاه .

ينتشر الإسلام فى المناطق الوثنية . وقد أدى تحريم الإسلام لاسترقاق المسلمين إلى تباطؤ اعتناق الإسلام . بيد أنه فى الصراع بين المصالح التجارية والمصالح الدينية خرج الدين منتصرا .

سادسا

كان فن غرب إفريقيا الذى ترك كل هذا الأثر العميق فى العالم الغربى فناً هادفاً . والإفريقيون لم يدركوا مذهب الفن من أجل الفن ، إذ أن الفن عندهم يخدم غرضين : أولهما غرض وحيد الجانب تماماً هو توفير سلع الترف للبلاط ؛ وثانيهما دينى واجتماعى فى الأساس . وقد برعوا فى أشغال البرونز والنحاس والعاج والفضة ، وكان لأشغال البرونز فى إيفه وبنين وظيقتان ؛ أولاهما توفير الأشياء اللازمة للمعابد ؛ وثانيتهما تصوير تاريخ الشعب . فهذه الصور والتماثيل تعرض الجوانب المختلفة لتطور المجتمع ، وتيسر لنا فهم هذا التاريخ . فمن أعمال الحفر على قصر آهومى خلص ووترلوت إلى نتائج معينة عن تاريخ داهومى . ويمكن أن نلمس «طابع البلاط» فى الفنون من حقيقة أن رؤساء مختلف الطبقات الحرفية كانوا أعضاء فى البلاط الملكى ؛ ومن هؤلاء هنتوچى «رئيس الصياغ» الذى كان من رجال البلاط نوى المرتبة الثانية فى داهومى . وقد سبق أن رأينا أن رؤساء مختلف الطوائف فى بنين ونوبى كانوا أعضاء فى البلاط الملكى .

والطابع الاجتماعى للفن الإفريقى يبرز بوضوح فى أقنعتهم . فهذه الأقنعة ، كما يشير هولاس ، هى التشخيص للدستور الأخلاقى ؛ الأداة الدائمة الموكل إليها المحافظة على تقاليد القبيلة وأعرافها .

سابعا

كان الإفريقيون يُصَوِّرون عادة على أنهم همج عراة . وهذا بالطبع أحد الأحكام المسبقة التى لا تبررها دراسة دقيقة للحقائق . فمن بين الأصناف التى كان السودان يستوردونها الأقمشة الحريرية المطرزة الغالية الثمن . وهذه

الأقمشة تستخدمها الطبقات العليا . ويصف تاريخ الفتاش كيف كان على القوم يلبسون في هذه الأيام ، ويقول إن بلمع كان يرتدى درعا من الحديد فوقه بوبو (قميص) أخضر مصنوع في سوس ، وسيفه معلق في عنقه . ويتمنطق بحزام ، (٢٠) وعندما أراد إسحاق الثاني أن يرى الخزانة التي كان سلفه يضع فيها ملابسه جاءه الرقيق بسبعين حقيبة مصنوعة من جلد النمر في كل منها ثلاثون ثوبا من قماش يسمى دب أو الحرير أو الجوخ ، وكل ثوب مكون من الجلباب الطويل المعروف بالبوبو وسروال وعمامة . (٢١)

كذلك لم يقتصر ارتداء الملابس على المناطق التي ساد فيها التأثير الإسلامي . ففي بنين كان عامة الناس يرتدون نطاقا حول وسطهم ، وترتدى النساء قميصا يصل إلى منتصف الساق ، أما الطبقات الغنية فملابسها أفضل كثيرا ، إذ يرتدى الفرد منها قميصاً داخلياً ، فوقه رداء أنيق من القطن يتراوح طوله بين ست عشرة وعشرين ياردة ومزين بزخارف عند الوسط ، ويعطوه لفاح طوله قرابة ياردة وعرضه شبران ، ويحلى بشريط من المخرمات . واعتادت النساء ارتداء ملابس رفيعة النوق ، وأهم رداء لديهن قميص قطنى من الكاليكو «الذى ينسج في هذه البلاد وهو بديع جداً ومشجر بألوان متعددة غاية في الجمال» . ويغطين صدورهن بقماش جميل طوله ياردة ، ويتزين بعقود من المرجان وخواتم من النحاس ، ويستخدمن زيت النخيل على شعرهن الذى يصففنه في بكلات متفاوتة الحجم ، ويفرقنه عند الجبهة كعرف ديك مقلوب تشغل فيه التجمعات الصغيرة مكانها السليم .

(٢٠) «وكان بلمع لابسا يومئذ درعاً من الحديد وجعله شعارا ولبس فوق ذلك قميصا سوسياً أخضر دثاراً وسيفه في عنقه وحزامه في وسطه» تاريخ الفتاش ، الصفحة ١٢٨ . [كلمة «بوبو» لم ترد في النص العربى لتاريخ الفتاش ، وإنما وردت فيه كلمة «قميص» ، وإنما وردت كلمة «بوبو» boubou في الترجمة الفرنسية لتاريخ الفتاش ، الصفحة ٢٣٢ ، التى أخذ عنها پانيكار بطبيعة الحال .]

(٢١) «أنه لما تولى (اسكيا إسحاق الثانى) ودخل فى دار الملكة وبات فيها أول ليلة ملكه أمر بخصى هنالك الذى كان عنده أثواب اسكى (محمد بان) وييده مفتاح بيت لباسه ونودى بحضرة اسكى الفع بكر المذكور وأمره بإخراج الأثواب جميعا وأخرج إليه سبعين شيكارة من جلود النمر فى كل واحدة منها ثلاثون ثوبا من كتان دب والحرير والملف وكل مع قميصه السراويل الكبيرة وعمامة» المرجع نفسه ، الصفحة ١٤٤ .

والملايس فى برنو أكثر اتقانا ، وتقدر مكانة كبراء القوم بعدد ما يرتدونه من جلابيب ، والشائع أن يرتدى الرجل إثنى عشر جلاببا الواحد منها فوق الآخر ، وذلك لآبد أنه معرقل للحركة وغير مريح ، وبخاصة عندما تشتد الحرارة . وشاع بين المسلمين أيضا ارتداء الطاقية أو العمامة .

وملابس الطبقات العليا والحكام أفضل كثيرا بطبيعة الحال . ويصف بارث ملايس أحد الحكام ، وهى عبارة عن ثوب مخطط باللونين الأخضر والأبيض ، وسروال فضفاض «ذى إطار أرقط ، ولونه شبيه بريش دجاج غينيا ، ومطرز بحريز أخضر عند مقدمة الساقين ، وفوقهما عباءة حمراء مطرزة ، فى حين تلف حول طاقيته الحمراء عمامة غاية فى الأناقة يتقاطعها اللونان الأحمر والأبيض ، وسيفه مدلى فوق كتفه الأيمن بمشابك سميكة من حريز أحمر مزينة بعدد هائل من الشراريب ، ويمتطى جوادا ممتازا أسرف فى تزيين رأسه وعنقه بشراريب وأجراس كثيرة وأكياس جلدية صغيرة بها أحجبة وتعاويد ، ويبدو تحت السرج غطاء مكون من رقع مثلثة صغيرة من جميع ألوان قوس قزح» . وهناك تنوع أيضا فى ملايس الرجال ، فالريجا - وهو قميص الرجال - كانت توجد منه أنواع كثيرة ، ويذكر بارث منها الريجا ساكى ذا المربعات الصغيرة الزرقاء والبيضاء المنتشر بين الطوارق ؛ «وقميص دجاجة غينيا وهو باهظ التكلفة نوعا ما - ويعادل النوع الجيد منه عشرين ألف كوردى - والتوب الحريز المخطط ؛ والجلابية الحمراء والبيضاء المطرزة بالحريز الأخضر» .

وكان رداء النساء فى برنو يصنع فى بعض الأحيان من قماش قطنى أزرق طوله قرابة ثلاث ياردات ونصف ياردة وعرضه ياردة واحدة ، وفى أحيان أخرى من قماش مقلم بخطوط زرقاء وبيضاء . أما النساء الأفضل حالا فيلبسن عادة توركيدي حول الوسط وآخر يطرح فوق الكتفين . والتوركيدي الأسفل يلف بإحكام حول الجسم ويثبت عند النهدين ويتدلى حتى الركبتين .

ونساء البرنو يُصَفَّرْنَ شعرهن فى ضفائر دقيقة ؛ ضفירתان عند كل جانب وضمفيرة فى الوسط ، وتصبغ الضفائر بالنيلة ، كما يصبغ الحاجبان واليدان

والذراعان والقدمان والساقان باللون الأزرق ، وتستخدم الحناء على الكفين والأظافر وأصابع القدمين ، ويصبغ الرجال والنساء شفاهم بلون أحمر من زهور شجرة الغورجى ، فاللون الأحمر القانى الذى يستخرج من هذه الزهور هو من علامات الجمال ، واعتادت نساء البرنو التنزه فى المدينة ، فتترك الواحدة منهن ذيل فستانها يجرجر خلفها ، وتضع على كتفها شالا زاهى الألوان ، كما تزين مؤخرة رأسها بحلى فضية .

ثامنا

يبدى الإفريقيون عناية خاصة بطعامهم ، والأذرة هى المحصول الغذائى الرئيسى ، وأكثر الوجبات انتشارا هى الأذرة المجروشة التى تضاف إليها «صلصات» مختلفة . وبرغم وفرة الطعام فإنه لم يكن يروق للأجانب . فالسودان على سبيل المثال يعتبرون الأذرة المجروشة المضاف إليها العسل واللبن طعاما شهيا ، أما ابن بطوطة المتألق فى مأكله فلم يستسغ طعمها ، كما نرى من ملاحظته «ألهدا دعانا الأسود ؟» .^(٣٢) وفى بنين والمنطقة الساحلية تعتبر الكاسافا والبطاطس المحصولين الرئيسيين ؛ والبطاطا بدورها طعام مفضل ، إذ تسلق وتدهق وتصنع منها فطائر تؤكل مع لحم البقر والضأن والدجاج . أما الفقراء فيأكلون السمك المجفف أو المدخن مع الخبز .

و «عرقى البلح» هو المشروب الشائع ، وفى السودان استعمل شراب أقوى تأثيرا يصنع من الأذرة ؛ فالسنغى والبمبرة والهوسا يولعون بالشراب ، وقد ترتب على الاتصال بالأوروبيين فى المنطقة الساحلية معرفة الروم والچن والبراندى التى أصبحت من المشروبات الوطنية .

(٣٢) ثم إن مشرف إيولاتن ، ويسمى منشاحو ، استدعى من جاء فى القافلة إلى ضيافته ، فابيت من حضور ذلك ، فعزم الأصحاب على أشد العزم ، فتوجهت فيمن توجه ثم أتى بالضيافة ، وهى جريش افلى مخلوطا بيسير عسل ولبن ، وقد وضعوه فى نصف قرعة صبروه شبه الجفنة ، فشرب الحاضرون وانصرفوا ، فقلت ألهدا دعانا الأسود ؟ قالوا نعم ، وهو الضيافة الكبيرة عندهم . فأيقنت حينئذ أن لا خير يرتجى منهم . تحفة النظار ، الصفحة ٦٨٧ .

تاسعا

الموسيقى والرقص فى مقدمة وسائل التسلية ، ويذكر ليو أن الإفريقيين مغرمون بهما ، وأنهم يفضلون تمضية سهراتهم فى الرقص وإقامة الولائم . (٣٢)
ومن آلاتهم الموسيقية الأكثر انتشارا القيثارة والناى الشبيه بالبوق والطبلة .
وقد عاب الفولانى على الهوسا غرامهم الشديد بالموسيقى وعزفهم على النقارية وغيرها من الآلات الموسيقية فى المناسبات ، فى حين أن المسلمين الحقيقيين لا يقرعون الطبول إلا لاستدعاء الجيش أو لاستثارة الهمم ، غير أنه لم تجر دراسة جادة للموسيقى الإفريقية إلا مؤخرا .

ومن بين الوسائل الأخرى للتسلية الحفلات التنكرية والملاكمة . وقدم لنا كلاپرتون وصفا وافيا لمباراة ملاكمة عند الهوسا . فالمتلاكمان يدخلان الحلبة بعد أن يدلكا جسميهما بعناية ، ثم يحاولان إبراز قوتيهما بعبارات من قبيل «أنا جدع» ، «أنا أسد» ، «أنا فيل» ، وإذا تبين وجود صداقة بين المتلاكمين انسحب أحدهما وحل آخر محله . غير أن هذا العراك ليس ملاكمة تلتزم القواعد المعروفة ، ولا يجمعه شبه بقواعد الملاكمة الحديثة ، وإنما هو صراع من أجل الحياة لا يحظر فيه على المتلاكمين أى نوع من الضربات ، وغالبا ما تنتهى الملاكمة بموت أحد المتنافسين .

عاشرا

يحدد طراز البيوت المواد التى تتوفر عند بنائها . وقد كثر استعمال الطمى لوفرتة . والبيوت تبنى داخل مجمع كبير محاط بأسوار ، وتتخذ عادة أشكالا رباعية . وتتكون بيوت عالية القوم من طابقين . أما الأكواخ فهى مستديرة ذات جدران منخفضة وسقف مخروطى . والمباني الأكبر مستديرة بدورها وذات

(٣٣) «وقد فُطر أهل تنبكتو على المرح ، وتعودوا على التجول فى المدينة بين الساعة العاشرة ليلا والواحدة صباحا ، وهم يعزفون على آلات الطرب ويرقصون» وصف إفريقيا (طبعة المغرب) ، الجزء الثانى ، الصفحة ١٦٧ .

جدران رأسية . كما عرف نوع آخر هو البيت المستدير الذى يكتسب متانة من جدرانه المسلوية (على شكل خيمة) وأبوابه المستندة إلى عمودين جانبيين . والغرف الواسعة التى لا يمكن تسقيفها بشدة واحدة تُقْبَى من الداخل بعقد زائف من الطين يخفى الكوابيل الخشبية الحاملة . وتطلى البيوت باللون الأبيض ، وتكتسب مظهراً صلباً أملس بفضل الشمس الاستوائية ، ويعاد طلاؤها بالطين كل سنتين ، وتزين جدرانها وأبوابها بالتماثيل ، ويضفى عليها النحت على الخشب رونقا وجمالا . (٣٤)

ولم يكن السودان يجهلون فن البناء بالحجارة ، ومع ذلك لم تكن الحجارة تستخدم على نطاق واسع . من ذلك ما يذكره البكرى من أنه فيما عدا القصر كانت البيوت الوحيدة التى تبنى بالحجارة هى بيوت التجار الأجانب ، وهى بيوت كبيرة الحجم محاطة بالحدائق . ولما زار منسا موسى القاهرة عاد وبصحبته مجموعة كبيرة من المعماريين والحرفيين الذين انتشر على أيديهم البناء بالحجارة . (٣٥)

وفى قولنا العليا اكتشف ديلافوس ولابوريه خرائب لبيوت كبيرة كل بيت منها قائم بذاته . وهذه البيوت ، أو بالأحرى القلاع لأنها لم تكن تتجمع معا وإنما توجد منفصلة ، قد وجدت فى منطقة واسعة يرى الخبراء أنها كانت فيما سبق منطقة غنية بالذهب ، كما يرون أن هذه البيوت كان يقيم فيها المشرفون على مناجمه . ويقول لابوريه إنه توجد بالقرب منها آبار جيدة الإعداد يتراوح عمقها بين ١٥ و ٢٠ مترا مما يوحي بأنها كانت تستخدم فى استخراج المعادن النفيسة . ومع ذلك ربما استخدمت هذه

(٣٤) «مدينة بنى .. قال فى مسالك الأبصار .. وهى ممتدة تقدير طول بريد فى عرض مثل ذلك ؛ ومبانيها متفرقة ، ويناقها بالبالستا ، وهو أنه يبنى بالطين بقدر ثلثى ذراع ، ثم يترك حتى يجف ، ثم يبنى عليه مثله . وكذلك حتى ينتهى ؛ وسقوفها بالخشب والقصب ، وغالبها قباب أو جملونات كالأقباء ..» صحيح الأمشى ، الجزء الخامس ، الصفحة ٢٨٢ .

(٣٥) «ومدينة غانة مدينتان سهليتان أحدهما المدينة التى يسكنها المسلمون ... ومدينة الملك على ستة أميال من هذه وتسمى بالغابة والمساكن بينهما متصلة ومبانيهم بالحجارة وخشب السنط والملك قصر وقياب وقد أحاط بذلك كله حائط كالسور .. وحول مدينة الملك قباب وغابات ...» البكرى ، الصفحة ١٧٥ .

الآبار أيضا فى الحصول على المياه اللازمة للزراعة . وتؤيد ذلك شهادة بارت بخصوص آبار برنو التى كانت حتى أكثر عمقا . وليس لدى سكان هذه المنطقة علم بمن قام ببناء هذه البيوت ، وعلى أية حال فإن معلوماتهم الراهنة عن فن البناء تؤكد على الأقل انعدام صلتهم بها . وليس باستطاعة سكان بلاد اللابى تزويدنا بأية معلومات عمن قاموا بالبناء ، فهم لا يعرفون أكثر من أن هذه البيوت كانت قائمة عندما جاؤا إلى بلادهم .^(٣٦)

ويذكر ديلافوس ولابوريه أن البيوت تبنى من الصخور الحمراء والطينى ، وعندما تكون البيوت من طابقين فإن قممها تبنى بالطينى مع تثبيت أحجار بداخلها . وقد قسما البيوت إلى نوعين : مستطيلة الشكل ودائرية ، وتحيط جدرانها بمساحة تتراوح بين خمسين ومائة متر ، وتقسم إلى غرف مختلفة ، من بينها غرفة للمطبخ وأخرى تستخدم كمخزن ، ولذلك فهي رحبة ومريحة ، فضلا عن أنها مزخرفة بعناية ، وبها نقوش وقباب وأروقة وأعمدة ذات تناسب قريب للغاية من مثيله فى أى مكان آخر .

وقد ساد من قبل اعتقاد بأن هذه البيوت بناها البرتغاليون ، ولكن ديلافوس يؤكد أن ذلك لا يستند إلى حقائق . فالبرتغاليون لم يعيشوا فى هذه المنطقة ، والمرة الوحيدة التى زاروا فيها المناطق الداخلية كانت مع السفارة التى جاءت إلى مالى ، ومنذ ذلك الحين لم يصلوا إلى هذه البلاد ؛ وحتى إذا كانوا قد وصلوا إليها فلإقامة قصيرة للغاية لا تسمح لهم ببناء هذه البيوت الرحبة المريحة كذلك لم تكن هذه البيوت معزولة عن بقية غرب إفريقية . ففي قنب صالٍ أخرجت حفائر توماسى إلى النور بيوتا يمكن مقارنتها بتلك التى عثر عليها فى بلاد لابي . فهذه البيوت كبيرة نسبيا ، طولها سبعة وعشرون مترا وعرضها

(٣٦) نذكر من هؤلاء «شاعر الأندلس أبا إسحاق إبراهيم الساحلى المعروف بالطويجن» الذى صحب منسا موسى إلى بلاده وبنى له قبة مربعة الشكل أودع فيها كل مهاراته ، وكانت موضع استغراب منسا موسى لفقدان صنعة البناء فى بلاده . انظر الحاشية ٢ - ٥٧ أعلاه .

خمسـة عشر مترا ، ومقسمة إلى حجرات مختلفة ، الكبيرة منها طولها ثمانية أمتار وعرضها خمسـة أمتار ، أما الصغيرة فطولها خمسـة أمتار وعرضها متر وربع المتر ، وجدرانها متينة يبلغ سمكها فى بعض الأماكن حوالى المتر ، وهى مبنية من كتل الشست المغطاة بالملاط ، والسطح الداخلى للجدران مغطى بنوع من الجص الأصفر . وغالبية البيوت ذات طابقين يربط بينهما سلم من الشست ، وبجدرانها فتحات مدسوسة . ويذكر بارث أن قصر المونييورو «صلى بديع الزخرفة» . وفى غمبرو ، وهى مدينة صغيرة فى برنو ، عثر بارث على مسجد متين البناء ، تهدمت بعض أجزائه . وتوجد أطلال مبانٍ من «طوب أحمر مشكل بطريقة غير منتظمة ، كما هى الحال فى أوروبا ، ولكنه من نواح أخرى يبدو جيدا تماما» .

وفى برنو بدورها شاعت البيوت المبنية بالحجارة . ويشير دنهام وأودنى إلى ضخامة قصور السلاطين المتهدمة فى برنو ، وإلى أن بيوتها جيدة البناء ، وبداخلها عدة أحواش تفتح عليها أبواب الغرف المحيطة بها فتجعلها ألطف جوا . كما يذكر أودنى أن البيوت فى برنو القديمة ضخمة ومبنية بطوب أحمر ، ويتراوح سمك جدرانها بين ثلاثة وأربعة أقدام وارتفاعها بين ستة عشر وثمانية وعشرين قدما ، وأن المسجد ضخـم ومهيـب للغاية . ويؤكد باوديتش بدوره أن الإفريقيين كانت لديهم بيوت جيدة ، وكتب عن كوماسى ، على سبيل المثال ، يقول : «ثمة أمر أثار دهشتى كثيرا - وإن لم يكن على الإطلاق من أهم الجوانب الكثيرة التى تقرر تفوقهم على عامة الزنوج - هو اكتشاف أن كل بيت له مجرور إلى جانب المجارير العامة للطبقات الدنيا خارج المدينة . وهذا المجرور موجود تحت عقد صغير فى مكان ناء من المبنى ، ولكن لا يندر وجوده فى الدور العلوى فى غرفة منفصلة على هيئة مرحاض ... وحيث العمود المجوف الكبير يساعد أيضا على دعم الدور العلوى ، فإن الفتحات تكون ذات محيط صغير ، وإنما محفورة إلى عمق هائل ويصب فيها يوميا ماء مغلى يمنع بصورة فعالة حدوث أى تأفف أو امتعاض . وتحرق الفضلات والنفايات كل صباح فى خلف الشارع .

والإفريقيون يحرصون على الأناقة والنظافة في محال إقامتهم ، مثلما يحرصون على نظافة أبدانهم» . (٢٧)

ومع ذلك فإنه في مناطق معينة أخرى كانت البيوت تبنى من الطمي أو الخيزران . وقد تبين لأودنى الذى أعجب إعجابا شديدا ببيوت برنو ولوجون أن بيوت كانو سيئة البناء ، ومبنية من الطين والصلصال . أما تمبكت فبيوتها مبنية بطوب قائم الزوايا مصنوع من الطين . وفى بوريم ، بين تمبكت وغاو ، توصل الأهالى إلى أنه يمكن عن طريق خلط الطمي بدهن نباتى الحصول على طلاء أكثر قدرة على مقاومة المطر ، وهو طلاء استخدم فى تمبكت أيضا . ويذكر ابن بطوطة إن لديهم نوعاً من التراب يمكن استخدامه بدل الجير بعد خلطه بزيت نباتى ، وقد استخدمه السودان فى أعمال البناء .

فضلاً عن ذلك كانت المدن فى بلاد السودان مخططة بعناية فائقة : فمدن برنو كانت كبيرة وجيدة البناء ، وتحيط بها أسوار يتراوح ارتفاعها بين خمسة وثلاثين وأربعين قدماً وسمكها قرابة عشرين قدماً . ويشير باوديتش إلى كوماسى على أنها مدينة متسعة ذات بيوت رحبة تقع على جانبى شوارع عريضة ، ويثنى الكتاب الهولنديون على شعب بنين لبيوته الجيدة البناء . فالقصور بها عدد لا يحصى من الغرف ، وتبنى على مساحة هائلة . أما بيوت علية القوم والتجار الأغنياء فنظيفة ورحبة ومقسمة إلى أجنحة مناسبة ، ولو أنها مبنية بالطين . وبرغم أن أمورا كثيرة كانت بمثابة الصدمة لهم ، فإنهم لم يكو يعتبرون الزنوج نوى مستوى منخفض من زاوية الرخاء المادى . وقد كانت غواتو ميناء بنين ، مدينة كبيرة يصلها بينين طريق ممهد : يقول بارث الذى زار بنين إنها «شديدة الاتساع ، مساحتها قرابة ستة فراسخ (ثمانية عشر ميلاً) .. وبها ثلاثون شارعاً غاية فى الاتساع ، يبلغ اتساع معظمها عشرين باعاً (مائة وعشرين قدماً) ، أما طولها فيصل إلى ميلين» . وكان عرض الشارع فى بنين

(٢٧) ورد هذا الاقتباس فى بازل دافيدسون ، The African Past ، الصفحة ٢٢٤ ، نقلاً عن توماس

باوديتش ، Mission from Cape Coast to Ashantee .

يزيد ثمانى مرات على عرض شارع فارموس فى امستردام . ودينهام يعتبر لوجون مدينة جميلة ذات بيوت كبيرة مقامة على كلا جانبي الطريق ، والشارع الرئيسى فيها لا يقل عن شارع پول مول اتساعا أو إثارة .

وقد اتبعت المدن نموذجاً عاماً ؛ فيها أسواق كثيرة وطرق تظللها الأشجار . وحيث كانت الجياد تستخدم ، فإن الطرق كانت من الاتساع بحيث تسمح لثلاثة أو أربعة جياد بالسير جنباً إلى جنب دون أية مضايقات . كما إن ابن بطوطة الذى جال البلدان الإسلامية جميعاً وجد أن الطرق فى إفريقية شأنها شأن الطرق فى أى مكان آخر فى العالم . (٢٨)

(٢٨) «وتلك الطرق كثيرة الأشجار ، وأشجارها عادية ضخمة ، تستظل القافلة بظل الشجر منها .»

تحفة النظار ، الصفحة ٦٨٨ .

الإسلام في السودان

أولا

يشكل الصراع بين الإسلام والوثنية جذور مشكلة غرب إفريقية . فالنول الإسلامية واجهت مشكلة عويصة ؛ فلو أنها عازمت على المضي قدما في نشر الإسلام لتوقفت تجارتها وتقوض إطارها الاجتماعي بأسره . وعلى الجانب الآخر فإن دينها يفرض عليها تبليغ الإسلام . وهذه المشكلة لم تحل إلا في القرن التاسع عشر عندما تمزقت تجارتها مع شمال إفريقية ، وأدبنت تجارة الرقيق عبر المحيط . عندئذ حاول المجاهدون في كل مكان إدخال المشركين في الإسلام . ويون أن تحتل هذه المشكلة مكانها الجدير بها في تفكيرنا ، فإن تاريخ الإسلام بأسره ، وعدم نجاحه في هداية الفولاني والبمبرة ، بل وقسم كبير من السنغى ، سيظلان من الألغاز المحيرة .

وقد ذاع صيت بلاد السودان دائما بأنها أرض السحر . وتقول الأساطير إن الفراعنة كانوا يحصلون على سحرتهم من غاو . وقد عززت الروايات الإسلامية عن الجان أساطير السحر الوطنية . وهكذا فإن أم اسكيا محمد ، استنادا إلى الأساطير الوطنية ، تزوجت بواحد من الجان . وقد رأينا ما كان للسحر من نور هام في فولكلور غرب إفريقية . فسوندياتا ، على سبيل المثال ، تغلب على سُمْنُغُر بماله من قدرة أكبر على السحر . كما أن ذلك العمل لم يكن وثنيًا تماما . ذلك أنه حتى أباطرة كانم - برنو ، وهم أكثر حكام غرب إفريقية تمسكا بالإسلام ، قد زعموا أنهم سحرة متمرسون . كما أن المجاهدين من أمثال الحاج عمر أدخلوا في روع أتباعهم أن التمانم التي يباركونها يمكن أن

تحمى الجنود من طلقات البنادق . ولقد أدى الاتصال بالإسلام إلى تعزيز أعراف السحر بدلا من إضعافها .

وكان الوثنيون في بلاد السودان من القوة والوضوح بحيث شبههم المسالك ببقع بيضاء في جسم بقرة سوداء . يقول العمرى إن ملك مالى كان في حرب دائمة ضد الوثنيين . وواصلت الوثنية الازدهار في مالى نفسها لأن معظم الجغرافيين والمؤرخين متفقون على أن الملك وعلية القوم فقط هم الذين يعتنقون الإسلام ، أما عامة الشعب فيدينون بدينهم التقليدى . وقد أعطى منساموسى ، الذي كانت لديه قدرة لاتبارى على استغلال حسن نية العرب ، سببا قويا لعدم قيام إمبراطور مالى بإدخال الوثنيين فى الإسلام . ولم يكن السلطان ، استنادا إلى الزواوى ، يفرض الجزية على الوثنيين الذين يعملون فى مناجم الذهب ، لأن ذلك من شأنه خفض الناتج من الذهب . ويقدم ابن سعيد سببا أكثر أهمية لتواتى هؤلاء الملوك فى هداية الوثنيين ، فيقول إنه كان باستطاعتهم أن ينتزعوا بسهولة المناطق الغنية بالذهب ، ولكنهم لم يفعلوا ، لأن خبرتهم علمتهم أنهم عندما يغزون مدينة للوثنيين وينطقون فيها بالأذان ينخفض فيها محصول الذهب ، فى حين يزيد فى المناطق الوثنية المجاورة . ولذلك قرروا ترك هذه المناطق فى أيدي الوثنيين ، والحصول منهم على إتاوة سنوية من الذهب والرقيق .^(١)

(١) « فقد قال فى التعريف : وأما غانة فإنه لا يملكها وكأنه مالكا ، يتركها عن قدرة عليها : لأن بها وبما وراعا جنوبا منابت الذهب . وذكر ما تقدم من أن منابت الذهب متى فشا فيها الإسلام والأذان ، عدم فيها نبات الذهب ، وصاحب مالى يتركها لذلك لأنه مسلم ، وله عليها إتاوة كبيرة مقررة تحمل إليه كل سنة » صبح الأعشى ، الجزء الخامس ، الصفحتان ٢٩٢ و ٢٩٢ .

« قال فى مسالك الأبصار . وكذلك فى طاعته قوم من الكفار بعضهم يأكل لحم الأتيمين . ونقل عن الشيخ سعيد الدكالى أن فى طاعة سلطانها بلاد مغارة الذهب . وهم بلاد همج ، وعليهم إتاوة من الثبر تحمل إليه كل سنة ، ولو شاء أخذهم ، ولكن ملوك هذه المملكة قد جربوا أنه ما فتحت مدينة من هذه المدن وفشا بها الإسلام ، ونطق بها داعى الأذان ، إلا قل بها وجود الذهب ثم بتلاشى حتى يعدم ، ويزداد فيما يليه من بلاد الكفار ، فرضوا منهم ببذل الطاعة ، وحمل قرر عليهم ... » المرجع نفسه ، الصفحتان ٢٨٦ و ٢٨٧ .

« وذكر عن الشيخ عيسى الزواوى عن السلطان (منساموسى) المقدم ذكره أيضا أنه .. فى =

وهكذا أثرت مالى الاحتفاظ بعلاقات طيبة مع الوثنيين فى المناطق الغنية بالذهب . ويشير ابن بطوطة إلى جماعة قدمت من مناطق هؤلاء الوثنيين ، يرتدى أفرادها ملابس من حرير ويضعون فى آذانهم أقراطا ضخمة من الذهب . واحتفى بهم منساموسى رسمياً ، وقدم لهم فتاة لغدائهم . (٣)

فلماذا إذن قبل حكام السودان الإسلام ؟ إن اعتناق الإسلام كان ذا دلالة اجتماعية أكثر منها دينية ، إذ كان وسيلة لاكتساب منزلة رفيعة . فهناك أولاً مسألة الهوية والمكانة ، ذلك أن تجار شمال إفريقية المسيطرين على العلاقات التجارية الخارجية مسلمون جميعاً ، ويتحدثون مع الحكام الوثنيين باستمرار عن قوة الدول الإسلامية واتساع رقعتها . وكان حكام السودان يأملون ، عن طريق اعتناقهم للإسلام ، أن ينتموا إلى مجتمع الإسلام . سبب ثان أكثر أهمية هو أن الأديان الإفريقية أديان قبلية ؛ فعندما تحقق قبيلة ما هيمنة سياسية فإن القبائل المهزومة لا يمكن أن تقبل ديانة القبيلة المنتصرة . وقد حقق الإسلام هدف توحيد الطبقات الحاكمة فى مختلف القبائل ، ولكن هذه الطبقات بينما اعتنقت الإسلام لم تتخل عن معتقداتها القبلية ، وظل رؤساؤها بمثابة الكهنة الكبار لطقوسهم القبلية . بل إن أسكيا محمد نفسه حاول السيطرة على الشعار التقليدى لأسرة السنغى الملكية ، ولم يتحول إلى الإسلام بكل قلبه إلا عندما فشل فى ذلك .

وهكذا كان الإسلام من الناحية الجوهريّة دين طبقة عليا ودين مدن فى المقام الأول . وبذا لم ينتشر على نطاق واسع . فحتى بين المندنغو والهوسا

= مملكته أمماً من الكفار لا يأخذ منهم جزية ، إنما يستعملهم فى إخراج الذهب من معابنه .. « المرجع نفسه ، الصفحة ٢٨٩ و ٢٩٠ .

(٢) «قدمت على السلطان منسى سليمان جماعة من هؤلاء السودان الذين يأكلون بنى آدم ، ومعهم أمير لهم . وعادتهم أن يجعلوا فى آذانهم أقراطا كبارا ، وتكون فتحة القرط نصف شبر ، ويلتحفون فى ملاحف الحرير . وفى بلادهم يكون معدن الذهب ، فأكرمهم السلطان وأعطاهم فى الضيافة خادماً ، فذبحوها وأكلوها ، ولطخوا وجوههم وأيديهم بدمها وأتوا السلطان شاكرين .» تحفة النظار ، الصفحة ٧٠٠ .

الذين اتصلوا بالإسلام لفترة طويلة لم تكن نسبة المسلمين عالية . وعند بداية القرن التاسع عشر ، بعد أن شرع المجاهدون يدخلون الأهالي في الإسلام بحد السيف ، ظل على الوثنية خمسون في المائة من الهوسا وثمانون في المائة من البمبرة وعشرون في المائة من المندنغو .

ويثير ذلك مزيدا من الدهشة فيما يتعلق بمالي وبرنو اللتين كانتا دولتين إسلاميتين منذ حوالي القرن الحادى عشر . وقد حمل الونقارة الإسلام إلى الهوسا في القرن الرابع عشر ؛ والمغيلي نفسه حول أهالي كانوا وكاتسنا إلى الإسلام ، ومع ذلك زعم المجاهدون في القرن التاسع عشر بأن هؤلاء الناس وثنيون . فما أسباب هذا الفشل في المحافظة على تراثهم الإسلامى ؟

إن اعتناق الإسلام لم يؤد إلى التخلي عن المعتقدات الوثنية ؛ كما أن الشعائر الإسلامية لا يعدو أنها فرضت من أعلى فوق الأعراف القديمة . وقد اعتنق السودان الإسلام ليتواءموا مع الظروف المحيطة بهم ، وهم بصفة عامة لم يكونوا متعلمين ، وعلى الرغم من أنهم كانوا يؤبون الصلاة ويحرصون على إقامة شعائر الإسلام فقد ظلت الأعراف القديمة هي السائدة بينهم . وبمرور الوقت عبدوا الأشجار والحجارة ، وواصلوا ممارسة الطقوس القديمة التي لم تفقد سطوتها . بيد أنهم في الوقت نفسه كانوا يزعمون أنهم مسلمون . بل إنه حتى يومنا هذا لم يتخل الهوسا واليوروبا عن تقاليدهم القديمة . فالأشجار والحجارة مازالت تقدر في بلاد الهوسا ، ومازال أهالي الهوسا يمارسون «البورى» التي أشعل الشيخ عثمان الحرب ضدها . أما رؤساء اليوروبا الذين يدينون بالإسلام فمازالوا يتعبدون لآلهتهم الوطنية .

كذلك لم يتخل السودان عن أعرافهم الاجتماعية . ويقول ابن بطوطة إنه على الرغم من مواظبة الناس في مالي على إقامة الشعائر الدينية ، فإنهم يسمحون للنساء بحرية لا مبرر لها . فنساؤهم لسن محجبات ، بل إن بنات

الإمبراطور يسرن عاريات تماما . (٣) وفي برنو تشغل الملكة الأم والملكة مناصب لا يقرها الإسلام ، وتحفظ الدولة بطقوسها ونظامها الإداري .

بل إن الإسلام اليوم لم يستطع أن يفرض تَوْحُداً أو تماثلاً على السودان . ففي فوتاتورو يحتفظ التوكولور ، أقوى المجموعات المسلمة في غرب إفريقيا ، بجوانب معينة من تنظيمهم التقليدي . فهم يتبعون النظام الأمومي ، ويلقنون أنه برغم أن الأب والأم يمكن أن يفشلا في التعرف على إبنهما ، فإن الخال لا يعجز عن ذلك . كما أن الاحتفالات الإسلامية تتلوها في كثير من الأحيان الاحتفالات التقليدية .

ولا ينبغي أن يخلص المرء من ذلك إلى أن السودان يفتقرون إلى الوفاء والإخلاص . فإبن بطوطة الذي لا يکن للسود غير الاحتقار يذكر أن أهل مالي يحرصون على إقامة الشعائر الدينية ، ويشتد إقبالهم في أيام الجمع على المسجد الجامع ، ولذلك فإن علية القوم وميسوري الحال يبعثون بغلمانهم لحجز أماكن لهم بفرش سجادة الصلاة فيها ، فإن لم يفعلوا تعذر عليهم إيجاد مكان لهم ما لم يذهبوا في الصباح الباكر . والناس يذهبون إلى المسجد في أحسن هندام ، ومن لا يمتلك سوى جلاب واحد يحضر به نظيفا . (٤)

(٣) «ومن مساوئ أفعالهم كون الخدم والجواري والبنات الصغار يظهرون للناس عرايا باديات العورات . ولقد كنت أرى في رمضان كثيرا منهن على تلك الصورة . فإن عادة الفرارية أن يفطروا بدار السلطان ، ويأتى كل واحد منهم بطعامه ، تحمله العشرون فما فوقهن من جواريه وهن عرايا . ومنها دخول النساء علي السلطان غير مستترات ، وتعري بناته ، ولقد رأيت في ليلة سبع وعشرين من رمضان نحو مائة جارية خرجن بالطعام من قصره عرايا ، ومعهن بنتان له ناهدان ليس عليهما ستر» المرجع نفسه ، الصفحة ٦٩٨ .

(٤) « ومنها مواظبتهم للصلوات ، والتزامهم لها في الجماعات ، وضربهم أولادهم عليها . وإذا كان يوم الجمعة ولم يبكر الإنسان إلى المسجد ، لم يكن يجد أين يصلى لكثرة الزحام . ومن عادتهم أن يبعث كل إنسان غلامه بسجاده ، فيبسطها له بموضع يستحقه بها حتى يذهب إلى المسجد ... ومنها لباسهم الثياب البيض الحسان يوم الجمعة ، ولو لم يكن لأحدهم إلا قميص خلق ، غسله ونظفه وشهد به الجمعة » المرجع نفسه ، الصفحة نفسها .

فضلا عن ذلك يذكر ابن بطوطة أن السودان يحملون أطفالهم على حفظ القرآن ، كما يقول إن قاضيا قيد أطفاله ولم يفك قيدهم حتى حفظوا ذلك الجزء من القرآن الذي حدده كواجب يومي لهم .^(٥)

ومع ذلك فإن الإسلام كان يقتصر أساساً على المدن . فإبن بطوطة ، وهو مصدرنا الرئيسي ، أمضى أطول فترة من زيارته في العاصمة بطبيعة الحال . فضلا عن ذلك فإنه لم يكن على اتصال إلا برجال البلاط والفقهاء . وهؤلاء الفقهاء كانوا حريصين على أن يحفظ أبناءهم القرآن ؛ كما أن منصبى القاضى والإمام وغيرهما لم يكن يسمح بشغلها إلا لمن لديه فهم سليم للقرآن والشريعة والحديث . إنها لم تكن سوى مصلحة طبقية ؛ فالمعلمون الذين كتبوا التاريخ إنما مجّئوا أولئك الذين يدعمون سبيلهم

ثانيا

كانت الطبقات المتعلمة تمارس نفوذاً أكد كتباً مما تسمح به أعدادها ، فكان باستطاعتها أن تلتخ سمعة حاكم عظيم مثل سنّ على^(٦) . بل إن أسكيا محمد ، الذى كسب جانب العلماء بكثرة العطايا وقبول أفكارهم عن دور الحاكم العادل ، كان يخشى في حالة وقوع هزيمة حربية في كبّ ما قد يقوم به العلماء

(٥) « ومنها عنايتهم بحفظ القرآن العظيم ، وهم يجعلون لأولادهم القيود إذا ظهر في حقهم التقصير في حفظه ، فلا تفك عنهم حتى يحفظون . واقد دخلت على القاضى يوم العيد وأولاده مقيدون ، فقلت له ألا تسرحهم ؟ فقال لا أفعل حتى يحفظوا القرآن ! ومررت يوماً بشاب منهم حسن الصورة عليه ثياب فاخرة ، وفي رجله قيد فقلت لمن كان معى ما فعل هذا ؟ أقتل ؟ ففهم عنى الشاب وضحك ، وقيل لى إنما قيد حتى يحفظ القرآن . » المرجع نفسه ، الصفحة نفسها .

(٦) وإليكم ما قاله محمود كعت ، وهو من أبرز أبناء هذه الطبقات ، عن سنّ على : « ثم خلف سلّمَنُ دام الظالم الفاجر الملعون المسلط شى عال وهو آخرهم ملكا الذى سارت الرفاق بقبج سيره وكان منصوراً وما قابل أرضاً قصده إلا خربه وما كسر له جيش كان فيه قط غالباً غير مغلوب ... وهو سلطان جبار قاسى القلب يأمر بإلقاء الطفل فى المهراس ويأمر أمه أن تدقّه وتدقّه الأم وهو حى ويطعمه للخيول وكان فاجراً قاسقاً تاريخ الفتاش ، الصفحة ٤٣ . [شى عال هو سنّ على] .

من إثارة . وقد أدرك أحمد الذهبي سلطان مراكش أنه ما لم يقض على نفوذ العلماء ، فإن بلاد السودان ستظل في حالة اضطراب دائم .

وأسباب هذا النفوذ الهائل متعددة . فالعلماء هم الحفاظ على سلامة العقيدة ، وكان باستطاعتهم التأثير على السكان المسلمين في المناطق التي تقوى فيها قبضة الوثنية والسحر . أما في المناطق التي لا يكون الإسلام فيها وطيذ الأركان فيتعين وجود عين ساهرة . فداعيتان من أمثال الشيخ عثمان دان فوديو أو الحاج عمر كان باستطاعتهما دائماً استمالة القسم المتحمس من السكان وشن الجهاد . وقد حدث هذا في بلاد الهوسا والتكرور التي كان الكانمي وبلٌ يمثلان هذا الجانب فيها ، ولما كان العلماء هم أبرز أبناء الطبقة المتعلمة ، فقد كانوا يشغلون مناصب القضاء والمناصب الرئيسية في الإدارة ، ويسيطرون على مجالس المشورة ، كذلك كان الكتبة يسجلون أعمال الملك ، ويحملون مراسلاته إلى الدول الأخرى ، ومن ثم كان يستحيل تسيير الإدارة دون تأييدهم .

فضلا عن ذلك كان العلماء يتمتعون بتماسك تفتقر إليه الأقسام الأخرى في المجتمع ، إذ كانوا يدركون أنهم كمتعلمين يتفوقون كثيرا على كبار القوم العاديين ، وربما كانوا المجموعة الوحيدة في بلاد السودان العصور الوسطى التي إذا ما اتحدت أمكنها أن تشكل تحدياً فعالا للسلطة الحاكمة . وهكذا اعترف الأساكي مرارا يتفوق العلماء ، فأسكيا محمد كان في موقف حرج بوجه خاص لأنه بعد مقتل سنّ على اتخذ منه أغلب النبلاء موقفا معارضا ، ولذلك اعتمد عليهم كلية . ولكي يظفر بالاعتراف به كحاكم شرعي فلا بد أن يرتضوه خليفة ، ويذكر **تاريخ الفتاش** الخطوات التي اتخذها وصولا إلى هذا الاعتراف ، والتي أعلنه العلماء في نهايتها الخليفة الحادي عشر .^(٧) وترتب على ذلك أنهم كانوا يمنحون امتيازات خاصة ، فالأسكيا كان يمنحهم الرقيق والأموال مع

(٧) «حتى اتفق جميع علماء عصره على أنه خليفة وممن صرح له بذلك الشيخ عبد الرحمن السيوطي والشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي والشيخ شمهورش الجني والشريف الحسنى مولاى العباس أمير مكة ... ثم تهيأ أسكى الحاج محمد الرجوع (من مكة) فلما وصل مصر وجد هناك الشيخ عبد الرحمن السيوطي فسأله أسكى عن الخلفاء الذين ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم سيأتون بعده فقال الشيخ هم اثنا عشر ، خمسة منهم بالمدينة واثنتان بمصر وواحد بالشام واثنتان بالعراق وقد مضى هؤلاء كلهم وبقي اثنا=

القيام بمصالح المسلمين،^(٨) وانتهج الحكام الذين خلفوه السياسة نفسها، فكانوا يزوبونهم بحراس لضمان سلامتهم ويعفونهم من أية التزامات قبل الدولة . واتبعت برنو سياسة مماثلة كما تشهد بذلك المحارم المتعددة .^(٩)

وجرت عادة الأساكي أن يسألوا العلماء النصيحة في كل المسائل الهامة ، من ذلك مسألة القبائل المستعبدة التي أحالها أسكيا محمد إلى المغيلي والسيوطي ، والتي أخذ فيها بمشورتها .^(١٠) وفي الحج أيضا صحب الأسكيا شيوخا كثيرين . وهؤلاء المشايخ وأقاربهم ، إلى جانب قلة آخرين ، كانوا يهيمنون على الحياة الفكرية والشرعية للإمبراطورية .

ثالثا

يمكن تقسيم المعلمين في بلاد السودان إلى ثلاث طوائف : أولاها طائفة المعلمين من أبناء شمال إفريقية ؛ ثانيها طائفة المعلمين الموريتانيين ؛ ثالثها طائفة المعلمين من السودان . وكانت مصالح هذه الطوائف الثلاث تتباعد بين الحين والآخر . فمعلمو الطائفة الأولى نادرا ما استقروا في بلاد السودان ، ومن هؤلاء المغيلي الذي يعتبر زائرا ، بل إن مولاي الصقلي الذي جاء إليها بصحبة أسكيا محمد بناء على وصية مولاي العباس لم يستقر هناك في حقيقة الأمر .^(١١) فهو بوصفه شريفا استقبل بترحاب كبير وأعفيت أسرته من

= بأرض التكرور أنت أحدهما ويأتى بعدك الثاني قبيلتك منسوبة بطورد من أهل اليمن . « المرجع نفسه ، الصفحتان ١٢ و ١٣ .

(٨) «وله من المناقب وحسن السياسة والرفق بالرعية والتططف بالمساكين ما لا يحصى ولا يوجد له مثيل لا قبله ولا بعده وحب العلماء والصالحين والطلبة وكثرة الصدقات وأداء الفرض والنوافل وكان من عقلاء الناس ودهانهم والتواضع للعلماء وبذل النفوس والأموال لهم مع القيام بمصالح المسلمين وإعانتهم على طاعة الله وعبادته» المرجع نفسه ، الصفحة ٥٩ . [«بذل النفوس والأموال لهم » هنا بمعنى منحهم هبات من الرقيق والمال .]

(٩) انظر الحاشية ٦ - ١٠ أعلاه .

(١٠) « فلما ثبتت له السلطنة واستقامت المملكة خرج من ذلك كله وجعل يسأل العلماء عن سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ويمشي على أقوالهم رحمه الله . » المرجع نفسه ، الصفحتان ١١ و ١٢ .

أية التزامات ، وأصبح قاضيا لتمبكت ، ولكن الأسكيا كان شديد الاعتماد عليه حتى أنه عندما تحرك إلى غاو كان الشريف في صحبته . وقد تزوج بسيدة عربية من تافلات وأنجب منها خمسة أطفال .^(١٢) وعند موته غادر بعض أطفاله البلاد .^(١٣) وأظهر أحد أحفاده فيما بعد بعض العقوق للسلطان . ومع ذلك فإن عربا أقل شأنًا وجدوا في بلاد السودان مكانا يستطيعون فيه أن يمارسوا نفوذًا هائلًا وأن يحيوا حياة مريحة . ويشير ابن بطوطة إلى كثيرين من القضاة العرب .

ومجموعة أخرى من المعلمين أكثر أهمية هي مجموعة المعلمين الموريتانيين . وعلى الرغم مما كان لدى هؤلاء من شعور بالاستعلاء على السودان ، فإن ولاهم للدولة لم يكن موضع نقاش . وينتمي بعض من أبرز الرجال في غاو إلى القبائل الصحراوية . ولكن المعلمين السودان يشكلون العدد الأكبر ، غير أن أرفعهم شأنًا تعلموا في شمال إفريقية أو في الصحراء .

والمعلمون كطبقة لم يكونوا يبالون بالسياسة ، ولا يهتمهم في شيء أن يكون الأساكى أو المراكشيون هم الذين يحكمون بلاد السودان . أمران إثنان استحوذا على جُل اهتمامهم : أن يكون طابع الدولة إسلاميًا ، وألا تمس

(١١) « ثم طلب (اسكيا محمد) من مولاي العباس أن يعطيه واحدا من الشرفاء إما أخاه أو ابنه ليتبركوا به وهذا بعد ما أمره مولاي العباس على أرض التكرور وبين أنه واحد من الخلفاء الاثنى عشر وقال له مولاي العباس فسأعطيك إن شاء الله من هو كائن ولكن لا يمكن ذلك الآن ثم أمر مولاي العباس ابن أخيه مولاي الصقل أن ينزل إليه . » المرجع نفسه ، الصفحتان ١٦ و ١٧ .

(١٢) « وقصدت تنكب فاقام الشريف الحسنى أحمد الصقلى بتنكب ونكح هناك امرأة إعرابية من أهل تافلات اسمها زينب فولدت له مزاور ومحمد وسليمان ورقية وزينب ثم إن الإمام اسكيا الحاج محمد أطال الله حياته وأسكننا وإياه جنته لما لم يجد صبورا على مفارقتة قدم إليه بنفسه فأنزعجه إلى كاغ وأضافه .. » المرجع نفسه ، الصفحة ٢٣ .

(١٣) « ورجع محمد وسليمان إلى مدينة بغداد وبقي مزاور في بلاد تنكب ونكح امرأة من الأعراب اسمها زينب بنت وهب فولدت .. ثم ارتحل هؤلاء الأشراف من تنكب لسبب جوع خافوا منه على أنفسهم وعيالهم .. » المرجع نفسه ، الصفحة ٣١ .

امتيازاتهم . ولم يكن القواد المراكشيون ، محتذين في ذلك حنو كل الأسباب الذين اعتنقوا الإسلام ، يعاملون العلماء بالاحترام الذي اعتادوه خلال حكم الأساكي ، ومن ثم فقد دخلوا في نزاع مع المراكشيين . ومع ذلك ففي البداية كانت هناك أعداد لها دلالتها من العلماء ممن لديهم على الأرجح ميل شديد نحو المراكشيين اعتقاداً منهم أن سيطرة الشمال السياسية لن تؤدي فقط إلى تعزيز الوجود الإسلامي ، بل كذلك إلى تطهير الإسلام من البدع . ولا بد أن المعلمين من أبناء شمال إفريقية قد عززوا وجهة النظر هذه ، وكذلك بعض فقهاء السودان الأكثر تشدداً .

وتحت حكم الأساكي أصبح تفرق مصالح قطاعات العلماء المختلفة أمراً علنياً لأول مرة . وفي القرن التاسع عشر ازداد عمق التفرق والاختلاف داخل الجماعة الإسلامية إلى درجة لا يمكن التغاضي عنها . فالبكاي ومؤيدوه من الطوارق والأرما كانوا أقوياء في تمبكت وغاو . والمعلمون من الأرما والموريتانيين هم الذين منعوا أحمدمو الفولاني من أن يخطب في غاو ؛ لخشيته من أن يصبح إماماً للمسجد الجامع . وفي تمبكت اتبع البكاي وأنصاره سياسة العداء المستحكم تجاه الفولاني . وقد أدى التشدد الديني عند الفولاني إلى إبعاد من تبعوا من ممثلي النظام القائم ، بيد أن الأمر لم يعدم نغمات عرقية نشاذ . فمعلموا تمبكت ينتمون إلى القبائل الرحل ، ومعارضتهم للفولاني ذات جنور عرقية ، ووصل بهم الأمر إلى تفضيلهم للبمبة الوثنيين ، لأن البمبة لا يتدخلون في الشؤون الدينية أو المدنية .

رابعة

لقد كان المعلمون ، كما رأينا ، طبقة هامة في بلاد السودان ، وكان السلاطين يمنحونهم كطبقة هبات كبيرة . ويتحدث المؤرخون باستمرار عن الملوك الورعين المتدينين . وكانت أفضل طريقة للتعبير عن الورع هي دائماً تقديم المنح والعطايا من الأرض والرقيق للعلماء . وهكذا تمكن العلماء كطبقة من تجميع ثروات كبيرة بسبب المنح السخية التي يقدمها السلاطين . ويشير تاريخ

الفتاش فى مواضع كثيرة إلى المنح التى قدمها الأساكي إلى الفقهاء . (١٤)

وكان الحظ مواتيا أيضا للعلماء لكونهم على نحو ما طبقة وراثية . وإذا أخذنا حالة أسرة كعت كمثال لذلك ، فإنها لم تكن من أية ناحية حالة استثنائية . فمحمود كعت ابن الحاج المتوكل كعت هو ابن فقيه بارز أدى فريضة الحج . وقد ولد فى عام ١٤٦٨ ، وكان صديقا حميما لأسكيا محمد وأحد مستشاريه الأوفياء ، ورافقه إلى مكة عند أدائه فريضة الحج . (١٥) وكان أحد المعلمين الذين ذهبوا كمبعوثين إلى سنّ بار لمطالبته بالتخلي عن الوثنية واعتناق الإسلام . (١٦) وهكذا فإنه ينتمى إلى جماعة المعلمين الذين كانوا أداة فى اغتصاب أسكيا محمد للسلطة ؛ وهو ما ترتب عليه تدعيم الدولة الإسلامية . وقد عاش كعت الكبير حتى سنّ متقدمة ، وشارك كمستشار فى مقاومة الأساكي للمراكشيين ، وتزوجت ابنته بالمختار قنبل (١٧) قاضى تندرمة الذى كان من أبنائه محمد كعت الأصغر . كذلك كان أبناء كعت الكبير بطورهم على درجة كبيرة من الأهمية .

(١٤) «وفقهاهم الذي حج معهم لاستتتايه صالح جور ومحمد تل وقال لهم فإذا جاوا موضع الذي عرف باسكين إلى موضع عرف بقا حوز لك يا صالح جور وأنتم الشهداء . وفيه ثلاث قبيلة ملكا لك.. ثم قال يا محمد تل إذا وصلوا حركنس كيغر وركب فى مقابله من طلوع الشمس إلى حين غربت عليك حوز لك وفيه ثلاثة قبيلة ملكا لك .. » تاريخ الفتاش ، الصفحة ٧١ .

(١٥) لمزيد من التفاصيل عن محمود كعت صاحب تاريخ الفتاش ، انظر الإضافة الملحقه بنهاية الكتاب .

(١٦) «ما نزل القتال بينهما (بين إسكيا محمد وسنّ بار) إلا بعد ما أرسل العالم الولي الصالح محمد تل ... إلى شى بار يدعوه إلى الإسلام ... وبعد ذلك أرسل اسكى محمد العالم الصالح التقى ذا المناقب والكرامات الوعكرى الأصل الفا صالح جور إلى شى بار أيضا ثانياً وأتاه وبلغه رسالة أمير أسكى محمد فما ازداد إلا عتوا وإبابة وامتناعا وتجبرا ... واتفقوا علي أن يرسل رسولا ثالثا يداريه ويلين له الكلام لعل الله يهديه إلى الإسلام فأرسلنى إليه أى أنا الفقير المحتاج الفع كعت وذهبت إليه . » المرجع نفسه ، الصفحتان ٥٣ و ٥٤ .

(١٧) « سمعته من والدى المختار قنبل .. » المرجع نفسه ، الصفحة ٧٠ . وقد تولى المختار قنبل منصب قاضى تندرمة فى عام ١٧١٠ عقب وفاة والده محمد قنبل الذى كان يتولى هذا المنصب . وكلمة قنبل ليست لقبا ، وإنما هى من لغة المندنغو ، ومعناها الأحمر ، وتطلق على بعض الأفراد بسبب لون بشرتهم وشعرهم . [انظر ، تذكرة النسيان فى أخبار ملوك السودان ، الترجمة الفرنسية ، الصفحة ١٥٥ ، وكذلك تاريخ الفتاش ، الترجمة الفرنسية ، الصفحة ١٣٥ ، الحاشية ١ .]

فأبنه يوسف كان متفقهاً في الشريعة ، وأبنه إسماعيل كعت كان قاضياً . (١٨)
أما حفيده محمد باب بن يوسف (١٩) فكان عالماً بارزاً آخر .

أما عائلة المعلمين الأكثر تميزاً في فترة عظمة غاو فهي عائلة أقيت التي يرجع أصلها إلى قبائل جدالة . ولم تكن أهمية هذه العائلة ترجع فقط إلى تقوى أبنائها وورعهم ، بل كذلك إلى تفقهم الشديد في الدين . وقد أقامت أصلاً في ماسنة ، ثم غادرتها إلى ولاته ، ومنها إلى تمبكت لتستقر هناك . فمحمد بن عمر بن محمد أقيت (٢٠) ولد في تمبكت في عام ١٤٦٣ ، وعين قاضياً للمدينة في عام ١٤٩٨ ؛ وأصبح فيما بعد شيخاً للإسلام . وقد مات في عام ١٥٤٨ ؛ وخلفه ثلاثة من أبنائه على التوالي في منصب قاضي تمبكت : محمد الذي شغل المنصب إلى أن مات عام ١٥٦٥ (٢١) ؛ والعاقب الذي شغل المنصب حتى عام ١٥٨٣ ؛ وعمر الذي تولى قضاء تمبكت خلال عهد أسكيا الحاج . (٢٢) وقد شيد العاقب مسجد تمبكت الكبير مكان المسجد الذي تهدم والذي كان منسا موسى قد شيده ؛ كما أعاد بناء المسجدين الآخرين ، سنكري وسيدى يحيى ، اللذين كانا قد تهدما بدورهما . (٢٣) ولأحفاد هؤلاء الفقهاء المتميزين دور هام في الحياة

(١٨) « لوقفنى عليه خالى القاضى إسماعيل بن الفقيه القاضى محمود كعت » تاريخ الفتاش ، الصفحة ٧٢ . « ذكره الفقيه يوسف كعت بن الفع كعت » المرجع نفسه ، الصفحة ١٢٩ .

(١٩) « وحكى لى سبطى محمد باب بن يوسف كعت » المرجع نفسه ، الصفحة ١٧٥ . [والحديث هنا لمحمود كعت . والسبط هو ولد الولد .]

(٢٠) صحة الاسم محمود بن عمر : « ولا رماه وألى الله تعالى الفقيه سيدى محمود بن عمر بن محمد أقيت . » تاريخ السودان . الصفحة ١٨ . ومرجع هذا الاختلاف أن پانيكار قد نقل عن الترجمة الفرنسية لتاريخ السودان التي ورد بها الاسم في الصفحة ٣٢ « محمداً » مثلما جاء في النص الإنجليزي .

(٢١) « وتولى القضاء بعد الفع محمود بن عمر ولده القاضى محمد بن محمود ... » تاريخ الفتاش ، الصفحة ٩٣ .

(٢٢) « ومنهم أولاد شيخ الإسلام أبى البركات ولى الله تعالى الفقيه القاضى محمود بن عمر بن محمد أقيت القاضى محمد والقاضى العاقب والقاضى عمر والفقيه عبد الله والولى الزاهد الفقيه عبد الرحمن .. » تاريخ السودان ، الصفحة ٣٣ .

« العاقب بن محمود بن عمر بن محمد أقيت بن عمر بن على بن يحيى الصنهاجى قاضى تمبكت .. » المرجع نفسه ، الصفحة ٤٠ .

الفكرية للمدينة ، ومن بينهم أبو حفص عمر كرى النحوى البارز .^(٢٤) والفقيه أحمد بن محمد بن سعيد حفيد عمر بن محمد أقيت ، وهما معروفان جيداً.^(٢٥) أما العالم الذى برز بين هذه العائلة المتميزة فهو أحمد بابا « العلامة الفقيه .. (الذى) حصل عدة فنون من العلم كالفقه والحديث والأصول والبيان والنحو والمنطق والعروض والحساب »^(٢٦) ، والذى كان أكثر أعضاء الصفوة المثقفة شهرة فى تمبكت . وقد وضع أحمد بابا أسفاراً كثيرة لم يصل إلينا شئ منها ، ولذا فهو يعرف أساساً بالإشارات الكثيرة إلى أسفاره فى كتب التاريخ .^(٢٧)

ومحمد تُل معلم هام آخر من أصل بربرى ، وهو ينتمى إلى فرع بنى مداس من قبيلة صنهاجة . وقد منحه أسكيا محمد كل ما يتعلق بثلاث قبائل مستعبدة ، وكذلك حق الانتفاع بريع الأرض التى تدخل فى نطاق هذه القرى . وذلك هو الثمن الذى دفعه له لقاء تأييده له ضد سنّ بار.^(٢٨) كما أن الفع صالح جور

(٢٣) « أما الجامع الكبير فالسلطان الحاج موسى صاحب ملّى هو الذى بناها ... والقبور لاصقة بها ... وتلك عادة السودان أهل المغرب لا يدفنون موتاهم إلا فى رحاب مساجدها ... فلما جدد الفقه العدل القاضى العاقب بن القاضى محمود بناها خربها وسواها مع جميع القبور بالأرض من كل جهة صير جميع مسجدا وزادها زيادة كبيرة . » تاريخ السودان ، الصفحتان ٥٦ و ٥٧ .

« ثم رجع وشرع فى بناء المسجد الجامع وفى سنة ... شرع فى بناء مسجد سنكرى ... أنه لما حج وأراد الانصراف والقول إلى تنبكت استأذن خادم الكعبة المشرفة أن يحد الكعبة ويكيله بقنمه طولاً وعرضاً وجاء بالحبل المكيل فلما أراد بناء مسجد سنكرى أخرج ذلك الحبل وكال تلك العرصة التى أراد بناها فيه على الأوتاد وبنى عليها وهو على مقدار الكعبة مازادت وما نقصت عليها بشئ ... ثم رجع لبناء مسجد سوق تنبكت وهو آخر بنيته » تاريخ الفتاش ، الصفحتان ١٢١ و ١٢٢ . [وقد جاء بحاشية بالصفحة ٢٢٣ من الترجمة الفرنسية أنه من المحتمل أن يكون مسجد سوق تمبكت هو مسجد سيدي يحيى الذى يقع بالقرب من سوق رائجة للغاية فى تمبكت .]

(٢٤) « بيت الشيخ النحوى أبى حفص عمر كُرى بن العلامة أبى العباس أحمد نى الكرامات بن محمود بن عمر بن محمد أقيت » المرجع نفسه ، الصفحة ١٢٤ .

(٢٥) « ما جرى بينه وبين الفقيه أحمد بن محمد بن سعيد سبط القاضى محمود بن عمر بن محمد أقيت » المرجع نفسه ، الصفحة ١١٣ .

(٢٦) تاريخ السودان ، الصفحة ٣٢٢ .

(٢٧) يجد القارئ تعريفاً بالعالم الجليل أحمد بابا فى الحاشية ٥ - ٤٣ أعلاه ، ويتضح من هذا التعريف - على خلاف ما يقوله پانيكار - أنه تبقت لدينا بضعة كتب من تأليفه ، وذلك بعدما فقد الجانب الأكبر منها فى أثناء اقتياده إلى مراکش .

الذى قام هو الآخر بدور مماثل قد كوفىء بالطريقة نفسها .^(٢٩) وهناك عائلة أخرى من البربر ، هي عائلة **سيدى يحيى الأندلسى التادلسى** أول إمام لمسجد سيدى يحيى فى تمبكت ، كما شغل منصب قاضى تمكبت حتى وفاته فى عام ١٤٩٣ .^(٣٠) و**بغيع**^(٣١) من العائلات الهامة الأخرى . فمحمود بغيع خلف عمر أقيت فى منصب إمام تمبكت ، وكان إبناه محمد وأحمد من علماء الشريعة^(٣٢) ، كذلك قاوم محمد الاستبداد المراكشى . ومحمد بغيع لم يقبض عليه ، والأرجح أن المراكشيين أرسلوه إلى مراكش أملا فى حمله على تأييدهم . فقد استدعاه القائد وطلب إليه أن يشهد على وثيقة تلقى تبعة كل الفطائع التى ارتكبت فى غاو وتمبكت على العلماء وكبار القوم المتمردين . وعندما رفض بغيع ووجهه بأسكيا الفع **بُكرُ لنبار**^(٣٣) الذى أقسم بأنه رأى خطابا من بغيع إلى أسكيا نوح .^(٣٤)

ومن الفقهاء الآخرين فى بلاط الأسكيا : محمد بن عمر ؛ محمد زكريا ؛

(٢٨) انظر الحاشيتين ١٤-١٤ و ١٤-١٦ أعلاه . « ما نزل القتال بينهما قط إلا بعد ما أرسل (أسكيا محمد) العالم الولى الصالح محمد تل الشريف ينسبونه إلى بنى مداس إلى شى بار يدعوه إلى الإسلام » تاريخ الفتاش ، الصفحة ٥٣ .

(٢٩) انظر الحاشية ١٤ - ١٦ أعلاه أيضا .

(٣٠) « سيدى يحيى الأندلسى التادلسى وهو ثابت النسب وهو سيدى يحيى بن عبد الرحيم بن عبد الرحمن الثعالبى بن يحيى البكاى ... بن الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنه . » المرجع نفسه ، الصفحتان ٥٢ و ٥٣ . [وجاء بحاشية بالصفحة ١٠١ من الترجمة الفرنسية لتاريخ الفتاش أن سيدى يحيى كان أول إمام لمسجد تمبكت الذى يحمل إسمه ، وقد بناه محمد نصر سلطان تمبكت أثناء حياة سيدى يحيى .]
(٣١) وردت « بقيع » فى كتاب نيل الابتهاج بتطريز الديباج لأحمد بابا ، الصفحة ٩٤ « أخذ عنه جماعة منهم العلامةان الصالحان الفقيهان الأخوان شيخنا محمد وأخوه أحمد إبنا الفقيه محمد بقيع » [بغيع عشيرة من المندنفو .]

(٣٢) « حين أتاه مع السيدين الفقيهين محمد بغيع وأخيه أحمد ابنى القاضى محمود بغيع رحمهم الله فى كاغ » تاريخ الفتاش ، الصفحة ١١٣ .

(٣٣) ورد اسمه فى صيغ مختلفة فى تاريخ الفتاش ، فى الصفحات ١٠٤ و ١٠٨ و ١١٤ ، هى على التوالى : بكر الأنبارى ، بكر لنبار ؛ بكر الأنبار ؛ بكر بن لنبار ، وقد عمل سكرتيرا لأسكيا داوود وخلفائه . وعندما تسبق اسمه عبارة « اسكيا الفع » فإنه يعنى فقيه الأسكيا بلغة السنغى ، كما يعنى السكرتير الملكى .

(٣٤) جاء بحاشية بالصفحة ١٦٣ بالترجمة الفرنسية لتاريخ الفتاش أن اسكيا نوح خلف محمد غاو ، وأنه قاوم بنجاح فى الفترة ١٥٩٢ - ١٥٩٣ قوات القائد المراكشى محمود باشا فى دند حيث أقام هناك =

محمد تَنَنُك ؛ مودبُ قاسم جنكاس ؛ القاضي العاقب ؛ الخطيب محمد جمعيت ؛
القاضي هند الفع ؛ القاضي محمد يَنْدِيع ؛ الشيخ هَوَّكَار^(٣٥) وكان هناك مؤرخ
بارز آخر هو باب كور ابن الحاج محمد بن الحاج الأمين كانوا ، والأرجح أن
أصله من كانوا . وقد أخذ كل من السعدي وكعت عن كتابه ، نرى الحسان في
أخبار بعض ملوك السودان^(٣٦) وقد كان من حسن حظه أنه أفلت من مذبحة

= مملكة لم يستطع المراكشيون قهرها . وبذلك قامت في سنغى بعد الغزو المراكشي مملكتان : الأولى تحت
سلطة المراكشيين ؛ كان ينصب عليها أسكيا صورياً مقره تمبكت ؛ والثانية مستقلة تحت حكم أسكيا آخر
مقره في دند ، وفي أغلب الأحيان كان الأساكي الألورية في تمبكت يصعدون ويسقطون مع صعود الباشوات
المراكشيين وسقوطهم .

وردت قصة الباشا المراكشي (القائد المراكشي) واسكيا الفع بكر لنبار ومحمد بغيغ بالتفصيل في
تاريخ الفتاش ، الصفحات ١٧٥ إلى ١٧٧ ، وساقططف أقل عدد من الجمل يغطي أحداثها : « إن الباشا
محمود مر بمحمد بغيغ يوماً فناداه ... ولما وصل إليه الشيخ .. ناوله كتاباً مطوياً ومد له دواة وقلما فقال
اكتب شهادتك فيه وفتح الشيخ الكتاب وتأمله فإذا فيه ما صورته وليعلم أمير المؤمنين السلطان ... إننا ما
قبضنا هؤلاء الفقهاء ... إلا أن ظهر لنا ما في نفوسهم من عداوة السلطان ... وفيه شهادة جل أعيان تنبكت
وكبرائها على ذلك وإعلام (إمضاء) القاضي محمد وقال له اكتب شهادتك ... فتعوذ الشيخ بالله من ذلك أي
من أن يضع شهادته ... ثم التفت الباشا محمود إلي أسكي الفع لنبار ... وقال له يا الفع بكر أما رأيت
الكتاب قال بلى رأيت به خط يده ... ثم قام (محمد بغيغ) إلي موضع جلوسه ... وأخذ الباشا بيده وقبلها وقال
ارجع إلى دارك بالسلام كثر الله أمثالك .. فلما رجع إلى داره أتاه أسكي الفع بكر لنبار المذكور ووقف ببابه
وسلم وقيل من أنت فقال أنا أسكي الفع بكر لنبار المذنّب الفاجر الأثيم وتبسم الشيخ وأمر بالباب ففتح له .. »
(٣٥) محمد زكريا : ورد في تاريخ الفتاش كاغ زكريا ، أي زكريا المنتمى إلي كاغ ، « وكاغ زكريا
بن أحمد » الصفحة ١١٦ . محمد تَنَنُك : أي محمد المنتمى إلي تَنَنُك ، وهي موقع في ما سته « ومحمد تَنَنُك »
المرجع نفسه ، الصفحة ١٦ .

مودبُ قاسم جنكاس : « الفقيه القاضي مودبُ قاسم جنكاس » المرجع نفسه ، الصفحة ٥٢ . مودبُ
معناها مؤدب أو أستاذ . ورد مودبُ زنكاس في تاريخ السودان ، الصفحة ٧٠ « ومات مودبُ زنكاس سنة .. »
« العاقب بن محمود بن عمر بن محمد اقيت .. قاضي تنبكت » تاريخ السودان ، الصفحة ٤٠ .
الخطيب محمد جمعيت : « ثم أمر بسبعة وعشرين (عبداً) إلى الخطيب محمد جمعيت خطيب كاغ
وهو قاضي .. » تاريخ الفتاش ، الصفحة ١٠٦ .

القاضي هند الفع : « وأعطى أخت القاضي هند الفع ألف شاه .. » المرجع نفسه ، الصفحة ١٠٨ .
القاضي محمد يَنْدِيع : « والقاضي محمود ينديع » المرجع نفسه ، الصفحة ٦٥ . ورد كذلك محمود
يَنْدِيع في الصفحة ١٦ من المرجع نفسه . وقد ورد في النص الإنجليزي ، وكذلك في الترجمة الفرنسية لتاريخ
الفتاش ، الصفحة ٢٥ ، Nidobogho . ولذا تكون صحة الإسم هي القاضي محمود يَنْدِيع .
الشيخ محمد هَوَّكَار : والشيخ مور محمد هَوَّكَار ، المرجع نفسه ، الصفحة ١٦ .

العلماء^(٣٧) .

وهناك إثنان من المعلمين لطخا سمعتهما بسبب عدم ولائهما للبولية ، أحدهما أسكيا الفع لنبار . وربما كان لنبار أهم عضو في طبقتة ، وإن لم يكن مرجع ذلك هو ورعه أو تفقّحه . فقد شغل منصب رئيس مجلس القضاء في بلاط الأسكيا ، وهكذا كان منه دائما بمثابة أذنيه . ويبدو من تاريخ الفتاش أنه نذر نفسه لخدمة المصالح المراكشية ، كما دعا إلى مهادنة المراكشيين ، وأخرج أسكيا إسحاق قسراً من ساحة القتال . وبعد أن استقر الباشوات المراكشيون في تمبكت تعاون معهم في مطاردة الخوارج والمنشقين . وربما يكون هو المعلم الإفريقي الوحيد من البربر الذي فعل ذلك^(٣٨) . وحالة نكران أخرى للجميل أكثر افتضاحاً هي حالة محمد بن القاسم ، وهو حفيد أحمد الصقلي الذي غمره أسكيا محمد بجوده وسخائه . وقد حصل ابن القاسم نفسه على عطايا ضخمة من بينها مائتان وخمسون رقيقاً وفروا له جميع احتياجاته . ومع ذلك فلدى تلقيه رسالة من الشريف حاكم مراكش مفادها أنه لا يليق بأمثاله البقاء في بلد يخوض حرباً ضده ، نسي ابن القاسم كل ما يدين به للسنغى ، وقرر مغادرة السودان برقيقه . ولم يوافق بعض الرقيق علي الانتقال إلى مراكش ، بيد أن الشريف أصر على

(٣٦) «مكنا نقلته من درر الحسان في أخبار بعض ملوك السودان تأليف باب كور بن الحاج محمد بن الحاج الأمين كانوا» المرجع نفسه ، الصفحة ٤٤ . وفي الصفحة ١٨٢ من المرجع نفسه ورد اسم درر الحسان على نحو آخر . «قاله باب جور بن الحاج محمد في جواهر الحسان» (انظر الحاشية ٦ - ٦٨ أعلاه)

« وفي أواسط ربيع النبوى .. توفى صاحب والدى وملاطفه في جنى بابا كرى بن محمد كرى » تاريخ السودان ، الصفحة ٢٤٠ .

(٣٧) الإشارة هنا علي الأرجح هي إلى مذبة العلماء التي ارتكبها القائد المراكشى محمود باشا في غاو (انظر الحاشية ٥ - ٤٠ أعلاه) ، والدليل على أن باب كور قد أقلت من هذه المذبة هو أنه أورد في درر الحسان أحداثاً وقعت بعدها .

(٣٨) انظر الحواشي ٥ - ٢٠ و ٥ - ٢٩ و ١٤ - ٢٣ أعلاه .

الذهب إلى هناك . (٣٩)

خامسا

كانت بلاد السودان أحد مراكز الفقه العظيمه ، فليو الإفريقى مثلا يقول : «ويباع هنا الكثير من الكتب المخطوطة التى تأتى من بلاد البربر ويجنى من هذا البيع ربح يفوق كل بقية السلع» . (٤٠) وتلك إفادة جديرة بالإعتبار ، لأن جميع المؤلفين يتفقون على أن الملح فى تمبكت يساوى قيمته ذهباً . فإذا كانت الكتب قد نافست الذهب والملح فلا بد أن التعطش للمعرفة كان عظيما للغاية حقاً .

وكان الأساكى يشجعون التعلّم والمعرفة ، وكانت لدى أسكيا داوود مكتبة ضخمة ، ويقول تاريخ الفتاش إنه اعتاد شراء مخطوطات أو نسخ من جميع الكتب الجديدة التى تصل إلى بلاده . ويقوم الكتبة فى مجلس القضاء بالبلاط بنسخ هذه الكتب ، ويتولى الأسكيا توزيع النسخ على المعلمين . كما جرت عادة الأساكى على شراء الكتب لهم ، مثال ذلك أسكيا داوود الذى اشترى لمحمود كعت نسخة من القاموس قيمتها ثمانون مثقالاً . (٤١)

وقد أصبحت المساجد فى تمبكت مراكز للتعلّم ، ولكنها لا تقارن بجامعةات

(٣٩) محمد بن القاسم بن مزاور : « ونكح (الشريف أحمد الصقلى) امرأة من الأعراب اسمها زينب بنت وهب فولدت إبن القاسم ومحمد الهاشمى .. تاريخ الفتاش ، الصفحة ٢١ . [ومن ذلك يتضح أن محمد بن القاسم هو حفيد أحمد الصقلى .]
« والتفت (اسكيا داوود) إلى ... إبن القاسم بن مزاور الشريف الونكرى وسأله عما يحبه من المال» المرجع نفسه ، الصفحة ١١٧ .

« .. أرسل الأمير مولاي أحمد الذهبى رسولا إلى أخيه الشريف محمد بن القاسم يأمره بالرحلة من تلك الأرض إذا لا يليق بأمثاله الجلوس بآرض الفتن فأرسل هو إلى جميع عبيده الزناجية ... فلما قدموا إليه أمرهم بالرحلة جميعا فاستشفعوا بأعيان ذلك البلد فقبل شفاعتهم فيهم كلهم إلا أهل انكند فقال يا أهل انكند إنى أحب أن ترحلوا ... ومع ذلك لم يرضوا بتلك الرحلة .. » المرجع نفسه ، الصفحة ١٤٩ ،

(٤٠) وصف إفريقيا ، طبعة الرياض ، الصفحة ٥٤١ . وحديث ليو الإفريقى هنا هو عن تمبكت .
(٤١) «ومناقب اسكى داوود وإحسانه مع طلبة العلم وحמיד سيره مع الرعية أكثر من أن يؤتى ببعضه فكيف بكله وفى تتبعه طول ومن تلطفه وتوقيره للعلماء والصالحين وصبره عليهم ما حكاه لى بعض أشياخنا » تاريخ الفتاش ، الصفحة ١١٢ .
=

الشمال . والحقيقة أن الرغبة في الحصول على الكتب من شمال إفريقية وغرب آسيا كان مرجعها أنه على الرغم من وجود طبقة متعلمة في بلاد السودان ، فإن إنتاجها الفكرى لم يكن على درجة كافية من الجودة . وعلى أية حال فإن الكتب التى يضعها العلماء السودان لايمكن مقارنتها بتلك التى تصدر عن جامعتى الأزهر وفاس . فضلا عن ذلك كانت هناك مسألة اللغة ، فالطبقات المتعلمة فى بلاد السودان كانت بارعة فى اللغة العربية - لغة الدين والأدب والثقافة - ولكن هذه البلاد كانت تبعد كثيراً عن المراكز الحيوية للمعرفة العربية . وكانت لمعاهدها طبيعة المعاهد التى أقامتها الدول الاستعمار فى مستعمراتها .

والجانب الاستعمارى فى ثقافة السودان مثير حقاً . فمثلاً كان الآسيويون في العصر الاستعمارى يذهبون إلى أكسفورد وباريس لمتابعة الدراسات العليا واستكمالها ، كان السودان يذهبون إلى فاس والأزهر . وكان الطلبة من سنكرى^(٤٢) يذهبون إلى فاس لدراسة المذهب المالكى ، وإلى الأزهر ومكة لدراسة الفقه والشريعة . وكان رجال الدين الزائرون يستقبلون باحترام كبير ويمنحون المناصب الهامة ، وكان للمعلمين الحق فى التدريس ، وباستطاعة أية أسرة أن ترسل إليهم أولادها ، بيد أن تكاليف التعليم كانت باهظة ، ولذلك كانت الأسر الغنية فى وضع أفضل ، إذ يكفى أن تدفع أحد الرقيق وبقرة ثمناً لتعليم الولد . أما الأطفال الفقراء فعليهم أن يعملوا لدى الشيخ كى يسدوا ثمن تعليمهم . وقد كان الاشتغال بالفقه مباحاً لكل من ولد حراً ، بيد أن تكلفة الحصول على الكتب ، والجهد الشاق الذى يتطلبه نسخها ، وحفظ القرآن عن

= « وذكر (محمود كعت) أنه رأى فى بلد تمبكت نسخة القاموس تباع وقد قيل فيه ثمانون مثقالا وواقفتها فى يد صاحبها حتى أتىك واطلب منك خلاصها وتكون ذخيرة لك عند الله .. واشترى (اسكيا داوود) له تلك النسخة بثمانين مثقالا » المرجع نفسه ، الصفحان ١٠٨ و ١٠٩ . [القاموس المشار إليه هنا هو القاموس المحيط ، المعجم اللغوى الذى ألفه الفيروزىادى ، وهو أشهر المعاجم الصغيرة وأشملها .]
« وهو أول من اتخذ خزائن المال حتى خزائن الكتب وله نساخ ينسخون له كتباً وربما يهادى به العلماء المرجع نفسه ، الصفحة ٩٤ .

(٤٢) الإشارة هنا إلى مسجد سنكرى الشهير فى تمبكت .

ظهر قلب ، والوقت الطويل الذى يتطلبه التمكن من الحديث والشريعة والدراسات الرفيعة المستوى فى المذهب المالكي ، وكذلك تكاليف السفر إلى الخارج - لأن معظم هؤلاء المعلمين السودان تلقوا تعليمهم لا فى مساجد بلاد السودان فقط ، وإنما فى موريتانيا وفاس ، بل فى القاهرة ومكة أيضا - كل ذلك يعنى أن التعليم كان وقفا على أقلية . وكما هى الحال فى كل مستعمرات العصر الحديث ، حيث كانت المناصب العالية تسند عادة إلى المتخصصين الذين تدربوا فى الخارج ، فإنه فى إمبراطوريات العصور الوسطى ببلاد السودان كان للعلماء الذين يتلقون تعليمهم فى مدارس فاس وموريتانيا مكانة خاصة مرجعها أن السودان كانوا يتبعون المذهب المالكي وأن أبناء موريتانيا وشمال إفريقيا كانوا أصحاب النفوذ المهيمن فى بلاط ملوك السودان .

وما دام السودان قد تشربوا الثقافة العربية ، فقد حرصوا على أن تكون لهم صلة دائمة بآخر التطورات الأدبية والفقهية فى العالم العربى ، ومن ثم أقبلوا بشدة على اقتناء الكتب التى تصدر فيه . وشاعت المكتبات الضخمة فى بيوت العلماء ، إذ يذكر أحمد بابا أن مكتبته كانت تضم ألفاً ومائتى مجلد ، بالرغم من أنها كانت من أصغر المكتبات فى تمبكت .

ولا يعنى ذلك أن السودان لم يضعوا أية مؤلفات ، بيد أنه من الصعب تقدير عدد ونوع الكتب التى وضعت فى بلاد السودان لأن فترة الفراغ الكبير التى أعقبت موقعة تندي^(٤٣) لم تشهد فقط دمار المكتبات ، بل شهدت أيضا نهاية النشاطات الثقافية كافة ، ومع ذلك فإن أسماء مثل محمد بن أبى بكر^(٤٤) الذى أمضى حياته فى التعبد والتدريس والمحاكاة فى مجلس القاضى إنما هى

(٤٣) مرقمة تندي : الموقعة التى ألحق فيها المراكشيون بقيادة جودار باشا هزيمة حاسمة بجيوش

اسكيا إسحاق الثانى سلطان السنغى ، والتى كانت إيذانا بالنهاية الفعلية لدولة السنغى .

« وقدموا (المراكشيون) كاغ فى أول جمادى الأولى سنة تسع وتسعين وتسعمائة .. وملاقاتهم مع

اسكى إسحاق فى موضع تسمى سنكى قريبا من تندي .» المرجع نفسه ، الصفحة ١٤٦ .

(٤٤) « وفي ضحوة الأربعاء ، توفى الأخ البار النافع الصديق الملاطف المحب الناصح محمد بن أبى بكر

بن عبد الله كرى السنلاوى كان محباً للفقراء والمساكين والطلبة محسناً إليهم » تاريخ السودان ، الصفحة ٢٤٢ .

أسماء جديرة بالاحترام ، ويتحدث تاريخ السودان عن أحمد بابا باعتباره أوسع فقهاء بلاد السودان علماً . كما أن بل وعثمان دان فوديو وعبد الله ، من حكام الفولاني ، والحاج عمر لم يكونوا فقط فقهاء مرموقين ، بل شعراء أيضاً ، فضلاً عن أن السعدي وكعت وابن فرتوا والمؤرخين من الفولاني قد سجلوا بأمانة الأحداث الهامة في بلادهم .

سادسا

كانت المعرفة الإسلامية تنتشر ببطء في بلاد الهوسا . وحتى نهاية القرن السادس عشر كانت غاو وتمبكت وغسرميغو هي المراكز الكبيرة للمعرفة . وقد دخل الإسلام بلاد الهوسا لأول مرة خلال التوسع العظيم لإمبراطورية مالي ؛ ويقول مؤرخ كانوا إن الإسلام دخل بلادهم خلال حكم ياجي (١٣٤٩ - ١٣٨٥)^(٤٥) على أيدي بعض التجار من الونقارة . ورغم أن هؤلاء قد شيدوا مسجدا فإنهم لم يوفقوا إلى إدخال الوثنيين في الإسلام . وخلال حكم يعقوب^(٤٦) (١٤٥٢ - ١٤٦٣) جاء المسلمون من الفولاني إلى بلاد الهوسا ؛ وبعضهم أقام هناك والبعض الآخر ذهب إلى برنو . وقد أحضروا معهم كتب الفقه والشريعة . ومنذ ذلك الوقت توطدت أركان الإسلام في بلاد الهوسا . وتشير تأريخ كانوا إلى قدوم شريف من المدينة ، خلال حكم محمد رومفا (١٤٦٣ - ١٤٩٩) . وربما كان هذا الشخص هو المغيلي الذي يُزعم أنه زار كانوا وكاتسنا . وكان له فضل إقامة الإسلام على أسس سليمة باقتلاع الشجرة التي يقدسها الوثنيون وإقامة مئذنة مكانها . ومنذ أيام المغيلي ظلت التقاليد الإسلامية قوية في بلاد الهوسا .^(٤٧) فعلى سبيل المثال يشير التأريخ إلى قدوم

(٤٥) ياجي بن تساميا : الساركن الحادي عشر لكانو ويسمى علياً ، حكم في الفترة ١٣٤٩ - ١٣٨٥ . وفي عهده استقامت أمور الإسلام ، ووفد على كانوا حوالي أربعين من العلماء المسلمين ، على رأسهم العالم عبد الرحمن زيت . وقد عهد إليهم ياجي بالإشراف على أمور القضاء وذبح الحيوانات وغيرها .

(٤٦) يعقوب بن عبد الله بورچا : الساركن التاسع عشر لكانو ، حكم في الفترة ١٤٥٢ - ١٤٦٣ . وفي عهده وصل إلى كانوا من برنو وغرب بلاد السودان عدد آخر من العلماء المسلمين الذين اكتملت بهم الثورة الدينية في كانوا .

فقهاء كثيرين في أيام كيسوكي^(٤٨) (١٥٠٩ - ١٥٦٥) ، غير أن الهوسا لم يتخلوا عن عاداتهم الوثنية ؛ وكان الإسلام مجرد غطاء علوي للمعتقدات التقليدية .

لقد استعرضنا في عجالة حالة المعرفة في تمبكت أيام الأسكيا . ولم تكن برنو كمركز للثقافة تقل شهرة . يقول بل إنه كان يوجد في برنو معلمون ممتازون درسوا القرآن ، وليس لهم نظير في بلاد الهوسا . ويؤكد آخرون أيضا أن التقاليد الإسلامية كانت وطيدة الأركان في برنو ، ومنهم دنهام الذي يشير إلي أنه وجد في برنو عدداً كبيراً من الحجاج الذين برعوا في الكتابة بالحروف العربية . « كانت كل قافلة تغادر برنو إلى فزان تحمل عدداً كبيراً من نسخ القرآن بخط الكتبة في برنو ، وكانت النسخة تباع في بلاد البربر أو في مصر مقابل خمسين أو ستين ريالاً » . ومن بين معلمي برنو يذكر بل البكري وتلميذه أبا بكر الباركوم ، وكذلك الشيخ طاهر القولاتي^(٤٩) وفي أير يشير بل إلى المعلم العاقب^(٥٠) كشارح لكتاب مختصر خليل^(٥١) ويشير إليه السعدى بدوره على أنه فقيه من تمبكت ، وكان تلميذاً للمغيلي ، وقد عاش في النصف الأخير

(٤٧) انظر الحاشية ٤ - ٥٨ أعلاه .

(٤٨) محمد كيسوكي : انظر الحاشية ٦ - ٧١ أعلاه .

(٤٩) « من علماء ، هذا البلد (برنو) الإمام العالم العلامة ، المتفنن الفهامة ، شيخ الشيوخ نو الفهم والرسوخ ، الشيخ البكري ، أخذ العربية والبلاغة في جاندوت .. ومنهم العالم العلامة ، الفقيه الفهامة ، المعروف بابن أجروم ، أخذ عن الشيخ البكري له تأليف تدل على وفور علمه .. ومنهم العالم العلامة ، الفقيه الفهامة ، أبو بكر الباركوم ، المعروف الشيخ الطاهر بن إبراهيم الفلاني ، كان نسيج وحده ، عالماً بالمنقول والمعقول .. إنفاق الميسور ، الصفحة ٣٧ .

(٥٠) «ويلي هذا البلد من جهة الشمال بلدة أهير .. فمنهم الأستاذ الفقيه العاقب بن عبد الله الأنصمى السوفى ، قال أحمد (بن) باب .. العاقب .. من أهل تكدة ... فقيه نبيه ، ذكى الفهم ، وقاد الذهن ، له تعاليق من أحسنها كلامه على قول خليل ، المرجع نفسه ، الصفحات ٣٩ إلى ٤١ .

«العاقب بن عبد الله الأنصمى السوفى .. وقاد الذهن ، مشغف بالعلم ، قى لسانه ذراية ، له تعاليق من أحسنها كلامه على قول خليل .. تاريخ السودان ، الصفحة ٤١ .

(٥١) خليل بن إسحاق بن موسى بن شعيب : من فقهاء المذهب المالكي في القرن التاسع الهجرى ، نشأ بمصر وشغل منصب مدرس المالكية بالشيخونية بمصر . ألف شرح ابن الحاجب في ستة مجلدات ، وله =

من القرن الخامس عشر .

كما برز كثيرون من المعلمين والمتفقيين في بلاد الهوسا ، في مقدمتهم **عبد الله سوك** ^(٥٢) الذي درس في أغادس وفزان ، ومن المسلم به أنه أعظم عالم في زمانه . وفي كاتسنا ، في القرن السادس عشر ، كان هناك محمد ^(٥٣) الذي درس على أيدي المغيلي وسافر إلى الشرق حيث التقى بشيخ الإسلام زكريا والعالم الكبير القلقشندي ، ووضع تعليقات وشروحا على كتاب مختصر خليل . ومن العلماء المبرزين الآخرين رمضان بن أحمد ، وهو مواطن من فزان درس البخاري . ^(٥٤)

وحتى القرن السادس عشر كان الاهتمام منصباً في المقام الأول على أمور الفقه والشريعة . وكان العمل الذي أنجز في هذا الجانب في بلاد الهوسا عملاً نقلياً أكثر منه عملاً إبداعياً . وكانت أغادس هي المركز العظيم للتعليم الذي يزوره الدارسون من الهوسا ، إذ كانت في العصور الوسطى مركزاً معروفاً

= مختصر في الفقه ، وكذلك شرح في المدونة لم يكتمل . بقي في تصنيف مختصر خليل خمسا وعشرين سنة ، وهو كتاب في فقه المالكية قصد فيه إلى بيان المشهور مجرداً عن الخلاف وجمع فيه فروعاً كثيرة جداً مع الإيجاز البليغ . [نقلاً عن كتاب البيباچ المذهب لابن فرحون وكذلك عن هامشه كتاب نيل الابتهاج بتطريز البيباچ لأحمد بابا التنبكتي ، الصفحات ١١٢ إلى ١١٥] . وتوجد طبعة منه عنوانها مختصر خليل في فقه الإمام مالك أصدرتها مكتبة عباس عبد السلام بن شقرون ، بالحمزاوي بمصر ، ١٩٦٤ .

(٥٢) «من علماء هذه الأقاليم السبعة المذكورة آنفاً ، التي هي : دور وكاشنة وكنو وغوير وزكرك - الشيخ الإمام العالم العلامة التحرير الفهامة ، فريد دهره ، وحيد عصره ، عبد الله سوك ، الفلاتي البغاتي ، رحل في طلب العلم إلى أقدر (أغادس) وإلى فزان .. وله من شيوخه البكري جزء يسير في مجاوبته » ، إنفاق الميسور ، الصفحة ٥٠ [الإقليمان الباقيان هما بيرام ورائو] .

(٥٣) «ومنهم القاضي محمد بن أحمد بن أبي محمد التانختي قال أحمد بابا .. عرف بأيد أحمد مضافاً لاسم أحمد ومعناه : إبن كان فقيهاً عالماً ، فهما محدثاً ، متفنناً محصلاً ، جيد الحفظ ، حسن الفهم كثير المنازعة ... ولقى بتكدة الإمام المغيلي ، وحضر دروسه ثم رحل للشرق .. فلقى أجلاء ، كشيخ الإسلام زكريا والبرهانيين : القلقشندي ... له تقاليد وطرز على مختصر الشيخ خليل » المرجع نفسه ، الصفحة ٥١ .

(٥٤) «ومنهم الشيخ العلامة رمضان بن أحمد ، وكان أصله من فزان ، استوطن زنفر ، وله قصائد وتوايف : منها نظمة على رواية البخاري ، أي رواية الفروع عن الأصول » المرجع نفسه ، الصفحة ٥٢ .

للتعلم تخصص في علوم الفقه . وقد ركز معظم معلمى أغادس على التدريس في المسجد ، ولكن بعضا منهم ، مثل الشيخ عثمان بننور^(٥٥) وجبريل ، جمع بين التدريس في المسجد والوعظ المتجول خارجه . وتخصصت الغالبية العظمى من معلمى أغادس في قضايا معينة ؛ منهم محمد ثنب^(٥٦) الذى أَلَمَّ بأخبار قريش وعلق عليها ؛ وجبريل الذى تخصص فى الكوكب الساطع^(٥٧) ومحمد بن راج الذى درس البخارى^(٥٨) ؛ ومحمد المغورى الذى اشتهر علي نطاق إفريقية كمعلق على المختصر .^(٥٩) ويذكر عبد الله ، الأخ الأصغر لعثمان دان فوديو ، أنه درس الكوكب الساطع للسيوطى على أيدي جبريل .

وقد أصبح تأثير تمبكت منذ القرن السادس عشر هو السائد في بلاد الهوسا . ويعنى ذلك أن المؤلفات الدنيوية أخذت تحظى باهتمام أكبر ، وأن كتابة التاريخ أصبحت أهم وظيفة يضطلع بها المعلمون .

(٥٥) الشيخ عثمان بندور الكبوي ، قرأ عليه عثمان دان فوديو الفقه .

(٥٦) «قاضى القضاة محمد سَنَبُ» إنفاق الميسور ، الصفحة ٥٦ .

« الإمام محمد ثنبُ بن عبد الرحمن » تزيين الورقات ، الصفحة ٦١ .

(٥٧) الشيخ جبريل بن عمر : تخصص فى صحيح البخارى ، وكان له أثره الكبير علي عثمان دان فوديو . فقد رحل عثمان إلي أغادس حيث يقيم الشيخ جبريل ، ولازمه مدة عام ، وأخذ عنه صحيح البخارى ، وهو مالكي متشدد . «ومنههم الأستاذ جبريل بن عمر شيخ الإسلام العلامة المحقق ، القدوة النظار الصالح البركة الحاج» إنفاق الميسور ، الصفحة ٥٤ .

«ثم رجع شيخنا عثمان إلي الوطن وتركنى عنده (أى ترك الشيخ عبد الله عند الشيخ جبريل) فلبثت عنده نحو شهرين قرأت عليه الكوكب الساطع للسيوطى مستمعا كتباً شتى عنده تقرؤها الطلاب» تزيين الورقات ، الصفحة ٢١ .

(٥٨) «فوجدت (الشيخ عبد الله) الشيخ عثمان خرج إلي الحاج محمد بن راج لقراءة البخارى» المرجع نفسه ، الصفحتان ٣١ و ٣٢ .

(٥٩) صحة الإسم محمد المنقورى «ومنههم شيخ الشيوخ ، الفقيه المهيب ، محمد المنقورى ، نقل مختصر خليل ، ومهر جدا ، وتصدر للتدريس» إنفاق الميسور ، الصفحة ٥٦ . [ورد اسمه علي النحو الذى ورد به فى المتن (المغورى al-Maghuri) فى المقدمة الإنجليزية لكتاب تزيين الورقات ، الصفحة ٧ . ولذا يرجح أن يكون پانيكار قد أخذ عن هذا المصدر .]

وتنبغى الإشارة إلى أهمية المؤلفات الدنيوية فى بلاد الهوسا فى القرن الثامن عشر . فعبد الله يذكر أنه درس علم النحو والصرف والمنطق .^(٦٠) وهو بالطبع قد درس القرآن وكتب التفسير ؛ وأعمال السنوسيين ؛ والشعراء الستة . كما درس «علم الحديث الذى يأتى عن طريق المعرفة ، مثل العراقى ، وعلم الحديث الذى يقتصر على الأحاديث الصحيحة التى يتصل سندها من الراوى إلى النبى ، مثل البخارى»^(٦١) وقد تعلم على أيدي شيوخ كثيرين ، سواء من الشرق أو الغرب ، وأصبح من الدارسين المبرزين .

سابعاً

أقامت إفريقية الغربية فى القرن التاسع عشر علاقات وثيقة للغاية مع المناطق المجاورة . ولا يرجع ذلك كلية إلى التجارة ، وإنما أقام هذه العلاقات أيضاً على مراحل وثيدة الحجاج المتجهون إلى مكة ، مثلما يفعل البعض منهم حتى اليوم بإقامتهم فى المدن المختلفة . ولم تكن الدولة الإفريقية تتدخل فى شؤون المسافرين المعتادين ، سواء أكانوا حجاجاً أم تجاراً . وهكذا سافر كل من كلاپرتون وبارث إلى بلاد الهوسا ومعهما خطابات توصية من حكام برنو . وفى ذلك ما يدعو إلى الدهشة كثيراً فى حالة كلاپرتون لأن بلُّ والشيخ الكانمى تبادلوا خطابات مليئة بالقدح والذم .

وفى معظم المدن كان هناك مواطنون أو زائرون يكثرون من السفر ؛ ففى كتاغوم التقى كلاپرتون برجل من الفولا سبق أن سافر إلى القسطنطينية وبغداد .

(٦٠) «ولم أفسر لغات هذه القصيدة هنا لأنى فسرتها فى النسخ المكتوبة ... وإن يسر الله لنا سنضع عليها شرحاً إن شاء الله يبرز محدداتها لأنها قد حوت من علوم العربية وعلوم البلاغة ... » تزئين الورقات ، الصفحة ٢٧ .

(٦١) هذه الفقرة مأخوذة من المقدمة الإنجليزية لكتاب «تزئين الورقات» ، الصفحتين ٦ و ٧ . وعن أعمال السنوسيين وردت بهذه المقدمة إشارة إلى كتاب التوحيد لأبى عبد الله السنوسى . أما الإشارة إلى العراقى فتتعلق بألفيته الشهيرة فى علم الحديث .

وفى كاتسنا زار بارث شريفاً من اليمن سبق أن زار بلاد البربر ، ويوشك على السفر إلى تمبكت . وفى مناطق الأداماوا قابل بارث رجلاً من الفولانى زار مكة ، وعاد منها حاملاً كتباً كثيرة كان يأمل بيعها فى تمبكت والغرب . ومرة أخرى هنا حالة الحاج أحمد ، وأصله من البمبرة . وقد بدأ حياته العملية بتنظيم الحفر لاستخراج الذهب فى بمبوك ، ثم قام بحملات تجارية صغيرة بين توات وتمبكت ، وبين كانو وأغادس ، وأخيراً ذهب إلى الشرق ورافق إبراهيم باشا فى حملته على سوريا ، وزار البصرة وبغداد . ثم التحق بخدمة الحرم النبوى فى المدينة ، وأرسله الإمام ليحصل على بعض الرقيق من بيغرمى .

وكان يوجد بالمراكز التجارية العظيمة ، مثل كانو أو تمبكت ، سكان لديهم معرفة كاملة بالبلاد الإسلامية ، وكان الاتصال بالشمال ذا جانب واحد . فلم يكن يزور شمال إفريقية إلا أقل القليل من السودان ، حتى من الهوسا الموجودين فى كل زمان ومكان . ولكن الأراضى القريبة من الشرق الأدنى والقاهرة وغرب بلاد السودان ، وفى مقدمتها الأماكن الإسلامية المقدسة ، كانت مألوفاً لديهم . كما أنهم لم يكونوا يجهلون جغرافية بلاد السودان . وفى بيغرمى ناقش بارث نظام النهر فى وداى مع رجل من الفولا . وفى برنو تعرّف دنهام على أحد مواطنى سيراليون رأى الإنجليز هناك . والحقيقة أن بلّ أخبر كلاپرتون أن كثيرين من أتباعه يزورون المنطقة الساحلية ، وأن نهر كارا يصل إلى البحر عند مكان يدعى ركا على مسيرة عشرين يوماً من نوبى ، ومع ذلك لم يكن مستعداً لأن يُزّده بخريطة خشية أن يبحر الإنجليز فى النهر إلى الداخل .

قوائم الأسر الحاكمة

أسرة كيتا الحاكمة فى مالى

١٢٠٠ - ١٢١٨	نارى فامغان
١٢١٨ - ١٢٢٨	دنجارام
١٢٢٨ - ١٢٥٥	سوندياتا (ماري جاطة)
١٢٥٥ - ١٢٧٠	ولى الأول
١٢٧٠ - ١٢٧٤	ولى الثانى
١٢٧٤ - ١٢٧٥	خليفة
١٢٧٥ - ١٢٨٥	أبو بكر (مغتصب ؟)
١٢٨٥ - ١٣٠٠	سيكرة (مغتصب ؟)
١٣٠٠ - ١٣٠٥	قو
١٣٠٥ - ١٣٣٧	موسى الأول
١٣٣٧ - ١٣٤١	مغان الأول
١٣٤١ - ١٣٦٠	سليمان
١٣٦٠ -	كاسا (عزل)
١٣٦٠ - ١٣٧٤	مارى جاطة الثانى
١٣٧٤ - ١٣٨٧	موسى الثانى
١٣٨٧ - ١٣٨٨	مغان الثانى
١٣٨٨ - ١٣٩٠	صندكى (مغتصب)
١٣٩٠ -	مغان الثالث

أسرة الأيساكي الحاكمة في غاو

١٥٢٩ - ١٤٩٣	محمد
١٥٣١ - ١٥٢٩	موسى
١٥٣٧ - ١٥٣١	محمد بنكن
١٥٤٠ - ١٥٣٧	إسماعيل
١٥٤٩ - ١٥٤٠	إسحاق الأول
١٥٨٢ - ١٥٤٩	داوود
١٥٨٦ - ١٥٨٢	الحاج
١٥٨٨ - ١٥٨٦	محمد بان
١٥٩١ - ١٥٨٨	إسحاق الثانى
١٥٩٢ - ١٥٩١	محمد غاو

الأسرة السيفية الحاكمة في كانم - برنو

التاريخ الميلادى التقريبى	الهايات السيفيون
١٠٩٧ - ١٠٨٦	أوم بن جبيل (أو هيوم بن جيل)
١١٥١ - ١٠٩٨	نونمه بن أوم
١١٧٧ - ١١٥١	دالابيرى (أو بيرى بن نونمه)
١١٩٤ - ١١٧٧	دالابكر (أو عبد الله بكر بن بيرى)
١٢٢١ - ١١٩٤	سالما (أو عبد الجليل بن بكر)
١٢٥٩ - ١٢٢١	أحمد نونمه (أو نونمه بن دابالا بن سالما)
١٢٧٨ - ١٢٥٩	كادى (أو عبد القديم) بن متالا (متالا اسم أمه)
١٣٠٠ - ١٢٧٩	عثمان (بيرى) بن زينب
١٣٢١ - ١٣٠٠	الحاج إبراهيم نيجال بن كادى
١٣٤٢ - ١٣٢١	عبد الله بن كادى

١٣٤٨ - ١٣٤٢	سالما (تسليم) بن حوا (أو ابن عبد الله)
١٣٤٩ - ١٣٤٨	كورجانا (أو كور) الصغير
١٣٥٠ - ١٣٤٩	كور الكبير
١٣٥٣ - ١٣٥٠	كور محمد (أو محمد بن عبد الله)
	إدریس بن حفصة بنت نيجال بن إبراهيم (أمه حفصة
١٣٧٦ - ١٣٥٣	بنت نيجال وأبوه إبراهيم)
	داوود بن فاطمة بنت نيجال بن إبراهيم (أمه فاطمة
١٣٨٦ - ١٣٧٦	بنت نيجال وأبوه إبراهيم)
	عثمان بن داوود
١٣٨٦	عثمان بن إدریس
	أبو بكر (لياتو) بن داوود

انتقال الاسرة السيفية من كانم إلى برنو

١٣٩١ - ١٣٨٧/٦	عمر بن إدریس
١٣٩١	سعيد محمد مازا أوماچا
١٣٩٢ - ١٣٩١	كادی أفونو بن إدریس
١٤٢٥ - ١٣٩٢	عثمان (بيرى) بن إدریس
١٤٢٥	عثمان كالينواما بن داوود
١٤٢٧ - ١٤٢٥	لونمه بن عمر
١٤٣٦ - ١٤٢٧	عبد الله أوجا بن عمر
١٤٤٣ - ١٤٣٦	إبراهيم بن عثمان
١٤٤٤ - ١٤٤٣	كادی بن عثمان
١٤٤٨ - ١٤٤٤	لونمه بن بيرى (أو لونمه بن عثمان)
١٤٥٠ - ١٤٤٨	محمد بن متالا (متالا إسم أمه)
١٤٥٢ - ١٤٥٠	أوم بن عائشة بنت عثمان

١٤٥٥ - ١٤٥٢	محمد بن كادي
١٤٦١ - ١٤٥٥	حاجي بن إيما لا
١٤٦٦ - ١٤٦١	عثمان بن كادي
١٤٦٧ - ١٤٦٦	عمر بن عبد الله أوجا
١٤٧٢ - ١٤٦٧	محمد بن محمد كادي
١٥٠٣ - ١٤٧٢	علي حاجي بن نونمة بن زينب (أبوه نونمة وأمه زينب)
١٥٢٦ - ١٥٠٣	إدريس كاتاجار مابي بن علي بن عائشة
١٥٤٥ - ١٥٢٦	محمد بن إدريس
١٥٤٦ - ١٥٤٥	علي بن إدريس
	نونمة محمد بن فانامي بن محمد (فانامي اسم أمه ، محمد اسم أبيه)
١٥٥٥ - ١٥٤٦	عبد الله بن نونمة
١٥٦٣ - ١٥٥٥	- وصاية الماچيرا عائشة علي ابنها إدريس ألوما
١٥٧٠ - ١٥٦٣	إدريس بن علي ألوما أو إدريس عائشة ألوما
١٦٠٣ - ١٥٧٠	محمد بن إدريس
١٦١٨ - ١٦٠٣	إبراهيم بن إدريس
١٦٢٥ - ١٦١٨	الحاج عمر بن إدريس
١٦٤٤ - ١٦٢٥	الحاج علي طائر بن الحاج عمر
١٦٨٠ - ١٦٤٤	إدريس بن علي
١٦٩٩ - ١٦٨٠	نونمة بن علي
١٧١٧ - ١٦٩٩	الحاج حمدون بن نونمة
١٧٣١ - ١٧١٧	محمد بن الحاج حمدون
١٧٤٧ - ١٧٣١	نونمة جانا
١٧٥٠ - ١٧٤٧	علي بن الحاج حمدون
١٧٩١ - ١٧٥٠	أحمد بن علي
١٨٠٨ - ١٧٩١	

وبعد « أحمد بن علي » جاء « نونمه بن أحمد » (١٨٠٧ - ١٨١١) ، وفي عهده ظهرت أسرة الشيخ محمد الكانمي الذي أصبح صاحب السلطة الفعلية في برنو ، وأعقبه « محمد نجلروما » (١٨١١ - ١٨١٤) ، وقد عزله الشيخ الكانمي وأعاد « نونمه بن أحمد » (١٨١٤ - ١٨١٧) ؛ وأعقبه أخوه « إبراهيم » (١٨١٧ - ١٨٤٦) ، ثم « علي بن دلاتو » الذي حكم ٤٠ يوماً وكان آخر مايات الأسرة السيفية .

هذا وقد وردت الأسماء في المتن مبتورة ، كذلك فإن تواريخ تولى المايات السلطة تختلف من مصدر تاريخي لآخر في حدود بضع سنوات . وقد استكملت الأسماء مستعينا بمصدرين آخرين ، كما حاولت قدر الإمكان التوفيق بين التواريخ الواردة في المتن وتلك الواردة في هذين المصدرين : انظر ، إبراهيم على طرخان ، إمبراطورية البرنو الإسلامية ، المرجع السابق ، الصفحات ١٧٩ إلى ١٨٥ ؛ وكذلك ريتشموند بالمر Bornu, Sahara and Sudan ، المرجع السابق ، الصفحات ٩٦ إلى ٢٥٢ .

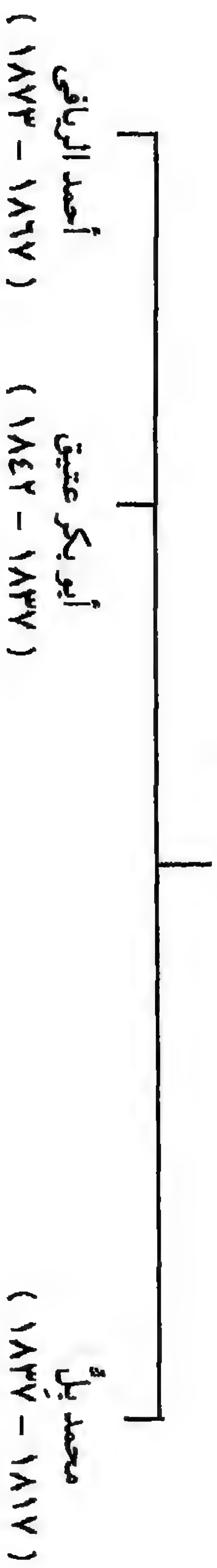
داهومي

١٦٢٥ - ١٦٠٠	أويغباشا
١٦٨٠ - ١٦٢٥	داكو
١٧٠٨ - ١٦٨٠	أكبا
١٧٢٨ - ١٧٠٨	أغاغا
١٧٧٥ - ١٧٢٨	تغبوصن
١٧٨٩ - ١٧٧٥	كنغلا
١٧٩٧ - ١٧٨٩	أغونويو
١٨١٨ - ١٧٩٧	أدنزان
١٨٥٩ - ١٨١٨	غيزو
١٨٨٩ - ١٨٥٩	غليغلي
١٨٩٤ - ١٨٨٩	بيهانزن
١٨٩٨ - ١٨٩٤	أغلو أغلو

الفولاني في سكتو

عثمان دان فوديو

(١٨١٧ - ١٨٠٤)



أحمد عتيق

(١٨٦٦ - ١٨٥٩)

مونازو

(١٨٨١ - ١٨٧٧)

أبو بكر عتيق

(١٨٧٧ - ١٨٧٣)

علي كرامى

(١٨٦٧ - ١٨٦٦)

علي

(١٨٥٩ - ١٨٤٢)



محمد

(١٩٠٣ - ١٩٠٢)



عبد الرحمن

(١٩٠٢ - ١٨٩١)



وهران

(١٨٩١ - ١٨٨١)

تواريخ الأحداث

مرتبة بحسب التسلسل الزمني بالتقويم الميلادي

٣٠٠	تأسيس دولة غانة
٦٠٠	تأسيس غاو
٦٦٩	عقبة بن نافع يغزو فزان
٦٩٠	أسرة «زا» الحاكمة في غاو
٧٠٠	ظهور قوة صنهاجة
٧٣٤	غزو شمال إفريقية لغانة
٧٥٠	تأسيس مملكة وِغْدُغْ
٧٨٠	قَيْمَغْ يؤسس إمبراطورية السوننكي في غانة
٨٠٠	غزو البربر لتغازة
٨٣٦	وفاة تين يروتان
٨٩٠	لمطة تأسر محمد كاغ
٩٣٠	غزو لمتونة لغانة
٩٦١	غاو تفرض سيطرتها على أودغست
٩٩٠	غانة تسيطر على لمتونة ؛ وتعيد هيمنتها على أودغست
١٠٠٩	اعتناق زاكُسي للإسلام
١٠٤٢	بداية جهاد المرابطين
١٠٥٤	غزو المرابطين لأودغست
١٠٥٦	غزو ابن ياسين للسوس
١٠٥٧	وفاة ابن ياسين
١٠٧٦	غزو المرابطين لغانة

١٠٨٥	اعتناق نونمه بن أوم للإسلام
١١٠٠	تأسيس تمبكت
١٢٠٠	كيتا ألاكوى ينشئ مملكة المندى
١٢٠٠	ناجوشى ساركن كانو يفرض ضريبة الأرض
١٢٠٣	غزو الصوصو لغانة
١٢٣٤	انتصار سندياتة (مارى جاطة) فى موقعة كيرى
١٢٥٠	تأسيس غاو
١٢٧٩	انتقال الخلافة إلى كانم
	ارتقاء منسا موسى العرش
١٣٠٧	ظهور قوة الكوارارافا
١٣٢٤	سفر منسا موسى إلى مكة لأداء فريضة الحج
١٣٣٣	الموسى ينهبون تمبكت
١٣٣٥	هرب على كولن .
١٣٨٠	اعتناق محمد كورانى حاكم كاتسنا للإسلام
١٤٠٢	غزو بتنكورت لجزر كناريا
١٤٣١	غزو الطوارق لأروان وولاته وتمبكت
١٤٥٠	غزو الكوارارافا لبرنو وبلاد الهوسا
١٤٦٥	سنّ على
١٤٦٨	قيام سنّ على بغزو تمبكت
١٤٧٠	نهب الموسى لولاته
١٤٧١	وصول جوان دى سنتريم
١٤٨٠	البعثة البرتغالية إلى مالى
١٤٩٠	تولى إيويارى الكبير للسلطة فى بنين
	وفاة سنّ على

١٤٩٢	أسرة الأساكي في غاو
١٥٠٢	المغيلي في بلاد الهوسا
١٥١٥ - ١٥١٨	حرب الإيدا
١٥١٦ - ١٥١٧	حملة السنغي ضد أير
١٥٤٢	الحملة المراكشية ضد ودان
١٥٦٢	السنغي يبدؤون استغلال مناجم الملح في تاو ديني
١٥٧٨	موقعة القصر الكبير
١٥٨١	الحملة المراكشية ضد توات
	الغزو المراكشي
١٥٩١	موقعة تندبي
١٥٩٥	هزيمة المراكشيين لأسكيا نوح
١٥٩٩	قيام محمود سلطان مالي بغزو چني
١٦١٢	باشوات تمبكت يصبحون مستقلين
١٦٧٠	غزو البمبرة لتمبكت
١٦٧١ - ١٦٧٢	وصول الكوارارافا إلى كاتسنا
١٦٨٠	استيلاء الطوارق على غاو
١٧٥٤	مولد عثمان دان فوديو
١٧٩٤	مولد عمرتل
١٨٠٤	الجهاد الفولاني
	موقعة ألّوس
١٨٠٥	غزو الأشانتي للساحل
١٨٠٦	موقعة غولن قافر
	خطر بريطانيا لتجارة الرقيق
١٨٠٧	الغزو الفولاني لبرنو

١٨١١	استغاثة الماي بالشيخ الكانمي
١٨١٤	حملة الأشانتي ضد الفانتي
١٨١٧	موقعة نجالا
	محمد بلُ يصبح أمير المؤمنين
١٨١٨	القولاني في ماسنة يصبحون مستقلين
١٨٢١	بعثة باوديتش إلى كوماسي
١٨٣٣	إلغاء بريطانيا لتجارة الرقيق
١٨٤٠	الفرنسيون يبنون قلعة في وايداح
	موقعة قوصيري
١٨٤٦	عودة عمر إلى فوتا
١٨٦١	إعلان الحماية البريطانية على لاجوس
١٨٦٤	انتصار القولاني وموت عمر
١٨٧٨	توقيع معاهدة بين فرنسا وداهومي
١٨٩٢	داهومي تصبح محمية بريطانية
١٨٩٥	الفرنسيون يلحقون الهزيمة بالشيخ أحمدو
١٨٩٦	غزو رابح لبرنو
١٩٠٠	غزو الفرنسيين لمملكة رابح
١٩٠١	غزو بريطانيا لأشانتي

القبائل الهامة ومواطنها

القبيلة	الموطن
١ - الأشانتي	منطقة الأشانتي في غانة
٢ - البمبرة	مقاطعتا سيجو ويمكو في مالي
٣ - البرنو	المنطقة الغربية من نيجيريا
٤ - الفولاني	على نطاق غرب إفريقية
٥ - الهوسا	في نيجيريا الشمالية والنيجر
٦ - الكانوري	في برنو
٧ - المندنغو	في مالي
٨ - السنغي	في السنغي
٩ - اليوربا	المنطقة الغربية من نيجيريا

مصادر البحث والتحقيق التي رجع إليها المترجم

المصادر العربية

* إبراهيم على طرخان

- ١ - إمبراطورية غانة الإسلامية ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، ١٩٧٠ .
- ٢ - دولة مالى الإسلامية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٣ .
- ٣ - إمبراطورية البرنو الإسلامية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٥ .

* ابن بطوطة

- ٤ - تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ، شرحه وكتبه هوامشه طلال حرب ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٩٩٢ .

* ابن حوقل

- ٥ - كتاب صورة الأرض ، دار الكتاب الإسلامى ، القاهرة .

* ابن خلدون

- ٦ - العبر ، ويوان المبتدأ والخبر ، فى أيام العرب والعجم والبربر ، ومن عاصرهم من نوى السلطان الأكبر ، طبعة بولاق ، سبعة مجلدات .
- ٧ - العبر ، دار الكتاب اللبنانى ، مكتبة المدرسة ، بيروت ١٩٨٤ ، سبعة مجلدات فى أربعة عشر جزءا .
- ٨ - مقدمة ابن خلدون ، طبعة دار الشعب ، معتمدة على الطبعة التى أصدرتها «لجنة البيان العربى» بتحقيق الدكتور على عبد الواحد وافى .

*** ابن سعيد**

٩ - كتاب الجغرافيا ، منشورات المكتب التجارى للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، سلسلة «نخائر التراث العربى» ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٠ .

١٠ - قطعة عن «منطقة بحيرة تشاد» نشرت بالمجلد السادس عشر من دورية حوليات إسلامية التى يصدرها المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة ، الصفحات ١٦١ إلى ١٦٥ .

*** ابن فرحون**

١١ - الديباج المذهب فى معرفة أعيان علماء المذهب ، دار عباس بن شقرون ، القاهرة ، ١٣٥١ هـ .

*** أبو حامد الغرناطى**

١٢ - تحفة الألباب ، نشر فى عدد يولية - سبتمبر ١٩٢٥ من مجلة Journal Asiatique.

*** أحمد بابا**

١٣ - نيل الابتهاج بتطريز الديباج ، على هامش الديباج المذهب لابن فرحون .

*** أحمد شلبى**

١٤ - موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية ، المجلد السادس ، مكتبة النهضة المصرية ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٢ .

*** أحمد فؤاد بلبع**

١٥ - عبد الرحمن السعدى ، عصره وكتابه تاريخ السودان ، دراسة فى ٥٨ صفحة نشرت بالمجلد العشرين من «المجلة المصرية للدراسات التاريخية» ، ١٩٧٣ .

١٦ - أفريقيا والإسلام ، سلسلة «أفريقيا اليوم» ، لجنة الشؤون الأفريقية
بالاتحاد الاشتراكي العربي .

*** الإيدريسى**

١٧ - نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ، فى مجلدين ، مكتبة الثقافة الدينية ،
القاهرة .

*** آدم عبد الله الألورى**

١٨ - الإسلام فى نيجيريا وعثمان بن قويدى ، دار عبد الحميد أحمد حنفى ،
القاهرة ، ١٣٧٠ هـ .

*** پانيكار ، ك . مدهو**

١٩ - الثورة فى إفريقيا ، ترجمة روفائيل جرجس ، مراجعة محمد محمود
الصياد ، سلسلة الفكر السياسى والاشتراكى ، المؤسسة المصرية العامة
للتأليف والترجمة ، ١٩٦٤ .

*** البكرى**

٢٠ - المغرب فى نكر بلاد إفريقيا والمغرب ، دار الكتاب الإسلامى بالقاهرة ،
مع مقدمة بالفرنسية بقلم دى سلين .

*** بوقل**

٢١ - الممالك الإسلامية فى غرب أفريقيا وأثرها فى تجارة الذهب عبر
الصحراء الكبرى ، ترجمة لكتاب بوقل Golden Trade of the Moors قام بها
دكتور زاهر رياض ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٨ .

٢٢ - تجارة الذهب وسكان المغرب ، ترجمة أخرى لنفس الكتاب قام بها
دكتور الهادي أبو لقمة ودكتور محمد عزيز ، منشورات جامعة قاريونس ،
بنغازي ، ليبيا ، ١٩٨٨ .

*** البيروني**

٢٣ - تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرثولة ، طبعة مجلس
دائرة المعارف العثمانية ، حيدر آباد ، الهند ، ١٩٥٨ .

*** حسن أحمد محمود**

٢٤ - الإسلام والثقافة العربية في إفريقية ، الجزء الأول ، دار النهضة
العربية ، ١٩٦٣ .

*** حسن عيسى عبد الظاهر**

٢٥ - الدعوة الإسلامية في غرب إفريقية وقيام دولة الفولاني ، الزهراء
للإعلام العربي ، ١٩٩١ .

*** حسين مؤنس**

٢٦ - أطلس تاريخ الإسلام ، الزهراء للإعلام العربي ، ١٩٨٧ .

*** جلال يحيى**

٢٧ - المغرب العربي الحديث والمعاصر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ،
فرع الإسكندرية ، ١٩٨٣ .

*** الخوارزمي**

٢٨ - صورة الأرض ، تحقيق هانس فون ميزيك ، مطبعة أولاف هولزهوزن ،
قربينا ، ١٩٢٦ .

*** دافيدسون ، بازل**

٢٩ - أفريقيا تكتشف من جديد ، ترجمة نبيل بدر وسعد زغلول ، مراجعة محمود شوقي الكيال ، الدار القومية للطباعة والنشر ، سلسلة «من الشرق والغرب» ، العدد ٣٩ .

*** ديشان ، هوبير**

٣٠ - الديانات في أفريقيا السوداء ، ترجمة أحمد صادق حمدي ، مراجعة محمد عبد الله دراز ، الألف كتاب الأول ، العدد ٥٢ ، دار الكتاب المصري ، ١٩٥٦ .

*** زاهر رياض**

٣١ - تاريخ غانة الحبيث ، دار المعرفة ، ١٩٦١ .

٣٢ - كشف أفريقيا ، إشراف وتقديم ، معهد الدراسات الأفريقية ، دار المعرفة ، ١٩٦١ .

*** سليجمان ، س . ج .**

٣٣ - السلالات البشرية في أفريقية ، ترجمة يوسف خليل ، مراجعة محمد محمود الصياد ، مكتبة العالم العربي ، ١٩٥٩ .

*** السيد عبد العزيز سالم**

٣٤ - المغرب الكبير ، العصر الإسلامي ، الدار القومية للطباعة والنشر ، ١٩٦٦ .

*** سيدنكو ، فيكتور**

٣٥ - الاستعمار البرتغالي في أفريقيا ، سلسلة قضايا سياسية ، وكالة نوفوستي للأخبار .

*** شفيق مقار**

٣٦ - قراءة سياسية للتوراة ، رياض الرئيس للكتب والنشر ، لندن ، ١٩٨٧ .

*** شوقى عطا الله الجمل**

٣٧ - المغرب العربى الكبير فى العصر الحديث ، مكتبة الأنجلو المصرية ،
١٩٧٧ .

*** صلاح الدين المنجد**

٣٨ - مملكة مالى عند الجغرافيين المسلمين ، بيروت ، دار الكتاب العربى ،
١٩٦٣ . وهو اقتباسات تتعلق بدولة مالى الإسلامية وردت فى مصادر عربية
قديمة متنوعة ، من أهمها «مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار» .

*** صلاح العقاد**

٣٩ - المغرب العربى ، الجزائر - تونس ، المغرب الأقصى ، مكتبة الأنجلو
المصرية ، ١٩٦٢ .

*** عبد الرحمن زكى**

٤٠ - المسلمون فى العالم اليوم ، أفريقية الإسلامية (١) ، مكتبة النهضة
المصرية ، ١٩٥٨ .

٤١ - المسلمون فى العالم اليوم ، أفريقية الإسلامية (٢) ، مكتبة النهضة
المصرية ، ١٩٥٨ .

٤٢ - الإسلام والمسلمون فى غرب أفريقيا ، مجموعة محاضرات أُلقيت فى
معهد الدراسات الإسلامية ، مطبعة يوسف .

٤٣ - الإسلام والمسلمون فى أفريقيا ، مجموعة محاضرات أُلقيت فى معهد
الدراسات الإسلامية ، القاهرة ، ١٩٧٠ .

٤٤ - تاريخ الدول الإسلامية السودانية بآفريقيا الغربية ، الألف كتاب الأول ، رقم ٣٨٤ ، المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع ، القاهرة ، ١٩٦١ .

*** عبد الرحمن السعدى**

٤٥ - تاريخ السودان ، وقف على طبعه وترجمته إلى الفرنسية السيد هودا بمشاركة تلميذه بنوا ، مكتبة أمريكا والشرق ، باريس ، ١٩٦٤ .

*** عبد اللطيف حمزة**

٤٦ - القلقشندى فى كتابه صبح الأعشى ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، سلسلة «أعلام العرب» ، ١٢ ، ١٩٦٢ .

*** عبد الله بن محمد الفودى**

٤٧ - تزيين الورقات ، قسم النشر بجامعة إبادان ، نيجيريا ، ١٩٦٣ ، مع ترجمة إنجليزية ومقدمة قام بهما م. هيسكيت .

*** عبد الله عبد الرازق إبراهيم**

٤٨ - المسلمون والاستعمار الأوروبى لأفريقية ، سلسلة «عالم المعرفة» ، الكويت ، العدد ١٣٩ ، ١٩٨٩ .

٤٩ - الإسلام والحضارة الإسلامية فى نيجيريا ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٨٤ .

*** على أحمد الشحات**

٥٠ - أبو الريحان البيرونى ، دار المعارف بمصر ١٩٦٨ .

*** على حسن الخربوطلى**

٥١ - المسعودى ، دار المعارف بمصر ، سلسلة «نواى الفكر العربى» ، ٣٨ ، ١٩٦٨ .

*** العمرى ، ابن فضل الله**

٥٢ - التعريف بالمصطلح الشريف ، طبع بمطبعة العاصمة ، بحوش الشرقاوى بالقاهرة ، ١٣١٢ هـ .

*** القلقشندى**

٥٣ - صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٥ ، أربعة عشر جزءا أضيف إليها جزءان من تصنيف وإعداد محمد قنديل البقلى ، أولهما يتضمن فهارس للكتاب ، وثانيهما يتضمن مصطلحات .

*** كراتشكوفسكى ، أ . س . ن .**

٥٤ - تاريخ الأدب الجغرافى العربى ، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم ، مراجعة إيغور بلياييف ، الإدارة الثقافية ، جامعة الدول العربية ، ١٩٦١ .

*** كرفجال ، مارمول**

٥٥ - إفريقيا ، ثلاثة مجلدات ، مترجم عن النص الفرنسى ، المترجم بدوره عن الأصل الأسبانى ، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر ، ١٩٨٤ .

*** ليون الإفريقى**

٥٦ - وصف إفريقيا ، ترجمه عن الفرنسية محمد حجى ومحمد الأخضر ، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر ، الطبعة الثانية ، دار الغرب الإسلامى ، بيروت ، ١٩٨٣ .

٥٧ - وصف إفريقيا ، ترجمه عن الفرنسية عبد الرحمن حميدة ، وراجعه على عبد الواحد ، قامت بنشره جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، كلية العلوم الاجتماعية ، بمناسبة انعقاد المؤتمر الجغرافى الإسلامى الأول بمدينة الرياض ، فى الفترة ٢/٢١ إلى ١٣٩٩/٢/٢٨ هـ .

*** محمد بلّو بن عثمان بن قودي**

٥٨ - إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور ، إدارة الوثائق والمكتبات
بوزارة الأوقاف ، القاهرة ، ١٩٦٤ .

*** محمد الحافظ التيجاني**

٥٩ - الحاج عمر القوتى سلطان الدولة التيجانية ، الزاوية التيجانية بمصر ،
١٣٨٢ هـ .

*** محمد سعيد المشاط**

٦٠ - التوارق ، عرب الصحراء الكبرى ، مركز دراسات وأبحاث شئون
الصحراء ، طرابلس ، ليبيا ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٩ ، وهو رسالة حصل بها
محمد سعيد المشاط على درجة الدكتوراة من جامعة بودابست .

*** محمد عبد الغنى سعودي**

٦١ - قضايا أفريقية ، سلسلة عالم المعرفة ، الكويت ، العدد ٣٤ ، ١٩٨٠ .

*** محمد عبد الفتاح إبراهيم**

٦٢ - حديث في الطوايع الثقافية الإفريقية ، مكتبة الأنجلو المصرية ،
١٩٦٥ .

*** محمد عوض محمد**

٦٣ - الشعوب والسلالات الإفريقية ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ،
١٩٦٥ .

*** محمد الغربى**

٦٤ - بداية الحكم المغربى فى السودان الغربى ، رسالة دكتوراة تحت
إشراف د. نقولا زيادة ، مؤسسة الخليج للطباعة والنشر ، الكويت .

*** محمود كعت**

٦٥ - تاريخ الفتاش فى أخبار البلدان والجيش وأكابر الناس ، قام بتحقيقه وترجمته إلى الفرنسية السيد هودا بالاشتراك مع السيد ديلافوس ، مكتبة أمريكا والشرق ، باريس ، ١٩٦٤ .

*** محمود محمد الوقاد**

٦٦ - انتشار الإسلام فى غانة ، رسالة تحت إشراف د. زاهر رياض ، ١٩٦٨ .

*** المسعودى**

٦٧ - مروج الذهب ومعادن الجوهر ، أربعة أجزاء ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، المكتبة العصرية للطباعة والنشر والتوزيع ، صيدا - بيروت ، ١٩٨٧ .

*** مصطفى على بسيونى أبو شعيشع**

٦٨ - برنوفى عهد الأسرة الكانمية ، دار العلوم للطباعة والنشر ، ١٩٨٤ .

*** المقرئزى**

٦٩ - كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ، الجزء الأول ، تحقيق جمال الدين الشيال ، دار الكتب المصرية ، ١٩٣٤ ؛ الجزء الثانى ، تحقيق محمد مصطفى زيادة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٤١ .

٧٠ - اتعاظ الحنفا بأخبار الخلفاء ، مطبعة دار الأيام ، سوريا ، ١٩٠٩ .

٧١ - قطعة تحت عنوان «الخبر عن أجناس السودان» ، منشورة بالصفحات ١٩١ إلى ١٩٥ من المجلد الخامس عشر من الدورية التى يصدرها المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية ، حوايات إسلامية .

٧٢ - الذهب المسبوك فى نكر من حج من الخلفاء والملوك ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال ، مكتبة الخانجي بمصر ومكتبة المثنى ببغداد ، ١٩٥٥ .

*** نقولا زيادة**

٧٣ - إفريقياات ، دراسات فى المغرب العربى والسودان الغربى ، رياض الرئيس للكتب والنشر ، لندن ، ١٩٩١ .

*** هيرودوت**

٧٤ - تاريخ هيرودوتس الشهير ، ترجمه عن الفرنسية حبيب بسترى ، مطبعة القديس جاورجيوس ، بيروت ، ١٨٨٧ .

*** وايدنر ، دونالد ل .**

٧٥ - تاريخ أفريقيا جنوب الصحراء ، الجزء الأول ، ترجمة شوقي الجمل وعلى أحمد فخرى مع مقدمة بقلم عبد الملك عودة ، مؤسسة سجل العرب ، ١٩٦٧ .

*** ووديس ، چاك**

٧٦ - جنود الثورة الأفريقية ، ترجمة وتعليق أحمد فؤاد بلبع ، ومراجعة عبد الملك عودة ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، ١٩٧١ .

*** ياقوت الحموى**

٧٧ - معجم البلدان ، سبعة أجزاء ، الجزءان الأخيران منها للفهارس ، تحقيق فريد عبد العزيز الجندى ، الطبعة الأولى ، دار الكتب العلمية ، بيروت - لبنان .

*** يسرى عبد الرازق الجوهري**

٧٨ - الكشف الجغرافى ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٥ .

*** اليقوبى**

- ٧٩ - تاريخ اليقوبى ، مجلدان ، دار صادر - بيروت .
٨٠ - كتاب البلدان ، السلسلة الجغرافية ٦ ، دار إحياء التراث العربى ،
١٩٨٨ .

*** اليونسكو**

- ٨١ - الطبعتان العربية والإنجليزية للمجلدات الأربعة الأولى من تاريخ
إفريقيا العام .

*** طائفة من أساتذة الجامعات البريطانية**

- ٨٢ - فجر التاريخ الأفريقى ، ترجمة عبد الواحد الإمبابى ، مراجعة محمد
عبد العزيز إسحاق ، الدار القومية للطباعة والنشر ، سلسلة «كتب ثقافية» ،
العدد ١٧٥ .

- ٨٣ - الموسوعة العربية الميسرة ، دار القلم ومؤسسة فرانكلين للطباعة
والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٥ .

- ٨٤ - دائرة المعارف الإسلامية ، الطبعة العربية حتى حرف «الحاء» ،
إعداد وتقديم إبراهيم زكى خورشيد ، أحمد الشناوى وعبد الحميد يونس ، دار
الشعب ، القاهرة .

المصادر الأجنبية

- 1 - ANTUBAM, kofi, *Ghana's Heritage of Culture*, koehler &
Amelang. Leipzig, 1963.
2 - ARKELL, A. J., *Early Khartoum. An Account of the
Excavations of on Early Occupation Site Carried out by the Sudan
Government Antiquities Service 1944 - 1945*, London, 1949.
3 - BAKER, I. N. L., *History of Geographical Discovery and
Exploration*, London, 1949.

4 - BARTH, Heinrich, *Travels and Discoveries in North and Central Africa, (1857 - 58)*, London, Frank Class & Co. Ltd., 3 vols., 1965.

المجلدان الأول والثالث موجودان بالمكتبة المركزية لجامعة القاهرة ، المجلد الثاني مفقود .

5 - BAULIN, Jacques, *The Arab Role in Africa*, Penguin African Library, 1962.

6 - BOVILLE. W., *The Golden Trade of the Moors*, Oxford University Press, London, 1958.

7 - CLAPPERTON, Hugh (1788 - 1827), OUDNEY and DENHAM, *Narrative of Travels and Discoveries in Northern and Central Africa in the Years 1822 - 1824*, London 1826.

8 - CLARKE, Peter B., *West Africa and Islam*, London, 1982.

9 - DAVIDSON, Basil, *The Africa Past, Chronicles From Antiquity to Modern Times*, Penguin African Library, 1966.

10 - DIOP, Cheik Anta, *The African Orignin of Civilization, Myth or Reality*, Edited and Translated by Mercer Cook, Lawrence Hill & Co. 1974.

11 - MEYEROWITZ, Eva. L. R., *At the Court of an African King*

توجد له ترجمة عربية قام بها الدكتور زاهر رياض ، ضمن سلسلة الألف كتاب الأول ، تحت عنوان
فى بلاط ملك أفريقى .

12 - **PALMER**, Richmond, *The Bornu Sahara and Sudan*, John Murray, LONDON, 1936.

13 - **PALMER**, R., *Sudanese Memoirs*, Three volumes in one, Krank Class & Co. Ltd.

14 - **PARK**, Mungo, *Travels in the Interior of Africa*, London, 1799.

15 - **PARRINDER**, Goffrey, *Religion in Africa*, Penguin African Library, 1969.

16 - **POST**, KEN, *The New States of West Africa*, Penguin African Library, 1964.

17 - **SIK**, Endre, *The History of Black Africa*, 2 vols., Akadémiai Kiado, Budapest 1966.

18 - **TRIMININGHAM**, J. Spencer, *A History of Islam in West Africa*, Glasgow University Publications, London, 1962.

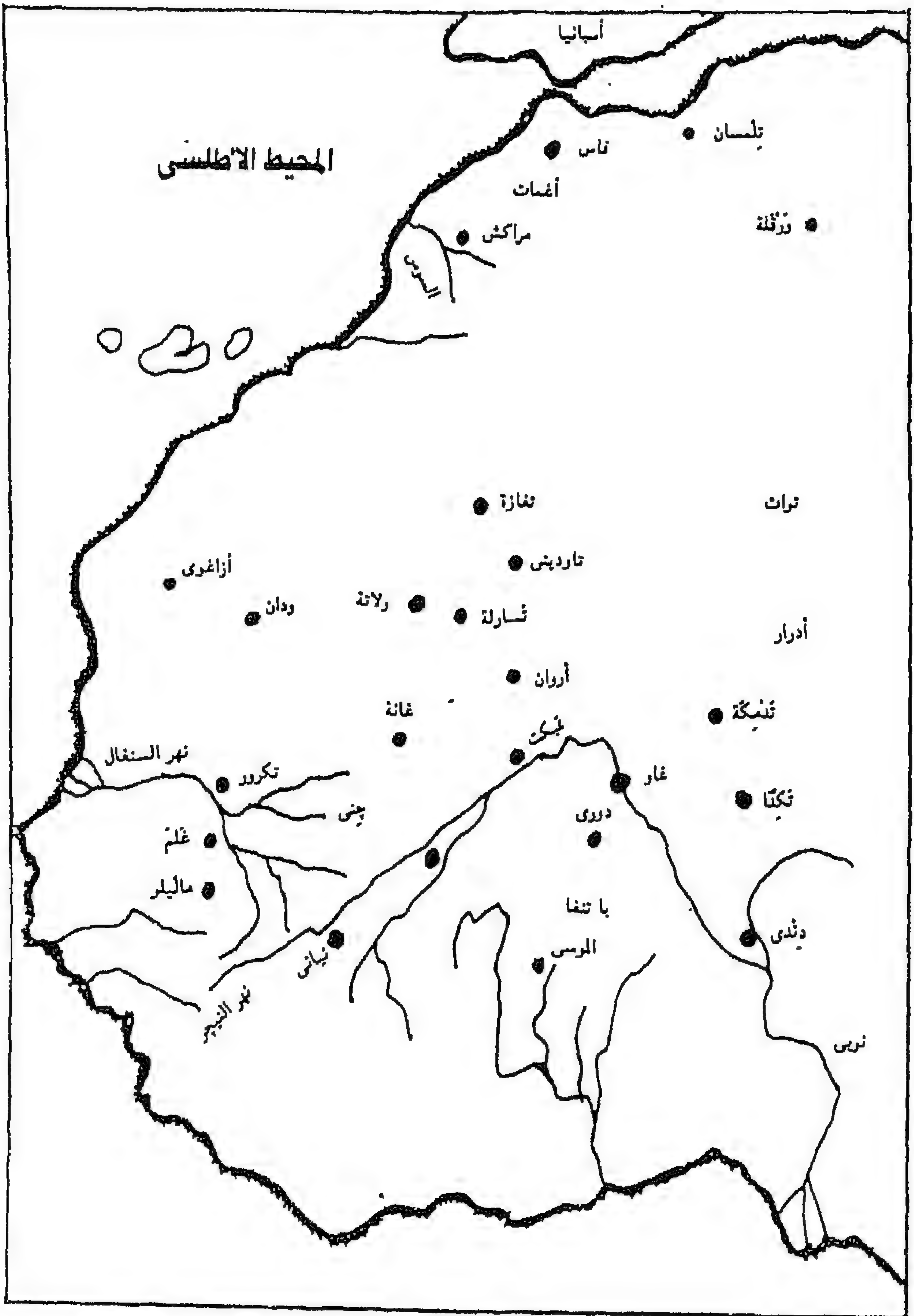
19 - **WESTERMANN**, Dietrich, *Handbook of African Languages*, Part II., *Languages of West Africa*, Oxford University Press, 1952.

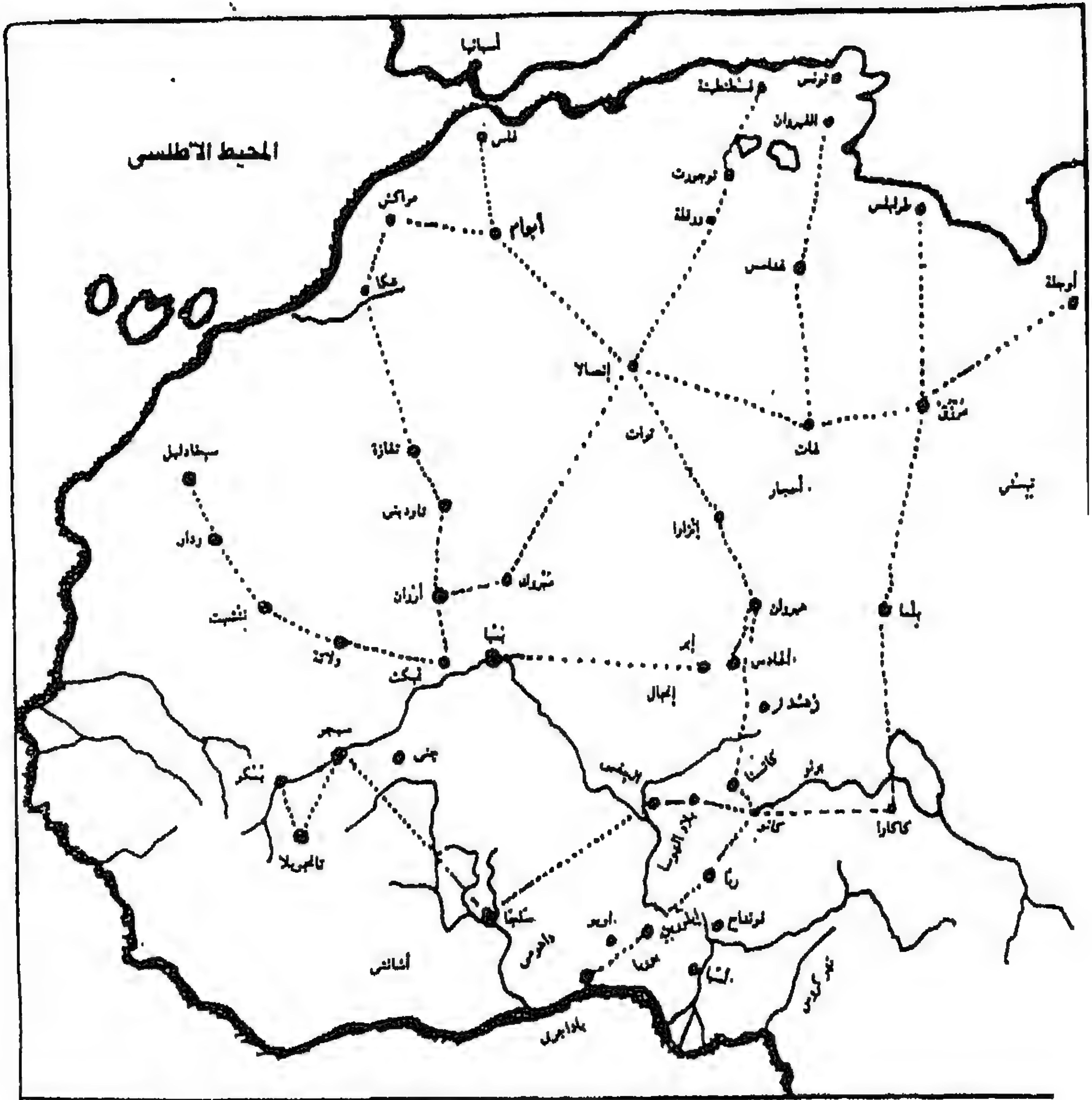
20 - **TEDZKIRET EN-NISIAN FI AKHBAR MOLOUK ES-SOUDAN**

ترجمة فرنسية لكتاب تذكرة النسيان في أخبار ملوك السودان ، قام بها أ. هودا ، الأستاذ بمدرسة اللغات الشرقية الحية ببارس ، في عام ١٩٠١ .

21 - **ENCYCLOPAEDIA BRITANNICA**, 1958 Edition.

شمال غرب إفريقية





طرق التجارة - غرب إفريقية

محمود كعت وكتابه « تاريخ الفتاش »(*)

(إعداد المترجم)

محمود كعت مؤرخ نولة السنغى الكبرى : ٨٧٣ - ١٠٠٢ هـ (١٤٦٨ - ١٩٥٣م) . ونأخذ فى تاريخ وفاته برواية السعدى فى تاريخ السودان «وفى ليلة الاثنين أول ليلة من المحرم الحرام الفاتح للعام الثانى بعد ألف قرب طلوع الفجر توفى العلامة الفقيه القاضى محمود كعة بن المتوكل على الله فى أركيا وحمل إلى تنبكت وصلى عليه بعد صلاة العشاء الآخرة من ليلة الثلاثاء ودفن ساعتئذ بمجاورة قبر الفقيه أحمد بن الحاج أحمد ..» تاريخ السودان ، الصفحة ٢١١ . (الفقيه أحمد بن الحاج أحمد الوارد اسمه فى عبارة السعدى هو والد العلامة الذائع الصيت أحمد بابا) . وبذلك يكون محمود كعت قد عاش قرابة مائة وتسعة وعشرين عاما هجرية ، أى حوالى مائة وخمسة وعشرين عاما ميلادية .

شغل منصب القضاء ، ونظراً لشهرته بالفقه وسعة العلم فقد سمي بالألفا (الفع) ، وهى كلمة استخدمها أهل تمبكت اختصاراً لكلمة «الفقيه» . كذلك كان يسمى أحياناً سيدى محمود كعت أو القاضى محمود كعت . كان صديقاً شخصياً للأسكيا الحاج محمد ، سلطان نولة السنغى ، فصحبه فى تأدية فريضة الحج ، وكان موضع ثقته وصاحب كلمة مسموعة لديه ولدى خلفائه ، عاش طويلاً حتى أنه عاصر الغزو المراكشى .

(*) ملحوظة : هذه النبذة عن محمود كعت ، وكتابه تاريخ الفتاش ، والنبذة التى تليها عن عبد الرحمن

السعدى ، وكتابه تاريخ السودان ، مأخوذتان ، فى الجانب الأكبر منهما ، عن مقدمة الترجمة الفرنسية لكل منهما .

ونتوقف قليلا عند إسم محمود كعت كما ورد في صدر كتابه «محمود كعت الكرمنى دارا التنبكتى مسكنا الوعكرى أصلا» . وكلمة كعت تنطق عند أهل المنطقة «كاتى» ، فهم يكتبون حرف العين للدلالة على المد ، وتطبيقا على ذلك يكتبون كلمة «ألفا» فى صيغة «ألفع» ، وكلمة «واكورى» فى صيغة «وعكرى» ، وعلى الرغم من أنى أخذت بقاعدة كتابة أسماء الأعلام حسب ما تنطق وليس حسب طريقة كتابتهم لها ، فقد فضلت الاحتفاظ بكلمة «كعت» على حالها ، فهكذا تكتب فى الدراسات الإفريقية . أما عبارة «الكرمنى دارا» فتعنى أن عائلته كانت تقطن كرمين أحد أقاليم تندرمة حيث مازال يعيش بعض أحفاد هذه العائلة . وتعنى عبارة «التنبكتى مسكنا» أن مدينة تمبكت كانت موطننا له ، ولا يخفى أن الميم الساكنة السابقة على حرف الباء كثيرا ما تكتب «ن» . وأخيراً عبارة «الوعكرى أصلا» وهى تعنى أنه من أصل واكورى ، أى سوننكى أو سركلى .

وقد بدأ محمود كعت كتابة مؤلفه وهو فى الخمسين من عمره ، وعلى الرغم من أنه عمرٌ طويلا فإنه لم يكتب كل الأحداث التى وردت به . فهذه الأحداث تنتهى عند ١٠٠٨ هـ (١٦٠٠ م) ، أى بعد وفاته بست سنوات ، بل لقد أشير فى الكتاب إلى تواريخ تذهب إلى ١٠٧٦ هـ (١٦٦٥ م) . والأرجح أن يكون كل ما كتبه هو معظم الفصول الستة الأولى ، حسب التقسيم الوارد فى الترجمة الفرنسية ، إذ توجد حتى فى هذه الفصول أجزاء من سيرة سنّ على والأسكيا الحاج محمد يبدو أنها منقولة من مذكرات خلفها . والأمر المؤكد أنه لم ينفه مؤلفه ، إنما ترك مسودات ومذكرات ووثائق كثيرة لإتاحة الفرصة أمام آخرين لتكملته . وقد ترك أولاده ببورهم ، وكثيرون منهم شغلوا مناصب هامة ، بعض الأوراق والمذكرات . واستفاد من هذا كله ابن إحدى بناته مستعينا إلى جانب ذلك بالروايات التى سمعها من أخواله . وبذلك يكون تاريخ الفتاش ثمرة تعاون بين الجد وحفيده وثمره جهد الأبناء . ويبدو أن هذا الحفيد كان يتحلى بقدر هائل من إنكار الذات ، كما كان يُجلُّ جدّه وينزله منزلةً عاليةً ، فحرص على أن ينسب العمل بكامله إلى جدّه ، ومن ثم لم يذكر إسمه ، ولم يصل إلينا هذا الاسم ، كما لم يكن من المستطاع الاستدلال عليه . وكل ما نعرفه عن هذا الحفيد هو إسم

والده المختار قنبل ، كذلك نعرف من أسماء من استعان بأوراقهم ومذكراتهم من أخواله القاضي إسماعيل كعت والقاضي محمد الأمين كعت ويوسف كعت .

ويشتمل الكتاب على مُلْحَقين ، الأول والثاني ، أشار إليهما پانيكار وأخذ عنهما كثيرا ، وهما بالطبع ضمن ما أُضيف إلى الكتاب بعد وفاة محمود كعت . وقد خلا النص العربي مع الأسف الشديد من الملحق الثاني رغما عن أهميته الشديدة ، على حين انفردت به الترجمة الفرنسية ، وعلى الرغم من أنى بصورة عامة قد اقتصررت فى تحقيقى لما نقله پانيكار عن الكتاب على النص العربى ، فقد اضطررت فى حالات قليلة إلى أن أرد إلى العربية بعض إشارات نقلها پانيكار عن الملحق الثانى .

وعنوان الكتاب هو : «تاريخ الفتاش فى أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس» . وإذا علمنا أن أهل منطقة تمبكتُ لا ينطقون حرف «الشين» مثلما ننطقه ، وإنما ينطقونه «س» ، فإن عنوان الكتاب يمكن أن يكون على النحو التالى : تاريخ الفتاس ، فى أخبار البلدان والجيوس وأكابر الناس . وتلك صورة سجعية كان يفضلها فى ذلك الوقت من يكتبون بالعربية . ومع ذلك فقد فضلت كتابة الاسم على النحو التالى : «تاريخ الفتاش» فذلك هو الاسم الشائع الآن .

وقد قام بتحقيق الكتاب ونشره وترجمته إلى الفرنسية المستشرقان الفرنسيان ديلافوس وصهره هودا ، وتم العمل تحت إشراف معهد اللغات الشرقية الحية ببارس فى عام ١٩١٣ ، أى بعد نشر تاريخ السودان بخمسة عشر عاما ، وسبب ذلك أن العثور على مخطوطات تاريخ السودان سبق العثور على مخطوطات تاريخ الفتاش . وقد أعادت منظمة اليونسكو نشر النص العربى مع ترجمته الفرنسية فى مجلد واحد فى عام ١٩٦٤ .

عبد الرحمن السعدى وكتابه «تاريخ السودان» (إعداد المترجم)

عبد الرحمن بن عبد الله بن عمران بن عامر السعدى (ويقال السعيدى) :
١٠٠٤ هـ - ؟ (١٥٩٦ م - ؟) من إسمه يتضح أن ليس فى أجداده سوى أسماء عربية ،
ومع ذلك يتعذر القطع بأنه من أصل عربى خالص ، ففى ذلك العصر كان من
عادة المسلمين نوى الأصل البربرى أو غيره أن ينسبوا أنفسهم إلى أصل عربى
أو شريف ، ولذا كانوا يقفون فى سرد الأسلاف عند حد معين بحيث لا يحتوى
الاسم على أى اسم غير عربى . وإذا كانت كلمة السعدى صحيحة فإن ذلك
يرجع انتسابه إلى قبيلة بنى سعد الذين تنتمى إليهم مرضعة الرسول ، وانتماءه
بالتالى إلى الأمراء السعديين . وهو على أية حال ينتمى إلى عائلة محترمة فى
تمبكت ... وقد أخذنا فى تاريخ ميلاده بروايته هو نفسه : «وفى ليلة الأربعاء ليلة
القطر عند استهلال الشهر والناس مازال فى الزغاريت والتهاليل عليه والتباشير
به ولد جامع هذه الكراريس عبد الرحمن بن عمران بن عامر السعيدى ألهمه الله
رشده وأثبتته فى ديوان السعادة عنده وذلك فى العام الرابع بعد الألف» تاريخ
السودان ، الصفحة ٢١٣ .

اشتغل السعدى فى أول حياته بتحرير العقود فى چنى إلى جانب وظيفة
إمام جامع سنكُرى (حتى ١٠٣٦ هـ) ، ثم عزل وعاد إلى تمبكتُ حيث عين إماما
لهذه المدينة ، ولقب بالكاتب مكافأة له على خدماته ، إذ أخذ يشارك فى شؤون
بلادهم ويقوم بدور الوسيط لدى أمراء السودان المختلفين . وربما كان ذلك هو ما
حمله على التفكير فى كتابة التاريخ للربط بين الأحداث الجارية والماضية ، فخلف
لنا كتاب تاريخ السودان الذى يعد من المراجع الأساسية فى تاريخ هذه المنطقة ،

كما أنه من المصادر الرئيسية التي أخذ عنها پانيكار . والكتاب يقف في أول الأمر عند أحداث الخامس من ذى الحجة ١٠٦٣ (٢٨ نوفمبر ١٦٥٢) : «وهنا انتهت المجموعة بحمد الله وحسن عونه بتاريخ نهار الثلاثاء لخمس خلون من ذى الحجة الحرام العام الثالث والستين والألف ...» تاريخ السودان ، الصفحة ٣١٤ .

وبعد عام ونصف أضاف إليه فصلا يتضمن آخر ذكريات له بحيث وقفت أحداث الكتاب عند السادس عشر من جمادى الأولى ١٠٦٥ : «... وأخبر فيه أن السلطان مولاي محمد الشيخ توفى في الثاني والعشرين من الربيع النبوي عام خمسة وستين وألف ... وفي السادس عشر من جمادى الأولى ورد كتاب من عند القائد على بن عبد العزيز الفرجي ... تم وكمل بحمد الله تعالى وحسن عونه» ، الصفحتان ٣٢٢ و ٣٢٣ .

في ذلك التاريخ كان السعدي قد بلغ التاسعة والخمسين ، والأرجح أن لم يعيش طويلا بعد ذلك ، وإلا لأضاف جديدا إلى الكتاب . وهكذا فعلى الرغم من أنه بدأ كتابه بعد البدء في كتابة تاريخ الفتاش بوقت طويل ، فإن أحداث كتابه تنتهي قبل أحداث هذا الأخير بحوالى عشر سنوات .

وكتاب تاريخ السودان لا يتناول سوى تاريخ جزء من بلاد السودان ، هو إمبراطورية السنغى ، وبخاصة أحداث الغزو المراكشى ، إلى جانب بضع عبارات عن دولة مالى . وينصب اهتمامه الأكبر على تمبكت مسقط رأس المؤلف وعلى دورها المجيد في عالم الزنوج . وقد بدأ إعداد الكتاب وقت دخول تمبكت عصر الانحلال ، بعد أن عجز المراكشيون عن إدارتها وجعلها مركزاً للثروة لمراكش ، وبعد أن نشروا فيها أعمال القسوة والنهب .

ويتكون الكتاب من جزأين مختلفين في طبيعتهما : الأول ، ويحوى موجزا للمعلومات التي جمعها المؤلف من روايات شفوية ومكتوبة ينذر ذكر مصدرها ، لذلك تشوبها ثغرات وعيوب كثيرة وتفتقر إلى اليقين ، ولم يذكر السعدي فيما

يتعلق بتاريخ بلاده سوى معجم سيرة لأحمد بابا ، وكتاب إسمه الخبر ، ولم يذكر فيما يتعلق بتاريخ المغرب سوى كتاب «الحلل الموشية في نكر أخبار المراكشية» .
الثاني ، وله طابع المذكرات الشخصية ومصدر معلوماته شهود عيان ، بل المؤلف نفسه أحياناً بحكم صلاته المباشرة بأحداث بلاده . وهذا الجزء حى وذاخراً بالمعلومات . إذ أن الوظائف التى شغلها والمهام التى كان يكلف بها سمحت له بالدخول فى تفاصيل بالغة الدقة وذات فائدة فى تعريفنا بالبيئة التى عاش فيها .

وقد كتب السعدى تاريخه على نسق غالبية المؤرخين العرب من حيث عدم وجود خطة للكتابة ، وكتابة التاريخ سنة بسنة . كما كان يجهل فن الكتابة ، واستخدم لغة فيها كلمات غير واردة بالمعاجم لا تعبأ بقواعد النحو ، ومع ذلك خلت غالبية كتابته من الغموض . ويمكن إرجاع بعض عيوب الكتاب إلى العادة التى جرى عليها الناسخون من حرصهم على جمال الخط أكثر من حرصهم على دقة النقل .

وفى الجزء الثانى يتضح رأى المؤلف فيما كان يجرى أمامه من أحداث ، كما نتبين منه اتجاهه وتفكيره . والكتاب رغم عيوبه يتيح الإلمام بفكرة عن التنظيم الحربى والإدارى للمنطقة فى القرنين السادس عشر والسابع عشر ، كما يلقي ضوءاً على نمط من النظام الإقطاعى لم يكن لأمرأى الأقاليم فيه من هدف سوى هدم وحدة الحكومة وتشجيع الغزاة الخارجيين . ويفيد ما ذكره الكتاب عن المراكشيين فى تقويم ما كتبه المراكشيون أنفسهم عن تاريخ بلادهم . والكتاب حافل بنبذ عن سير العلماء ولكنها لاتهدينا بدقة إلى أفكار ومشاعر الفئة المستنيرة من السكان . كما يزخر بأحداث بالغة الأهمية تبين أن هؤلاء الذين يُنكر عليهم الكثيرون أية مبادرة فى مجال التقدم إنما كانت لهم حضارة خاصة بهم لم يفرضها عليهم شعب آخر .

وقد كان أ. روسو هو أول من أشار إلى وجود الكتاب ، وإن كان الرحالة الألمانى بارث هو أول من عرّف أوروبا به ، فقد استقى منه معلومات كثيرة استخدمها فى سرد رحلته ، ولكن أهالى تمبكت خدعوه فنسب الكتاب خطأ إلى

أحمد بابا ، ومرجع الخطأ أن تراث السودان بأسره متجسد في أحمد بابا ، لذلك ينسب إليه كل كتاب قيم . وتولى تحقيق النص العربى ونشره وإعداد ترجمته الفرنسية المستشرق الفرنسى هودا (بمساعدة مسيو بنوا) تحت رعاية مدرسة اللغات الشرقية الحية ببارس ، وكما حدث بالنسبة لتاريخ الفتاش أعادت منظمة اليونسكو فى عام ١٩٦٤ نشر النص العربى وترجمته الفرنسية فى مجلد واحد .

مختصر الكتاب

رقم الصفحة

٧	تصنيف
<h3>الجزء الأول</h3>	
<h4>الفصل الأول</h4>	
١٥	مقدمة
١٥	أولا
١٧	ثانيا
٢٣	ثالثا
٢٩	رابعا
٣٢	خامسا
٥٥	سادسا
٦٤	سابعاً
<h4>الفصل الثاني</h4>	
٧١	غانة
<h4>الفصل الثالث</h4>	
٨٧	مالي وتوطيد أركان الدولة الإسلامية
<h4>الفصل الرابع</h4>	
١١٩	غلو وسيادة السنغى
<h4>الفصل الخامس</h4>	
١٥١	الغزو المراكشى
<h4>الفصل السادس</h4>	
١٧٧	إمبراطورية البرنو - كانم وممالك الهوسا
١٩٧	بلاد الهوسا

الفصل السابع

٢١١ الأوروبيون في غرب إفريقية
٢١١ أولا
٢١٥ ثانيا
٢١٧ ثالثا
٢٢١ رابعا
٢٢٥ خامسا
٢٢٩ سادسا

الفصل الثامن

٢٣٩ أويو وظهور الدول الساحلية على المحيط الأطلسي
٢٤٥ بنين
٢٥٠ أشانتي
٢٥٧ داهومي

الفصل التاسع

٢٦٩ غرب إفريقية في القرن التاسع عشر
٢٦٩ ازدهار الإسلام
٢٦٩ أولا
٢٧٤ ثانيا
٢٧٧ ثالثا
٢٨٠ رابعا
٢٨٩ خامسا
٢٩٧ سادسا
٣٠٨ سابعا
٣١٩ ثامنا

رقم الصفحة

٣٢٩	تاسعا
٣٤٠	عاشرا
		الفصل العاشر
٣٤٥	غرب إفريقية في القرن التاسع عشر
٣٤٥	الدول الساحلية
٣٤٨	داهومي
٣٥٧	أشانتى

الجزء الثاني

الفصل الحادى عشر

٣٧٣	الاقتصاد
٣٧٣	أولا
٤٠٥	ثانيا
٤٠٩	ثالثا
٤١٥	رابعا

الفصل الثانى عشر

٤٢٥	الإدارة
٤٢٥	أولا
٤٤٢	ثانيا

الفصل الثالث عشر

٤٦٣	المجتمع والحضارة في غرب إفريقية
٤٦٣	أولا
٤٦٤	ثانيا
٤٦٦	ثالثا
٤٧٠	رابعا

٤٧٢ خامسا
٤٨٣ سادسا
٤٨٣ سابعا
٤٨٦ ثامنا
٤٨٧ تاسعا
٤٨٧ عاشرا
	الفصل الرابع عشر
٤٩٣ الإسلام في السودان
٤٩٣ أولا
٤٩٨ ثانيا
٥٠٠ ثالثا
٥٠٢ رابعا
٥٠٩ خامسا
٥١٢ سادسا
٥١٦ سابعا
٥١٩ قوائم الأسر الحاكمة
٥١٩ أسرة كيتا الحاكمة في مالي
٥٢٠ أسرة الأساكي الحاكمة في غلو
٥٢٠ الأسرة السيفية الحاكمة في كانم - بونو
٥٢٤ القولاتي في سكتو
٥٢٥ تواريخ الأحداث
٥٢٩ القبائل الهامة ومواطنها
٥٣١ مصادر البحث والتحقيق
٥٣١ المصادر العربية
٥٤٢ المصادر الأجنبية
٥٤٥ خرائط
٥٤٧ محمود كعت وكتابه تاريخ الفتاش
٥٥٠ عبد الرحمن السعدى وكتابه تاريخ السودان

المشروع القومى للترجمة

أ. د. أحمد درويش	جون كوين	اللغة العليا
أ. أحمد فؤاد بليغ	مادهو باننيكار جى. ام	الوثنية والإسلام
ت : شوقى جلال	جورج/ جيمس	التراث المسروق
ت : أحمد الحضرى	اتى كاريتنكوفا	كيف تتم كتابة السيناريو
ت : د. محمد علاء الدين منصور	إسماعيل فصيح	ثريا فى غيبوبة
ت : د. سعد مصلوح/ د. وفاء كامل فايد	ميلكا إفيتش	اتجاهات البحث اللسانى
ت : يوسف الانطاكى	لوسيان غولدمان	العلوم الإنسانية والفلسفة
ت : د. مصطفى ماهر	ماكس فريش	مشعلوا الحرائق
ت : د. محمود محمد عاشور	أندروس. جودى	التغيرات البيئية
ت : محمد معتصم وآخرون	جيرار جينيت	خطاب الحكاية
ت : د. محمد هناء عبدالفتاح	فيسواقا شمبيوريسكا	مختارات
ت : أحمد محمود	ليفيد برانستون وايرين فرانك	طريق الحرير
ت : عبد الوهاب علوب	روبرتسون سميث	ديانة الساميين
ت : حسن المودن	جان بيلمان نوبل	التحليل النفسى والأدب
ت : أشرف رفيق عفيفى	انوارد لويس سميث	حركات الفن المعاصر
ت : د. لطفى عبد الوهاب يحيى/ د. فاروق القاضى/ د. حسين الشيخ/ د. منيرة كروان / د. عبد الوهاب علوب	مارتن برنال	أثينة السوداء
ت : محمد جمال عبد الرحيم		واحة بسيوة وموسيقاها
ت : سيد توفيق	هانز جورج جادامر	تجلى الجميل
ت : د. إبراهيم السوقى شتا	جلال الدين الرومى	المتنوى
ت : د. بكر عباس	باتريك بارندر	ظلال المستقبل
		مصادر دراسة التاريخ الإسلامى

المشروع القومى للترجمة (نحت الطبع)

مختارات	فيليب لاركين	ت : د. محمد مصطفى بدوى
الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية	مختارات	ت : د. طلعت شاهين
الأعمال الكاملة	حورج سفيريس	ت : د. نعيم عطية
قصة العلم	ج. ج. كرواثر	ت : د. يمنى طريف الخولى / د. بدوى عبد الفتاح
خوخة وألف خوخة	صمد بهرنكى	ت : د. ماجدة محمد على
مذكرات رحالة	جون أنتيس	ت : سيد أحمد على الناصرى
دين مصر العام	محمد حسين هيكل	ت : أحمد محمد حسين هيكل
اللهب المزدوج	اكتافيو باث	ت : المهدي أخريف
التنوع البشرى الخلاق		ت : نخبة
ما بعد المركزية الأوربية	بيتر جران	ت : د. محمد عاطف أحمد السيد / إبراهيم فتحى سليمان / محمود ماجد
الانقراض	ديفيد روس	ت : د. مصطفى إبراهيم فهمى
النظريات الحديثة للسرد	والاس فاوتن	ت : د. حياة جاسم
قصيدة حب	بابلونيرودا	ت : د. محمود السيد
التراث المغدور	روبرت تونيا جون فاين	ت : أحمد محمود
الرواية العربية	روجر ألن	ت : د. حصة عبد الرحمن منيف

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ١٣٢٤٣ / ١٩٩٧